

أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم

ترجمة حقيقية لأكثر من ١٠٠ صحابي

جمع وترتيب

محمود المصري

(أبو عمار)

طبعة جديدة وبها إضافات

قدم له فضيلة الشيخ أبو إسحق الحويني

فضيلة الشيخ محمد حسان فضيلة الشيخ محمد عبد المقصود

فضيلة الشيخ زكي محمد أبو سريع فضيلة الدكتور سيد حسين العفاني

الصديق أبو بكر

درب الأتراك خلف جامع الأزهر القاهرة

٠٠٢٠٢ ٢٩٨٩٤٦٩-٠٠٢٠٢ ٢٣١٠٥٠٥-٥١٤٤٠٨٦/



الطبعة الثانية

١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م

مكتبة أبو بكر الصديق

٢٠ درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر - القاهرة

تليفاكس: ٠٠٢٠٢٥١٤٤٠٨٦ - محمول: ٠١٠١٢٢١٧٧٤

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية

٢٠٠٠/١٣٠٤٩

إهداء واعتراف لأصحاب الفضل

قال ﷺ: «مَن لم يشكر الناس لم يشكر الله»(١).

ومن هذا المنطلق فإننى أتوجه بالشكر لأصحاب الفضل الذين أُحبهم من أعماق قلبى.

• إلى أمى الحبيبة (رحمها الله):

لقد نزف قلبى بموتك يا حبيبتى فأسأل الله ـ جل وعلا ـ أن يرحمك رحمة واسعة، وأن يجعل كل أعمالى فى ميزان حسناتك، وأن يجمعنى بك فى جنته ومستقر رحمته.

• إلى أبى الحبيب (حفظه الله):

أسأل الله أن يحفظك وأن يبارك فيك وأن يعينك على طاعته وأن يرزقك حُسن الخاتمة، وأن يجعل كل أعمالى فى ميزان حسناتك، وأن يجمعنى بك فى جنته ومستقر رحمته.

• فضيلة الدكتور/ زكى محمد أبو سريع:

لقد رأيت ينابيع الرحمة تتدفق من قلبك الرحيم، فتعلمت منك أن الرحمة هى مفتاح كل خير.. فجزاك الله عنى خير الجزاء، فكم تعلمت على يديك واقتبست من أخلاقك العذبة.

فأسأل الله أن يجمعنى وإياك مع الحبيب ﷺ فى جنة الرحمن ـ جل وعلا ـ إخوانًا على سُررٍ متقابلين.

• فضيلة الشيخ/ محمد عبد المقصود:

إلى الجبل المتواضع.. العالم الربَّانى الذى ملأ الدنيا علمًا وفقهًا وتواضعًا.

تالله إنى أحبك فى الله... وأسأله تعالى أن يزيدك علمًا وتواضعًا، وأن يُسبغ عليك نعمة الصحة والعافية والستر، وأن يجمعنى بك فى جنته إخوانًا على سُررٍ متقابلين.

---

(١) رواه أحمد والترمذى والضياء عن أبى سعيد، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٥٤١).

• فضيلة الشيخ/ محمد حسان:

إلى بقية السلف الذى جعل الله له فى قلوب المؤمنين وُداً.

جزاك الله عنى خير الجزاء، فالله يعلم أننى ما كتبت كتابًا إلا وسألته أن يجعله فى ميزان حسناتك.

وما تمنيت أن ألقَى الله إلا بمثل عملك.. فأسأله تعالى أن يجمعنى بك فى جنته إخوانًا على سُرُرٍ متقابلين.

• فضيلة الشيخ/ أبى إسحاق الحوينى:

(الألبانى) المصرى الذى أسأل الله أن يجعله من أطول هذه الأمة أعماراً ومن أحسنهم أعمالاً.

جزاك الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء فلقد ملأت الدنيا بعطر أهل الحديث فامتلأت قلوبنا بكلامك العذب الذى تنفتح له القلوب من أول وهلة.

فأسأل الله أن يجمعنى وإياك فى الجنة إخوانًا على سُرُرٍ متقابلين.

• فضيلة الدكتور/ سيد بن حسين العفانى:

إلى صاحب الهمة العالية الذى ملأ الساحة بتصانيفه النادرة الغالية النافعة.

إلى جبل التواضع الذى ملأ الدنيا بتواضعه وأخلاقه العذبة.

زادك الله همة إلى همتك ورزقك البركة فى الوقت والصحة ونفع الله المسلمين بكتاباتك فى كل زمان ومكان وجعلها فى ميزان حسناتك ورفعك الله بتواضعك إلى أعلى درجات الجنة وجمعنى وإياك فى جنته ومستقر رحمته إخوانًا على سُرُرٍ متقابلين.

• إلى الأخوين الشقيقين الكريمين/ العربى إبراهيم وعصام يوسف:

جزاكما الله عنى وعن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، وجمعنى بكما فى جنته ومستقر رحمته إخوانًا على سُرُرٍ متقابلين.. فوالله إننى أُحبكما فى الله، فأسأله ـ سبحانه ـ أن يجمعنا على تلك المحبَة الخالصة يوم القيامة.

• إلى الأخوين الكريمين/ أسامة هريدى وهشام الدسوقى:

لقد جمعنا الله فى هذه الدنيا على المحبة الخالصة التى لا تشوبها الشوائب، وهو القادر على أن يجمعنا فى الآخرة فى زُمرة المتحابين فيه ـ الذين يظلهم الله فى ظله يوم

لا ظل إلا ظله ـ.

جزاكما الله عنى وعن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

* إلى زوجتى / أم عمار:

التى ضحَّت بوقتها من أجل الله.

جزاك الله خير الجزاء.. وأسأله تعالى أن يعوضك فى جنته بالنعيم الدائم الذى لا يفنى أبداً.

* إلى أبنائى / عمار وهاجر وسارة:

أسأل الله ـ جل وعلا ـ أن يبارك فيكم، وأن يجعلكم من عباده الصالحين المتقين الذين يبذلون النفس والنفيس ابتغاء وجه الله تعالى.

* إلى كل مسلم ومسلمة:

لا تبخلوا على أخيكم (محمود) بالدعاء.. فوالله ما نسيت الدعاء للمسلمين والمسلمات فى أى صلاة ـ وأنا ساجد بين يدى الله ـ وجزاكم الله عنى خير الجزاء.

الفقير إلى عفو ربه

محمود المصرى

(أبو عمار)

مقدمة فضيلة الشيخ/ أبو إسحاق الحويني
«حفظه الله»

إن الحمد لله تعالى نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ.

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ [آل عمران:١٠٢].

﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا﴾ [النساء:١].

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا (٧٠) يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما﴾ [الأحزاب:٧٠ـ ٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى وأحسن الهدى هدى محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وشرَّ الأمور مُحدثاتها وكل مُحدثةٍ بدعة، وكل بدعة ضَلالة، وكل ضلالة في النار.

فقد ثبت عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: إن الله اختار أصحاب محمد ﷺ له، ولا أعلم نبيًا من أنبياء الله تعالى صلوات الله وسلامه عليهم بورك له في أصحابه كما بورك لنبينا ﷺ ، ولست أجد الآن على خاطري أبلغ من كلام عروة بن مسعود الثقفي الذي قاله لقومه وقت أن كان كافرًا، فقال لهم واصفًا أصحاب النبي ﷺ: «أي قوم! والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، والله إن رأيت مليكًا قطُّ يُعظِّمه أصحابه ما يعظِّم أصحاب محمد ﷺ محمدًا. والله إن يتنخَّمُ نخامةً إلاّ وقعت في كفِّ رجلٍ منهم، فدلك بها وجهه وجِلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون علَى وضوئه، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده وما يحدُّون النظر إليه تعظيمًا له» أخرجه البخاري في «كتاب الشروط» (٥/ ٣٢٩ ـ ٣٣٢).

فقارن بين هذه الصورة المشرقة، وبين ما قاله أصحاب موسى عليه السلام إذ قالوا: ﴿فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون﴾ [المائدة:٢٤] وقولهم أيضًا: ﴿لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾ [البقرة:٥٥] وهؤلاء الذين سألوا موسى عليه السلام أن يروا الله

جهرة كانوا خيار بنى إسرائيل كما قال الله عز وجل: ﴿ واختار موسى قومه سبعين رجلا ﴾ [الأعراف:١٥٥] ولم يقل واختار موسى من قومه، فدلنا ذلك على أن هؤلاء السبعين هم أفضل بنى إسرائيل مطلقًا، وأنه لم يكد يخلِّف بعده فاضلاً ومع هذا فلما جاءوا لميقات ربهم قالوا ما قالوا فأخذتهم الرجفة حتى قال موسى لربه عز وجل: ﴿ أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ﴾ [الأعراف:١٥٥] فسماهم مع فضلهم سفهاء فما بالك بمن تركهم خلقه؟! وأما أصحاب عيسى عليه السلام، فحسبك سؤال المائدة لتعرف مدى توقيرهم لله عز وجل ولرسولهم عليه السلام، حتى قال لهم: ﴿ اتقوا الله إن كنتم مؤمنين ﴾ [المائدة:١١٢].

أما احتفاء أصحاب النبى ـ صلى الله عليهم وسلم ـ به، فلا تجد له نظيراً أبداً، فقد نقلوا عنه كلَّ شيء استطاعوا الوقوف عليه، حتى صار الأمر كما قال أبو ذر رضى الله عنه: ما من طائر يقلب جناحيه فى السماء إلاَّ وعندنا منه علم عن النبى ﷺ ، فيسهل على طالب الحقّ أن يجد فى كل باب علمًا يتأسى به، بخلاف سائر الأنبياء فلا تكاد تعرف عنهم شيئًا، فيما يتعلق بحياتهم حاشا الدعوة إلاَّ الكلمة بعد الكلمة، وهى أيضًا عن طريق نبينا ﷺ وأصحابه رضى الله عنهم.

أما بعد: فإن مجال القول متسعٌ، ولا زلنا نُحضُّ الناس على تعلم سير الصحابة وطلبها من مظانها، لنتم بهم الأسوة خصوصًا فى زماننا هذا؛ الذى نبتت فيه نابتةٌ شيطانية، جلُّ همها الحط من قدر هذا الجيل الفريد بدعوى أنهم رجالٌ، ولم يكونوا ملائكة، وما ادَّعى أحدٌ قطُّ أنهم ملائكة، ولكنهم خيارُ البشر، وبينهم وبين الذين جاءوا من بعدهم من الفرق كما بين القدم والفرق.

والله أسأل أن يجزى أخانا أبا عمار خيراً على هذا الجمع الطيب، وإن كنت أتمنى أن يبسط وجه العبرة لمواقف الصحابة التى حشدها فى هذا الكتاب لنتم بهم الأسوة مع مقارنة أحوالهم بأحوال الخالفين من أهل زماننا الذين جعلهم المعترضون على الصحابة أعلامًا، حتى يظهر للناس الفرق بينهم. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه.

وكتبه

أبو إسحاق الحوينى

حامدًا الله تعالى ومصليًا على نبينا محمد

١٢/ ربيع الأول/ ١٤٢٢ هـ

مقدمة فضيلة الدكتور/ زكي محمد أبو سريع

«حفظه الله»

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على رسوله الكريم وعلى الآل والصحب والأتباع إلى يوم الجزاء.. وبعد:

فإن الله ـ جلت حكمته ـ أرسل محمداً ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ رحمة للثقلين فقال: ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ [الأنبياء:١٠٧].

يلمس هذا كل مَنْ أُوتى حظًا من تعقل بعد أن يقف على ما وصلت إليه الخليقة فى جاهليتهم قبل الإسلام...

فما من خطيئة تُسمع إلا وقد أخذوا منها بحظ وافر؛ ولولا حلم الله وعفوه لخرت الجبال هداً؛ وسقطت السموات على الأرض من هول ما ألمَّ بالخليقة كلها من ظلم وظلام حالكين حتى إذا أخرج البصير يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور...

وعالمنا هذا كله محكوم عليه بالفناء؛ والأيام دول، ولابد لليلٍ طال أمده أن يحول ولظلم كثر أهله أن يزول ﴿ كل من عليها فان (٢٦) ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾ [الرحمن:٢٦، ٢٧].

وتعاقب الليل والنهار يأتى بالعجائب، وتصاريف القدر محيطة بها كلها، فبنو إسرائيل الذين مكثت فيهم النبوات والرسالات حينًا من الدهر، بل قرونًا كثيرة، لم يقفوا عند آداب الدين وتوجيهات الوحى... بل حرفوا الكلم عن مواضعه، وتنكبوا لنداءات الفطرة، فكانت شمسهم كاسفة، وقمرهم فى خسوف!!! وكانت عاقبة أمرهم خسراً.

ولو قرأنا عن أحوالهم وآثارهم وأجداثهم لسمعنا ناطقًا يتلو قول الحكم العدل: ﴿ فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون ﴾ [النمل:٥٢].

إنها الآيات الكونية التى لا مبدل لها، فالظلم وأهله إلى بوار وهلكة، والعدل والمتمسكون به إلى فوز ونجاة ﴿ سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً ﴾ [الأحزاب:٦٢] لقد رحَل الظلام بجحافله، وتنفس الصبح لذى عينين، وأشرقت شمس

الإسلام من جديد، ولم يعد للملل الباطلة مجال أو وجود...

بعث الخاتم بالملة الحنيفية السمحة ـ على صاحبها أفضل الصلوات وأزكى التسليم ـ فغيّر مسيرة التاريخ واتجاه الكون من وثنية عمياء بغيضة إلى توحيد مشرق ناطق بأحديّة القائم على الأكوان خلقًا وإحاطة وتدبيرًا...

إنه الدين القائم على العقل السوي والفطرة النقية؛ لا يقر الطلاسم ولا اللاهوتية المتناقضة، بل سار على المحجة البيضاء ليلها كنهارها، ولا يزيغ عنها إلا هالك...

لقد حمل المشعل ـ محمد ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ ومعه نفر قليل ـ بادئ الأمر ـ ثم لم يلبثوا أن ازدادوا يومًا بعد يوم، ولم ينكص واحد منهم على عقبيه سخطًا لدينه بعد أن شُرحت صدورهم له... ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ **[الفتح:٢٨].**

لقد سارت قافلة النور والتوحيد لا تلوى على شيء إلا أن تُرضي مَنْ بيده الخلق والأمر، والنفع والضر: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ **[فاطر:٢].**

لقد سار أصحاب محمد ﷺ معه وقد ملأ الإيمان كل دروب الحياة، وخالطت بشاشته قلوبهم، وشرحت له صدورهم ووجدوا محبته غالبة على محابهم ومواجيدهم حتى قال أبو سفيان ـ رضي الله عنه ـ وقد كان وقتئذ على الكفر: «ما رأيت أحدًا يحب أحدًا كما يحب أصحاب محمد محمدًا».

الله أكبر!!! إنها القلوب العامرة بالإيمان، والأبصار التي تنظر إلى الأفق البعيد حيث الفردوس الأعلى وجنات النعيم.

وإذا كان اجتماع الضدين ـ في محيط العقل ـ مُحالاً، إلا أنه في مجال الشرع جائزًا، فقد جعل الحق ـ عز وجل ـ قلوب الصحابة في غاية الرحمة فيما بينهم وغاية في الشدة على أعداء الدين... يقول ـ عز وجل ـ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ...﴾ **[الفتح:٢٩].**

﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ

حزب الله هم المفلحون ﴾[المجادلة:٢٢].

لقد ذهبوا إلى المشارق والمغارب يحملون لواء الحق والجهاد فدكوا عروش الأكاسرة والقياصرة، قلوبهم كالجبال رسوخًا وعزة وصلابة فى الحق، يصومون النهار مجاهدين، ويقومون الليل تالين كتاب الله وقَّافين عند حدوده وآدابه فأعز الله بهم دينه ورفع بهم لواءه وأعلا بهم كلمته...

إن الفتوحات الإسلامية الباهرة لم تكن بخطب نارية أو شرائط صوتية أو بتقمص لشخصيات فى ذمة الله أصحابه، ولكن كان ذلك بالعمل الشرعى الذى لا يخشى صاحبه فى الله لومة لائم...

والآن ـ بعد أن صارت الأمة إلى حالة لا تفرح الحبيب ولا تحزن العدوّ تملك رصيدًا من الكلام لا يقارن بما تقدمه من عمل، حتى تحرش بها أجناس الكفر... وغاية الكثيرين ممن يتقمصون شخصية «صلاح الدين» رحمه الله تعالى ـ أن يُعربوا عن الأسى والحزن لما يجرى ويشجبوا العدوان وأهله!!! ويزدادون جرأة فيُحملون العدو عواقب العدوان!!!

والأعداء قد خبروا شهامة المسلمين ونجدتهم المفتقدة فأخرجوا لهم الألسنة هزءًا وسُخرية... وأمعنوا فى إذلالهم لهذه الأمة حتى تنقَّصوها من أطرافها.. وبين الحين والحين تختفى دويلات من خارطة الأمة المهيضة الجناح.. وطعام الأمة وشرابها يزيد ولا ينقص؛ والضحك ملء الأفواه، والنوم ملء الجفون.. وتحقق فينا قول الشاعر:

لقد أسمعت إذا ناديت حيًا ... ولكن لا حياة لمن تنادى

وقول الآخر:

مَنْ يهن يسهل الهوان عليه ... ما لجرح بميت إيلام

مَنْ لنا بالفاروق أو سعد أو أبى عبيدة أو خالد أو المعتصم أو صلاح الدين؟!! مَنْ لنا بهم حتى يعيدوا إلى الأمة تماسكها بعد أن تهاوت وتردَّت فى واد سحيق؟!!!

والكتاب الذى بين أيدينا بعنوان «أصحاب الرسول ﷺ» يعود بنا إلى حياة هؤلاء الأعلام والأعزة المغاوير الذين أحبوا الموت والشهادة أكثر من محبة الكثيرين للترف وذليل الحياة...

يجسد حياتهم الوضاءة المشرقة إذْ كان الواحد منهم إسلامًا يمشى على الأرض

مُؤتمرًا بجميع الأوامر مُنتهيًا عن جميع النواهي شديد الخشية لرب الأرباب. يعملون في الخفاء ابتغاء مرضاة الله ـ تعالى ـ ولا يحبون أن يُحمدوا بما لم يفعلوا... فكانوا حزب الله المفلحين... ولا مقارنة بينهم وبين مَنْ يزعم أنه يعمل عملهم فهم عند الثريا وغيرهم في طبقات الثرى التي توطأ بالنعال!!!

وصاحب الكتاب غني عن تعريفي به...

فهو الشاب الشيخ «محمود المصري» (أبو عمار) البحاثة الدءوب في تمييزه للسمين من الغث أثناء تعرضه للكم الهائل من تراث أمتنا في مجالات علمية متعددة..

نسأل الله الحي القيوم ذا الجلال والإكرام أن يجزل له العطاء في الدارين وأن ينفع بالكتاب كما نفع بأصوله، وأن يلحقنا بسلفنا الصالح على خير حال. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

وصلى الله وسلم على سيد المعلمين والقادة المربين وعلى آله وصحبه.

العبد الفقير إلى عفو مولاه القدير

زكي محمد أبو سريع

يوم الجمعة الموافق: ١١ من شعبان ١٤٢٠هـ

١٩ من نوفمبر ١٩٩٩م

مقدمة فضيلة الشيخ/ محمد عبد المقصود

«حفظه الله»

إن الحمد لله تعالى نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء:١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٠ ـ ٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى وأحسن الهدى هدى محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وشرَّ الأمور مُحدثاتها وكل مُحدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

إن دراسة التاريخ الإسلامي عامة.. وتاريخ الخلفاء الراشدين وسائر الصحابة (خاصة) يمثل خطوة عظيمة في طريق بعث الأمة؛ لأنه يدفع الأمة المسلمة لأن تقوم مرة أخرى وتنفض غبار الغفلة فتستعيد أمجادها وتعود مرة أخرى لتقود العالم كله إلى خيري الدنيا والآخرة.

فأصحاب النبي ﷺ هم خير جيل عرفته البشرية كلها وهم خير الخلق بعد الأنبياء والمرسلين ـ صلوات ربي وسلامه عليهم ـ قوم اختارهم الله لصحبة نبيه أبرّهم قلوبًا وأعمقها فكرًا وأقلها تكلفًا، ولابد للمتأخِّر أن يعرف فضل المتقدِّم، وذلك لأننا نعيش زمانًا نفتقد فيه إلى القدوات الصالحة.

ولذلك فإن الكتابة عن هؤلاء العظماء وكشف الستار عن الصفحات الناصعة التي سطّروها على جبين التاريخ بسطور من النور لهي من الواجب الذي يحتمه علينا هذا العصر الذي نعيش فيه معمعة الأفكار واضطراب الموازين وموالاة الكافرين.

وكل ذلك لأن الأمة قد ابتعدت كثيراً عن مصدر عزها ونبع شرفها ومعين كرامتها فأذلها الله لأذل الأمم.. فى الوقت الذى أعزَّ الله فيه أصحاب الحبيب ﷺ لما ساروا على منهج الله واهتدوا بهدى رسول الله ﷺ .

فسخَّر الله لهم الكون كله. بل لقد تنزلت الملائكة لتؤيدهم فى غزوة بدر وغيرها... ولقد أثنى الله عليهم فى كتابه أبلغ الثناء.

فقال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [آل عمران:١١٠].

وقال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة:١٤٣].

فهم المخاطَبون ابتداءً بتلك الآيات.

لقد خرجوا من أموالهم وديارهم وبذلوا النفس والنفيس من أجل إعلاء كلمة (لا إله إلا الله) فدانت لهم الأرض كلها من مشرقها إلى مغربها، وكانت راية الإسلام خفاقة عالية.

ومن أجل ذلك جاءت الحاجة إلى معرفة أحوال هؤلاء الصحب الكرام الذى تربَّوا بين يدى الحبيب ﷺ الذى ربَّاه الحق ـ جل جلاله ـ ليربى به الأمم والأجيال فى كل زمان، بل وفى كل مكان.

وما أجمل ما قاله ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ عن أصحاب الحبيب ﷺ حيث يقول: «إن الله نظر فى قلوب العباد، فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه، فابتعثه برسالته، ثم نظر فى قلوب العباد بعد قلب محمد، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه يقاتلون على دينه، فما رأى المسلمون حَسَنًا فهو عند الله حسن، وما رأوا سيئًا فهو عند الله سيئ»[1].

وهذا الكتاب الذى سطَّره قلم الأخ الكريم/ محمود المصرى (أبو عمار) فيه فيضٌ نافع وخيرٌ كثير، وجهدٌ يُشكَر عليه حيث بدأه بمقدمة بيَّن فيها فضائل الأمة المحمدية على وجه العموم، وفضائل الصحابة والأنصار ـ على وجه الخصوص ـ.

(١) رواه أحمد فى المسند (١/ ٣٧٩) رقم (٣٦٠٠) وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح.

وثنّى بذكر الأدلة القاطعة على تحريم سَبّ الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ ثم بدأ الكتاب بذكر العشرة المبشَّرين بالجنة، وأتبعهم بذكر تسعين صحابيًا ليكون ذلك تمام المائة.

فجاء الكتاب حاويًا لمئة شخصية فريدة من صفوة الأمة من الرعيل الأول.

وكل ذلك جاء بأسلوبٍ سهلٍ يسير.

فلنحرصِ على اقتناء هذه السلسلة الفريدة لما فيها من فرائد الفوائد وقلائد الحِكَم والمناقب.. محُققة تحقيقًا علميًا دون حشوٍ أو تعقيد.

فجزاه الله خير الجزاء ونفع به.. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وكتبه

(أبو عبد الرحمن)

محمد بن عبد المقصود العفيفي

مقدمة فضيلة الشيخ/ محمد حسان

-حفظه الله-

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له.. هو الواحد الذي لا ضد له، وهو الصمد الذي لا منازع له.. وهو الغني الذي لا حاجة له... وهو القوي الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.. وهو جبار السموات والأرض؛ لا راد لحكمه ولا مُعقب لأمره.

هو الأول فلا شيء قبله، وهو الآخر فلا شيء بعده.. وهو الظاهر فلا شيء فوقه... وهو الباطن فلا شيء دونه، وهو على كل شيء قدير.

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله.. وصفيه من خلقه وخليله أدى الأمانة وبلَّغ الرسالة، ونصح الأمة، وكشف الله به الغُمَّة، وعَبَدَ ربه حتى لبَّى داعيه، وجاهد في سبيله حتى أجاب مناديه، وعاش طوال أيامه ولياليه.. يمشي على شوك الأسى ويخطو على جمر الكيد والعنت، يلتمس الطريق لهداية الضالين وإرشاد الحائرين.. حتى علَّم الجاهل.. وقوَّم المعوج، وأمَّن الخائف.. وطمأن القَلق.. ونشر أضواء الحق والخير والإيمان والتوحيد كما تنشر الشمس ضياءها في رابعةَ النهار، فاللهم اجزه عنا خير ما جزيت نبيًا عن أمته، ورسولاً عن دعوته ورسالته.

اللهم صلِّ وسلم وزد وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه وعلى كل من اهتدى بهديه واستن بسنته، واقتفى أثره إلى يوم الدين، وبعد:

أخي الكريم:

إن هذا الكتاب الذي بين يديك رحلة في حديقة الإسلام نطوف بين رياضها العطرة الذي يفوح أريجها معطراً بشذا الجنان الفيحاء.

نتنقل في هذه الحديقة الغنَّاء التي حوت من الأزهار أجملها ومن الرياحين أطيبها ومن المياه أعذبها لنتعرف على رجال تربوا على مائدة القرآن وكان معلمهم إمام الأنبياء وخير الأنام محمد ﷺ.

وهو محاولة لإبراز هِمم هؤلاء الرجال العالية في الدعوة والجهاد والعلم والفهم



والصبر والزهد والتواضع والورع.. إلى آخر هذه المثاليات التى لن تجد لها فى تاريخ العالمين نظير.

إن دراسة التاريخ الإسلامى ـ وبالأخص السيرة النبوية، وتاريخ الخلفاء الراشدين والصحابة والتابعين والعلماء والمجاهدين والقادة من سلفنا الصالح ـ إذا أُحسن عرضها وأبرزت خصائصها، وبطولات رجالها الذين كانوا رعاة للغنم، فجعلهم الإسلام سادة وقادة للأمم، فإنه حتمًا ينمى فى شباب الإسلام ويبعث فيهم روح الولاء لله ورسوله، ويدفع هممهم إلى معالى الأمور، ويكشف عن طاقاتهم المذخورة ويستثمرها حتى ننهض بهذه الأمة المكلومة التى بعدت كثيراً كثيراً.

أخى القارئ الكريم،

إن دراسة سير الخلفاء الراشدين والصحابة والتابعين والعلماء العاملين من الأهمية بمكان، خاصة إذا اعتمدت على منهج المحدثين فى نقد الروايات والأخبار.

إنك ـ أخى الكريم ـ إذا ما وقفت على كتب التاريخ والسير بدراسة واعية متأنية تشعر بضخامة الانحراف والخطأ الذى وقع فيه كثير من المؤرخين ـ قدامى ومعاصرين ـ فالقدامى جمعوا الآثار والأخبار صحيحها وسقيمها ودَوَّنُوها فى كتبهم، ومنهم ذو ميول وأهواء، ومنهم ثقات وعدول، ولكنهم فى هذا الطور كما قال يحيى بن معين: «إذا كتبت فقمِّش، وإذا حدثت ففتِّش».

أما المعاصرون فحدِّث ولا حرج فقلما تجد من يلتزم التحقيق العلمى المعتمد على المقاييس الشرعية.

لذلك فإن التاريخ الإسلامى اعتراه كثير من التشويه والدس والنسيان، ولم يجد من يحميه ويصونه مثل الحديث النبوى الذى نشأت له علوم لا تدرك نهايتها الكتب والأقلام.

كما أنك تجد أن السيرة النبوية ـ ولله الحمد والمنة ـ قد لقيت عناية فائقة فى التدوين والتأليف، وفى النقد والتحقيق على يد علماء الحديث، بينما لم يجد التاريخ علومًا تسهم فى حفظه على وجه التمام والكمال، ولا جهوداً تميز غثه من سمينه، وخبيثه من طيبه، وأصيله من دخيله، وصحيحه من ضعيفه.

ونحن ـ والذى رفع السماء ـ لفى مسيس الحاجة ـ فى هذه الأزمان ـ لقراءة سير

السلف الصالح فما أحوجنا إلى القدوة الحسنة، ولذا فنحن نهيب بإخواننا الآباء والمربين أن يقرءوا على أبناءهم وطلابهم سير السلف الصالح من الصحابة والتابعين والعلماء العاملين.

فلا شك أن إبراز تاريخ هذه الأجيال والتركيز على ما قاموا به فى تحملهم أمانة الدعوة إلى الله، وما أصابهم فى سبيلها من الأذى والعنت يكون له أعظم الأثر فى أن نعرف لهم قدرهم وفضلهم ونحبب أبناءنا فى التأسى بهم والاعتزاز بالانتساب إليهم ليرتبط حاضر الأمة بماضيها العريق ذى التاريخ المشرق المنير فى الدعوة ونشر العلم والتوحيد، وقيادة البشرية قيادة راشدة إلى مراقى الفلاح.

فهيا إلى هذه الواحة اليانعة الممتعة لنعيش فى رحاب الصادقين الأبرار ولنستنشق عبير الصدق.. عسى الله أن يُلحقنا بهم فى جنته ومستقر رحمته. إنه ولى ذلك والقادر عليه.

جزى الله أخانا الحبيب/ محمود المصرى (أبو عمار) على هذا الجمع الطيب المبارك وجعله فى ميزان حسناته وزاده توفيقًا وتسديدًا ورشادًا، وجعلنا جميعًا من الصادقين.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وكتبه

(أبو أحمد)

محمد حسان

مقدمة فضيلة الدكتور/ سيد بن حسين العفانى

«حفظه الله»

الحمد لله وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى..

وبعد: فعلى استحياء منى أقدم للشيخ الحبيب الغالى/ محمود المصرى «أبو عمار» جعل الله أيامه عامرة بالعطاء لدينه.. والشيخ يُحسن الظن بى، وإنما نحن قوم مساكين، ليس هذا مقامنا.. وهذا الغالى الداعية الخيّر عالى الهمة يكتب عن السادة من أصحاب رسول الله ﷺ الذين قال فيهم النبى ﷺ: «خير الناس قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم...»(1).

ويقول فيهم الشاعر:

تركنا البحار الزاخرات وراءنا   فمن أين يدرى الناس أنّا توجهنا

فبارك الله له فى سعيه وقلمه الطيب العَطر الفوّاح وجعل هذا الكتاب القيم فى ميزان حسناته ووفّاه أجره كاملاً ﴿ يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (88) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء:88، 89].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وكتبه الفقير إلى رحمة ربه

سيد بن حسين العفانى

شعبان ١٤٢٠هـ

---

(1) متفق عليه عن ابن مسعود ـ صحيح الجامع (٣٢٩٥).

بين يدى الكتاب

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران:١٠٢].

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء:١].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب:٧٠ ـ ٧١].

أما بعد:

إن أمر هذه الأمة لا يصلح إلا بما صلح عليه أمر أولها.

ولا يشك عاقل يؤمن بالله واليوم الآخر أن أصحاب النبى ﷺ هم خير الخلق بعد الأنبياء والمرسلين ـ عليهم أفضل الصلاة والتسليم ـ وأنه ﷺ سيد ولد آدم.. وصحابته هم خير قرنٍ وأمة وُجدت على وجه الأرض.

وإن معرفة أحوالهم وأخلاقهم وسيرهم لَتضىء الطريق أمام المؤمن الذى يريد أن يعيش أُسوة محمد ﷺ.

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ ﴾ [يوسف:١١١].

فالصحابة (رضى الله عنهم) هم حَمَلة الإسلام وحَفَظته بعد رسول الله ﷺ.

اختارهم الله واصطفاهم لصُحبة نبيه ﷺ ونشر رسالته من بعده.

عدَّلهم وزكاهم ووصفهم بأوصاف الكمال فى غير ما آية من كتاب الله.

فقال تعالى: ﴿ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴾ [الأحزاب:٢٣].

وقال تعالى: ﴿ رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ

يخافون يومًا تتقلب فيه القلوب والأبصار ﴾ [النور:٣٧].

وقال تعالى: ﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم ﴾ [التوبة:١٠٠].

وقال تعالى: ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما ﴾ [الفتح:٢٩].

إنهم نوعٌ فريدٌ من الرجال لم تعرف البشرية لهم نظيرًا في تاريخها الطويل الممتد عبر الزمن.

لقد حاز أصحاب محمد ﷺ قَصَب السبق في كل شيء فهم قمة في التقوى والورع وآية في التجرد والإخلاص ومشعل في العلم والعمل ونبراس في الدعوة والحركة.

«فأي خصلة خير لم يسبقوا إليها؟! وأي خطة رشد لم يستولوا عليها؟!

تالله لقد وردوا الماء من عين الحياة عذبًا صافيًا زُلالاً وأيَّدوا قواعد الإسلام فلم يَدَعوا لأحدٍ بعدهم مقالاً.

فتحوا القلوب بعدلهم بالقرآن والإيمان.. والقرى بالجهاد والسنان[1]».

هم أنصار الدين في مبتدئ نشأته

بذلوا المُهج يوم بَخِل أهل الدراهم بدراهمهم.

رجال المغارم يوم يندسّ المغمورون في ثيابهم.

هم لله ـ عز وجل ـ قلوبًا وأبدانًا ودماءً وأموالاً.

لم يجعلوا هَمهم حشو البطون ولا لُبس الحرير ولا الإغراق في النِعم.

حفظوا الشرع من أهواء الزائغين.. وحَمَوا الملة من زحف المناوئين.. شهدوا التنزيل

(١) «أعلام الموقعين عن رب العالمين» للإمام ابن القيم (١/ ٥ ـ ٦).

وعملوا بما فيه طائعين... حملوا الوحيين وحضروا البيعتين.. وصلَّى أكثرهم إلى القبلتين.

كلٌ له همٌ.. وهَمَّهم رفعة (لا إله إلا الله) كلٌ له قصدٌ.. وقصدهم الجليل فى علاه.

خرجوا من أموالهم لله ولرسوله ﷺ فما شفى ذلك لهم غليلاً. فأبوا إلا أن يقدموا الأرواح ويسيلوا الدماء ويستعذبوا العذاب فى سبيل الله.

فرضى الله عنهم وأرضاهم وأكرم فى جنات الخلد مثواهم[1].

من كان متأسيًا فليتأس بهم فإنهم أبرّ هذه الأمة قلوبًا وأعمقها علمًا وأقلها تكلفًا وأقومها هَديًا وأحسنها حالاً.

هُم الرجـال بأفياء الجهاد نَمَوا ... وتحت سقف المعالي والندى وُلدوا

جباههم مـا انحنت إلا لخالقها ... وغير من أبدع الأكوان مـا عبـدوا

الخـاطبون من الغايات أكرمها ... والسابقون وغير الله ما قصدوا

ومن هنا كان لزامًا علينا معرفة أخبارهم وسيرهم ونشرها بين المسلمين... عِظة وذكرى لمن كان له قلب أو ألقَى السمع وهو شهيد.

وذلك لأنهم نَقَلَةُ الإسلام إلينا نقلاً صحيحًا... ولأن المحافظة على الإسلام تستوجب العناية بتاريخهم لئلا يجد أعداء الإسلام سبيلاً للطعن فى الإسلام عن طريق الطعن فى نَقَلته.

ولذلك فإن الكلام عن هؤلاء العظماء وكشف الستار عن الصفحات التى سطّروها واجبٌ مُحتّم علينا فى هذا العصر الذى نعيش فيه اضطراب الموازين والوقوع فى الصحابة الأبرار. إنه واجبٌ لردع أهل الهوى من الزنادقة والملاحدة وأهل الكفر والابتداع الذين انتقصوا وسبّوا خير جيلٍ وطائفة وُجدت على وجه الأرض!!!.

لا لشىء إلا لأنهم حَمَلَةُ الإسلام ورُواة الأحاديث التى تهدم بِدعهم وتُظهر ضلالهم وتُبرز خُبث طويتهم.

ولعل ديننا القويم قد تميز عما سبقه من الأديان بمعجزة تتجدد فى كل وقت وآن.. ألا وهى معجزة الرجال الذين عاشوا حياتهم للإسلام ولم يعرفوا للراحة طعمًا ولم يعرف

---

(١) من مقدمة الشيخ عائض القرنى (صور من سير الصحابة) (ص ٣ ـ ٤) بتصرف.

الخُمول إلى نفوسهم طريقًا فكانوا حركة مشبوبة لا تهدأ ولا تفترُ ولا تكلّ ولا تملّ.

لا يهمُها من الحياة مالٌ ولا متاع ولا تشغلها دون غاياتها زخارف الدنيا وبهجتها.

وحَّدوا همتهم فى إرضاء الله... محققوا من بواطنهم كل نية تشوبها الشوائب فكانوا خالصين لله.. فأكرمهم الله بأن جعلهم معجزة من معجزات نبيه الكريم ﷺ .

يُثبتون للدنيا كلها أن دين الله تامٌ مُكمل، وأن شرع الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.. وأن الله مُتم نوره ولو كَرِه الكافرون.. ولو كره المنافقون والظالمون والفاسقون.

إن أخبار هؤلاء الأخيار دواءٌ للقلوب وجلاءٌ للألباب من الدنَس والعيوب.. وقدوة فى زمنٍ كادت القدوات فيه أن تغيب.

فهم مثالٌ يُحتذَى ونبراسٌ يُقتدَى.. ليعرف المتأخِر للمتقدم فضله ويسعى على دربه ونهجه.

بالوقوف على أخبار هؤلاء الأخيار تحيا القلوب.. وباقتفاء آثارهم تحصل السعادة... وبمعرفة سيرهم ومناقبهم تكون القدوة بجميل الخصال ونبيل المآثر والفعال.

وإنى لأستغفر الله على تقصيرى فى تلك الصفحات التى سطّرتها بمداد قلبى للوقوف على سيرة هؤلاء الأطهار الذين عشت فى رحاب سيرتهم شهورًا طويلة لم يتسرب فيها الملَل إلى نفسى لحظة واحدة لأننى كنت أشعر بأننى أعيش فى جنة الدنيا.

فهيا بنا أيها الإخوة الأعزاء وأيتها الأخوات الفُضليات لنعيش سويًا فى رحاب مائة صحابى من أصحاب الحبيب ﷺ الذين سطَّروا على جبين التاريخ سطورًا من النور... راجيًا من الله ـ عز وجل ـ أن ينفع بهذا الكتاب كل مسلم ومسلمة فى هذا الكون، وأن يكتب له القَبول بين المسلمين وأن يرزقنى فيه الصدق والإخلاص وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، وأن يجعله فى ميزان حسناتى يوم أُدرج فى أكفانى.

وصلى الله على سيدنا محمدٍ وعلى آله وصحبه وسلم.

كتبه الفقير إلى عفو الرحيم الغفار

محمود المصرى

(أبو عمار)

فضائل الأمة المحمدية

على صاحبها أفضل الصلاة والسلام

سبحان مَن قدّمنا على جميع الناس وسقانا من معرفته أروى كاس، وجعل نبينا أفضل نبى رعَى وساس، فلما فضّله على الأمة وأنعم علينا بعُلو الهمة قال لنا: ﴿كنتم خير أمة أُخرجت للناس﴾[1].

إننا أمة رسالة ولا يجب أبدًا أن نتخلى عن تلك الرسالة فلقد أخرج الله أمة الإسلام لتكون بمثابة المشعل الذى يضىء الطريق لكل الأمم كى تسير على النهج الذى اختاره الله للبشرية جميعًا. ففى الوقت الذى كلف الله فيه الأمم السابقة بأن تستقيم فى ذاتها لله ـ جل وعلا ـ امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾[البينة:٥]، كلَّف الله أمة الإسلام بتكليفين عظيمين:

١ ـ كلفها بعبوديتها لله ـ جل وعلا ـ: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾[النساء:٣٦].

٢ ـ ثم كلفها بأن تكون أمة هادية لكل البشرية وشاهدة على كل البشرية فقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[البقرة:١٤٣]، وهذا هو السر فى خيرية تلك الأمة المسلمة ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[آل عمران:١١٠][2].

وعن أبى سعيد الخدرى أن الحبيب ﷺ قال: «يُدعى نوح يوم القيامة، فيقول: لبيك وسعديك يا رب فيقول: هل بلَّغت؟ ـ أى الرسالة ـ فيقول: نعم، فيقال لأمته: هل بلَّغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، فيقول: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فيشهدون أنه قد بلَّغ، ويكون الرسولُ عليكم شهيدًا، فذلك قوله جل ذكره: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[البقرة:١٤٣][3].

---

(١) التبصرة لابن الجوزى (١/ ٥٨٥).

(٢) كتاب (ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون) للمصنف (ص: ٦) ط. دار الفردوس.

(٣) أخرجه البخارى (٤٤٨٧) التفسير ـ باب: «وكذلك جعلناكم أمة وسطًا....» الآية.

وعن أُبيّ بن كعب فى هذه الآية قال: ﴿لتكونوا شهداء﴾ وكانوا شهداء على الناس يوم القيامة، كانوا شهداء على قوم نوح وقوم هود، وقوم صالح وقوم شعيب وغيرهم أن رسلهم بلَّغتهم وأنهم كذَّبوا رسلهم، قال أبو العالية: وهى قراءة أُبيّ: «لتكونوا شهداء على الناس يوم القيامة». ومن حديث جابر عن النبى ﷺ: «ما من رجل من الأمم إلا ودَّ أنه منّا أيتها الأمة، ما من نبى كذبه قومه إلا ونحن شهداؤه يوم القيامة، أن قد بلغ رسالة الله ونصح لهم»(١).

بل قال ﷺ: «أنتم شهداء الله فى الأرض والملائكة شهداء الله فى السماء»(٢).

وإليكم جميعًا أيها الإخوة الكرام وأيتها الأخوات الفُضليات تلك الباقة العطرة من فضائل أمة الحبيب ﷺ قبل أن نتحدث عن فضائل الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ على وجه الخصوص.

* قال ﷺ: «إنكم تُتمون سبعين أُمة أنتم خيرها وأكرمها على الله»(٣).

* وقال ﷺ: «مَثلُ أمتى مَثلُ المطر لا يُدرَى أولُّه خيرٌ أم آخره»(٤).

* وقال ﷺ: «أُمتى هذه أُمة مرحومة ليس عليها عذاب فى الآخرة إنما عذابها فى الدنيا الفتن والزلازل والقتل والبلايا»(٥).

* وقال ﷺ: «إنَّ الله تعالى إذا أراد رحمةَ أمة من عباده قبض نبيها قبلها؛ فجعله لها فرطًا وسلفًا بين يديها، وإذا أراد هلكة أمة عذَّبها ونبيها حىٌّ فأهلكها وهو ينظرُ فأقرَّ عينه بهلكتها حين كذبوه وعصوا أمرهُ»(٦).

بل لقد اجتمعت من رحمات الله لهذه الأمة ما لم تجتمع لغيرها.

* قال ﷺ: «إن الله تجاوز لأمتى عما توسوس به صدورهم ما لم تعمل أو تتكلم به وما استُكرهوا عليه»(٧).

---

(١) قال الحافظ فى الفتح (٨/ ٢١٨): أخرجه ابن أبى حاتم بسند جيد عن أبى العالية عن أُبى بن كعب.
(٢) رواه الطبرانى عن سلمة بن الأكوع وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٤٩٠).
(٣) رواه أحمد والترمذى وابن ماجه عن معاوية بن حيدة، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٣٠١).
(٤) رواه أحمد والترمذى عن أنس، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٨٥٤).
(٥) رواه أبو داود والطبرانى فى الكبير والحاكم عن أبى موسى ـ صحيح الجامع (١٣٩٦).
(٦) أخرجه مسلم عن أبى موسى ـ صحيح الجامع (١٧٠٧).
(٧) رواه ابن ماجه والبيهقى عن أبى هريرة، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٧٢٩).

* وقال ﷺ: «إن الله تعالى قد أجار أمتى أن تجتمع على ضلالة»(١).

* وقال ﷺ: «إن الله تعالى: يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»(٢).

* وقال ﷺ: «فُضِّلنا على الناس بثلاث: جُعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجُعلت لنا الأرض كلها مسجداً، وجعلت تربتها لنا طهوراً إذا لم نجد الماء، وأُعطيتُ هذه الآيات من آخر سورة البقرة من كنزٍ تحت العرش لم يُعطها نبيٌ قبلى»(٣).

* وقال ﷺ: «لم تَحلّ الغنائم لأحدٍ سودِ الرؤوس من قبلكم. كانت تُجمع وتنزل نار من السماء فتأكلها»(٤).

ـ ونظراً لقصر أعمار هذه الأمة المباركة فلقد أكرمها الخالق (جل جلاله) بمضاعفة الأجر على سائر الأمم من قبلها.

* قال ﷺ: «إنما أجلكم فيما خلا من الأمم، كما بين صلاة العصر إلى مغارب الشمس، وإنما مثلكم ومثل اليهود والنصارى، كمثل رجل استأجر أُجراء فقال: مَنْ يعمل من غُدوة إلى نصف النهار على قيراط قيراط؟ فعملت اليهود، ثم قال: من يعمل من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط؟ فعملت النصارى، ثم قال: من يعمل من العصر إلى أن تغيب الشمس على قيراطين قيراطين؟ فأنتم هم، فغضبت اليهود والنصارى، وقالوا: ما لنا أكثر عملاً وأقلَّ عطاءً؟ قال: هل ظلمتكم من حقكم شيئًا؟ قالوا: لا، قال: فذلك فضلى أُوتيه من أشاء»(٥).

* وقال ﷺ: «مثل المسلمين واليهود والنصارى، كمثل رجل استأجر قومًا يعملون له عملاً إلى الليل، فعملوا إلى نصف النهار، فقالوا: لا حاجة لنا إلى أجرك الذى شرطت لنا وما عملنا لك، فقال لهم: لا تفعلوا، أكملوا بقية عملكم، وخذوا أجركم كاملاً، فأبوا وتركوه، فاستأجر أجراء بعدهم، فقال: اعملوا بقية يومكم ولكم الذى شرطت لهم من الأجر فعملوا، حتى إذا كان حين صلاة العصر قالوا: لك ما عملنا، ولك الأجر الذى

(١) رواه ابن أبى عاصم عن أنس، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١٧٨٦).
(٢) رواه أبو داود والبيهقى فى «المعرفة» عن أبى هريرة، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٨٧٤).
(٣) أخرجه مسلم وأحمد والنسائى عن حذيفة ـ صحيح الجامع (٤٢٢٣).
(٤) رواه الترمذى عن أبى هريرة، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥١٩٦).
(٥) أخرجه البخارى وأحمد ومالك والترمذى عن ابن عمر ـ صحيح الجامع (٢٣١٥).

جعلت لنا فيه، فقال: أكملوا بقية عملكم، فإنما بقى من النهار شىء يسير، فأبوا، فاستأجر قومًا أن يعملوا له بقية يومهم، فعملوا بقية يومهم حتى غابت الشمس واستكملوا أجر الفريقين كليهما، فذلك مثلهم، ومثل ما قبلوا من هذا النور»(١).

بل إنه فى آخر الزمان عندما ينزل عيسى ـ عليه السلام ـ مرة أخرى فإن الله يجعله يصلى خلف رجلٍ من أمة الحبيب ﷺ تكرمة لهذه الأمة الميمونة المباركة.

* قال ﷺ : «منّا الذى يصلى عيسى بن مريم خلفه»(٢).

بل لقد وصف النبى ﷺ أمته وكيف يكون حالها يوم القيامة وكيف يكون حسابها وأخبر أنهم أكثر أهل الجنة.

* قال ﷺ : «إن أمتى يُدعون يوم القيامة غُرًا مُحجّلين من آثار الوضوء»(٣).

* وقال ﷺ : «نحن آخر الأمم وأول من يحاسَب يقال: أين الأمة الأمّية نبيها فنحن الآخرون الأولون»(٤).

* وقال ﷺ : «ليدخلنّ الجنة من أمتى سبعون ألفًا أو سبعمائة ألف متماسكون آخذٌ بعضهم بيد بعض لا يدخل أولهم حتى يدخل آخرهم وجوههم على صورة القمر ليلة البدر»(٥).

* وقال ﷺ : «أُعطيت سبعين ألفًا من أمتى يدخلون الجنة بغير حساب وجوههم كالقمر ليلة البدر قلوبهم على قلب رجلٍ واحدٍ فاستزدت ربى ـ عز وجل ـ فزادنى مع كل واحدٍ سبعين ألفًا»(٦).

وفى رواية قال ﷺ : «وعدنى ربى أن يُدخل الجنة من أمتى سبعين ألفًا بلا حساب عليهم ولا عذاب مع كل ألف سبعون ألفًا وثلاث حثيات من حثيات ربى»(٧).

* وقال ﷺ : «ما من أمةٍ إلا وبعضها فى النار وبعضها فى الجنة إلا أمتى فإنها كلها

(١) أخرجه البخارى عن أبى موسى ـ صحيح الجامع (٢٨٥٢).
(٢) رواه أبو نعيم فى كتاب «المهدى» عن أبى سعيد ـ وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٩٢٠).
(٣) متفق عليه عن أبى هريرة ـ صحيح الجامع (٢٠٠٥).
(٤) رواه ابن ماجه عن ابن عباس، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٧٤٩).
(٥) متفق عليه عن سهل بن سعد ـ صحيح الجامع (٥٣٦٥).
(٦) رواه أحمد عن أبى بكر، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٠٥٧).
(٧) رواه أحمد والترمذى وابن حبان عن أبى أُمامة، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧١١١).

فى الجنة»(١).

أى من مات على التوحيد ولو كان من أهل الكبائر فإن مصيره فى النهاية إلى الجنة ـ خلافًا لما عليه المعتزلة من أن أهل الكبائر سيُخلَّدون فى النار ـ ولذلك خصص النبى ﷺ ذلك بقوله «إلا أمتى».. ومعلوم أن المشرك والمرتد ليس من أمته.

* وقال ﷺ «أهل الجنة عشرون ومائة صف، ثمانون منها من هذه الأمة وأربعون من سائر الأمم»(٢).

فيا ليتنا نستشعر قدر نعمة الإسلام كما عرفها الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ فملكوا الدنيا بأسرها وأعزهم الله فى كل بقعة من بقاع الأرض.

وها هو الخالق ـ جل جلاله ـ يدعونا لكى نشعر بتلك النعمة ونثبت عليها ونموت عليها... قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

وصدق من قال:

مَلَكنا هذه الدُّنيا القُرونا ... وأخضعها جدودٌ خالدونا
وسطرنا صحائفَ من ضياء ... فما نسيَ الزمانُ ولا نسينا
وكُنَّا حين يأخذنا ولىٌّ ... بطغيان ندُوسُ له الجبينا
تفيض قلوبنا بالهدى بأسًا ... فمتى نغضى عن الظلم الجفونا
بنينا حُقبة فى الأرض مُلكًا ... يُدعِّمه شباب طامحونا
شبابٌ ذللُّوا سُبُلَ المعالى ... وما عرفوا سوى الإسلام دينا
تعهدهُم فأنبتهم نباتًا ... كريمًا طاب فى الدنيا غُصُونا
إذا شهدوا الوغى كانوا كُماةً ... يدُكُّون المعاقِد والحُصونا
شبابٌ لم تحطمه الليالى ... ولم يُسلم إلى الخصم العرينا
وإن جنَّ المساءُ فلا تراهم ... من الإشفاق إلا ساجدينا

---

(١) رواه الخطيب البغدادى عن ابن عمر، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٦٩٣).
(٢) رواه أحمد والترمذى وابن ماجه عن بريدة، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٥٢٦).

كــذلك أخرج الإسلامُ قومى ... شبـابًا مُخلصًا حُــرًا أمينـا
وعلَّمــه الكرامــة كيف تُبنى ... فيأبى أن يُقَيَّــــد أو يهُــونا
ومــا فتئَ الزمــانُ يدور حتى ... مضى بالمجـــــد قومٌ آخرونا
وأصبح لا يُرى فى الرَّكب قومى ... وقــــد عاشــوا أئمتَّهُ سنينا
وآلمنى وآلــم كــلَّ حُــرٍ ... ســؤالُ الدهر أين المسلمــونا
ترى هل يرجع المــاضى فإنى ... أذوبُ لذلك المــاضى حنينــا
دعــونى من أمــانٍ كــاذبات ... فلــم أجــدِ المُنَى إلا ظُنــونا
وهاتوا لى من الإيمــــان نوراً ... وقـووُا بيــنَ جنبىَّ اليقينـــا
أمُــــدُّ يـدى فأنتـزعُ الرواسى ... وأبنى المجــــد مؤتلفًا مكينًا[1]

فالحمد لله أولاً وآخراً على نعمة الإسلام

* * *

---

(١) ديوان هاشم الرفاعى ـ نقلاً من صلاح الأمة (٣/ ٤٩٧ ـ ٤٩٨).

بعض فضائل الصحابة
(رضي الله عنهم)

لله دَر أقوام أخلصوا الأعمال وحققوها، وقيدوا شهواتهم بالخوف وأوثقوها، وسابقوا الساعات بالطاعات فسبقوها، وخلّصوا أعمالهم من أشراك الرياء وأطلقوها وقهروا بالرياضة أغراض النفوس الردية فمحقوها، فعن إيعاد مثلهم وقع نهى النبى ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ﴾ [الأنعام:٥٢].

صعدت صحائفهم من الأكدار صافية، وارتفعت أعمالهم بالإخلاص ضافية، وأصبحت نفوسهم عن الدنيا متجافية، والناس فى أخلاط والقوم فى عافية، ففاق المولى منهم على الرئيس القرشى ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ﴾ [الأنعام:٥٢].

دموعهم بالأحداق محدقة ورؤوسهم فى الأسحار مُطرقة، وأكُفُّهم بما تسكبه فى الخير منفقة، ونفوسهم بعد الجد من اللوم مشفقة، يردون من حياض المصافاة على أوفى الرى ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ﴾ [الأنعام:٥٢].

خلصوا الأعمال من الأكدار نفلاً وفرضًا واجتهدوا فى طاعة مولاهم ليرضى، وحضوا أنفسهم لطلب الحظ الأحظ حضًا، وغضوا أبصارهم عن غض الشهوات غضًا، فإذا أبصرتهم رأيت أجسادًا مرضى وعيونًا قد ألفت السهر فما تكاد تطعم غمضًا، بادروا أعمارهم لعلمهم أنها ساعات تتقضّى فأمدهم بالعون السرمدى ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ﴾ [الأنعام:٥٢].

ابتلاهم فرضوا وصبروا، وأنعم عليهم فاعترفوا وشكروا، وجاءوا بكل ما يرضى ثم اعتذروا، وجاهدوا العدو[١] فما انقشعت الحرب حتى ظفروا، فنالوا غاية الإمكان فى المكان العلى ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ﴾ [الأنعام:٥٢][٢].

كانت قلوبهم بالحق متعلقة، وأنوارهم على الظواهر متألقة، كلما هدلت حمائم نوحهم هطلت غمائم شجوهم، دموعهم فى الدجى ذوارف لما بين أيديهم من المخاوف، يغسلون بالبكاء ذنوب الصحائف، خوفهم شديد وما فيهم مخالف، إذا جَنَّ الليل فالقدم

(١) جاهدوا الشيطان وأنفسهم فإن أعدى أعداء الإنسان نفسه التى بين جنبيه.

(٢) التبصرة للإمام ابن الجوزى (١/ ٥٦٧ ـ ٥٦٨) بتصرف ـ ط. دار ابن خلدون.

واقف، يحنون إلى الحبيب حنين شارف[١] الدمع مساعد والحزن مساعف.

علموا أن الدنيا متاع يفنى فعبروها وما عمروها للسكنى، واشتغلوا بدار كلما نقضت هذه تبنى، طرق الوعظ أسماعهم فتلمحوا المعنى، يأخذون أهبة الرحيل «ولا يأخذون عَرَض هذا الأدنى» لا كبر عندهم تراهم بين المساكين والزَمنى، لو تأملتهم رأيت ضلوعًا على المحبة تحنى، حلف صادقهم على هجر الهوى والله ما استثنى، وأقبلوا على قدم الفقر فلما رآهم أغنى، ذكروا الجنة فاشتاقوا ولا شوق قيس إلى لبنى.

قال النبي ﷺ: «إن الجنة لتشتاق إلى ثلاثة: عليّ وعمّار وسلمان»[٢].[٣]

وإذا أردنا أن نتحدث عن بعض فضائل الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ فعلينا أن نذكر أولاً تزكية الخالق ـ جل وعلا ـ لهم فى كتابه الكريم.

فهم الذين قال الله فى حقهم: ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب:٢٣].

وقال تعالى عنهم: ﴿ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ... ﴾ [البينة:٨].

وقال ـ عز وجل ـ فى حقهم: ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح:١٨].

وزكَّاهم الله ـ جل وعلا ـ بقوله: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح:٢٩].

وقال ـ عز وجل ـ فى حقهم: ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (٨) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا

(١) الشارف: الناقة المسنّة.

(٢) رواه الترمذى والحاكم عن أنس، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١٥٩٨).

(٣) التبصرة للإمام ابن الجوزى (١/ ٥٨٢ ـ ٥٨٣) بتصرف.

ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾ [الحشر:٨ ـ ٩].

وقال تعالى في حقهم: ﴿لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم وأولئك لهم الخيرات وأولئك هم المفلحون (٨٨) أعد الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم﴾ **[التوبة:٨٨:٨٩].**

وقال تعالى في حقهم: ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم﴾ **[التوبة:١٠٠].**

وقال تعالى في حقهم: ﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم﴾ [التوبة:١١٧].

وأمر الله نبيه ﷺ أن يصبر نفسه معهم، فقال ـ جل وعلا ـ: ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا﴾ **[الكهف:٢٨].**

بل هم المخاطَبون ابتداءً بقوله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرءوف رحيم﴾ **[البقرة:١٤٣].**

وبقوله تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون﴾ **[آل عمران:١١٠].**

وبقوله تعالى: ﴿الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم (١٧٢) الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا

وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل (١٧٣) فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم﴾ [آل عمران:١٧٢ ـ ١٧٤].

ما قاله ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ عن أصحاب الحبيب ﷺ

وما أجمل ما قاله ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ عن أصحاب الحبيب ﷺ حيث يقول: «إن الله نظر فى قلوب العباد، فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه، فابتعثه برسالته، ثم نظر فى قلوب العباد بعد قلب محمد، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه يقاتلون على دينه، فما رأى المسلمون حسنًا فهو عند الله حسن، وما رأوا سيئًا فهو عند الله سيء»(١).

وقال أيضًا: «من كان مستنًا بمن قد مات، فإن الحى لا تؤمن عليه الفتنة، فأولئك أصحاب محمد ﷺ أبرُّ هذه الأمة قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلها تكلفًا قد اختارهم الله تعالى لصحبة نبيه ﷺ ، وإقامة دينه فاعرفوا لهم حقهم وتمسكوا بهديهم فإنهم على الهدى المستقيم»(٢).

الأوسمة التى وضعها الحبيب ﷺ على صدور أصحابه ـ رضى الله عنهم ـ

وها هى أوسمة الشرف التى وضعها الحبيب ﷺ على صدور أصحابه ـ رضى الله عنهم ـ ونظرًا لكثرتها فسوف نكتفى بذكر بعضها ـ فالقليل منها كثير ـ.

فعن عمران بن حصين ـ رضى الله عنهما ـ يقول: قال رسول الله ﷺ : «خيرُ أمتى قَرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم» قال عمران: فلا أدرى أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثًا، «ثم إن بعدكم قومًا يشهدون ولا يُستشهدون ويخونون ولا يُؤتمنون، وينذُرون ولا يفون، ويظهر فيهم السِّمن»(٣).

وعن إبراهيم عن عبيدة عن عبد الله ـ رضى الله عنه ـ أن النبى ﷺ قال: «خيرُ الناس

---

(١) رواه أحمد فى المسند (١/ ٣٧٩) رقم (٣٦٠٠)، وقال الشيخ شاكر: إسناده صحيح.

(٢) أخرجه ابن عبد البر فى جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٩٧) والهروى ورقمه (٨٦)، وفيه من طريق قتادة عنه فهو منقطع (قاله الألبانى فى تخريج المشكاة ص ١٩٣).

(٣) أخرجه البخارى (٣٦٥٠) ومسلم (٢٥٣٥).

قرنى، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجىءُ قومٌ تسبق شهادةُ أحدهم يمينه، ويمينه شهادته» قال: قال إبراهيم: وكانوا يضربوننا على الشهادة والعهد ونحن صغار(١).

وفى الصحيحين من حديث أنس ـ رضى الله عنه ـ قال: مُرَّ بجنازة فأثنى عليها خيراً. فقال النبى ﷺ: «وجبت، وجبت وجبت»، ومُرَّ بجنازة فأثنى عليها شراً. فقال نبى الله ﷺ: «وجبت، وجبت، وجبت». قال عمر: فدى لك أبى وأمى، مُر بجنازة فأثنى عليها خيراً فقلت: وجبت وجبت وجبت، ومُرَّ بجنازة فأثنى عليها شراً، فقلت: وجبت وجبت وجبت؟

فقال رسول الله ﷺ: «من أثنيتم عليه خيراً وجبت له الجنة، ومن أثنيتم عليه شراً وجبت له النار، أنتم شهداء الله فى الأرض، أنتم شهداء الله فى الأرض، أنتم شهداء الله فى الأرض»(٢).

وعن عائذ بن عمرو: أن أبا سفيان أتى على سلمان وصهيب وبلال فى نفر فقالوا: والله ما أخذت سيوف الله من عنق عدو الله مأخذها قال أبو بكر: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم؟ فأتى النبى ﷺ فأخبره فقال: «يا أبا بكر لعلك أغضبتهم لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك».

فأتاهم أبو بكر فقال: يا إخوتاه! أغضبتكم؟ قالوا: لا، يغفر الله لك يا أخى!»(٣).

وعن سعيد بن أبى بُردة عن أبيه. قال: صلينا المغرب مع رسول الله ﷺ ثم قلنا: لو جلسنا حتى نصلى معه العشاء! قال: فجلسنا. فخرج علينا فقال: «ما زلتُم ها هنا» قلنا: يا رسول الله! صلينا معك المغرب ثم قلنا: نجلس حتى نصلى معك العشاء قال: «أحسنتم، أو أصبتم» قال: فرفع رأسه إلى السماء، وكان كثيراً مما يرفعُ رأسه إلى السماء فقال: «النجوم أَمَنَةٌ للسماء فإذا ذهبت النجومُ أتى السماء ما توعدُ، وأنا أَمَنَةٌ لأصحابى فإذا ذهبتُ أتى أصحابى ما يُوعدون، وأصحابى أَمَنَةٌ لأمتى فإذا ذهب أصحابى أتى أمتى ما يوعدون»(٤).

---

(١) أخرجه البخارى (٣٦٥١) ومسلم (٢٥٣٣).

(٢) أخرجه البخارى (١٣٦٧) الجنائز ـ ومسلم (٩٤٩) الجنائز.

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٠٤) فضائل الصحابة.

(٤) أخرجه مسلم (٢٥٣١) وأحمد (٤/ ٣٩٨ ـ ٣٩٩). قال النووى ـ رحمه الله ـ (شرح مسلم ص: ٣٩١):=

وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ : «يأتي على الناس زمانٌ فيغزو فئامٌ(١) من الناس فيقولون: فيكم من صاحبَ(٢) رسول الله ﷺ ؟(٣) فيقولون لهم: نعم، فيُفتحُ لهم(٤). ثم يأتي على الناس زمانٌ فيغزو فئامٌ من الناس، فيقال: فيكم من صاحب أصحاب رسول الله ﷺ ؟ فيقولون : نعم، فيُفتح لهم. ثم يأتي على الناس زمانٌ فيغزو فئامٌ من الناس، فيقال: هل فيكم من صاحب من صاحب أصحاب رسول الله ﷺ فيقولون: نعم، فيُفتح لهم»(٥).

وعن واثلة بن الأسقع قال: قال رسول الله ﷺ : «لا تزالون بخير ما دام فيكم من رآني وصاحبني، والله لا تزالون بخير ما دام فيكم من رأى من رآني وصاحب من صاحبني»(٦).

* * *

= «وأصحابي أمنة لأمتي فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون»: معناه من ظهور البدع والحوادث في الدين والفتن فيه وطلوع قرن الشيطان وظهور الروم وغيرهم عليهم، وانتهاك المدينة ومكة وغير ذلك، وهذه كلها من معجزاته ﷺ.

(١) الفئام: الجماعة، وقيل: الجماعة الكثيرة (انظر لسان العرب ٣٣٣٦ فقد أورد هناك معان أخر بالإضافة إلى ما ذكرنا).

(٢) في رواية مسلم (من رأى).

(٣) وهذا السؤال عن أصحاب النبي ﷺ ومن رآهم ومن رأى من رآهم للاستنصار والتبرك بهم وبدعائهم، وقد أورد البخاري ـ رحمه الله ـ هذا الحديث أيضًا في كتاب الجهاد باب «من استعان بالضعفاء والصالحين في الحرب» وقال الحافظ ابن حجر هناك: أي ببركتهم ودعائهم.

(٤) قال الحافظ في الفتح (٦/ ٨٩): يفتح للصحابة لفضلهم ثم للتابعين لفضلهم ثم لتابعيهم لفضلهم، قال: ولذلك كان الصلاح والفضل والنصر للطبقة الرابعة أقل فكيف بمن بعدهم، والله المستعان.

(٥) أخرجه البخاري (٣٦٤٩) ومسلم (٢٥٣٢) وأحمد (٣/ ٧).

(٦) رواه ابن أبي شيبة (المصنف ١٢/ ١٧٨) وقال الحافظ ابن حجر في الفتح (٧/ ٥): إسناده حسن.

فضائل الأنصار
(رضى الله عنهم)

إن فضائل الأنصار ـ رضى الله عنهم ـ لا تُعد ولا تُحصى، ولكن حسبنا أن نذكر بعض فضائلهم سائلين الحق ـ جل وعلا ـ أن يجمعنا بهم فى جنته ومستقر رحمته.

الأنصار يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة

قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر:٩].

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: ﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ﴾ أى: من كرمهم وشرف أنفسهم يحبون المهاجرين، ويواسونهم بأموالهم ﴿ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا ﴾ أى لا يجدون فى أنفسهم حسداً للمهاجرين فيما فضَّلهم الله به من المنزلة والشرف والتقديم فى الذكر والرتبة(١).

وقال القرطبى: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ الإيثار هو تقديم الغير على النفس وحظوظها الدنيوية، وذلك ينشأ عن قوة اليقين، وتوكيد المحبة، والصبر على المشقة، أى يؤثرون على أنفسهم بأموالهم ومنازلهم، لا عن غِنى، بل مع احتياجهم إليها(٢).

وها هو موقف سعد بن الربيع الأنصارى مع عبد الرحمن بن عوف المهاجرى ـ رضى الله عنهما ـ ذلكم الموقف الذى لا ننساه أبداً ما دامت أرواحنا فى أجسادنا.

عن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال: قَدِم عبد الرحمن بن عوف فآخى النبىﷺ بينه وبين سعد بن الربيع الأنصارى، فعرض عليه أن يناصفه أهله وماله. فقال عبد الرحمن:

---

(١) تفسير القرآن لابن كثير (٤/ ٣٣٧) دار المعرفة ببيروت.
(٢) الجامع لأحكام القرآن (٨/ ٦٥٠٥) ط. دار الشعب.

بارك الله لك فى أهلك ومالك(١).

وعن إبراهيم بن سعد، عن أبيه، عن جده قال: «لما قدموا المدينة آخى رسول الله ﷺ بين عبد الرحمن وسعد بن الربيع. قال لعبد الرحمن: إنى أكثر الأنصار مالاً فاقسم مالى نصفين، ولى امرأتان فانظر أعجبهما إليك فسمِّها لى أطلقها، فإذا انقضت عدَّتها فتزوجها. قال: بارك الله لك فى أهلك ومالك. أين سوقكم؟ فدلُّوه على سوق بنى قينقاع، فما انقلب إلا ومعه فضل من أقط وسمن، ثم تابع الغدوَّ يومًا، ثم جاء يومًا وبه أثر صُفرة. فقال النبى ﷺ: «مَهْيَمْ؟» قال: تزوجت. قال: كم سُقت إليها؟ قال: نواةً من ذهب - أوَ وزن نواة من ذهب -(٢).

بل هذا موقف عظيم لأبى طلحة - رضى الله عنه -.

فعن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رجلاً أتى النبى ﷺ فبعث إلى نسائه، فقلن ما معنا إلا الماء. فقال رسول الله ﷺ: من يضم - أو يضيِّف هذا - فقال رجل من الأنصار(٣): أنا. فانطلق به إلى امرأته فقال: أكرمى ضيف رسول الله ﷺ فقالت: ما عندنا إلا قوت صبيانى فقال: هيئى طعامك وأصبحى سراجك ونوِّمى صبيانك إذا أرادوا عَشاءً. فهيأت طعامها، وأصبحت سراجها، ونومت صبيانها، ثم قامت كأنها تُصلح سراجها فأطفأته فجعلا يُريانه أنهما يأكلان، فباتا طاويين - جائعين - فلما أصبح غدا إلى رسول الله ﷺ فقال: «ضحك الله الليلة - أو عَجب - من فعلكما فأنزل الله: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ »(٤).

ولم يكن هذا الكرم والإيثار موقفًا فرديًا، بل كان موقفًا جماعيًا من الأنصار نحو المهاجرين - رضى الله عنهم جميعًا -.

فعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال: قالت الأنصار للنبى ﷺ: اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل. قال: «لا». فقالوا: تكفونا المؤونة ونُشرككم فى الثمرة. قالوا: سمعنا وأطعنا(٥).

---

(١) رواه البخارى (٧/ ٣١٧) مناقب الأنصار.

(٢) رواه البخارى (٧/ ١٤٠) مناقب الأنصار.

(٣) فى رواية ابن فضيل عن أبيه عند مسلم (ص ١٦٢٥): فقام رجل من الأنصار يقال له أبو طلحة.

(٤) أخرجه البخارى (٣٧٩٨) ومسلم (٢٠٥٤) والترمذى (٣٣٠٤).

(٥) أخرجه البخارى (٢٣٢٥) عن أبى هريرة - رضى الله عنه -.

الله ـ عز وجل ـ سمّى الأنصار أنصاراً

عن غيلان بن جرير قال: قلت لأنس: أرأيت اسم الأنصار كنتم تُسمَّون به أم سمَّاكم الله؟ قال: بل سمانا الله. كنا ندخل على أنس فيحدثنا بمناقب الأنصار ومشاهدهم ويُقبل عليَّ أو على رجل من الأزد فيقول: فعل قومك يوم كذا وكذا كذا وكذا[(١)].

مَنْ أحب الأنصار أحبه الله ـ جل وعلا ـ

قال ﷺ: «من أحب الأنصار أحبه الله ومن أبغض الأنصار أبغضه الله»[(٢)].

وقال ﷺ: «إن الناس يهاجرون إليكم ولا تهاجرون إليهم، والذى نفسى بيده، لا يحبُّ الأنصار رجلٌ حتى يلقى الله؛ إلا لقى الله وهو يحبه، ولا يبغضُ الأنصار رجلٌ حتى يلقى الله، إلا لقى الله وهو يبغضه»[(٣)].

آية الإيمان حُب الأنصار

قال ﷺ: «آية الإيمان حُب الأنصار، وآية النفاق بُغض الأنصار»[(٤)].

وقال ﷺ: «لا يبغض الأنصار رجلٌ يؤمن بالله واليوم الآخر»[(٥)].

النبى ﷺ يوصى بالأنصار خيراً

قال ﷺ: «إن الأنصار قد قضوا الذى عليهم وبقى الذى عليكم فاقبلوا من مُحسنهم، وتجاوزوا عن مُسيئهم»[(٦)].

وقال ﷺ: «استوصوا بالأنصار خيراً»[(٧)].

وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال: خرج رسول الله ﷺ وعليه ملحفة متعطفًا

---

(١) أخرجه البخارى (٣٧٧٦).

(٢) رواه أحمد والبخارى فى تاريخه عن معاوية، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٩٥٣).

(٣) رواه أحمد والطبرانى فى الكبير عن الحارث بن زياد، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١٩٧٩).

(٤) متفق عليه عن أنس ـ صحيح الجامع (١٥).

(٥) أخرجه مسلم عن أبى هريرة ـ وأحمد والترمذى والنسائى عن ابن عباس ـ صحيح الجامع (٧٥٩٢).

(٦) رواه الشافعى والبيهقى فى «المعرفة» عن أنس، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٥٨٧).

(٧) رواه أحمد عن أنس، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٩٥٩).

بها على منكبيه، وعليه عصابة دسماء حتى جلس على المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد أيها الناس إن الناس يكثرون وتقلّ الأنصار حتى يكونوا كالملح فى الطعام، فمن ولى منكم أمرًا يضرُّ فيه أحدًا أو ينفعه فليقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم»[1].

وعن هشام بن زيد قال: سمعت أنس بن مالك يقول: مرَّ أبو بكر والعباس ـ رضى الله عنهما ـ بمجلس من مجالس الأنصار وهم يبكون فقال: ما يبكيكم؟ قالوا: ذكرنا مجلس النبى ﷺ منا[2]. فدخل على النبى ﷺ فأخبره بذلك، قال: فخرج النبى ﷺ وقد عصب على رأسه حاشية بُرد قال: فصعد المنبر ـ ولم يصعده بعد ذلك اليوم ـ فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أوصيكم بالأنصار فإنهم كرشى وعيبتى[3]، وقد قضوا الذى عليهم وبقى الذى لهم فاقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم».

الأنصار أكثر الناس شهيداً

قال ابن عبد ربه فى «العقد الفريد» (١/ ١١٨): «رجال الأنصار أشجع الناس. قال عبد الله بن عباس: ما استُلَّت السيوف، ولا زحفت الزحوف، ولا أقيمت الصفوف، حتى أسلم ابنا قيلة، (يعنى الأوس والخزرج) وهما الأنصار من بنى عمرو بن عامر، من الأزد».

وفى البخارى عن قتادة قال: «ما نعلم حيًا من أحياء العرب أكثر شهيدًا، أعزَّ يوم القيامة من الأنصار. قال قتادة: وحدّثنا أنس بن مالك أنه قُتل منهم يوم أُحد سبعون، ويوم بئر معونة سبعون، ويوم اليمامة سبعون. قال: وكان بئر معونة على عهد رسول الله ﷺ، ويوم اليمامة على عهد أبى بكر يوم مسيلمة الكذاب».

وعن أنس أنه كان يقول: يارب، سبعين من الأنصار يوم أُحد، وسبعين يوم بئر

---

(١) أخرجه البخارى (٣٨٠٠) عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ.

(٢) أخرجه البخارى (٣٧٩٩) والنسائى فى الفضائل (٢٤١). قال الحافظ فى الفتح (٧/ ١٢١) قوله: (ذكرنا مجلس النبى ﷺ) أى الذى كانوا يجلسونه معه، وكان ذلك فى مرض النبى ﷺ فخشوا أن يموت من مرضه فيفقدوا مجلسه فبكوا حزنًا على فوات ذلك.

(٣) قال الحافظ فى الفتح (٧/ ١٢١): قوله (كرشى وعيبتى) أى بطانتى وخاصتى.

قال القزاز: ضرب المثل بالكرش لأنه مستقر غذاء الحيوان الذى يكون فيه نماؤه، ويقال: لفلان كرشى منثورة أى عيال كثيرة، والعيبة بفتح المهملة وسكون المثناة بعدها موحدة: ما يحرز فيه الرجل نفيس ما عنده، يريد أنهم موضع سره وأمانته.

معونة، وسبعين يوم مسيلمة الكذاب، وسبعين يوم جسر أبي عبيدة[١].

الأنصار من أحب الناس إلى رسول الله ﷺ

عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: رأى النبي ﷺ النساء والصبيان مقبلين ـ قال حسبت أنه قال من عُرس ـ فقال النبي ﷺ مُمثلاً فقال: «اللهم أنتم من أحبِّ الناس إليَّ» قالها ثلاث مرار[٢].

وعن هشام بن زيد قال: سمعت أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: جاءت امرأة من الأنصار إلى رسول الله ﷺ ومعها صبي لها، فكلمها رسول الله ﷺ فقال: «والذي نفسي بيده إنكم أحب الناس إليَّ... مرتين»[٣].

وعن أنس قال: كان رسول الله ﷺ يزور الأنصار فيسلم على صبيانهم ويمسح برءوسهم ويدعو لهم»[٤].

اصبروا حتى تلقوني على الحوض

إنها كلمات قالها الحبيب ﷺ للأنصار.. فيا لها من منقبة عظيمة، ويا له من موعد تتضاءل أمامه الدنيا بمتاعها الزائل، ويا له من لقاء مع الحبيب ﷺ في هذا المكان الذي يأتيه الماء من نهر الكوثر ـ وهو نهر من أنهار الجنة أعطاه الله لنبيه ﷺ تكرمة له ـ.

عن يحيى بن سعيد سمع أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ حين خرج معه إلى الوليد قال: دعا النبي ﷺ الأنصار إلى أن يُقطِعَ لهم البحرين، فقالوا: لا إلا أن تُقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها. قال: إما لا فاصبروا حتى تلقوني فإنه سيصيبكم بعدي أَثَرة[٥].

وعن أُسيد بن حُضير ـ رضي الله عنه ـ أن رجلاً من الأنصار قال: يا رسول الله ألا تستعملني كما استعملت فلانًا؟ قال: «ستلقون بعدي أَثَرةً فاصبروا حتى تلقوني على الحوض»[٦].

---

(١) نقلاً من علو الهمة/ د. سيد حسين (٣/ ٣٧٢ ـ ٣٧٣).
(٢) أخرجه البخاري (٣٧٨٥) عن أنس ـ رضي الله عنه ـ.
(٣) أخرجه البخاري (٣٧٨٦) ومسلم (٢٥٠٩) والنسائي في الفضائل (٢٢٧).
(٤) رواه النسائي (الفضائل ٢٤٤) (الكبرى ٥/ ٩٢) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٩٤٧).
(٥) أخرجه البخاري (٣٧٩٤) عن أنس ـ رضي الله عنه ـ.
(٦) أخرجه البخاري (٣٧٩٢) ومسلم (١٨٤٥) والترمذي (٢١٨٩).

النبى ﷺ يدعو بالمغفرة للأنصار والمهاجرة

عن حميد الطويل قال: سمعت أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ قال: كانت الأنصار يوم الخندق تقول:

نحن الذين بايعوا محمدًا   على الجهـاد ما حَيِينَا أبدا

فأجابهم: «اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فأكرم الأنصار[١] والمهاجرة»[٢].

وعن سهل قال: جاءنا رسول الله ﷺ ونحن نحفر الخندق وننقل التراب على أكتادنا فقال رسول الله ﷺ: «اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فاغفر للمهاجرين والأنصار»[٣].

الأنصار تركة النبى ﷺ

قال ﷺ: «لكل نبيٍ تَرِكةٌ (وضيعةٌ) وإن تركتى وضيعتى الأنصار فاحفظونى فيهم»[٤].

الأنصار مولاهم الله ورسوله ﷺ

عن أبى أيوب قال: قال رسول الله ﷺ: «الأنصار ومزينة وجُهينة وغفار وأشجع، ومن كان من بنى عبد الله مواليَّ دون الناس، والله ورسوله مولاهم»[٥].

لولا الهجرة لكنت امرءً من الأنصار

قال ﷺ: «الأنصارُ شعارٌ، والناسُ دثارٌ، ولو أنَّ الناس استقبلوا واديًا أو شعبًا، واستقبلت الأنصارُ واديًا، لسلكت وادى الأنصار، ولولا الهجرة لكنتُ امرَأً من الأنصار»[٦].

---

(١) وفى رواية عند البخارى (٣٧٩٥): «فأصلح الأنصار والمهاجرة» وفى أخرى «فاغفر للأنصار».

(٢) أخرجه البخارى (٣٧٩٦) وأحمد (٣/ ١٧٠) والنسائى فى فضائل الصحابة (٢١٢).

(٣) أخرجه البخارى (٣٧٩٧) ومسلم (١٨٠٤) والنسائى فى فضائل الصحابة (٢٠٧).

(٤) رواه الطبرانى فى الأوسط عن أنس، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٥١٧٣).

(٥) أخرجه مسلم (٢٥١٩) والترمذى (٣٩٤٠) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٦) رواه ابن ماجه عن سهل بن سعد ـ متفق عليه عن عبد الله بن زيد ـ صحيح الجامع (٢٧٩١).

مواقف تاريخية للأنصار ـ رضي الله عنهم ـ

ولقد وقف الأنصار ـ رضى الله عنهم ـ مواقف تاريخية، وإليكم بعض تلك المواقف التى تتألق روعة وجمالاً.

موقف الأنصار يوم بيعة العقبة الثانية

عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ قال: صحبت جرير بن عبد الله فكان يخدمنى[١] ـ وهو أكبر من أنس. قال جرير: إنى رأيت الأنصار يصنعون شيئًا لا أجد أحدًا منهم إلا أكرمته[٢].

وعن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ لبث عشر سنين يتبع الحاج فى منازلهم فى الموسم وبمَجَنَّة وبعكاظ وبمنازلهم بمنى: «من يؤوينى، من ينصرنى حتى أبلغ رسالات ربى ـ عز وجل ـ وله الجنة» فلا يجد أحدًا ينصره ويؤويه حتى إن الرجل يرحل من مُضر أو من اليمن أو زَوْر صَمَد فيأتيه قومه فيقولون: احذر غلام قريش لا يفتنك. ويمشى بين رحالهم يدعوهم إلى الله ـ عز وجل ـ يشيروا إليه بالأصابع، حتى بعثنا الله ـ عز وجل ـ له من يثرب فيأتيه الرجل فيؤمن به فيقرئه القرآن، فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه حتى لا يبقى دار من دور يثرب إلا فيها رهط من المسلمين يُظهرون الإسلام، ثم بعثنا الله ـ عز وجل ـ فائتمرنا واجتمعنا سبعون رجلاً منا، فقلنا حتى متى نذر ـ نترك ـ رسول الله ﷺ يُطرد فى جبال مكة ويخاف؟ فدخلنا حتى قدمنا عليه فى الموسم فواعدناه شِعب العقبة فقال عمه العباس: يا ابن أخى إنى لا أدرى ما هؤلاء القوم جاءوك؟ إنى ذو معرفة بأهل يثرب فاجتمعنا عنده من رجل ورجلين فلما نظر العباس ـ رضى الله عنه ـ فى وجوهنا قال: هؤلاء قوم لا أعرفهم، هؤلاء أحداث، فقلنا: يا رسول الله! علام نبايعك؟ قال: تبايعونى على السمع والطاعة فى النشاط والكسل، وعلى النفقة فى العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وعلى أن تقولوا فى الله لا تأخذكم فيه لومة لائم، وعلى أن تنصرونى إذا قدمت يثرب فتمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة، فقمنا نبايعه فأخذ بيده أسعد بن زرارة وهو أصغر السبعين فقال: رويدًا يا أهل يثرب إنا لم نضرب إليه أكباد المطى إلا ونحن نعلم أنه رسول الله، إن

---

(١) عند مسلم: فقلت له: لا تفعل. قال:..... فذكره.

(٢) أخرجه البخارى (٢٨٨٨) ـ ومسلم (٢٥١٣).

إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة وقتل خياركم وأن تعضكم السيوف، فإما أنتم قوم تصبرون على السيوف إذا مستكم وعلى قتل خياركم وعلى مفارقة العرب كافة فخذوه وأجركم على الله ـ عز وجل ـ وإما أنتم قوم تخافون من أنفسكم خيفة، فذروه فهو أعذر عند الله قالوا: يا أسعد ابن زرارة أمط عنا يدك فوالله لا نذر هذه البيعة ولا نستقيلها. فقمنا إليه رجلاً رجلاً يأخذ علينا بشرطه العباس ويعطينا على ذلك الجنة[1].

موقف الأنصار يوم بدر

وفي يوم بدر وقف الأنصار موقفًا عظيمًا من أعظم المواقف، فإنه عندما قال رسول الله ﷺ: «أشيروا عليّ أيها الناس». وإنما يريد الأنصار، وذلك أنهم عددُ الناس ـ أي أكثر عددًا من المهاجرين ـ وأنهم حين بايعوه بالعقبة، قالوا: يا رسول الله! إنا برآءُ من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلتَ إلينا فأنت في ذمتنا، نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا. فكان رسول الله ﷺ يتخوّف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصره إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدوٍّ من بلادهم. فلما قال ذلك رسول الله ﷺ، قال له سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: «أجل»؛ قال: فقد آمنّا بك وصدّقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا، على السمع والطاعة، فامضِ يا رسول الله لما أردت، فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحرَ فخُضته لخُضناه معك، ما تخلف منا رجلٌ واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا، إنا لصُبُرٌ في الحرب، صُدُقٌ في اللقاء، ولعل الله يُريك منا ما تقرّ به عينُك، فسرْ بنا على بركة الله. فسُرّ رسول الله ﷺ بقول سعد، ونشّطه ذلك؛ ثم قال: «سيروا وأبشروا، فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم»[2].

* * *

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٣٩)، وصححه الشيخ الألباني في تخريجه لأحاديث فقه السيرة للشيخ الغزالي.

(٢) هكذا أورده ابن هشام من غير سند هنا، ولعله اعتمد على إسناده في أول الغزوة والله أعلم. وذكره ابن كثير في تفسيره (٣/ ٧٢) بنحوه ونسبه إلى ابن مردويه من طريق محمد بن عمرو بن علقمة بن وقاص الليثي عن أبيه عن جده مرسلاً وعزاه ابن حجر في الفتح (٧/ ٣٣٦) من مرسل علقمة بن وقاص، عن ابن أبي شيبة. وللحديث شواهد منها ما أخرجه البخاري من حديث ابن مسعود (٧/ ح ٣٩٥٢/ فتح).

موقف الأنصار بعد غزوة حنين

عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: لما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى من تلك العطايا، في قريش وفي قبائل العرب، ولم يكن في الأنصار منها شيءٌ، وجد هذا الحيُّ من الأنصار في أنفسهم، حتى كثرت منهم القالةُ حتى قال قائلهم: لقد لقي والله رسول الله ﷺ قومه، فدخل عليه سعد بن عبادة، فقال: يا رسول الله، إنَّ هذا الحيَّ من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم، لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت، قسمت في قومك، وأعطيت عطايا عظامًا في قبائل العرب، ولم يك في هذا الحيّ من الأنصار منها شيء. قال: «فأين أنت من ذلك يا سعد؟» ـ يعني ما رأيك ـ قال: يا رسول الله، ما أنا إلا من قومي. قال: «فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة»، قال: فخرج سعد، فجمع الأنصار في تلك الحظيرة. قال: فجاء رجل من المهاجرين فتركهم، فدخلوا، وجاء آخرون فردَّهم. فلما اجتمعوا له أتاه سعد، فقال: قد اجتمع لك هذا الحيُّ من الأنصار، فأتاهم رسول الله ﷺ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: «يا معشر الأنصار، ما قالة بلغتني عنكم، وجِدَةٌ وجدتموها [عليَّ] في أنفسكم؟ ألم آتكُم ضُلالاً فهداكم الله، وعالةً فأغناكم الله، وأعداءً فألف الله بين قلوبكم!» قالوا: بلى، الله ورسوله أمن وأفضلُ. ثم قال: «ألا تجيبونني يا معشر الأنصار؟» قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ولرسوله المنُّ والفضلُ. قال ﷺ: «أما والله لو شئتم لقلتم، فلَصَدَقْتُمْ ولَصُدِّقْتُمْ: أتيتنا مُكذَّبًا فصدَّقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريدًا فآويناك، وعائلاً فآسيناك، أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لُعَاعَة من الدنيا تألفتُ بها قومًا ليُسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم، ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار، ولو سلك الناس شعبًا وسلكت الأنصار شعبًا، لسلكتُ شِعبَ الأنصارِ. اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار».

قال: فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قَسمًا وحظًا. ثم انصرف رسول الله ﷺ، وتفرقوا[1].

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣/ ٧٦، ٧٧) من طريق ابن إسحاق، وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٢٩) رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير محمد بن إسحاق، وقد صرح بالسماع.

ولم تكن مواقف الأنصار فى تلك المواضع فحسب.. بل لقد كان للأنصار مواقف ومواقف فى كل غزوة، بل فى كل لحظة مرت على الإسلام والمسلمين، ولكنى ذكرت بعضها فقط خشية الإطالة. وإلا فمواقف الأنصار تحتاج إلى مجلدات لكى نذكر مناقبهم ومآثرهم ومواقفهم الخالدة - فرضى الله عنهم وأرضاهم -.

ولا أستطيع أبدًا أن أنسى مقالة أمنا عائشة - رضى الله عنها - حينما قالت: «نِعم النساءُ نساءُ الأنصار لم يكن يمنعهن الحياءُ أن يتفقهن فى الدين»[1].[2]

فرضى الله عن المهاجرين والأنصار وعن سائر الصحابة أجمعين

※ ※ ※

---

(١) أخرجه مسلم (ص: ٢٦١) وأبو داود (٣١٦) وابن ماجه (٦٤٢).

(٢) بعض العناوين فى فضائل الأنصار اقتبستها من كتاب فضائل الصحابة للشيخ مصطفى العدوى.

تحريم سب الصحابة
(رضي الله عنهم)

عن أبي سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ قال: قال النبى ﷺ: «لا تسبُّوا أصحابى، فلو أن أحدكم أنفق مثل أُحُدٍ ذهبًا ما بلغ مُدَّ[1] أحدهم ولا نصيفه»[2].

وعن عبد الله بن مغفل أن النبى ﷺ قال: «الله الله فى أصحابى لا تتخذوهم غرضًا بعدى، فمن أحبهم فبحبى لهم أحبهم، ومن أبغضهم فببغضى أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذانى، ومن آذانى فقد آذى الله، ومن آذى الله أوشك أن يأخذه»[3].

وقال رسول الله ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى اختارنى، واختار لى أصحابًا، فجعل لى

---

(١) المد: قال فى لسان العرب: المُدُّ ضرب من المكاييل وهو ربع صاع وهو قدر مُد النبى ﷺ، وذكر أقوالاً أخرى وقال: وقيل: إن أصل المد مقدر بأن يمد الرجل يديه فيملأ كفيه طعامًا. ونقل الحافظ ابن حجر فى الفتح (٧/ ٣٤) عن البيضاوى قوله: معنى الحديث لا ينال أحدكم بإنفاق مثل أُحد ذهبًا من الفضل والأجر ما ينال أحدهم بإنفاق مُد طعام أو نصيفه، وسبب التفاوت ما يقارن الأفضل من مزيد الإخلاص وصدق النية، قلت (القائل الحافظ): وأعظم من ذلك فى سبب الأفضلية عظم موقع ذلك لشدة الاحتياج إليه، وأشار بالأفضلية بسبب الإنفاق إلى الأفضلية بسبب القتال كما وقع فى الآية: ﴿من أنفق من قبل الفتح وقاتل﴾ فإن فيها إشارة إلى موقع السبب الذى ذكرته، وذلك أن الإنفاق والقتال كان قبل فتح مكة عظيمًا لشدة الحاجة إليه وقلة المعتنى به بخلاف ما وقع بعد ذلك؛ لأن المسلمين كثروا بعد الفتح ودخل الناس فى دين الله أفواجًا فإنه لا يقع ذلك الموقع المتقدم. والله أعلم.

(٢) أخرجه البخارى (٣٦٧٣) عن أبى سعيد الخدرى. قوله: «نصيفه» قال الترمذى: ومعنى قوله «نصيفه» أى نصف المد. أما حكم من سب أصحاب النبى ﷺ فننقل هنا بعض أقوال أهل العلم:
قال النووى ـ رحمه الله ـ (شرح مسلم ٥/ ٤٠٠): واعلم أن سب الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ حرام من فواحش المحرمات، سواء من لابس الفتن منهم وغيره لأنهم مجتهدون فى تلك الحروب متأولون كما أوضحناه فى أول فضائل الصحابة من هذا الشرح، قال القاضى: وسب أحدهم من المعاصى الكبائر ومذهبنا ومذهب الجمهور أنه يُعزر ولا يقتل، وقال بعض المالكية: يُقتل.
وقال الحافظ ابن حجر (فتح البارى ٧/ ٣٦): اختلف فى ساب الصحابى فقال عياض: ذهب الجمهور إلى أنه يُعزر، وعن بعض المالكية يُقتل، وخص بعض الشافعية ذلك بالشيخين والحسنين، فحكى القاضى حسين فى ذلك وجهين، وقواه السبكى فى حق من كفَّر الشيخين، وكذا من كفر من صرح النبى ﷺ بإيمانه أو تبشيره بالجنة إذا تواتر الخبر بذلك عنه لما تضمن من تكذيب رسول الله ﷺ.

(٣) رواه أحمد فى المسند (٤/ ٨٧)، (٥/ ٥٤، ٥٧)، وقال محققه: إسناده حسن، ورواه أيضًا الترمذى رقم (٣٨٦٢) وغيره.

منهم وزراء وأنصاراً وأصهاراً، فمن سبَّهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يُقبل منه يوم القيامة صرف ولا عدل»(١). الصرف: النافلة، والعدل: الفريضة..

وقال الإمام الذهبي ـ رحمه الله ـ: «إنما يعرف فضائل الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ من تدبر أحوالهم وسيرهم وآثارهم فى حياة رسول الله ﷺ، وبعد موته من المسابقة إلى الإيمان، والمجاهدة للكفار، ونشر الدين، وإظهار شعائر الإسلام، وإعلاء كلمة الله ورسوله، وتعليم فرائضه، وسُننه، ولولاهم ما وصل إلينا من الدين أصل ولا فرع، ولا علمنا من الفرائض والسنن سُنَّة ولا فرضًا، ولا علمنا من الأحاديث والأخبار شيئًا.

فمن طعن فيهم، أو سبَّهم، فقد خرج من الدين، ومَرَق من ملة المسلمين؛ لأن الطعن لا يكون إلا عن اعتقاد مساويهم، وإضمار الحقد فيهم، وإنكارَ ما ذكره الله تعالى فى كتابه من ثنائه عليهم وفضائلهم ومناقبهم وحُبِّهم.

ولأنهم أرضى الوسائل المأثورة، والوسائط من المنقول، والطعن فى الوسائط طعن فى الأصل، والازدراء بالناقل ازدراء بالمنقول، وهذا ظاهر لمن تدبره وسَلِمَ من النفاق والزندقة والإلحاد فى عقيدته»(٢). اهـ.

وقال إمام أهل السنة أحمد بن حنبل ـ رحمه الله تعالى ـ:

ومن الحجة الواضحة البينة المعروفة ذكر محاسن أصحاب رسول الله ﷺ كلهم أجمعين، والكف عن ذكر مساويهم، والخلاف الذى شجر بينهم، فمن سب أصحاب رسول الله ﷺ أو واحداً منهم أو تنقص أو طعن عليهم، أو عرَّض بعيبهم أو عاب أحداً منهم فهو مبتدع رافضى خبيث، مخالف لا يقبل الله منه صرفًا ولا عدلاً، بل حُبهم سُنة والدعاء لهم قُربة، والاقتداء بهم وسيلة، والأخذ بآثارهم فضيلة، وأصحاب رسول الله ﷺ هم خير الناس، لا يجوز لأحد أن يذكر شيئًا من مساويهم، ولا يطعن على أحد منهم بعيب ولا نقص(٣).

وقال ﷺ: «احفظونى فى أصحابى، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم...»(٤).

---

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ٦٣٢) وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبى.
(٢) الكبائر للإمام الذهبى (ص: ٢٧٦) ـ كبيرة سبِّ الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ.
(٣) السنة للإمام أحمد (ص: ٧٨).
(٤) رواه ابن ماجه عن عمر، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٠٦).

وقال ﷺ: «إذا ذُكر أصحابى فأمسِكوا، وإذا ذُكرت النجوم فأمسِكوا، وإذا ذُكر القدر فأمسكوا»(١).

وقال ﷺ: «لعن الله من سبَّ أصحابى»(٢).

وفى رواية قال ﷺ: «من سبَّ أصحابى فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين»(٣).

فيا ليتنا نعرف قدر أصحاب النبى ﷺ ونعيش، بل ونتعايش مع كل لحظة عاشوها فى البذل والتضحية والفداء بالنفس والمال والولد لنعلم أنهم استحقوا أن ينالوا رضوان الله ومحبته وجنته ونسير على خُطاهم فنبذل الغالى والنفس والنفيس من أجل إعلاء كلمة «لا إله إلا الله» فى الكون كله.

ونكون بذلك قد صدقنا مع الله ـ جل وعلا ـ الذى قال فى حق الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ:

﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب:٢٣].

فنكون ممن ينتظر.. فيفتح الله لنا القلوب والأسماع وينشر بنا الخير والإيمان فى أرجاء الكون، ويتحقق موعود الله ـ عز وجل ـ:

﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد:٧].

فهيا بنا نطوف سويًا فى بساتين الصادقين ـ اليانعة ـ لنرى ونعلم كيف صدقوا مع الله فأعزهم الله وأعز بهم الإسلام فى كل مكان.

فنسأل الله ـ جل وعلا ـ أن يجمعنا بالحبيب ﷺ وبأصحابه ـ رضى الله عنهم ـ فى جنته ومستقر رحمته. إنه ولى ذلك والقادر عليه.

---

(١) رواه الطبرانى فى الكبير عن ابن مسعود، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٤٥).

(٢) رواه الطبرانى فى الكبير عن ابن عمر، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٥١١١).

(٣) رواه الطبرانى فى الكبير عن ابن عباس، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٢٨٥).

أبو بكر الصديق

«ما لأحد عندنا يدٌ إلا وقد كافأناه ما خلا أبا بكر فإن له
عندنا يداً يكافئه الله بها يوم القيامة وما نفعني مال
أحد قط ما نفعني مال أبي بكر ولو كنت
متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً»

محمد رسول الله ﷺ

إنه رجلٌ عظيم القدر.. رفيع المنزلة.. عَبَد الله متأسيًا برسول الله ﷺ.. وجاهد في الله وأنفق كل ماله في سبيل الله.

نَصَر الرسول ﷺ يوم خَذَله الناس وآمن به يوم كَفَر به الناس وصدَّقه يوم كذّبه الناس.

جهِل فعله الكثير من أبناء المسلمين وبخسوه حقه وهضموه منزلته ولم يقدروه قدره.

لم يتجاهله العامة فحسب!! بل تجاهله الخاصة من الخطباء والوعّاظ والدعاة والكُتّاب!!!.

ربما لأنه عظيم بجوار مَن هو أعظم.. وكريم بجوار مَن هو أكرم.. فطغت عظمةُ صاحبه ﷺ وقدره ومنزلته على عظمته وقدره ومنزلته.

إنه أفضل الصحابة بلا خلافٍ.. ما طلعت الشمس ولا غربت بعد النبيين والمرسلين على رجلٍ خيرٍ منه.

إنه أول مَن آمن من الرجال على الصحيح... إنه مَن وُزن إيمانه بإيمان الأمة فرجح إيمانه.

إنه الورع الحيي.. الحازم الرحيم.. التاجر الكريم.. صاحب الفطرة السليمة من أدران الظلام والجاهلية.

كان شبيهًا بالرسول ﷺ.. وأنعِم به من شَبَه.

إنه رجلٌ لا كالرجال.. وسيرة لا كالسير.

إنه من دُعى إلى الإسلام فما كَبَا ولا نَبَا ولا تردد.

وإنما بادر إلى الإسلام وما تلعثم.

وما كان لأصحاب الفِطر السليمة أن يتلعثموا عن خيرٍ دُعوا إليه.

وكيف لا يبادر إلى الإسلام وقد صَحِب رسول الله ﷺ قبل البعثة وعَلِم صِدقه وأمانته وحُسن سجاياه وكرم خُلقه.

عَلِم أنه لا يكذب على الخلق فكيف يكذب ﷺ على الخالق ـ جل وعلا ـ لذا كان لسانَ حاله يوم دُعى إلى الله من جانب رسول الله ﷺ:

ما جربت عليك كذبًا قَط.

أما لسان مقاله: فأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. فتمتد يده إلى المصطفى ﷺ لتبايعه فتكون أول يدٍ تمتد إلى الحبيب ﷺ (١).

وها نحن من خلال تلك السطور على موعدٍ مع نبذة صغيرة من فضائله ومواقفه التى سطَّرها على جبين التاريخ بسطورٍ من نور.

من هو الصدّيق ـ رضى الله عنه ـ

هو عبد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مُرة بن كعب بن لؤى القرشى التيمى أبو بكر الصديق بن أبى قحافة(٢).

(وُلد بمنى) وهو يلتقى فى النسب مع رسول الله ﷺ فى (مُرة).

تزوج فى الجاهلية امرأتين ـ قتيلة بنت عبد العُزى وأم رومان بنت عامر ـ.

وتزوج فى الإسلام امرأتين ـ أسماء بنت عميس وحبيبة بنت خارجة بن زيد ـ.

❊ ❊ ❊

---

(١) من شريط (صور وعبر) للشيخ/ على القرنى.

(٢) طبقات ابن سعد (٣/ ١٢٥ ـ ١٢٦) والاستيعاب (٣/ ٩٦٣) والإصابة (٢/ ٤١٧).

كان مثاليًا حتى فى أيام الجاهلية

لقد كان الصدِّيق ـ رضى الله عنه ـ مثاليًا فى كل شىء ـ حتى فى أيام الجاهلية ـ فلا عجب أن تراه بعد إسلامه أفضل رجلٍ بعد رسول الله ﷺ.. فقد قال ﷺ: «خياركم فى الجاهلية خياركم فى الإسلام إذا فقهوا»(١).

قال ابن إسحاق: وكان أبو بكر رجلاً مُألفًا لقومه مُحببًا سهلاً، وكان أنسب قريش لقريش، وأعلم قريش بها، وبما كانَ فيها من خير وشر، وكان رجلاً ذا خُلق ومعروف، وكان رجال قريشٍ يأتونه ويألفونه، لعلمه وتجارته، وحسن مجالسته، فجعل يدعو إلىّ الله وإلى الإسلام مَن وثق به من قومه ممّن يغشاه ويجلس إليه(٢).

وها هو ـ رضى الله عنه ـ تراه قد حرَّم على نفسه الخمر فى الجاهلية فلم يشربها قط لا فى الجاهلية، ولا فى الإسلام، وذلك أنه مَرّ وهو فى الجاهلية برجلٍ سكران يضع يده فى العذرة ـ الغائط ـ يدنيها من فيه، فإذا وجد ريحها صدف عنها، فحرَّمها أبو بكر على نفسه.

ولم يسجد ـ رضى الله عنه ـ لصنم قط.

قال أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ فى مجمع من أصحاب رسول الله ﷺ: ما سجدت لصنم قط، وذلك أنى لما ناهزت الحلمِ أخذنى أبو قحافة بيدى فانطلق بى إلى مخدع فيه الأصنام، فقال لى: هذه آلهتك الشُمّ العوالى، وخلانى وذهب، فدنوت من الصنم، وقلت: إنى جائعٌ فأطعمنى فلم يُجبنى، فقلت: إنى عارٍ فاكسنى، فلم يجبنى، فألقيت عليه صخرة فخرّ لوجهه(٣).

إسلامه ـ رضى الله عنه ـ

عن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ قال: «قال أبو بكر: ألستُ أحقَّ الناس بها؟ أى الخلافة، ألستُ أول من أسلم؟ ألستُ صاحب كذا. ألستُ صاحب كذا؟»(٤).

---

(١) أخرجه البخارى ومسلم عن أبى هريرة ـ صحيح الجامع (٣٢٦٧).

(٢) السيرة لابن هشام (١/ ٢١١).

(٣) التاريخ الإسلامى/ لمحمود شاكر (٣١/ ٣) ط. المكتب الإسلامى.

(٤) رواه الترمذى عن أبى سعيد الخدرى، وصححه الألبانى فى صحيح سنن الترمذى (٢٨٩٨).

قال الإمام السيوطى: وقيل: أول من أسلم (علىٌّ) وقيل: خديجة، وجُمع بين الأقوال بأن أبا بكر أول من أسلم من الرجال، (وعلىّ) أول من أسلم من الصبيان، وخديجة أول من أسلمت من النساء.

وأول من ذكر هذا الجمع الإمام أبو حنيفة، رحمه الله[1].

وما إن أسلم أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ حتى حمل أمانة الدين على أعناقه وخرج يدعو الناس إلى دين الله ـ جل وعلا ـ فأسلم على يديه ستة من العشرة الذين بشّرهم النبى ﷺ بالجنة فيما بعد.

فيأتى الصدّيق ـ رضى الله عنه ـ يوم القيامة وهم فى ميزان حسناته.

بل وأسلم على يديه خلقٌ كثيرٌ غير هؤلاء الأطهار الأبرار.

وهكذا يجب أن يكون الداعية... يحمل همَّ الناس من حوله ويخشى عليهم من عذاب الله ويأخذ بأيديهم إلى مرضاة الله وجنته.

النبى ﷺ لقبه «عتيقًا»

ومن المناقب الجميلة أن الذى لقَّب أبا بكرٍ (عتيقًا) هو الحبيب المصطفى الصادق المصدوق ﷺ.

عن أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت: إنى لفى بيت رسول الله ﷺ وأصحابه فى الفناء، وبينى وبينهم السِتر إذ أقبل أبو بكر فقال رسول الله ﷺ: «من سره أن ينظر إلى عتيق من النار، فلينظر إلى هذا»، وإن اسمه الذى سماه به أهله لعبد الله بن عثمان بن عامر، ولكن غلب عليه عتيق[2].

وعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت: دخل أبو بكر الصديق على رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: «أبشر، فأنت عتيق الله من النار» قلت: فمن يومئذ سُمى عتيقًا[3].

---

(١) تاريخ الخلفاء (ص ٣٤).

(٢) رواه الترمذى رقم (٣٦٧٩)، والطبرانى فى الكبير (٩)، والحاكم فى المستدرك (٢/ ٤١٥)، وذكره الهيثمى فى المجمع (٩/ ٤٠)، وقال: رجالهما ثقات، وحكى السيوطى فى الجامع الكبير (٤٣٨): أن ابن كثير نسبه لأبى نعيم، وقال: قال ابن كثير: إسناده جيد.

(٣) رواه الترمذى رقم (٣٦٧٩) فى المناقب، باب مناقب أبى بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ، وصححه شيخنا الألبانى فى الصحيحة.

أبو بكر خير من مؤمن آل فرعون

قال الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ عن فضائل الصدِّيق ـ رضى الله عنه ـ: فهو خيرٌ من مؤمن آل فرعون؛ لأن ذلك كان يكتم إيمانه والصدِّيق أعلن به. وخير من مؤمن آل ياسين؛ لأن ذلك جاهد ساعة والصدِّيق جاهد سنين.

عايَن طائر الفاقة يحوم حول حَبِّ الإيثار ويصيح: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة:٢٤٥]، فألقى له حَب المال على روض الرضا واستلقى على فراش الفقر، فنقل الطائر الحَب إلى حوصلة المضاعفة، ثم علا على أفنان شجرة الصدق يغرِّد بفنون المدح، ثم قام فى محاريب الإسلام يتلو: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾ [الليل:١٧، ١٨].

نطقت بفضله الآيات والأخبار، واجتمع على بيعته المهاجرون والأنصار (فيا مبغضيه) فى قلوبكم من ذكره نار، كلما تُليت فضائله علا عليهم الصَغار.

أترى لم يسمع الروافض الكفار ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ [التوبة:٤٠]؟.

دُعى إلى الإسلام فما تلعثم ولا أبى، وسار على المحجة فما زلَّ ولا كَبا، وصبر فى مدته من مدى العدى على وقع الشبا، وأكثر فى الإنفاق فما قلل حتى تخلل بالعبا ـ أى حتى تُوفى ـ تالله لقد زاد على السبك فى كل دينار دينار ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ [التوبة:٤٠].

مَن كان قرين النبى فى شبابه؟

مَن ذا الذى سبق إلى الإيمان من أصحابه؟.

مَن الذى أفتى بحضرته سريعًا فى جوابه؟.

مَن أول مَن صلى معه؟

مَن آخر من صلى به؟

مَن الذى ضاجعه بعد الموت فى ترابه؟ فاعرفوا حق الجار.

نهض يوم الردة بفهم واستيقاظ، وأبان من نص الكتاب معنى دق عن حديد الألحاظ.

فالمحب يفرح بفضائله، والمبغض يغتاظ.

حسرة الرافضي أن يفر من مجلس ذكره، ولكن أين الفرار؟.

كم وقى الرسول بالمال والنفس، وكان أخص به في حياته وهو ضجيعه في الرمس[١]. فضائله جلية، وهي خلية عن اللبس.

يا عجبًا! من يغطي عين ضوء الشمس في نصف النهار، لقد دخلا غارًا لا يسكنه لابث، فاستوحش الصديق من خوف الحوادث، فقال الرسول: ما ظنك باثنين والله الثالث؛ فنزلت السكينة، فارتفع خوف الحادث. فزال القلق، وطاب عيش الماكث، فقام مؤذن النصر ينادي على رؤوس منابر الأمصار ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ [التوبة: ٤٠].

حُبُّه والله رأسُ الحنيفية، وبُغضه يدلُّ على خُبث الطوية. فهو خير الصحابة والقرابة، والحجة على ذلك قوية. لولا صحة إمامته ما قيل ابن الحنفية. مهلاً مهلاً، فإن دم الروافض قد فار.

والله ما أحببناه لهوانا، ولا نعتقد في غيره هوانا، ولكن أخذنا بقول (عليّ) وكفانا: «رضيك رسول الله لديننا، أفلا نرضاك لدنيانا». تالله لقد أخذت من الروافض بالثأر، تالله لقد وجب حق الصدِّيق علينا؛ فنحن نقضي بمدائحه، ونقرُّ بما نقرُّ به من السَنى[٢] عينًا، فمن كان رافضيًا فلا يعد إلينا[٣].

وعن ابن عباس قال: أول من صلى: أبو بكر ـ رحمه الله ـ.

ثم تمثل بأبيات حسان:

إذا تذكرت شجوًا من أخي ثقة ... فاذكر أخاك أبا بكرٍ بما فعلا
خير البرية أتقاها وأعدلها ... إلا النبي وأوفاها بما حملا
الثاني التالي المحمود مشهده ... وأول الناس حقًا صدّق الرُسلا

ولقد ذكر أهل العلم بالتواريخ والسير أن أبا بكر شهد مع رسول الله ﷺ بدرًا وجميع المشاهد، ولم يفته منها مشهد، وثبت مع رسول الله ﷺ يوم أُحُد حين انهزم الناس، ودفع إليه رسول الله ﷺ رايته العظمى يوم تبوك، وأنه كان يملك يوم أسلم

(١) (رَمَسَ) الميت: دفنه. و(أرمسه) أيضًا. و(الرَّمْس) بوزن الفَلْس: تراب القبر، وهو في الأصل مصدر. و(المرمس) بوزن المذهب: موضع القبر.
(٢) السَنَى: البرق. والسَنّي: الرفيع.
(٣) الفوائد للإمام ابن القيم (ص ١١١: ١١٣) ط. دار الخاني.

أربعين ألف درهم، فكان يعتق منها ويقوى المسلمين، وهو أول من جمع القرآن، وتنزَّه عن شرب المسكر في الجاهلية والإسلام، وهو أول من قاء تحرجًا من الشبهات[١].

بعض مناقب الصدِّيق وفضائله

تالله إني لأجد نفسي عاجزًا عن الحديث عن تلك الفضائل، ولكن حسبُنا منها القليل، فالقليل منها كثير وكثير.

عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أمنَّ الناس عليَّ في صُحبته وماله أبو بكر، ولو كنت متخذًا خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن أُخوة الإسلام ومودته لا يبقين في المسجد بابٌ إلا سُدَّ إلا باب أبي بكر»[٢].

وعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر (أي أكثرهم رحمة) وأشدهم في أمر الله عمر، وأشدهم حياءً عثمان، وأقضاهم عليٌّ....»[٣].

وفي رواية قال ﷺ: «أرأف أمتي بأمتي أبو بكر....»[٤].

وعن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ أنه قال: «إن أهل الدرجات العُلى ليرون مَن فوقهم كما ترون الكوكب الدّريّ في أفق السماء، وإن أبا بكر وعمر منهم وأنعما»[٥].

وقال النبي ﷺ: «ما لأحد عندنا يدٌ إلا وقد كافأناه بها إلا الصديق، فإن له عندنا يدًا يكافئه الله بها يوم القيامة، وما نفعني مالُ أحد قط ما نفعني مالُ أبي بكر، ولو كنت متخذًا من الناس خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ألا وإن صاحبكم خليل الله»[٦].

وعن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «أبو بكر وعمر من هذا الدين كمنزلة السمع والبصر من الرأس»[٧].

(١) صفة الصفوة (١/ ٩٧، ٩٩) ط. دار ابن خلدون.

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٥٤) فضائل الصحابة ـ ومسلم (٢٣٨٢) فضائل الصحابة.

(٣) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه والنسائي عن أنس، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٨٩٥).

(٤) رواه أبو يعلى عن ابن عمر، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٨٦٨).

(٥) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه وابن حبان، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٠٣٠).

(٦) رواه الترمذي (٣٦٦٢) المناقب، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢٨٩٤).

(٧) قال الألباني في الصحيحة (٨١٥): هذا إسناد حسن رجاله كلهم ثقات.

وعن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «اقتدوا باللذين من بعدى من أصحابى أبى بكر وعمر...»(١).

وعن أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ: أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم: «مَن رأى الليلة رؤيا»؟ فقال رجل: أنا، رأيت كأن ميزانًا نزل من السماء فوُزِنْتَ أنت وأبو بكر، فَرُجحت أنت بأبى بكر، ووزن عمر وأبو بكر، فرجح أبو بكر بعمر، ووزن عمر بعثمان، فرجح عمر بعثمان، ثم رُفع الميزان، قال: فرأينا الكراهة فى وجه النبى ﷺ »(٢).

وهنا يظهر فضيلة أبى بكر على عمر فمن دونه، وقوله: «فرأينا الكراهة فى وجه رسول الله ﷺ »... قال فى تحفة الأحوذى: وذاك لما علم ﷺ من أن تأويل رفع الميزان انحطاط رتبة الأمور، وظهور الفتن بعد خلافة عمر ومعنى رجحان كل من الآخر أن الراجح أفضل من المرجوح.

وعن علىّ بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ: أن رسول الله ﷺ نظر إلى أبى بكر وعمر فقال: «هذان سيدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين إلا النبيين... والمرسلين لا تخبرهما يا علىّ»(٣).

وعن عبد الرحمن بن عوف ـ رضى الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أبو بكر فى الجنة، وعمر فى الجنة، وعثمان فى الجنة، وعلىٌّ فى الجنة، وطلحة فى الجنة، والزبير فى الجنة، وعبد الرحمن بن عوف فى الجنة، وسعد بن أبى وقاص فى الجنة، وسعيد بن زيد فى الجنة، وأبو عبيدة ابن الجراح فى الجنة»(٤).

وعن عبد الله بن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال: إن رسول الله ﷺ قال لأبى بكر: «أنت صاحبى على الحوض، وصاحبى فى الغار»(٥).

قال فى «تحفة الأحوذى»: أنت صاحبى على الحوض: أى الكوثر «وصاحبى فى الغار» أى الكهف الذى بجبل ثور الذى أويا إليه عند خروجهما مهاجرين.

---

(١) رواه الترمذى عن ابن مسعود، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١١٤٤).

(٢) رواه أبو داود رقم (٤٦٣٤) فى السنة، باب فى الخلفاء، والترمذى رقم (٢٢٨٨) فى الرؤيا. وصححه شيخنا الألبانى فى صحيح سنن أبى داود (٣٨٧٥).

(٣) رواه الترمذى (٣٦٦٦) المناقب ـ وقال الألبانى فى الصحيحة (٨٢٤): إن الحديث بمجموع طُرقه صحيح بلا ريب.

(٤) رواه الترمذى (٣٧٤٨) المناقب، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٠).

(٥) رواه الترمذى مرسلاً (٣٦٦٨) المناقب وقال: حسن صحيح.

وعن أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ قال: قلت للنبي ﷺ وأنا في الغار: لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا، فقال: «ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما»(١).

وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: كنا نُخَيِّرُ بين الناس في زمن النبي ﷺ فنخير أبا بكر ثم عمر بن الخطاب ثم عثمان بن عفان ـ رضي الله عنهم ـ(٢).

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما نفعني مالٌ قط ما نفعني مال أبي بكر» فبكى أبو بكر وقال: هل أنا ومالي إلا لك يا رسول الله(٣)؟.

وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ صعد (أُحُدًا) وأبو بكر وعمر وعثمان. فرجف بهم فقال: «اثبُت أُحُد فإنما عليك نبيٌ وصدّيق وشهيدان»(٤).

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «نِعم الرجل أبو بكر نِعم الرجل عمر....»(٥).

عن أبي موسى الأشعري: أنه توضأ في بيته ثم خرج.. قال: فقلت: لألزمنَّ رسول الله ﷺ ولأكونن معه يومي هذا. قال: فجاء المسجد فسأل عن النبي ﷺ فقالوا: خرج ووجه ها هنا فخرجتُ على إثره أسأل عنه حتى دخل بئر أريس، فجلست عند الباب ـ وبابها من جريد ـ حتى قضى رسول الله ﷺ حاجته فتوضأ، فقمتُ إليه، فإذا هو جالس على بئر أريس وتوسط قُفها وكشف عن ساقيه ودلاهما في البئر، فسلمتُ عليه ثم انصرفتُ فجلستُ عند البابَ فقلت: لأكونن بواب رسول الله ﷺ اليوم فجاء أبو بكر فدفع الباب. فقلت: من هذا؟ فقال: أبو بكر. فقلت: على رِسلَك ثم ذهبت فقلت: يا رسول الله هذا أبو بكر يستأذن فقال: «ائذن له وبشّره بالجنة». فأقبلت حتى قلت لأبي بكر: ادخل ورسولُ الله ﷺ يبشرك بالجنة فدخل أبو بكر فجلس عن يمين رسول الله ﷺ معه في القُف ودلَّى رجليه في البئر كما صنع النبي ﷺ وكشف عن ساقيه....»(٦).

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: بينما راعٍ في

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٥٣) ـ ومسلم (٢٣٨١) والترمذي (٣٠٩٦).
(٢) أخرجه البخاري (٣٦٥٥) ـ وأحمد في فضائل الصحابة (٥٣).
(٣) رواه أحمد (٢/ ٢٥٣) وابن ماجه (٩٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٨٠٨).
(٤) أخرجه البخاري (٣٦٧٥) وأبو داود (٤٦٥١) والترمذي (٣٦٩٧).
(٥) رواه الترمذي (٣٧٩٥) وأحمد، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٧٧٠).
(٦) أخرجه البخاري (٣٦٧٤) ـ ومسلم (ص١٨٦٨).

غنمه عدا عليه الذئب فأخذ منها شاةً فطلبه الراعي، فالتفت إليه الذئب فقال: من لها يوم السبع[1] يوم ليس لها راعٍ غيري؟ وبينما رجل يسوق بقرةً قد حمل عليها فالتفتت إليه فكلمته فقالت: إني لم أُخلَق لهذا، ولكني خُلقت للحرث. فقال الناس: سبحان الله... قال النبي ﷺ: فإني أومن بذلك وأبو بكر وعمر بن الخطاب ـ رضي الله عنهما ـ»[2].

وعن ابن أبي مليكة أنه سمع ابن عباس يقول: وُضِعَ عمر على سريره فتكنفه الناس يدعون ويصلون قبل أن يُرفعَ، وأنا فيهم فلم يرُعني إلا رجل آخذ منكبي فإذا عليٌّ بن أبي طالب فترحَّم على عمر وقال: ما خلفت أحداً أحَب إليَّ أن ألقى الله بمثل عمله منك، وايم الله إن كنت لأظن أن يجعلك الله مع صاحبيك، وحسبت أني كثيراً أسمع النبي ﷺ يقول: «ذهبت أنا وأبو بكر وعمر، ودخلت أنا وأبو بكر وعمر، وخرجت أنا وأبو بكر وعمر»[3].

منزلة الصدّيق عند رسول الله ﷺ

عن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ قال: كنت جالسًا عند النبي ﷺ إذ أقبل أبو بكر آخذًا بطرف ثوبه حتى أبدى عن ركبته، فقال النبي ﷺ: «أما صاحبكم فقد غامر»، فسلم وقال: يا رسول الله، إني كان بيني وبين ابن الخطاب شيء فأسرعتُ إليه ثم ندمت، فسألته أن يغفر لي فأبى عَليَّ، فأقبلت إليك، فقال: «يغفر الله لك يا أبا بكر» (ثلاثًا).... ثم إن عمر ندم، فأتى منزل أبي بكر فسأل: أثَمّ أبو بكر؟ ـ يعني هل أبو بكر هنا ـ فقالوا: لا. فأتى إلى النبي ﷺ فجعل وجه النبي ﷺ يتمعَّر، حتى أشفق أبو بكر فجثَا على ركبتيه فقال: يا رسول الله أنا كنت أظلم... أنا كنت أظلَم. فقال النبي ﷺ: «إن الله بعثني إليكم، فقلتم: كذبت، وقال أبو بكر: صدق، وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركو لي صاحبي؟.. فهل أنتم تاركو لي صاحبي؟». فما أوذيَ بعدها[4].

وعن محمد بن سيرين قال: سُئل أنس بن مالك عن خضاب رسول الله ﷺ فقال: إن

---

(١) قال الحافظ ابن حجر (فتح الباري ٧/ ٢٧): قال الداودي: معناه من لها يوم يطرقها السبع ـ أي الأسد ـ فتفر أنت منه فيأخذ منها حاجته وأتخلف أنا لا راعي لها حينئذ غيري، وقيل: إنما يكون ذلك عند الاشتغال بالفتن فتصير الغنم هملاً فتنهبها السباع فيصير الذئب كالراعي لها لانفراده بها.

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٦٣) ـ ومسلم (٢٣٨٨) والترمذي (٣٦٧٧).

(٣) أخرجه البخاري (٣٦٨٥) ـ ومسلم (٢٣٨٩) وابن ماجه (٩٨).

(٤) أخرجه البخاري (٣٦٦١) الفضائل ـ باب قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذًا خليلاً».

رسول الله ﷺ لم يكن شاب إلا يسيراً، ولكن أبا بكر وعمر بعده خضبًا بالحناء والكتم قال: وجاء أبو بكر بأبيه (أبي قحافة) إلى رسول الله ﷺ يوم فتح مكة يحمله حتى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر: «لو أقررت الشيخ في بيته لأتيناه مَكْرُمَةً لأبي بكر». فأسلم ولحيته ورأسه كالثغامة بياضًا فقال رسول الله ﷺ: «غيروهما وجنِّبوه السواد»(١).

وعن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ قال: قلت: يا رسول الله أي الناس أحب إليك؟ قال: «عائشة». فقلت: من الرجال؟ قال: «أبوها»(٢).

أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ يدعى من أبواب الجنة الثمانية

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أنفق زوجين من شيء من الأشياء في سبيل الله دُعي من أبواب الجنة: يا عبد الله هذا خير، فمن كان من أهل الصلاة دُعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دُعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصدقة دُعي من باب الصدقة، ومن كان من أهل الصيام دُعي من باب الصيام، وباب الريان» فقال أبو بكر: ما على هذا الذي يُدعَى من تلك الأبواب من ضرورة، وقال: وهل يُدعَى منها كلها أحدٌ يا رسول الله؟ قال: نعم، وأرجو أن تكون منهم يا أبا بكر»(٣).

وفي رواية ابن حبان من حديث ابن عباس: قال ﷺ: «أجل وأنت هو يا أبا بكر».

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: عن أبواب الجنة في «نونيته»:

ولسوف يُدعَى المرء من أبوابها جمعًا إذا وفى حُلَى الإيمان

منهم أبو بكر هو الصديق ذا ك خليفة المبعوث بالقرآن

* * *

---

(١) رواه أحمد (٣/ ١٦٠) وأبو يعلى (٢٨٣١) وابن حبان (١٤٧٦)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٩٦).

(٢) أخرجه مسلم (٢٣٨٤) والترمذي (٣٨٨٥).

(٣) أخرجه البخاري ومسلم (٣٦٦٦) فضائل أصحاب النبي ﷺ.

الصديق ومحبته الشديدة للحبيب ﷺ

لقد أحبَّ أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ النبى ﷺ حبًا مَلَك عليه لُبَّه وفؤاده وجوارحه؛ حتى إنه كان يتمنى أن يفدى النبى ﷺ بنفسه وولده وماله والناس أجمعين.

تقول عائشة ـ رضى الله عنها ـ: لما اجتمع أصحاب النبى ﷺ ، وكانوا ثمانية وثلاثين رجلاً، ألحَّ أبو بكر على رسول الله ﷺ فى الظهور، فقال: «يا أبا بكر إنا قليل».

فلم يزل أبو بكر يُلحّ حتى ظهر رسول الله ﷺ ، وتفرق المسلمون فى نواحى المسجد، كل رجل فى عشيرته، وقام أبو بكر فى الناس خطيبًا، ورسول الله ﷺ جالس، فكان أول خطيب دعا إلى الله، وإلى رسول الله ﷺ، وثار المشركون على أبى بكر وعلى المسلمين، فضربوا فى نواحى المسجد ضربًا شديدًا، ووطئ أبو بكر، وضُرب ضربًا شديدًا، ودنا منه الفاسق عتبة بن ربيعة، فجعل يضربه بنعلين مخصوفتين، ويحرفها لوجهه، ونزٌ (أى وثب) على بطن أبى بكر، حتى ما يُعرف وجهه من أنفه، وجاء بنو تيم (قوم أبى بكر) يتعادون، فأجلت قريشًا عن أبى بكر، وحملت بنو تيم أبا بكر فى ثوب حتى أدخلوه منزله، ولا يشكون فى موته، ثم رجعت بنو تيم فدخلوا المسجد وقالوا: والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة بن ربيعة، فرجعوا إلى أبى بكر فجعل أبو قحافة وبنو تيم يكلمون أبا بكر حتى أجاب، فتكلم آخر النهار، فقال: ما فعل رسول الله؟ فمسُّوا منه بألسنتهم وعذلوه، ثم قاموا، وقالوا لأمه أم الخير: انظرى أن تطعميه شيئًا أو تسقيه إياه.

فلما خلت به ألحّت عليه، وجعل يقول: ما فعل رسول الله ﷺ ؟

فقالت: والله ما لى علم بصاحبك، فقال: اذهبى إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه، فخرجت حتى جاءت أم جميل فقالت: إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله.

فقالت: ما أعرف أبا بكر، ولا محمد بن عبد الله، وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك ذهبت... قالت: نعم، فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعًا دنفًا، فدنت أم جميل وأعلنت الصياح، وقالت: والله إن قومًا نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر، وإنى لأرجو أن ينتقم الله لك منهم.

قال: فما فعل رسول الله ﷺ ؟ قالت: هذه أمك تسمع، قال: فلا شىء عليك منها، قالت: سالم صالح. قال: أين هو؟ قالت: فى دار ابن الأرقم.

قال: فإن لله علىّ ألا أذوق طعامًا، ولا أشرب شرابًا، حتى آتى رسول الله ﷺ .

فأمهلتاه حتى إذا هدأت الرِجل، وسكن الناس خَرجَتا به يتكئ عليهما حتى أدخلتاه على رسول الله ﷺ ، فأكب عليه رسول الله ﷺ فقبَّله، وأكب عليه المسلمون، ورقَّ له رسول الله ﷺ رقة شديدة، فقال أبو بكر: بأبي وأمي يا رسول الله، ليس بي بأس! إلا ما نال الفاسق من وجهي، وهذه أمي برة بولدها، وأنت مبارك فادعها إلى الله، وادع لها عسى أن يستنقذها بك من النار، قال: فدعا لها رسول الله ﷺ ودعاها إلى الله فأسلمت(١).

موقف يعجز القلم عن وصفه

وها هي صفحة مشرقة من حياة الصدِّيق ـ رضي الله عنه ـ الذي بذل نفسه وماله فداءً لله وفداءً لرسول الله ﷺ .

فعن علي بن أبي طالب، قال: «لقد رأيت رسول الله ﷺ وأخذته قريش، فذا يجبأه(٢)، وهذا يُتلتله(٣)، وهم يقولون: أنت الذي جعلت الآلهة إلهًا واحدًا؟ قال: فوالله ما دنا منَّا أحد إلا أبو بكر، يضرب هذا، ويجبأ هذا، ويتلتل هذا، وهو يقول: ويلكم! ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ [غافر:٢٨]، ثم رفع (عليٌّ) بُردةً كانت عليه، فبكى حتى اخضلَّت لحيته، ثم قال: أنشدكم الله، أمؤمن آل فرعون خيرٌ أم أبو بكر؟ فسكت القوم، فقال: ألا تجيبوني؟ فوالله لساعة من أبي بكر خير من ألف ساعة من مثل مؤمن آل فرعون، ذاك رجل يكتم إيمانه، وهذا رجل أعلن إيمانه»(٤).

وعن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: بينما رسول الله بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط، فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ فلفَّ ثوبه في عنقه فخنقه خنقًا شديدًا، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه، ودفعه عن النبي ﷺ ، ثم قال:

﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [غافر:٢٨](٥).

---

(١) البداية والنهاية (٣/ ٢٩ ـ ٣٠) بسند رجاله ثقات، وقال الهيثمي في المجمع (٤٦ ـ ٤٧/ ٩): رواه البزار ورجاله رجال الصحيح غير إسماعيل بن أبي الحرث، وهو ثقة، انظر حلية الأولياء (١/ ٣٢).

(٢) يجبأه: أي فجأة وبغته.

(٣) يتلتله: يحركه ويزعزعه من مكانه.

(٤) تاريخ الخلفاء (ص ٣٧).

(٥) رواه البخاري في مناقب الأنصار رقم (٣٨٥٦) باب ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة.

لم أكن لأفشي سر رسول الله ﷺ

عن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: أن عمر بن الخطاب حين تأيمت حفصة بنت عمر من خنيس بن حذافة السهمي ـ وكان من أصحاب رسول الله ﷺ فتُوفي بالمدينة ـ فقال عمر بن الخطاب: أتيت عثمان بن عفان، فعرضت عليه حفصة فقال: سأنظر في أمري، فلبث ليالي، ثم لقيني فقال: قد بدا لي أن لا أتزوج يومي هذا.

قال عمر: فلقيت أبا بكر الصديق فقلت:إن شئت زوّجتك حفصة بنت عمر، فصمت أبو بكر، فلم يرجع إليَّ شيئًا، وكنت أوجد عليه[1] مني على عثمان، فلبثت لياليٍ، ثم خطبها رسول الله ﷺ ، فأنكحتها إياه، فلقيني أبو بكر فقال: لعلك وجدت عليَّ حين عرضت عليَّ حفصة، فلم أرجع إليك شيئًا. قال عمر: قلت: نعم. قال أبو بكر: فإنه لم يمنعني أن أرجع إليك فيما عرضت عليَّ إلا أني كنت قد علمت أن رسول الله ﷺ قد ذكرها، فلم أكن لأفشي سرَّ رسول الله، ولو تركها رسول الله ﷺ قبلتها»[2].

أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ وإنفاقه في سبيل الله

قال ﷺ : «ما أحدٌ أعظم عندي يدًا من أبي بكر واساني بنفسه وماله وأنكحني ابنته»[3].

وقال ﷺ : «ما لأحد عندنا يدٌ إلا وقد كافأناه، ما خلا أبا بكر، فإن له عندنا يدًا يُكافئه الله بها يوم القيامة، وما نفعني مالُ أحد قط ما نفعني مال أبي بكر، ولو كنتُ متخذًا خليلاً، لاتخذت أبا بكرٍ خليلاً، ألا وإن صاحبكم خليل الله»[4].

وعن هشام بن عروة عن أبيه قال: أسلم أبو بكر وله أربعون ألفًا، فأنفقها في سبيل

---

(١) قال الحافظ في الفتح (٢٢١/ ٩): أي أشد موجدة أي غضبًا على أبي بكر من غضبي على عثمان، وذلك لأمرين: أحدهما ما كان بينهما من أكيد المودة، ولأن النبي ﷺ كان آخى بينهما، والثاني لكون عثمان أجابه أولاً ثم اعتذر له ثانيًا، ولكون أبي بكر لم يعد عليه جوابًا. ووقع في رواية ابن سعد «فغضب على أبي بكر، وقال فيها: كنت أشد غضبًا حين سكت مني على عثمان». اهـ.

(٢) رواه البخاري رقم (٥١٢٢) في النكاح، باب عرض الإنسان ابنته أو أخته على أهل الخير، ورواه الإمام أحمد في المسند (١/ ١٢).

(٣) رواه الطبراني في الكبير عن ابن عباس، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٥٥١٧).

(٤) رواه الترمذي عن أبي هريرة ومسلم عن ابن مسعود، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٦٦١).

الله، وأعتق سبعة كلهم يعذَّب في الله، أعتق بلالاً، وعامر بن فهيرة، وزنيرة، والنَّهدية وابنتها، وجارية بني مُؤَمّل، وأم عبيس[١].

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «أنفق أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ على رسول الله ﷺ أربعين ألفًا»[٢].

قال الله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ [الليل:١٧ ـ ٢١].

قال الإمام القرطبي: «والأكثر أن السورة نزلت في أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ»، فأيّ منقبة أعظم من هذه المنقبة، وأي وسام أغلى من هذا الوسام؟.

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «عَذَّب المشركون بلالاً»، وبلال يقول: «أحدٌ أحدٌ»، فمر به النبي ﷺ ، فقال: «أحد، يعني الله تعالى، ينجيك»، ثم قال لأبي بكر: «يا أبا بكر، إن بلالاً يعذَّب في الله»، فعرف أبو بكر الذي يريد رسول الله ﷺ ، فانصرف إلى منزله، فأخذ رطلاً من ذهب، ومضى به إلى أميّة بن خلف، سيِّد بلال، فقال له: أتبيعني بلالاً؟ قال: نعم، فاشتراه فأعتقه، فقال المشركون: ما أعتقه أبو بكر إلا ليد كانت له عنده، فنزلت: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ ، أي سوف يعطيه في الجنة ما يرضى[٣].

وكان عمر ـ رضي الله عنه ـ يقول: «أبو بكر سيدُنا وأعتق سيدَنا يعني بلالاً»[٤].

أبو بكر حَبَا في الله مالاً — وأعتقَ في محبتـــه بلالاً
وقد واسى النبيَّ بكلِّ فضلٍ — وأسرع في إجابتـــه بلا : لا
لو أن البحر يقصـــده ببعضٍ — لَمَـــا ترك الإلــه به بلالا

وعن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نتصدق، فوافق ذلك مني مالاً، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر ـ إن سبقته يومًا ـ فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله ﷺ : «ما أبقيت لأهلك؟» قلت: مثله.

---

(١) أسد الغابة (٣/ ٣٢٥). وقال الهيثمي في المجمع: رواه الطبراني ورجاله إلى عروة رجال الصحيح.
(٢) رواه ابن حبان (٢١٦٧) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٨٧).
(٣) الجامع لأحكام القرآن/ للقرطبي (٢٠/ ٧٨ ـ ٨٠).
(٤) أخرجه البخاري (٣٧٥٤) فضائل أصحاب النبي ﷺ.

قال: وأتى أبو بكر بكل ما عنده، فقال له رسول الله ﷺ: «ما أبقيت لأهلك؟» قال: أبقيت لهم الله ورسوله، قلت: لا أسبقك إلى شيء أبدًا[١].

الحبيب ﷺ ينفي الخيلاء عن أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ

عن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من جرَّ ثوبه خُيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة»، فقال أبو بكر: إن أحد شقَّي ثوبي يسترخي إلا أن أتعاهد ذلك منه.. فقال رسول الله ﷺ: «إنك لست تصنع ذلكَ خُيلاء»[٢].

أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ يسابق دائمًا إلى كل خير

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من أصبح منكم اليوم صائمًا؟». قال أبو بكر: أنا. قال: «من تبع منكم اليوم جنازة؟» قال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ: أنا. قال: «فمن أطعم منكم اليوم مسكينًا؟» قال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ: أنا. قال: «من عاد منكم اليوم مريضًا؟» قال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ: أنا. فقال رسول الله ﷺ: «ما اجتمعن في امرئٍ إلا دخل الجنة»[٣].

عن بكر المُزَني قال: ما فاق أبو بكر أصحابَ محمدٍ ﷺ بصومٍ ولا صلاةٍ؛ ولكن بشيءٍ وقَرَ في قلبه.

قال إبراهيم: بلغني عن ابن علية أنه قال في عقيب هذا الحديث:

الذي كان في قلبه الحبُّ لله عز وجل والنصيحة لخلقه[٤].

موقفه العظيم في قصة الإسراء والمعراج

ولما كانت رحلة الإسراء والمعراج جاء المشركون إلى أبي بكر فقالوا له: إن صاحبك يزعم أنه أُسرى به إلى المسجد الأقصى في الليلة الماضية ونحن نقطع أكباد الإبل إليها في شهر كامل، فقال أبو بكر: إن كان قال فقد صدق.

---

(١) رواه أبو داود (١٦٧٨) الزكاة ـ والترمذي (٣٦٧٥) المناقب، وقال: هذا حديث حسن صحيح ـ وحسنه الشيخ الألباني.

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٦٥) ـ وأبو داود (٤٠٨٥) وأحمد (٢/ ١٠٤).

(٣) أخرجه مسلم (١٠٢٨) فضائل الصحابة ـ باب من فضائل أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ.

(٤) استنشاق نسيم الأنس/ لابن رجب (ص ١٣).

وفى رواية: وبادر الصدِّيق إلى التصديق وقال: إنى لأصدقه فى خبر السماء بكرة وعشية، أفلا أصدّقه فى بيت المقدس؟![(١)].

ولذلك يُقال: إن أبا بكر سُمى صدِّيقًا من حادثة الإسراء والمعراج؛ لأن النبى ﷺ قال ليلة أسري به لجبريل: إن قومى لا يصدقونى فقال له جبريل: يصدقك أبو بكر وهو الصدِّيق[(٢)].

وكان علىُّ بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ يحلف أن الله ـ عز وجل ـ أنزل اسم أبى بكر من السماء (الصدِّيق)[(٣)].

موقفه العظيم ليلة الهجرة المباركة

وإن نسينا فلا ننسى أبداً موقفه العظيم فى ليلة الهجرة المباركة.

* فلقد اجتمع صناديد قريش فى دار الندوة وقرروا قتل النبى ﷺ .

* قالت عائشة ـ رضى الله عنها ـ: والنبى ﷺ يومئذ بمكة فقال النبى ﷺ للمسلمين: إنى أُريت دار هجرتكم، ذات نخل بين لابتين وهما الحرتان، فهاجر من هاجر قبل المدينة، ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة، وتجهز أبو بكر قبل المدينة فقال له رسول الله ﷺ : على رِسلك فإنى أرجو أن يؤذن. فقال أبو بكر: وهل ترجو ذلك بأبى أنت؟ قال: نعم. فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ليصحبه.

وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السَّمر ـ وهو الخبط ـ أربعة أشهر.

ولما تم اتخاذ القرار الغاشم بقتل النبى ﷺ نزل إليه جبريل بوحى ربه ـ تبارك وتعالى ـ فأخبره بمؤامرة قريش، وأن الله قد أذن له فى الخروج، وحدد له وقت الهجرة قائلاً: لا تبت هذه الليلة على فراشك الذى كنت تبيت عليه[(٤)].

وذهب النبى ﷺ فى الهاجرة إلى أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ ليبرم معه مراحل الهجرة.

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٣/ ١٠٨).

(٢) التبصرة لابن الجوزى (١/ ٣٣٨ ـ ٤٠٢).

(٣) قال ابن حجر فى «الفتح» (١١/ ٧): رواه الطبرانى ورجاله ثقات.

(٤) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٤٨٢)، وزاد المعاد (٢/ ٥٢).

* قالت عائشة: بينما نحن يومًا جلوس فى بيت أبى بكر فى نحر الظهيرة قال قائل لأبى بكر: هذا رسول الله ﷺ متقنعًا ـ فى ساعة لم يكن يأتينا فيها ـ فقال أبو بكر: فداءً له أبى وأمى والله ما جاء فى هذه الساعة إلا لأمر.

قالت فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن فأذن له، فدخل، فقال النبى ﷺ لأبى بكر: أخرج من عندك، فقال أبو بكر إنما هم أهلك بأبى أنت يا رسول الله. قال: فإنى قد أُذن لى فى الخروج.

فقال أبو بكر : ألصحبة بأبى أنت يا رسول الله؟ قال رسول الله ﷺ: نعم. قال أبو بكر: فخذ بأبى أنت يا رسول الله إحدى راحلتى هاتين. قال رسول الله ﷺ: بالثمن. قالت عائشة: فجهزناهما أحث الجهاز وصنعنا لهما سفرة فى جراب، فقطعت أسماء بنت أبى بكر قطعة من نطاقها فربطت به على فم الجراب فبذلك سميت ذات النطاق[1].

* وأوعز الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى على بن أبى طالب فى هذه الليلة الرهيبة أن يرتدى بُرده الذى ينام فيه وأن يتسجَّى به على سريره، وفى هجعة من الليل وغفلة من الحرس، انسَّل الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ من بيته إلى دار أبى بكر ثم خرج الرجلان من خوخة فى ظهرها إلى غار ثور. إلى الغار الى استودعته العناية مصير الرسالة الخاتمة، ومستقبل حضارة كاملة، وتركته فى حراسة الصمت والوحشة والانقطاع.

وسارت الأمور على ما قدرا، وكان أبو بكر قد أمر ابنه عبد الله أن يتسمع لهما ما يقول الناس فيهما ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون فى ذلك اليوم من أخبار، وأمر عامر بن فهيرة (مولاه) أن يرعى غنمه نهاره ثم يريحها عليهما إذا أمسى فى الغار، فكان عبد الله بن أبى بكر فى قريش يسمع ما يأتمرون وما يقولون فى شأن رسول الله ﷺ وأبى بكر. ثم يأتيهما إذا أمسى فيقص عليهما ما علم، وكان عامر فى رعيان أهل مكة، فإذا أمسى أراح عليهما غنم أبى بكر فاحتلبا وذبحا، فإذا غدا عبد الله من عندهم إلى مكة، اتبع عامر ابن فهيرة أثره بالغنم. يعفى عليه ـ يخفى آثار قدميه ـ.

وتلك هى الحيطة البالغة، كما تفرضها الضرورات المعتادة على أى إنسان.

وانطلق مشركو مكة فى آثار المهاجرين يرصدون الطرق، ويفتشون كل مهرب

(١) أخرجه البخارى (٧/ ٢٧٢، ٢٧٣) مناقب الأنصار.

وراحوا ينقبون جبال مكة وكهوفها، حتى وصلوا ـ فى دأبهم ـ قريبًا من غار ثور، وأنصت الرسول ﷺ وصاحبه إلى أقدام المطاردين، تخفق إلى جوارهم فأخذ الروع أبا بكر، وهمس يحدث رسول الله ﷺ: لو نظر أحدهم تحت قدمه لرآنا، فقال الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «يا أبا بكر... ما ظنك باثنين الله ثالثهما»(١)(٢).

* وتدبروا معى كيف كان حال أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ مع رسول الله ﷺ أثناء الهجرة وكيف كان خوفه عليه.

روى أبو القاسم البغوى عن ابن أبى مليكة أن النبى ﷺ لما خرج هو وأبو بكر إلى ثور، فجعل أبو بكر يكون أمام النبى ﷺ مرة، وخلفه مرة، فسأله النبى ﷺ عن ذلك، فقال: إذا كنت خلفك خشيت أن تؤتى من أمامك، وإذا كنتُ أمامك خشيت أن تؤتى من خلفك.

ـ ولما انتهيا إلى الغار قال أبو بكر والله لا تدخله حتى أدخله قبلك، فإن كان فيه شيء أصابنى دونك، فدخل فكسحه ووجد فى جانبه ثقبًا فشق إزاره وسدها به وبقى منها اثنان فألقمهما رجليه، ثم قال لرسول الله ﷺ ادخل فدخل رسول الله ﷺ ووضع رأسه فى حجره ونام فلُدغ أبو بكر فى رجله من الجحر ولم يتحرك مخافة أن ينتبه رسول الله ﷺ فسقطت دموعه على وجه رسول الله ﷺ فقال: ما لك يا أبا بكر؟ قال لُدغت فداك أبى وأمى، فتفل رسول الله فذهب ما يجده(٣).

هكذا كان أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ يتمنى أن يفدى الحبيب ﷺ بنفسه وماله وبكل ما يملك... وهذا هو كمال الحب لرسول الله ﷺ.

* إن أبا بكر خرج مع رسول الله ﷺ وهو لا يريد الجاه ولا الوزارة وإنما خرج ابتغاء وجه الله... وهو يعلم يقينًا أن سيوف المشركين تنتظره بالخارج وعلى الرغم من ذلك خرج ليفوز بشرف الصحبة.

يقول عمر ـ رضى الله عنه ـ: ليلة من أبى بكر خيرٌ من آل عمر ـ يقصد ليلة الغار ـ.

فالهجرة حدث عظيم لا يُنسى أبدًا فهى لم تكن مجرد هروب من بلدٍ إلى بلد آخر

(١) أخرجه البخارى (٧/ ٢٠٧) ـ ومسلم (٧/ ١٠٩).

(٢) فقه السيرة للغزالى (ص: ١٩٠ ـ ١٩١).

(٣) رواه رزين عن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ وفيه: ثم انتقض عليه (أى رجع أثر السم حين موته) وكان سبب موته. انظر مشكاة المصابيح، باب مناقب أبى بكر (٢/ ٥٥٦).

وإنما كانت خطوة لإقامة دولة للمسلمين يمكّن فيها لدين الله ـ جل وعلا ـ.

فهنيئًا (لأبي بكر) هذا الشرف العظيم الذي ناله بصحبة النبي ﷺ في هجرته من مكة إلى المدينة.

موقفه العظيم يوم بدر

لقد شهد أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ مع رسول الله ﷺ المشاهد كلها وثبت معه ثباتًا لا نظير له.

ففي يوم بدر استشار رسول الله ﷺ أصحابه، فتكلم أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ فأجاد، وكانت المعركة..

يقول (عليّ) ـ رضي الله عنه ـ: أشجع الناس أبو بكر... إنه لما كان يوم بدر جعلنا لرسول الله ﷺ عريشًا، فقلنا: من يكون مع رسول الله ﷺ لئلا يهوي إليه أحد من المشركين، فوالله ما دنا منه أحد إلا أبو بكر شاهرًا بالسيف على رأس رسول الله ﷺ لا يهوى إليه أحد إلا هوى إليه[1].

وعن ابن سيرين، أن عبد الرحمن بن أبي بكر كان يوم بدر مع المشركين!! فلما أسلم قال لأبيه: لقد أهدفتَ ـ أشرفت ـ إليّ يوم بدر، فانصرفتُ عنك، ولم أقتلك، فقال أبو بكر: «لكنك لو أهدفت لي لم أنصرف عنك»[2].

ففي هذه المعركة التقى الآباء بالأبناء، والإخوة بالإخوة، خالفت بينهم المبادئ ففصلت بينهم السيوف، وفي عصرنا هذا قاتل الشيوعيون مواطنيهم ومزقوا أعلى الأواصر الإنسانية في سبيل ما يعتقدون، فلا عجب إذا رأيت الابن المؤمن يغاضب أباه الملحد، ويخاصمه في ذات الله، والقتال الذي دار بـ«بدر» سجّل صورًا من هذا النوع الحاد: كان أبو بكر مع رسول الله ﷺ، وكان ابنه عبد الرحمن يقاتله مع أبي جهل[3].

وهذه صورة عالية من الولاء والبراء.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي

(١) مجمع الزوائد للهيثمي (٩/ ٤٦).

(٢) تاريخ الخلفاء (٣٦).

(٣) فقه السيرة للغزالي (ص ٢٦٧).

سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ [التوبة:٢٤]، وقال تعالى: ﴿ لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾ [المجادلة:٢٢].

جبريل وميكائيل ـ عليهما السلام ـ يقاتلان مع أبي بكر وعليّ ـ رضي الله عنهما ـ

عن أبي صالح الحنفي عن عليّ قال: قيل لعلي[١] ولأبي بكر يوم بدر: مع أحدكما جبريل ومع الآخر ميكائيل، وإسرافيل ملك عظيم يشهد القتال أو قال: يشهد الصف[٢].

الصدّيق ـ رضي الله عنه ـ من الذين استجابوا لله وللرسول ﷺ

عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ: ﴿ الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم ﴾ [آل عمران:١٧٢] قالت لعروة: يا ابن أختي كان أبواك منهم: الزبير وأبو بكر لما أصاب رسول الله ﷺ ما أصاب يوم أُحد وانصرف عنه المشركون خاف أن يرجعوا قال: «مَنْ يذهب في إثرهم؟» فانتدب منهم سبعون رجلاً: كان فيهم أبو بكر والزبير[٣].

ثباته ـ رضي الله عنه ـ في باقي المشاهد

قال الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ: وثبت أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ ثبوت الجبال يوم أُحد حول رسول الله ﷺ يدافع.

وبعث رسول الله ﷺ سرية إلى بني فزارة سنة سبع للهجرة بقيادة أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ فوردت الماء، وغنمت، وسبت، وعادت سالمة.

---

(١) القائل هو رسول الله ﷺ كما هو واضح من رواية أبي يعلى والحاكم.

(٢) رواه أحمد (١/ ١٤٧) والحاكم (٣/ ١٣٤) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يُخرجاه، وأشار الذهبي إلى أنه على شرط مسلم.

(٣) أخرجه البخاري (٤٠٧٧) ـ وأخرجه مسلم (٢٤١٨).

وفى غزوة تبوك ساعة العُسرة كانت راية المسلمين بيد أبى بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ.

ويوم حُنين أُعجب المسلمون بكثرتهم فلم تُغنهم شيئًا ، وولوا مدبرين بعد أن كمن لهم أعداء الله فى شعاب الوادى، وكان أول من ثبت حول رسول الله ﷺ أبو بكر الصديق ـ رضى الله عنه وأرضاه ـ[1].

وقوفه ـ رضى الله عنه ـ عند كتاب الله ـ عز وجل ـ

لقد كان أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ وقّافًا عند كتاب الله ـ عز وجل ـ فلا يقدم شيئًا ولا يؤخره إلا إذا كان موافقًا لأمر الله ـ جل وعلا ـ.

فعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ فى حادثة الإفك، وفيه قالت: فلما أنزل الله براءتى، قال أبو بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ وكان ينفق على مسطح ابن أثاثة لقرابته منه وفقره ـ: والله لا أُنفق على مسطح شيئًا أبدًا بعد الذى قال لعائشة ما قال، فأنزل الله: ﴿ وَلا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور:٢٢].

قال أبو بكر: بلى، والله إنى أحبُّ أن يغفر الله لى، فرجع إلى النفقة التى كان ينفق عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبدًا[2].

وعن ابن أبى مليكة قال: سُئل أبو بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ عن آية فى كتاب الله ـ عز وجل ـ قال: أى أرض تُقلنى، وأى سماء تظلنى وأين أذهب وكيف أصنع إذا أنا قلت فى آية من كتاب الله بغير ما أراد الله؟[3].

وعن ابن سيرين قال: «لم يكن أحدٌ أهيب بما لم يعلم من أبى بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ وإن أبا بكر نزلت به قضية، فلم يجد فى كتاب الله منها أصلاً، ولا فى السنة أثرًا فاجتهد برأيه، ثم قال: هذا رأيى فإن يكن صوابًا فمن الله، وإن يكن خطأ فمنى، وأستغفر الله[4].

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٤٦٩) ط. مؤسسة الرسالة بيروت.

(٢) أخرجه البخارى (٤٧٥٠) التفسير.

(٣) ذكره الحافظ فى (الفتح) (١٣/ ٢٧١) وقال: الأثر حسن.

(٤) الخبر فى مسند عبد بن حميد ـ وقال العدوى: وهو صحيح رجاله ثقات.

موافقته للحبيب ﷺ يوم الحديبية

وها هو الصدِّيق - رضى الله عنه - فى موقف من أعظم المواقف التى كاد أصحاب النبى ﷺ أن يعترضوا فيه على بنود الصلح التى وضَعها المشركون.

ولكن الصدِّيق - رضى الله عنه - الذى كان من أكثر الناس تشبهًا بالحبيب ﷺ فى تفكيره وشفافية قلبه، بل وفى كلامه ينظر إلى الموقف ببصيرة عميقة وشفافية ليست لها حدود.

ففى الوقت الذى رأى فيه الصحابة - رضى الله عنهم - أن شروط قريش كانت جائرة، وأن موقف المسلمين - موقف ذلة - كان الصدِّيق يرى هو والحبيب ﷺ أن الموقف - موقف عزة وقوة -.

وهنا قام عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - معترضًا على هذا الموقف وعلى تلك الشروط الجائرة، فقال: قلت لرسول الله ﷺ: ألست نبى الله حقًا؟!

قال: «بلى».

قلت: ألسنا على حق وعدونا على الباطل؟!

قال: «بلى».

قلت: فَلِم نعطى الدنية فى ديننا إذًا؟!

قال: «إنى رسول الله، ولست أعصيه وهو ناصرى».

قلت: أوَ لست كنت تحدثنا أنا سنأتى البيت فنطوف به؟

قال: «بلى، فأخبرتك أنَّا نأتيه العام؟»

قلت: لا.

قال: «فإنك آتيه ومطّوفٌ به».

قال عمر: فأتيت أبا بكر فقلت: يا أبا بكر أليس هذا نبى الله حقًا؟

قال: بلى.

قلت: ألسنا على الحق، وعدونا على الباطل؟

قال: بلى.

قلت: فَلِمَ نعطى الدنية فى ديننا إذًا؟

قال: أيها الرجل، إنه رسول الله ﷺ ليس يعصى ربه، وهو ناصره، فاستمسك بغرزه (أى: اتبع قوله، وفعله، ولا تخالفه) فوالله إنه لعلى الحق.

قلت: أليس كان يحدثنا أنا سنأتى البيت ونطوف به؟

قال: بلى. أفأخبرك أنك آتيه العام؟

قلت: لا. قال: فإنك آتيه، ومطوف به[١].

فيا لها من قلوبٍ طاهرة تشابهت وتلاقت على الحُب فى الله (جل وعلا).

إن من تأمل فى كلمات الصدِّيق ـ رضى الله عنه ـ لوجد أنها هى نفس الكلمات التى قالها النبى ﷺ .

فيا لها من موافقة بين تلك الأرواح الطاهرة النقية التقية الصادقة.

إشارات الحبيب ﷺ لاستخلاف أبى بكر من بعده

عن جبير بن مطعم عن أبيه قال: أتت امرأة للنبى ﷺ فأمرها أن ترجع إليه، قالت: أرأيت إن جئت ولم أجدك ـ كأنها تقول الموت ـ قال ﷺ: «إن لم تجدينى فأتى أبا بكر»[٢].

قال الحافظ ابن حجر فى «الفتح»: والاستدلال بأن هذا الحديث يدل على أن أبا بكر هو الخليفة بعد النبى ﷺ صحيح، لكن بطريق الإشارة لا التصريح، ولا يعارض جزم عمر بأن النبى ﷺ لم يستخلف؛ لأن مراده نفى النص على ذلك صريحًا، والله أعلم.

قال الكرمانى: يُستدل بهذا الحديث على خلافة أبى بكر اهـ[٣].

وقال الإمام النووى: مات رسول الله ﷺ ولم يستخلف أحدًا بنصٍ صريح، وهذا مذهب أهل السنّة والجماعة، بل أجمعت الصحابة على عقد الخلافة لأبى بكر وتقديمه لفضيلته، ولو كان هناك نص عليه أو على غيره لم تقع المنازعة من الأنصار وغيرهم أولاً، ولَذَكَرَ حافظُ النص ما معه، ولرجعوا إليه، لكن تنازعوا أولاً، ولم يكن هناك نص،

(١) أخرجه البخارى (٢٧٣١) كتاب الشروط ـ باب الشروط فى الحرب.

(٢) أخرجه البخارى (٧٢١٧) الأحكام/ باب الاستخلاف ـ ومسلم (٢٣٨٦) فضائل الصحابة.

(٣) فتح البارى (١٣/ ٣٤٥).

ثم اتفقوا على أبى بكر، واستقر الأمر. اهـ[١].

وعن عبد الله بن زمعة ـ رضى الله عنه ـ قال: لما استعز[٢] بالنبى ﷺ ـ وأنا عنده فى نفر من المسلمين ـ دعاه بلال إلى الصلاة، فقال رسول الله ﷺ: «مروا من يُصلى بالناس» قال: فخرج عبد الله بن زمعة فإذا عمر فى الناس، وكان أبو بكر غائبًا، فقلت: يا عمر قُم فصل بالناس، فتقدم فكبر، فلما سمع النبى ﷺ صوته ـ وكان عمر رجلاً مجهرًا ـ قال: «فأين أبو بكر؟ يأبى الله ذلك والمسلمون، يأبى الله ذلك والمسلمون» فبعث إلى أبى بكر، فجاء بعد أن صلى عمر تلك الصلاة فصلى بالناس[٣].

وعن أبى موسى الأشعرى ـ رضى الله عنه ـ قال: مرض النبى ﷺ فاشتد مرضه، فقال: «مُرُوا أبا بكر فليصل بالناس» فقالت عائشة: إنه رجل رقيق، إذا قام مقامك لم يستطع أن يُصلى بالناس؟

وفى رواية: قالت عائشة عندما قال ﷺ: «مروا أبا بكر يُصلى بالناس» قالت عائشة: قلت: إن أبا بكر إذا قام فى مقامك لم يُسمع الناس من البكاء فَمُرْ عمر فليُصلِّ بالناس، فقالت عائشة: فقلت لحفصة، قولى له: إن أبا بكر إذا قام من مقامك لم يُسمع الناس من البكاء، فمُر عمر فليصل بالناس، ففعلت حفصة، فقال رسول الله ﷺ: «مَهْ، لأنتن صواحب يوسف، مروا أبا بكر فليصل بالناس»[٤].

وعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت: قال لى رسول الله ﷺ فى مرضه: «ادعى لى أبا بكر، وأخاك حتى أكتب كتابًا، فإنى أخاف أن يتمنى متمنٍّ، ويقول قائل: أنا أولَى، ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر»[٥].

وعن ابن أبى مليكة قال: سمعت عائشة، وسُئلت: من كان رسول الله ﷺ مستخلفًا لو استخلفه؟

قالت: أبو بكر، فقيل لها: ثم من بعد أبى بكر؟ قالت: عمر[٦].

---

(١) مسلم بشرح النووى (١٥/ ١٢٢٠) ط. مؤسسة قرطبة.

(٢) «استعز» بالمريض: إذا غلب على نفسه من شدة المرض، وأصله العزّة، وهى الغلبة والاستيلاء على الشىء.

(٣) رواه أبو داود رقم (٤٦٦٠، ٤٦٦١) فى السنة، باب استخلاف أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ، وحسنه الأرناؤوط، وصححه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود رقم (٣٨٩٥).

(٤) أخرجه البخارى (٦٧٩) الأذان ـ ومسلم (٤١٨) الصلاة.

(٥) أخرجه البخارى (٧٢١٧) الأحكام باب الاستخلاف ـ ومسلم (٢٣٨٧) فضائل الصحابة.

(٦) أخرجه مسلم (٢٣٨٥) فضائل الصحابة ـ باب من فضائل أبى بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ

وعن حذيفة ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنى لا أدرى ما بقائى فيكم! فاقتدوا باللذين من بعدى: أبى بكر وعمر»(١).

ومن بين تلك الإشارات أن رسول الله ﷺ صلى خلف أبى بكر فى مرضه الذى مات فيه.

عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت: «صلى رسول الله ﷺ خلف أبى بكر قاعداً فى مرضه الذى مات فيه»(٢).

ثبات الصدّيق عند وفاة الحبيب ﷺ

إن الأحداث العظيمة يسبقها من الإرهاصات والعلامات التى تشير إلى قُرب وقوعها، وقد تم للمسلمين فتح مكة أم القرى فى السنة الثامنة من الهجرة المباركة، وفى السنة التاسعة أقبلت الوفود تُقر بالإسلام أو تعطى الجزية عن يد وهم صاغرون، وأرهب جيش العُسرة الذى خرج به النبى ﷺ جحافل الروم حتى فرّوا من مواجهته، ودانت جزيرة العرب بالإسلام، وكان ذلك بعد عشر سنين من جهاد النبى ﷺ المتواصل وصحابته الكرام ـ رضى الله عنهم ـ فكل العلامات تشير إلى انتهاء مهمة رسول الله ﷺ، فقد بلَّغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح للأمة، وكشف الغمة، وأصبح الناس على محجة بيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، فكان النبى ﷺ يُعرّض بقرب أجله:

فمن ذلك ما رواه أحمد عن معاذ قال: لما بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن، خرج معه رسول الله ﷺ يوصيه، ومعاذ راكب ورسول الله ﷺ يمشى تحت راحلته، فلما فرغ قال: «يا معاذ إنك عسى أن لا تلقانى بعد عامى هذا، أو لعلك أن تمر بمسجدى هذا وقبرى، فبكى معاذ جشعًا لفراق رسول الله ﷺ، ثم التفت فأقبل بوجهه نحو المدينة فقال: «إن أولى الناس بى المتقون من كانوا وحيث كانوا»(٣).

ومن ذلك أنه ﷺ كان يعتكف كل سنة عشراً فى رمضان، فاعتكف فى السنة الأخيرة عشرين ليلة، وكان جبريل يعارضه القرآن مرة فى رمضان فعارضه فى السنة الأخيرة مرتين.

---

(١) رواه الترمذى رقم (٣٦٦٣، ٣٦٦٤) فى المناقب، باب مناقب أبى بكر الصديق، وقال الترمذى: هذا حديث حسن، وهو فى السلسلة الصحيحة رقم (١٢٣٣).

(٢) رواه أحمد (٦/ ١٥٩) وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح ـ ورواه الترمذى وقال: حسن صحيح.

(٣) رواه أحمد عن معاذ، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٠١٢).

وخرج النبى ﷺ للحج فى السنة العاشرة، وقال: «خذوا عنى مناسككم لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا وطفق يودع الناس»(١).

ونزل عليه بعرفة: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة:٣].

ومن هذه الإشارات القوية ما رواه أبو سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ قال: خطب النبى ﷺ وقال: «إن الله خَيَّر عبدًا بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ذلك العبد ما عند الله» قال: فبكى أبو بكر فعجبنا لبكائه أن يخبر رسول الله ﷺ عن عبد خُيِّر... فكان رسول الله ﷺ هو المخيَّر، وكان أبو بكر أعلمنا...»(٢).

وتروى لنا أمنا عائشة ـ رضى الله عنها ـ كيف بدأت شكوى رسول الله ﷺ قالت: رجع النبى ﷺ ذات يوم من جنازة من البقيع فوجدنى، وأنا أجد صداعًا وأنا أقول: وارأساه، قال: «بل أنا يا عائشة وارأساه» قال: «وما ضرك لو متِّ قبلى فغسّلتك وكفنتك وصليت عليك ودفنتك»، فقلت: كأنى بك والله لو فعلتَ ذلك لرجعت إلى بيتى فعرست فيه ببعض نسائك.

قالت: فتبسم رسول الله ﷺ ثم بُدِئ فى وجعه الذى مات فيه»(٣).

اللحظات الأخيرة من حياة الحبيب ﷺ

عن أنس ـ رضى الله عنه ـ: «أن المسلمين بينا هم فى صلاة الفجر من يوم الإثنين وأبو بكر يصلى بهم لم يفجأهم إلا رسول الله ﷺ قد كشف الستر من حجرة عائشة، فنظر إليهم، وهم فى صفوف الصلاة، ثم تبسم يضحك، فنكص أبو بكر على عقبيه ليصل الصف، وظن أن رسول الله ﷺ يريدُ أن يخرج إلى الصلاة، وهمَّ المسلمون أن يفتتنوا فى صلاتهم فرحًا برسول الله ﷺ، فأشار إليهم بيده رسول الله ﷺ أن أتِمُّوا صلاتكم، ثم دخل الحجرة وأرخى الستر»(٤).

فانظر إلى أدب الصدِّيق كيف أورثه مقامه، والإمامة بعده فكان ذلك التأخر إلى خلفه

(١) رواه مسلم (٨/ ١٧٢ ـ ١٩٤) الحج.
(٢) رواه أحمد (٣/ ١٨) وابن أبى شيبة (١٢/ ٦) وهو فى الصحيحين من طرق أخرى.
(٣) رواه ابن ماجه (١٤٦٥) الجنائز، وحسنه الألبانى فى صحيح ابن ماجه (١١٩٧).
(٤) أخرجه البخارى (٤٤٤٨) المغازى ـ باب مرض النبى ﷺ ووفاته.

ـ وقد أومأ إليه أن اثبت فى مكانك ـ جَمزًا، وسعيًا إلى قُدَّام.

فبكلٍّ خطوة إلى وراء مراحل إلى قدّام تنقطع فيها أعناق المطىِّ. والله أعلم(١).

وعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت: دخل علىَّ عبد الرحمن وبيده سواك، وأنا مُسندة رسول الله ﷺ فرأيته ينظر إليه: وعرفت أنه يحب السواك. فقلت: آخذه لك؟ فأشار برأسه: «أن نعم» فتناولته، فاشتد عليه، قلت: أُلينه لك؟ فأشار برأسه: «أن نعم» فليَّنتُه، فأمَرّه وبين يديه ركوة أو علبة فيها ماء فجعل يدخل يده فى الماء فيمسح بهما وجهه يقول: «فى الرفيق الأعلى» حتى قُبض ﷺ ومالت يده»(٢).

وكان آخر ما تكلم به رسول الله ﷺ: «اللهم الرفيق الأعلى».

وعن أنس قال: لما ثقل النبى ﷺ جعل يتغشاه، فقالت فاطمة عليها السلام: واكرب أبتاه، فقال لها: ليس على أبيك كرب بعد اليوم، فلما مات قالت: يا أبتاه أجاب ربًا دعاه، يا أبتاه من جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه إلى جبريل ننعاه، فلما دُفن قالت فاطمة عليها السلام: يا أنس أطابت نفوسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب(٣).

تقول عائشة: «مات رسول الله ﷺ بين سحرى ونحرى وأنا مسندته إلى صدرى، فرأيته رفع يده أو أصبعه ثم قال: بل الرفيق الأعلى، بل الرفيق الأعلى، بل الرفيق الأعلى» فعلمت أنه لا يختارنا(٤).

وعن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال: لما كان اليوم الذى دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شىء، فلما كان اليوم الذى مات فيه أظلم منها كل شىء، وما نفضنا عن النبى ﷺ الأيدى حتى أنكرنا قلوبنا»(٥).

وقال الحافظ ابن رجب ـ رحمه الله ـ: لما توفى ﷺ اضطرب المسلمون فمنهم من دُهش فخولط، ومنهم من أُقعد فلم يطق القيام، ومنهم من اعتقل لسانه فلم يطق الكلام، ومنهم من أنكر موته بالكلية وقال: إنما بُعث إليه(٦).

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٣٩٢).

(٢) أخرجه البخارى (٧/ ٧٤٥) المغازى.

(٣) أخرجه البخارى (٧/ ٧٥٥) المغازى ـ وابن ماجه (١٦٣٠) الجنائز.

(٤) أخرجه البخارى (٤٤٦٣) المغازى ـ باب آخر ما تكلم به النبى ﷺ.

(٥) رواه الترمذى (١٣/ ١٠٤) المناقب ـ وصححه الألبانى فى مختصر الشمائل.

(٦) لطائف المعارف (١١٣ ـ ١١٤) باختصار.

موقف الصديق - رضى الله عنه -

من شاء أن يرى يقين أبى بكر فى أحفل ساعاته، من شاء أن يرى اليقين العلوى الموصول بقيُّوم السموات والأرض، فليرَ هذا اليقين يومَ دُعى الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى، فأجاب ورحل عن الحياة والأحياء، يومئذ تكشَّف هذا الجوهر... يقين لا يضعف بل يتفوق، ولا يجزع بل يحتشد، ولا ينوء تحت وقع الضربة، بل ينهض أيِّدًا رشيدًا ثابتًا ليحمل مسئولياته وتبعاته!!

وقف يقين أبى بكر يوم وفاة الرسول ﷺ وقفة ما كان يقدر عليها سواه.

عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت: إن رسول الله ﷺ مات، وأبو بكر بالسُّنح ـ قال إسماعيل: تعنى بالعالية ـ فقام عمر يقول: والله ما مات رسول الله ﷺ، قالت: وقال عمر: والله ما كان يقع فى نفسى إلا ذاك، وليبعثنه الله فيقطعنّ أيدى رجال وأرجلهم. فجاء أبو بكر فكشف عن رسول الله ﷺ فقبّله فقال: بأبى أنت طبت حيًا وميتًا، والذى نفسى بيده لا يذيقك الله الموتتين أبدًا، ثم خرج، فقال: أيها الحالف على رسلك ـ يقصد عمر ـ فلما تكلم أبو بكر جلس عمر فحمد الله أبو بكر وأثنى عليه، وقال: ألا من كان يعبد محمدًا ﷺ فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت. وقال: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر:٣٠]، وقال: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ [آل عمران:١٤٤].

فنشج[1] الناس يبكون[2].

قال ابن عباس: والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر فتلقاها منه الناس كلهم، فما أسمع بشرًا من الناس إلا يتلوها.

وأن عمر قال: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعُقرت حتى ما تُقلنى رجلاى، وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها، علمت أن النبى ﷺ قد مات[3].

---

(١) فنشج الناس: أى بكوا بغير انتحاب، والنشج ما يعرض فى حلق الباكى من الغصة، وقيل: هو صوت معه توجع، كما يردد الصبى بكاءه فى صدره.

(٢) أخرجه البخارى رقم (٣٦٦٧، ٣٦٦٨) فى فضائل الصحابة، باب قول النبى ﷺ: «لو كنت متخذًا خليلاً».

(٣) أخرجه البخارى رقم (٤٤٥٤) فى المغازى، باب مرض النبى ﷺ ووفاته.

وهكذا كان يقين أبى بكر يُشبه عين الصقر، يقع فى أقلَّ من لمح البصر على كلمة السر التى ستردُ الهمم المنسحقة تحت وطأة الفاجعة، إلى وعى قدير يستقبل تبعاته الجسام، ويعبُر أزمة الموت بسلام!!

إذن يا خيلَ الله اركبى... ويا راية الله ارتفعى.. ويا حَمَلَة هذه الراية قوموا... انهضوا... واصلوا رحلة الشمس المشرقة.

لقد فعل يقين أبى بكر فى الصحابة ما فعل واستقبلوا الأمر بالعزم الأيِّد[١].

مبايعته بالخلافة ـ رضى الله عنه ـ

وبعد وفاة الحبيب ﷺ كادت أن تحدث فتنة عظيمة بين المهاجرين والأنصار على أمر الخلافة ـ مع أننا على يقينٍ تامٍ بأن أصحاب الحبيب ﷺ كانوا لا يبتغون بعملهم إلا وجه الله تعالى ـ.

ومما حدث فى يوم سقيفة بنى ساعدة أنه اجتمعت الأنصار إلى سعد بن عبادة فى سقيفة بنى ساعدة فقالوا: منا أمير ومنكم أمير فذهب إليهم أبو بكر وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح فذهب عمر يتكلم فأسكته أبو بكر، وكان عمر يقول: والله ما أردت بذلك إلا أنى قد هيأت كلامًا قد أعجبنى خشيت ألا يبلغه أبو بكر... ثم تكلم أبو بكر (فتكلم أبلغ الناس) فقال فى كلامه: نحن الأمراء وأنتم الوزراء. فقال حُباب بن المنذر: والله لا نفعل. منا أمير ومنكم أميرٌ فقال أبو بكر: لا، ولكنا الأمراء وأنتم الوزراء. هم أوسط العرب دارًا وأعربهم أحسابًا فبايعوا عمر أو أبا عبيدة، فقال عمر: بل نبايعك أنت فأنت سيدنا وخيرنا وأحبنا إلى رسول الله ﷺ فأخذ عُمَرُ بيده فبايعه وبايعه الناس، فقال قائل: قتلتم سعد بن عبادة، فقال عمر: قتله الله»[٢].

وعن عبد الله قال: لما قُبض رسول الله ﷺ قالت الأنصار: منا أمير ومنكم أميرٌ فأتاهم عمر فقال: ألستم تعلمون أن رسول الله ﷺ قد أمر أبا بكر أن يُصلى بالناس فأيكم تطيب نفسه أن يتقدم أبا بكر، فقالوا: نعوذ بالله أن نتقدم أبا بكر[٣].

وعن ابن عباس قال: قال عمر: لأن أُقدم فتُضرب عنقى أحب إلىَّ من أن أتقدم قومًا

(١) صلاح الأمة/ د. سيد حسين (٥/ ٨٩ ـ ٩٠) بتصرف.
(٢) أخرجه البخارى (٣٦٦٧) عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ.
(٣) رواه النسائى (٢/ ٧٤، ٧٥)، وأحمد (١/ ٢١)، والحاكم (٣/ ٦٧)، وصححه ووافقه الذهبى.

فيهم أبو بكر(١).

وعن أنس بن مالك قال: لما بويع أبو بكر في السقيفة وكان الغد. جلس أبو بكر على المنبر، فقام عمر فتكلم قبل أبي بكر، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: أيها الناس قد كنت قلت لكم بالأمس مقالةً ما كانت، وما وجدتها في كتاب الله، ولا كانت عهدًا عهده إليَّ رسول الله ﷺ، ولكني قد كنت أُرى أن رسول الله ﷺ سيدبُرُ أمرنا ـ يقول: يكون آخرنا ـ وإن الله قد أبقى فيكم كتابه الذي به هدى الله رسوله ﷺ فإن اعتصمتم به هداكم الله لما كان هداه له، وإن الله قد جمع أمركم على خيركم صاحب رسول الله ﷺ ثاني اثنين إذ هما في الغار، فقوموا فبايعوه(٢).

دستورٌ عظيم لحكام المسلمين

خطبة أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ بعد أن ولي الخلافة

ثم تكلم أبو بكر، فحمد الله وأثنى عليه بالذي هو أهله، ثم قال: أما بعد: أيها الناس، فإني قد وُليت عليكم، ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوّموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أُريح(٣) عليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله. لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمَّهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله(٤).

من بديع خُطبه ومواعظه ـ رضي الله عنه ـ

عن عبد الله بن حكيم قال: خطبنا أبو بكر، فقال: «أما بعد: فإني أوصيكم بتقوى الله وأن تثنوا عليه بما هو أهله، وأن تخلطوا الرغبة بالرهبة، وتجمعوا الإلحاف بالمسألة، إن الله أثنى على زكريا وأهل بيته، فقال:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

(١) السيرة النبوية لابن هشام ـ وقال ابن كثير في البداية: إسناده صحيح.

(٢) السيرة لابن هشام (٤/ ٢٨٥).

(٣) أريح: أراحه: أرجعه حقه.

(٤) ذكره ابن كثير في البداية والنهاية (٥/ ٢٤٨) (٦/ ٣٠١) وقال: إسناده صحيح.

اعلموا عباد الله أن الله قد ارتهن بحقه أنفسكم، وأخذ على ذلك مواثيقكم، واشترى منكم القليل الفاني بالكثير الباقي، وهذا كتاب الله لا تفنى عجائبه، ولا يُطفأ نوره، فصدِّقوا قوله، وانتصحوا كتابه، واستضيئوا منه ليوم القيامة، وإنما خلقكم لعبادته، ووكل بكم الكرامِ الكاتبين يعلمون ما تفعلون، ثم اعلموا عباد الله أنكم تغدون وتروحون فى أجلٍ قد غُيِّب عنكم علمه، فإن استطعتم أن تنقضى الآجال وأنتم فى عمل الله فافعلوا، ولن تستطيعوا ذلك إلا بالله، فسابقوا فى مُهَل آجالكم قبل أن تنقضى آجالكم فتردكم إلى سوء أعمالكم، فإن أقوامًا جعلوا آجالهم لغيرهم ونسوا أنفسهم، فأنهاكم أن تكونوا أمثالهم، الوَحَا الوَحَا[1]، النجاء النجاء، إن وراءكم طالبًا حثيثًا أمره سريع[2].

وخطب الصديق فى المسلمين فقال: «أيها الناس، استحيُوا من الله؟ فوالله ما خرجتُ لحاجة منذ بايعتُ رسول الله ﷺ أريد الغائط، إلا وأنا مُقَنِّع رأسى حياءً من الله»[3].

صور مشرقة من تواضعه ـ رضى الله عنه ـ

أورد ابن الأثير بسنده فى أسد الغابة: عن أبى صالح الغفارى: أن عمر بن الخطاب كان يتعاهد عجوزًا كبيرة عمياء فى بعض حواشى المدينة من الليل، فيستقى لها، ويقوم بأمرها، فكان إذا جاء وجد غيره قد سبقه إليها فأصلح ما أرادت، فجاءها غير مرة كلاً يسبق إليها، فرصده عمر فإذا هو بأبى بكر الصديق الذى يأتيها، وهو يومئذ خليفة. فقال عمر: أنت هو لعمرى!!

وكان ـ رضى الله عنه ـ يحلب للحى أغنامهم، فلما بويع له بالخلافة، قالت جارية من الحى: الآن لا تُحلب لنا منَائِحُ (أغنام) دارنا، فسمعها أبو بكر فقال: بلى لعمرى لأحلبنَّها لكم، وإنى لأرجو أن لا يغيرنى ما دخلت فيه عن خُلُق كنت عليه، فكان يحلب لهم، فربما قال للجارية من الحى: يا جارية أتحبين أن أُرغى لكِ أو أُصرّح؟ فربما قالت: أرغِ، وربما قالت: صرّح، فأى ذلك قالت فعل[4].

---

(١) الوَحَا: أى السرعة.

(٢) صفة الصفوة (١/ ١٠٦ ـ ١٠٧).

(٣) مكارم الأخلاق لابن أبى الدنيا (ص ٢٠).

(٤) أسد الغابة (٣/ ٣٢٥، ٣٢٦) وقال ابن كثير: هذا سياق حسن، وله شواهد من وجوه أخر، ومثل هذا تقبله النفوس وتتلقاه بالقبول (كذا فى الكنز: ١٤٠٧٧).

وعن سعيد بن المسيب: أن أبا بكر ـ رضى الله عنه ـ لما بعث الجنود نحو الشام أمّر يزيد بن أبى سفيان، وعمرو بن العاص، وشرحبيل بن حسنة، ولما ركبوا مشى أبو بكر مع أمراء جنوده يودّعهم حتى بلغ ثَنيَّة الوداع، فقالوا:يا خليفة رسول الله، تمشى ونحن رُكبان؟! فقال:إنى أحتسب خُطاى هَذه فى سبيل الله(١).

صفحة مشرقة من عدله ـ رضى الله عنه ـ

وها هى صورة مشرقة من العدل نهديها لكل من ولى من أمر المسلمين شيئًا صغيراً كان أو كبيراً.

ومن عدل الصديق: أنه سوّى بين رعيته فى العطاء وقسمة المال، واعتبر أن سابقة بعضهم فى الخيرات إنما يثاب عليها فى الدار الآخرة.

عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت: «قسم أبى أول عام الفَىء، فأعطى الحُرّ عشرة، وأعطى المملوك عشرة، والمرأة عشرة، وأمَتها عشرة، ثم قسّم فى العام الثانى، فأعطاهم عشرين عشرين»(٢).

وقال سهل بن أبى حثمة ـ رضى الله عنه ـ: قَدِم مال فى خلافة الصديق، فكان أبو بكر يقسمه على الناس نُقراً نُقر؛ فيصيب كل مائة إنسان كذا وكذا، وكان يسوّى بين الناس فى القسم، الحر والعبد، والذكر والأنثى، والصغير والكبير فيه سواء»(٣).

لله دَر أبى بكر من إمام عظيم متفوق لم تفلت منه مَزيّة، ولم تغب عنه فضيلة، يقول هذه الكلمات المعجزات فى مستهل حُكمه، ينطق كل حرف منها بالحكمة والقسطاس.

لله دره كم كان ولاؤه لتطبيق هدى نبيه ﷺ حرفيًا حتى فى الظروف التى تجيش فيها العواطف وهو أرقّ الناس أفئدة.

لقد كُتب عليه أن يبدأ عهد خلافته بواقعة امتحن فيها ولاؤه للعدل وهدى نبيه امتحانًا عظيمًا، حين ذهبت إليه فاطمة عليها السلام بنت رسول الله ﷺ تسأله قطعة أرض باعتبارها ميراث أبيها ﷺ ، فقال لها أبو بكر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «نحن

---

(١) أخرجه البيهقى (٩/ ٨٥) وكذا ابن عساكر.
(٢) أخرجه ابن سعد (٣/ ١٩٣) فى الطبقات.
(٣) إسناده حسن لغيره: أخرجه ابن سعد (٣/ ٢١٢ ـ ٢١٣) ورواه عن غير سهل.



معاشر الأنبياء لا نورَّث، ما تركناه صدقة»[١]، إنى والله لا أدع أمراً رأيت رسول الله ﷺ يصنعه إلا صنعته، إنى أخشى إن تركت شيئًا من أمره أن أزيغ، وهو يعلم أن أولى الناس بالرعاية بنت حبه ورسوله ﷺ.. فلله دره وهو يحمل إيمان العباقرة لا تثنيه عن عدله أرقّ الوشائج[٢].

ورع يعجز القلم عن وصفه

عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت: كان لأبى بكر غلامٌ يخرجُ له الخَراج، وكان أبو بكر يأكل من خراجه، فجاء يومًا بشىء فأكل منه أبو بكر، فقال له الغلام: أتدرى ما هذا؟ فقال أبو بكر: ما هو؟ قال: كنت تكهنت لإنسان فى الجاهلية، وما أُحسن الكهانة، إلا أنى خدعته فأعطانى بذلك، فهذا الذى أكلت منه؟ فأدخل أبو بكر يده فقاءَ كل شىء فى بطنه[٣].

وعن زيد بن أرقم ـ رضى اللـه عنه ـ قال : كان لأبى بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ مملوك يغلُّ عليه، فأتاه ليلة بطعام، فتناول منه لقمة، فقال له المملوك: مالك كنت تسألنى كل ليلة، ولم تسألنى الليلة؟

قال: حملنى على ذلك الجوع، من أين جئت بهذا؟

قال: مررت بقوم فى الجاهلية فرقيت لهم، فوعدونى فلما كان اليوم، مررت بهم فإذا عُرس لهم فأعطونى.

قال: إنك كدت أن تهلكنى، فأدخَل يده فى حَلقه فجعل يتقيأ، وجعلت لا تخرج ـ يعنى اللقمة ـ.

فقيل له: إن هذه لا تخرج إلا بالماء، فدعا بطست من ماء، فجعل يشرب، ويتقيأ حتى رمى بها.

فقيل له: يرحمك الله كل هذا من أجل هذه اللقمة.

قال: لو لم تخرج إلا مع نفسى لأخرجتها[٤].

---

(١) إسناده صحيح: أخرجه ابن سعد (٨/ ٣٦٤)، وأصله فى البخارى (٣٠٩٢، ٣٠٩٣).
(٢) نقلاً من ترطيب الأفواه/ د. سيد حسين (١/ ١١٠ ـ ١١١).
(٣) أخرجه البخارى (٣٨٤٢) مناقب الأنصار ـ باب أيام الجاهلية.
(٤) أخرجه أبو نعيم فى الحلية (١/ ٣١).

رقة قلبه وبكاؤه ـ رضى الله عنه ـ

عن أنس قال: قال أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ بعد وفاة رسول الله ﷺ لعمر: انطلق بنا إلى أم أيمن نزورها كما كان رسول الله ﷺ يزورها، فلما انتهينا إليها بكت، فقالا لها: ما يبكيك؟ ما عند الله خيرٌ لرسول الله ﷺ ، فقالت: ما أبكى أن أكون أعلم أن ما عند الله خير لرسول الله ﷺ ، ولكن أبكى أن الوحى قد انقطع من السماء. فهيجتهماُ على البكاء فجعلا يبكيان معها(١).

وعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ فى حديث الهجرة الطويل، وفيه: ثم بدا لأبى بكر فابتنى مسجداً بفناء داره، وكان يُصلى فيه ويقرأ القرآن فيتقذَّف عليه نساء المشركين وأبناؤهم، وهم يعجبون منه، وينظرون إليه، وكان أبو بكر رجلاً بكَّاءً لا يملكُ عينيه إذا قرأ القرآن(٢).

زهده ـ رضى الله عنه ـ فى الدنيا وزينتها الفانية

عن زيد بن أرقم، أن أبا بكر استسقى، فأُتى بإناء فيه ماء وعسل، فلما أدناه من فيه ـ فمه ـ بكى، وأبكى مَنْ حوله، فسكت وما سكتوا، ثم عاد فبكى حتى ظنوا أن لا يقدروا على مساءلته، ثم مسح وجهه وأفاق، فقالوا: ما هاجك على هذا البكاء؟ قال: كنتُ مع النبى ﷺ ، وجعل يدفع عنه شيئًا، ويقول: «إليك عنى، إليك عنى» ولم أرَ معه أحداً، فقلت: يا رسول الله، أراك تدفع عنك شيئًا، ولا أرى معك أحداً؟ قال: «هذه الدنيا تمثلت لى بما فيها، فقلت لها: إليك عنى، فتنحت وقالت: أما والله لئن انفلتَّ منى لا ينفلت منى مَن بعدك» فخشيت أن تكون قد لحقتنى، فذاك الذى أبكانى»(٣).

بعث جيش أسامة ـ رضى الله عنه ـ

لقد ارتد بعد وفاة النبى ﷺ الكثير من قبائل العرب، بل وأصبح الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ كما وصفهم عمار بن ياسر ـ رضى الله عنه ـ: كغنمٍ بلا راعٍ، وصارت المدينة المنورة ـ على حسب تعبيره ـ أضيق على أهلها من الخاتم.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤٥٤) فضائل الصحابة ـ باب فضل أم أيمن.

(٢) أخرجه البخارى (٣٩٠٥) مناقب الأنصار ـ باب هجرة النبى ﷺ وأصحابه إلى المدينة.

(٣) رواه الحاكم والبزار وقال العراقى: إسناده جيد.

فبدأ الصدِّيق ـ رضى الله عنه ـ خلافته المباركة بإنفاذ جيش أسامة بن زيد ـ رضى الله عنهما ـ الذى أمر به النبى ﷺ قبل موته لتأديب قبائل قضاعة لموالاتهم للروم ضد جيش المسلمين.

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: فصل فى تنفيذ جيش أسامة بن زيد، الذين كانوا قد أمرهم رسول الله ﷺ بالمسير إلى تخوم البلقاء من الشام، حيث قُتل زيد بن حارثة، وجعفر، وابن رواحة، فيغيروا على تلك الأراضى، فخرجوا إلى الجرف، فخيموا بها، وكان بينهم عمر بن الخطاب، ويقال: وأبو بكر الصديق، فاستثناه رسول الله ﷺ منهم للصلاة، فلما ثقل رسول الله ﷺ أقاموا هنالك، فلما مات عَظُم الخطب، واشتد الحال، ونَجَم النفاق بالمدينة، وارتد من ارتد من أحياء العرب حول المدينة، وامتنع آخرون من أداء الزكاة إلى الصديق، ولم يبق للجمعة مقام فى بلد سوى مكة والمدينة، وكانت (جويثًا) من البحرين أول قرية أقامت الجمعة بعد رجوع الناس إلى الحق كما فى صحيح البخارى عن ابن عباس، وقد كانت ثقيف بالطائف ثبتوا على الإسلام، ولم يفروا ولا ارتدوا.

والمقصود أنه لما وقعت هذه الأمور أشار كثير من الناس على الصديق أن لا ينفذ جيش أسامة، لاحتياجه إليه فيما هو أهم؛ لأن ما جهز بسببه فى حال السلامة، وكان من جملة من أشار بذلك عمر بن الخطاب، فامتنع الصديق من ذلك، وأبى أشد الإباء إلا أن ينفذ جيش أسامة، وقال: والله لا أحلُّ عقدة عقدها رسول الله ﷺ، ولو أن الطير تخطفنا والسباع من حول المدينة، ولو أن الكلاب جرت بأرجل أمهات المؤمنين لأجهزن جيش أسامة، وآمر الحرس يكونون حول المدينة، فكان خروجه فى ذلك الوقت من أكبر المصالح والحالة تلك، فساروا لا يمرون بحى من أحياء العرب إلا أُرعبوا منهم، وقالوا: ما خرج هؤلاء من قوم إلا وبهم منعة شديدة، فقاموا أربعين يومًا ويقال: سبعين يومًا، ثم أتوا سالمين غانمين ثم رجعوا فجهزهم حينئذٍ مع الأحياء الذين أخرجهم لقتال المرتدة ومانعى الزكاة(١).

ثم خرج أبو بكر حتى أتى الجيش فأشخصهم وشيَّعهم، وهو ماشٍ، وأسامة راكب، وعبد الرحمن بن عوف يقود دابة أبى بكر.

فقال له أسامة: يا خليفة رسول الله، والله لتركبن أو لأنزلن.

(١) البداية والنهاية (٦/ ٣٠٨) لابن كثير. ط. دار الكتب العلمية.

فقال : والله لا تنزل ، ووالله لا أركب ، وما عليّ أن أغبر قدميّ في سبيل الله ساعة، فإن للغازى بكل خطوة يخطوها سبعمائة حسنة تُكتب له، وسبعمائة درجة تُرفع له، وتُرفع عنه سبعمائة خطيئة، حتى إذا انتهى قال: إن رأيت أن تعينني بعمر، فافعل، فأذن له.

ووقف الصديق ـ رضى الله عنه ـ يزود الجيش بخير الزاد، ويرسم له دستور الحرب الذى ما عرف التاريخ أعدل، ولا أطهر، ولا أشرف منه فى غير الإسلام ووقف يقول لهم:

أيها الناس، قفوا أوصيكم بعشرٍ فاحفظوها عنى:

لا تخونوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا صغيراً، ولا شيخًا كبيراً ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً، ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع، فدعوهم وما فرَّغوا أنفسهم له.

وانطلق جيش أسامة فى أمان الله تنفيذاً لأمر رسول الله ﷺ ، فجعل لا يمر بقبيل يريدون الارتداد إلا قالوا: لولا أن لهؤلاء قوة ما خرج مثل هؤلاء من عندهم، ولكن ندعهم حتى يلقوا الروم، فإن انتصر الروم فقد كفونا القتال، وإن انتصر أسامة فقد ثبت الإسلام، وانتصر جيش أسامة بفضل الله فهزموهم وقتلوهم، ورجعوا سالمين فثبتوا على الإسلام[1].

فتلك هى رحمة الإسلام بالكفار والمشركين حتى فى الحروب التى لا تخضع لقوانين الإيمان والأخلاق.

إنها صورة نهديها لكل من يقول: إن الإسلام لم ينتشر إلا بالعنف والإرهاب!!!.

موقف الصديق ـ رضى الله عنه ـ فى حروب المرتدين

قال الإمام الذهبى: «لما اشتهرت وفاة النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالنواحى، ارتدت طوائف كثيرة من العرب عن الإسلام، ومنعوا الزكاة، فنهض أبو بكر لقتالهم، فأشار عليه (عمر) وغيره أن يفتر عن قتالهم، فقال: والله لو منعونى عقالاً كانوا يؤدونه

---

(١) البداية والنهاية (٦/ ٣٣٦) بتصرف ـ نقلاً من أئمة الهدى للشيخ محمد حسان وعوض الجزار ـ ط. دار ابن رجب.

إلى رسول الله ﷺ لجاهدتهم عليه».

وهنا قال عمر بن الخطاب لأبى بكر ـ رضى الله عنهما ـ: كيف تقاتلهم، وقد قال رسول الله ﷺ: «أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله، فقد عصم منى نفسه وماله إلا بحقها، وحسابه على الله»؟.

فقال أبو بكر: والله لو منعونى عناقًا[1]، وفى رواية عقالاً[2] كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لأقاتلنهم على منعها، إن الزكاة حق المال، والله لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة.

قال عمر: فما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبى بكر للقتال فعرفت أنه الحق[3].

وكان مما قال عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ: يا خليفة رسول الله ﷺ! تألَّف الناس وارفق بهم.

فأجابه أبو بكر: رجوت نُصرتك وجئتنى بخذلانك، أجبَّار فى الجاهلية، وخوَّار فى الإسلام؟ إنه قد انقطع الوحى، وتم الدين، أوَ ينقص وأنا حى؟ أليس قد قال رسول الله ﷺ: «إلا بحقها»؟ ومن حقها إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والله لو خذلنى الناس كلهم لجاهدتهم بنفسى[4].

فكان موقفًا مباركًا مؤيدًا من الله تبارك وتعالى.. وقيَّض الله عز وجل لهذا الدين رجلاً مباركًا هو الصدِّيق..

فثبت ثباتًا عظيمًا فى هذه الفتنة العظيمة، تمثلت فيه عظمة هذا الرجل من إيمان ويقين وفهمٍ عميق لهذا الدين.. فأيده الله بنصرٍ من عنده..

فما من ناحية من جزيرة العرب إلا وحصل فى أهلها ردة لبعض الناس فبعث الصدِّيق إليهم جيوشًا وأمراء يكونون عونًا لمن فى تلك الناحيةِ من المؤمنين، فلا يتواجه المشركون والمؤمنون فى موطن من تلك المواطن إلا غلب جيش الصديق مَن هناك من المرتدين، ولله الحمد والمنة... وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وغنموا مغانم كثيرة فيتقوون

(١) العناق: الأنثى من ولد المعز.

(٢) العقال: هو الحبل الذى يعقل به البعير.

(٣) رواه البخارى رقم (٧٢٨٤، ٨٢٨٥) فى كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنة رسول الله ﷺ، ومسلم رقم (٣٢) فى الإيمان.

(٤) التاريخ الإسلامى/ لمحمود شاكر (٣/ ٦٨).

بذلك على مَنْ هناك، يبعثون بأخماس ما يغنمون إلى الصدِّيق فينفقه فى الناس، فيحصل لهم قوة أيضًا ويستعدون بها على قتال من يريدون قتالهم من الأعاجم والروم، ولم تنم لصدِّيق الأمة عين حتى أرسل الجيوش الإسلامية يمينًا وشمالاً لتمهيد قواعد الإسلام، وقتال الطغاة من الأنام حتى رد شارد الدين بعد ذهابه، ورجع الحق إلى نصابه، وتمهدت جزيرة العرب، وصار البعيد الأقصى كالقريب الأدنى.

وتوالت الانتصارات والفتوحات بفضل من الله رب الأرض والسموات، وتم القضاء على المرتدين، ودوخت جيوش المسلمين الفرس والروم، وأظهرت قوتهم وإمكاناتهم القتالية.

الصدِّيق ـ رضى الله عنه ـ أول من جمع القرآن الكريم

جهّز أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ جيشًا بقيادة خالد بن الوليد فى جمعٍ كثير من الصحابة لمحاربة (مسيلمة الكذاب) عليه من الله ما يستحقه، فحاربوه أشد محاربة إلى أن خذله الله، وقتله... وقُتل فى غضون ذلك من الصحابة جماعة كثيرة من حَمَلة القرآن، قيل: سبعمائة، وقيل: أكثر وذلك فى موقعة اليمامة، فبدأ التفكير فى جمع القرآن قبل أن يُقتل الباقون.

ولنستمع القصة من كاتب وحى رسول الله ﷺ زيد بن ثابت ـ رضى الله عنه ـ(1).

يقول زيد: أرسل إلىَّ أبو بكر الصديق مقتل أهل اليمامة (أى عقب مقتل اليمامة)، فإذا عمر بن الخطاب عنده، قال أبو بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ: إن عمر أتانى فقال: إن القتل قد استحرّ يوم اليمامة بقراء القرآن، وإنى أخشى إن استحرَّ القتل بالقراء بالمواطن، فيذهب كثير من القرآن، وإنى أرى أن تأمر بجمع القرآن.

قلت لعمر: كيف نفعل شيئًا لم يفعله رسول الله ﷺ ؟!

قال عمر: هذا والله خير.

فلم يزل عمر يراجعنى حتى شرح الله صدرى لذلك، ورأيت فى ذلك الذى رأى عمر.

وفى رواية: يقول زيد: فقال لى أبو بكر: «إن هذا دعانى إلى أمر، وأنت كاتب الوحى

---

(1) أئمة الهدى ومصابيح الدجى (ص ٢٠٣ : ٢٠٥) للشيخ محمد حسان وعوض الجزار.

فإن تك معه اتبعتكما، وإن توافقني لا أفعل» فاقتضى قول عمر فنفرت من ذلك[١]، فقال عمر كلمة: وما عليكما لو فعلتما؟ قال: فنظرنا فقلنا: لا شي والله ما علينا.

قال زيد: قال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فتتبع القرآن فاجمعه.

فوالله لو كلفني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمرني به من جمع القرآن.

قلت: كيف تفعلون شيئًا لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ قال: هو والله خير.

لم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ فتتبعت القرآن أجمعه من العُسُبِ[٢] واللِّخاف[٣]، وصدور الرجال، حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري، لم أجدها مع أحد غيره: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾ [التوبة:١٢٨]، حتى خاتمة براءة.

فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته ـ أي طوال حياته ـ ثم عند حفصة بنت عمر ـ رضي الله عنهما ـ[٤].

استخلافه لعمر ـ رضي الله عنه ـ

ولما دنا أجل الصدِّيق ـ رضي الله عنه ـ وقد أكرمه الله ـ عز وجل ـ بالقضاء على فتنة المرتدين وكثرت الفتوحات الإسلامية في عهده وساق الله على يديه الخير الكثير للإسلام والمسلمين.. فأحسَّ أنه من الأفضل أن يستخلف رجلاً من بعده يكمل مسيرة الإصلاح ونشر الدعوة ويأخذ بأيدي الناس إلى جنة الرحمن ـ جل وعلا ـ.

ولا شك أن اختيار هذا الرجل قبل وفاة الصدِّيق ـ رضي الله عنه ـ سيجنب المسلمين

---

(١) قال ابن بطال: إنما نفر أبو بكر أولاً، ثم زيد بن ثابت ثانيًا؛ لأنهما لم يجدا رسول الله ﷺ فعله فكرها أن يحلا أنفسهما محل من يزيد احتياطه للدين على احتياط الرسول ﷺ، فلما نبههما عمر على فائدة ذلك وأنه خشية أن يتغير الحال في المستقبل إذا لم يجمع القرآن، فيصير إلى حالة الخفاء بعد الشهرة، رجعا إليه فتح... الباري (٨/ ٦٣٠).

(٢) العسب: جمع عسيب، وهو جريد النخل، كانوا يكشطون الخوص ويكتبون في الطرف العريض.

(٣) اللخاف: قيل: هي الحجارة الرقاق، وقيل: هي صحائف الحجارة الرقاق.

(٤) رواه البخاري رقم (٤٩٨٦) في «فضائل القرآن» باب جمع القرآن، والترمذي في التفسير، والنسائي (٥/ ٢٩٣) في المناقب.

محنة الاختلاف على الخليفة القادم.

ولقد كان الصدِّيق ـ رضي الله عنه ـ يخشى أن يموت فيتورع عن هذا المنصب مَن هو أحق الناس به لزهده وورعه، ومن ثَم فقد يتولى هذا المنصب من لا يستحقه فيكون بذلك قد ضيَّع الأمانة.

فرأى الصدِّيق ـ رضي الله عنه ـ أنه لابد من استخلاف رجل من بعده وبدأ بالفعل يسأل الصحابة عن رأيهم في عمر ـ رضي الله عنه ـ فأجمع الصحابة على أنه أحق الناس بالخلافة سوى أن هناك من خشى أن يغلظ عمر ـ رضي الله عنه ـ على رعيته.

ولم يدر هذا الصحابي الجليل أن عمر ـ رضي الله عنه ـ إنما كان يغلظ أحيانًا إذا خشى أن يتجرأ رجل على شخص رسول الله ﷺ أو على خليفة رسول الله ﷺ أبى بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ.

وهنا جاء القرار الحاسم من الصدِّيق ـ رضي الله عنه ـ فدعا عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ وقال: اكتب:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة في آخر عهده بالدنيا خارجًا منها، وعند أول عهده بالآخرة داخلاً فيها حيث يؤمن الكافر، ويوقن الفاجر، ويصدق الكاذب.... إني استخلفت عليكم.

ثم غُشي عليه.

فكتب عثمان: إني استخلفت عليكم عمر بن الخطاب.

فلما أفاق أبو بكر قال: اقرأ عليّ، فقرأ عليه، فكبّر وقال: أراك خفت أن يختلف الناس إن افتلتت نفسي في غشيتي.

قال: نعم.

قال: جزاك الله خيرًا عن الإسلام وأهله.

وأقرها أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ وأمره أن يخرج على الناس بالكتاب فبايعوه لمن فيه قد علموا أنه عمر[1].

---

(١) «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٣/ ١٤٨، ١٤٩) بسند فيه الواقدي، و«تاريخ الطبري» (٢/ ٣٥٢) من طريق الواقدي أيضًا، و«المنتظم» (٤/ ١٢٥، ١٢٦) وعند البيهقي (٨/ ١٤٩) بإسناد حسن.

وصيته الغالية لعمر ـ رضي الله عنه ـ

عن عبد الرحمن بن عبد الله بن سابط، قال: لما حضر أبا بكر الصديق الموتُ، دعا عمر، فقال له: «اتق الله يا عمر، واعلم أن لله عملاً بالنهار لا يقبله بالليل، وعملاً بالليل لا يقبله بالنهار، وأنه لا يقبل نافلةً حتى تُؤدى فريضة، وإنما ثقلت موازين مَن ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق في دار الدنيا وثقله عليهم، وحُقَّ لميزان يوضع فيه الحقُّ غداً أن يكون ثقيلاً، وإنما خفَّت موازين من خفَّت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل في الدنيا وخفته عليهم، وحُقَّ لميزان يوضع فيه الباطل غداً أن يكون خفيفًا، وإن الله تعالى ذكر أهل الجنة فذكرهم بأحسن أعمالهم وتجاوز عن سيئه، فإذا ذكرتَهم قلت: إني أخاف أن لا ألحق بهم، وإن الله تعالى ذكر أهل النار، فذكرهم بأسوأ أعمالهم، وردَّ عليهم أحسنه، فإذا ذكرتهم، قلت: إني لأرجو أن لا أكون مع هؤلاء، ليكون العبد راغبًا راهبًا، لا يتمنى على الله ولا يقنط من رحمة الله، فإن أنت حفظت وصيتي، فلا يك غائب أحب إليك من الموت، وهو آتيك، وإن أنت ضيعت وصيتي فلا يك غائب أبغض إليك من الموت، ولستَ تُعجزه»(١).

أفرس الناس ثلاثة !!!

يقول ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: أفرس الناس ثلاثة: أبو بكر حين تفرس في عمر بن الخطاب فاستخلفه وصاحبة موسى التي قالت: «يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين»، قال: وما رأيت من قوته؟

قالت: جاء إلى البئر وعليه صخرة لا يُقلّها كذا وكذا فرفعها.

قال: وما رأيت من أمانته؟ قالت: كنت أمشي أمامه، فجعلني خلفه، والعزيز حين تفرس في يوسف ﷺ فقال لامرأته:

﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ [يوسف:٢١](٢).

* * *

(١) الحلية لأبي نعيم (١/ ٣٦، ٣٧) صفة الصفوة (١/ ١٣٧، ١٣٨).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٨/ ٥٧٥) في مصنفه، والحاكم (٣/ ٩٠)، وصححه وأقره الذهبي.

وحان وقت الرحيل

وبعد حياة طويلة مليئة بالحب والبذل والتضحية والفداء والعدل والإيثار.

نام خليفة رسول الله ﷺ على فراش الموت ليلحق بحبيبه وصاحبه رسول الله ﷺ في جنة الرحمن ـ جل وعلا ـ إخوانًا على سُرر متقابلين.

عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ: أول ما بُدِئَ مرض أبي بكر أنه اغتسل، وكان يومًا باردًا فَحُمّ خمسة عشر يومًا لا يخرج إلى صلاة، وكان يأمر عمر بالصلاة، وكانوا يعودونه، وكان عثمان ألزمهم له في مرضه.

وعن عائشة قالت: لما مرض أبو بكر مرضه الذي مات فيه قال: انظروا ماذا زاد في مالي منذ دخلت في الإمارة فابعثوا به إلى الخليفة من بعدي. فنظرنا فإذا عبدٌ نوبي كان يحمل صبيانه، وإذا ناضح[1] كان يسقي بستانًا له. فبعثنا بهما إلى عمر. قالت: فأخبرني جدي أن عمر بكى وقال: رحمة الله على أبي بكر لقد أتعب مَن بعده تعبًا شديدًا[2].

وقالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: لما مرض أبو بكر مرضه الذي مات فيه، دخلت عليه وهو يعالج ما يعالج الميت ونفسه في صدره فتمثلت هذا البيت:

لعمرك مـا يغني الثراء عن الفتى ... إذا حشرجت يومًا وضاق بها الصدر

فنظر إليّ كالغضبان، ثم قال: ليس كذلك يا أم المؤمنين، ولكن قول الله أصدق: ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ [ق:١٩].

ثم قال: يا عائشة: إنه ليس أحدٌ من أهلي أحب إليّ منك، وقد كنت نحلتك حائطًا، وإن في نفسي منه شيئًا فرديه إلى الميراث.

قالت: نعم فرددته.

وقال ـ رضي الله عنه ـ: أما إنا منذ ولينا أمر المسلمين لم نأكل لهم دينارًا ولا درهمًا، ولكنا قد أكلنا من جريش طعامهم في بطوننا، ولبسنا من خيش ثيابهم على ظهورنا، وليس عندنا من فَيء المسلمين قليلٌ ولا كثير إلا هذا العبد الحبشي، وهذا البعير الناضح، وجرد هذه القطيفة، فإذا مت فابعثي بهن إلى عمر، وابرئي منهن ففعلت، فلما جاء

---

(١) الناضح: هو البعير الذي يستقى عليه.

(٢) صفة الصفوة (١/ ١٠٨).

الرسولُ (عمر) بكى حتى جعلت دموعه تسيل فى الأرض ، ويقـول: رحم الله أبا بكر، لقد أتعب من بعده، رحم الله أبا بكر، لقد أتعب من بعده، رحم الله أبا بكر، لقد أتعب من بعده[١].

وقال ـ رضى الله عنه ـ لما حضرته الوفاة: إن عمر لم يدعنى حتى أصبت من بيت المال ستة آلاف درهم، وإن حائطى الذى بمكان كذا فيها، فلما توفى ذُكر ذلك لعمر فقال: يرحم الله أبا بكر، لقد أحب أن لا يدع لأحد بعده مقالاً[٢].

واستمر مرض أبي بكر مدة خمسة عشر يومًا حتى كان يوم الإثنين ليلة الثلاثاء فى الثانى والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة للهجرة، قالت عائشة ـ رضى الله عنها ـ : إن أبا بكر قـال لها: فى أي يوم مات رسول الله ﷺ ؟ قالت: فى يوم الإثنين، قال: ما شاء إنى لأرجو فيما بينى وبين الليل، قال: ففيم كفنتموه؟

قالت:في ثلاثة أثواب بيض سحولية يمانية ليس فيها قميص، ولا عمامة.

فقال أبو بكر: انظرى ثوبى هذا فيه ردعُ زعفران أو مشقٍ فاغسليه واجعلى معه ثوبين آخرين.

فقالت عائشة: يا أبت هذا خَلِقٌ ـ قديم ـ فقال: إن الحى أحق بالجديد، وإنما هو للمُهلة[٣]. يعنى فترة القبر.

وعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت: إن أبا بكر لما حضرته الوفاة، قال: أى يوم هذا؟ قالوا: يومِ الإثنين، قال: فإن مت من ليلتى فلا تنتظروا بى الغد، فإن أحبٍّ الأيام والليالى إلىّ أقربُها من رسول الله ﷺ [٤].

وتوفى ـ رحمه الله ـ وهو ابن ثلاث وستين سنة... مُجمعٌ على ذلك فى الروايات كلها، استوفى سن رسول الله ﷺ ، وكان أبو بكر وُلد بعد الفيل بثلاث سنين ـ رضى الله عنه ـ وغسلته زوجه أسماء بنت عميس، وكان قد أوصى بذلك[٥]، ودُفن جانب رسول الله ﷺ حسب وصيته، وصلى عليه خليفته عمر ابن الخطاب.

---

(١) رواه ابن سعد في الطبقات (٣/ ١٤٦، ١٤٧)، ورجاله ثقات.

(٢) المنتظم (٤/ ١٢٧) عن ابن سعد، ورجاله ثقات.

(٣) رواه ابن سعد فى الطبقات (٣/ ١٥٠)، ورجاله ثقات.

(٤) رواه الإمام أحمد فى المسند رقم (٤٥)، وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح.

(٥) رواه ابن سعد فى الطبقات (٣/ ٢٠٣، ٢٠٤) وإسناده صحيح.

ونزل قبره عمر، وعثمـان، وطلحة، وابنه عبد الرحمن، وجعل رأسه عند كتفى رسول الله ﷺ ، وألصق اللحد بقبر رسول الله ﷺ .

كلمة خالدة قالها (على) بعد موت (الصديق) ـ رضى الله عنهما ـ

عن أُسيد بن صفوان: قال: لما قُبض أبو بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ وسُجِّى عليه ارتجت المدينة بالبكاء كيوم قُبض رسول الله ﷺ.

قال: فجاء علىّ بن أبي طالب ـ رضى الله عنه ـ ووقف على البيت الذى فيه أبو بكر فقال: رحمك الله يا أبا بكر.. كنت إلف رسول الله ﷺ وأنيسه ومستراحه وثقته وموضع سره ومشاورته، وكنت أول القوم إسلامًا، وأخلصهم إيمانًا، وأشدهم لله يقينًا، وأخوفهم لله، وأعظمهم غناء فى دين الله عز وجل، وأحوطهم على رسول الله ﷺ ، وأحدبهم على الإسلام، وأحسنهم صحبة، وأكثرهم مناقب، وأفضلهم سوابق، وأرفعهم درجة، وأقربهم وسيلة، وأشبههم برسول الله ﷺ هديًا وسمتًا،وأشرفهم منزلة، وأرفعهم عنده، وأكرمهم عليه، فجزاك الله عن رسول الله وعن الإسلام أفضل الجزاء. صدقت رسول الله ﷺ حين كذبه الناس، وكنت عنده بمنزلة السمع والبصر، سماك الله فى تنزيله صِدِّيقًا فقال: ﴿ وَالَّذِى جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ﴾ [الزمر:٣٣].

واسيته حين بخلوا، وقمت معه على المكاره حين قعدوا، وصحبته فى الشدة أكرم الصحبة، ثاني اثنين صاحبه فى الغار، والمُنزَّل عليه السكينة، ورفيقه فى الهجرة، وخليفته فى دين الله وأمته، أحسن الخلافة حين ارتدوا، فقمت بالأمر ما لم يقم به خليفة نبى، ونهضت حين وهن أصحابه، وبرزت حين استكانوا، وقويت حين ضعفوا، ولزمت منهاج رسول الله ﷺ إذ وهنوا.

وكنت كما قال رسول الله ضعيفًا فى بدنك قويًا فى أمر الله تعالى، متواضعًا فى نفسك عظيمًا عند الله تعالى، جليلاً فى أعين الناس كبيرًا فى أنفسهم، لم يكن لأحدهم فيك مغمز، ولا لقائل فيك مهمز، ولا لمخلوق عندك هوادة، الضعيف الذليل عندك قوى عزيز حتى تأخذ بحقه القريب والبعيد عندك فى ذلك سواء، وأقرب الناس عندك أطوعهم لله عز وجل وأتقاهم... شأنك الحق والصدق والرفق قولك حكم وحتم، وأمرك حلم وحزم، ورأيك علم وعزم، اعتدل بك الدين وقوى بك الإيمان وظهر أمر



الله، فسبقت ـ والله ـ سبقًا بعيدًا، وأتعبت من بعدك إتعابًا شديدًا، وفزت بالخير فوزًا مبينًا، فإنا لله وإنا إليه راجعون رضينا عن الله عز وجل قضاءه وسلمنا له أمره، والله لن يصاب المسلمون بعد رسول الله ﷺ بمثلك أبدًا، كنت للدين عزًا، وحرزًا وكهفًا فألحقك الله عز وجل بنبيك محمد ﷺ ، ولا حرمنا أجرك، ولا أضلنا بعدك، فسكت الناس حتى قضى كلامه، ثم بكوا حتى علت أصواتهم وقالوا: صدقت(١).

وعن عمر ـ رضى الله عنه ـ قال: لو وُزن إيمان أبى بكر بإيمان أهل الأرض لرجح بهم ليتنى شعرة فى صدر أبى بكر»(٢).

فرضى الله عن أبى بكر وعن سائر الصحابة أجمعين

* * *

(١) التبصرة لابن الجوزى (١/ ٤٧٧ ـ ٤٧٩).

(٢) المطالب العالية (٤٢٩٢) والخبر فى زيادات مسند مسدد ورجاله ثقات.

عمر بن الخطاب

لو كان من بعدى نبى لكان عمر بن الخطاب

محمد رسول الله ﷺ

وهذا الفاروق، الذى تطيب المجالس بذكره، يَصْدُق فيه: أن من خاف الله أخاف الله منه كل شىء.... والجزاء من جنس العمل.

فقد كان يسمع القرآن فيُغشى عليه فيُحمل صريعًا إلى منزله، فيُعاد أيامًا، ليس به مرض إلا الخوف.

وقد بلغ من خوفه أن حفرت الدموع خطين أسودين فى وجهه من كثرة بكائه[1].

إنه مَن أظهر إسلامه يوم كانوا يُخفونه.

إنه مُرقّع القميص وبين يديه الغالى والنفيس.

إنه من يسلك الشيطان فجًا غير فجه.

إنه الوقّاف عند كتاب الله.. إنه المجاهد فى سبيل الله.

إنه القيم والمُثل بعينها.. وما أروع المُثل يوم تكون رجالاً فتكون الأخلاق فِعالاً.

إنه العادل إن ذُكر العادلون.

هو مَن سهر لينام الناس.. وجاع ليشبع الناس.

هو مَن جعل كبير المسلمين أبًا، وأوسطهم أخًا، وأصغرهم ولدًا.. فوقَّر أباه وأحَبَّ أخاه ورَحِم ولده.

هو مَن لا تأخذه فى الله لومة لائم.

هو قائل الحق ولو كان مُرًّا.

إنه مَن اشترى أعراض المسلمين من أحد الشعراء بثلاثة آلاف درهمٍ حتى قال ذلك الشاعر:

---

(١) الجزاء من جنس العمل/ د. سيد حسين (٢/ ١٧).

وأخذت أطراف الكلام فلم تَدع شتمًا يضر ولا مديحًا ينفعُ
ومنعتنى عرض البخيل فلم يخف شتمى وأصبح آمنًا لا يفزعُ

إنه (فاروق الأمة) الذى زلزل عروش الظالمين... ودكّ قلاع الأكاسرة والقياصرة، وخضعت لعدالته الجبابرة والأباطرة وهوت عناكب الظلم أمام رايات عدله الخفّاقة وفتوحاته المظفّرة.. فأرغم أنوف الروم وحطّم كبرياء الفُرس وأخرج المغضوب عليهم (اليهود) من جزيرة العرب.

أخرجهم أذلة صاغرين.

إنه الزاهد العالم... العابد الغيور.. الخائف من الله.

إنه عمر بن الخطاب.. نورٌ أضاء سطور التاريخ..

غُرةٌ فى جبين الزمان.. أُمةٌ فى رجل.. إمامٌ هُمامٌ.. مُميت الفتن ومُحيى السُنن[1].

مَنْ هو (عمر بن الخطاب) رضى الله عنه.

إنه الرجل الكبير فى بساطة... البسيط فى قوة... القوى فى عدل ورحمة.

إنه الرجل الذى أنجبته أرض الجزيرة، ورباه الإسلام.

إنه الناسك الورع الذى تفجر نُسكه حركةً، وذكاءً، وعملاً وبناءً.

إنه الأستاذ المعلم الذى صحح كثيراً من مفاهيم الحياة، وكساها عظمة وروعة من خُلقه وسلوكه، وكان للمتقين إمامًا.

إنه الرجل الذى أعطى دنيا الناس كافة قدوة لا تبلى.. قدوة تتمثل فى عاهل قد بركت الدنيا على عتبة داره مُثقلة بالغنائم والطيبات فسرّحها سراحًا جميلاً، وساقها إلى الناس سوقًا كريمًا.. يقدم إليهم طيباتها، ويدرأ عنهم مضلاتها، حتى إذا نفض يديه من علائق هذا المتاع الزائل... استأنف سيره، ومسراه مهرولاً فى فترة الظهيرة الحارقة، وراء بعير من أموال الصدقة يخشى عليه الضياع، أو منحنيًا فوق قدر ليطبخ فيه طُعمة طيبة لامرأة غريبة أدركها كَرْب المخاض أو لأطفال يتضورون جوعًا فى ظلام الليل الدامسّ!!

(١) من شريط (صور وعبر) للشيخ على القرنى.

إنه الرجل الذى تنزَّل القرآن أكثر من مرة موافقًا لرأيه، وقوله.

إنه الرجل الذى كان إسلامه فتحًا، وكانت هجرته نصرًا، وكانت ولايته عدلاً.

إنه فاروق الأمة الأواب عمر بن الخطاب.

والحق أن الاقتراب من هذا التقى النقى أمرٌ رهيب بقدر ما هو حبيب إلى النفس، فعمر بن الخطاب من الطراز الذى تغمرك الهيبة، وأنت تقرأ تاريخه المكتوب كما تغمرك الهيبة وأنت تجالس شخصه المتواضع، فالمشهد المسطور من تاريخه لا يكاد يختلف عن المشهد الحى إلا فى غياب البطل ـ فقط ـ عن حاسة البصر.

أجل... عن حاسة البصر وحدها.. أما الأفئدة.. أما البصيرة فتحس وهى تطالع سيرة عمر أنها تعايشه وتجالسه، وكأنها ترى رأى العين جلال الأعمال، ومناسك البطولات.. وأروع الانتصارات التى نقشها على جبين الزمان، وصفحة الأيام، إنه فاروق الأمة الأواب.. عمر بن الخطاب[1].

كُنيته: أبو حفص كنّاه بها رسول الله ﷺ .

قال الحافظ فى الفتح[2]: جاء فى السيرة لابن إسحاق أن النبى ﷺ كناه بها، وكانت حفصة أكبر أولاده.

قال الزبير: وكان عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ من أشراف قريش، وإليه كانت السفارة فى الجاهلية، وذلك أن قريشًا كانت إذا وقعت بينهم حرب وبين غيرهم بعثوا سفيرًا، وإن نافرهم منافر، أو فاخرهم مفاخرٌ رضوا به وبعثوه منافرًا، ومفاخرًا.

قال علماء السير: شهد عمر بن الخطاب مع رسول الله ﷺ بدرًا، وأُحُدًا، والخندق، وبيعة الرضوان، وخيبر، والفتح، وحنين، وغيرها من المشاهد، وكان أشد الناس على الكفار، ولقد أثنى عليه النبى ﷺ فى غير موضع، ووضع ﷺ على صدره ـ رضى الله عنه ـ كثيرًا من الأوسمة.

* * *

(١) أئمة الهدى ومصابيح الدجى/ للشيخ محمد حسان وعوض الجزار (ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠).
(٢) فتح البارى (٥٣/ ٧ العلمية).

دعاء النبي ﷺ كان سببًا في إسلام عمر ـ رضي الله عنه ـ

لقد كثرت الروايات التي تروي قصة إسلام عمر ـ رضي الله عنه ـ وأكثر تلك الروايات ضعيفة، ولكنها مشهورة ـ مثل القصة التي يرويها أكثر الناس عن دخوله على أخته وزوجها سعيد بن زيد وكذا استماعه القرآن من النبي ﷺ وهو خلف أستار الكعبة ...

والراجح ـ والله أعلم ـ أن السبب الأساسي في إسلامه ـ رضي الله عنه ـ هو دعاء النبي ﷺ له عندما قال: «اللهم أعزَّ الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك: بأبي جهل بن هشام، أو بعمر بن الخطاب، قال: وكان أحبهما إليه عمر»[1].

ولقد أورد الإمام البخاري سببًا آخر في إسلام عمر ـ رضي الله عنه ـ.

عن عبد الله بن عمر قال: ما سمعت عمر لشيء قطُّ يقول: إني لأظنه كذا إلا كان كما يظن، بينما عمرُ جالسٌ، إذ مرَّ به رجلٌ جميلٌ، فقال عمر: لقد أخطأ ظني، أو إن هذا على دينه في الجاهلية، أو لقد كان كاهنهم.

عليَّ الرجل. فدُعي له، فقال له ذلك. فقال: ما رأيت كاليوم استُقبلَ به رجلٌ مسلم.

قال: فإني أعزم عليك إلا ما أخبرتني.

قال: كنت كاهنهم في الجاهلية.

قال: فما أعجبُ ما جاءتك به جنّيتك؟ قال: بينما أنا يومًا في السوق جاءتني أعرف فيها الفزع فقالت: ألم تر الجن وإبلاسها[2]، ويأسها من بعد إنكاسها[3]، ولحوقها بالقلاص، وأحلاسها[4].

قال عمر: صدق، بينما أنا نائمٌ عند آلهتهم، إذ جاء رجلٌ بعجلٍ فذبحه، فصرخ به

(١) رواه الترمذي (٣٦٨٢) المناقب ـ باب مناقب عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٩٠٧).

(٢) إبلاسها: المراد به اليأس ضد الرجاء.

(٣) يأسها من بعد إنكاسها: اليأس ضد الرجاء، والإنكاس الانقلاب، قال ابن فارس: معناه أنها يئست من استراق السمع، بعد أن كانت قد ألفته، فانقلبت عن الاستراق، قد يئست من السمع.

(٤) ولحوقها بالقلاص، وأحلاسها: القلاص جمع قُلُص، وهي الفتية من النياق، والأحلاس جمع حِلس، وهو ما يوضع على ظهور الإبل تحت الرحل.

صارخٌ، لم أسمع صارخًا قطُّ أشد صوتًا منه يقول: يا جليح[١]، أمرٌ نجيح، رجل فصيح، يقول: لا إله إلا أنت. فوثب القوم، قلت: لا أبرح حتى أعلم ما وراء هذا، ثم نادى، يا جَليح أمرٌ نجيح ، رجلٌ فصيح، يقول: لا إله إلا الله. فقمت، فما نشبنا[٢] أن قيل: هذا نبي[٣].

قال الحافظ فى الفتح: لمح المصنف بإيراد هذه القصة من «باب إسلام عمر» بما جاء عن عائشة، وطلحة عن عمر من أن هذه القصة كانت سبب إسلامه، فروى أبو نعيم فى «الدلائل» أن أبا جهل جعل لمن يقتل محمداً مائة ناقة، قال عمر: فقلت له: يا أبا الحكم آلضمان صحيح؟

قال: نعم، قال: فتقلدت سيفى أريده، فمررت على عجل، وهم يريدون أن يذبحوه، فقمت أنظر إليهم، فإذا صائح يصيح من جوف العجل: يا آل ذريح أمر نجيح، رجل يصيح بلسان فصيح. قال عمر: فقلت فى نفسى، إن هذا الأمر ما يراد به إلا أنا.

قال: فدخلت على أختى فإذا عندها سعيد بن زيد... فذكر القصة فى سبب إسلامه بطولها[٤].

ثم قال الحافظ رحمه الله تعالى: وتأمل ما فى إيراده (أى البخارى رحمه الله) حديث سعيد بن زيد الذى بعد هذا ـ وهو الحديث الخامس[٥] ـ من المناسبة لهذه القصة. اهـ[٦].

* * *

(١) يا جليح: معناه الوقح المكافح بالعداوة. قال الحافظ: ووقع فى معظم الروايات «يا آل ذريح» وهم بطن مشهور من العرب.

(٢) فما نشبنا: أى لم نتعلق بشيء من الأشياء حتى سمعنا أن النبي ﷺ قد خرج، يريد أن ذلك كان بقرب مبعث النبي ﷺ.

(٣) رواه البخارى رقم (٣٨٦٦) فى مناقب الأنصار، باب إسلام عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ.

(٤) ستأتى قريبًا إن شاء الله.

(٥) عن قيس بن أبى حازم قال: سمعت سعيد بن زيد يقول للقوم: لو رأيتُنى مُوثقى عُمرُ على الإسلام أنا وأختُهُ وما أسلم، ولو أن أحدًا انقضّ لما صنعتم بعثمان، لكان محقوقًا أن ينقض (رواه البخارى رقم (٣٨٦٧) فى مناقب الأنصار، باب إسلام عمر بن الخطاب).

(٦) البداية والنهاية (٧٨/ ٣) ـ نقلاً من أئمة الهدى ومصابيح الدجى.

الروايات المشهورة التي وردت في سبب إسلامه ـ رضي الله عنه ـ

وإليكم بعض الروايات المشهورة في قصة إسلامه ـ رضي الله عنه ـ مع بيان الحكم على تلك الروايات.

روى ابن إسحاق عن أم عبد الله بنت أبي حَثمة قالت: والله إنا لنترحَّل إلى أرض الحبشة،وقد ذهب عامرٌ ـ زوجها ـ في بعض حاجاتنا، إذ أقبل عمر ابن الخطاب حتى وقف عليّ وهو على شركه ـ قالت: وكنَّا نلقى منه البلاء أذىً لنا وشدة علينا ـ قالت: فقال: إنه لَلانطلاقُ يا أم عبد الله. قالت: فقلت: نعم والله، لنخرجنّ في أرض الله، آذيتمونا وقهرتمونا، حتى يجعل الله لنا فَرَجًا، قالت: فقال: صحبكم الله، ورأيت له رقة لم أكن أراها، ثم انصرف، وقد أحزنه ـ فيما رأى ـ خروجُنا، قالت: فجاء عامر بحاجته تلك، فقلت له: يا أبا عبد الله، لو رأيت عمر آنفًا ورقته وحُزنه علينا.

قال: أطمعت في إسلامه؟ قالت: قلت: نعم، قال: فلا يُسلم الذي رأيت حتى يسلم حمار الخطاب، قَالت: يأسًا منه، لما كان يُرى من غلظته وقسوته على [أهل] الإسلام(١).

قال ابن إسحاق: وكان إسلامُ عمرُ ـ فيما بلغني ـ أنَّ أُخته فاطمة بنت الخطاب وكانت عند سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفيل، وكانت قد أسلمت وأسلم زوجها سعيد ابن زيد، وهما مُستخفيان بإسلامهما من عمر، وكان نُعيم بن عبد الله النحَّام ـ رجل من قومه، من بني عديّ بن كعب ـ قد أسلم، وكان أيضًا يستخفي بإسلامه فرقًا ـ خوفًا ـ من قومه، وكان خبَّاب ابن الأرت يختلف إلى فاطمة بنت الخطاب يُقرئها القرآن،فخرج عمرُ يومًا متوشحًا سيفه يريد رسول الله ﷺ ورهطًا من أصحابه قد ذُكروا له أنهم قد اجتمعوا في بيت عند الصفا، وهم قريبٌ من أربعين ما بين رجال ونساء، ومع رسول الله ﷺ عمّه حمزة ابن عبد المطلب، وأبو بكر بن أبي قُحافة (الصدِّيق) وعليّ ابن أبي طالب، في رجال من المسلمين ـ رضي الله عنهم ـ ممن كان أقام مع رسول الله ﷺ بمكة ولم يخرج فيمن خرج إلى أرض الحبشة، فلقيه نُعيم بن عبد الله، فقال له: أين تريد يا عمرُ؟ فقال: أُريد محمداً هذا الصابئ، الذي فرَّق أمرَ قُريش، وسفَّه أحلامها، وعاب دينها، وسبَّ آلهتها، فأقتله، فقال له نعيم: والله قد غرَّتك نفسُك من نفسِك يا عمر.

(١) إسناده ضعيف، فيه عبد الرحمن بن الحارث صدوق له أوهام قاله الحافظ في التقريب وقال أحمد: متروك الحديث وقال أبو حاتم: شيخ وقال النسائي: ليس بالقوي. قاله الذهبي في الميزان (٢/ ٥٥٤).

أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض، وقد قتلت محمدًا! أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتُقيم أمرهم؟ قال: وأيّ أهل بيت؟ قال: ختنُك[١] وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو، وأختك فاطمة بنت الخطاب فقد والله أسلما وتابعا محمدًا على دينه، فعليك بهما، قال: فرجع عمرُ عامدًا إلى أخته وخَتَنه، وعندهما خبَّابُ بن الأرت معه صحيفةٌ، فيها: ﴿طه﴾ يُقرئهما إياها، فلما سمعوا حِسَّ عمر، تغيَّب خباب في مُخدع لهم، أو في بعض البيت، وأخذت فاطمة بنت الخطابِ الصحيفة فجعلتها تحت فخذها، وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خبَّاب عليهما، فلما دخل قال: ما هذه الهينمة[٢] التي سمعتُ؟ قالا له: ما سمعتَ شيئًا، قال: بلى والله، لقد أُخبرت أنكما تابعتما محمدًا على دينه وبطش بختنه سعيد بن زيد، فقامت إليه أختُه فاطمة بنت الخطاب لتكفَّه عن زوجها، فضرب فشجَّها، فلما فعل ذلك قالت له أخته وخَتنه: نعم، قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله، فاصنع ما بدا لك. فلما رأى عمر ما بأخته من الدم نَدِم على ما صنع، فارعوى[٣]، وقال لأخته: أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرءون آنفًا أنظر ما هذا الذي جاء به محمد، وكان عمر كاتبًا، فلما قال ذلك، قالت له أخته: إنا نخشاك عليها، قال: لا تخافي، وحلف لها بآلهته ليردّنها إذا قرأها إليها، فلما قال ذلك طمعتْ في إسلامه، فقالت له: يا أخي، إنك نجس على شركك، وإنه لا يمسّها إلا الطاهر، فقام عمر فاغتسل، فأعطته الصحيفة، وفيها ﴿طه﴾ فقرأها، فلما قرأ منها صدرًا قال: ما أحسنَ هذا الكلام وأكرمه! فلما سمع ذلك خبَّاب خرج إليه فقال له: يا عمر، والله إني لأرجو أن [يكون] الله قد خصَّك بدعوة نبيه، فإني سمعته أمس وهو يقول: اللهم أيِّد الإسلام بأبي الحكم بن هشام، أو بعُمر بن الخطاب، فالله الله يا عمر. فقال له عند ذلك عمر: فدلُني يا خباب على محمد حتى آتيه فأُسلم، فقال له خباب: هو في بيت عند الصفا، معه فيه نَفَرٌ من أصحابه. فأخذ عمر سيفه فتوشَّحه، ثم عمد إلى رسول الله ﷺ وأصحابه فضرب عليهم الباب، فلما سمعوا صوته قام رجلٌ من أصحاب رسول الله ﷺ فنظر من خَلل الباب، فرآه متوشحًا السيفَ، فرجع إلى رسول الله ﷺ وهو فَزِع، فقال: يا رسول الله، هذا عمر بن الخطاب متوشحًا السيف، فقال حمزة بن عبد المطلب: فأذن له، فإن كان جاء يريد خيرًا بذلناه له، وإن كان [جاء] يريد شرًا قتلناه بسيفه، فقال رسول الله

(١) ختنك: أي زوج أختك.

(٢) الهينمة: صوت كلام لا يُفهم.

(٣) فارعوى: رجع وكف.

ﷺ: «ائذن له»، فأذن له الرجلُ، ونهض إليه رسول الله ﷺ حتى لقيه في الحجرة، فأخذ حُجزته، أو بمجمع ردائه، ثم جبذه [به] جبذةً شديدة، وقال: «ما جاء بك يا ابن الخطاب؟، فوالله ما أرى أن تنتهي حتى يُنزلَ الله بك قارعةً»؛ فقال عمرُ: يا رسول الله، جئتك لأُومن بالله وبرسوله وبما جاء من عند الله، قال: فكبَّر رسول الله ﷺ تكبيرة، عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله ﷺ أن عمر قد أسلم(١).

فتفرق أصحاب رسول الله ﷺ من مكانهم وقد عَزُّوا في أنفسهم حين أسلم عمرُ مع إسلام حمزة، وعرفوا أنهما سيمنعان رسول الله ﷺ، وينتصفون بهما من عدوهم.

فهذا حديث الرواة من أهل المدينة عن إسلام عمر بن الخطاب حين أسلم.

قال ابن إسحاق: وحدَّثني عبد الله بن أبي نجيح المكيّ عن أصحابه: عطاء ومجاهد، أو عمّن روى ذلك، أنّ إسلام عمر [فيما] تحدثوا به عنه، أنه كان يقول: كنت للإسلام مُباعدًا، وكنت صاحب خمر في الجاهلية، أُحبها وأشربها، وكان لنا مجلسٌ يجتمع فيه رجال من قُريش بالحزورة(٢)، عند دُور آل عمر بن عبد بن عمران المخزومي، قال: فخرجت ليلةً أُريد جُلسائي أولئك في مجلسهم ذلك قال: فجئتهم فلم أجد فيه منهم أحدًا. قال: فقلت: لو أني جئت فلانًا الخمّار، وكان بمكة يبيع الخمر. لعلّي أجدُ عنده خمرًا فأشرب منها. قال: فخرجتُ فجئته فلم أجده. قال: فقلت: فلو أني جئت الكعبة فطُفت بها سبعًا أو سبعين. قال: فجئت المسجد أُريد أن أطوف بالكعبة، فإذا رسول الله ﷺ قائمٌ يصلي، وكان إذا صلى استقبل الشام، وجعل الكعبة بينه وبين الشام، وكان مُلاهُ بين الركنين: الركن الأسود، والركن اليماني. قال: فقلت: حين رأيته: والله لو أني استمعتُ لمحمد الليلة حتى أسمع ما يقول! [قال] فقلت: لئن دنوتُ منه أستمع منه لأروّعنّه، فجئتُ من قِبل الحجر، فدخلت تحت ثيابها ـ الكعبة ـ فجعلتُ أمشي رويدًا، ورسول الله ﷺ قائمٌ يصلي يقرأ القرآن، حتى قمتُ في قبلته مُستقبله، ما بيني وبينه إلا ثيابُ الكعبة. قال: فلما سمعتُ القرآن رقّ له قلبي؛ فبكيتُ ودخلني الإسلام، فلم أزل

(١) أخرجه البيهقي في الدلائل (٢/ ٢١٩) وابن سعد في الطبقات (٣/ ٢٦٧) والحاكم في المستدرك (٤/ ٥٩) من طريق إسحاق بن يوسف الأزرق قال: حدثنا القاسم بن عثمان البصري عن أنس بن مالك وإسناده ضعيف، وعلته القاسم بن عثمان البصري، قال الحافظ في اللسان (٤/ ٥٤٢) قال البخاري له أحاديث لا يتابع عليها. قال الحافظ: حدث عنه إسحاق الأزرق بمتن محفوظ وتعقبه إسلام وهي منكرة جدًا. اهـ.

(٢) الحزورة: هي الآن قطعة من المسجد في مكة.

قائمًا [في مكاني ذلك] حتى قضى رسول الله صلاته، ثم انصرف، وكان إذا انصرف خرج على دار ابن أبي حُسين وكانت طريقه، حتى يجزع[١] المسعى، ثم يسلك بين دار عباس بن المطلب، وبين دار ابن أزهر ابن عبد عوف الزهري، ثم على دار الأخنس بن شريق، حتى يدخل بيته، وكان مسكنه ﷺ في الدار الرقطاء، التي كانت بيدي معاوية بن أبي سفيان. قال عمر ـ رضي الله عنه ـ: فتبعته حتى إذا دخل بين دار عباس ودار ابن أزهر أدركته، فلما سمع رسول الله ﷺ حسي عرفني، فظنّ رسول الله ﷺ أني إنما تبعته لأوذيه، فنهمني[٢]، ثم قال: ما جاء بك يا ابن الخطاب هذه الساعة؟ قال: قلت: [جئت] لأومن بالله وبرسوله، وبما جاء من عند الله، قال: فحَمِدَ الله رسول الله ﷺ ثم قال: «قد هداك الله يا عمر»، ثم مسح صدري، ودعا لي بالثبات، ثم انصرفتُ عن رسول الله ﷺ، ودخل رسول الله ﷺ بيته[٣].

قال ابن إسحاق: والله أعلم أي ذلك كان.

قال ابن إسحاق: وحدّثني نافع مولى عبد الله بن عمر عن ابن عمر قال: لما أسلم أبي عمرُ قال: أيّ قريش أنقلُ للحديث؟ فقيل له: جميل بن مَعمر الجُمحي قال: فغدا عليه. قال عبدُ الله بن عمر: فغدوت أتبع أثره، وأنظر ما يفعل، وأنا غلامٌ أعقل كل ما رأيتُ، حتى جاءه، فقال له: أعلمت يا جميل أني قد أسلمتُ ودخلت في دين محمد؟ فوالله ما راجعه حتى قام يجرُّ رداءه واتبعه عمر، واتبعتُ أبي، حتى إذا قام على بابِ المسجد صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش ـ وهم في أنديتهم حول الكعبة ـ ألا إنَّ عمر بن الخطاب قد صبأ. قال [و] يقول عمر من خلفه: كذب؛ ولكني قد أسلمتُ، وشهدتُ أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله.

وثاروا إليه فما برح يُقاتلهم ويُقاتلونه، حتى قامت الشمس على رءوسهم. قال: وطلح[٤]، فقعد وقاموا على رأسه وهو يقول: افعلوا ما بدا لكم، فأحلف بالله أن لو قد كنا ثلاث مئة رجل [لقد] تركناها لكم، أو تركتموها لنا، قال: فبينما هم على ذلك إذ أقبل شيخٌ من قريش، عليه حُلة حَبِرَة، وقميصٌ مُوشّى، حتى وقف عليه فقال: ما

---

(١) يجزع المسعى: يقطعه ويقال: جزعت الوادي أي إذا قطعته.

(٢) نهمني: زجرني.

(٣) رواه عطاء ومجاهد عن إسلام عمر. قال ابن إسحاق: وحدثني عبد الله بن أبي نجيح المكي عن إسحاق، سنده مرسل وله شواهد وتقوى بما قبله، ولما سيأتي.

(٤) طلح: أي أعيا ومنه البعير، والطلح: أي التعب.

شأنكم؟ قالوا: صبأ عمر؛ فقال: فمه؟ رجلٌ اختار لنفسه أمرًا فماذا تريدون؟ أترون بنى عدى بن كعب يُسلمون لكم صاحبهم هكذا! خلُّوا عن الرجل. قال: فوالله لكأنما كانوا ثوبًا كُشط(١) عنه. قال: فقلت لأبى بعد أن هاجر إلى المدينة: يا أبت، من الرجل الذى زجر القَوم عنك بمكة يوم أسلمت، وهو يُقاتلونك؟ فقال: ذلك، أى بُنىّ، العاص بن وائل السهمى.

قال ابن هشام: وحدّثنى بعضُ أهل العلم أنه قال: يا أبتِ، من الرجل الذى زجر القوم عنك [بمكة] يوم أسلمت، وهم يقاتلونك، جزاه الله خيرًا؟ قال: يا بنى، ذاك العاص بن وائل، لا جزاه الله خيرًا(٢).

ولقد كان إسلامه سببًا عظيمًا فى ظهور الإسلام وقوته، وذلك لما كان يتميز به من القوة والشجاعة فكان لا يخاف فى الله لومة لائمٍ.

قال عبد الله ابن مسعود: إن إسلام عمر كان فتحًا، وإن هجرته كانت نصرًا، وإن إمارته كانت رحمة، ولقد كنا ما نصلى عند الكعبة حتى أسلم عمر، فلما أسلم قاتلَ قريشًا حتى صلى عند الكعبة وصلّينا معه(٣).

بل كان عبد الله بن مسعود يقول: ما كنا نقدر على أن نصلى عند الكعبة حتى أسلم عمر [ابن الخطاب]، فلما أسلم قاتل قريشًا حتى صلى عند الكعبة، وصلينا معه، وكان إسلام عمر بعد خروج من خرج من أصحاب رسول الله ﷺ إلى الحبشة.

هجرة رغم أنوف المشركين

وعندما أراد عمر - رضى الله عنه - أن يهاجر خلف الحبيب ﷺ وقف أمام المشركين موقفًا أذلَّ فيه أُنوفهم وأظهر عجزهم وألقى الرعب فى قلوبهم.

فعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال: قال لى علىّ بن أبى طالب: ما علمت أن أحدًا من المهاجرين هاجر إلا مختفيًا إلا عمر بن الخطاب، فإنه لما همَّ بالهجرة تقلّد سيفه،

---

(١) كشط عنه: نزع عنه.
(٢) السيرة لابن هشام (١/ ٢٨٧).
(٣) أخرجه ابن سعد فى الطبقات (١/ ٢٧٠) وذكره الهيثمى فى المجمع (٩/ ٦٢) وقال: رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح إلا أن القاسم لم يدرك جده ابن مسعود، وأخرجه الحاكم فى المستدرك (٣/ ٨٣، ٨٤) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبى.

وتنكّب قوسه، وانتضى فى يده أسهمًا، واختصر عَنَزَتَه[١]، ومضى قِبل الكعبة، والملأ من قريش بفنائها، فطاف بالبيت سبعًا متمكنًا، ثم أتى المقام فصلى ركعتين، ثم وقف على الحلق واحدة واحدة، وقال لهم: شاهت الوجوه[٢]، لا يُرغمُ الله إلا هذه المعاطس[٣]، من أراد أن تثكله أمه، ويُوتم ولده، ويرمل زوجته فليلقنى وراء هذا الوادى.

قال عليّ: فما تبعه أحد إلا قوم من المستضعفين علّمهم، وأرشدهم، ومضى لوجهه[٤].

باقة من مناقب عمر ـ رضى الله عنه ـ

وها هى باقة عطرة من مناقب فاروق الأمة ـ رضى الله عنه ـ.

وإذا أردنا أن نُحصى مناقبه وفضائله فإننا نحتاج إلى مجلدات، ولن نستطيع أيضًا أن نُحصى كل المناقب، ولكن حسبُنا أن نتعرف على بعض المناقب التى وردت عن فاروق الأمة ـ رضى الله عنه ـ.

قال ﷺ: «نِعم الرجل أبو بكر نِعم الرجل عمر...»[٥].

وعن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل الدرجات العُلى ليراهم مَن تحتهم، كما تَرَون النَّجم الطالع فى أُفق السماء، وإن أبا بكر، وعمر منهم، وأنعما»[٦].

وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد كان فيمن قبلكم من الأمم ناسٌ محدَّثون من غير أن يكونوا أنبياء، فإن يكن فى أمتى أحد فإنه عمر»[٧].

زاد زكريا بن أبى زائدة عن سعد عن أبى هريرة قال: قال النبى ﷺ: «لقد كان فيمن كان قبلكم من بنى إسرائيل رجال يكلمون من غير أن يكونوا أنبياء فإن يكن فى أمتى منهم أحد فعمر».

---

(١) العنزة: مثل نصف الرمح أو أكبر شيئًا، واختصرها ـ أى أمسكها بيده ـ وقيل هى أطول من العصا، وأقصر من الرمح.
(٢) شاهت: قُبحت، رجل أشوه، أو امرأة شوهاء، إذا كانت قبيحة (انظر اللسان ٤/ ٢٣٦٥).
(٣) المعاطس: الأنوف، وأحدها معطس؛ لأنه العطاس يخرج منها (انظر اللسان ٤/ ٢٩٩٥).
(٤) أسد الغابة لابن الأثير (٤/ ١٤٤، ١٤٥) بسند صحيح والخبر فى الرياض النضرة (١/ ١٩٨).
(٥) رواه الترمذى (٣٧٩٧) المناقب ـ وصححه الألبانى فى الصحيحة (٨٧٥) ـ صحيح الجامع (٦٧٧٠).
(٦) رواه أبو داود (٣٩٨٧) والترمذى (٣٦٥٩) وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٠٣٠).
(٧) أخرجه البخارى (٣٦٨٩) الفضائل ـ ومسلم (٢٣٩٨) فضائل الصحابة.



قال ابن الأثير: محدثون: أراد بقوله محدثون أقوامًا يصيبون إذا ظنوا، وحدسوا فكأنهم قد حُدِّثوه بما قالوا، وقد جاء في الحديث تفسيره «أنهم مُلهَمون» والملهم : الذي يُلقى في نفسه الشيء، فيخبر به حدسًا، وظنًا، وفراسة، وهو نوع يختص الله به من يشاء من عباده الذي اصطفى، مثل عمر ـ رضي الله عنه ـ اهـ[1].

وعن أنس بن مالك وعلي بن أبي طالب ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال لأبي بكر وعمر: «هذان سيدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين إلا النبيين والمرسلين... لا تُخبرهما يا عليُّ»[2].

وعن عقبة بن عامر، قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لو كان من بعدي نبي لكان عمر بن الخطاب»[3].

وعن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ : «إن الله تعالى جعل الحق على لسان عمر وقلبه»[4].

وقال ابن عمر: ما نزل بالناس أمر قط فقالوا فيه وقال فيه عمر، إلا نزل فيه القرآن على نحو ما قال عمر[5].

وعن طارق بن شهاب قال: كنا نتحدث أن عمر بن الخطاب ينطق على لسانه مَلَك[6].

وعن سالم عن أبيه قال: رأى النبي ﷺ على عمر ثوبًا (وفي رواية: قميصًا أبيض) فقال: «أجديد ثوبك أم غسيل؟» فقال: بل غسيل، فقال: «البس جديدًا، وعش حميدًا، ومُت شهيدًا»[7].

وعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: صعد النبي ﷺ أُحُدًا، ومعه أبو بكر، وعمر، وعثمان، فرجف بهم، فضربه برجله. وقال: «اثبت أُحُد، فما عليك إلا نبي أو

(١) جامع الأصول (٨/ ٦١٠/ ٦٤٣٤).

(٢) رواه الترمذي (٣٦٦٦) المناقب عن أنس وعلي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٠٠٧).

(٣) رواه أحمد (١٧٣٣٦) والترمذي (٣٦٨٦) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٢٨٤).

(٤) رواه أحمد (٥١٤٥) والترمذي (٣٦٨٢) وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٧٣٦).

(٥) رواه أحمد (٢/ ٩٥) وفي فضائل الصحابة (٣١٣ ـ ٣١٤) وقال العدوي: إسناده حسن.

(٦) رواه أحمد وقال وصي الله بن محمد عباس في تخريج فضائل الصحابة (٣٤١) وهو موقوف صحيح.

(٧) رواه أحمد (٥٦٢٠) وعبد الرزاق (٢٠٣٨٢) وحسنه الألباني في الصحيحة (٣٥٢)، وهو في صحيح الجامع (١٢٣٤).

صدِّيق أو شهيدان»(١).

وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بينما راعٍ فى غنمه عدا عليه الذئب فأخذ شاة، فطلبه الراعى، فالتفت إليه الذئب، فقال: من لها يوم السبع، يوم ليس لها راعٍ غيرى؟ وبينما رجلٌ يسوق بقرة قد حمل عليها. فالتفتت إليه فكلمته فقالت: إنى لم أُخلق لهذا، ولكنى خُلقت للحرث. فقال الناس : سبحان الله! قال النبى ﷺ : فإنى أومن بذلك، وأبو بكر، وعمر ـ رضى الله عنهما ـ»(٢).

وعن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال: «أرأف أمتى بأمتى أبو بكر، وأشدهم فى دين الله عمر...»(٣). وفى رواية: «أرحم أمتى بأمتى أبو بكر وأشدهم فى أمر الله عمر...»(٤).

وعن عبد الله بن حنطب قال: قال رسول الله ﷺ: «هذان السمعُ والبصرُ» يعنى أبا بكرٍ وعمر(٥).

وعن حذيفة بن اليمان ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنى لا أدرى ما بقائى فيكم؟ فاقتدوا بالذين من بعدى أبى بكر وعمر»(٦).

النبى ﷺ يبشره بالجنة ويرى قصره فيها

وها هو الحبيب الصادق المصدوق ﷺ يبشر عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ بأنه من أهل الجنة ـ ويا لها من بشرى ـ بل إن الحبيب ﷺ رأى قصر (عمر) فى الجنة.

عن عبد الرحمن بن عوف ـ رضى الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أبو بكر فى الجنة، وعمر فى الجنة، وعثمان فى الجنة، وعلىّ فى الجنة، وطلحة فى الجنة، والزبير فى الجنة، وعبد الرحمن بن عوف فى الجنة، وسعد بن أبى وقاص فى الجنة، وسعيد بن زيد فى الجنة، وأبو عبيدة بن الجراح فى الجنة»(٧).

---

(١) أخرجه البخارى (٣٦٨٦) فضائل أصحاب النبى ﷺ ـ وأبو داود (٤٦٥١) والترمذى (٣٦٩٧).
(٢) رواه أحمد والبخارى ومسلم والنسائى ـ صحيح الجامع (٢٨٧١).
(٣) رواه أبو يعلى عن ابن عمر، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٨٦٨).
(٤) رواه أحمد والترمذى والنسائى عن أنس، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٨٩٥).
(٥) رواه الترمذى والحاكم عن عبد الله بن حنطب، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٠٠٤).
(٦) رواه الترمذى (٣٦٦٣، ٣٦٦٤) المناقب ـ وصححه الألبانى فى صحيح سنن الترمذى (٢٨٩٥).
(٧) رواه الترمذى (٣٧٤٨) عن عبد الرحمن بن عوف ـ ورواه أحمد والضياء عن سعيد بن زيد، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٠).

وعن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «يطلعُ عليكم رجلٌ من أهل الجنة، فاطَّلع أبو بكر، ثم قال: يطلع عليكم رجل من أهل الجنة، فاطلع عمر»(١).

وعن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «دخلت الجنة فإذا أنا بقصر من ذهب، فقلت لمن هذا؟ فقالوا: لشاب من قريش، فظننت أنى أنا هو، فقلت: ومن هو؟ قالوا: عمر بن الخطاب»(٢).

وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «بينا أنا نائم رأيتنى فى الجنة، فإذا امرأة تتوضأ إلى جانب قصر، فقلت: لمن هذا القصر؟ قالوا: لعمر، فذكرت غيرته، فوليت مُدبرًا، فبكى عمر وقال: أعليك أغار يا رسول الله؟!»(٣).

منزلة إيمان عمر ـ رضى الله عنه ـ

عن عبد الله بن هشام قال: «كنا مع النبى ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب فقال له عمر: يا رسول الله، لأنت أحب إلىَّ من كل شىء إلا من نفسى فقال النبى ﷺ: لا والذى نفسى بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك. فقال له عمر:فإنه الآن والله لأنت أحب إلىَّ من نفسى، فقال النبى ﷺ: الآن يا عمر»(٤).

وكان من بديع كلامه ـ رضى الله عنه ـ أنه كان يقول: «مَن قلَّ حياؤه قلَّ ورعه، ومن قلَّ ورعه مات قلبه».

ويقول: «من استحيا استخفى، ومن استخفى اتقى، ومن اتقى وُقى»(٥).

* * *

---

(١) رواه الترمذى (٣٦٩٥) المناقب ـ والحاكم فى المستدرك، وصححه وأقره الذهبى.
(٢) رواه الترمذى (٣٦٨٩) وأحمد (١١٩٨٥) وابن حبان (٢١٨٨) ـ صحيح الجامع (٣٣٦٤).
(٣) أخرجه البخارى (٣٦٨٠) فضائل أصحاب النبى ﷺ ـ ومسلم (٢٣٩٥) فضائل الصحابة.
(٤) أخرجه البخارى (٦٦٣٢) وأحمد (٥/ ٢٩٣).
(٥) مكارم الأخلاق لابن أبى الدنيا (ص ٢٠).

منزلة دين عمر ـ رضى الله عنه ـ

عن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: بينا أنا نائم رأيت الناس عُرضوا علىَّ وعليهم قُمُصٌ ـ جمع قميص ـ فمنها ما يبلغ الثدى ومنها ما يبلغ دون ذلك، وعُرض علىَّ عمر وعليه قميص اجتَرّه[١] قالوا: فما أولته يا رسول الله قال: الدِين»[٢].

علم عمر ـ رضى الله عنه ـ وفقهه

عن الزهرى قال: أخبرنى حمزة عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «بينا أنا نائم شربت ـ يعنى اللبن ـ حتى أنظر إلى الرِى يخرج من ظُفرى ـ أو فى أظفارى ـ ثم ناولت عمر قالوا: فما أولته يا رسول الله قال: العلم[٣]»[٤].

ولقد كان عمر ـ رضى الله عنه ـ حريصًا كل الحرص على طلب العلم، بل كان من أصحاب الهمم العالية.

يقول عمر ـ رضى الله عنه ـ: كنت أنا وجار لى من الأنصار من بنى أمية بن زيد، وهم من عوالى المدينة، وكنا نتناوب النزول على النبى ﷺ فينزل يومًا، وأنزل يومًا فإذا نزلت جئته من خبر ذلك اليوم من الوحى وغيره، وإذا نزل فعل مثل ذلك[٥].

---

(١) قال الحافظ ابن حجر (فتح البارى ٧/ ٥١): وقد استشكل هذا الحديث بأنه يلزم منه أن عمر افضل من أبى بكر الصديق، والجواب عنه تخصيص أبى بكر من عموم قوله: (عُرض علىّ الناس) فلعل الذين عرضوا إذ ذاك لم يكن فيهم أبو بكر، وأن كون عمر عليه قميص يجره لا يستلزم أن لا يكون على أبى بكر قميص أطول منه وأسبغ، فلعله كان كذلك إلا أن المراد كان حينئذ بيان فضيلة عمر فاقتصر عليها. والله أعلم.

(٢) أخرجه البخارى (٣٦٩١) ـ ومسلم (٢٣٩٠) ـ والترمذى (٢٢٨٦).

(٣) قال الحافظ ابن حجر فى فتح البارى (٧/ ٤٦): والمراد بالعلم هنا العلم بسياسة الناس بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، واختص عمر بذلك لطول مدته بالنسبة إلى أبى بكر وباتفاق الناس على طاعته بالنسبة إلى عثمان فإن مدة أبى بكر كانت قصيرة فلم يكثر فيها الفتوح التى هى أعظم الأسباب فى الاختلاف، ومع ذلك فساس عمر فيها ـ مع طول مدته ـ الناس بحيث لم يخالفه أحد، ثم ازدادت اتساعًا فى خلافة عثمان فانتشرت الأقوال واختلفت الآراء، ولم يتفق له ما اتفق لعمر من طواعية الخلق له فنشأت من ثمْ الفتن إلى أن أفضى الأمر إلى قتله، واستخلف (علىّ) فما ازداد الأمر إلا اختلافًا والفتن إلا انتشارًا.

(٤) أخرجه البخارى (٣٦٨١) ـ ومسلم (٢٣٩١) ـ والترمذى (٣٦٨٧).

(٥) رواه البخارى رقم (٥١٩١) فى النكاح باب موعظة الرجل ابنته لحال زوجها، ومسلم رقم (١٤٧٨) فى الطلاق، باب بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقًا.

وقال الذهبي: قال عبد الله بن عمر: تعلم عمر البقرة ـ سورة البقرة ـ فى اثنى عشرة سنة، فلما تعلمها نحر جزوراً[(١)].

وعن طارق بن شهاب قال: جاء يهودى إلى عمر بن الخطاب، فقال: يا أمير المؤمنين آيةٌ تقرؤونها فى كتابكم لو علينا معشر اليهود نزلت، ونعلم ذلك اليوم الذى نزلت فيه، لاتخذناه عيداً قال: أيُّ آية؟ قال:

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة:٣].

فقال عمر ابن الخطاب: إنى لأعلم اليوم الذى نزلت فيه، والمكان الذى نزلت فيه.

نزلت على رسول الله ﷺ بعرفة يوم جمعةٍ، ونحن واقفون معه بعرفة[(٢)].

وصية غالية من الفاروق ـ رضى الله عنه ـ

قال ـ رضى الله عنه ـ: « تفقهوا قبل أن تسودوا »[(٣)].[(٤)]

يقول الحافظ فى الفتح: أراد عمر ـ رضى الله عنه ـ أن السيادة قد تكون سببًا للمنع من التفقه فى الدين؛ لأن الرئيس قد يمنعه الكبر والاحتشام أن يجلس مجلس المتعلمين، ولهذا قال مالك عن عيب القضاء: أن القاضى إذا عُزِل لا يرجع إلى مجلسه الذى كان يتعلم فيه.

وها هى صفحات من فقهه وعلمه ورأى الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ فيه.

عن الحارث بن معاوية الكندى رحمه الله أنه ركب إلى عمر بن الخطاب يسأله عن ثلاث خلال، قال: فقدم المدينة فسأله: ما أقدمك؟

قال: لأسألك عن ثلاث. قال: وما هن؟

قال: ربما كنت أنا والمرأة فى بناء ضيق، فتحضر الصلاة، فإن صليت أنا، وهى كانت بحذائى، وإن صلّت خلفى خرجت من البِّناء؟!

---

(١) سير الخلفاء للإمام الذهبى (ص ٨١).

(٢) أخرجه البخارى (٤٤) الإيمان ـ ومسلم (٣٠١٧) التفسير.

(٣) أخرجه البخارى معلقًا فى كتاب العلم، باب الاغتباط فى العلم والحكمة، وقال الحافظ: أخرجه ابن أبى شيبة، وإسناده صحيح (الفتح ١/ ٢١٩).

(٤) عقب البخارى على هذا الأثر فقال: وبعد أن تسودوا، وقد تعلم أصحاب النبى ﷺ فى كبر سنهم، قال الحافظ: وإنما عقب البخارى ليبين أن لا مفهوم له خشية أن يفهم أحد من ذلك أن السيادة مانعة من التفقه.



فقال عمر: تستر بينك وبينها بثوب، ثم تصلى بحذائك إن شئت.

وعن الركعتين بعد العصر؟ فقال: نهانى عنهما رسول الله ﷺ .

قال: وعن القصص؟ فإنهم أرادونى على القصص؟!

قال (عمر): ما شئت.... كأنه كره أن يمنعه.

قال: إنما أردت أن أنتهى إلى قولك؟!

قال (عمر): أخشى عليك أن تقصً فترتفع عليهم نفسك، ثم تقص فترتفع حتى يخيل إليك أنك فوقهم بمنزلة الثُريًا، فيضعك الله عز وجل تحت أقدامهم يوم القيامة بقدر ذلك[١].

وعن قبيصة بن جابر قال: والله ما رأيت أحدًا أرأف برعيته، ولا خيراً من أبى بكر الصديق، ولم أر أحدًا أقرأ لكتاب الله، ولا أفقه فى دين الله، ولا أقوم بحدود الله، ولا أهيب فى صدور الرجال من عمر ابن الخطاب، ولا رأيت أحدًا أشد حياءً من عثمان بن عفان[٢].

وعن عبد الرحمن بن عبد القاريِّ أنه قال: خرجت مع عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ ليلة فى رمضان إلى المسجد فإذا الناس أوزاعٌ[٣] متفرقون يصلىِّ الرجل لنفسه، ويصلى الرجلُ، فيصلى بصلاته الرهط، فقال عمر: إنى أرى لو جمعت هؤلاء على قارئٌ واحد لكان أمثلُ[٤]، ثم عزم فجمعهم على أُبى ابن كعب، ثم خرجت معه ليلة أخرى، والناس يُصلُّون بصلاة قارئهم.

قال عمر: نعم البدعة هذه، والتى ينامون عنها أفضل من التى يقومون ـ يريد آخر الليل ـ وكان الناس يقومون أوله[٥].

---

(١) رواه أحمد فى المسند (١١١) وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح.

(٢) أسد الغابة (٤/ ١٤٧) لابن الأثير.

(٣) أوزاع: أى جماعة متفرقون.

(٤) قال الحافظ فى الفتح (٤/ ٣١٧): قال ابن التين وغيره: استنبط عمر ذلك من تقرير النبى ﷺ من صلى معه فى تلك الليالى، وإن كان كره ذلك لهم فإنما كرهه خشية أن يفرض عليهم، فلما مات النبى ﷺ حصل الأمن من ذلك، ورجح عند عمر ذلك لما فى الاختلاف من افتراق الكلمة، ولأن الاجتماع على واحد أنشط لكثير من المصلين.

(٥) أخرجه البخارى (٢٠١٠) صلاة التراويح ـ باب فضل من قام رمضان.

وقال عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ: ما أظن أهل بيت من المسلمين لم يدخل عليهم حزن يوم أُصيب عمر إلا أهل بيت سوء.

إن عمر كان أعلمنا بالله، وأقرأنا لكتاب الله، وأفقهنا فى دين الله(١).

وقال أيضًا ـ رضى الله عنه ـ: إذا ذُكر الصالحون فحيهلاً بعمر، إن عمر كان أعلمنا بكتاب الله وأفقهنا فى دين الله(٢).

ويقول أيضًا ـ رضى الله عنه ـ: لو أن علم عمر وُضع فى كفة ميزان، ووضع علم أحياء الأرض فى كفةٍ لرجح علم عمر بعلمهم.

قال الأعمش : فأنكرت ذلك فأتيت إبراهيم النخعى فذكرته له ، فقال : وما أنكرت من ذلك فوالله لقد قال عبد الله أفضل من ذلك قال: إنى لأحسب تسعة أعشار العلم ذهب يوم مات عمر ـ رضى الله عنه ـ(٣).

موافقات عمر ـ رضى الله عنه ـ لربه ـ عز وجل ـ

يا لها من منزلة عظيمة ومنقبة جليلة أكرم اللهُ بها فاروق الأمة ـ رضى الله عنه ـ حيث وافقه فى كثيرٍ من المواقف، فأنزل القرآن موافقًا لرأى عمر ـ رضى الله عنه ـ.

عن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال عمر: وافقت ربىِّ فى ثلاث(٤): فقلت يا رسول الله، لو اتخذنا من مقام إبراهيم مُصلى فنزلت: ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾، وآية الحجاب، قلت: يا رسول الله لو أمرت نساءك أن يحتجبن فإنه يُكلِّمهُنَّ البَرُّ والفاجر، فنزلت آية الحجاب، واجتمع نساء النبى ﷺ فى الغيرة عليه. فقلت لهن: عسى ربُّه إن طلَّقكنَّ أن يُبدله أزواجًا خيرًا منكنَّ، فنزلت هذه الآية(٥).

---

(١) أخرجه ابن أبى شيبة (٧/ ٤٨٠)، وابن عساكر، والحاكم مختصرًا.

(٢) سير الخلفاء للذهبى (ص ٨١).

(٣) أخرجه ابن أبى شيبة فى المصنف (٧/ ٤٨٣) والحاكم، وصححه وأقره الذهبى.

(٤) قال الحافظ فى الفتح : قوله (وافقت ربى فى ثلاث) أى وقائع ، والمعنى وافقنى ربى فأنزل القرآن على وفق ما رأيت، لكن لرعاية الأدب أسند الموافقة إلى نفسه، أو أشار به إلى حدوث رأيه، وقدم الحكم، وليس فى تخصيصه العدد الثلاث ما ينفى الزيادة عليها؛ لأنه حصلت له الموافقة فى أشياء، غير هذه من مشهورها قصة أسارى بدر، وقصة الصلاة على المنافقين. ثم قال رحمه الله: وأكثر ما وقفنا منها بالتعيين على خمسة عشر، لكن ذلك بحسب المنقول اهـ (فتح ٦٦٥/ ١).

(٥) أخرجه البخارى (٤٠٢) الصلاة ـ وأحمد (١٥٧) والنسائى فى الكبرى (٨/ ١٣).

وفى رواية مسلم قال: «وافقت ربى فى ثلاث: فى مقام إبراهيم، وفى الحجاب، وفى أسارى بدر»[١].

وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال: حدثنى عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ قال: لما كان يوم بدر، نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين، وهم ألف، وأصحابه وهم ثلاثمائة وتسعة عشر رجلاً، فاستقبل النبى ﷺ القبلة، ثم مدَّ يديه فجعل يهتف بربه: «اللهم أنجز لى ما وعدتنى. اللهم آت ما وعدتنى، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام، لا تُعبد فى الأرض» فما زال يهتف بربه مادًا يديه، مستقبل القبلة، حتى سقط رداءه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر، فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه، وقال: يا نبى الله! كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك. فأنزل الله عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال:٩]. فأمده الله بالملائكة.

قال ابن عباس: بينما رجلٌ من المسلمين يومئذ يشتد فى أثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربةً بالسوط فوقهُ، وصوت الفارس يقول: أقدم حيزوم. فنظر إلى المشرك أمامه فخرَّ مستلقيًا، فنظر إليه فإذا هو قد خُطم أنفه، وشُقَّ وجهه كضربة السوط، فاخضرَّ ذلك أجمع، فجاء الأنصارى، فحدَّث بذلك رسول الله ﷺ فقال: «صدقت، ذلك من مدد السماء الثالثة» فقتلوا يومئذ سبعين، وأسروا أربعين: قال ابن عباس: فلما أسروا الأسارى، قال رسول الله ﷺ لأبى بكر وعمر: «ما ترون فى هؤلاء الأسارى؟».

فقال أبو بكر: يا نبى الله! هم بنو العم والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فدية فتكون لنا قوة على الكفار، فعسى الله أن يهديهم للإسلام.

فقال رسول الله ﷺ: «ما ترى يا ابن الخطاب؟».

قلت: لا. والله! يا رسول الله، ما أرى الذى رأى أبو بكر، ولكنى أرى أن تمكّنا فنضرب أعناقهم، فتُمكن عليًا من عقيل، فيضرب عنقه، وتمكنِّى من فلان (نسيبًا لعمر) فأضرب عنقه، فإن هؤلاء أئمة الكفر، وصناديدُها.

فهوى رسول الله ما قال أبو بكر، ولم يَهْوَ ما قلت، فلما كان من الغد جئتُ فإذا رسول الله ﷺ، وأبو بكر قاعدين يبكيان.

فقلت: يا رسول الله! أخبرنى من أى شىء تبكى أنت وصاحبك فإن وجدت بكاءً

(١) أخرجه مسلم (٢٣٩٩) فضائل الصحابة ـ باب من فضائل عمر ـ رضى الله عنه ـ.

بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما.

فقال رسول الله ﷺ : أبكي للذى عرض علىّ أصحابك من أخذهم الفداء. لقد عُرض علىّ عذابُهُم أدنى من هذه الشجرة» (شجرة قريبة من نبى الله ﷺ) وأنزل الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال:٦٧ ـ ٦٩] فأحلّ الله الغنيمة لهم»(١).

وعن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ قال: لما مات عبد الله بن أُبى ابن سلول دُعى له رسول الله ﷺ ليصلى عليه، فلما قام رسول الله ﷺ وثبتُ إليه، فقلت: يا رسول الله أتُصلى على (ابن أُبىّ)، وقد قال يوم كذا، وكذا: كذا وكذا! أُعدِّدُ عليه قوله، فتبسم رسول الله ﷺ وقال: أخِّر عنى يا عمر.

فلما أكثرت عليه قال: إنى خُيِّرتُ فاخترت لو أعلم أنى زدت على السبعين يُغفر له لزدت عليها، قال: فصلى عليه رسول الله ﷺ ، ثم انصرف، فلم يمكث إلا يسيراً حتى نزلت الآيتان من براءة: ﴿ولا تصل على أحدٍ منهم مات أبدًا﴾ إلى ﴿وهم فاسقون﴾.

قال: فعجبت بعدُ من جُرأتى على رسول الله ﷺ يومئذ، والله ورسوله أعلم(٢).

شياطين الجن والإنس تفر من عمر ـ رضى الله عنه ـ

إن الإنسان كلما ازداد خوفه من ربه ـ عز وجل ـ فإن الله يُلقى هَيبته فى قلوب مَن حوله.. وها هو فاروق الأمة ـ رضى الله عنه ـ يُلقى الله هيبته فى قلوب الشياطين.. فما إن تراه حتى تهرب خوفًا منه!!!.

عن سعد بن أبى وقاص ـ رضى الله عنه ـ قال: استأذن عمرُ على النبى ﷺ وعنده نسوة من قريش يُكلِّمنه ـ وفى رواية: يسألنه، ويستكثرنه ـ عالية أصواتُهنَّ على صوته، فلما استأذن عمر قمن يبتدرن الحجاب، فأذن له النبى ﷺ ، فدخل عمر، والنبى ﷺ يضحك، فقال عمر: أضحك الله سنَّك(٣)، بأبى وأمى ما أضحكك؟

(١) رواه مسلم رقم (١٧٦٣) فى الجهاد والسير باب كيفية قسمة الغنيمة بين الحاضرين، ورواه أيضًا أحمد فى المسند رقم (٢٠٨، ٢٢١) والترمذى (٣٠٨١) فى تفسير القرآن.

(٢) أخرجه البخارى (١٣٦٦) الجنائز ـ ومسلم (٢٤٠٠) فضائل الصحابة.

(٣) قال الحافظ فى الفتح: لم يرد به الدعاء بكثرة الضحك، بل لازمه، وهو السرور، أو نفى ضد لازمه، وهو الحزن (الفتح ٥٨/ ٧).

قال: «عجبت من هؤلاء اللاتى كُنَّ عندى، فلما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب».

قال عمر: فأنت يا رسول الله لأحق أن يهبن، ثم قال: أى عدوات أنفسهنَّ، أتهبننى، ولا تهبن النبى ﷺ؟

قلن: نعم، أنت أفظ، وأغلظ[١] من النبى ﷺ.

فقال رسول الله ﷺ: «إيه[٢] يا ابن الخطاب، والذى نفسى بيده، ما لقيك الشيطان سالكًا فجًا إلا سلك فجًا غير فجك»[٣].

وفى رواية: قال ﷺ: «إنى لأنظر إلى شياطين الجن والإنس قد فرُّوا من عمر»[٤].

قال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ: ولا يلزم من ذلك ثبوت العصمة له؛ لأنهما فى حق النبى ﷺ واجبة، وفى حق غيره ممكنة. اهـ[٥].

وقال الإمام النووى ـ رحمه الله ـ: هذا الحديث محمول على ظاهره، أن الشيطان متى رأى عمر سالكًا فجًا هرب هيبة من عمر، وفارق ذلك الفج، وذهب من فج آخر لشدة خوفه من بأس عمر أن يفعل فيه شيئًا. اهـ[٦].

وعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت: أتيت النبى ﷺ بخزيرة قد طبختها له، فقلت لسودة، والنبى ﷺ بينى وبينها: كُلى فأبت، فقلت: لتأكلن أو لألَطخنَّ وجهك، فأبت، فوضعت يدى فى الخزيرة فطليتُ وجهها، فضحك النبى ﷺ، فوضع بيده لها، وقال لها: «الطخى وجهها» فضحك النبى ﷺ لها، فمر عُمر فقال: يا عبد الله، يا عبد الله، فظن أنه سيدخل فقال: «قوما فاغسلا وجوهكما» فقالت عائشة: فما زلت أهاب عمر لهيبة رسول الله ﷺ[٧].

---

(١) قال الحافظ فى الفتح: أفعل تفضيل من الفظاظة، والغلظة، وهو يقتضى الشركة فى أصل الفعل، ويعارض قوله تعالى: ﴿ولو كنت فظًا غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾ فإنه يقتضى إنه لم يكن فظًا، ولا غليظًا (انظر الفتح ٥٨/ ٧).

(٢) بالكسر، والتنوين معناها: حدثنا ما شئت، وبغير تنوين زدنا مما حدثتنا.

(٣) رواه البخارى رقم (٣٦٨٣) فى فضائل أصحاب النبى ﷺ، باب مناقب عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ ومسلم رقم (٢٣٩٦) فى فضائل الصحابة.

(٤) رواه الترمذى عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٤٩٦).

(٥) فتح البارى (٥٨/ ٧).

(٦) مسلم بشرح النووى (١٨٠/ ٧) ط. دار الحديث.

(٧) رواه أبو يعلى فى مسنده (٧/ ٤٤٩) وقال العدوى: إسناده حسن.

فطنة الفاروق ـ رضى الله عنه ـ فى غزوة تبوك

وها هو موقف جليل للفاروق ـ رضى الله عنه ـ يوضح مدى ثقته فى الحبيب ﷺ وفى تأييد الله لرسوله ﷺ .

عن أبى هريرة قال: لما كانت غزوة تبوك أصاب الناس مجاعة قالوا: يا رسول الله، لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا ـ من الإبل ـ فأكلنا، وادَّهنَّا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «افعلوا».

قال: فجاء عمر فقال: يا رسول الله إن فعلت قَلَّ الظهر، ولكن ادعهم فليأتوا بفضل أزوادهم،ثم ادع لهم عليها بالبركة لعل الله أن يجعل فى ذلك.

فقال رسول الله ﷺ: نعم فدعا رسول الله ﷺ بنطع فبسطه، ثم دعا بكسرة حتى اجتمع من ذلك على النطع شىء يسير، ثم دعا ﷺ بالبركة، ثم قال: خذوا فى أوعيتكم، فأخذوا فى أوعيتهم حتى ما تركوا فى المعسكر وعاء إلا ملأوه، فأكلوا حتى شبعوا، وفضلت فضلة.

فقال رسول الله ﷺ: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنى رسول الله، لا يلقى الله بها عبدٌ غير شاكٍ فيحجبَ عن الجنة»(١).

قوة شخصيته وهيبته فى قلوب الناس

لقد كان الفاروق ـ رضى الله عنه ـ قوى الشخصية لا يخاف فى الله لومة لائم حتى إنه كان إذا رآه الرجل تمنعه هيبة (عمر) من أن يطلب منه حاجته التى جاء من أجلها فيرجع ولم يقضِ حاجته.

عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال: مكثت سنةً أريد أن أسأل عمر ابن الخطاب عن آية، فما أستطيع أن أسأله هيبةً له، حتى خرج حاجًا فخرجت معه، فلما رجعت، وكنا ببعض الطريق عدل إلى الأراك لحاجة له، قال: فوقفت له حتى فَرَغَ ثم سرت معه فقلت له: يا أمير المؤمنين... مَن اللتان تظاهرتا على النبى ﷺ من أزواجه، فقال: تلك حفصةُ وعائشةُ، قال: فقلت: والله إن كنت لأريد أن أسألك عن هذا منذ سنةٍ فما

---

(١) أخرجه البخارى رقم (٢٩٨٢) فى الجهاد، باب حمل الزاد فى الغزو، ومسلم رقم (٢٧) فى الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا ـ واللفظ لمسلم.

أستطيعُ هيبةً لك، قال: فلا تفعل، ما ظننت أن عندى من علم فاسألنى، فإن كان لى علم خبَّرتك به..»(١).

وعن عكرمة أن حجَّامًا كان يقُصّ عمر بن الخطاب، وكان رجلاً مهيبًا فتنحنح عمر فأحدث الحجَّام ـ بال على نفسه ـ فأمر له عمر بأربعين درهمًا(٢).

شفافية وفراسة يندر وجودها

ولقد كان ـ رضى الله عنه ـ يتمتع بفراسة وشفافية يندر وجودها فى هذا الكون ـ وهى نعمة امتن الله بها على فاروق الأمة ـ رضى الله عنه ـ.

وها هى أمثلة ـ تضاهى الشمس فى نورها وبهائها ـ توضح لنا كيف بلغت تلك الشفافية والفراسة عند فاروق الأمة ـ رضى الله عنه ـ.

عن يحيى بن سعيد أن عمر بن الخطاب قال لرجل: ما اسمك؟ قال: جمرة، قال ابن مَنْ؟ قال: ابن شهاب، قال: ممن؟ قال: من الحرقة، قال: ثم ممن؟ قال: من بنى ضرام، قال: أين مسكنك؟ قال: الحَرَّة، قال: بأيتها؟ قال: بذات لظى، قال: عمر: أدرك أهلك فقد احترقوا، فكان كما قال عمر(٣).

وقال الذهبى فى السير: حدثنا شرحبيل: أن الأسود العنسى تنبأ باليمن ـ ادَّعى النبوة ـ فبعث إلى أبى مسلم الخولانى، فأتاه بنار عظيمة، ثم إنه ألقى أبو مسلم فيها، فلم تضره... فقيل للأسود: إن لم تنفِ هذا عنك أفسد عليك من اتبعك، فأمره بالرحيل، فقدم المدينة، فأناخ راحلته، ودخلَ المسجد يصلى، فبصر به عمر ـ رضى الله عنه ـ (وكأنه وقع فى قلبه أنه أبو مسلم) فقام إليه، فقال: ممن الرجل؟ قال: من اليمن قال: ما فعل الذى حرقهُ الكذاب بالنار؟ قال: ذاك عبد الله بن ثُوب. قال: نشدتُك بالله، أنت هو؟ قال: اللهم نعم. فاعتنقه عمر، وبكى، ثم ذهب به حتى أجلسه فيما بينه، وبين الصدِّيق، فقال: الحمد لله الذى لم يُمتنى حتى أرانى فى أمة محمد ﷺ من صُنِع به كما صُنِع بإبراهيم الخليل(٤).

---

(١) أخرجه البخارى (٤٩١٣) التفسير.

(٢) أخرجه مسلم وأحمد عن أبى هريرة ـ صحيح الجامع (١٠٠٩).

(٣) تاريخ الخلفاء (٩)، والإصابة (١/ ٢٦٢)، والطرق الحكمية (٢٩) نقلاً عن أخبار عمر (ص٣٥٩)، وقال ابن الأثير فى جامع الأصول: أخرجه مالك فى الموطأ (٢/ ٩٧٣) فى الاستئذان.

(٤) سير أعلام النبلاء للذهبى (٤/ ٧) ـ تهذيب التهذيب (١٢/ ٢٣٦).

عبادته ـ رضي الله عنه ـ

ومع أن الفاروق ـ رضي الله عنه ـ كان يحمل أعباء الأمة بأسرها إلا أنه لم ينس أبدًا حظه من العبادة التي يتزود بها في سفره إلى ربه جل وعلا.

عن أبي قتادة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال لأبي بكر: «متى توتر؟ ـ تصلي الوتر ـ قال: أُوتر من أول الليل، وقال لعمر: متى توتر؟

قال: آخر الليل، فقال لأبي بكر: أخذ هذا بالحذر ـ وفي رواية ـ بالحزم، وقال لعمر: أخذ هذا بالقوة»[١].

وعن أسلم أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ كان يصلي ما شاء الله حتى إذا كان من آخر الليل يعظ أهله يقول: الصلاة.. الصلاة: ويتلو هذه الآية: ﴿وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها﴾ الآية[٢].

وقال زياد بن حُدير رحمه الله: رأيت عمر بن الخطاب أكثر الناس صيامًا، وأكثرهم سواكًا[٣].

وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: ما مات عمر حتى سرد الصوم[٤].

قال الحسين: «تزوج عثمان بن أبي العاص امرأة من نساء عمر بن الخطاب، فقال: والله ما نكحتها رغبة في مال ولا ولد، ولكني أحببت أن تخبرني عن ليل عمر..!!»[٥].

قال الحافظ ابن كثير عن ليل عمر: «كان يصلي بالناس العشاء ثم يدخل بيته، فلا يزال يصلي إلى الفجر».

وقال لمعاوية بن خديج: «لئن نمت بالنهار لأُضيِّعنَّ الرعيَّة، ولئن نمتُ بالليل لأُضيعنَّ نفسي، فكيف بالنوم مع هذين يا معاوية»[٦].

---

(١) رواه أبو داود (١٤٣٤) الصلاة، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (١٢٧١).

(٢) رواه أبو داود في الزهد، ومالك (١/ ١١٩) في الموطأ، والبيهقي في الشعب (٢٨٢٢).

(٣) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٣/ ٢٢٠).

(٤) صفة الصفوة (١/ ٢٨٦).

(٥) قال الهيثمي في المجمع (٩/ ٧٣): أخرجه الطبراني ورجاله ثقات.

(٦) الزهد للإمام أحمد (ص ١٢٣).

فاروق الأمة وحسن الاتباع

واستلم عمر الحجر الأسود وقال: إنى لأعلم أنك حَجَر لا تضر ولا تنفع، ولولا أنى رأيت رسول الله ﷺ يُقَبِّلك ما قبلتك.

وقال نافع: كان الناس يأتون الشجرة، التى بايع رسول الله ﷺ تحتها بيعة الرضوان، فيصلون عندها، فبلغ ذلك عمر فأوعدهم فيها، وأمر بها فقُطعت.

وعن المعرور قال: خرجنا مع عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ فى حجة حجها، قال: فقرأ بنا فى الفجر ﴿ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل﴾، و﴿لإيلاف قريش﴾ فلما انصرف، فرأى الناس مسجداً فبادروه، فقال: ما هذا؟ قالوا: هذا مسجدٌ صلَّى فيه النبى ﷺ ، فقال: هكذا هلك أهل الكتاب قبلكم، اتخذوا آثارَ أنبيائهم بيعًا، مَن عرضت له صلاة فليصل، ومن لم تعرض له صلاة فليمض.

وعن عمر بن ميمون، عن أبيه قال: أتى عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ رجل، فقال: يا أمير المؤمنين: إنا لما فتحنا المدائن، أصبت كتابًا فيه كلام معجب قال: أمن كتاب الله؟. قال: لا. فدعا بالدرة فجعل يضربه بها. فجعل يقرأ: ﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ① إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ [يوسف:١ ـ ٣]، ثم قال: إنما هلك من كان قبلكم أنهم أقبلوا على كتب علمائهم وأساقفتهم، وتركوا التوراة والإنجيل، حتى دَرَسَا وذهب ما فيهما من العلم[١].

الكريم الجواد ـ رضى الله عنه ـ

إن المؤمن الواثق فى موعود ربه ـ جل وعلا ـ هو الذى يعلم، بل ويوقن أن الرزق بيد الله ـ عز وجل ـ ولذا تراه لا يبخل أبدًا بماله على إخوانه المؤمنين؛ لأنه يعلم أيضًا أن الله سيخلف عليه كل نفقة أنفقها فى سبيل الله.

وها هو فاروق الأمة ـ رضى الله عنه ـ يضرب لنا المثل فى الجود والكرم.

فعن زيد بن أسلم عن أبيه قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: أمرنا رسول الله ﷺ

---

(١) مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب/ لابن الجوزى (ص ١٢٣) تحقيق د/ زينب إبراهيم، دار الكتب العلمية.



أن نتصدق، ووافق ذلك عندي مالاً ، فقلت : اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يومًا، قال : فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله ﷺ:

«ما أبقيت لأهلك؟» قلت: مثله.

وأتى أبو بكر بكل ما عنده، فقال: «يا أبا بكر ما أبقيت لأهلك؟» فقال: أبقيت لهم الله ورسوله، قلت: لا أسبقه إلى شيء أبدًا[١].

وقول عمر: «لا أسبقه إلى شيء» أي من الفضائل؛ لأنه إذا لم يقدر على مغالبته حين كثرة ماله، وقلة مال أبي بكر ففي غير هذا الحال أولى أن لا يسبقه. اهـ[٢].

قال الأعمش: كنتُ يومًا عنده، فأُتي باثنين وعشرين ألف درهم، فلم يقُم من مجلسه حتى يفرّقها، وكان إذا أعجبه شيءٌ من ماله تصدّق به، وكان كثيراً ما يتصدّق بالسُّكَّر، فقيل له في ذلك فقال: إني أُحبه، وقد قال تعالى: ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ [آل عمران:٩٢][٣].

وقال مجاهد: كتب عمرُ بن الخطاب إلى أبي موسى أن يبتاع له جاريةً من سبي جلولاء، ففعل، فدعاها عمرُ فأعتقها، ثم تلا هذه الآية: ﴿لن تنالوا البر حتى تُنفقوا مما تُحبُّون﴾.

ويقول أسلم مولى عمر: سألني ابن عمر عن بعض شأنه؟ يعني عمر: فأخبرته فقال: ما رأيت أحدًا قطُّ بعد رسول الله ﷺ من حين قُبض كان أجدَّ، وأجود حتى انتهى: من عمر[٤].

قال الحافظ في الفتح: أي لم يكن أحد أجد منه في الأمور، ولا أجود بالأموال، وهو محمول على وقت مخصوص، وهي مدة خلافته ليخرج النبي ﷺ ، وأبو بكر من ذلك.

* * *

---

(١) رواه أبو داود (١٦٧٨) الزكاة، وأخرجه الحاكم في المستدرك (١/ ٤١٤) وقال على شرط مسلم، وأقره الذهبي، وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود (١٤٧٢).

(٢) تحفة الأحوذي (١٠/ ١١١) ط الكتب العلمية، عون المعبود (٥/ ٧٢) ط. دار الفكر.

(٣) الدر المنضود في ذم البُخل ومدح الجود لعبد الرؤوف المناوي (ص ٦٤) دار الصحابة بطنطا.

(٤) أخرجه البخاري (٣٦٨٧) فضائل أصحاب النبي ﷺ - باب مناقب عمر بن الخطاب.

موقف الفاروق ـ رضي الله عنه ـ عند موت الحبيب ﷺ

عن أنس قال : لما ثقل النبي ﷺ جعل يتغشاه فقالت فاطمة عليها السلام : واكرب أبتاه، فقال لها: ليس على أبيك كرب بعد اليوم، فلما مات قالت: يا أبتاه أجاب ربًا دعاه، يا أبتاه من جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه إلى جبريل ننعاه، فلما دفن قالت فاطمة عليها السلام : يا أنَس أطابت نفوسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب»[(١)].

وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء وما نفضنا عن النبي ﷺ الأيدي حتى أنكرنا قلوبنا»[(٢)].

وقال الحافظ ابن رجب (رحمه الله):

لما توفي ﷺ اضطرب المسلمون فمنهم من دُهش فخولط، ومنهم من أُقعد فلم يطق القيام ومنهم من اعتقل لسانه فلم يطق الكلام ومنهم من أنكر موته بالكلية وقال: إنما بُعث إليه[(٣)].

فكان من موقف عمر ـ رضي الله عنه ـ أن وقف صارخًا يقول: إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ ـ توفي، وإن رسول الله ﷺ ما مات، لكن ذهب إلى ربه، كما ذهب موسى بن عمران، فغاب عن قومه أربعين ليلة، ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات، والله ليرجعن رسول الله ﷺ فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم، يزعمون أنه مات[(٤)].

وأقبل أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ على فرسٍ من مسكنه بالسُنح حتى نزل فدخل المسجد فلم يكلم الناس حتى دخلٍ على عائشة فتيمم رسول الله ﷺ، وهو مغشى بثوب حِبَره، فكشف عن وجهه، ثم أكبَّ عليه، فقبله، وبكى، ثم قال: بأبي أنت وأمي، والله لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة الأولى التي كُتبت عليك فقد متُها.

(١) أخرجه البخاري (٧/ ٧٥٥) المغازي ـ وأحمد (٣/ ٢٠٤) مختصرًا.

(٢) رواه الترمذي (١٣/ ١٠٤، ١٠٥) المناقب، والحاكم مختصرًا (٣/ ٥٧) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يُخرجاه وأقره الذهبي وصححه الألباني في مختصر الشمائل.

(٣) لطائف المعارف (١١٣، ١١٤) باختصار.

(٤) أخرجه ابن هشام في السيرة عن ابن إسحاق، وابن سعد في الطبقات، وصححه ابن حبان (١٤/ ٦٦٢٠).

ثم خرج أبو بكر، وعمر يكلم الناس، فقال: اجلس يا عمر، فأبى عمر أن يجلس، فأقبل الناس إليه، وتركوا عمر، فقال أبو بكر: أما بعد: من كان منكم يعبد محمداً ﷺ فإن محمداً قد مات، ومن كان منكم يعبد الله، فإن الله حي لا يموت.

قال الله: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ [آل عمران:١٤٤].

قال ابن عباس: والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر[١]، فتلقاها منه الناس كلهم، فما أسمع بشراً من الناس إلا يتلوها.

قال ابن المسيب: قال عمر: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها، فعُقرت حتى ما تُقلُّني رجلاي، وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها، علمت أن النبي ﷺ قد مات[٢].

مبايعته لأبي بكر الصديق

عن أنس بن مالك أنه سمع خطبة عمر الآخرة حين جلس على المنبر، وذلك الغد من يوم توفي النبي ﷺ فتشهّد وأبو بكر صامت لا يتكلم قال: كنت أرجو أن يعيش رسول الله ﷺ حتى يُدْبرنا... يريد بذلك أن يكون آخرهم، فإن يك محمد ﷺ قد مات، فإن الله تعالى قد جعل بين أظهركم نوراً تهتدون به بما هدى الله محمداً ﷺ، وإن أبا بكر صاحب رسول الله ﷺ ثاني اثنين، فإنه أولى الناس بأموركم، فقوموا فبايعوه، وكانت طائفة منهم قد بايعوه قبل ذلك في سقيفة بني ساعدة، وكانت بيعة الناس العامة على المنبر.

قال الزهري عن أنس بن مالك: سمعت عمر يقول لأبي بكر يومئذ: اصعد المنبر، فلم يزل به حتى صعد المنبر فبايعه الناس عامة»[٣].

***

(١) قال الحافظ في الفتح معلقًا: وفيه بيان رجحان علم أبي بكر على عمر فمن دونه، وكذلك رجحانه عليهم لثباته في مثل ذلك الأمر العظيم (فتح الباري ٧/ ٣٦).

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٥٢، ٤٤٥٣) عن عائشة وابن عباس ـ رضي الله عنهم ـ في المغازي.

(٣) أخرجه البخاري (٧٢١٩) الأحكام ـ باب الاستخلاف.

القضاء والخلافة

لقد بلغ الفاروق درجة عالية من العلم والفقه والحكمة أهّلته لأن يكون قاضيًا فى عهد الصدِّيق وأميرًا للمؤمنين من بعده.

عن إبراهيم النخعى قال: أول من ولَّى أبو بكر شيئًا من أمور المسلمين عمر بن الخطاب، ولاه القضاء، وكان أول قاضٍ فى الإسلام[1].

وفى آخر عهد أبي بكر ـ في اللحظات الأخيرة من حياته ـ عقد الخلافة من بعده لعمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ.

قال ابن الجوزى في المنتظم: لما أراد ذلك ـ أى عقد الخلافة من بعده لعمر ـ دعا عبد الرحمن بن عوف، فقال: أخبرنى عن عمر بن الخطاب.

فقال: هو والله أفضل من رأيك فيه من رجل، ولكن فيه غلظة.

فقال أبو بكر: ذاك لأنه يرانى رفيقًا، ولو أفضى الأمر إليه لترك كثيراً مما هو عليه.

ثم دعا عثمان بن عفان فقال: أخبرنى عن عمر.

فقال: أنت أخبرنا به.

فقال: على ذلك يا أبا عبد الله.

فقال عثمان: اللهم علمى به أن سريرته خير من علانيته، وأنه ليس فينا مثله.

فقال أبو بكر: يرحمك الله، والله لو تركته ما عَدوتُك.

ثم قال له: اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما عهد أبو بكر بن أبى قحافة في آخر عهده بالدنيا خارجًا منها، وأول عهده بالآخرة داخلاً فيها حين يؤمن الكافر، ويوقن الفاجر، ويصدق الكاذب، إنى استخلفت عليكم ـ ثم أُغشى عليه ـ فكتب عثمان: إنى استخلفت عليكم عمر بن الخطاب، فلما أفاق أبو بكر قال: اقرأ علىّ، فقرأ عليه، فكبَّر، وقال: أراك خفت أن يختلف الناس إن افتلتت نفسى فى غشيتى؟

قال: نعم.

قال: جزاك الله خيراً عن الإسلام وأهله، وأقرها أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ وأمره

---

(١) مناقب عمر بن الخطاب لابن الجوزى (ص ٥٢).

فخرج على الناس بالكتاب، فبايعوه لمن فيه، قد علموا أنه عمر، ودخل عليه قوم، فقالوا: ما تقول لربك إذا سألك عن استخلافك عمر، وأنت ترى غلظته؟

فقال: أجلسوني، أبالله تخوفوني، خاب من تزود من أمركم بظلم.

أقول: استخلفت عليهم خير أهلك، ثم دعا عمر، وأوصاه ا.هـ[١].

وقال عليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ: لما حضرت أبي بكر الوفاة رأى أن عمر أقوى عليها ـ أي على الخلافة ـ ولو كانت محاباة لآثر بها ولده، واستشار المسلمين في ذلك، فمنهم من رضي، ومنهم من كره، وقالوا: أتؤمر علينا من كان عنّانًا، وأنت حي؟! فماذا تقول لربك إذا قدمت عليه؟ قال: أقول لربي إذا قدمت عليه: إلهي أمَّرتُ عليهم خير أهلك.

فأمَّر علينا عمر، فقام فينا بأمر صاحبيه، لا ننكر منه شيئًا، نعرف الزيادة كل يوم في الدين، والدنيا، فتح الله به الأرضين، ومَصَّرَ به الأمصار، لا تأخذه في الله لومة لائم، البعيد والقريب سواء في العدل، والحق، وضرب الله بالحق على لسانه وقلبه، حتى أن كنا نظن أن السكينة تنطق على لسانه، وأن ملكًا بين عينيه يُسدده، ويوفقه[٢].

فاروق الأمة والقضاء

روى ابن عبد البر، أن عروة ومجاهدًا رويا أن رجلاً من بني مخزوم استعدى عمر بن الخطاب على أبي سفيان بن حرب، أنه ظلمه حدًا في موضع كذا وكذا، وقال عمر: إني لأعلمُ الناس بذلك، وربما لعبتُ أنا وأنت فيه ونحن غلمان، فأْتني بأبي سفيان، فأتاه به، فقال له عمر: يا أبا سفيان، انهض بنا إلى موضع كذا وكذا، فنهضوا ونظر عمر فقال: يا أبا سفيان، خُذ هذا الحجر من ها هنا، فضعه ها هنا، فقال: والله لا أفعلُ. فقال: والله لتفعلنَّ. فقال: والله لا أفعل. فعلاه بالدرة وقال: خُذه لا أُمَّ لك فضعهُ ها هنا. فإنك ما علمتُ قديمُ الظلم، فأخذ أبو سفيان الحجر ووضعه حيث قال عمر، ثم إن عمر استقبل القبلة فقال: اللهم لك الحمد، لم تُمتني حتى غلبتُ أبا سفيان على رأيه، وأذللته لي

---

(١) المنتظم في تاريخ الأمم والملوك (٤/ ١٢٥، ١٢٦)، وأخرجه ابن الأثير في أسد الغابة (٤/ ١٥٧)، انظر المطالب العالية (٤٣١٣)، وقال ابن حجر: إسناده صحيح.

(٢) أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في زوائده على المسند (١/ ١٠٦) واللالكائي في كرامات الأولياء (٦٤) وغيرهما عن الشعبي عن (عليّ) ـ رضي الله عنه ـ ورجاله ثقات..

بالإسلام، قال: فاستقبل القبلة أبو سفيان وقال: اللهم لك الحمدُ إذ لم تُمتنى حتى جعلت فى قلبى من الإسلام ما أذِلَّ به لعمر»(١).

هدية لحكام المسلمين

وها هى باقة عطرة من (خُطب) فاروق الأمة ـ رضى الله عنه ـ التى سطَّر فيها كل ما يتمناه البشر من حقوق الإنسان.

فإلى كل من ولى من أمور المسلمين شيئًا صغيرًا أو كبيرًا... نُهدى إليهم تلك السطور التى تضىء لهم طريقهم إلى الله.

بلغ من لين أبى بكر أن الصبيان كانوا إذا رأوه يسعون إليه، ويقولون: يا أبت! فيمسح رؤوسهم، وبلغ من هيبة عمر أن الرجال تفرّقوا، وتركوا مجالسهم بالأفنية هيبةً. حتى ينظروا ما يكون من أمره، فلما بلغ ذلك عمر، صاح فى الناس: الصلاة جامعة! فحضروا، فجلس على المنبر حيث كان أبو بكر يضع قدميه، فلما اجتمعوا، قام قائمًا، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، وصلى على النبى ﷺ، ثم قال: بلغنى أن الناس هابوا شدتى، وخافوا غلظتى، وقالوا: قد كان عمر يشتد علينا، ورسول الله ﷺ بين أظهرنا، ثم اشتد علينا وأبو بكر والينا دونه، فكيف وقد صارت الأمور إليه؟

ومن قال ذلك صدق، فقد كنت مع رسول الله ﷺ، فكنت خادمه، وكان مَنْ لا يبلغ أحدٌ صفته من اللين والرحمة، وكان كما قال الله: ﴿بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ فكنت بين يديه سيفًا مسلولاً حتى يُغمدنى أو يدعنى فأمضى، فلم أزل مع رسول الله ﷺ على ذلك حتى توفاه الله، وهو عنى راضٍ، والحمد لله على ذلك كثيرًا، وأنا به أسعد.

ثم ولى أمر المسلمين أبو بكر، فكان من لا ينكرون دعته، وكرمه ولينه، فكنت خادمه وعونه، أخلط شدتى بلينه، فأكون سيفًا مسلولاً حتى يُغمدنى أو يدعنى فأمضى، فلم أزل معه كذلك حتى قبضه الله عز وجل، وهو عنى راضٍ، والحمد لله على ذلك كثيرًا، وأنا به أسعد.

ثم أنى قد وليت أموركم أيها الناس، فاعلموا أن تلك الشدة قد أُضعفت، ولكنها إنما تكون على أهل الظلم، والتعدى على المسلمين، فأما أهل السلامة، والدِين والقصد، فأنا ألين لهم من بعضهم لبعض، ولست أدع أحدًا يظلم أحدًا، أو يتعدى عليه حتى أضع

(١) المغنى على مختصر الخرقى (١٠/ ٤٩).

خده على الأرض، وأضع قدمى على الخد الآخر حتى يذعن بالحق، وإنى بعد شدتى تلك أضع خدى على الأرض لأهل العفاف، وأهل الكفاف.

ولكم علىّ أيها الناس خصال أذكرها لكم فخذونى بها:

لكم علىّ أن لا أجتبى شيئًا من خَراجكم، ولا مما أفاء الله عليكم إلا من وجهه، ولكم علىّ إذا وقع فى يدى ألا يخرج منى إلا فى حقه، ولكم علىّ أن أزيد عطاياكم وأرزاقكم إن شاء الله تعالى، وأسدّ ثغوركم، ولكم علىّ ألا ألقيكم فى المهالك، ولا أجمركم فى ثغوركم، وإذا غبتم فى البعوث فأنا أبو العيال حتى ترجعوا إليهم. فاتقوا الله عباد الله! وأعينونى على أنفسكم بكفها عنى، وأعينونى على نفسى بالأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، وإحضارى النصيحة فيما ولانى الله من أمركم.

أقول قولى هذا، وأستغفر الله لى ولكم[١].

وعن أبى فراس قال: خطب عمر بن الخطاب فقال: أيها الناس، ألا إنا إنما كنا نعرفكم إذ بين ظهرينا النبى ﷺ ، وإذ ينزل الوحى، وإذ ينبئنا الله من أخباركم، ألا وإن النبى ﷺ قد انطلق، وقد انقطع الوحى، وإنما نعرفكم بما نقول لكم: من أظهر منكم خيراً ظننا به خيراً، وأحببناه عليه، ومن أظهر منكم لنا شراً ظننا به شراً وأبغضناه عليه، سرائركم بينكم وبين ربكم، ألا إنه قد أتى علىّ حينٍ، وأنا أحسب أن من قرأ القرآن يريد الله وما عنده، فقد خُيِّل إلىّ بآخره أن رجالاً قد قرؤوه يريدون به ما عند الناس، فأريدوا الله بقراءتكم، وأريدوه بأعمالكم، ألا إنى والله ما أرسل عمالى إليكم ليضربوا أبشاركم، ولا ليأخذوا أموالكم، ولكن أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم، وسنتكم، فمن فُعل به شىء سوى ذلك فليرفعه إلىّ، فوالذى نفسى بيده إذن لأقصنّه منه.

فوثب عمرو بن العاص فقال: يا أمير المؤمنين، أرأيت إن كان رجل من المسلمين على رعية فأدَّب بعض رعيته أئنك لمقتصه منه؟

قال: إى والذى نفس عمر بيده، إذن لأقصنه منه، وقد رأيت رسول الله ﷺ يقص من نفسه، ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم، ولا تجمروهم فتفتنوهم، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم ولا تنزلوا الغياض فتضيعوهم[٢].

---

(١) الخراج لأبى يوسف: ١٤٠ نقلاً عن أخبار عمر (ص: ٥٦).

(٢) رواه أحمد فى المسند رقم (٢٨٦)، وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده حسن، والحاكم بنحوه (٤/ ٤٣٩)، وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبى، وهو فى كنز العمال (٤٤٢١٢).

صفحات تتألق روعة وجمالاً من ورع الفاروق وخوفه من الله

وها هو الفاروق ـ رضى الله عنه ـ يسطِّر على جبين التاريخ صفحات مضيئة تتألق روعة وجمالاً وإجلالاً من الورع والخوف من الله ـ جل وعلا ـ.

وإليكم جميعًا تلك المشاهد التى يعجز القلم عن وصفها أو حتى عن مجرد التعليق عليها.

بينا عثمان بن عفان فى مال له بالعالية فى يوم صائف ـ شديد الحر ـ إذ رأى رجلاً يسوق بَكْرَين ـ من الإبل ـ وعلى الأرض مثل الفراش من الحر، فقال: ما على هذا لو أقام بالمدينة حتى يبرد، ثم يروح.

ثم دنا الرجل فقال لمولاه: انظر من هذا؟

فنظر فقال: أرى رجلاً مُعْتَمًا بردائه، يسوق بكرين.

ثم دنا الرجل فقال: انظر، فنظر، فإذا عمر بن الخطاب!!

فقال: هذا أمير المؤمنين.

فقام عثمان فأخرج رأسه من الباب فإذا نَفْح السَموم، فأعاد رأسه حتى حاذاه، فقال: ما أخرجك هذه الساعة؟!!

فقال عمر: بكران من إبل الصدقة تخلّفا، وقد مُضِى بإبل الصدقة، فأردت أن ألحقهما بالحِمَى وخشيت أن يضيعا، فيسألنى الله عنهما.

فقال عثمان: يا أمير المؤمنين، هَلُمَّ إلى الماء والظل، ونكفيك.

فقال: عُد إلى ظلك يا عثمان!

فقال عثمان: من أحب أن ينظر إلى القوى الأمين، فلينظر إلى هذا، فعاد إلينا فألقَى نفسه(١).

وعن عبد الله بن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال: اشتريت إبلاً وسقتها إلى الحمى، فلما سمنت قدمت بها، فدخل عمر السوق، فرأى إبلاً سمانًا فقال: لمن هذه؟

فقيل: لعبد الله بن عمر، فجعل يقول: يا عبد الله: بخٍ بخٍ.. ابن أمير المؤمنين! فجئته

---

(١) أسد الغابة لابن الأثير (١٦٠/ ٤) بسند صحيح ـ والكامل لابن الأثير (٢/ ٤٥١).

أسعى، فقلت: مالك يا أمير المؤمنين؟

قال: ما هذه الإبل؟

قلت: إبل أنضاء (هزيلة) اشتريتها، وبعثت بها إلى الحمى ابتغى ما يبتغى المسلمون.

فقال (عمر): ارعوا إبل ابن أمير المؤمنين! اسقوا إبل ابن أمير المؤمنين!

يا عبد الله بن عمر! خذ رأس مالك، واجعل الربح فى بيت مال المسلمين[١].

ويقول ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ: دعانى عمر بن الخطاب، فأتيته، فإذا بين يديه نطع عليه الذهب منثور حثًا، قال: هلم فاقسم هذا بين قومك، فالله أعلم حيث زوى هذا عن نبيه عليه السلام، وعن أبى بكر، وأُعطيته لخير أعطيته أو لشرّ؟

قال ابن عباس: فأكببت عليه أقسم، وأزيّل (أى أفرّق) فسمعت البكاءَ، فإذا صوت عمر يبكى، ويقول فى بكائه، والذى نفسى بيده ما حبسه عن نبيه ﷺ ، وعن أبى بكر إرادةَ الشر لهما، وأعطاه عمر إرادة الخير له[٢].

وعن مجاهد: أنفق عمر بن الخطاب فى حجة حجها ثمانين درهمًا من المدينة إلى مكة، ومن مكة إلى المدينة، قال: ثم جعل يتأسف، ويضرب بيده على الأخرى، ويقول: ما أخلقنا أن نكون قد أسرفنا فى مال الله تعالى[٣].

وقال عبد الله بن عامر بن ربيعة: رأيت عمر أخذ تبنة من الأرض فقال: يا ليتنى هذه التبنة، ليتنى لم أكُ شيئًا، ليت أمى لم تلدنى[٤].

وعن قتادة: لما ورد عمر الشام، صُنع له طعام لم ير قبله مثله فلما أوتى به قال: هذا لنا، فما لفقراء المسلمين، الذين باتوا لا يشبعون من خبز الشعير؟

فقال خالد بن الوليد ـ رضى الله عنه ـ: لهم الجنة، فاغرورقت عيناه، فقال: إن كان حظنا فى هذا ويذهب أولئك بالجنة لقد بانوا بَونًا بعيدًا[٥].

---

(١) أخبار عمر ـ رضى الله عنه ـ (ص ٢٩٢).

(٢) الطبقات لابن سعد (٣/ ٢٣٠) وإسناده صحيح.

(٣) أخرجه ابن الأثير فى أسد الغابة (٤/ ١٦١) بسند صحيح.

(٤) سير الخلفاء للذهبى (ص ٨٣)، وابن الجوزى فى المنتظم (٤/ ١٤١) بسند رجاله رجال الصحيح إلا عاصم بن عبد الله بن عاصم ضعفوه.

(٥) مناقب أمير المؤمنين لابن الجوزى.

وعن سالم بن عبد الله أن عمر بن الخطاب ـ رضوان الله عليه ـ كان يُدْخِل يده في دُبر البعير، ويقول: إني خائف أن أُسأل عما بك»[١].

وكان عمر ربما يدني يده من النار، ويقول: ابن الخطاب، هل لك على هذا صبر[٢].

وعن البراء بن معرور أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ خرج يومًا حتى أتى المنبر ـ وقد كان اشتكى شكوى له ـ فَنُعت له العسل (وصفوه له) وفي بيت المال عُكة، فقال: إن أذنتم لي فيها أخذتها، وإلا فهي عليَّ حرام[٣].

وقال ابن الجوزي في مناقب عمر:

وعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قال: رأيت عمر ابن الخطاب ـ رضوان الله عليه ـ على قتب يعدو، فقلت: يا أمير المؤمنين أين تذهب؟

فقال: بعير نَدَّ (أي فرّ وهرب) من إبل الصدقة أطلبه.

فقلت: لقد أذللت الخلفاء بعدك.

فقال: يا أبا الحسن لا تلمني، فوالذي بعث محمداً بالنبوة لو أن عِناقًا ذهبت بشاطئ الفرات لأُخذ بها عمر يوم القيامة.

وعن قتادة قال: كان معيقيب على بيت مال عمر فكسح بيت المال يومًا فوجد فيه درهمًا، فدفعه إلى ابن عمر، قال: معيقيب ثم انصرفت إلى بيتي فإذا رسول عمر قد جاء يدعوني، فجئت فإذا الدرهم في يده فقال: «ويحك يا معيقيب! أوجدت عليّ في نفسك سببًا؟ أو مالي ومالك؟ فقلت: وما ذاك؟

قال: أردت أن تخاصمني أمة محمد ﷺ في هذا الدرهم يوم القيامة[٤].

وهذا عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ حفرت الدموع خطَّين أسودين في وجهه.

فقل لي بربك: كيف تحفر الدموع مجرى في اللحم.

من لم يبتْ والخوفُ حشو فؤاده ... لم يدر كيفَ تُفَتَّتُ الأكبادُ

وكان يمرُّ بالآية من وِرده بالليل فيمرض حتى يعوده الصحابة شهراً.

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٣/ ٢١٧) ورجاله ثقات.
(٢) أخبار عمر (ص ٣٠٧) نقلاً عن ابن الجوزي.
(٣) طبقات ابن سعد (٣/ ٢٠٩) وتاريخ الطبري (٢/ ٥٦٩) بسند صحيح.
(٤) مناقب أمير المؤمنين (عمر بن الخطاب) لابن الجوزي.

وعن أنس بنِ مالك ـ رضى الله عنه ـ قال: سمعتُ عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ يومًا وخرجتُ معه، حتى دخل حائطًا، فسمعتُه يقول ـ وبينى وبينه جدار، وهو فى جوف الحائط ـ: عمرُ بن الخطاب أميرُ المؤمنين! بَخٍ(١)! واللهِ لتتقينّ الله يا ابن الخطاب، أو ليعذبنّك(٢).

صفحات مضيئة من زهده ـ رضى الله عنه ـ

كان ـ رضى الله عنه ـ متواضعًا فى الله، خشن العيش، خشن المطعم، شديدًا فى ذات الله، يرقِّع الثوب بالأدم ـ الجلد ـ ويحمل القِرْبة على كتفيه؛ مع عظيم هيبته، ويركب حمارًا عريًا، والبعير مخطومًا بالليف، وكان قليل الضحك لا يمازح أحدًا، وكان نقش خاتمه: «كفى بالموت واعظًا يا عمر»(٣).

ولما تولى الخلافة، قال: «لا يحلُّ لى من مال الله إلا حُلتان، حُلة للشتاء وحلَّة للصيف، وقوت أهلى كرجل من قريش ليس بأغناهم، ثم أنا رجل من المسلمين!!».

قال ابن الجوزى فى مناقب عمر: قال عبد العزيز بن أبى جميلة: أبطأ عمر ابن الخطاب ـ رضوان الله عليه ـ جمعة بالصلاة فلما خرج صعد المنبر، واعتذر إلى الناس فقال: «إنما حبسنى قميصى هذا لم يكن لى قميص غيره كان يُخاط، أبيض، لا يجاوز كمه رسغ كفيه(٤).

وعن جابر بن عبد الله قال: رأى عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ فى يدى لحمًا معلقًا.

قال: «ما هذا يا جابر؟! قلت: اشتهيت لحمًا فاشتريته.

فقال عمر: كلما اشتهيت اشتريت! أما تخاف هذه الآية: ﴿أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا﴾(٥).

---

(١) اسمُ فعل يُقال عند الرضا بالشىء.

(٢) إسناده صحيح متصل، موقوف على عمر ـ رضى الله عنه ـ أخرجه أحمد فى الزهد، وابن أبى الدنيا فى محاسبة النفس.

(٣) البداية والنهاية للحافظ ابن كثير (٥/ ٢١٤).

(٤) الطبقات لابن سعد (٣/ ٢٥١) وإسناده صحيح.

(٥) أخرجه الإمام مالك فى الموطأ والإمام أحمد فى الزهد (١٥٣) والبيهقى فى الشُعب (٥٢٨٤).

وعن حميد بن هلال أن حفص بن أبى العاص كان يحضر طعام عمر، فكان لا يأكل. فقال له عمر: ما يمنعك من طعامنا؟

قال: إن طعامك جَشِبٌ غليظ، وإنى راجع إلى طعام لين قد صُنع لى فأصيب منه. قال: أترانى أعجزُ أن آمُرَ بشاة فيُلقى عنها شعرها، وآمُر بدقيقٍ فيُنخل فى خرقة ثم يُصبَّ فى خرقة، ثم آمرَ به فيُخبز خبزًا رقاقًا، وآمُر بصاع من زبيب فيُقذف فى سُعُن، ثم يصب عليه من الماء فيصبح كأنه دَمُ غزال؟ فقال: إنى لأراك عالمًا بطيب العيش!

فقال: أجل! والذى نفسى بيده لولا أن تنتقص حسناتى لشاركتكم فى لين عيشكم[1].

وعوتب عمر، فقيل له: لو أكلت طعامًا طيبًا كان أقوى لك على الحق؟ فقال: «إنى تركت صاحبىَّ على جادة، فإن تركت جادتهما، فلن أدركهما فى المنزل».

وكان فى عام الرمادة لا يأكل إلا الخبز والزيت حتى اسودَّ جلده، ويقول: «بئس الوالى أنا إن شبعتُ والناس جياع!!»... لله دَرُّك يا عمر.

عن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال: تقرقر بطن عمر عام الرمادة، فكان يأكل الزيت، وكان قد حرم على نفسه السمن، قال: فنقر عمر بطنه بأصبعه، وقال: تقرقر، إنه ليس عندنا غيره حتى يحيا الناس[2].

وعن معاوية ـ رضى الله عنه ـ قال: أما أبو بكر فلم يُرد الدنيا، ولم تُرده، وأمَّا عمر فأرادته الدنيا، ولم يُردها، أمّا نحن فتمرغنا فيها ظهرًا لبطن[3].

قال طلحة بن عبيد الله: ما كان عمر بن الخطاب بأولنا إسلامًا، ولا أقدمنا هجرة، ولكنه كان أزهدنا فى الدنيا، وأرغبنا فى الآخرة[4].

يا رافعًا راية الشورى وحارسها	جزاك ربك خيرًا عن مُحبِّيها
رأى الجماعة لا تشقى البلاد به	رغم الخلاف ورأى الفرد يشقيها
إن جاع الخليفة فى شدة قوم شركتهم	الجوع أو تنجلى عنهم غواشيها

(١) الطبقات لابن سعد (٣/ ٢١٢) بسند رجاله ثقات.
(٢) أخرجه أحمد فى الزهد (ص ١٥٠).
(٣) سير الخلفاء للإمام الذهبى (ص ٨١).
(٤) أخرجه ابن عساكر (٥٢/ ٢٢٤) فى تاريخه، وابن الأثير فى أسد الغابة (٤/ ١٤٧) بسند حسن.

جُوع الخليفة والدنيا بقبضته ... منزلة فى الزهد سبحان موليها
فمن يبارى أبا حفصٍ وسيرته ... أو من يحاول للفاروق تشبيها
يوم اشتهت زوجه الحلوى فقال ... لها من أين لى بثمن الحلوى فاشريها
ما زاد عن قوتنا فالمسلمون به ... أولى فقومى لبيت المال رُدِّيها
كذاك أخلاقه كانت وما ... عُهدت بعد النبوة أخلاقٌ تحاكيها

صفحات مشرقة من تواضعه ـ رضى الله عنه ـ

وها هو أمير المؤمنين (عمر) ـ رضى الله عنه ـ يضرب للأمة كلها أروع الأمثال فى تواضعه.

قال قتادة: خرج عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ من المسجد ومعه الجارود، فإذا امرأة بِرزَة على الطريق(١)، فسلّم عليها، فردت عليه، أو سلمت عليه، فرد عليها.

فقالت: هيه يا عمر، عهدتك، وأنت تُسمَّى عُميرًا فى سوق عكاظ، تصارع الصبيان، فلم تذهب الأيام حتى سُميت عمر، ثم لم تذهب الأيام حتى سُميت أمير المؤمنين، فاتق الله فى الرعية، واعلم أنه من خاف الموت خشى الفوت، فبكى عمر ـ رضى الله عنه ـ.

فقال الجارود: هيه، لقد تجرأت على أمير المؤمنين، وأبكيتيه.

فقال عمر: دعها، أما تعرف هذه؟

هى (خولة بنت حكيم) التى سمع الله قولها من فوق سبع سموات فعُمَرُ والله أحرى أن يسمع كلامها(٢).

وعن أنس بن مالك قال: سمعت عمر بن الخطاب يومًا، وخرجت معه حتى دخل حائطًا، فسمعته يقول: وبينى وبينه جدار، وهو فى جوف الحائط: عمر بن الخطاب أمير المؤمنين بخٍ، والله، بُنَىّ الخطاب، لتتقين الله، أو ليعذبنَّك(٣).

---

(١) أى جالسة فى الطريق وظاهرة للناس ـ وكانت كبيرة فى السن وقتها ـ

(٢) المصباح (٢/ ٣٧)، وانظر «العقد الفريد» (٢/ ٣٥٨) نقلاً عن مختصر منهاج القاصدين، بتحقيق على حسن عبد الحميد (ص ١٧٠ ـ ١٧١).

(٣) رواه مالك فى الموطأ (٢/ ٩٩٢) فى الكلام، باب ما جاء فى التقى، وقال محقق جامع الأصول: إسناده صحيح.

وخرج عمر فى سواد الليل، فرآه طلحة، فذهب عمر فدخل بيتًا، ثم دخل بيتًا آخر، فلما أصبح طلحة، ذهب إلى ذلك البيت، فإذا بعجوز عمياء مُقعدة فقال: ما بال هذا الرجل يأتيك؟

قالت: إنه يتعاهدنى من كذا وكذا، يأتينى بما يصلحنى، ويُخرج عنى الأذى، فقال طلحة: ثكلتك أمك يا طلحة! أعثرات عمر تتبع؟!!(١)

وقدم على عمر بن الخطاب وفد من العراق فيهم الأحنف بن قيس وفى يوم صائف شديد الحر، وعمر معتجر (متعمِّم) بعباءة يهنأ بعيراً من إبل الصدقة (أى يطليه بالقطران) فقال: يا أحنف، ضع ثيابك وهلمَّ، فأعن أمير المؤمنين على هذا البعير فإنه من إبل الصدقة، فيه حق اليتيم، والأرملة، والمسكين، فقال رجل من القوم: يغفر الله لك يا أمير المؤمنين فهلا تأمر عبداً من عبيد الصدقة فيكفيك؟

فقال عمر: وأى عبد هو أعبد منى، ومن الأحنف؟ إنه من ولى أمر المسلمين يجب عليه لهم ما يجب على العبد لسيده فى النصيحة، وأداء الأمانة(٢).

وها هو الفاروق يدخل بيت المقدس فاتحًا راكبًا برزونا، فجعل يتبختر به، فجعل يضربه بردائه، ثم قال: قبَّح الله مَن علمك هذا! هذا من الخيلاء، ونزل عنه، وقال: ما حملتمونى إلا على شيطان ما نزلت عنه حتى أنكرت نفسى(٣).

وعن محمد بن عمر المخزومى، عن أبيه قال: نادى عمر بن الخطاب: الصلاةُ جامعة. فلمَّا اجتمع الناس وكثروا صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، وصلى على نبيه ﷺ ثم قال: أيها الناس، لقد رأيتُنى أرعى على خالات لى من بنى مخزوم، فيقبضنَ لى القبضة من التمر والزبيب فأظلّ يومى وأىّ يوم.... ثمّ نزل، فقال عبد الرحمن بن عوف: يا أمير المؤمنين، ما زلت على أن قمئْت(٤) نفسك؟! فقال: ويحك يا ابن عوف!! إنى خلوتُ فحدثتنى نفسى، فقالت: أنت أمير المؤمنين؛ فمن ذا أفضل منك؟! فأردتُ أن أعرِّفها نفسها(٥).

---

(١) أخرجه أبو نعيم فى الحلية (١/ ٤٨) وإسناده صحيح.

(٢) أخبار عمر (رضى الله عنه) (ص: ٣٤٣).

(٣) أخرجه الطبرى (٢/ ٤٥٠) وابن شبة فى «تاريخ المدينة» (٣/ ٨٢٢، ٨٢٣).

(٤) قمئْتَ: أى: عِبت.

(٥) طبقات ابن سعد (٣/ ٢٩٣).

وعن الحسن قال: خرج عمر بن الخطاب في يوم حارٍّ واضعًا رداءه على رأسه، فمرّ به غلام على حمار، فقال: يا غلام، احملني معك. فوثب الغلام عن الحمار، وقال: اركب يا أمير المؤمنين. قال: لا، اركب وأركب أنا خلفك. تريد تحملني على المكان الوطئ، وتركبُ أنت على الموضع الخشن!! فركب خلف الغلام، فدخل المدينة، وهو خلفه والناس ينظرون إليه(١).

«وعن أبي محذورة قال: كنت جالسًا عند عمر ـ رضي الله عنه ـ إذ جاء صفوان بن أُمية بجفنة يحملها نفرٌ في عباءة، فوضعوها بين يدي عمر، فدعا عمر ناسًا مساكينَ وأرقَّاء من أرقَّاء الناس حوله، فأكلوا معه، ثم قال عند ذلك: فعَلَ الله بقومٍ ـ أو قال: لحى(٢) الله قومًا ـ يرغبون عن أرقائهم أن يأكلوا معهم!! فقال صفوان: أما والله، ما نرغب عنهم، ولكنَّا نستأثر عليهم، لا نجد ـ واللهِ ـ من الطعام الطيب ما نأكل ونُطعمهم»(٣).

وقال عروة بن الزبير ـ رضي الله عنهما ـ: «رأيت عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ على عاتقه قربة ماء، فقلتُ: يا أمير المؤمنين، لا ينبغي لك هذا. فقال: لَمَّا أتاني الوفود سامعين مطيعين، دخلتْ نفسي نخوةٌ، فأردتُ أن أكسرها»(٤).

قصته مع الهرمزان (قمة في التواضع)

وانظر إلى قصته مع الهرمزان بعد هزيمة الفرس.

أتى وفد المسلمين وفيهم أنس بن مالك والأحنف بن قيس ومعهم الهرمزان ومعهم الخُمس من الغنائم، فدخلوا المدينة، فتيمموا منزل أمير المؤمنين عمر فلم يروا أحدًا فرجعوا، فإذا غلمان يلعبون فسألوهم عنه فقالوا: إنه نائم في المسجد متوسدًا برنسًا له، فرجعوا إلى المسجد فإذا هو متوسد برنسًا له كان قد لبسه للوفد، فلما انصرفوا عنه توسد البرنس ونام وليس في المسجد غيره، والدرة معلقة في يده. فقال الهرمزان: أين عمر؟ فقالوا: هو ذا.

(١) حياة الصحابة (٢/ ٥٥١).
(٢) أي: قبّحهم الله ولعنهم.
(٣) صحيح: رواه البخاري في الأدب المفرد، وصححه الألباني (ص ٩٣).
(٤) مدارج السالكين (٢/ ٣٣٠).

وجعل الناس يخفضون أصواتهم لئلا ينبهوه، وجعل الهرمزان يقول: وأين حُجّابه؟ أين حرسه؟ فقالوا: ليس له حُجّاب ولا حرس، ولا كاتب ولا ديوان. فقال: ينبغى أن يكون نبيًا. فقالوا: بل يعمل عمل الأنبياء(١).

يقول حافظ إبراهيم :

وراعَ صاحبَ كسرى أن رأى عمراً	بين الرعيـــة عطلاً وهـو راعيها
وعهـــده بملوك الفرس أنَّ لهـا	سوراً من الجند والأحراس يحميهـا
رآه مستغرقًا فى نومــــه فرأى	فيـه الجلالة فى أسمى معانيهـا
فوق الثرى تحت ظل الدوح مشتملاً	ببردة كـاد طول العهـد يبليهـا
فهانَ فى عينـه مـا كـان يُكبره	مـن الأكـاسرِ والدنيـا بأيديهـا
وقـال قولة حـق أصبحـت مثلاً	وأصبح الجيل بعـد الجيل يرويها
أمِنتَ لما أقمت العـــدل بينهمُ	فنمـتَ نومَ قرير العيـن هانيهـا

لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة

لقد ضرب فاروق الأمة ـ رضى الله عنه ـ أروع الأمثلة فى اتِّباع النبى ﷺ واقتفاء أثره.

وحسبُنا من كل هذا أن نتأمل تلك الأمثلة التى سطّرها عمر ـ رضى الله عنه ـ على جبين التاريخ بسطور من نور.

عن عاتكة بنت زيد بن عمرو، وهى زوجة عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنهم أجمعين ـ أنها كانت تستأذن عمر بن الخطاب إلى المسجد فيسكت!! وكان عمر يقول لها: والله إنك لتعلمين أنى ما أحب هذا، وكان عمر رجلاً غيوراً.

فتقول: والله لأخرجن إلا أن تمنعنى... فلا يمنعها(٢).

ولقد طُعن عمر، وإنها لفى المسجد.

وفى رواية: كانت تشهد صلاة الصبح، والعشاء فى الجماعة فى المسجد، فقيل لها: لِمَ تخرجين، وقد تعلمين أنه يكره ذلك، ويغار؟

(١) البداية والنهاية (٤/ ٨٩).

(٢) أخرجه مالك فى الموطأ (١/ ١٩٨) فى القبلة باب ما جاء فى خروج النساء إلى المساجد.

قالت: فما يمنعه أن ينهانى؟!!

قالوا: يمنعه قول رسول الله ﷺ: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله»(١).

انظر.. على الرغم من أن غيرة عمر على أهله شديدة..هذه الغيرة التى كانت لا تخفى على رسول الله ﷺ إذ يقول: «بينا أنا نائم رأيتنى فى الجنة، فإذا امرأة تتوضأ إلى جانب قصر، فقلت: لمن هذا القصر؟

قالوا: لعمر، فذكرت غيرته فوليت مدبراً»!!!(٢)

فعلى الرغم من هذه الغيرة الشديدة، إلا أنه أبى أن يخالف أمر رسول الله ﷺ... ولِمَ لا؟! فما كان لفاروق الأمة الأواب الذى تربى على مائدة القرآن، وتتلمذ على يد سيد الأنام ، أن يخالف أمر حبيبه ، وقدوته ، ومثله الأعلى ﷺ(٣).

وعن زيد بن أسلم أن عمر بن الخطاب فضَّل المهاجرين الأولين وأعطى أبناءهم دون ذلك وفضَّل أسامة بن زيد على عبد الله بن عمر، فقال عبد الله ابن عمر: فقال لى رجل: فضَّل عليك أمير المؤمنين مَن ليس بأقدم منك سنًا ولا أفضل منك هجرة ولا شهد من المشاهد ما لم تشهد.

فقال عبد الله: وكلمته، فقلت: يا أمير المؤمنين فضَّلت علىَّ من ليس هو بأقدم منى سنًا ولا أفضل منى هجرة ولا شهد من المشاهد ما لم أشهد؟ قال: ومَن هو؟ قلت: أسامة بن زيد. قال: صدقت لعمر الله! فعلت ذلك لأن زيد ابن حارثة كان أحب إلى رسول الله ﷺ من عمر، وأسامة بن زيد كان أحب إلى رسول الله ﷺ من عبد الله بن عمر فلذلك فعلت(٤).

وعن حارثة بن مضرب: أنه حج مع عمر بن الخطاب، فأتاه أشراف أهل الشام، فقالوا: يا أمير المؤمنين إنا أصبنا من أموالنا رقيقًا ودوابَّ، فخذ من أموالنا صدقة تطهرنا بها، وتكون لنا زكاة، فقال: هذا شىء لم يفعله صاحباى قبلى، ولكن انتظروا حتى أسأل المسلمين(٥).

---

(١) أخرجه البخارى (٩٠٠) فى الجمعة.
(٢) رواه البخارى رقم (٣٦٨٠) فى فضائل أصحاب النبى ﷺ، باب مناقب عمر بن الخطاب رضى الله عنه.
(٣) أئمة الهدى ومصابيح الدجى/ للشيخ محمد حسان وعوض الجزار (ص ٣٤٠).
(٤) صحيح لغيره: رواه ابن سعد فى الطبقات (٤/ ٥٢).
(٥) أخرجه الإمام أحمد فى المسند رقم (٨٢، ٢١٨) وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح.

وعن عابس بن ربيعة عن عمر ـ رضى الله عنه ـ: أنه جاء إلى الحجر الأسود فقبَّله فقال: إنى أعلم أنك حجرٌ لا تضر، ولا تنفع، ولولا أنى رأيت النبى ﷺ يقبلُك ما قبَّلتُك[١]. إنه الاتباع فى أجلِّ صورِه، وأسمى معانيه.

قال الحافظ فى الفتح: قال الطبرى: إنما قال ذلك عمر لأن الناس كانوا حديثى عهد بعبادة الأصنام، فخشى أن يظن الجهال أن استلام الحجر من باب تعظيم بعض الأحجار، كما كانت العرب تفعل فى الجاهلية فأراد عمر أن يعلم الناس أن استلامه اتباع لفعل النبى ﷺ.

ثم قال الحافظ رحمه الله: وفى قول عمر هذا التسليم للشارع فى أمور الدين، وحُسن الاتباع، فيما لم يكشف عن معانيها، وهو قاعدة عظيمة فى اتباع النبى ﷺ فيما يفعله ولو لم يعلم الحكمة فيه. اهـ[٢].

وعن السائب بن يزيد قال: كنت قائمًا فى المسجد فحصبنى[٣] رجل فنظرت، فإذا عمر بن الخطاب فقال: اذهب فأتنى بهذين، فجئته بهما. قال: من أنتما؟ أو من أين أنتما؟ قالا: من أهل الطائف.

قال: لو كنتما من أهل البلد لأوجعتكما، ترفعان أصواتكما فى مسجد رسول الله ﷺ؟![٤]

وهذه نصيحته ـ رضى الله عنه ـ لعموم الأمة يقول: إياكم، وأصحاب الرأى، فإنهم أعداء السنن، أعيتهم الأحاديث أن يحفظوها فقالوا بالرأى فضلوا وأضلوا[٥].

* * *

(١) رواه البخارى رقم (١٥٩٧) فى الحج، باب ما ذكر فى الحجر الأسود.

(٢) فتح البارى (٣/ ٥٩٠، ٥٩١).

(٣) أى رمانى بالحصباء.

(٤) رواه البخارى رقم (٤٧٠) فى كتاب الصلاة، باب: رفع الصوت.

(٥) رواه أحمد فى المسند (٢١٣) وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح ـ ورواه البخارى (٤٢٣٥) المغازى ـ باب غزوة خيبر.

الفاروق ـ رضى الله عنه ـ وكرامات الأولياء

إن الكرامات من الأشياء الثابتة التى امتن الله بها على أوليائه الصالحين الذين وصفهم الله فى كتابه بقوله: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [يونس:٦٢ ـ ٦٤].

ولقد امتن الله على فاروق الأمة ـ رضى الله عنه ـ بباقة عطرة من الكرامات سنكتفى بذكر بعضها.

يا سارية الجبل

عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ أن عمر وجَّه جيشًا ورأس عليه رجلاً يُقال له سارية. قال: فبينما عمر يخطب فجعل ينادي: يا سارية الجبل، يا سارية الجبل، ثلاثًا، ثم قدم رسول الجيش، فسأله عمر، فقال: يا أمير المؤمنين هُزِمنا، فبينما نحن كذلك إذ سمعنا مناديًا: يا سارية الجبل ثلاثًا، فأسندنا ظهورنا بالجبل فهزمهم الله، قال: فقيل لعمر: إنك كنت تصيح بذلك[1].

قال الشيخ الألبانى ـ رحمة الله عليه ـ: فالقصة صحيحة ثابتة، وهى كرامة أكرم الله بها عمر، حيث أنقذ به جيش المسلمين من الأسر أو الفتك به، ولكن ليس فيها ما زعمه المتصوفة من الاطلاع على الغيب، وإنما هو من باب الإلهام (فى عُرف الشرع) أو (التخاطر) فى عرف العصر الحاضر الذى ليس معصومًا، فقد يصيب كما فى هذه الحادثة، وقد يخطئ كما هو الغالب على البشر[2].

❊ ❊ ❊

(١) رواه البيهقى فى الدلائل، وابن عساكر، وذكره ابن كثير فى البداية (٧/ ١٣٥)، وقال: وهذا إسناد جيد حسن، ووافقه الألبانى، وقال: وهو كما قال: انظر الصحيحة رقم (١١١٠).

(٢) السلسلة الصحيحة للشيخ الألبانى (١١١٠).

من عمر بن الخطاب إلى نيل مصر

عن قيس بن الحجاج عمن حدثه قال: لما افتُتحت مصر أتى أهلها عمرو ابن العاص ـ حين دخل بؤنة من أشهر العجم ـ فقالوا: أيها الأمير، لنيلنا هذا سُنة لا يجرى إلا بها. قال: وما ذاك؟ قالوا: إذا كانت اثنتى عشرة ليلة خلت من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بكر من أبويها، فأرضينا أبويها وجعلنا عليها من الحُلى والثياب أفضل ما يكون، ثم ألقيناها فى هذا النيل. فقال لهم عمرو: إن هذا مما لا يكون فى الإسلام، إن الإسلام يهدم ما قبله. قال: فأقاموا بؤنة وأبيب ومسرى (والنيل) لا يجرى قليلاً ولا كثيراً، حتى همّوا بالجلاء، فكتب عمرو إلى عمر بن الخطاب بذلك، فكتب إليه: إنك قد أصبت بالذى فعلت، وإنى قد بعثت إليك ببطاقة داخل كتابى، فألقها فى النيل. فلما قدم كتابه أخذ عمرو البطاقة فإذا فيها:

«من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل أهل مصر. أما بعد، فإن كنت إنما تجرى من قبلك ومن أمرك فلا تجر فلا حاجة لنا فيك، وإن كنت إنما تجرى بأمر الله الواحد القهار، وهو الذى يجريك فنسأل الله تعالى أن يجريك» قال: فألقى البطاقة فى النيل فأصبحوا يوم السبت وقد أجرى الله النيل ستة عشر ذراعًا فى ليلة واحدة وقطع الله السُنة السيئة عن أهل مصر إلى اليوم[1].

عن معاوية بن قرّة، أن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ لقى ناسًا من أهل اليمن فقال: من أنتم؟ قالوا: نحن المتوكلون. قال: بل أنتم المُتَّكِلُونَ، إنما المتوكل من يُلقى حبَّهُ فى الأرض ويتوكّل على الله عز وجل[2].

وعن المعرور بن سويد، عن عمر ـ رضى الله عنه ـ أنه قال: يا معشر القُرَّاء، ارفعوا رؤوسكم، ما أوضح الطريق، فاستبقوا الخيرات، ولا تكونوا كَلاً على المسلمين[3].

* * *

(١) البداية والنهاية للحافظ ابن كثير (٧/ ١٠٢ ـ ١٠٣).

(٢) التوكل لابن أبى الدنيا (ص ٤٨) وإسناده صحيح. انظر تحقيق الدوسرى.

(٣) إسناده حسن. ثلاث شعب من الجامع لشعب الإيمان (٢/ ١٣٦).

خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين

لعلنا فى كل يوم نرى مشاهدًا من التشاحن والبغضاء بين المسلمين ولا نرى من يعفو أو يُسامح إلا فى القليل النادر.. والسبب فى ذلك ضعف الإيمان وعدم الوقوف عند كتاب الله ـ عز وجل ـ الذى يأمرنا بالعفو والمسامحة والإعراض عن الجاهلين.

وها هو فاروق الأمة ـ رضى الله عنه ـ مع قدرته على أن يثأر لنفسه ـ فهو أمير المؤمنين ـ وعلى الرغم من ذلك فإنه ما إن سمع آية من كتاب الله حتى أذعن لقول الله ـ عز وجل ـ.

فعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال: قدم عيينة بن حصن بن حذيفة فنزل على ابن أخيه الحرِّ بن قيس، وكان من النَّفر الذين يُدنيهم عمر، وكان القراء أصحاب مجالس عمر، ومشاورته كهولاً كانوا، أو شبابًا.

فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخى لك وجه عند هذا الأمير فاستأذن لى عليه، قال: فاسأستأذن لك عليه.

قال ابن عباس: فاستأذن الحرُّ لعيينة فأذن له عمر، فلما دخل عليه قال: هى يا ابن الخطاب فوالله ما تُعطينا الجزل، ولا تحكم بيننا بالعدل فغضب عمر حتى همَّ به، فقال له الحرَّ: يا أمير المؤمنين إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾ وإن هذا من الجاهلين، والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقّافًا عند كتاب الله(١).

صاحب القلب الرحيم برعيته ـ رضى الله عنه ـ

وها هى صور مشرقة من رحمة الفاروق ـ رضى الله عنه ـ وشفقته برعيته التى عاشت فى ظل خلافته الراشدة.

عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: خرجت مع عمر بن الخطاب ـ رحمه الله ـ إلىّ حرّة واقم حتى إذا كنا بصرار، إذا نار تؤرث، فقال: يا أسلم، إنى أرى هؤلاء ركبًا قصرَّ بهم الليل والبرد، انطلق بنا، فخرجنا نهرول حتى دنونا منهم، فإذا امرأة معها صبيان لها، وقدْر منصوبة على النار، وصبيانها يتضاغون فقال عمر: السلام عليكم يا أصحابَ

(١) رواه البخارى رقم (٤٦٤٢) فى التفسير باب «خذ العفو، وأمر بالعرف، وأعرض عن الجاهلين».

الضوء ـ وكره أن يقول: يا أصحاب النار ـ قالت: وعليك السلام.

قال: أأدنو؟ قالت: أدنُ بخير أو دَعْ، فدنا فقال: ما بالُكم؟ قالت: قصّر بنا الليل والبرد، قال: فما بال هؤلاء الصبية يتضاغون؟ قالت: الجوع.

قال: وأى شىء فى هذا القدْر؟ قالت: ماء أسكّتهم به حتى يناموا، الله بيننا وبين عمر! قال: أى رحمك الله، ما يُدرى عمر بكم؟! قالت: يتولى أمرنا، ويغفل عنّا!... فأقبل علىّ فقال: انطلق بنا، فخرجنا نهرول حتى أتينا دار الدقيق، فأخرج عدلاً فيه كُبّة شحم فقال: احمله علىّ! فقلت: أنا أحمله عنك، قال: احمله علىَّ، مرتين أَو ثلاثًا، كل ذلك أقول: أنا أحمله عنك، فقال لى فى آخر ذلك: أنت تحمل عنى وزرى يوم القيامة؟! لا أُمَّ لك، فحمّلته عليه، فانطلق، وانطلقت معه نهرول، حتى انتهينا إليها، فألقى ذلك عندها، وأخرج من الدقيق شيئًا، فجعل يقول لها: ذُرّى علىّ، وأنا أحرِّك لك، وجعل ينفخ تحت القدر ـ وكان ذا لحية عظيمة ـ فجعلتُ أنظر إلى الدخان من خَلَل لحيته حتى أنضج وأدَمَ القدرُ، ثم أنزلها، وقال: ابغنى شيئًا فأتته بصحفة فأفرغها فيها، ثم جعل يقول: أطعميهم، وأنا أسطِّح لك، فلم يزل حتى شبعوا، ثم خلّى عندها فضل ذلك، وقام وقمت معه، فجعلت تقول: جزاك الله خيراً، أنت أولى بهذا الأمر من أمير المؤمنين! فيقول: قولى خيراً، إنك إذا جئت أمير المؤمنين، وجدتنى هناك إن شاء الله.

ثم تنحى ناحية عنها، ثم استقبلها وربَض مربض السبعُ، فجعلت أقول له: إن لك شأنًا غير هذا، وهو لا يكلمنى حتى رأيت الصبية يصطرعون ويضحكون، ثم ناموا، وهدؤوا، فقام، وهو يحمد الله. ثم أقبل علىّ فقال: يا أسلم إن الجوع أسهرهم وأبكاهم، فأحببت ألا أنصرف حتى أرى ما رأيت منهم[1].

وعن ابن عمر قال: قَدِمَتْ رفقةٌ من التجار فنزلوا المُصلىَّ فقال عمر لعبد الرحمن بن عوف: هل لك أن نحرسهم الليلة من السَّرق؟ فباتا يحرسانهم، ويصليان ما كتب الله لهما، فسمع عمر بكاء صبىّ فتوجه نحوه فقال لأمه: اتقى الله، وأحسنى إلى صبيك، ثم عاد إلى مكانه، فسمع بكاءه فعاد إلى أمه فقال لها مثل ذلك، ثم عاد إلى مكانه، فلما كان آخر الليل سمع بكاءه فأتى أمه فقال: ويحك: إنى لأراك أمّ سَوْءٍ، مالى أرى ابنك لا يَقرّ منذ الليلة؟

---

(١) تاريخ الطبرى (٥٦٨/ ٢) بسند رجاله رجال الصحيح، وأخرجه عبد الله بن الإمام أحمد (٣٨٢) فى الفضائل.

قالت: يا عبد الله قد أبرمتني منذ الليلة، إني أُريغهُ عن الفطام فأبى؟ قال: ولِمَ؟

قالت: لأن عمر لا يفرض إلا للفُطُم، قال: وكم له؟ قالت: كذا وكذا شهرًا، قال: ويحك لا تعجليه!

فصلى الفجر، وما يستبين الناس قراءته من غلبة البكاء، فلما سلّم قال: يا بؤسًا لعمر، كم قتل من أولاد المسلمين؟! ثم أمر مناديًا فنادى: ألا لا تعجلوا صبيانكم عن الفطام، فإنا نفرض لكل مولود في الإسلام، وكتب بذلك إلى الآفاق، أن يُفرض لكل مولود في الإسلام[1].

وعن أبي عثمان قال: استعمل عمر ـ رضي الله عنه ـ رجلاً من بني أسد على عمل، فدخل ليسلم عليه فأُتي عمر ببعض ولده فقبله، فقال الأسدي: أتُقبِّل هذا يا أمير المؤمنين؟ فوالله ما قبَّلت ولدًا لي قط!!

فقال عمر: فأنت والله بأولاد الناس أقل رحمة، لا تعمل لي عملاً أبدًا، فردَّ عهده أو قال: فما ذنبي إن كان الله عز وجل نزع الرحمة من قلبك، وإنما يرحم الله من عباده الرُحماء، ثم قال: مزّق الكتاب، فإنه إذا لم يرحم أولاده، فكيف يرحم الرعية[2].

وعن قسامة بن زهير قال: وقف أعرابي على عمر بن الخطاب فقال:

يا عُمَرَ الخير جُزِيتَ الجَنَّة ... جَهِّز بُنَيَّاتي واكسُهنه

أقسمُ بالله لتفعلنَّهْ

قال: فإن لم أفعل يكون ماذا يا أعرابي؟

قال: أقسم بالله لأمضينَّه.

قال: فإن مضيت يكون ماذا يا أعرابي؟

والله عن حالي لَتُسْألَنَّهْ ... ثمَّ تكونُ المسألات عنَّهْ

والواقفُ المسئول بينَهُنَّه ... إمَّا إلى نارٍ وإمَّا جَنَّهْ

قال: فبكى عمر حتى أخضلت لحيته بدموعه، ثم قال: يا غلام، أعطه قميصي هذا،

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٣/ ٢٢٨، ٢٢٩) ورجاله ثقات.

(٢) أخرجه عبد الرزاق (٢٠٥٩٠) والبخاري في الأدب (٩٩)، وحسَّن إسناده الشيخ الألباني في صحيح الأدب المفرد (٧٢).

لذلك اليوم لا لشعره، والله ما أملك قميصًا غيره![1]

وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال: قَدِم علينا عمر بن الخطاب ـ رضوان الله عليه ـ حاجًا فصنع له صفوان بن أمية طعامًا قال: فجاؤوا بجفنة يحملها أربعة، فوضعت بين القوم فأخذ القوم يأكلون، وقام الخُدّام فقال عمر: مالى أرى خُدامكم لا يأكلون معكم، أترغبون عنهم؟ فقال: سفيان بن عبد الله: لا والله يا أمير المؤمنين، ولكننا نستأثر عليهم، فغضب غضبًا شديدًا، ثم قال: ما لقوم يستأثرون على خُدَّامهم؟ فعل الله بهم وفعل، ثم قال: للخُدّام اجلسوا، فكلوا، فقعد الخدام يأكلون، ولم يأكل أمير المؤمنين[2].

محبته وحرصه على رعيته جلب الخير للأمة كلها

وها هو عمر ـ رضى الله عنه ـ تراه يحرص كل الحرص على رعيته. يخشى عليهم من المعاصى ويخشى أن يكون بينهم جائع أو مريض يحتاج إلى من يعينه.. فكان ـ رضى الله عنه ـ بمثابة طوق النجاة لرعيته.. وذلك لأنه يراقب ربه فى الليل والنهار ولا يأمر رعيته إلا بطاعة الله ـ جل وعلا ـ.

عن أسلم قال: بينما أنا مع عمر بن الخطاب، وهو يعس بالمدينة إذ عيى فاتكأ على جانب جدار فى جوف الليل، وإذا امرأة تقول لابنتها: يا بنتاه قومى إلى ذلك اللبن فامذقيه بالماء ـ أى امزجيه بالماء ـ.

قالت لها: يا أمتاه أوَ ما علمت بما كان من عزمة أمير المؤمنين؟

قالت: وما كان من عزمته يا بنية؟!

قالت: إنه أمر مناديه فنادى لا يُشاب اللبن بالماء.

فقالت لها: يا بنية قومى إلى اللبن فامذقيه بالماء، فإننا بموضع لا يراك عمر، ولا منادى عمر.

فقالت الصبيَّة لأمها: يا أمتاه، والله ما كنت لأطيعه فى الملأ، وأعصيه فى الخلاء، وعمر يسمع ذلك كله، فقال: يا أسلم علّم الباب، واعرف الموضع، ثم مضى فى عسسه،

---

(١) أخرجه ابن الأثير فى أسد الغابة (٤/ ١٥٥) بسند صحيح، والخبر فى مناقب عمر لابن الجوزى وغيره.
(٢) أخرجه البخارى فى «الأدب المفرد» (٢٠١)، وقال الألبانى فى صحيح الأدب (١٤٨): صحيح الإسناد.

فلما أصبح قال: يا أسلم امض إلى الموضع، فانظر مَن القائلة، ومن المقول لها، وهل لهما من بعل؟ - أي زوج -.

فأتيت الموضع فنظرت فإذا الجارية أيِّم لا بعل لها، وإذا تيك أمها ليس لها بعل، فأتيت عمر فأخبرته، فدعا عمر ولده، فجمعهم فقال: هل فيكم من يحتاج امرأة فأزوجه؟ لو كان بأبيكم حركة إلى النساء ما سبقه منكم أحد إلى هذه الجارية، فقال عبد الله: لي زوجة، وقال عبد الرحمن: لي زوجة، وقال عاصم: يا أبتاه لا زوجة لي، فزوجني، فبعث إلى الجارية فزوجها من عاصم، فولدت له بنت، فولدت البنت عمر بن عبد العزيز رحمه الله[1].

وعن سعيد بن جبير بسند رجاله ثقات: كان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - إذا أمسى أخذ دِرتَه، ثم طاف بالمدينة، فإذا رأى شيئًا يُنكره أنكره، فبينما هو ذات ليلةٍ يَعُسّ إذ مرّ بامرأةٍ على سطحٍ وهي تقول:

تطاول هذا الليل واخضلَّ جانبه	وأرَّقني ألا خليلَ أُلاعبُهْ
فوالله لولا الله لا ربَّ غيرُه	لحُرِّكَ من هذا السرير جوانبه
مخافةُ ربي والحياءُ يصدُّني	وأُكرم بعلي أن تُنال مراكبُه

ثم تنفست الصعداء، وقالت: لهان على عمر بن الخطاب ما لقيت الليلة، فضرب باب الدار، فقالت: من هذا الذي يأتي إلى امرأةٍ مُغْيبةٍ (غاب زوجها) هذه الساعة؟!

فقال: افتحي، فأبت، فلما أكثر عليها قالت: أمَا والله لو بلغ أمير المؤمنين لعاقبك، فلما رأى عفافها، قال: افتحي فأنا أمير المؤمنين.

قالت: كذبت ما أنت أمير المؤمنين، فرفع بها صوته، وجهر لها، فعرفت أنه هو، ففتحت له فقال: هيه كيف قلت؟ فأعادت عليه ما قالت.

فقال: أين زوجك؟

قالت: في بَعْث كذا، وكذا، فبعث إلى عامل ذلك الجند أن سرِّح فلان ابن فلان، فلما قدم عليه، قال: اذهب إلى أهلك - زوجتك -.

ثم دخل على حفصة ابنته فقال: أي بُنيَّه كم تصبر المرأة عن زوجها؟

---

(١) أخرجه ابن حبان في العقلاء (ص ٥٤) بسندٍ حسن.

قالت: شهراً واثنين، وثلاثة، وفى الرابع يَنفُدُ الصبر، فجعل ذلك أجلاً للبعث(١).

فتأمل معى أخى الكريم: كيف أن حرصه ـ رضى الله عنه ـ على رعيته ومراقبته لهم كان السبب فى كل خير عاشته الأمة المسلمة فى عهده، بل لقد كان ـ رضى الله عنه ـ يُعلِّم الأمة أن الكون كلهَ قد سخَّره الله لعباده المؤمنين فإن زاغوا وابتعدوا عن طاعة الله فإن الكون كله يتأذى بمعصيتهم وينقلب نقمة عليهم.

فعن صفية بنت أبى عبيد قالت: تزلزلت الأرض على عهد عمر حتى اصطفقت السُّرُرُ، فخطب عمر الناس فقال: أحدثتم، لقد عجلتم، لئن عادت لأخرجنّ من بين ظهرانيكم ولا أساكنكم فيها أبداً»(٢).

حرصه على العدل ـ رضى الله عنه ـ ونصائحه للولاة

كان الفاروق ـ رضى الله عنه ـ حريصًا على العدل غاية الحرص، ولذا كان ينتقى (الولاة) انتقاءً فكان لا يعطى الولاية لمن يحرص عليها، بل كان يعطيها لأهل الزهد والعفاف والتقوى، وكان يحرص على أن يتابعهم ويوصيهم بالناس خيراً.

عن ابن خزيمة بن ثابت الأنصارى قال: كان عمر إذا استعمل عاملاً كتب له عهداً، وأشهَد عليه رهطًا من المهاجرين والأنصار، واشترط عليه ألا يركب برذونًا، ولا يأكل نقيًا، ولا يلبس رقيقًا، ولا يتخذ بابًا دون حاجات الناس(٣).

وبينما عمر بن الخطاب يتصفح الناس يسألهم عن أخبار أمرائهم، إذ مرَّ بأهل حمص، فقال: كيف أنتم؟ وكيف أميركم؟ قالوا: خير أمير يا أمير المؤمنين، إلا أنه قد بنى عُلِّيَّة يكون فيها.

فكتب كتابًا، وأرسل بريداً، وأمره إذا جئت باب عُلِّيَّته فاجمع حطبًا وأحرق الباب.

فلما قدم جمع حطبًا، وأحرق باب العُلية، فدخل عليه الناس، وذكروا أن هاهنا رجلاً يحرق باب عليتك!

فقال: دعوه فإنه رسول أمير المؤمنين، ثم دخل عليه فناوله الكتاب، فلم يضع الكتاب

(١) أخرجه عبد الرزاق، والبيهقى (٢٩١٩)، والخبر فى الطبقات الكبرى لابن سعد، روضة المحبين لابن القيم (٢٥٢ ـ ٢٥٣) ط. ابن كثير. سوريا.
(٢) رواه ابن أبى شيبة (٢/ ٤٧٣) والبيهقى (٣/ ٣٤٢) وإسناده صحيح.
(٣) تاريخ الطبرى (٢/ ٥٦٩) بسند صحيح.

من يده حتى ركب، فلما رآه عمر قال: احبسوه عنى فى الشمس ثلاثة أيام، فحُبس عنه ثلاثًا، حتى إذا كان بعد ثلاث، قال: يا ابن قرط! الحقنى إلى الحرَّة (وفيها إبل الصدقة، وغنمها) حتى إذا جاء الحرَّة ألقى عليه جبة، وقال: انزع ثيابك واتزر بهذه، ثم ناوله الدلو فقال: اسق هذه الإبل، فلم يفرغ حتى لَغَب (أى تعب).

فقال: يا ابن قرط! متى كان عهدك بهذا؟ - أى بالإمارة -.

قال: مليًا (أى زمانًا) يا أمير المؤمنين.

قال: فلهذا بنيت العُلِّيَّة، وأشرفت بها على المسلمين، والأرملة واليتيم... ارجع إلى عملك ولا تعد(١).

وعن زيد بن وهب قال: خرج عمر - رضى الله عنه - ويداه فى أذنيه وهو يقول: يا لبيكاه! يا لبيكاه! قال الناس: ماله؟!!

قال: جاءه بريدٌ من بعض أمراءه، أن نهرًا حال بينهم، وبين العبور، ولم يجدوا سُفنًا فقال أميرهم: اطلبوا لنا رجلاً، يعلم غور الماء فأُتى بشيخ، فقال: إنى أخاف البرد، (وذلك فى البرد)، فأكرهه، فأدخله، فلم يلبثه البرد، فجعل ينادي: يا عمراه.. يا عمراه.. فغرق.

فكتب إليه فأقبل فمكث أيامًا معرضًا عنه، وكان إذا وَجَد على أحدٍ منهم فعل به ذلك، ثم قال: ما فعل الرجل الذى قتلته؟!

قال: يا أمير المؤمنين، ما تعمدت قتله، لم نجد شيئًا نعبر فيه وأردنا أن نعلم غور الماء، ففتحنا كذا، وكذا، وأصبنا كذا، وكذا (أى من الغنيمة).

فقال عمر: لَرَجلٌ مسلم أحب إلىّ من كل شىء جئت به، لولا أن تكون سنّةً!! لضربت عنقك، اذهب فاعط أهله ديته، واخرج فلا أراك(٢).

وعن المغيرة بن حكيم الصنعانى عن أبيه قال:أن امرأة بصنعاء غاب عنها زوجها، وترك فى حجرها ابنًا له من غيرها غلامًا يقال له أصيل، فاتخذت المرأة بعد زوجها خليلاً فقالت له:إن هذا الغلام يفضحنا فاقتله فأبى، فامتنعت منه، فطاوعها، فاجتمع على قتل الغلام الرجل، ورجل آخر، والمرأة، وخادمها فقتلوه، ثم قطعوه أعضاء، وجعلوه فى عيبة

(١) الرياض النضرة (٢/ ٥٥).
(٢) أخرجه البيهقى (٨/ ٣٢٢ - ٣٢٣) وإسناده صحيح.

(هى وعاء من أدم) فطرحوه فى ركية (هى البئر التى لم تُطو) فى ناحية القرية ليس فيها ماء، فأُخذَ خليلها، فاعترف ثم اعترف الباقون فكتب يعلى - وهو يومئذ أمير - بشأنهم إلى عمر فكتب إليه عمر بقتلهم جميعًا، وقال: والله لو أن أهل صنعاء اشتركوا فى قتله لقتلتهم أجمعين»[1].

ما أجمل الوفاء

كان الفاروق - رضى الله عنه - لا ينسى أبدًا كل من قدَّم للإسلام شيئًا ولو كان صغيرًا... ويا له من وفاء نحتاج إليه فى هذا الزمان الذى انعدم فيه الوفاء عند أكثر الناس - إلا من رحم الله -.

وها هو مشهد عظيم للوفاء. عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: خرجت مع عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - إلى السوق، فلحقت عمر امرأةٌ شابة فقالت: يا أمير المؤمنين، هلك زوجى، وترك صبية صغارًا، والله ما ينضجون كُراعًا[2]، ولا لهم زرع، ولا ضرع، وخشيت أن تأكلهم الضبُع[3]، وأنا بنت خُفاف بن إيماء الغفارى، وقد شهد أبى الحديبية مع رسول الله ﷺ فوقف معها عمر، ولم يمض، ثم قال: مرحبًا بنسب قريب، ثم انصرف إلى بعير ظهير كان مربوطًا فى الدار فحمل عليه غرارتين، ملأهما طعامًا، وحمل بينهما نفقةً، وثيابًا، ثم ناولها بخطامه، ثم قال: اقتاديه، فلن يفنى حتى يأتيكم الله بخير.

فقال رجل: يا أمير المؤمنين أكثرت لها.

قال عمر: ثكلتك أمك، والله إنى لأرى أبا هذه، وأخاها قد حاصرا حصنًا زمانًا فافتتحاه، ثم أصبحنا نستفيء سهماننا فيه[4].

***

(١) رواه البخارى رقم (٦٨٩٦) فى الديات مختصرًا، وانظر الفتح (١٢/ ٢٨١).

(٢) هو ما دون كعب الشاة، قال الخطابى: معناه أنهم لا يكفون أنفسهم معالجة ما يأكلونه.

(٣) أى السنة المجدبة، ومعنى تأكلهم: أن تهلكهم (فتح البارى ٧/ ٥٦٦).

(٤) رواه البخارى رقم (٤١٦٠، ٤١٦١) فى المغازى، باب غزوة الحديبية.

أمنية عُمَرية

إلى أصحاب الأماني الدنيوية الزائلة.

أهدي إليكم جميعًا تلك الأمنية العُمَرية.

عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أنه قال لأصحابه: تمنّوا.

فقال بعضهم: أتمنى لو أن هذه الدار مملوءة ذهبًا أُنفقه في سبيل الله وأتصدق.

وقال رجل: أتمنى لو أنها مملوءة زبرجدًا وجوهرًا فأنفقه في سبيل الله، وأتصدق.

ثم قال عمر: تمنوا.

فقالوا: ما ندري يا أمير المؤمنين.

فقال عمر: أتمنى لو أنها مملوءة رجالاً مثل أبي عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل، وسالم مولى أبي حذيفة، وحذيفة بن اليمان(١).

نفرُّ من قدر الله إلى قدر الله

بكل يقين وثقة قال فاروق الأمة تلك الكلمات لأبي عبيدة بن الجراح في قصة طاعون عمواس.

فعن عبد الله بن عباس: أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ خرج إلى الشام، حتى إذا كان بسرْغ(٢) لقيه أمراء الأجناد ـ أبو عبيدة بن الجراح، وأصحابه ـ فأخبروه أن الوباء قد وقع بأرض الشام.

قال ابن عباس: فقال عمر: ادعُ لي المهاجرين الأولين، فدعاهم، فاستشارهم، وأخبرهم أن الوباء قد وقع بأرض الشام، فاختلفوا: فقال بعضهم قد خرجنا لأمر، ولا نرى أن تقدمهم على هذا الوباء. فقال: ارتفعوا عني، ثم قال: ادعوا لي الأنصار فدعوهم، فاستشارهم، فسلكوا سبيل المهاجرين، واختلفوا كاختلافهم فقال: ارتفعوا عني، ثم قال: ادعُ لي مَن كان ها هنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح، فدعوتهم فلم يختلف منهم عليه رجلان، فقالوا: نرى أن ترجع بالناس، ولا تقدمهم على هذا الوباء.

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٣/ ٢٢٦)، وصححه، ووافقه الذهبي.

(٢) سرغ: مدينة افتتحها أبو عبيدة، وهي اليرموك والجابية متصلات، وبينها وبين المدينة ثلاث عشرة مرحلة.

فنادى عمر فى الناس: إنى مُصَبِّحٌ على ظهر، فأصبحوا عليه. فقال أبو عبيدة ابن الجراح: أفرارًا من قدر الله؟ فقال عمر: لو غيرُكَ قالها يا أبا عبيدة.

نعم نفرٌ من قدر الله إلى قدر الله[١]. أرأيت إن كانت لك إبلٌ هبطت واديًا له عُدوتان[٢]: إحداهما خصيبة، والأخرى جَدْبة! أليس إن رعيت الخصيبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله؟

قال: فجاء عبد الرحمن بن عوف ـ وكان متغيبًا فى بعض حاجته ـ فقال: إن عندى فى هذا علمًا، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض، وأنتم بها فلا تخرجوا فرارًا منه».

قال: فحمد اللهَ عمرُ ثم انصرف[٣].

شبهة حول عزل خالد بن الوليد ـ رضى الله عنه ـ والردّ عليها

إن من أسخف الظنون أن يُظَنَّ أن فاروق الأمة العادل الأواب قد عزل خالد بن الوليد ـ رضى الله عنه ـ لضغينة فى نفس عمر أو لبغضاء قديمة كانت بينه وبين خالد إلى آخر هذه الدعاوى الباطلة، والأخبار المكذوبة المبثوثة فى كتب التاريخ.

فوالله إنى لأُبرئُ منها آحاد المؤمنين الصادقين، فكيف بالفاروق القوى الأمين المُزكَّى من رب العالمين، وسيد المرسلين ﷺ.

والعجيب أن الفاروق نفسه ـ رضى الله عنه ـ قد بيَّن سبب عزله لخالد بجلاء ووضوح، فقال: «إنى لم أعزل خالدًا عن سخطة ولا خيانة ولكن الناس فُتنوا به فخفت أن يوكلوا إليه، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع، وأن لا يكونوا بعرض فتنة»[٤].

وما أجمل وأعذب كلماته التى ودَّع بها عُمر بن الخطاب خالد بن الوليد يوم موته: رحم الله أبا سليمان.. ما عند الله خيرٌ مما كان فيه.. لقد عاش حميدًا.. ومات سعيدًا.

---

(١) قال الحافظ فى الفتح: فى رواية هشام بن سعد «إن تقدمنا فبقدر الله، وإن تأخرنا فبقدر الله» وأطلق عليه فرارًا لشبهه به فى الصورة، وإن كان ليس فرارًا شرعيًا، والمراد أن هجوم المرء على ما يهلكه منهى عنه ولو فعل لكان من قدر الله وتجنبه ما يؤذيه مشروع، وقد يقدر الله وقوعه فيما فر منه، فلو فعله أو تركه لكان من قدر الله، فهما مقامان: مقام التوكل، ومقام التمسك بالأسباب اهـ (١٠/ ٢٢٨).

(٢) عُدوتان: تثنية عدوة، وهو المكان المرتفع من الوادى، وهو شاطئه.

(٣) أخرجه البخارى (٥٧٢٩) الطب ـ باب ما يُذكر فى الطاعون.

(٤) تاريخ الطبرى (٢/ ٤٩٢).

والعجيب أن عمر لم ينس خالداً ـ رضى الله عنه ـ حتى وهو على فراش الموت، لما قيل له: لو عهدت يا أمير المؤمنين فقال: لو أدركت أبا عبيدة ثم وليته، ثم قدمت على ربى فقال لى: لمَ استخلفته لقلت: سمعت عبدك وخليلك ﷺ يقول: لكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح، ولو أدركت خالد ابن الوليد ثم وليته فقدمت على ربى لقلت: سمعت عبدك وخليلك ﷺ يقول: خالد بن الوليد سيف من سيوف الله سلَّه الله على المشركين(١).

«فتح بيت المقدس»

«من تواضع لله رفعه الله»

وفى ظل تلك الفرحة الغامرة (فتح بيت المقدس) وإذا بأمير المؤمنين يضرب المثل للأمة المسلمة فى الزهد والتواضع.

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: لما فرغ أبو عبيدة من دمشق كتب إلى أهل إيليا يدعوهم إلى الله، وإلى الإسلام أو يبذلون الجزية، أو يؤذنوا بحرب فأبوا أن يجيبوا إلى ما دعاهم إليه.

فركب إليهم فى جنوده، واستخلف على دمشق سعيد بن زيد، ثم حاصر بيت المقدس، وضيق عليهم حتى أجابوا إلى الصلح بشرط أن يقدم إليهم أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب، فكتب إليه أبو عبيدة بذلك فاستشار (عمر) الناس فى ذلك، فأشار عثمان ابن عفان بأن لا يركب إليهم ليكون أحقر لهم، وأرغم لأنوفهم.

وأشار على بن أبى طالب بالمسير إليهم ليكون أخف وطأة على المسلمين فى حصارهم بينهم، فَهَوَ ما قال (علىّ) ولم يهو ما قال (عثمان) وسار بالجيوش نحوهم، واستخلف على المدينة على بن أبى طالب، وسار العباس ابن عبد المطلب على مقدمته، فلما وصل إلى الشام تلقاه أبو عبيدة ورؤوس الأمراء، فترجَّل أبو عبيدة، وترجَّل عمرٍ فأشار أبو عبيدة ليُقبِّل يد عمر فهمَّ عمر بتقبيل رِجل أبى عبيدة فكفَّ أبو عبيدة، فكفَّ عمر.

ثم سار حتى صالح نصارى بيت المقدس، واشترط عليهم إجلاء الروم إلى ثلاث، ثم دخلها إذ دخل المسجد من الباب الذى دخل منه رسول الله ﷺ ليلة الإسراء، ثم جاء إلى

(١) نقلاً من أئمة الهدى/ للشيخ محمد حسان وعوض الجزار (ص ٣٨٣: ٣٨٤).

الصخرة فاستدل على مكانها من كعب الأحبار، وأشار عليه كعب أن يجعل المسجد من ورائه فقال: ضاهيت اليهودية، ثم جعل المسجد فى قبلى بيت المقدس، وهو العمرى اليوم، ثم نقل التراب عن الصخرة فى طرف ردائه وقبائه، ونقل المسلمون معه. اهـ[١].

وعن أبى العالية الشامى قال: قدم عمر بن الخطاب الجابية على طريق إيليا على جمل أورق، تلوح صلعته للشمس ليس عليه قلنسوة، ولا عمامة، تصطفق رجلاه بين شعبتى الرحل بلا ركاب... وطاؤه كساء انبجانى ذو صوف، هو وطاؤه إذا ركب، وفراشه إذا نزل، حقيبته نمرة، أو شملة محشوة ليف، هى حقيبته إذا ركب ووسادته إذا نزل، وعليه قميص من كرابيس (ثوب خشن) قد رسم، وتخرق جنبه.

فقال: ادعوا لى رأس القوم، فدعوا له الجلومس، فقال: اغسلوا قميصى وخيطوه، وأعيرونى ثوبًا، أو قميصًا.

فأتى بقميص من كتان، فقال: ما هذا؟

قالوا: كتان.

قال: وما الكتان؟

فأخبروه، فنزع قميصه، فغُسل ورُقع وأتى به فنزع قميصهم، ولبس قميصه.

فقال له الجلومس: أنت ملك العرب، وهذه البلاد لا تصلح لها الإبل، فلو لبست شيئًا غير هذا، وركبت برذونًا لكان ذلك أعظم فى أعين الروم.

فقال: نحن قوم أعزنا الله بالإسلام، فلا نطلب بغير الله بديلاً.

فأُتى ببرذون فطرح عليه قطيفة بلا سرج ولا رحل، فركبه بها فقال: احبسوا احبسوا: ما كنت أرى الناس يركبون الشيطان قبل هذا، فأُتى بجمله فركبه.اهـ[٢].

ولله در حافظ إبراهيم حين يقول فى عمريته:

يا منْ صدفتَ عن الدنيا وزينتها ... فلمْ يغرك من دنياك مُغريها
ماذا رأيت بباب الشام حين رأوا ... أن يُلبسوك من الأثواب زاهيها
ويُركبوك على البرذون تقدمه ... خيلٌ مطهَّمة تحلو مرائيها

(١) البداية والنهاية للحافظ ابن كثير (٧/ ٥٧).
(٢) البداية والنهاية للحافظ ابن كثير (٧/ ٥٧).

مشى فهملج مختالاً براكبه	وفى البراذين ما تزهى بعاليها
فصحت: يا قوم، كاد الزهو يقتلنى	وداخلتنى حالٌ لستُ أدريها
وكاد يصبو إلى دنياكم عمرٌ	ويرتضى بيع باقيها بفانيها
ردوا ركابى فلا أبغى به بدلاً	ردوا ثيابى فحسبى اليوم باليها

وعن طارق بن شهاب قال: لما قدم عمر الشامَ عرضت له مخاضة، فنزل عن بعيره، ونزع موقيه فأمسكهما بيد، وخاض الماء ومعه بعيره، فقال له أبو عبيدة: قد صنعت اليوم صنيعًا عظيمًا عند أهل الأرض، صنعت كذا وكذا. قال: فصكَّ فى صدره. وقال: أَوَ لو غيرك يقولها يا أبا عبيدة، إنكم كنتم أذلَّ الناس وأحقر الناس وأقلَّ الناس، فأعزكم الله بالإسلام، فمهما تطلبوا العز بغيره يذلكم الله[١].

موقفه ـ رضى الله عنه ـ فى عام الرمادة

قال ابن الجوزى: وذلك أن الناس، أصابهم جدب، وقحط، وجوع شديد حتى جعلت الوحش تأوى إلى الإنس، وكانت الريح تسفى ترابًا كالرماد، فسُمِّى ذلك العام، عام الرمادة، وكان الرجل يذبح الشاة فيعافها من قُبحها، وإنه لمعسر.

فآلى عمر ألا يذوق سمنًا، ولا لبنًا، ولا لحمًا حتى يحيى الناس، وإن غلامًا لعمر اشترى عُكة من سمن ورطبًا من لبن بأربعين، ثم أتى بهما عمر، فقال عمر ـ رضى الله عنه ـ: تصدق بهما فإنى أكره أن آكل إسرافًا، كيف يعنينى شأن الرعية إذا لم يمسسنى ما مسهم. اهـ[٢].

فجمع عمر ـ رضى الله عنه ـ الناس للاستسقاء، وأخذ معه العباس عم رسول الله ﷺ.

ثم قال: اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنبيك فتسقينا، فالآن نتوسل إليك بعم نبيك فاسقنا[٣].

ثم طلب من العباس أن يدعو الله، فقام العباس فقال: اللهم إنه لم ينزل بلاء إلا

---

(١) البداية والنهاية (٤/ ٦١).
(٢) المنتظم (٤/ ٢٥٠).
(٣) رواه البخارى رقم (١٠١٠) فى الاستسقاء، باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا.

بذنب، ولم يُكشف إلا بتوبة، وقد توجه القوم بى إليك لمكانى من نبيك، وهذه أيدينا إليك بالذنوب، ونواصينا إليك بالتوبة، فاسقنا الغيث، فأرخت السماء مثل الجبال حتى أخصبت الأرض وعاش الناس.

وحان وقت الرحيل

وبعد حياة طويلة مليئة بالكفاح والطاعة والبذل والتضحية أحسَّ فاروق الأمة باقتراب أجله فقام يدعو بهذا الدعاء راجيًا من الله أن يحقق له تلك الأمنية الغالية.

قال ـ رضى الله عنه ـ: «اللهم ارزقنى شهادة فى سبيلك، واجعل موتى فى بلد رسولك»(١).

وعن سعيد بن المسيب قال: لما صدر عمر من مِنى أناخ بالأبطح، ثم كوَّم كومة من البطحاء، ثم ألقى عليها نفسه فلزق بثوبه، واستلقى، ومد يده إلى السماء فقال: اللهم ضعفت قوتى، وكبرت سنى، وانتشرت رعيتى، فاقبضنى إليك غير مضيِّع، ولا مفرط، ثم قدم المدينة، فخطب فقال: أيها الناس: إنى قد سننت لكم السنن، وفرضت لكم الفرائض، وتركتكم على واضحة إلا أن تضلوا بالناس يمينًا، وشمالاً...

قال سعيد: فما انسلخ ذو الحجة، حتى قُتل عمر(٢).

بل إنه رأى رؤيا بتلك الشهادة.

فعن معدان بن أبى طلحة العمرى أن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ قام على المنبر يوم جمعة، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم ذكر النبى ﷺ وذكر أبا بكر ـ رضى الله عنه ـ ثم قال: رأيت رؤيا لا أراها إلا بحضور أجلى، ورأيت ديكًا نقرنى نقرتين، فقصصتها على أسماء بنت عميس فقالت: يقتلك رجل من العجم(٣).

ولقد بشّره الحبيب ﷺ قبل ذلك بتلك الشهادة.

فعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ صعد أُحدًا، ومعه أبو بكر وعمر، وعثمان، فرجف فضربه برجله، وقال: «اثبت أُحُد، فما عليك إلا نبى، وصدِّيق، وشهيدان»(٤).

---

(١) أخرجه البخارى (١٨٩٠) فى فضائل المدينة.

(٢) أخرجه الحاكم (٣/ ٩١) ومالك (٢/ ٨٢٤/ ١٠) وابن أبى الدنيا فى مجابوا الدعوة (٩).

(٣) رواه أحمد فى المسند (١٦٨، ٣٦٢) مختصراً ورواه مسلم والحاكم (٣/ ٩٠ ـ ٩١).

(٤) رواه البخارى (٣٦٧٥) فى الفضائل، باب قول النبى لو كنت متخذًا خليلاً، وأبو داود رقم (٤٦٥١) فى=

ورأى رسول الله ﷺ على عمر ثوبًا غسيلاً فقال: «أجديد ثوبك هذا أم غسيل؟» قال: غسيل يا رسول الله، قال: «البس جديدًا، وعش حميدًا، وتوفَّ شهيدًا، ويعطيك الله قرة عين في الدنيا والآخرة»[١].

وفي صحيح البخاري: أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال: أيكم يحفظ قول رسول الله ﷺ في الفتنة؟

قال حذيفة: أنا أحفظ كما قال: قال: هات، إنك لجريء، قال رسول الله ﷺ: فتنة الرجل في أهله، وماله، وجاره تكفرها الصلاة، والصدقة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر. قال:ليست هذه، ولكن التي تموج كموج البحر.

قال: يا أمير المؤمنين لا بأس عليك منها، إن بينك وبينها بابًا مغلقًا.

قال: يُفتح الباب أو يُكسرَ؟ قال: لا، بل يُكسر، قال: ذلك أحرى أن لا يغلق[٢].

قال النووي: يحتمل أن يكون حذيفة علم أن عمر يُقتل، ولكنه كره أن يخاطبه بالقتل لأن عمر كان يعلم أنه الباب فأتى بعبارة يحصل بها المقصود بغير تصريح بالقتل. اهـ.

الفوز بالشهادة

وحان الوقت لتتحقق تلك الأمنية الغالية (أن يرزقه الله الشهادة في مدينة رسول الله ﷺ).

فعن عمرو بن ميمون ـ رضي الله عنه ـ قال:« ... إني لقائم ما بيني، وبينه إلا عبد الله ابن عباس[٣] غداة أصيب ـ وكان إذا مرَّ بين الصفين قال: استووا، حتى إذا لم ير فيهم خللاً تقدم فكبَّر،وربما قرأ سورة يوسف أو النحل أو نحو ذلك في الركعة الأولى حتى

= السنة، باب ما جاء في الخلفاء، والترمذي رقم (٣٦٩٧) في المناقب، باب مناقب عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ وقال: حديث حسن صحيح.

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٨٨)، والنسائي في اليوم والليلة (٣١١)، وابن ماجه رقم (٣٥٥١)، والطبراني (١٣١٢٧). وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح.

(٢) أخرجه البخاري (٣٥٨٦) المناقب.

(٣) قال الحافظ في الفتح: وفي رواية أبي إسحاق عن عمرو بن ميمون: شهدت عمر يوم طُعن، فما منعني أن أكون في الصف الأول إلا هيبته، وكان رجلاً مهيبًا، وكنت في الصف الذي يليه، وكان عمر لا يكبر حتى يستقبل الصف المقدم بوجهه، فإن رأى رجلاً متقدمًا من الصف أو متأخرًا ضربه بالدرة، فذلك الذي منعني منه. اهـ. فتح الباري (٧/ ٧٧).

يجتمع الناس، فما هو إلا أن كبَّر فسمعته يقول: قتلنى أو أكلنى ـ الكلب، حين طعنه[١]، فطار العِلجُ بسكين ذات طرفين، لا يمر على أحد يمينًا، ولا شمالاً إلا طعنه، حتى طعن ثلاثة عشر رجلاً مات منهم سبعة، فلما رأى ذلك رجلٌ من المسلمين طرح عليه برنسًا، فلما ظن العلج أنه مأخوذ نحر نفسه ـ ذبح نفسه ـ وتناول عمر يد عبد الرحمن بن عوف قدَّمه[٢]، فمن يلى عمر فقد رأى الذى أرى، وأما نواحى المسجد فإنهم لا يدرون غير أنهم قد فقدوا صوت عمر، وهم يقولون: سبحان الله، فصلى بهم عبد الرحمن صلاة خفيفة.

وفى رواية: فظن عمر أن له ذنبًا إلى الناس لا يعلمه، فدعا ابن العباس ـ وكان يحبه ويدنيه.

فقال: أحب أن تُعلم عن ملأ من الناس كان هذا؟ فخرج لا يمر بملأ من الناس إلا وهم يبكون، فكأنما فقدوا أبكار أولادهم، قال ابن عباس: فرأيت البشر فى وجهه.

قال: فلما انصرفوا قال: يا ابن عباس، انظر من قتلنى. فجال ساعة ثم جاء فقال: غلام المغيرة. قال: الصنع؟ قال: نعم. قال: قاتله الله، لقد أمرت به معروفًا، الحمد لله الذى لم يجعل ميتتى بيد رجل يدَّعى الإسلام، قد كنت أنت وأبوك تحبان أن تكثر العلوج بالمدينة، وكان العباس أكثرهم رقيقًا. فقال: إن شئت فعلت ـ أى إن شئت قتلنا.

قال: كذبت، بعدما تكلموا بلسانكم، وصَلُّوا قبلتكم، وحجوا حجكم؟

فانطلقنا معه.

وفى رواية: ثم غلب عمر النزف حتى غُشى عليه، فاحتملته فى رهط حتى أدخلته بيته فلم يزل فى غشيته حتى أسفر فنظر فى وجوهنا، فقال: أصلى الناس؟ فقلت : نعم، قال : لا إسلام لمن ترك الصلاة، ثم توضأ وصلى.

---

(١) قال الحافظ: روى ابن سعد بإسناد صحيح إلى الزهرى قال: كان عمر لا يأذن لسبى قد احتلم فى دخول المدينة، حتى كتب المغيرة بن شعبة، وهو على الكوفة يذكر له غلامًا عنده صانعًا، ويستأذنه أن يدخله المدينة، ويقول: إن عنده أعمالاً تنفع الناس، إنه حداد نقاش نجار، فأذن له، فضرب عليه المغيرة كل شهر مائة، فشكى إلى عمر شدة الخراج، فقال له: ما خراجك بكثير فى جنب ما تعمل، فانصرف ساخطًا، فلبث عمر ليالى، فمر به العبد فقال: ألم أحدث أنك تقول لو أشاء لصنعت رحى تطحن بالريح؟ فالتفت إليه عابسًا فقال: لأصنعن لك رحى يتحدث الناس بها، فأقبل عمر على من معه فقال: توعدنى العبد، فتح البارى (٧/ ٧٨).

(٢) أى للصلاة بالناس.

قال: وكأن الناس لم تُصبهم مصيبة قبل يومئذ، فقائل يقول: لا بأس، وقائل يقول: أخاف عليه، فأُتى بنبيذ[1] فشربه فخرج من جوفه، ثم أوتى بلبن فشربه فخرج من جرحه، فعلموا أنه ميت، فدخلنا عليه، وجاء الناس، فجعلوا يثنون عليه، وجاء رجل شاب فقال: أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى الله لك، وصُحبة رسول الله ﷺ ، وقدمٍ في الإسلام ما قد علمت، ثم وليت فعدلت، ثم شهادة. قال: وددت أن ذلك كفافٌ لا علىّ ولا لى.

فلما أدبر إذا إزاره يمسُّ الأرض، قال: رُدوا علىّ الغلام. قال: يا ابن أخى، ارفع ثوبك، فإنه أبقى لثوبك، وأتقى لربك.

وفى رواية: قال ابن عباس: فقلت له: أبشر بالجنة، صاحبت رسول الله ﷺ فأطلت صحبته، ووليت أمر المؤمنين فقويت وأديت الأمانة.

فقال: أما تبشيرك إياى بالجنة فوالله لو أن لى الدنيا بما فيها، لافتديت به من هول ما أمامى قبل أن أعلم الخبر، وأما قولك فى أمر المؤمنين، فوالله لوددتُ أن ذلك كفافًا لا لى ولا علىّ، وأما ما ذكرت من صحبة نبى الله ﷺ فذلك[2].

قال الذهبى: قال ابن عمر: كان رأس عمر فى حِجرى، فقال: ضع خدى على الأرض، فوضعته فقال: ويلٌ لى وويل أمى إن لم يرحمنى ربى»[3].

صُحبة الحبيب ﷺ وأبى بكر ـ رضى الله عنه ـ فى القبر

وفى اللحظات الأخيرة من حياة الفاروق ـ رضى الله عنه ـ قال لابنه: يا عبد الله بن عمر، انظر ما علىّ من الدَّين، فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين ألفًا أو نحوه. قال: إن وفى له مال آل عمر فأدِّه من أموالهم، وإلا فسل من بنى عدى بن كعب، فإن لم تف أموالهم فسل فى قريش، ولا تَعْدُهُم إلى غيرهم، فأد عنى هذا المال.

انطلق إلى عائشة أم المؤمنين فقل: يقرأ عليك عمر السلام ـ ولا تقل أمير المؤمنين، فإنى لست اليوم للمؤمنين أميرًا ـ وقل: يستأذن عمر بن الخطاب أن يُدفن مع صاحبيه،

(١) قال الحافظ فى الفتح: المراد بالنبيذ المذكور تمرات نبذت فى ماء، أى نقعت فيه، كانوا يصنعون ذلك لاستعذاب الماء.

(٢) رواه أحمد فى المسند رقم (٣٢٢)، وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح.

(٣) سيرة الخلفاء للذهبى (٩٤)، والخبر فى الطبقات (٣/ ٢٧٤)، وإسناده صحيح.

فسلم فاستأذن، ثم دخل عليها فوجدها قاعدة تبكي. فقال: يقرأ عليك عمر بن الخطاب السلام، ويستأذن أن يُدفن مع صاحبيه، فقالت: كنت أريده لنفسي، ولأوثرنه به اليوم على نفسي.

فلما أقبل قيل: هذا عبد الله بن عمر قد جاء. قال: ارفعوني: فأسنده رجلٌ إليه فقال: ما لديك؟ قال: الذي تحب يا أمير المؤمنين، أذنت، قال: الحمد لله، ما كان من شيء أهمّ إليّ من ذلك، فإذا أنا قضيت احملوني، ثم سلمْ فقل: يستأذن عمر بن الخطاب، فإن أذنت لي فأدخلوني وإن ردتني رُدُّني إلى مقابر المسلمين... وجاءت أم المؤمنين حفصة والنساء تسير معها، فلما رأيناها قمنا، فولجت[1] عليه، فبكت عنده ساعة، واستأذن الرجال فولجت داخلاً لها، فسمعنا بكاءها من الداخل، قالت: يا صاحب رسول الله ﷺ يا صهر رسول الله ﷺ، يا أمير المؤمنين.

فقال عمر: لا صبر لي على ما أسمع، أحرج عليك بمالي عليك من الحق أن تندبيني بعد مجلسك هذا، فأما عينيك فلن أملكها.

قال: فقالوا: أوصي يا أمير المؤمنين، استخلف.

قال: ما أجدُ أحق بهذا الأمر من هؤلاء الرهط النفر ـ أو الرهط ـ الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ: فسمىَّ عليًا، وعثمان، والزبير، وطلحة، وسعداً، وعبد الرحمن[2]، وقال: يشهدكم عبد الله بن عمر، وليس له من الأمر شيء ـ كهيئة التعزية له ـ فإن أصابت الإمرة سعد فهو ذاك، وإلا فليستعن به أيكم ما أُمِّر، فإني لم أعزله عن عجز ولا خيانة، وقال: أوصي الخليفة من بعدي بالمهاجرين الأولين، أن يعرف لهم حقهم، ويحفظ لهم حرمتهم، وأوصيه بالأنصار خيراً، الذين تبوءوا الدار والإيمان[3] من قبلهم، أن يقبل من محسنهم، وأن يُعفى من مسيئهم، وأوصيه بأهل الأمصار خيراً، فإنهم ردءُ الإسلام (أي عون الإسلام الذي يدفع عنه)، وغيظ العدو (أي

---

(١) أي دخلت عليه.

(٢) قال الحافظ في الفتح (٧/ ٨٤): واقتصار عمر على الستة من العشرة لا إشكال فيه لأنه منهم، وكذلك أبو بكر، ومنهم أبو عبيدة، وقد مات قبل ذلك، أما سعيد بن زيد فهو ابن عم عمر فلم يسمه عمر فيهم مبالغة في التبرى من الأمر، وقد صرح المدايني بأسانيده، أن عمر عد سعيد بن زيد فيمن توفي النبي ﷺ وهو عنه راض، إلا أنه استثناه من أهل الشورى لقرابته منه، وقد صرح بذلك المدايني بأسانيده، قال: «فقال عمر: لا أرب لي في أموركم فأرغب فيها لأحد من أهلي» اهـ.

(٣) أي سكنوا المدينة قبل الهجرة.

يغيظون العدو بكثرتهم وقوتهم)، وأن لا يؤخذ منهم إلا فضلهم عن رضاهم (أى إلا ما فضل عنهم). وأوصيه بالأعراب خيراً، فإنهم أصلُ العرب، ومادة الإسلام، أن يؤخذ من حواشى أموالهم (أى التى ليست بخيار)، ويرد على فقرائهم، وأوصيه بذمة الله، وذمة رسوله ﷺ (أى أهل الذمة) أن يوفى لهم بعهدهم، وأن يقاتل من وراءهم، ولا يكلفوا إلا طاقتهم»[١].

فلما قُبض خرجنا به فانطلقنا نمشى، فسلم عبد الله بن عمر قال: يستأذن عمر بن الخطاب، قالت: أدخلوه، فأدخل فوضع هنالك مع صاحبيه[٢].

باقة عطرة من ثناء الصحابة عليه ـ رضى الله عنه ـ

قال أبو وائل رحمه الله: قدم علينا عبد الله بن مسعود فنعى إلينا عمر، فلم أر يومًا كان أكثر باكيًا، ولا حزينًا منه، ثم قال: والله لو أعلم عمر كان يحب كلبًا لأحببته.

وعن حذيفة ـ رضى الله عنه ـ: أنه قال يوم موت عمر: اليوم ترك المسلمون حافة الإسلام[٣].

وقيل لعبد الله بن عباس: ما تقول فى عمر؟

قال: رحمة الله على أبى حفص، كان والله حليف الإسلام، ومأوى الأيتام، ومحل الإيمان، ومنتهى الإحسان، ونادى الضعفاء، ومعقل الخلفاء، كان للحق حصنًا، وللناس عونًا، قام بحق الله صابراً محتسبًا حتى أظهر الدين، وفتح الديار، وذكر الله عز وجل على التلال والبقاع، وقوراً لله فى الرخاء والشدة، شكوراً له فى كل وقت، فأعقب الله من يبغضه الندامة إلى يوم القيامة[٤].

ويقول العباس بن عبد المطلب ـ رضى الله عنه ـ: كنت جاراً لعمر بن الخطاب، فما رأيت أحدًا من الناس كان أفضل من عمر، إن ليله صلاة، وإن نهاره صيام وفى حاجات الناس[٥].

---

(١) رواه البخارى رقم (٣٧٠٠) فى فضائل أصحاب النبى ﷺ، باب قصة البيعة والاتفاق على عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ وفيه مقتل عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ.

(٢) بتصرف من أئمة الهدى/ للشيخ محمد حسان وعوض الجزار.

(٣) الطبقات لابن سعد (٣/ ٢٨٤).

(٤) الرياض النضرة (١/ ٣٥).

(٥) أخرجه السيوطى فى الحلية (١/ ٥٤)، ورجاله ثقات.

وعن حذيفة قال: كان الإسلام من زمن عمر كالرجل المقبل لا يزداد إلا قُربًا، فلما قُتل عمر رحمه الله، كان كالرجل المدبر لا يزداد إلا بعدًا(١).

وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال: وُضع عمر على سريره، فتكنّفه الناس يدعون، ويصلون قبل أن يُرفع وأنا فيهم ـ فلم يَرُعنى إلا رجلٌ آخذ منكبى، فإذا على بن أبى طالب، فترحَّم على عمر وقال: ما خلَّفت أحدًا أحب إلىَّ أن ألقى الله بمثل عمله منك، وأيم الله إن كنت لأظن أن يجعلك الله مع صاحبك، وحسبت أنى كثيرًا أسمع النبى ﷺ يقول: ذهبت أنا، وأبو بكر، وعمر، ودخلت أنا وأبو بكر وعمر، وخرجت أنا، وأبو بكر، وعمر(٢).

وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال: أكثروا ذكر عمر، فإنكم إذا ذكرتموه ذكرتم العدل، وإذا ذكرتم العدل ذكرتم الله تبارك وتعالى(٣).

ولا نملك عند وداع هذا الصحابى الجليل إلا أن نقول له: جزاك الله عنا وعن الإسلام والمسلمين خير الجزاء فكم تعلَّمنا من سيرتك العطرة التى فاح عبيرها فى الدنيا كلها.. وكم تعلمنا من مواقفك الخالدة التى سطَّرتها على جبين التاريخ بسطورٍ من النور.

فلن ننساك أبدًا ما دامت أرواحنا فى أبداننا.

فرضى الله عنك وأرضاك وجمعنا وإياك فى جنته ومستقر رحمته

إخوانًا على سرر متقابلين

* * *

(١) الطبقات لابن سعد (٣/ ٢٨٥) ورجاله ثقات.

(٢) رواه البخارى رقم (٣٦٨٥) فى فضائل أصحاب النبى ﷺ، باب مناقب عمر بن الخطاب، ومسلم رقم (٢٣٨٩) فى فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر بن الخطاب.

(٣) أُسد الغابة (٤/ ١٥٣) بسندٍ صحيح.

عثمان بن عفان

ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة

محمد رسول الله ﷺ

بهذا العنوان بدأت الكلام عن هذا الصحابي الجليل.

إنه صنف من الرجال الأطهار يندر وجوده في كل العصور والأزمان... رجل تستحي منه ملائكة الرحمن!!!.

نعم إنه ذو النورين (عثمان بن عفان) ـ رضي الله عنه ـ ذلكم الرجل الذي إذا جاءت سيرته وجدنا بين ثنايا سطورها ريح الحياء والتواضع والجود والكرم والخشية.... وُلد بعد عام الفيل بست سنين على الصحيح، وكان رَبعة حسن الوجه رقيق البشرة عظيم اللحية بعيد ما بين المنكبين[١].

لما قالوا (لعليّ): حدِّثنا عن عثمان. قال: ذاك امرؤٌ يُدعَى في الملأ الأعلى ذا النورين.

كان ـ رضي الله عنه ـ في أيام الجاهلية من أفضل الناس في قومه فهو عريض الجاه ثريًا متواضعًا شديد الحياء عذب الكلمات فكان قومه يحبونه أشد الحب ويوقرونه.

لم يسجد في الجاهلية لصنمٍ قَط ولم يقترف فاحشة قَط ولم يظلم إنسانًا قَط.

وكان كغيره من أهل المروءة في أشد الشوق ليدٍ حانية تأخذ بنواصي العباد من تلك الجاهلية التي عمَّت البلاد إلى شاطئ النجاة.

وما هي إلا فترة يسيرة حتى بُعث الحبيب ﷺ وكان عثمان ـ رضي الله عنه ـ من السابقين الذين أسلموا قبل دخول النبي ﷺ دار الأرقم.

ولإسلام عثمان بن عفان قصةٌ ما زال يرويها الرواة.

ذلك أنه حين بلغه في الجاهلية أن محمد بن عبد الله زوَّج ابنته رُقية من ابن عمها عتبة بن أبي لهب... ندم أشدَّ الندم لأنه لم يسبق إليها... ولم يحظ بخُلُقها الرفيع وبيتها

(١) الإصابة للحافظ ابن حجر (٤/ ٣٧٧).

العريق[١]... فدخل على أهله مهمومًا. فوجد عندهم خالته «سُعدى بنت كُريز»، وكانت هذه امرأةً حازمةً، عاقلةً، طاعنة[٢] فى السن فسرَّت عنه[٣].

وبشرته بظهور نبى يُبطلُ عبادة الأوثان. ويدعو إلى عبادة الواحد الدّيّان، ورغّبته فى دين ذلك النبى، وبشرته بأنه سينالُ عنده ما يبتغيه.

قال عثمان: فانطلقت وأنا أفكرُ فيما قالته خالتى...

فلقيت أبا بكر، وحدَّثته بما أخبرتنى به، فقال: والله لقد صدقت خالتك، فيما أخبرتك، وبشّرتك بالخير يا عثمان... وإنك لرجلٌ عاقلٌ حازمٌ[٤] ما يخفى عليك الحق، ولا يشتبه عندك مع الباطل... ثم قال لى: ما هذه الأصنام التى يعبدها قومنا؟!... أليست من حجارة صُم[٥] لا تسمع ولا تُبصرُ؟. فقلت: بلى. فقال: وإن ما قالته خالتك ـ يا عثمان ـ قد تحقّق... فلقد أرسل الله رسوله المرتقب[٦]، وبعثه إلى الناس كافة بدين الهدى والحق. فقلت: ومَنْ هو؟! فقال: إنه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب. فقلت: الصادق الأمين[٧]؟. فقال أبو بكر: نعم... إنه هو... فقلت: فهل لك أن تصحبنى إليه؟. فقال: نعم... ومضينا إلى النبى عليه الصلاة والسلام. فلما رآنى قال: (أجب يا عثمان داعى الله... فإنى رسول الله إليكم خاصةً، وإلى خلق الله عامةً...).

قال عثمان: فوالله ما إن ملأت عينى منه، وسمعتُ مقالته؛ حتى استرحتُ لهُ، وصدّقت رسالتهُ... ثم شهدتُ أن لا إله إلا الله.. وأن محمداً عبده ورسوله.

لم يؤمن بالرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ أحدٌ من قومه بنى «هاشم» حتى ذلك اليوم... غير أنه لم يكن فيهم أحدٌ يُناصبهُ[٨] العداء غير عمه «أبى لهب»[٩].

فقد كان هو وزوجه «أُمُّ جميل» من أشدِّ قريش قسوةً عليه، وأعنفهم إيذاءً له،

---

(١) بيتها العريق: أى كريمة الآباء والأجداد.
(٢) طاعنة فى السن: متقدمة فى السن.
(٣) سرَّت عنه: كشفت عنه الهم.
(٤) حازم: حكيم قاطع فى الرأى صائب.
(٥) صم: لا تسمع من يدعوها.
(٦) المُرتقب: المنتظر.
(٧) الصادق الأمين: لقب اشتُهر به محمد ﷺ قبل أن يُبعث.
(٨) يناصبه العداء: يعلن العداوة ضده.
(٩) أبو لهب: هو عبد العزى بن عبد المطلب مات على الكفر بعد غزوة بدر.

وتنكيلاً به... فأنزل الله فيه وفي امرأته: ﴿ تَبَّتْ (١) يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝ سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ(٢) ﴾ [سورة المسد].

فازداد أبو لهب ضغينة(٣) على الرسول صلوات الله وسلامه عليه، واشتد حقده وحقد زوجته أم جميل عليه، وعلى المسلمين معه، فأمرا ابنهما «عُتبة» بأن يُطلق زوجته رُقية بنت محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ فطلَّقها نكاية(٤) بأبيها.

ما كاد عثمان بن عفان ـ رضوان الله عليه ـ يسمع بخبر طلاق رقية حتى استطار(٥) فرحًا... وبادر فخطبها من رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ فزوجها الرسول الكريم ﷺ منه.

وزفتها(٦) أم المؤمنين خديجة بنت خويلد...

وقد كان عثمان من أبهى قريش طلعة(٧)، وكانت هي تُضاهيه قسامةً(٨) وصباحةً، فكان يقال لها حين زُفت إليه:

أحسنُ زوجين رآهما إنسان ... رُقيةٌ، وزوجها عثمان(٩)

وعن عبد الرحمن بن عثمان القرشي: أن رسول الله ﷺ دخل على ابنته وهي تغسل رأس عثمان، فقال: «يا بُنية أحسني إلى أبي عبد الله، فإنه أشبه أصحابي بي خُلُقًا»(١٠).

* * *

(١) تبت: هلكت وخسرت.
(٢) مسد: القوي من الحبال.
(٣) الضَّغينة: الحقد والحسد وإضمار الكراهية في الصدور.
(٤) نكاية: إغاظةً له وقهرًا.
(٥) استطار فرحًا: كاد يطير من شدة الفرح.
(٦) زفتها: قدمتها إلى زوجها.
(٧) الطلعة: ملامح الوجه.
(٨) تضاهيه قسامة: تشبهه في حُسن تقاسيم الوجه وملامحه.
(٩) صور من حياة الصحابة (ص٥٥٨: ٥٦١) بتصرف.
(١٠) قال الهيثمي: رواه الطبراني ورجاله ثقات، المجمع (١٤٥٠٠).

الفرار إلى الله والهجرة إلى الحبشة

وعلى الرغم من مكانته بين قومه ومحبتهم له إلا أنه ما إن أعلن إسلامه واستعلى بإيمانه حتى سلطوا عليه الأذى فلما يئسوا من عودته إلى الشرك وارتداده عن دين محمد ﷺ أطلقوا سراحه فهاجر إلى الحبشة ومعه زوجه (رقية) ـ رضي الله عنها ـ.

وهناك اشتد الحنين إلى رسول الله ﷺ فعاد عثمان وزوجه ـ رضي الله عنهما ـ مرة أخرى إلى الحبيب ﷺ إلى أن أذِن الله لنبيه ﷺ وأصحابه بالهجرة إلى المدينة المنورة، فكان عثمان وزوجه مع المهاجرين. وبذلك يكون ـ رضي الله عنه ـ قد هاجر الهجرتين.

جهاده في سبيل الله وتسميته بذي النورين

ولقد شهد عثمان ـ رضي الله عنه ـ المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ماعدا غزوة بدر فإن النبي ﷺ لما خرج إلى بدرٍ خلّفه على ابنته رقية يمرّضها ـ فقد كانت مريضة ولمَ يكن معها أحد ـ ولما عاد الحبيبُ ﷺ من الغزوة علم أن ابنته رقية قد لحقت بجوار ربها فحزن حزنًا شديدًا.. وواسى عثمان ـ رضي الله عنه ـ فضرب له بسهمه وأجره، فكان كمن شهد بدراً، ثم زوَّجه من ابنته الثانية (أم كلثوم) وقال: لو كان عندي ثالثة لزوجتها عثمان.. وسُمّي ذا النورين لجمعه بين بنتي رسول الله ﷺ [1].

قال العلماء: «ولا يُعرف أحد تزوج بنتي نبي غيره، ولذلك سُمِّي ذا النورين. وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد الصحابة الذين جمعوا القرآن».

موقفه الخالد في تجهيز جيش العسرة (غزوة تبوك)

جاءت غزوة تبوك، والناس في عُسرة شديدة، وحين طابت الثمار وأحبت الظلال، والناس يحبون المقام ويكرهون الخروج.

وحضَّ رسول الله ﷺ المسلمين على الجهاد ورغّبهم فيه وأمرهم بالصدقة، فحملوا صدقات كثيرة؛ وكان أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ أول من حمل بماله كله.... أربعة آلاف درهم.

فقال رسول الله ﷺ: «هل أبقيت لأهلك شيئًا؟» فقال: الله ورسوله، ثم جاء عمر

(١) صفة الصفوة (١/ ١١٩).

بنصف ماله، وحمل العباس بن عبد المطلب وطلحة بن عبيد الله ـ رضى الله عنهما ـ إلى النبى ﷺ مالاً، وحمل عبد الرحمن ابن عوف إليه مائتى أوقية، وحمل سعد بن عبادة ـ رضى الله عنه ـ إليه مالاً، وكذلك محمد بن مسلمة ـ رضى الله عنه ـ وتصدّق عاصم بن عديّ ـ رضى الله عنه ـ بتسعين وسقًا من التمر... والنساء يُعنّ بكل ما قدرن عليه.

قالت أم سنان الأسدية ـ رضى الله عنها ـ: لقد رأيت ثوبًا مبسوطًا بين يدى النبى ﷺ فى بيت عائشة ـ رضى الله عنها ـ فيه: مَسَك[1]، ومعاضد، وخلاخل[2]، وأقرطة[3] وخواتيم، وقد ملُئ مما بعث به النساء يُعنّ به المسلمين فى جهازهم».

ولله در أبى عقيل يأتى بصاع من تمر ويستحى... قال: «بت ليلتى أجرٌّ بالجرير[4] على صاعين، والله! ما كان عندى من شىء غيره، فأتيت بأحدهما، وتركت الآخر لأهلى»[5].

وعن عكرمة ـ رضى الله عنه ـ قال: حث رسول الله ﷺ على الصدقة[6]، فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف فقال يا رسول الله (مالى ثمانية آلاف) جئتك بنصفها وأمسكت نصفها، فقال: بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت.

روى عبد الرحمن بن سمرة ـ رضى الله عنه ـ أن عثمان بن عفان جاء إلى النبى ﷺ بألف دينار فى كُمّه حين جهز جيش العسرة، فنثرها فى حِجره، فرأيت النبى ﷺ يقلبها فى حجره، ويقول: ما ضرّ عثمان ما عمل بعد اليوم، ما ضرّ عثمان ما عمل بعد اليوم»[7].

---

(١) مَسَك: الأسورة والخلاخيل من القرون والعاج.
(٢) جمع خلخال: حلية تلبس فى الرجل كالسوار فى اليد.
(٣) جمع قرط: ما يعلق فى شحمة الأذن.
(٤) حبل يجعل للبعير، والمعنى بت ليلتى كلها استقى الماء بالحبل.
(٥) ابن عساكر (١/ ١١٠).
(٦) يعنى فى غزوة تبوك.
(٧) أخرجه الترمذى، وأحمد، وابن أبى عاصم فى «السنة»، والحاكم وصححه وأقره الذهبى، والبيهقى فى الدلائل، وابن عساكر فى تاريخ دمشق.

ولما حُصر في داره قام فأشرف عليهم فوق داره... قال: «أُذكركم بالله، هل تعلمون أن رسول الله ﷺ قال في جيش العسرة: «من ينفق نفقة متقبلة» والناس مجهدون، معسرون، فجهزت ذلك الجيش؟ قالوا: نعم...»(١).

وما جاء في رواية الأحنف بن قيس من قول عثمان: «أنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو، أتعلمون أن رسول الله نظر في وجوه القوم فقال: «من يجهّز هؤلاء غفر الله له» يعني جيش العسرة، فجهزتهم حتى لم يفقدوا عقالاً ولا خطامًا؟ قالوا: اللهم نعم، قال: اللهم اشهد»(٢).

ما كاد عثمان يسمع نداء رسول الله ﷺ: «من يجهز هؤلاء، ويغفر الله له؟» حتى سارع إلى مغفرة من الله ورضوان.

وهكذا وجدت العُسرة الضاغطة «عثمانها» المعطاء!!

وقام ـ رضي الله عنه ـ بتجهيز الجيش كله، حتى لم يتركه بحاجة إلى خِطام أو عقال...!!

يقول ابن شهاب الزهري: «قدّم عثمان لجيش العُسرة في غزوة تبوك تسعمائة وأربعين بعيرًا، وستين فرسًا، أتمَّ بها الألف»!!.

ويقول حذيفة: «جاء عثمان إلى رسول الله ﷺ في جيش العسرة بعشرة آلاف دينار صبَّها بين يديه، فجعل الرسول ﷺ يُقلبها بيده ويقول: «غفر الله لك يا عثمان ما أسررت وما أعلنت، وما هو كائن إلى يوم القيامة».

ويقول عبد الرحمن بن عوف: «شهدت رسول الله ﷺ وقد جاءه عثمان بن عفان في جيش العسرة بسبعمائة أوقية من الذهب».

ألم أقل لكم: إنه يبدو وكأنه الممول الوحيد للأمة الجديدة، والدين الجديد...؟؟(٣).

ولما كفى الله المؤمنين القتال برجوع الروم... ورجع الجيش بكل عتاده الذي أمدّه به عثمان... ما استرجع عثمان من ذلك شيئًا، وما استرد منها بعيرًا ولا خطامًا.

---

(١) جزء من حديث صحيح لغيره: أخرجه ابن أبي عاصم في السنة، وابن عساكر في تاريخه.

(٢) جزء من خبر حسن لغيره: أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٤٨٦)، وابن حبان (٦٨٨١)، وابن أبي عاصم في السنة (١٣٠٣).

(٣) خلفاء الرسول ﷺ خالد محمد خالد (٢٤١) دار الجيل.

رضى الله عن عثمان المهاجر إلى ربه الذى يخرج من ماله ومن دنياه العريضة كلها ويسافر إلى الله فى حياء رجلٍ تستحى منه الملائكة... نعم المال الصالح للرجل الصالح... ترى كم أظل عثمان من رءوس رجال... وكم له عند الله من ظل بل ظلال ظليلة.

قال رسول الله ﷺ: «أفضل الصدقات ظل فسطاط ـ خيمة ـ فى سبيل الله عز وجل، أو منحة خادم فى سبيل الله، أو طروقة فحل فى سبيل الله»[1].[2]

حفر عثمان ـ رضى الله عنه ـ بئر رومة

ولما كان المسلمون لا يجدون الماء العذب الذى هم فى أشد الحاجة إليه.. قام النبى ﷺ يعرض على أصحابه تلك الصفقة الرابحة، فقال: «من حفر رومة فله الجنة...»[3].[4]

فقام عثمان ـ رضى الله عنه ـ السبَّاق إلى كل خير فحفرها، ففاز بثواب كل من شرب شربة ماءٍ أو توضأ من هذا الماء.

كان ـ رضى الله عنه ـ يعتق كل جمعة عبداً ويحرر رقبة

وما كان البذل الذى يبذله ـ رضى الله عنه ـ ليقف أبداً عند تجهيز جيش العُسرة أو حفر بئر رومة، بل لقد كان دومًا وأبدًا مواسيًا لكل مسلمٍ فى كربته ومُعينُه فى محنته ومعينًا له فى فقره وحاجته.

يُمضى ـ رضى الله عنه ـ مع نفسه موثقًا لا يُخلفه طوال حياته: هو أن يُعتق كل جمعة عبداً، ويحرر رقبة... يشترى العبد من سيده بأى ثمن، ثم يهبه حريته مبتغيًا وجه ربه الأعلى[5].

❊ ❊ ❊

(١) رواه أحمد والترمذى عن أبى أمامة، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١١٠٩).
(٢) ترطيب الأفواه/ د. سيد حسين (١٨٨: ١٩١) بتصرف.
(٣) المشهور فى الروايات أن عثمان ـ رضى الله عنه ـ اشتراها لا أنه حفرها ولذلك وَهَّم ابن بطال من قال حفرها قال: والمعروف اشتراها، نقل ذلك عنه الحافظ فى الفتح، ثم قال الحافظ.. ولعل العين كانت تجرى إلى بئر فوسعها وطواها فنسب حفرها إليه (الفتح ٥/ ٤٠٨).
(٤) أخرجه البخارى (٢٧٧٨) معلقًا وهو صحيح لشواهده.
(٥) خلفاء الرسول/ خالد محمد خالد (ص ٢٤٥).

الحبيب ﷺ يبشره بالشهادة وبالجنة

وها هى البشرى بالشهادة وبالجنة يزفها إليه الصادق المصدوق الذى لا ينطق عن الهوى ﷺ.

عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ كان على حراء هو وأبو بكر وعمر وعثمان وعليّ وطلحة والزبير فتحركت الصخرة فقال رسول الله ﷺ: «اهدأ فما عليك إلا نبى أو صدِّيق أو شهيد»(١).

وعن أبى موسى ـ رضى الله عنه ـ قال: «أن النبى ﷺ دخل حائطًا وأمرنى بحفظ باب الحائط، فجاء رجلٌ يستأذنُ فقال: ائذن له وبشِّره بالجنة فإذا أبو بكر، ثم جاء آخر يستأذن فقال له: ائذن له وبشره بالجنة فإذا عمر، ثم جاء آخر يستأذنُ فسكت هنيهة ثم قال: ائذن له وبشرهُ بالجنة على بلوى ستصيبه فإذا عثمان ابن عفان»(٢).

استحيا من الله فاستحيت منه الملائكة والنبى ﷺ

ويا لها من منقبة عظيمة لا توازيها الدنيا بكل ما فيها.

فعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ أنها قالت: كان رسول الله ﷺ مضطجعًا فى بيتى كاشفًا عن فخذيه أو ساقيه، فاستأذن أبو بكر فأذن له، وهو على تلك الحال فتحدث ثم استأذن عمر فأذن له وهو كذلك فتحدث، ثم استأذن عثمان فجلس رسول الله وسوّى ثيابه فدخل فتحدث فلما خرج قالت عائشة: دخل أبو بكر فلم تهتش له ولم تُباله ثم دخل عمر فلم تهتش له ولم تُباله، ثم دخل عثمان فجلست وسويت ثيابك! فقال: «ألا أستحى من رجل تستحى منه الملائكة»(٣).

وفى رواية: فقالت عائشة: يا رسول الله مالى لم أرك فزعت لأبى بكر وعمر ـ رضى الله عنهما ـ كما فزعت لعثمان؟ قال رسول الله ﷺ «إن عثمان رجلٌ حييٌّ، وإنى خشيتُ إن أذنت له على تلك الحال أن لا يبلغ إلىَّ فى حاجته»(٤) ـ أى يستحى فيخرج

(١) أخرجه مسلم (٢٤١٧) والترمذى (٣٦٩٦) وأحمد (٢/ ٤١٩).
(٢) أخرجه البخارى (٣٦٩٥) ومسلم (٢٤٠٣) والترمذى (٣٧١٠).
(٣) أخرجه مسلم (٢٤٠١) عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ.
(٤) أخرجه مسلم (٢٤٠٢) وأحمد (١/ ٧٧) والبخارى فى الأدب المفرد (٦٠٠).

من غير أن يطلب حاجته التي جاء من أجلها ــ.

قال عثمان ـ رضي الله عنه ــ: ما من عامل يعمل عملاً إلا كساه الله رداء عمله.

وقال يحيى بن معاذ: من استحيا من الله مطيعًا، استحيا الله منه وهو مذنب.

قال المناوى: مقام عثمان مقام الحياء، والحياء فرع يتولد من إجلال من يشاهده ويعظم قدره، مع نقص يجده في النفس، فكأنه غلب عليه إجلال الحق تعالى، ورأى نفسه بعين النقص والتقصير، وهما من جليل خصال العباد المقربين، فعلت رتبة عثمان كذلك، فاستحيت منه خلاصة الله من خلقه، كما أن مَن أحب الله أحب أولياءه، ومن خاف الله خاف منه كل شيء[1].

والجزاء من جنس العمل.

وقال ﷺ: «عثمان أحيى أمتى»[2].

يعني أكثرها حياءً... والحياء منشأ الآداب، قيل: لم يضع يمينه على فرجه منذ بايع النبى ﷺ:

فلا والله ما فى العيش خير	ولا الدنيـا إذا ذهب الحيـاءُ
يعيش المرء ما استحيا بخير	ويبقى العود ما بقى اللحاءُ

يقرأ القرآن كله في ركعة واحدة

قال عبد الرحمن بن عثمان التيمى ــ رحمه الله ــ: قلت: لأغلبن الليلة على المقام، فسبقت إليه، فبينا أنا قائم أصلى إذ وضع رجل يده على ظهرى، فنظرت فإذا هو عثمان بن عفان ــ رحمة الله عليه ـ وهو خليفة، فتنحيت عنه، فقام فما برح قائمًا حتى فرغ من القرآن فى ركعة لم يزد عليها.

فلما انصرفت قلت: يا أمير المؤمنين، إنما صليت ركعة؟

قال: أجل هى وِترى[3]. أى ركعة الوتر.

---

(١) فيض القدير للمناوى (٤/ ٣٠٢).

(٢) رواه أبو نعيم فى الحلية، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٨٧٢).

(٣) صحيح: أخرجه ابن المبارك فى الزهد (١٢٧٦)، وعبد الرزاق فى مصنفه (٣/ ٢٤)، وابن سعد فى طبقاته (٣/ ٧٥)، والبيهقى فى سننه الكبرى.

وقال سليمان بن يسار ـ رحمه الله ـ: قام عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ بعد العشاء فقرأ القرآن كله فى ركعة لم يُصلِّ قبلها ولا بعدها[١].

و«كان ـ رضى الله عنه ـ يقرأ القرآن فى ركعة، ثم يُوتر بها»[٢].

وعن ابن سيرين قال: قالت امرأة عثمان حين قُتل: لقد قتلتموه، وإنه ليُحيى الليل كله بالقرآن فى ركعة[٣].

قال الحافظ ابن كثير: «وقد رُوى من غير وجه أنه صلَّى بالقرآن العظيم فى ركعة واحدة عند الحجر الأسود، أيام الحج، وقد كان هذا من دأبه ـ رضى الله عنه ـ ولهذا روينا عن ابن عمر أنه قال فى قوله تعالى:

﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر:٩].

قال: هو عثمان بن عفان».

وقال فيه حسان بن ثابت:

ضحَّوا بأشمطَ عُنوانُ السُّجود به ... يُقطِّعُ الليلَ تسبيحًا وقُرآنا

قال النووى فى «التبيان» (٥٥): «فمن الذين كانوا يختمون الختمة فى اليوم والليلة: عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ وتميم الدارى، وسعيد بن جبير، ومجاهد، والشافعى، وآخرون».

وكان ـ رضى الله عنه ـ لا يوقظ أحدًا من أهله إذا قام من الليل ليعينه على وضوئه، إلا أن يجده يقظانًا، وكان يصوم الدهر، وكان يعاتَب، فيقال: لو أيقظت بعض الخدم؟ فيقول: لا! الليل لهم يستريحون فيه[٤].

وعن الحسن، قال: قال عثمان: «لو أن قلوبنا طهرت ما شبعنا من كلام ربنا، وإنى لأكره أن يأتى علىَّ يوم لا أنظر فى المصحف» وما مات عثمان حتى خُرق مصحفه من

---

(١) صحيح: أخرجه ابن المبارك وابن سعد وابن عساكر.

(٢) إسناده صحيح: أخرجه الطحاوى والبيهقى (٣/ ٢٥)، وابن أبى داود، وصحَّح إسناده الشيخ شعيب الأرناؤوط، والشيخ زهير الشاويش فى تحقيق شرح السنة (٤/ ٤٩٩).

(٣) الزهد (ص ١٢٧) لأحمد بن حنبل.

(٤) البداية والنهاية للحافظ ابن كثير (٥/ ٣٠٧).

كثرة ما يُديم النظر فيه(١).

وقُتل ـ رضى الله عنه ـ والمصحف فى حجره.

تجارة رابحة مع الله تعالى

عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال: «قحط الناس فى زمان أبى بكر، فقال الخليفة لهم: إن شاء الله لا تُمسون غداً حتى يأتيكم فرج الله.. فلما كان صباح الغد، قدمت قافلة لعثمان، فغدا عليه التجار، فخرج إليهم وعليه مُلاءة قد خالف بين طرفيها على عاتقه، وسألوه أن يبيعهم قافلته.

فسألهم: كم تُربحوننى؟ قالوا: العشرة اثنى عشر، قال: قد زادنى، قالوا: فالعشرة خمسة عشر، قال: قد زادنى، قالوا: من الذى زادك، ونحن تجار المدينة؟ قال: إنه الله، زادنى بكل درهم عشراً، فهل لديكم أنتم مزيد؟ فانصرف التجار عنه، وهو ينادى: اللهم إنى وهبتها فقراء المدينة بلا ثمن، وبلا حساب»(٢).

خلافته الراشدة

ولما آلت الخلافة إلى عثمان بن عفان ـ رضوان الله عليه ـ فتح الله على يديه «أرمينية» و«القوقاز»... ونصر المسلمين وسوَّدهم على «خُراسان»، و«كرمان»، و«سجستان»، و«قبرص» وطرفٍ غير قليل من إفريقية.

ولقى الناس فى عهده من الثراء ما لم يحظ به شعبٌ على ظهر الأرض.

حدَّث الحسن البصرى ـ رضى الله عنه ـ عما نعم به الناس فى عهد ذى النورين من الرخاء وبُلهنية(٣) العيش...

وما غُمروا(٤) به من الهناءة والطمأنينة وقال: رأيت مُنادى عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ ينادى قائلاً: أيها الناس اغدوا على أُعطياتكم(٥). فكان الناس يغدون عليها،

---

(١) البداية والنهاية (٥/ ٣٠٧).

(٢) خلفاء الرسول/ لخالد محمد خالد (ص ٢٤٦).

(٣) بُلهنية العيش: الرفاهية والرخاء.

(٤) غُمروا: غَمَر الشيء ـ غمراً: علاه وستره. ويقال: غمر فلانٌ فلانًا: غطَّاه بفضله.

(٥) اغدوا على أعطياتكم: هلموا إلى العطايا التى تستحقونها.

ويأخذونها وافيةً...

أيها الناس أقبلوا على أرزاقكم[١]. فكانوا يقبلون عليها، فيعطونها غزيرة وفيرة[٢]. ولقد سمعته ـ والله ـ أذُناى وهو يقول: اغدوا على كسوتكم. فكانوا يأخذون الحُلل السابغة[٣]، وكان يقول: هلموا على السمن والعسل أيضًا.

ولا غرو فلقد كانت الأرزاق فى عهد عثمان دارة[٤]... وكان الخير كثيرًا. وذات البين[٥] سعيدة، ولم يكن على ظهر الأرض مؤمنٌ يخافُ مؤمنًا، وإنما كان المسلم يألف المسلم، ويواده، وينصره[٦].

جمع القرآن فى عهده

عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ: أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان، وكان يغازى أهل الشام فى فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم فى القراءة فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين أدرِك هذه الأمة قبل أن يختلفوا فى الكتاب اختلاف اليهود والنصارى. فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلى إلينا بالصحف ننسخها فى المصاحف ثم نردها إليك. فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد ابن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها فى المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شىء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم، ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف فى المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة فأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن فى كل صحيفة أو مصحف أن يُحرق[٧].

* * *

(١) أرزاقكم: رواتبكم.
(٢) غزيرة وفيرة: كثيرة.
(٣) الحُلل السابغة: الحلل الطويلة الواسعة.
(٤) دارة: أى مستمرة.
(٥) ذات البين: المراد الأحوال بين الناس.
(٦) صور من حياة الصحابة (ص ٥٦٨: ٥٦٩).
(٧) أخرجه البخارى (٤٩٨٧) عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ.

خوفه ـ رضي الله عنه ـ

كان عثمان ـ رضي الله عنه ـ إذا وقف على قبر يبكي حتى يبلّ لحيته، فقيل له: تذكر الجنة والنار، فلا تبكي، وتذكر القبر فتبكي؟ فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «القبر أول منزل من منازل الآخرة، فإن نجا منه، فما بعده أيسر، وإن لم ينج منه فما بعده أشد».

قال: وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما رأيت منظرًا قط إلا والقبر أفظع منه»(١).

وعن عبد الله بن الرومي، قال: «بلغني أن عثمان ـ رضي الله عنه ـ قال: «لو أني بين الجنة والنار، ولا أدري إلى أيتهما يؤمر بي، لاخترت أن أكون رمادًا قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير».

عدله ـ رضي الله عنه ـ

وها هي صفحة ناصعة البياض من عدله ـ رضي الله عنه ـ.

عثمان الرحيم الذي تشع الرحمة في حياته، وتكون نبراسًا لكل تصرفاته، يغضب على خادم له يومًا، فيفرك أذنه حتى يوجعه... ثم سرعان ما يدعو خادمه ويأمره أن يقتص منه فيفرك أذنه... ويأبى الخادم، ويأمره في حزم فيطيع: «اشدد يا غلام، فإن قصاص الدنيا أرحم من قصاص الآخرة».

إقامة عثمان ـ رضي الله عنه ـ الحدود على القريب والبعيد

من عظام الأعمال وكبارها في خلافته ظهور حدود الله تعالى.

فهذا الوليد بن عقبة من أقرب الناس إليه، إنه أخوه لأمه، ومع ذلك لم تأخذه شفقة عليه ولا رحمة.

قال الحافظ في «الفتح» (٧/ ٥٦): «إنما أخّر إقامة الحدّ عليه ليكشف عن حال من شهد عليه بذلك، فلما وضح له الأمر أمر بإقامة الحدّ عليه».

قال حنين بن المنذر: شهدت عثمان بن عفان، وأتي بالوليد قد صلى الصبح ركعتين،

---

(١) رواه الترمذي وابن ماجة، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٤٦١).



ثم قال: أزيدكم؟

فشهد عليه رجلان؟ أحدهما (حُمران) أنه شرب الخمر، وشهد آخر أنه رآه يتقيأ، فقال عثمان: إنه لم يتقيأ حتى شربها، فقال: يا عليّ قم فاجلده، فقال عليّ: قم يا حسن فاجلده، فقال الحسن: ولِّ حارَّها من تولى قارَّها[1] ـ فكأنه وجد عليه ـ فقال: يا عبد الله بن جعفر، قم فاجلده، فجلده ـ وعليّ يعدّ ـ حتى بلغ أربعين، فقال: أمسك، ثم قال: جلد النبيﷺ أربعين، وجلد أبو بكر أربعين، وعمر ثمانين، وهذا أحبّ إليّ»[2].

وفي رواية: «وكلٌّ سُنَّة».

وقفات المؤمنين للدفاع عن (ذي النورين)

عجبًا ثم عجبًا لمن ينقمون على ذي النورين ـ رضي الله عنه ـ!!!

هل ينقمون على عدله أم على جُوده أم على رحمته أم على إيمانه أم على أنه من العشرة المبشرين بالجنة؟!!!

قال الحسن البصري ـ رحمه الله ـ: «أدركت عثمان على ما نقموا عليه، قلّما يأتي على الناس يوم إلا وهم يقتسمون فيه خيرًا، فيُقال لهم: يا معشر المسلمين، اغدوا على أعطياتكم، فيأخذونها وافرة، ثم يُقال لهم: اغدوا على أرزاقكم فيأخذونها وافرة، ثم يُقال لهم: اغدوا على السمن والعسل.

الأعطيات جارية، والأرزاق دائرة، والعدو منفي، وذات البين حسن، والخير كثير، وما مؤمن يخاف مؤمنًا، من لقيه فهو أخوه مَنْ كان، أُلفتُه، ونصيحته، ومودته، قد عُهد إليهم أنها ستكون أثرة، فإذا كانت أن تصبروا.

ولو أنهم صبروا حين رأوها لوسعهم ما كانوا فيه من العطاء والرزق والخير الكثير، قالوا: لا والله ما نصابرها، فوالله ما رُدّوا ولا سلموا.

والأخرى كان السيفَ مغمدًا على أهل الإسلام، ما على الأرض مؤمن يخاف أن يسل مؤمن عليه سيفًا حتى سلّوه على أنفسهم،فوالله ما زال مسلولاً إلى يوم الناس هذا.

---

(١) ولِّ حارها من تولى قارها: قال الأصمعي: ولِّ شديدها من تولى هينها، والقارد البارد... أي ولِّ العقوبة والضرب من توليه العمل والنفع.

(٢) أخرجه مسلم، وأحمد في مسنده، وابن شبة في تاريخ المدينة (٣/ ١٩٧٣) وابن الأثير في أسد الغابة (٥/ ٤٥٣).

وأيم الله إنى لأراه سيفًا مسلولاً إلى يوم القيامة»(١).

يقول عروة بن الزبير ـ رحمه الله ـ: «أدركت زمن عثمان ـ رضى الله عنه ـ وما من نفس مسلمة إلا ولها فى مال الله حق»(٢).

لين جانبه ورحمته بالرعية

من شمائل عثمان ـ رضى الله عنه ـ: لين جانبه، ورأفة قلبه، وإحسانه إلى الرعية، ولينه معهم، وخروج أهل الزور والبهتان عليه، وقتله مظلومًا.

قال ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ: «لقد عبتم على عثمان أشياء، لو أن عمر فعلها ما عبتموها»(٣).

وقال الحسن البصرى ـ رحمه الله ـ: «عمل أمير المؤمنين عثمان ثنتى عشرة سنة لا ينكرون من إمارته شيئًا، حتى جاء فَسَقَة فداهن والله فى أمره أهل المدينة»(٤).

ومن المواقف التى تبدو فيها شفقته بالرعية جليًا، ما رواه موسى بن طلحة يقول: سمعت عثمان بن عفان، وهو على المنبر، والمؤذن يقيم الصلاة، وهو يستخبر الناس عن أخبارهم وأسعارهم، وعن مرضاهم»(٥).

هذا عثمان فأين مثل عثمان ـ رضى الله عنه ـ؟!

عُباب البحر تنقص منه قدرًا ... إذا شبهتــــه قلبًا ذمامًا(٦)

ولله در القائل:

ألم تر أن السيف ينقص قـــدره ... إذا قيل أن السيف أمضَى من العصا

* * *

---

(١) إسناده حسن: أخرجه ابن عساكر، والطبرانى فى الكبير، وقال الهيثمى فى المجمع (٩/ ٩٤): إسناده حسن، وأخرجه ابن شبة فى تاريخ المدينة.

(٢) إسناده حسن: أخرجه ابن شبة.

(٣) إسناده صحيح: أخرجه ابن أبى شيبة فى مصنفه.

(٤) إسناده صحيح: أخرجه البخارى فى التاريخ الصغير، وابن عساكر فى تاريخه.

(٥) إسناده صحيح: أخرجه أحمد فى مسنده، وابن سعد فى طبقاته.

(٦) القلب الذمام: الآبار الصغيرة.

جملة الافتراءات والرد عليها

١ ـ قولهم أنه ـ أى عثمان ـ لم يقتل عبيد الله بن عمر بالهرمزان مع ظهور القصاص ووجوبه:

والجواب: أن عثمان ـ رضى الله عنه ـ دفع ديته من ماله بعد أن شاور الصحابة؛ لأنه ولى دم القتيل الذى لم يكن له ولى، وفقًا لقاعدة: «السلطان ولى من لا ولى له»[١].

ولقد ردّ ابن العربى ردًا شافيًا وكافيًا فى «العواصم من القواصم»: أما تلك القصة سندًا ومتنًا ففيها اضطراب، يقول ابن عبد البر: «قصته فى قتل الهرمزان وجفينة، وبنت أبى لؤلؤة، ففيها اضطراب، وفى الرواية الصحيحة أن عثمان ـ رضى الله عنه ـ تشاور مع المهاجرين والأنصار، ولم يقتل مسلمًا بكافر، وأعطى الدية بدلاً من ذلك فأى مخالفة فى ذلك؟»[٢].

٢ ـ قولهم: إن عثمان ـ رضى الله عنه ـ ولّى أقاربه ـ يعنى الولاية ـ:

مما قاله المفترون فى هذا الشأن عن عثمان : أنه ولّى أقاربه : معاوية، وعبد الله بن عامر بن كريز، ومروان، والوليد بن عقبة، وأعطى مروان خُمس إفريقية.

قال ابن العربى ـ رحمه الله ـ: هذا كله باطل سندًا ومتنًا، فأما معاوية: (فعمر) ولاه، وجمع له الشام كلها، وأقره عثمان، وأما عبد الله بن كريز، فولاه كما قال: لأنه كريم العمّات والخالات.

وأما تولية الوليد بن عقبة فقد قال عثمان: ما وليته لأنه أخى، وإنما وليته لأنه ابن أم حكيم عمة النبى ﷺ وتوأمة أبيه.

والولاية اجتهاد، وقد عزل عمر سعد بن أبى وقاص، وقدّم أقل منه درجة.

ومروان رجل عدل من كبار الأئمة عند الصحابة والتابعين وفقهاء المسلمين، والفقهاء على تعظيمه، والتلفت إلى فتواه، والانقياد إلى روايته، أما السفهاء من المؤرخين والأدباء فيقولون على أقدارهم.

وأما الوليد وحدّه فى الخمر، فقد حدّ عمر قدامة بن مظعون على الخمر، وهو أمير

---

(١) تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزى (٤/ ٢٣٩، ٢٤٠).

(٢) العواصم من القواصم لابن العربى (ص٧٧، ١١٦).

وعزله، وليست الذنوب مُسقطة للعدالة إذا وقعت منه التوبة.

وإما إعطاؤه خُمس إفريقية لواحد فلم يصح.

وأما توليته لعبد الله بن أبى سرح، وهو الذى ارتد بعد إسلامه، فلقد تاب وعاد وحَسُن إسلامه، وجاهد جهاد الأبرار، ومات بين التسليمتين، ومعلوم أن الذنوب ليست مسقطة للعدالة إذا وقعت منها التوبة.

٢ ـ قولهم بأنه أخرج أبا ذر إلى الربذة:

وهذا ظلم عظيم، ومنكر أثيم... فعثمان ـ رضى الله عنه ـ أعدل وأفضل من أن يفعل بالأفاضل من الصحابة ما لا يستحقون، أو ينالهم بمكروه؛ وإنما كان هذا من عثمان تخييراً لأبى ذر والدليل على ذلك ما رواه زيد بن وهب قال: «مررتُ بالربذة، فقلت لأبى ذر ـ رضى الله عنه ـ: ما أنزلك هذا المنزل؟ فقال: أُخبرك.. إنى كنت بالشام فتذاكرت أنا ومعاوية هذه الآية:

﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [التوبة:٣٤].

فقال معاوية: هذه نزلت فى أهل الكتاب، وقلت أنا: هى فيهم وفينا، فكتب معاوية إلى عثمان فى ذلك فكتب إلىّ: أن أقدم علىّ، فقدمتُ عليه فانثال علىّ الناس كأنهم لم يعرفونى فشكوت ذلك إلى عثمان، فخيّرنى فقال: انزل حيث شئت»[(١)].

وقال عبد الله بن الصامت: «دخلت مع أبى ذر فى رهط من غِفار على عثمان بن عفان من الباب الذى لا يُدخل عليه منه، قال: وتخوفنا عثمان عليه، فانتهى إليه فسلّم عليه، قال: ثم ما بدأه بشىء إلا أن قال: أحسبتنى منهم يا أمير المؤمنين؟! والله ما أنا منهم ـ يعنى الخوارج ـ ولا أدركهم، ولو أمرتنى أن أعضّ على عرقوبى قتب لعضضت عليهما حتى يأتينى الموت وأنا عاض عليهما.

قال: صدقت يا أبا ذر، إنا إنما أرسلنا إليك لخير؛ لتجاورنا بالمدينة.

قال: لا حاجة لى فى ذلك، ثم استأذنه فى الربذة، فقال: ائذن لى فى الربذة.

قال: نعم نأذن لك، ونأمر لك بنَعَم من نعم الصدقة تغدو عليك وتروح فتصيب من رسلها[(٢)].

---

(١) حديث صحيح: أخرجه أبو نعيم (١٣٩) فى «تثبيت الإمامة».

(٢) يعنى اللبن.

قال: لا حاجة لنا في ذلك، يكفي أبا ذر صرمته[١] ثم خرج فنادي: دونكم معاشر قريش، دنياكم فاعذموها لا حاجة لنا فيها، ودعونا وديننا[٢].

قال غالب القطان: قلت للحسن البصري: أعثمان أخرج أبا ذر؟ قال: لا... معاذ الله[٣].

وكان محمد بن سيرين ـ رحمه الله ـ إذا ذُكر له أن عثمان بن عفان سيَّره أخذه أمر عظيم، ويقول: هو خرج من قِبَل نفسه، ولم يُسيِّره عثمان ـ رضي الله عنه ـ[٤].

٤ ـ قولهم بأنه حرق المصاحف:

فالجواب: قال علي بن أبي طالب: «... فوالله ما حرقها إلا على ملأ من أصحاب رسول الله ﷺ ،... جمَعَنا وقال: ما تقولون في هذه القراءة التي اختلف الناس فيها، يلقى الرجلُ الرجلَ، فيقول: قراءتي خير من قراءتك وهذا يُجر إلى الكُفْر، فقلنا: ما الرأي؟ قال: أريد أن أجمع الناس على مصحف واحد، فإنكم إن اختلفتم اليوم كان مَنْ بعدكم أشد اختلافًا، فقلنا: نِعْم ما رأيت»[٥].

٥ ـ قولهم بأنه رد طريد رسول الله ﷺ (الحكم بن العاص):

فالجواب عن ذلك بأن الإمام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ قال:

«لم تثبت من الأصل وليس لها إسناد».

٦ ـ إعطاء العطاء من مال الصدقة:

ومن تلك المطاعن الواهية: أنه أمر بالعطاء من مال الصدقة وأن الناس أنكروه.

وللرد على ذلك يقول أبو نعيم الأصبهاني ـ رحمه الله ـ:

«عثمان ـ رضي الله عنه ـ أعلم ممن أنكر عليه، وللأئمة إذا رأوا المصلحة للرعية في شيء أن يفعلوه ولا تجعل إنكار مَن جهل المصلحة حُجة على من عرفها، ولا يخلو زمان

---

(١) الصرمة: القطعة من الإبل.

(٢) صحيح: أخرجه ابن سعد في «طبقاته» (٤/ ٢٣٢)، وابن شبة في «تاريخ المدينة» (٣/ ١٠٣٦، ١٠٤١) وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٦٠).

(٣) إسناده حسن: أورده الذهبي في «تاريخ الإسلام» وابن شبة (٣/ ١٠٣٧).

(٤) إسناده حسن: أخرجه ابن شبة (٣/ ١٠٣٧).

(٥) منهاج السنة (٦/ ٢٥٢ ـ ٢٥٣).

من قوم يجهلون وينكرون الحق من حيث لا يعرفون.

ولا يلزم عثمان فيما أمر به إنكار من أنكر لما رأى من المصلحة، فقد فرّق رسول الله ﷺ غنائم حنين في المؤلفة قلوبهم يوم الجعرانة، وترك الأنصار لما رأى من المصلحة حتى قال قائلهم: تقسم غنائمنا في الناس وسيوفنا تقطر من دمائهم؟!

فكان الذي دعاهم إلى الإنكار على ما فعل رسول الله ﷺ قلة معرفتهم بما رأى من المصلحة فيما قسم، وكان أعظم من إنكار مَنْ أنكر على عثمان ـ رضي الله عنه ـ لأن مال المؤلفة من الغنيمة، فلا يلزم عثمان ـ رضي الله عنه ـ من إنكار مَن أنكر عليه شيئًا إلا ما لزم رسول الله ﷺ حين رأى المصلحة فيما فعل اقتداءً بنبيه ﷺ »[1].

٧ ـ الطعن عليه بأنه ضرب عمار بن ياسر وعبد الله بن مسعود:

أما الطعن عليه بأنه ضرب عمارًا حتى فتق أمعاءه!! فقال أبو نعيم في «تثبيت الإمامة»: هذا غير ثابت عنه، وقال ابن العربي: وأمّا ضربه عمارًا فزور، وإفك. ودعوى ضربه ابن مسعود، وكسر أضلاعه، ومنعه عطاءه سنتين!! كل هذا باطل وزور، ولا أصل له[2].

بل لقد قال الإمام ابن تيمية: «فإن قيل إن عثمان قد ضرب ابن مسعود وعمار، فهذا لا يقدح في واحد منهم، فإنا نشهد أن الثلاثة في الجنة، وأنهم من أكابر أولياء الله المتقين، ولقد ضرب عمر، أُبيّ بن كعب، بالدرة لما رأى الناس يمشون خلفه، وقال: «ذلة للتابع، وفتنة للمتبوع»[3].[4]

ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ ودفاعه عن عثمان ـ رضي الله عنه ـ

جاء رجل من أهل مصر وحج البيت فرأى قومًا جلوسًا فقال: من هؤلاء القوم؟ فقالوا: هؤلاء قريش، قال: فمن الشيخ فيهم؟ قالوا: عبد الله بن عمر، قال: يا ابن عمر إني سائلك عن شيء فحدثني عنه. هل تعلم أن عثمان فرّ يوم أُحُد؟ قال: نعم. فقال:

(١) «تثبيت الإمامة» لأبي نعيم (ص ١٤٩) نقلاً عن سيرة وحياة ذي النورين عثمان بن عفان، تأليف مجدي فتحي السيد (ص ٩٤) ـ دار الصحابة بطنطا.

(٢) تثبيت الإمامة/ لأبي نعيم (ص ١٥١ ـ ١٥٢).

(٣) منهاج السنة (٣/ ١٩٢).

(٤) نقلاً من ترطيب الأفواه (ص ١٤١: ١٤٧) بتصرف.

تعلم أنه تغيب يوم بدر ولم يشهد؟ قال: نعم، قال الرجل: هل تعلم أنه تغيّب عن بيعة الرضوان فلم يشهدها؟ قال: نعم، قال: الله أكبر.

قال ابن عمر: تعال أُبيّن لك. أما فراره يوم أُحُد فأشهدُ أن الله عفا عنه وغفر له، وأما تغيّبه عن بدر فإنه كان تحته بنت رسول الله ﷺ وكانت مريضة، فقال له رسول الله ﷺ: إن لك أجر رجل ممن شهد بدرًا وسهمه، وأما تغيّبه عن بيعة الرضوان فلو كان أحد أعز ببطن مكة من عثمان لبعثه مكانه.. فبعث رسول الله ﷺ عثمان، وكانت بيعةُ الرضوان بعدما ذهب عثمان إلى مكة، فقال رسول الله ﷺ: هذه يد عثمان فضرب بها على يده فقال: هذه لعثمان، فقال له ابن عمر: اذهب بها الآن معك(١).

عتاب يجعل القلب يبكي الدماء بدل الدموع (وقت الحصار)

عن أبي أُمامة بن سهل قال: كنا مع عثمان وهو محصورٌ في الدار، وكان في الدار مدْخلٌ من دخله سمع كلام من على البلاط فدخله عثمان فخرج إلينا وهو متغير لونه فقال: إنهم ليتواعدونني بالقتل آنفًا قال: قلنا: يكفيكهم الله يا أمير المؤمنين قال: ولِمَ يقتلونني؟ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يحلُّ دمُ امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: كفرٌ بعد إسلام، أو زنًا بعد إحصان، أو قتل نفس بغير نفس، فوالله ما زنيت في جاهلية ولا في إسلام قط، ولا أحببت أن لي بديني بدلاً منذ هداني الله ولا قتلت نفسًا فبم يقتلونني»(٢).

وعن أبي عبد الرحمن أن عثمان ـ رضي الله عنه ـ حين حُوصر أشرف عليهم وقال: «أنشُدُكُم الله، ولا أنشُدُ إلا أصحاب النبي ﷺ: ألستم تعلمون أن رسول الله ﷺ قال: من حفر رومة (البئر) فله الجنة فحفرتُها؟ ألستُم تعلمون أنه قال: من جهَّز جيش العسرة فله الجنةُ فجهزتُه؟ قال: فصدَّقوه بما قال(٣).

❊ ❊ ❊

(١) أخرجه البخاري عن عثمان ـ ابن موهب ـ (٣٦٩٨) والترمذي (٣٧٠٦).
(٢) رواه أبو داود (٤٥٠٢) وأحمد (١/ ٦١ ـ ٦٢) والنسائي (٧/ ٩١ ـ ٩٢) وإسناده صحيح.
(٣) أخرجه البخاري (٢٧٧٨) معلقًا وهو صحيح لشواهده.

وحان وقت الرحيل

ولما اشتدَّ حصار الثُّوار لداره، قال للصحابة الذين تجمَّعوا حول داره ليُواجهوا الثُّوَّار بالسلاح: «إن أعظمكم عنى غَنَاءً، رجلٌ كفَّ يده وسلاحه!!».

ويقول لأبى هريرة وقد جاء شاهراً سلاحه مُدافعًا عنه: «أما إنك والله لو قتلت رجلاً واحداً، لكأنما قتلتَ الناس جميعًا».

ويقول للحسن والحسين وابن عمر وعبد الله بن الزبير، وشباب الصحابة الذين أخذوا مكانهم لحراسته: «أُناشدكم الله وأسألكم به، ألا تُراق بسببى مِحْجَمَة دمٍ».

قال ابن عمر: جاء (علىٌّ) إلى عثمان يوم الدار، وقد أغلق الباب ومعه الحسن بن على وعليه سلاحه، فقال للحسن: ادخُل إلى أمير المؤمنين، وأقرئه السلام، وقُل له: إنما جئتُ لنُصرتك، فمُرنى بأمرك. فدخل الحسن ثم خرج، فقال لأبيه: إن أمير المؤمنين يُقرئك السلام، ويقول لك: لا حاجة لى فى قتال وإهراق الدماء. قال: فنزع (علىٌّ) عمامةً سوداءَ فرمى بها بين يدى الباب، وجعل ينادىَ:

﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ [يوسف:٥٢](١).

لله دَرُّك يا عثمان.. رحمةٌ جامعة تغطى بعطائها المقسط جلائل الأحداث وصغارها، فللخادم منها حظه وحقه فى أن ينعم براحة النوم، وإن أضنى الخليفة نفسه وشيخوخته فى ظلمة الليل البهيم... ولقطرات الدم حظها وحقها فى أن تنعم بالسلام والعافية، وإن كان بديل ذلك أن تزهق روح الخليفة الشيخ بيد مُعتد أثيم، وغادر زنيم.. توغَّلت الرحمةُ فى حياته وفى سلوكه، حتى اقتضته آخر الأمر حياتَه نفسها، فجاد بها.

ولقد كان من الطبيعى لرجل وسعت رحمته الناس جميعًا، أن تغطى رحمته ذوى قُرباه... قال على ـ رضى الله عنه ـ: «أوصلنا للرحم عثمان». لقد كان عثمان فى ذلك نسيج وحده(٢).

* * *

(١) التبصرة (١/ ٤٣١).

(٢) صلاح الأمة/ د. سيد حسين (٦/ ٦٢).

ومن للعظائم غيرُ العظيم.

عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ﷺ : «يا عثمان، إن الله مُقمِّصُك قميصًا، فإن أرادك المنافقون على خلعه، فلا تخلعه حتى تلقاني»(١).

لله درُّه في محنته.. محنةٌ هبطت بها شراسةُ المتآمرين إلى السَّفح، وارتفع بها تسامح الخليفة إلى القمة.

قال رسول الله ﷺ: «إذا مشت أمتي المُطيطاء، وخدمها أبناءُ الملوك؛ أبناء فارس والروم، سُلِّط شرارها على خيارها»(٢).

مؤامرة يتولاها ويُعدُّ لها الناقمون على الإسلام كله (الدين والدولة والأمة).

لقد سيطر على رُوع الخليفة واجب ـ وهو يرى المدَّ المتآمر ـ بدا له ـ يومئذ ـ أنه أهمّ الواجبات وأقدسها؛ ذلكم هو «المحافظة الكاملة على هيبة الدولة وسلطانها». فهذه الفتنة المخربة، والتمرد الآبق، يهدفان إلى هدم كيانها ودحر قيمها، واعتصامُ الدولة بكبريائها وسلطانها، يُصبح واجبها الأول ومسئوليتها المقدسة. لقد وعى خليفتنا عهد رسول الله إليه ببصرٍ ثاقب، وحمل مسئوليته بعزمٍ مجيد.

من شاء أن يُبصر علو الهمة في الاستمساك، في أجلّ وأروع وأبهى صوره، لا للفوضى، حتى ولو كان فيها قتله: تُواتيه فرصة قتال الثُوّار وقتلهم، فيرفضها.

ومع هذا، حين أخرج الثُوّار ورقتهم الأخيرة، ورفعوا عقائرهم في جُرأةٍ ضارية: «إما اعتزال عثمان، وإما قتله». في ثبات مُذهل يرفض الخليفة أن يعتزل.

أيمكن لرجل جاوز الثمانين، أن يستبد به طموح المنصب ومجده وجاهه، والأخطار والمهالك على هذا النحو المُزلزل الرهيب.

لقد رفض عثمان أن يعتزل؛ لأنه «رجل مسئوليات» من طرازٍ فريد.

وهذا الخُلق كان مخبوءًا تحت ستار تواضعه وحيائه، وما كنا سنراه متألقًا كالشمس

(١) صحيح: أخرجه أحمد والترمذي، وابن ماجه والحاكم، وابن حبان، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٧٩٤٧).

(٢) صحيح: أخرجه الترمذي عن ابن عمر، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٨٠١).

فى رابعة النهار، إلا فى أزمة كهذه.. ومحنة كهذه.. وموقف كهذا الموقف الزاخر العظيم... أفيرضخ ويُسلِّم مصاير الإسلام، وكرامة الدولة، لعصابةٍ مفتونة؟ لا، وألف لا.

قال له ابن عمر: «لا تَسُنّ هذه السنة فى الإسلام، ولا تخلع قميصًا ألبسكه الله».

منعوه زوّاده، ومنعوه الماء.. الذى تتفجر به بئر رومة التى اشتراها من خالص ماله وأهداها للمسلمين.

سبحان الله! ما أعلى هذه الهمة... صبر على حقن الدماء ولو سالت دماؤه... وحفاظ على هيبة الدولة ولو ذُبح.

حاصروه أربعين يومًا، وعنده فى الدار من المهاجرين والأنصار قريبٌ من سبعمائة، وخلقٌ من مواليه، ولو تركهم لمنعوه، فقال لهم: أُقسم على من لى عليه حقّ، أن يكُفَّ يده، وأن ينطلق إلى منزله. وقال لرقيقه: مَن أغمدَ سيفه فهو حُرّ.

عن نافع عن ابن عمر، أن عثمان ـ رضى الله عنه ـ أصبح يحدِّث الناس، قال: رأيت النبىﷺ فى المنام فقال: «يا عثمان، أفطر عندنا»، فأصبح صائمًا وقُتل من يومه(١).

واستسلم عثمان لأمر الله رجاء موعوده، وشوقًا إلى رسولهﷺ ، ليكون خيرَ ابنى آدم:

﴿إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة:٢٩].

كان عثمان أكثر الناس يقينًا بصدق رؤياه.. سينطلق فى عُرسه العظيم إلى رحاب الله وجوار محمدﷺ ورحلة الخلود.

ولما أصابوا كفه قال: «والله إنها لأول يدٍ خطَّت المُفصل وكتبت آى القرآن».. وسال الدم على قوله تعالى:

﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة:١٣٧].

لقد كان همه ألا تسقط راية الخلافة من يمينه.. وألا يلقى الله ـ حتى يلقاه ـ وعلى يديه قطرةٌ واحدة من دماء مسلمة.

(١) البداية والنهاية للحافظ ابن كثير (٧/ ١٩٠).

وحين تمدد جثمانه الطهور، كان كتاب الله لصيقهُ وصديقهُ.. ومَنْ أولى بذلك منه؟! وهو الذي وحَّده، وحفظه وافتداه.

ضحَّوا بأشمطَ عنوانُ السُّجود به   يُقطِّعُ الليلَ تسبيحًا وقُرآنا[1]

إن الله يدافع عن الذين آمنوا

إن الله ـ عز وجل ـ تكفَّل لأوليائه المؤمنين بالدفاع عنهم في حياتهم، بل وبعد موتهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج:٣٨].

وقال تعالى في الحديث القدسي: «من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب...»[2].

وقد يسأل سائل ويقول: ولِمَ لم يدافع الله عنه عند قتله؟!

أقول: إن قَتْلَه هو أعظم دفاعٍ عنه.... فقد رزقه الله الشهادة بذلك مصداقًا لقول النبي ﷺ الذي بشَّره بها.

وها هي صورة مشرقة من دفاع الله عن عثمان ـ رضي الله عنه ـ بعد موته ـ هذا غير العذاب الذي سيلاقيه قاتلوه يوم القيامة عند ربهم ـ.

عن أبي قلابة قال: «كنت في رفقة بالشام، وسمعت صوت رجل يقول: «يا ويلاه النار». قال: فقمت إليه، وإذا رجل مقطوع اليدين والرجلين من الحقوين، أعمى العينين، منكبًا لوجهه، فسألته عن حاله فقال:

إني كنتُ ممن دخل على عثمان الدار، فلمَّا دنوت منه صرخت زوجته فلطمتها، فقال (أي عثمان): «ما لك، قطع الله يديك، ورجليك، وأعمى عينيك، وأدخلك النار»، فأخذتني رعدة عظيمة، وخرجت هاربًا، فأصابني ما ترى، ولم يبق من دعائه إلا النار. قلت له: بُعدًا لك وسُحقًا[3].

وقال يزيد بن حبيب: «إن عامة الذين ساروا إلى عثمان جنُّوا»[4].

---

(١) صلاح الأمة/ د. سيد حسين (٦/ ٦٤: ٦٦).

(٢) أخرجه البخاري عن أبي هريرة ـ باب التواضع ـ كتاب الرقاق.

(٣) الرياض النضرة في مناقب العشرة للطبري (٥٠٧) تحقيق/ د. حمزة النشرتي.

(٤) قال الهيثمي في المجمع (١٤٥٥٣): رواه الطبراني وإسناده حسن.

أي أُصيبوا بالجنون.

ورحل الشهيد عن دنيا الناس بعد حياة طويلة مليئة بالبذل والتضحية والجهاد والعدل والسماحة والتواضع.

رحل بعد أن سالت دماؤه التي لطالما امتزجت بُحب الله وحُب رسوله ﷺ... سالت دماؤه الشريفة التي انصهرت مع كل آية من آيات القرآن الكريم.

رحل بعد أن قدّم للإسلام الكثير والكثير.

وها نحن بعد هذا الزمان الطويل نذكره ونذكر أعماله الجليلة، ولن ننساه أبداً ما دامت أرواحنا في أجسادنا.

فرضي الله عن عثمان وعن سائر الصحابة أجمعين

* * *

علي بن أبي طالب

أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى
إلا أنه لا نبوة بعدى

محمد رسول الله ﷺ

وها نحن نفتح صفحة... أقصد صفحات مضيئة، بل ومليئة بالزهد والورع والخشية والتضحية والجهاد بالنفس والنفيس فى سبيل الله جل وعلا.

إنه على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ.

إنه البطل... بل حيدرة الأبطال الذى عاش لله بقلبه وجوارحه.

إنه التقى الذى تربَّى فى حقل الإسلام وسُقى بماء الوحى، فكان زهرة يانعة طاب ريحها وملأ أرجاء الكون كله.. وما زلنا نشم عطر سيرته حتى يومنا هذا، وسيظل هذا العبير ينشر عطره عبر العصور والأزمان على أرجاء الكون ليعلم الكون كله كيف استطاع الحبيب ﷺ أن يربّى أصحابه ليكونوا نُجومًا فى سماء الدنيا تضىء للناس طريقهم إلى الله.

وكيف لا؟! وهو الذى ربّاه الخالق ـ جل جلاله ـ ليربّى به الأمم والأجيال عبر العصور والأزمان.

إنه وهو فى السادسة من عمره بدأ يعيش مع «محمد» الصادق الأمين، يتأدّب على يديه، ويتأثر بطهره، وعظمة نفسه، وتُقَى ضميره وسلوكه.. وحين بلغ العاشرة، كان الوحى قد أمر الرسول بالدعوة.. وكان هو سابق المسلمين!!

وسارت حياته من ذلك اليوم إلى أن يجىء اليوم الذى سيلقى فيه ربه.. تطبيقًا كاملاً وأمينًا لمنهج الرسول وتعاليم القرآن..

ألا بُوركت هذه الحياة!!

حياة لم تكن لها صَبْوَة، ولا شهوة، ولا هفوة.!!

حياة: وُلْد صاحبها، وتبعاتُ الرجال فوق كاهله!!

حتى لهُو الأطفال. لم يكن لحياة (على بن أبى طالب) فيه حظ ولا نصيب..

فلا مزامير البادية، ولا أغانى السُّمار، شبع منها سمع الطفل، ووجدان الشاب..

لكأنَّ المقادير كانت تدَّخر سمعه ووجدانه، لكلمات أخرى ستغير وجه الأرض، ووجه الحياة..!!

أجلْ.. لقد ادُّخِرَ سمع الفتى وقلبه، ليتلقى بهما كما لم يتلقَّ أحدٌ مثله آيات الله العلى الكبير.

لقد كان يسمع القرآن غضًا طريًا من فم الصادق المصدوق ﷺ.

ولك أن تتصور أيها الأخ الكريم نفسك وأنت تسمع القرآن من فم مَن أُنزل عليه القرآن ﷺ.

وفى نور هذه الآيات المنزَّلة، والتى كان الوحى يجىء بها تباعًا، قضى «على بن أبى طالب» بواكير حياته النضرة، يبهره نورها.. ويهزُّه هديرها..

يسمع آية الجنَّة يتلوها الرسول، فكأنما الغلام الرشيد يراها رأىَ العين، حتى ليكاد يبسط يمينه ليقطف من مباهجها وأعنابها.!

ويسمع آية النار، فيرتعد كالعصفور دهمه إعصار.. ولولا جلال الصلاة وحُرمتها لَولَّى هاربًا من لفح النار الذى يُحسُّه ويراه..!![1]

وذكر بعضُ أهل العلم أنَّ رسولَ الله ﷺ كان إذا حضرت الصلاةُ خرج إلى شعَاب مكة، وخرج معه علىّ بن أبى طالب مستخفيًا من أبيه أبى طالب، ومن جميع أعَمامه وسائر قومه، فيُصلِّيان الصلوات فيها، فإذا أمسيا رجعا، فمكثا كذلك ما شاء الله أن يمكثا، ثم إنَّ أبا طالب عثَر عليهما يومًا وهما يُصلِّيان، فقال لرسول الله ﷺ يابن أخى! ما هذا الدينُ الذى أرَاكَ تدين به؟ قال: «أى عمِّ. هذا دين الله، ودينُ ملائكته ودين رُسله، ودين أبينا إبراهيم» - أو كما قال ﷺ- «بعثنى اللهُ به رسولاً إلى العباد، وأنت أى عمّ، أحقُ مَنْ بذلتُ له النصيحة، ودعوته إلى الهدى، وأحقُّ من أجابنى إليه وأعاننى

(١) خلفاء الرسول/ خالد محمد خالد (٤٧٣ : ٤٧٤) بتصرف.

عليه»، فقال أبو طالب: أى ابن أخى إنى لا أستطيع أن أفارق دين آبائى وما كانوا عليه، ولكن والله لا يُخلَص(١) إليك بشىء تكرهه ما بقيت.

وذكروا أنه قال لعلىّ: أى بُنىَّ، ما هذا الدينُ الذى أنت عليه؟ فقال: يا أبت، آمنتُ [بالله و] برسول الله، وصدَّقته بما جاء به، وصلَّيت معه لله، واتبعتُه، فزعموا أنه قال له: أما إنَّهُ لم يَدْعُك إلا إلى خير، فالزمهُ(٢).

ولما كانت حياته فى بيت النبى ﷺ فإنه عرف جميع أموره الداخلية، ودرس أحواله وأخلاقه عن قرب، وشرب من مشربه، وتربى على أخلاقه ﷺ وعاداته، وتصرفاته، فلبس ثياب الطُهر فى صغره، وبَعُد عن الأصنام وناصَبها العداء من بداية أمره، وشُغل بأمر النبى ﷺ طيلة حياته؛ لأنه كان دائم القرب منه، والصلة به، والعمل على راحته وخدمته، والاستضاءة بنوره، والشرب من منهله أكثر من غيره. وكان مع ذلك قد أوتى ذاكرة واعية، وعقلاً متفتحًا، وذكاءً نادرًا، وشجاعة فذة، وقوة لا مثيل لها عند غيره.

وكان قد اعتاد أن يحيا حياة النبى ﷺ فى زهده وتقشفه وورعه وخوفه من الله، وصلابته فى الحق، وثباته عليه، والدعوة إليه.

وكان عنده من عمر ـ رضى الله عنه ـ عزمه وحزمه، وشدته فى الله وصلابته، وسرعة بتّه فى الأمور، وانقضاضه على الباطل وأهله فى غير مهادنة أو مداهنة.

ولم يكن علىّ ـ رضى الله عنه ـ يعرف مجاملة الناس فى سبيل نصرة الحق وإزهاق الباطل، وليس عنده استعداد أن يدير سياسة الرعية حسبما تقتضى أصول السياسة بعيدًا عن أصول الدين وفروعه وما كان عليه رسول الله ﷺ والخليفتان من بعده(٣).

الأوسمة التى وضعها الحبيب ﷺ على صدره ـ رضى الله عنه ـ

وها هى باقة عطرة من مناقبه ـ رضى الله عنه ـ والأوسمة التى وضعها الحبيب ﷺ على صدره.

عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ كان على حراء هو وأبو بكر وعمر وعثمان وعلى وطلحة والزبير فتحركت الصخرة فقال رسول الله ﷺ: «اهدأ فما عليك إلا نبىٌّ أو

(١) يُخلص إليك: أى لا يصل إليك.
(٢) السيرة لابن هشام (١/ ٢٠٩ ـ ٢١٠).
(٣) الخلفاء الراشدون/ الشيخ حسن أيوب (ص ٢٥١).

صدِّيق أو شهيدٌ»(١).

وعن علي ـ رضي الله عنه ـ قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن فقلت: يا رسول الله إنك تبعثني إلى قوم هم أسنُّ مني لأقضيَ بينهم قال: اذهبْ فإن الله تعالى سيُثبِّتُ لسانَكَ ويهدي قلبكَ(٢).

وقال ﷺ: أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعليّ في الجنة، وطلحة في الجنة، والزبير في الجنة، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة، وسعد بن أبي وقاص في الجنة، وسعيد بن زيد في الجنة، وأبو عبيدة ابن الجراح في الجنة»(٣).

وعن حبشي بن جنادة السلولي ـ وكان قد شهد حجة الوداع ـ قال: قال رسول الله ﷺ: عليّ مني وأنا من عليّ ولا يؤدي عني إلا أنا أو عليّ»(٤).

وعن علي ـ رضي الله عنه ـ قال: لما تُوفي أبو طالب أتيتُ النبيَّ ﷺ فقلت: إن عمك الشيخ قد مات قال: اذهب فواره ثم لا تُحدثْ شيئًا حتى تأتيني قال: فواريتُهُ ثم أتيتُه قال: اذهب فاغتسل ثم لا تُحدثَ شيئًا حتى تأتيني قال: فاغتسلت ثم أتيتُه قال: فدعا لي بدعوات ما يسرُّني أن لي بها حُمُرَ النّعم وسودَها، قال: وكان علي ـ رضي الله عنه ـ إذا غسل ميتًا اغتسل(٥).

وعن زر قال: قال عليٌّ: والذي فلق الحبة وبرَأ النَّسمةَ إنه لَعَهْدُ النبيِّ الأُميِّ ﷺ إليَّ: «أن لا يُحبني إلا مؤمن ولا يُبغضني إلا منُافق»(٦).

وعن ابن أبي ليلى قال: «حدثنا عليّ أن فاطمة عليها السلام شكت ما تلقى من أثر الرحى، فَأُتيَ النبي ﷺ بسبي فانطلقت ـ لتطلب منه من يخدمها من السبايا ـ فلم تجده فوجدت عائشة فأخبرتها فلما جاء النبي ﷺ أخبرته عائشة بمجيء فاطمة فجاء النبي ﷺ إلينا وقد أخذنا مضاجعنا فذهبت لأقوم فقال: على مكانكما فقعد بيننا حتى وجدت بَرْدَ قدميه على صدري، وقال: ألا أعلمكما خيراً مما سألتماني؟ إذا أخذتما مضاجعكما

(١) أخرجه مسلم (٢٤١٧) ـ والترمذي (٣٦٩٦).
(٢) رواه أحمد (١/ ٨٨) والنسائي في الخصائص (٣٥)، وقال العدوي: وهو صحيح بمجموع طُرقه.
(٣) رواه أحمد والضياء عن سعيد بن زيد، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٠).
(٤) رواه أحمد (٤/ ١٦٥) والترمذي (٣٧١٩)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤٠٩١).
(٥) رواه أحمد (١/ ١٠٣) وأبو يعلى في مسنده (١/ ٣٣٥)، وقال العدوي:وهو حسن بمجموع طُرقه.
(٦) أخرجه مسلم (٧٨) والترمذي (٣٧٣٦).

تكبران أربعًا وثلاثين وتسبحان ثلاثًا وثلاثين وتحمدان ثلاثًا وثلاثين فهو خير لكما من خادم»[١].

وعن ابن أبي حازم أن رجلاً جاء إلى سهل بن سعد فقال هذا فلان ـ لأمير المدينة ـ يدعو عليًا عند المنبر[٢] قال: ماذا يقول: قال: يقول له: أبو تراب فضحك قال: والله ما سماه إلا النبي ﷺ وما كان له اسم أحب إليه منه فاستطعمت الحديث سهلاً، وقلت: يا أبا عباس كيف ذلك؟ قال: دخل عليٌّ على فاطمة ثم خرج فاضطجع في المسجد فقال النبي ﷺ أين ابن عمك[٣]؟ قالت: في المسجد فخرج إليه فوجد رداءه قد سقط عن ظهره وخلص التراب إلى ظهره فجعل يمسح التراب عن ظهره، فيقول: اجلس يا أبا تراب. مرتين»[٤].

وعن مصعب بن سعد عن أبيه: أن رسول الله ﷺ خرج إلى تبوك واستخلف عليًا فقال: أتخلفني في الصبيان والنساء؟ قال: «ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون إلا أنه ليس نبي بعدي»[٥].

وعن سعد بن أبي وقاص قال: «كنت جالسًا في المسجد أنا ورجلين معي فنلنا من عليّ فأقبل رسول الله ﷺ غضبان يُعْرَفُ في وجه الغضب فتعوذت بالله من غضبه، فقال: مالكم ومالي؟ من آذى عليًا فقد آذاني»[٦].

وعن أبي بكر أن النبي ﷺ بعثه ببراءة لأهل مكة لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ولا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، من كان بينه وبين رسول الله ﷺ مدة فأجله إلى مدته، والله بريء من المشركين ورسولُه، قال: فسار بها ثلاثًا ثم قال لعليّ ـ رضي الله عنه ـ: الحقه فَرُدَّ عليَّ أبا بكر وبلغها أنت قال: ففعل قال: فلما قدم على النبي ﷺ أبو بكر بكى.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٧٠٥) ـ ومسلم (٢٧٢٧) ـ وأحمد (١/ ١٣٦).

(٢) في رواية مسلم: استعمل على المدينة رجل من آل مروان قال: فدعا سهل بن سعد فأمره أن يشتم عليًا قال: فأبى سهل، فقال له: أما إذا أبيت فقل: لعن الله أبا التراب... فقال سهل: ما كان لعلي اسم أحب إليه من أبي التراب، وإن كان ليفرح إذا دعي بها...

(٣) في رواية البخاري (٤٤١) ومسلم (٢٤٠٩) قالت: كان بيني وبينه شيء فغاضبني فخرج فلم يَقِلْ عندي.

(٤) أخرجه البخاري (٣٧٠٣).

(٥) أخرجه البخاري (٤٤١٦) ـ ومسلم (٢٤٠٤).

(٦) رواه أبو يعلى (٢/ ١٠٩) وأحمد في فضائل الصحابة (١٠٧٨) وهو حسن.

قال: يا رسول الله حدث فيَّ شيء؟ قال: ما حدث فيك إلا خير، ولكن أمرت أن لا يبلغه إلا أنا أو رجل مني(١).

وعن البراء ـ رضى الله عنه ـ قال: لما اعتمر النبيُّ ﷺ فى ذى القعدةَ فأبى أهلُ مكةَ أن يَدعوه يدخلُ مكة حتى قاضاهم على أن يُقيم بها ثلاثة أيام فلما كتبوا الكتاب كتبوا: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله، قالوا: لا نقرُّ لك بهذا، لو نعلم أنَّكَ رسول الله ما منعناك شيئًا، ولكن أنت محمد بن عبد الله فقال: أنا رسول الله وأنا محمد بن عبد الله، ثم قال لعليّ: امحِ رسول الله.. قال (عليّ): لا والله لا أمحوك أبدًا، فأخذ رسول الله الكتاب ـ وليس يحسنُ يَكْتُبُ ـ فكتب: هذا ما قاضى محمد بن عبد الله لا يدخُلُ مكة السلاح إلا السيفُ فى القراب وأن لا يخرُجَ من أهلها بأحد إن أراد أن يتبعه، وأن لا يمنع من أصحابه أحدًا إن أراد أن يُقيم بها فلما دخلها ومضى الأجل أتوا عليًا فقالوا: قُل لصاحبك اخرج عنا فقد مضى الأجلُ، فخرج النبيُّ ﷺ فتبعتهُ ابنة حمزة تنادى يا عمّ يا عمّ. فتناولها عليٌّ فأخذ بيدها وقال لفاطمة عليها السلام: دونك ابنة عمك حمليها، فاختصم فيها عليّ وزيد وجعفر، قال عليّ: أنا أخذتها وهى بنت عمى، وقال جعفر: ابنة عمك وخالتها تحتى، وقال زيد: ابنة أخى. فقضى بها النبى ﷺ لخالتها وقال: الخالةُ بمنزلة الأم، وقال لعليّ: أنت منى وأنا منك، وقال لجعفر: أشبهت خَلْقى وخُلُقى، وقال لزيد: أنت أخونا ومولانا، وقال عليّ: ألا تتزوج بنت حمزة؟ قال: إنها ابنة أخى من الرضاعة(٢).

ثلاثة أغلى من الدنيا وما فيها

عن سعد بن أبى وقاص قال: أمَرَ معاويةُ بن أبى سفيان سعدًا فقال: ما منعك أن تَسُبَّ أبا التُراب؟ فقال: أمَّا ما ذكرتُ ثلاثًا قالهنَّ له رسول الله ﷺ فلن أسُبَّهُ لأن تكون لى واحدةٌ منهن أحبُّ إليَّ من حُمرِ النَّعَمِ، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول له خَلَّفَهُ فى بعض مغازيه فقال له عليٌّ: يا رسولَ الله خلفتنى مع النساء والصبيان؟ فقال له رسول الله ﷺ: «أما ترضى أن تكون منِّى بمنزلة هارونَ من موسى إلا أنه لا نبوة بعدى» وسمعتهُ يقول يوم خيبر: «لأُعطين الرايةَ رجلاً يحبُّ الله ورسولَهُ، ويحبُّهُ الله ورسوله»

---

(١) رواه أحمد (١/ ٣) وهو صحيح بمجموع طُرقه.

(٢) أخرجه البخارى (٤٢٥١) ـ والترمذى مختصرًا.

قال: فتطاولنا لها، فقال: «ادعوا لى عليًا» فَأُتِيَ به أرمدَ فَبَصَقَ فى عينه ودفع الراية إليه ففتح الله عليه[1]، ولما نزلت هذه الآيةُ: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ﴾ [آل عمران:٦١] دعا رسولُ الله ﷺ عليًا وفاطمةَ وحسنًا وحُسينًا فقال: «اللهم هؤلاء أهلى»[2].

محمدٌ النبى أخى وصهرى ... وحمزةٌ سيد الشهداء عمى

وجعفر الذى يُمسى ويضحى ... يطير مع الملائكة ابن أمى

وبنت محمد سكنى وزوجى ... منوطٌ لحمها بدمى ولحمى

وسبطا أحمدٍ ولداىَ منها ... فأيكم له سهمٌ كسهمى

نام على فراش النبى ﷺ ليفديه... فأسعد الله فراشه بفاطمة لترضيه

ذكر ابن كثير فى البداية والنهاية اجتماع شياطين قريش فى دار الندوة فى يوم الزحمة، وحكى ما كان بينهم وبين إبليس الذى تبدّى لهم فى صورة الشيخ النجدى، واستقر رأيهم على ما قاله أبو جهل بن هشام.

أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتىً شابًا جليدًا نسيبًا وسيطًا فينا، ثم نعطى كل فتىً منهم سيفًا صارمًا، ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد، فيقتلوه فنستريح منه، فإنهم إن فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل جميعها فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعًا، فرضوا منا بالعقل ـ الدية ـ فعقلناه لهم.

فتفرّق القوم على ذلك وهم مجمعون له. فأتى جبرائيل رسول الله ﷺ فقال له: لا تبت هذه الليلة على فراشك الذى كنت تبيت عليه.

قال: فلما كانت عتمة من الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه حتى ينام فيثبون عليه، فلما رأى رسول الله ﷺ مكانهم قال لعلىّ بن أبى طالب: «نَمْ على فراشى، وتسبَّج ببُردى هذا الحضرمى الأخضر، فنم فيه فإنه لن يخلص إليك شىء تكرهه منهم». وكان رسول الله ﷺ ينام فى بُرده ذلك إذ ينام.

---

(١) تنبيه: عند النسائى فى الخصائص عقب حديث (٥٢) ـ وهو هذا الحديث ـ زيادة فوالله ما ذكره معاوية بحرف حتى خرج من المدينة. وإسنادها صحيح وفيها شدة تورع معاوية وتوقفه عند حديث رسول الله ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم فى طرق حديث (٢٤٠٤) ـ والترمذى (٣٧٢٤) وأحمد (١/ ١٨٥).

ثم خرج رسول الله ﷺ وهو يتلو هذه الآيات: ﴿يس (١) والقرآن الحكيم﴾ إلى قوله: ﴿وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون﴾ [يس:١ ـ ٩]. ولم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه ترابًا، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب، فأتاهم آت ممن لم يكن معهم فقال: ما تنتظرون هاهنا؟ قالوا: محمدًا. قال: خيّبكم الله، قد واللّه، خرج عليكم محمد، ثم ما ترك منكم رجلاً إلا وقد وضع على رأسه ترابًا، وانطلق لحاجته، أفما ترون ما بكم؟ قال: فوضع كل رجل منهم يدًا على رأسه، فإذا عليه تراب ، ثم جعلوا يتطلعون ، فيرون عليًا على الفراش متسجيًا ببُرد رسول الله ﷺ فيقولون: والله، إن هذا لمحمدٌ نائمًا على بُرده فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا، فقام (علىّ) عن الفراش، فقالوا: والله، لقد صدقنا الذى كان حدثنا.

حمى المغوار حيدرة(١) الدعوة فى شخص نبيها ﷺ ونام فى فراشه فى أصعب ليلة مرّت بها الدعوة، رجل ينام فى الفراش وهو يعلم أن على الباب رجالاً لا يريدون إلا رأس النائم على الفراش، فلما قلق به الفراش ليلة من أجل نبيه، أسعد الله فراشه بفاطمة بنت نبيه ﷺ التى تجلببت فى جلباب كمالها. وأعطاه الرسول ﷺ الأهل والمرحب، وأصدقه درعه الحُطَمِيّة، فأُهديت إليه ومعها خميلة ومرفقة من أدم ـ جلد ـ حشوها ليف، وقربة ومنخل وقدح ورحًى وجرابان. ودخلت عليه وما لها فراش غير جلد كبش ينامان عليه بالليل وتعلف عليه الناضح بالنهار، وكانت هى خادمة نفسها.

تالله، ما ضرها ذلك.

وفى الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال لها: «ألا ترضين أن تكونى سيدة نساء هذه الأمة أو نساء المؤمنين».

وفى الصحيحين عن المسور بن مخرمة أن رسول الله ﷺ قال: «فاطمة بضعة منى، فمن أغضبها أغضبنى».

وعن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الجنة لتشتاق إلى ثلاثة؛ علىّ وعمّار وسلمان»(٢). ونعم الجزاء..

---

(١) هو اسم على بن أبى طالب قال:

أنا الذى سمتنى أمى حيدرة كليث غابات كريه المنظره

وحيدرة هو: الأسد.

(٢) رواه الترمذى والحاكم فى المستدرك عن أنس، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١٥٩٨).

صفحات مشرقة من جهاده فى سبيل الله

وها هو ـ رضى الله عنه ـ يسطِّر على جبين التاريخ ـ بسطور من النور ـ صفحات مشرقة من جهاده فى سبيل الله تعالى فهو يبحث عن الشهادة ويشتاق إليها اشتياق من يبحث عن الماء البارد فى صحراءٍ موحشة.

جهاده فى يوم بدر

وفى غزوة بدر خرج الفارس المغوار مجاهداً فى سبيل الله.

عن عبد الله ابن مسعود قال: كنا يوم بدر ثلاثةٌ على بعير... كان أبو لبابة وعلىٌّ بن أبى طالب زميلى رسول الله ﷺ قال: وكانت عقبة رسول الله ﷺ ـ دوره فى المشى ـ قال: فقالا: نحن نمشى عنك فقال: ما أنتما بأقوى منى ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما[١].

وفى أرض الشرف والجهاد حيث تصمت الألسنة وتنطق السيوف فوق هامات الرؤوس.. كان لبطلنا هذا الموقف العظيم.

عن علىّ قال: تقدَّم ـ يعنى عتبةَ بن ربيعة ـ وتبعه ابنه وأخوه فنادى: مَن يُبارز؟ فانتُدبَ له شبابٌ من الأنصار فقال: من أنتُم؟ فأخبروه فقال: لا حاجة لنا فيكم إنما أردنا بنى عمنا فقال رسول الله ﷺ: «قمْ يا حمزةُ قم يا علىُّ قم يا عبيدة بن الحارث» فأقبل حمزةُ إلى عُتبة وأقبلتُ إلى شيبة واختلف بين عبيدة والوليد ضربتان فأثخن كل واحد منهما صاحبه ثم مِلنَا على الوليد فقتلناه واحتملنا عبيدة[٢].

وعن قيس بن عباد عن على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ قال: «أنا أول من يجثو بين يدى الرحمن للخصومة يوم القيامة» وقال قيس بن عباد وفيهم أُنزلت ﴿هذان خصمان اختصموا فى ربهم﴾ قال: «هم الذين تبارزوا يوم بدر... حمزة وعلىّ وعبيدة ـ أو أبو عبيدة بن الحارث ـ وشيبة بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة»[٣].

* * *

(١) رواه أحمد (١/ ٤١١) والطيالسى (٣٥٤) وإسناده حسن.

(٢) صحيح: رواه أبو داود (٢٦٦٥) وأحمد (١/ ١١٧).

(٣) أخرجه البخارى (٣٩٦٥) وعزاه المزى فى الأطراف للنسائى.

جهاده فى يوم الخندق

وفى غزوة الخندق كان له هذا الموقف العظيم مع فارس قريش (عمرو بن عبد وُدّ).

كان عمرو بن عبد ودّ العامرى «كبش الكتيبة» قد حضر معركة بدر الكبرى، وذاق مرارة الهزيمة بعد أن جُرح فى المعركة، فنذر أن لا يَمَسَّ رأسُه دُهنًا حتّى يقتل محمدًا، ولهذا كان أولَ الفرسان المقتحمين بخيلهم الخندق نحو المسلمين، ومعه فوارس من قريش، وخرج على بن أبى طالب فى نفر معه من المسلمين، حتى أخذوا عليهم الثغرة التى أقحموا منها خيلَهم، وأقبلت الفرسان تُعْنق ـ تُسرع ـ نحوهم.

قال ابن إسحاق: «كان عمرو بن عبد ودّ العامرى (وهو كبش الكتيبة) قد قاتل يوم بدر حتى أثبته الجراحةُ فلم يشهد أُحدًا، فلما كان يوم الخندق خرج مُعلَمًا ليُرَى مكانُه، فلمّا وقف هو وخيله قال: مَن يبارز؟ فبرز إليه على بن أبى طالب».

وعند البيهقى فى «دلائل النبوة»: «خرج عمرو بن عبد ودّ وهو مُقَنَّع بالحديد، فنادى: مَنْ يبارز؟ فقام على بن أبى طالب فقال: أنا لها يا نبى الله. فقال: «إنه عمرو، اجلسْ». ثم نادى عمرو: ألا رجلٌ يبرز؟ فجعل يُؤَنِّبهم ويقول: أين جنتكم التى تزعمون أنه مَنْ قُتل منكم دخلَهَا، أفلا تُبرزون إلىّ رجلاً؟! فقام علىٌّ فقال: أنا يا رسول الله. فقال: «اجلسْ». ثم نادى الثالثة فقال:

ولقد بححتُ من النداء ... لِجَمْعِهم هلْ منْ مُبارزْ

ووقفتُ إذْ جُبُنَ المشجَّعُ ... موقفَ القرنِ المناجزْ

ولذاك إنى لم أزلْ ... متسرعًا قبلَ الهزَاهزْ

إنَّ الشجاعةَ فى الفتَى ... والجود من خيرِ الغرائزْ

قال: فقام علىٌّ ـ رضى الله عنه ـ فقال: يا رسول الله، أنا. فقال: «إنه عمرو». فقال: وإن كان عَمرًا. فأذن له رسول الله ﷺ، فمشى إليه، حتى أتى وهو يقول:

لا تَعْجَلَنَّ فَقَدْ أتاكَ ... مُجيبُ صَوتكَ غيرُ عاجزْ

فى نيّةٍ وبصيرةٍ ... والصدقُ مَنْجَى كلِّ فائزْ

إنى لأرجُو أن أُقِيـ ... ـمَ عليكَ نائحَةَ الجنائزِ

مِـن ضـربةٍ نجـلاءَ يبْـقَى ذكرُهـا عندَ الهزاهزْ[١]»

ولما مشى على إلى عمرو ليبارزه قال له: يا عمرو، إنك كنتَ تقول: لا يدعونى أحدٌ إلى واحدة من ثلاث إلا قبلتُها. قال له: أجل. فقال له: إنى أدعوك أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتُسلمَ لرب العالمين. فقال عمرو: يا ابن أخى، أخّرْ عنى هذه. قال علىّ: وأخرى: ترجع إلى بلادك، فإنْ يكُ محمد رسول الله صادقًا كنتَ أسعد الناس به، وإن يكُ كاذبًا كان الذى تريد. فقال عمرو: هذا ما لا تتحدث به نساءُ قريش أبدًا. كيف وقد قدرتُ على استيفاء ما نذرتُ؟! ثم قال عمرو: فالثالثة، ما هى؟ فقالَ على: البرازُ. فضحك فارسُ قريشَ عمرو ـ وكان فارسًا مشهوراً مُعمَّرًا قد جاوز الثمانين ـ ثم قال لعلىّ: إن هذه الخصلة ما كنت أظنُّ أحدًا من العرب يروِّعنى بها. ثم قال لعلىّ: مَنْ أنت؟ قال له: أنا على. قال: ابن عبد مناف؟ فقال علىّ: أنا على بن أبى طالب. فقال عمرو: يا ابن أخى من أعمامك مَن هو أسنُّ منك؛ فوالله ما أحب أن أقتلك. فقال علىّ: ولكنى ـ والله ـ أحبُّ أن أقتلك. فعند ذلك غَضبَ عمرو غضبًا شديدًا، ونزل فسلّ سيفه، كأنه شعلة نار، ثم أقبل نحو علىٍّ مُغضبًا، واستقبله علىّ بدَرَقَته فضربه عمرو فى دَرَقَته فقدّها، وأثبتَ السيفَ فيها، وأصابَ رأسه فشجّه، وضربه (علىّ) على حبل عاتقه فسقط، وثار العَجَاجُ، وسَمِعَ رسول الله ﷺ التكبير، فعرف الناس أنَّ عليًا قد قتل عَمراً، فثمَّ يقول علىّ:

أعلىَّ تقتحم الفوارسَ هكـذا عنّىَ وعنهم أخّروا أصحـابى

اليوم يمنعنى الفرارَ حفيظتى ومُصَمَّمٌ فى الرأسِ ليسَ بنابى

وألقى عكرمة رمحه يومئذ وهو منهزم عن عمرو، فقال حسان بن ثابت:

فرّ وألقَى لنـا رمحَـه لعلَّكَ عِكْـرمُ لم تفعـلِ

ووليّتَ تعدو كعدو الظّليـ ـم ما أن يحورَ عن المَعدل

ولم تلـوِ ظهرَك مستأنسًا كـأنّ قفـاكَ قفا فُرْعَلِ[٢]

قال عمر بن الخطاب: هلا استلبت درعَه، فإنه ليس للعرب درعٌ خير منها. فقال: ضربته فاتقانى بسوءَته فاستحييت ـ ابنَ عمى ـ أن أسلبه. وبعث المشركون إلى

(١) نجلاء: واسعة ـ الهزاهز: الحروب والشدائد.

(٢) الفرعل: صغار الضباع.

رسول الله ﷺ، يشترون جيفتَه بعشرة آلاف، فقال: «ادفعوا إليهم جيفته؛ فإنه خبيث الجيفة، خبيث الدِّية». فلم يقبل منهم شيئًا[١].

صاحب الراية الذي يفتح الله على يديه (يوم خيبر)

وها هو ـ رضي الله عنه ـ في يوم خيبر يشهد له النبي ﷺ بأنه يُحب الله ورسوله ﷺ ويحبه الله ورسوله ﷺ وبأن الله سيفتح على يديه.

عن سهل بن سعد ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: «لأعطينَّ هذه الراية غدًا رجلاً يفتح الله على يديه، يحبُّ الله ورسوله ويحبُّه الله ورسوله». قال: فبات الناس ليلتهم، أيُّهم يُعطاها؟ فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كلُّهم يرجو أن يُعطاها، فقال: «أين علي بن أبي طالب؟» فقيل: هو يا رسول الله يشتكي عينيه. قال: فأرسلوا إليه فأُتي به، فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ودعا له، فبرأ حتى كأنَّه لم يكن به وجعٌ، فأعطاه الراية، فقال عليٌّ: يا رسول الله، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال: «انفُذ على رِسْلكَ حتى تنزل بساحتهم، ثم ادْعُهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حقِّ اللَه فيه، فوالله؛ لأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا خيرٌ لكَ من أن يكون لك حُمْرُ النَّعَم»[٢].

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: «لأُعطينَّ هذه الراية رجلاً يحب الله ورسوله، يفتح الله على يديه». قال عمر بن الخطاب: ما أحببتُ الإمارة إلا يومئذ. قال: فتساورتُ لها رجاءَ أن أُدْعَى لها، قال: فدعا رسول الله ﷺ عليَّ بن أبي طالبٍ فأعطاه إياها. وقال: «امشِ ولا تلتفتْ، حتى يفتح الله عليك». فسار (عليٌّ) شيئًا، ثم وقف ولم يلتفت، فصرخ: يا رسول الله على ماذا أقاتلُ الناس؟ قال: «قاتلْهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منكَ دماءَهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابُهم على الله»[٣].

وعند البخاري عن سلمة، قال: «كان عليّ قد تخلَّف عن النبي ﷺ في خيبر، وكان به رمدٌ، فقال: أنا أتخلّف عن رسول الله ﷺ ؟! فخرج عليٌّ فلحِقَ بالنبي ﷺ ، فلما كان

---

(١) البداية والنهاية للحافظ ابن كثير (٤/ ١٠٦).
(٢) أخرجه البخاري (٤٢١٠) ومسلم (٢٤٠٦) والنسائي في فضائل الصحابة (٤٦).
(٣) أخرجه مسلم (٢٤٠٥) ـ وأحمد (٢/ ٣٨٤) والطيالسي (٢٤٤١).

مساء الليلة التي فتحها الله في صباحها، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لأعطينَّ الراية - أو ليأخذنَّ الراية - غدًا رجلاً يحبُّه الله ورسوله - أو قال: يحبُّ الله ورسوله - يفتح الله عليه». فإذا نحن بعليّ، وما نرجوه، فقالوا: هذا عليّ. فأعطاه رسول الله ﷺ الراية، ففتح الله عليه»[١].

وعن أبي سعيد الخدري، قال: إن رسول الله ﷺ أخذ الراية فهزّها، ثم قال: «مَنْ يأخذها بحقِّها؟» فجاء فلان فقال: أنا. قال: أمط. ثم جاء رجلٌ فقال: أمطْ. ثم قال النبي ﷺ: «والذي كَرَّم وجهَ محمد، لأُعطينَّهَا رجلاً لا يفرّ، هاك يا عليّ» فانطلقَ حتى فتح الله عليه خيبر وفَدَك، وجاء بعجوتهما وقديدهما[٢].

وفي حديث سلمة بن الأكوع عند مسلم: «ثم أرسلني رسول الله ﷺ إلى عليّ وهو أرمد، فقال: «لأُعطينَّ الراية رجلاً يحبُّ الله ورسوله، أو يحبه الله ورسوله». قال: فأتيتُ عليًا فجئت به أقوده وهو أرمد، حتى أتيت به رسول الله ﷺ، فبصق في عينيه فبرأ، وأعطاه الراية. وخرج «مرحب» فقال:

قد علمتْ خيبرُ أني مرحَبُ شاكي السلاحِ بطلٌ مُجرَّبُ
إذا الحروبُ أقبلتْ تلهَّبُ

فقال عليٌّ:

أنا الذي سمّتني أُمّي حَيْدَرَهْ[٣] كلَيْث غاباتٍ كريه المَنْظَرهْ
أُوفّيهمْ بالصاعِ كَيْلَ السَّنْدَرَهْ

قال: فضرب رأسَ «مرحب» فقتله، وكان الفتح على يديه[٤].

مَرْحب هذا: فارس فرسان اليهود، وكان مكتوبًا على سيفه بالعبرية:

هذا سَيفُ مَرْحَبْ من يَذُقْهُ يعطبْ

فضربه عليٌّ فقدّ الحجر والمغفر ورأسه، ووقع السيف في الأضراس.

وقبله قتل (عليّ) أخا مَرحَبَ، وهو الحارث. وبارز عليٌّ قائدًا يهوديًا - بعد مبارزة

(١) أخرجه البخاري (٣٧٠٢) - ومسلم (٢٤٠٧).
(٢) رواه أحمد (٣/ ١٦) وفي فضائل الصحابة (٩٨٧) وإسناده حسن.
(٣) حيدرة: هو الأسد.
(٤) أخرجه مسلم (١٨٠٧) عن سلمة بن الأكوع.

الزبير لياسر ـ وكان هذا القائد الفارس يُسمّى عامرًا، فقتله عليٌّ أمام الحصن. قال رسول الله ﷺ حين طلع عامرٌ: «ترونه خمسةَ أذرع؟» وكان طويلاً جسيمًا، فلما دعا للبراز، وخطر بسيفه، وعليه درعان، وهو مُقَنَّعٌ فى الحديد يصيح: من يبارز؟ فأحجم الناس عنه، فبرز إليه (علىّ) فضربه ضَربات، كلّ ذلك لا يصنعُ شيئًا، حتى ضرب ساقيه فبرك، ثم ذفّف(1) عليه فأخذ سلاحه(2).

وفتح الله على يديه حصن (ناعم) وهو من أقوى حصون خيبر.

فيا لها من صفحات مشرقة لا ننساها أبدًا ما دامت أرواحنا فى أبداننا.

وعاش ـ رضى الله عنه ـ ملازمًا للحبيب ﷺ يقتبس من علمه وزهده وأخلاقه الرفيعة إلى أن تُوفى الحبيب ﷺ وحزن عليه حزنًا كاد أن يمزق قلبه.. فلقد فَقَدَ حبيبه ورسوله الذى لطالما احتضنه وأغدق عليه الكثير والكثير من رحمته وعطفه وعلمه، بل وأعطاه قُرة عينه وثمرة فؤاده (فاطمة) ـ رضى الله عنها ـ.

وبعد وفاة النبى ﷺ ظل (علىّ) ملازمًا لخليفته الراشد (أبى بكر) ـ رضى الله عنه ـ وكان أبو بكر يعرف قدره ومنزلته ويشاوره فى عظائم الأمور، ولطالما كان يسعى إليه ويقول: «أفتنا يا أبا الحسن».

ولما تُوفى أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ وأصبح عمر ـ رضى الله عنه ـ أميرًا للمؤمنين... كان يعرف أيضًا (لعلىّ) قدره ومنزلته، ولطالما كان يستنجد بفقهه وبذكائه وبصيرته ويقول: «لولا علىٌّ لَهَلك عمر».

ولما قُتل (عمر) شهيدًا وتولى عثمان شئون الأمة المسلمة وأصبح أميرًا للمؤمنين كان يستشير (عليًا) ويستنصحه ويستعين به إلى أن قُتل عثمان ـ رضى الله عنه ـ وفُتحت أبواب الفتن على مصراعيها وتولى (علىّ) الخلافة على الرغم من أنه كان لا يريدها بحالٍ من الأحوال.

وحدثت الفتنة بينه وبين معاوية ـ رضى الله عنهما ـ.

قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ: إن ما كان بين معاوية وبين علىّ بعد مقتل عثمان... على سبيل الاجتهاد والرأى فجرى بينهما قتال عظيم، وكان الحق والصواب

(1) أجهز عليه.
(2) سلسلة معارك الإسلام الفاصلة ـ خيبر ـ لمحمد أحمد بشاميل (ص ١٢٢).

مع (عليّ) ومعاوية معذور عند جمهور العلماء سَلفًا وخلفًا، وقد شهدت الأحاديث الصحيحة بالإسلام للفريقين(١).

ونحن على يقين من أن الصحابة كلهم عُدول وأنهم ما كانوا يطمعون في حُطام الدنيا، وإنما أرادوا جميعًا وجه الله ونُصرة دين الله ـ جل وعلا ـ. فرضي الله عنهم جميعًا وجمعنا وإياهم في جنته ومستقر رحمته إخوانًا على سُرر متقابلين.

الخليفة الراشد وهمته العالية

إن حياة أبي السِّبطين وأبي تراب (عليّ بن أبي طالب) تتفجَّر عظمةً وجلالاً وإعجازًا، فمن عظمة نفسه وعلوّ همَّته، تنداح رحابٌ ليس لها أبعاد، تتلألأ عليها بطولاتٌ وتضحيات، عظائمُ وأمجاد، تكاد تحسبها ـ لولا صدْق التاريخ ـ أحلامًا وأساطير.. مسلم عظيم، يفجّرُ الدنيا من حواليه ذمَّةً، واستقامةً، وطُهرًا، وذُرًا سامقة وغايات بعيدة. عظمة لن تكُفَّ عن توكيد ذاتها ما دام صاحبها حيًا، يُمارس العظائم، ويصوغ المكرُمات.

يقول ضرار بن ضمرة الكناني في وصف عليّ: «كان بعيدَ المدَى، شديد القُوَى... يقول فَصْلا، ويحكُم عدلاً... يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويأنس بالليل ووحشته... كان غزير الدمعة، طويل الفكرة، يقلّب كفَّيه ويُخاطب نفسه، ويُعجبه من اللباس ما خشُن، ومن الطعام ما جشُب... لا يطمع القويُّ في باطله، ولا ييأس الضعيفُ من عدله.. وأشهد، لقد رأيتُه في بعض مواقفه، وقد أرخى الليلُ سُدُولَه، وغارتْ نجومُه، وقد مثَل في محرابه، قابضًا على لحيته، يتململ تملمُل السليم، ويبكي بكاء الحزين، فكأني أسمعه وهو يقول: يا دنيا، يا دنيا، إليَّ تعرَّضت، أم إليّ تشوَّقْت؟ هيهات هيهات غُرِّي غيري، قد أبَنْتُك ـ طلقتك ـ ثلاثًا لا رجعة فيهاَ! ! فعمرُكِ قصيرَ، وعيشُكِ حقير، وخَطَرُكِ كبير، آه من قلَة الزّاد وبُعد السفر، ووحشة الطريق».

كان ـ رضي الله عنه ـ يُخرج كلَّ ما كان في بيت المال لمستحقيه، حتى إذا فرغ بيت المال، يأمر الإمامُ أن تُنضح أرضُه ويُغسَل بالماء، حتى إذا تمَّ ذلكَ، قام فصلَّى فوق أرضه المغسولة ركعتين! !

كانت هذه الصلاة في بيت المال، بعد أن نضح أرضه بالماء، رمزًا لمعنىً جليل، كان

---

(١) البداية والنهاية (٥/ ٦٢٩).

إيذانًا بعهد جديد، تُسيطر فيه الآخرة على الدنيا، ويستردّ الورع والتُقَى نفوذهما على الدولة، وعلَى المجتمع، وعلى الأنفس والأفئدة جميعًا.

دُعِيَ لينزل قصر الإمارة.. قصر كبير ترتفع هامتُه فى شموخٍ وفتنة.. فلا يكاد يُبصره حتى يوَلِّي مدبرًا وهو يقول: «قصر الخَبَال هذا، لا أسكنه أبدًا».

ويرتدى جلبابًا اشتراه من السوق بثلاثة دراهم، ويركب حمارًا ويقول: «دَعُونى أُهِن الدنيا».

فعليٌّ ـ رضى الله عنه ـ مقيمٌ لم يرحل.

يجد عصرنا هذا فى نهجه وحُكمه أستاذًا ومعلِّمًا وهاديًا.. يعلِّم الحُكّام فى كلِّ جيلٍ وعصرٍ أن الولاء للحقّ يعنى رَفْض إغراء الدنيا، ورفض غرور السلطان.

قال الإمام أحمد بن حنبل: إن عليًا ما زانتْهُ الخلافةُ، ولكنْ هو زانها.

ما زانه المُلْكُ إذ حواه — بل كـلُّ شيء به يُزانْ
جرى ففاتَ الملوكَ سبَقًا — فليس قُدّامَـــهُ عَنَّـانْ
نالتْ يَدَاهُ ذُرًا مَعَـــالِ — يعجِزُ عن مِثْلِهَا العِيَــانْ

منازل عُلا فى الزهد يُحلِّق فيها البطل الزاهد الأوّاب، لقد كانت هوايته الكبرى: إهانة الدنيا وإذلال مغرياتها الهائلة؛ بأن يرفع فى وجهها يدًا لا تهتزُّ ولا تختلِج، تقول لتلك المغريات: لا.

قال سفيان الثورى: ما بنى علىٌّ لَبِنَةً، ولا قصبةً على لبنةٍ، وإن كان ليُؤتى بحبوبه من المدينة فى جِرابٍ.

وكان ـ رضى الله عنه ـ معه درّةٌ له (عصا) يمشى بها فى الأسواق، ويأمر الناس بتقوى الله وحُسن البيع، ويقول: أوفُوا الكيل والميزان، ويقول: لا تنفخوا اللحم.

وخرج ذات يومٍ وعليه بُرْدان، متّزِرٌ بأحدهما، مُرتد بالآخر قد أرخى جانب إزاره ورفع جانبًا، وقال: إنما ألبس هذين الثوبين ليكونا أبعَد لى من الزَّهْو، وخيرًا لى فى صلاتى، وسنّةً للمؤمن.

قال عمر بن عبد العزيز: أزهدُ الناس فى الدنيا علىُّ بن أبى طالب.

وقال الحسن: رَحِمَ اللهُ عليًا، إن عليًا كان سهمًا لله صائبًا فى أعدائه، وكان فى مَحلَّة

العلم أشرفها وأقربها إلى رسول الله ﷺ، وكان رَهْبانيّ هذه الأُمّة، لم يكن لمال الله بالسَّرُوقَة، ولا في أمر الله بالنُّومة، أعطى القرآن عزائمهُ وعمله وعلمهُ، فكان منه في رياضٍ مُونقَةٍ، وأعلامٍ بيِّنة، ذاك عليّ بن أبي طالب[١].

صفحات مشرقة من عدله ـ رضي الله عنه ـ

رضي الله عن أبي الحسن: «يقول فصلاً، ويحكم عدلاً، كانت حظوظه مع نفسه في طُهرها وعدلها وتقاها رابية ووافية، وكان عدله سامقًا يبقى على مر الزمان منارًا لذوي الرشد والنهي، وكان ولاؤه للعدل ولاء مطبوعًا، ولاء فطرة وولاء يقين.

يقول ـ رضي الله عنه ـ: «أأقنع من نفسي أن يقال: أمير المؤمنين، ثم لا أشارك المؤمنين في مكاره الزمان؟ والله لو شئت لكان لي من صفو هذا العسل، ولُباب هذا البرِّ، ومناعم هذه الثياب ولكن، هيهات أن يغلبني الهوى، فأبيت مبطانًا وحولي بطون غرثى وأكباد حرّى».

وقال على بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ على المنبر في يوم الجمعة: «أيها الرعاء، إن لرعيتكم حقوقًا: الحكم بالعدل، والقسم بالسويّة، وما من حسنة أحبّ إلى الله من حكم إمام عادل»[٢].

وعن العلاء بن عمار أن عليًا ـ رضي الله عنه ـ خطب الناس فقال: أيها الناس... والذي لا إله إلا هو ما رزأت[٣] من مالكم قليلاً ولا كثيرًا إلا هذه ـ وأخرج قارورة من كمّ قميصه فيها طيب ـ فقال: أهداها إليّ الدِّهقان[٤]، ثم أتى بيت المال فقال: خذوا، ثم أنشأ يقول:

أفلح مَن كانت له قوصرة[٥] يأكل منها كل يومٍ مرة[٦]

وفي رواية: طوبى لمن كانت له قوصرة.

---

(١) صلاح الأمة/ د. سيد حسين (٦/ ٦٧: ٧٠).
(٢) ابن عبد البر في (التمهيد) (٢/ ٢٨٤).
(٣) ما رزأت: أي ما أصبت ولا أخذت.
(٤) زعيم فلاحي العجم، ورئيس إقليمهم.
(٥) القوصرة: وعاء التمر.
(٦) أخرجه أبو نعيم في «الحلية»، وابن كثير في «البداية» (٨/ ٣)، والذهبي في تاريخ الإسلام.

وعن عبد الله بن زُرير ـ رحمه الله ـ قال:دخلت مع عليّ ـ رضى الله عنه ـ يوم الأضحى، فقرّب إلينا خزيرة(١)، فقلنا: أصلحك الله، لو أطعمتنا من هذا البط، فإن الله قد أكثر الخير، فقال: يا ابن زرير، إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يحلّ للخليفة من مال الله إلا قصعتان: قصعة يأكلها هو وأهله، وقصعة يطعمها بين الناس»(٢).

هكذا التقى الورع مع العدل، وما أروع (عليّ) وهو يتورع عن الأخذ من مال الأمة شيئًا زهيدًا:

قال عنترة بن عبد الرحمن الشيبانى: دخلتُ على عليّ ابن أبى طالب بالخورنق، وعليه قطيفة، وهو يرعد من البرد، فقلت: يا أمير المؤمنين، إن الله قد جعل لك، ولأهل بيتك نصيبًا فى هذا المال، وأنت ترعد من البرد؟!

فقال: إنى والله لا أرزأ من مالكم شيئًا، وهذه القطيفة هى التى خرجت بها من بيتى، أو قال من المدينة(٣).

ومن عدالته: ما رواه عليّ بن ربيعة الوالبى، قال: إن عليّ بن أبى طالب قد جاءه ابن النباج، فقال: يا أمير المؤمنين، امتلأ بيت مال المسلمين من صفراء، وبيضاء ـ ذهب وفضة ـ فقال: الله أكبر!! فقام متوكئًا على ابن النباج حتى قام على بيت مال المسلمين، فقال:

هذا جناى وخياره فيه ... وكل جانٍ يده إلى فيه

يا ابن النباج، عليّ بأشياع الكوفة، قال: فنودى فى الناس، فأعطى جميع ما فى بيت مال المسلمين، وهو يقول: يا صفراء... ويا بيضاء... غرّى غيرى... ها، وها.

حتى ما بقى منه دينار ولا درهم، ثم أمره بنضحه، وصلى فيه ركعتين(٤).

وعن على بن الأرقم، عن أبيه قال: رأيت عليًا، وهو يبيع سيفًا له فى السوق، ويقول: من يشترى منى هذا السيف، فوالذى فلق الحبة لطالما كشفت به عن وجه رسول الله ﷺ،

(١) طعام عبارة عن لحم يقطع صغارًا، ويصب عليه ماء كثير، فإذا نضج ذُرّ عليه الدقيق، وقيل الحساء من سمن ودقيق.

(٢) حديث صحيح: أخرجه أحمد (١/ ٧٨) وفيه ابن لهيعة، لكن الراوى عنه فى رواية حرملة عن ابن وهب، وهو أحد العبادلة.

(٣) صحيح: أخرجه ابن الجوزى فى «صفة الصفوة»، وأبو نعيم فى «الحلية»، والذهبى فى «تاريخ الإسلام»، والخورنق: موضع بالكوفة.

(٤) حسن: أخرجه أبو نعيم فى الحلية.

ولو كان عندي ثمن إزار ما بعته[١].

وكان ـ رضي الله عنه ـ يمشي في أسواق الكوفة وهو خليفة المسلمين، فيُرشد الضال ويعين الضعيف ويلتقي بالشيخ المسنّ الكهل، فيحمل عنه حاجته، ولا يسكن قصر الإمارة ويقول: «قصر الخبال هذا، لا أسكنه أبداً» وحين نتكلم عن أمير المؤمنين ـ رضي الله عنه ـ فإنا نؤرخ للعظمة الإنسانية والعدل في نموذجه الباهر.. هو الذي علّم الأمة فقال أهل القبلة ولله دره حين يقول لعسكره: لا تقتلوا مدبراً، ولا تجهزوا على جريح، ولا تقربوا النساء بأذى وإن شتمنكم وشتمن أمراءكم وصلحاءكم، واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون».

لله در أبي الأسود الدؤلي حيث يقول في عليّ:

يقيم الحق لا يرتاب فيه ... ويعدل في العِدى والأقربينا[٢]

ونفسًا لم تذق طعم الدنايا ... ولا لذّت من الدنيا طعامًا

غذاها الدين مُذْ كانت فشبّتْ ... على التقوى رضاعًا وانفطاما

ونشأها على كرم وأيِّد ... وصاغ من الجلال لها قوامًا

ذكت فسمت عن الدنيا طلابا ... وأضنى حبها قومًا وتامًا[٣]

طوى عنها على الضرّاء كشحًا ... وعاف نُضارها تبرا وساما

* * *

وأكبر همه مذ كان طفلاً ... حدود الله يحرص أن تُقاما

يذل لعزها نفسًا ويرضى ... لدفع الضيم عنها أن يُضاما

إذا ما رنَّ صوت الحق منه ... تولى الإفك وانحطم انحطامًا[٤]

ولما طُعن ـ رضي الله عنه ـ وهو يتهيأ للصلاة، بعد أن مرَّ بشوارع الكوفة يوقظ أهلها لصلاة الفجر... قال لبنيه بعد أن علم قاتله: «أحسنوا نُزله، وأكرموا مثواه، فإن أعش،

---

(١) صحيح: أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ٨٣) وابن أبي شيبة في مصنفه (٨/ ١٥٧).

(٢) تاريخ الطبري (٥/ ١٥٠ ـ ١٥١) وأسد الغابة (٤/ ١٢٤).

(٣) تامه: أي تيّمه.

(٤) «العلوية» لمحمد عبد المطلب.

فأنا أولى بدمه قصاصًا أو عفوًا، وإن أمت، فألحقوه بي، أخاصمه عند رب العالمين، ولا تقتلوا بي سواه، إن الله لا يحب المعتدين»[١].

(عليٌّ) ـ رضى الله عنه ـ أقضى هذه الأمة

قال عمر بن الخطاب: أقضانا عليُّ بن أبي طالب.

وعن ابن مسعود قال: كنَّا نتحدَّث أن أقضَى أهل المدينة على بن أبى طالب.

وعن عليٍّ قال: بعثنى رسول الله ﷺ إلى اليمن قاضيًا، فقلتُ: يا رسول الله، تُرسلنى وأنا حديثُ السِّنِّ، ولا علمَ لى بالقضاء؟ فقال: «إن الله سيهدى قلبك، ويُثبِّت لسانك، فإذا جلس بين يديك الخَصمان، فلا تقضينَّ حتى تسمع من الآخر كما سمعتَ من الأول، فإنه أحْرَى أن يتبيَّن لك القضاءُ». قال: فما زلتُ قاضيًا، أو ما شككتُ فى قضاءٍ بَعْدُ[٢].

وعن أبى سعيد الخُدرى أنه سَمِع عمر يقول لعليٍّ ـ وقد سأله عن شيء فأجابه ـ: أعوذ بالله أن أعيش فى قومٍ لستَ فيهم يا أبا حسن[٣].

وأخرج أحمد فى المناقب، عن عليٍّ ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ بعثه إلى اليمن فوجد أربعةً وقعوا فى حفرة حُفرت ليُصطاد فيها الأسد، سقط أولاً رجل فتعلَّق بآخر، وتعلَّق الآخر بآخر حتى تساقط الأربعة، فجرَحهم الأسد. وماتا من جراحته فتنازع أولياؤهم حتى كادوا يقتتلون، فقال عليٌّ: أنا أقضى بينكم، فإن رضيتم فهو القضاء، وإلا حجزتُ بعضكم عن بعض حتى تأتوا رسول الله ﷺ ليقضى بينكم. اجمعوا من القبائل الذين حفروا البئر رُبع الدِّية وثلثها ونصفها ودِيَةً كاملة، فللأول ربع الدِّية؛ لأنه أهلَكَ مَنْ فوقه، وللذى يليه ثلثُها؛ لأنه أهلَكَ مَنْ فوقه، وللثالث النصف؛ لأنه أهلَكَ من فوقه، وللرابع الدِّيةُ كاملةً. فأبوا أن يرضوا، فأتوا رسول الله ﷺ فلقوه عند مقام إبراهيم، فقصُّوا عليه القصَّة فقال: «أنا أقضى بينكم» واحتبى ببردةٍ، فقال رجل من القوم: إن عليًا قضى بيننا. فلمَّا قصُّوا عليه القصة، أجازه[٤].

---

(١) نقلاً من ترطيب الأفواه/ د. سيد حسين (١/ ١٤٨: ١٥١) بتصرف.

(٢) أخرجه أحمد وأبو داود والحاكم فى المستدرك وقال: صحيح الإسناد. وحسنه الشيخ وصى الله ابن محمد عباس فى تحقيقه لفضائل الصحابة للإمام أحمد (٢/ ٦٩٩).

(٣) الرياض النضرة فى مناقب العشرة (٣/ ١٦٦) للمحب الطبرى.

(٤) الرياض النضرة فى مناقب العشرة (٣/ ١٦٩) للمحب الطبرى.

على ـ رضى الله عنه ـ وجوده وكرمه

عن أبى جعفر قال: ما مات على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ حتى بلغتْ غلَّته مائة ألف، ولقد مات يوم مات وعليه سبعون ألفًا دَيْنًا. فقلت: منْ أين كان عليه هذا الدَّيْن؟ قال: كان تأتيه حامَّته من أصهاره ومعارفه، ممَّن لا يرى لَهم فى الفَىءِ نصيبًا، فيُعطيهم، فلمَّا قام الحسنُ بن على باع وأخذ من حواشى ماله حتى قضى عنه ثم كان يُعتق عنه فى كل عام خمسين نَسمة حتى هلك ثم كان الحسين يُعتق عنه خمسين نسمة حتى قُتل ثم لم يفعله أحدٌ بعدهما[1].

نزع (أبو بكر) مَخيطَ الهوى فمزَّقه (علىٌّ).

رمى الصدِّيق جهاز المُطلَّقة فوافقه علىٌّ حتى رمى الخاتم.

حبَّب الفقرَ إليــــه أنَّه ... سُؤْدُدٌ وَهْــوَ بذاكَ الفقرِ يَغْنَى

وشريفُ القــومِ من بَقَّى لهم ... شَرَفَ الذِّكْر وخَلَّى المال يَفْنى

مـا اطمأنّ الوفْر فى بُحْبُوحَـة ... فرأيتُ المجـدَ فيهـا مُطْمَئنَّا

تُهْـدَمُ الأمـوالُ من آساسِها ... أبدًا مـا دامت العلياءُ تُبْنَى[2]

على ـ رضى الله عنه ـ وشكره لله

كان علىّ بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ إذا خرج من الخلاء مسح بطنه بيده، وقال: يا لها من نعمة لو يعلم العباد شكرها[3].

وعن علىّ ـ رضى الله عنه ـ أنه قال لرجل من أهل همدان: «إن النعمة موصولة بالشكر، والشكر متعلِّق بالمزيد، وهما مقرونان فى قرنٍ؛ فلن ينقطع المزيد من الله عز وجل حتى ينقطع الشكر من العبد»[4].

* * *

(١) مكارم الأخلاق (ص ١٠٦).

(٢) التبصرة (٢/ ٢٥٨).

(٣) عُدة الصابرين (ص ١٢٢).

(٤) الشكر لابن أبى الدنيا.

تواضعه ـ رضي الله عنه ـ

عن عمرو بن قيس: أن عليًا ـ رضى الله عنه ـ رُئىَ عليه إزار مرقوع، فعُوتِب فى لبوسه، فقال: يقتدى به المؤمن، ويخشع له القلب(١).

أدبه ـ رضى الله عنه ـ

عن صُهيب مولى العباس، قال: رأيتُ عليًا يقبِّل يد العباس ورِجْله ويقول: يا عمّ، ارضَ عنى(٢).

زهده ـ رضى الله عنه ـ

لما بكت الدنيا عليه، اشتاقت وضحكت الآخرة إليه.

كان يعجبه من اللباس ما خشن، ومن الطعام ما جشب ـ أى ما غَلُظ ـ.

هذا الذى كان يقف وقد أرخى الليل سجوفه وغارت نجومه، وقد مثل فى محرابه قابضًا على لحيته، يتململ تململ السليم، ويبكى بكاء الحزين، وهو يقول: يا دنيا أبى تعرّضت؟! أم بى تشوّقت؟! هيهات غُرّى غيرى، قد بتتك ثلاثًا لا رجعة لى فيك، فعمرك قصير، وعيشكِ حقير، وخطركِ كبير، آهِ من قِلة الزاد، وبُعد السفر ووحشة الطريق.

كلمات من ذهب

وها هى باقة عطرة من كلماته التى ينبغى أن تُنقش بالذهب على صفحات القلوب.

قال ـ رضى الله عنه ـ الناس ثلاثة: فعالم ربانى، ومتعلم على سبيل النجاة، وَهَمَج رِعَاع اتباع كُلّ ناعق، يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجئوا إلى ركنٍ وثيق.

العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، العلم يزكو على العمل، والمال تنقصه النفقة. ومحبة العالِم دين يُدان بها.

(١) إسناده صحيح: أخرجه أحمد فى فضائل الصحابة وابن سعد فى الطبقات.

(٢) قال الذهبى فى السير (٢/ ٩٤): إسناده حسن.

العلم يُكسب العالِمَ الطاعة في حياته، وجميل الأحدوثة بعد موته، وضيعة المال تزول بزواله.

مات خُزّان الأموال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة.

وقال ـ رضي الله عنه ـ: احفظوا عني خمسًا لو ركبتم الإبل في طلبهن لما أصبتموهن ولأنضيتم الإبل قبل أن تدركوهن:

لا يَرْجُونَّ عبدٌ إلا ربَّه، ولا يَخَفْ إلا ذنبه، ولا يستحي جاهل أن يسأل عما لا يعلم، ولا يستحي عالم إذا سُئل عما لا يعلم أن يقول: الله أعلم. والصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولا إيمان لمن لا صبر له.

وقال ـ رضي الله عنه ـ: «إن أخوف ما أخاف اتباع الهوى وطُول الأمل: فأما اتباع الهوى فيصد عن الحق، وأما طول الأمل فيُنسى الآخرة، ألا وإن الدنيا قد ارتحلت مُدبرة، ألا وإن الآخرة قد ارتحلت مُقبلة، ولكل واحدة منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغدًا حساب ولا عمل»(١).

وقال ـ رضي الله عنه ـ: كونوا ينابيع العلم، معادن الحكمة، مصابيح الليل، خُلقان الثياب، جُدد القلوب، تُعرفون في أهل السماء، وتُخفون في أهل الأرض، وتُذكرون عند ربكم.

ألا إن الفقيه كل الفقيه الذي لا يُقَنِّطُ الناسَ من رحمة الله ولا يُؤمِنهُمُ من عذاب الله، ولا يرخِّص لهم في معاصي الله، ولا يدع القرآن رغبةً عنه إلى غيره، ولا خير في عبادة لا علم فيها، ولا خير في علم لا فهم فيه، ولا خير في قراءة لا تَدَبُّرَ فيها.

ليس الخير أن يكثر مالك وولدك، ولكن الخير أن يكثر علمك، ويعظم حلمُك، وأن تباهي الناس بعبادة ربك، فإن أحسنت حمدت الله، وإن أسأت استغفرت الله.

ولا خير في الدنيا إلا لأحد رجلين: رجل أذنب ذنوبًا فهو يتدارك ذلك بتوبة. ورجل يسارع في الخيرات ويعمل في الدرجات.

* * *

(١) صفة الصفوة (١/ ١٣٠).

موعظة بليغة

وعن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جده، أن عليًا ـ رضى الله عنه ـ شيع جنازة، فلما وُضعت فى لحدها عج أهلها وبكوها فقال: «ما تبكون؟ أما والله لو عاينوا ما عاين ميتهم لأذهلتهم معاينتهم عن ميتهم وإن له فيهم لعودة ـ يعنى ملك الموت ـ حتى لا يبقى منهم أحدًا. ثم قام فقال: أوصيكم عباد الله بتقوى الله الذى ضرب لكم الأمثال، ووقّت لكم الآجال، وجعل لكم أسماعًا تعى ما عناها، وأبصارًا لتجلوا عن غشاها، وأفئدة تفهم ما دهاها، إن الله لم يخلقكم عبثًا، ولم يضرب عنكم الذكر صفحًا، بل أكرمكم بالنعم السوابغ، وأرصد لكم الجزاء، فاتقوا الله عباد الله وجدّوا فى الطلب، وبادروا بالعمل قبل هادم اللذات، فإن الدنيا لا يدوم نعيمها، ولا تؤمن فجائعها، غرور حائل، وسناد مائل، اتعظوا عباد الله بالعبر، وازدجروا بالنُذُر، وانتفعوا بالمواعظ، فكأن قد علقتكم مخالب المنية، وضمنتم بيت التراب، ودهمتكم مفظعات الأمور بنفخة الصور، وبعثرة القبور، وسياق المحشر، وموقف الحساب، بإحاطة قدرة الجبار، كل نفس معها سائق يسوقها لمحشرها، وشاهد يشهد عليها: ﴿وأشرقت الأرض بنور ربها ووُضع الكتاب وجىء بالنبيين والشهداء وقُضى بينهم بالحق وهم لا يُظلمون﴾ فارتجت لذلك اليوم البلاد، ونادى المنادى، وحُشرت الوحوش، وبدت الأسرار، وارتجت الأفئدة، وبرزت الجحيم قد تأجج جحيمها وغلا حميمها. عباد الله اتقوا الله تقية من وجل وحذر وأبصر وازدجر فاحتث طلبًا ونجا هربًا، وقدّم للمعاد واستظهر بالزاد، وكفى بالله منتقمًا ونصيرًا وكفى بالكتاب خصمًا وحجيجًا، وكفى بالجنة ثوابًا، وكفى بالنار وبالاً وعقابًا، وأستغفر الله لى ولكم[١].

نعمة الاتباع

أخرج البخارى عن مروان بن الحكم قال: «شهدت عليًا وعثمان بين مكة والمدينة، وعثمان ينهى عن المتعة، وأن يجمع بينهما، فلما رأى ذلك (علىٌ) أهلَّ بهما جميعًا فقال: لبيك بحجة وعمرة معًا، فقال عثمان: ترانى أنهى الناس عن شىء وأنت تفعله! فقال: ما كنت لأدع سنة رسول الله ﷺ لقول أحدٍ من الناس».

(١) صفة الصفوة (١/ ١٣٢ ـ ١٣٣).

وأخرج البيهقى بسنده عن علىّ ـ رضى الله عنه ـ قال: «لو كان الدِّين بالرأى لكان باطن الخُفَّيْن أحق بالمسح من ظاهرهما، ولكن رأيت رسول الله ﷺ يمسح على ظاهرهما».

وهكذا يكون الاتباع للحبيب ﷺ الذى قال الله فى حق من حاد عن هديه: ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور:٦٣].

بل ولقد حثّ الله الأمة كلها على اتباع الحبيب ﷺ فقال: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً ﴾ [الأحزاب:٢١].

وكيف لا نتبع الحبيب ﷺ وهو الذى وصفه الله تعالى فى كتابه بقوله: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة:١٢٨].

علىّ ـ رضى الله عنه ـ والدعوة إلى الله

عن البراء أن رسول الله ﷺ بعث خالد بن الوليد ـ رضى الله عنه ـ إلى أهل اليمن يدعوهم إلى الإسلام. قال البراء: فكنت فيمن خرج مع خالد بن الوليد، فأقمنا ستة أشهر يدعوهم إلى الإسلام، فلم يجيبوه، ثم إن رسول الله ﷺ بعث علىّ بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ وأمره أن يُقفِل خالدًا، إلا رجلاً كان ممن مع خالد، فمن أحب أن يعقب مع علىّ، فليعقب معه. قال البراء: فكنت فيمن عقب مع علىّ، فلما دنونا من القوم، خرجوا إلينا، ثم تقدم فصلّى بنا علىّ، ثم صفّنا صفًا واحدًا ثم تقدم بين أيدينا، وقرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ فأسلمت (همدان) جميعًا، فكتب علىّ إلى رسول الله ﷺ بإسلامهم. فلمّا قرأ رسول الله ﷺ الكتاب خرّ ساجدًا ثم رفع رأسه فقال: «السلام على همدان! السلام على همدان!»(١).

قتاله ـ رضى الله عنه ـ للخوارج

عن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ قال: كُنَّا جلوسًا ننتظر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فخرج علينا من بعض بيوت نسائه. قال: فقُمنا معه، فانقطعت نعلُه، فتخلَّف عليها (علىّ) يخصفها. فمضى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومضينا

(١) أخرجه البيهقى ورواه البخارى مختصراً ـ كذا فى البداية (٥/ ١٠٥).

معه، ثم قام ينتظره وقمنا معه، فقال: «إن منكم من يُقاتل على تأويل هذا القرآن، كما قاتلت على تنزيله». فاستشرفنا، وفينا أبو بكر وعمر، فقال: «لا، ولكنَّه خاصف النَّعْل». قال: فجئنا نبشِّره. قال: وكأنَّه قد سَمِعَهُ(١).

وهو الذى قاتل الخوارج وقتلوه، وهم الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: «طوبى لمن قتلهم وقتلوه»(٢).

وقال ﷺ: «لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل ثمود»(٣).

وقال ﷺ: «الخوارج كلاب النار»(٤).

وقال ﷺ: «لو يعلم الجيش الذى يصيبونهم ما قُضى لهم على لسان نبيهم لاتكلوا عن العمل»(٥).

وقال ﷺ: «إن فى قتلهم أجراً عظيمًا عند الله لمن قتلهم»(٦).

ولما خرجت الخوارج على (علىّ) وكانوا ثمانية آلاف من قُرَّاء الناس، ونزل بحروراء فناظرهم (علىّ)، فرجع منهم أربعة آلاف فيهم عبد اللّه بن الكواء، فبعث (علىّ) إلى الآخرين أن يرجعوا فأبوا، فأرسل إليهم: كونوا حيث شئتم، وبيننا وبينكم أن لا تسفكوا دمًا حرامًا، ولا تقطعوا سبيلاً ولا تظلموا أحدًا، فإن فعلتم نبذتم إليكم الحرب.

قال عبد الله بن شدَّاد: فوالله ما قتلهم حتى قطعوا السبيل، وسفكوا الدم الحرام، وذلك بقتلهم عبد الله ابن خباب بن الأرت، وبقروا بطن سُرِّيَّته(٧).

وعن سلمة بن كهيل قال: حدثنى زيد بن وهب الجهنى أنه كان فى الجيش الذى كانوا مع على ـ رضى الله عنه ـ الذين ساروا إلى الخوارج فقال علىّ ـ رضى الله عنه ـ: أيها الناس إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يخرج قوم من أمتى يقرءون القرآن ليس قراءتكم إلى قراءتهم بشىء ولا صلاتكم إلى صلاتهم بشىء ولا صيامكم إلى صيامهم

(١) رواه أحمد فى المسند (٣/ ٨٢) وإسناده حسن.

(٢) إسناده حسن: رواه ابن أبى عاصم فى السنة عن عبد الله بن أبى أوفى ـ وأخرجه أحمد.

(٣) صحيح: وقد ورد فى الصحيح أيضًا «لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد».

(٤) صحيح: رواه أحمد وابن ماجه والحاكم عن ابن أبى أوفى، وأحمد والحاكم عن أبى أمامة، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع.

(٥) صحيح: أخرجه النسائى فى خصائص علىّ، ورواه عبد الله بن أحمد فى السنة.

(٦) صحيح: أخرجه ابن ماجه وأحمد والترمذى عن ابن مسعود.

(٧) نقلاً من صلاح الأمة/ د. سيد حسين (٥/ ٩٢).

بشيء يقرءون القرآن يحسبون أنه لهم وهو عليهم لا تجاوز صلاتهم تراقيهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية» لو يعلم الجيش الذين يصيبونهم ما قُضى لهم على لسان نبيهم ﷺ لاتَّكَلُوا عن العمل، وآية ذلك أن فيهم رجلاً له عضد، وليس له ذراع على رأس عضده مثل حلمة الثدي عليه شعرات بيض.

فتذهبون إلى معاوية وأهل الشام وتتركون هؤلاء يخلفونكم فى ذراريكم وأموالكم، والله إنى لأرجو أن يكونوا هؤلاء القوم فإنهم قد سفكوا الدم الحرام، وأغاروا فى سرح الناس فسيروا على اسم الله. قال سلمة بن كهيل: فنزَّلنى زيد بن وهب منزلاً حتى قال: مررنا على قنطرة فلما التقينا وعلى الخوارج يومئذ (عبد الله بن وهب الراسبى) فقال لهم: ألقوا الرماح وسُلُّوا سيوفكم من جفونها فإنى أخاف أن يناشدوكم كما ناشدوكم يوم حروراء فرجعوا فوحَّشوا برماحهم وسلُّوا السيوف وشجرهم الناس برماحهم قال: وقُتل بعضهم على بعض وما أُصيب من الناس يومئذ إلا رجلان فقال لهم عليّ ـ رضى الله عنهم ـ: التمسوا فيهم (المُخْدج) ـ الرجل الذى وصفه لهم النبى ﷺ ـ فالتمسوه فلم يجدوه فقام عليّ ـ رضى الله عنه ـ بنفسه حتى أتى ناسًا قد قتل بعضهم على بعض قال: أخروهم فوجدوه مما يلى الأرض فكبَّر ثم قال: صدق الله وبلغ رسوله قال: فقام إليه عبيدة السلمانى فقال يا أمير المؤمنين! ألله الذى لا إله إلا هو لسمعت هذا الحديث من رسول الله ﷺ ؟ فقال: إى والله الذى لا إله إلا هو ـ حتى استحلفه ثلاثًا وهو يحلف ـ[1].

وحان وقت الرحيل

لقد بشَّره النبى ﷺ بالشهادة من قبل، وكان (علىّ) ـ رضى الله عنه ـ لا ينسى أبداً تلك البشرى العظيمة، فكان على يقين من أنه سيُقتل شهيداً مهما طال عليه العمر.

فعن زيد بن وهب، قال: «قدم علىٌّ على قوم من أهل البصرة من الخوارج، فيهم رجل يقال له: الجعد ابن بعجة، فقال له: اتق الله يا علىُّ فإنك ميِّت.

فقال له علىٌّ ـ رضى الله عنه ـ: «بل مقتول، ضَرْبة على هذا، يقصد قَرْنه، تخضب هذه، يعنى لحيته من رأسه، عهد معهود، وقضاء مقضى، وقد خاب من افترى».

وعن أبى مجلز قال: جاء رجل من مراد إلى (علىّ) وهو يصلى فى المسجد، فقال:

(١) أخرجه مسلم (ص ٧٤٨) ـ وأبو داود (٤٧٦٨).

احترس فإن ناسًا من مراد يريدون قتلك فقال: إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يُقدَّر عليه، فإذا جاء القدر خليا بينه وبينه، وإن الأجل جُنة حصينة(١).

وقال الأصبغ الحنظلى: لما كانت الليلة التى أصيب فيها علىٌ ـ كرَّم الله وجهه ـ أتاه ابن التياح حين طلع الفجر يؤذنه بالصلاة وهو مضطجع متثاقل، فعاد الثانية وهو كذلك، ثم عاد الثالثة، فقام علىٌ يمشى، وهو يقول:

أشدُدْ حيازيمك للموت — فإن الموت لاقيكا

ولا تجزع من الموت — إذا حلَّ بواديكا

أما عن قصة قتله ـ رضى الله عنه ـ فلقد اجتمع ثلاثة نفر من الخوارج وهم: عبد الرحمن بن ملجم، والبرك بن عبد الله، وعمرو بن بكر التميمى فتذاكروا أمر الناس وعابوا ولاتهم ثم ذكروا (أهل النهر) فترحموا عليهم وقالوا: ما نصنع بالبقاء بعدهم شيئًا، إخواننا الذين كانوا دعاة الناس لعبادة ربهم والذين كانوا لا يخافون فى الله لومة لائم، فلو شرينا أنفسنا فأتينا أئمة الضلالة فالتمسنا قتلهم فأرَحْنا منهم البلاد وثأرنا بهم لإخواننا.

فقال ابن ملجم: أنا أكفيكم على بن أبى طالب، وقال البرك: أنا أكفيكم معاوية، وقال عمرو بن بكر: وأنا أكفيكم عمرو بن العاص، تعاهدوا وتواثقوا بالله لا ينكص رجل منا عن صاحبه الذى توجه إليه حتى يقتله أو يموت دونه فأخذوا أسيافهم فسموها ـ وضعوا عليها السُّم ـ واتعدوا لخمس عشرة تخلو من رمضان سنة (٤٠هـ) أن يثب كلٌ على صاحبه الذى توجه إليه، وأقبل كل رجل منهم على المصر ـ المكان ـ الذى فيه صاحبه.

فأما ابن ملجم وكان عداده فى كندة فخرج حتى أتى الكوفة، ولم يخبر مَن بها من إخوانه شيئًا كراهة أن يظهر، وكان بالكوفة من تيم الرباب عشرة وفيهم امرأة يقال لها (قطام ابنة الشجنة) قَتَلَ علىٌ أباها وأخاها يوم النهر، وكانت فائقة الجمال، فلما رآها أذهلته عما جاء له فخطبها فقالت: لا أتزوجك حتى تشفى لى. قال: وما يشفيك؟ قالت: ثلاثة آلاف، وعبد، وقينة (جارية مغنية) وقَتْل على بن أبى طالب قال: هو لك مهر، أما على فلم أرك ذكرتيه لى وأنت تريدينى قالت: بل التمس غرته فإن أصَبْتَ شفيت نفسك ونفسى وتهنأ بالعيش معى وإن قُتلتَ فما عند الله خير وأبقى من الدنيا وزينتها وزينة أهلها، فقال لها: والله ما جئت هذا المصر إلا لذلك ثم اختارت له مساعداً

---

(١) صفة الصفوة (١/ ١٣٤ ـ ١٣٥).

من قومها واختار هو مساعداً آخر، ولما كانت ليلة الجمعة ١٥ رمضان سنة (٤٠هـ) ترصدوا له حتى خرج يريد صلاة الصبح، فضربه ابن ملجم فى قرنه بالسيف وهو ينادي: الحكم لله لا لك ولا لأصحابك. ففزع الذين كانوا بالمسجد للصلاة(١).

ولقى الإمام ربه ـ أخيراً ـ مصابًا بضربة سيف مسموم.. كما لقيه من قبل عمر الفاروق، مصابًا بضربة خنجر محموم!

وتأبى عظمة البطل إلا أن يكون آخر مشهد فى حياته جديراً بها أكثر ما تكون الجدارة، ودالاً على حقيقته أصدق ما تكون الدلالة..!

فإنه لم يكد يتلقى ضربة القدر فى رأسه، حتى حُمِل إلى داره..

وإذ هو فى لحظات الكارثة هذه، يأمر حامليه والحافِّين حوله أن يذهبوا إلى المسجد، ليدركوا صلاة الفجر قبل أن تُؤذن بفوات.. هذه الصلاة التى كان يتهيأ لها حين حال الاغتيال الأثيم بينه وبين بلوغها أو إتمامها.. وحين يفرغون من صلاتهم، ويعودون إليه، كما يعود فى نفس الوقت، بعض الرجال ممسكين بالقاتل ـ عبد الرحمن بن ملجم ـ يفتح الإمام عينيه، فتقعان عليه. فيهز رأسه فى أسى حين يعرفه ويقول:

ــ أهو أنت..؟ لطالما أحسنتُ إليك..!!

ويُلقِى البطل العظيم على وجوه بنيه وأصحابه نظرة، فيراها تتفجَّر غيظًا، وتضطرم نقمة، ويُحسُّ بَرد الموت يَسرى فى أوصاله، ويكاد يرى المصير الذى سيحيق بـ«ابن ملجم». يكاد يرى الانتقام المروِّع الذى سيثأر به أولاده، وأصحابه، فيتقدم هو فى إصرار ليحمى قاتله من أيَّة مجاوزة أو تخط لحدود القصاص المشروع.

وهكذا ناداهم إليه، وخرجت الكلمات من فمه مبحوحة متقطعة لترسم فى «العظمة الإنسانية» التى أفاءها القرآن على «علىّ» لوحة باهرة.

قال لبنيه، ولأهله:

«أحْسِنُوا نُزُلَه.. وأكرموا مَثواه..

فإن أعشْ، فأنا أوْلَى بدمه قصاصًا أو عفواً..

وإن أمُتْ، فألحقُوه بى، أُخاصِمه عند رب العالمين..

ولا تقتلُوا بى سواه..

(١) نقلاً من (الخلفاء الراشدون) للشيخ حسن أيوب (ص ٣١٩: ٣٢٠) بتصرف.

«إن الله لا يحبُّ المعتدين»..!!(١)

قال العلماء بالسير: ضربه عبد الرحمن بن ملجم بالكوفة يوم الجمعة لثلاث عشرة بقيت من رمضان. وقيل: ليلة إحدى وعشرين منه. سنة أربعين. فبقى الجمعة والسبت، ومات ليلة الأحد، وغسَّله ابناه وعبد الله بن جعفر، وصلَّى عليه الحسن، ودُفن فى السَّحَر(٢).

وقال الحسن بن على: يا أيها الناس، لقد فارقكم أمس رجلٌ ما سبقه الأولون ولا يدركه الآخرون، لقد كان رسول الله ﷺ يبعثه البعث فيعطيه الراية، فما يرجع حتى يفتح الله عليه، جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره ـ يعنى عليًا ـ رضى الله عنه ـ ما ترك بيضاء ولا صفراء إلا سبعمائة درهم فضلت من عطائه أراد أن يشترى بها خادمًا(٣).

وهكذا، آب المسافر إلى وطنه.. وعاد إلى منزله..!!

ورحل «ابن أبى طالب» عن الدنيا.. لكنّ حياته والأيام التى عاشها على الأرض تحولت إلى شمس أخذت مكانها العالى فى حياة البشرية وتاريخها، وراحت تجذب إلى مدارها قِيَمَ الحق، والبطولة، والإيمان، والخير، والشرف.

وهكذا رحل الإمام، وما رَحَل..

وطُعَن، وما طُعِنَ..

فهو الظَّاعن الحاضر..

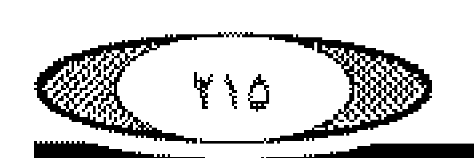
وهو الراحل المُقيم..

لقد فتح لذكره، ولذكراه أبواب الخلود حينما ترك لذوى الدُنيا دنياهم، واختار الله ورسوله، والدارَ الآخرة..

ولقد احتوشتَه العواصف، والأعاصير، لكى تُزيغه فى ظلامها عن الطريق.. أو تُفقده بعض رشده، أو تشغَله عن غاياته ومبادئه.. فما زاغ عن الطريق(٤).

فرضى الله عن على وسائر الصحابة أجمعين

(١) خلفاء الرسول/ خالد محمد خالد (٥٩٨/ ٥٩٩) بتصرف.
(٢) صفة الصفوة (١/ ١٣٥).
(٣) أخرجه ابن حبان وأحمد والبزار، وصححه الألبانى فى الصحيحة (٢٤٩٦).
(٤) خلفاء الرسول (ص ٦٠١).





مَنْ أحب أن ينظر إلى شهيد يمشي على وجه الأرض
فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله

محمد رسول الله ﷺ

مرحبًا مرحبًا بمن قدَّم حياته فداءً للحبيب ﷺ فى غزوة أُحُد.. مرحبًا بالشهيد الحى الذى يضع أقدامه فى الدنيا وهو يعلم أنه من أهل الجنة.

مرحبًا بمن شهد له النبى ﷺ أنه ممّن قضى نحبه.

مرحبًا بالصحابى الجليل: طلحة بن عبيد الله القرشى التيميّ، أبو محمد، أحد العشرة، وأحد الثمانية الذين سبقوا إلى الإسلام، وأحد الخمسة الذين أسلموا على يد أبى بكر، وأحد الستة أصحاب الشورى[١].

لقد كان طلحة ـ رضى الله عنه ـ صاحب النفس الطيبة التى تبحث عن الخير أينما كان.. فكان يرى الجاهلية التى يعيشها الناس من حوله فتشمئز نفسه ويتمزق قلبه حُزنًا وكَمداً على تلك الحالة التى كان يتمنى هو وغيره ـ من أصحاب المروءة والنفوس النقية الصافية التى فُطرت على النقاء ـ أن تتغير وأن تتبدل تلك الجاهلية إلى حياة نظيفة طاهرة يعيش الناس فيها فى ظل الحب والوئام والعدل والإخاء.

إنه عملاق من عمالقة الإسلام، وفارس من أشجع الفرسان، ورجل من أولئك الرجال الذين كان لهم أطيب الأثر، وأعظمه فى الفتوحات الإسلامية الأولى. والده: عبيد الله، كان من أشراف مكة، وأولى الحظوة فيها. وأمه: الصعبة بنت عبد الله، جدها لأمها وهب بن عبد الله، صاحب العطاء والكرم.

وبين أبيه وأمه نمت طفولته، وترعرع شبابه، وتعلَّم على أيديهما الكثير من شئون الحياة والتخلق بالأخلاق الكريمة، والصفات الحميدة، حتى إذا بلغ مبلغ الرجال تزوج

(١) الإصابة للحافظ ابن حجر (٣/ ٤٣٠).

حمنة بنت جحش، أخت زينب زوج النبى ﷺ.

نشأ طلحة ـ رضى الله عنه ـ فى مكة، فعرف سهولها ووديانها، وتنقل بين جبالها وقممها، وتعلَّم الرماية بالسهم، والإصابة بالرمح ولما شبَّ عن الطوق ضاقت به جنباتُ مكة، فاختار طريق التجارة. ومن هنا عرفته أسواق بصرى والشام، عرفته تاجرًا صدوقًا، وخبرته بائعًا سمحًا.

وسارت حياة طلحة ـ رضى الله عنه ـ بين ظعن وإقامة، وحِلٍّ وترحال، وتوالت الأيام، وكرت الليالى، وهى لا تخرجه عن مزاولة التجارة.

هذا العمل الشاق الذى رضيه لنفسه، واختاره لحياته.

وسرعان ما تحققت تلك الأمنية الغالية، فلقد بزغ نور الإسلام فأضاء الكون كله فى لحظة واحدة.. يوم أن نزل جبريل ـ عليه السلام ـ على الحبيب ﷺ ومعه النور الذى أضاء الله به القلوب المظلمة وهدى به النفوس التائهة فى دروب الحياة المتشابكة إلى أنوار التوحيد والإيمان.

لقد بُعث محمد ﷺ وآمن برسالته أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ. فلما سمع طلحة ـ رضى الله عنه ـ هذا الخبر لم يتلكأ ولم يتلعثم، بل إنه بمجرد أن دعاه أبو بكر استجاب لنداء الحق فهو يعلم يقينًا أن محمدًا هو الصادق الأمين بلا منازع، وأن أبا بكر هو التاجر الصدوق الذى لا يمكن أن يجتمع مع الحبيب ﷺ على ضلالة أبدًا.

وذهب طلحة وقلبه ينبض بكل قوة وشوق وحنين للقاء الحبيب ﷺ ليعلنها قوية فى وجه الكون كله: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله ﷺ.

وعلى الرغم من مكانته بين قومه وثرائه، إلا أنه أوذى فى سبيل الله، ولكن سرعان ما كشف الله عنه هذا العذاب والابتلاء.

ولما هاجر الحبيب ﷺ إلى المدينة هاجر طلحة ـ رضى الله عنه ـ مع المهاجرين لينعم بصُحبة النبى ﷺ بعيدًا عن أعين كفار قريش وسطوتهم.

* * *

شهيد يمشي على الأرض

وها هو الحبيب ﷺ يبشر طلحة ـ رضى الله عنه ـ بأنه سيموت شهيداً بإذن الله ـ جل وعلا ـ.

فعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان على جبل حراء. فتحرك. فقال رسول الله ﷺ: «اسكُن. حراءُ! فما عليك إلا نبيٌّ أو صدِّيق أو شهيدَ»، وعليه النبى ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعليّ وطلحةُ والزبير وسعد بن أبى وقاصٍ ـ رضى الله عنهم ـ[1].

فلما علم طلحة بأنه سيموت شهيدًا.. وذلك بعد أن سمع تلك البشرى من الحبيب ﷺ ظل يبحث عن الشهادة فى مظانها... فشهد المشاهد كلها مع النبى ﷺ عدا غزوة بدر.

فاتُّفق أنه غاب عن وقعة بدر فى تجارة له بالشام[2].

وفى يوم «أحد» أوجب طلحة ـ رضى الله عنه ـ

وفى غزوة أُحُد كان طلحة كعادته يبحث عن الشهادة التى بشَّره بها النبى ﷺ. لعل الله أن يكرمه بها فى ذلك اليوم.

وبينما كان الجيش الإسلامى الصغير يسجل مرة أخرى نصرًا ساحقًا على مكة لم يكن أقل روعة من النصر الذى اكتسبه يوم بدر، وقعت من أغلبية فصيلة الرماة غلطة فظيعة قلبت الوضع تمامًا، وأدت إلى إلحاق الخسائر الفادحة بالمسلمين، وكادت أن تكون سببًا فى مقتل النبى ﷺ وقد تركت أسوأ أثر على سمعتهم، والهيبة التى كانوا يتمتعون بها بعد بدر.

لما رأى هؤلاء الرماة أن المسلمين ينتهبون غنائم العدو؛ غلبت عليهم أثارة من حب الدنيا، فقال بعضهم لبعض: الغنيمة، الغنيمة، ظهر أصحابكم، فما تنتظرون؟!

---

(١) أخرجه مسلم (٥٠) كتاب فضائل الصحابة.

(٢) قال ابن سعد فى الطبقات (٣/ ١/ ١٥٤) لما تحين رسول الله ﷺ، وصول عير قريش من الشام، بعث طلحة بن عبيد الله، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، قبل خروجه من المدينة بعشر ليال، يتحسسان خبر العير، فخرجا حتى بلغا الحوراء. فلم يزالا مقيمين هناك حتى مرت بهما العير، وبلغ رسول الله ﷺ، الخبر، قبل رجوع طلحة وسعيد إليه...».

أما قائدهم عبد الله بن جبير، فقد ذكَّرهم أوامر الرسول ﷺ وقال: أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ ؟!

ولكن الأغلبية الساحقة لم تُلق لهذا التذكير بالاً، وقالت: والله لنأتينّ الناس فلنصيبن من الغنيمة[1]. ثم غادر أربعون رجلاً من هؤلاء الرماة مواقعهم من الجبل، والتحقوا بسواد الجيش، ليشاركوه في جمع الغنائم، وهكذا خلت ظهور المسلمين، ولم يبق فيها إلا ابن جبير وتسعة من أصحابه، التزموا مواقفهم، مصممين على البقاء حتى يؤذن لهم أو يُبادوا.

وانتهز خالد بن الوليد هذه الفرصة الذهبية، فاستدار بسرعة خاطفة، حتى وصل إلى مؤخرة الجيش الإسلامي، فلم يلبث أن أباد عبد الله بن جبير وأصحابه، ثم انقضّ على المسلمين من خلفهم، وصاح فرسانه صيحة عرف منها المشركون المنهزمون بالتطور الجديد، فانقلبوا على المسلمين، وأسرعت امرأة منهم - وهي عمرة بنت علقمة الحارثية - فرفعت لواء المشركين المطروح على التراب، فالتفّ حوله المشركون، ولاثوا به، وتنادىَ بعضهم بعضًا، حتى اجتمعوا على المسلمين، وثبتوا للقتال، وأحيط المسلمون من الأمام والخلف ووقعوا بين شقّي الرحى.

وبينما كانت تلك الطوائف تتلقى أواصر التطويق، تطحن بين شقي رحى المشركين، كان العراك محتدمًا حول رسول الله ﷺ فلما نادى المسلمين: «هَلُمّ إليّ، أنا رسول الله»، سمع صوته المشركون وعرفوه، فكرّوا إليه وهاجموه، ومالوا إليه بثقلهم قبل أن يرجع إليه أحد من جيش المسلمين فجرى بين المشركين وبين هؤلاء النفر التسعة من الصحابة عراك عنيف، ظهرت فيه نوادر الحب والتفاني والبسالة والبطولة.

عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ أُفرد يوم أُحد في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش، فلما رهقوه؛ قال: «من يردّهم عنا وله الجنة؟» أو: «هو رفيقي في الجنة؟» فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قُتل، ثم رهقوه أيضًا فلم يزل كذلك حتى قُتل السبعة، فقال رسول الله ﷺ لصاحبيه - أي: القرشيين -: «ما أنصفنا أصحابنا»[2].

---

(١) أخرجه البخاري عن البراء بن عازب (١/ ٤٢٦).

(٢) أخرجه مسلم (٢/ ١٠٧) باب غزوة أُحد.

وكان آخر هؤلاء السبعة هو عمارة بن يزيد بن السكن، قاتل حتى أثبتته الجراحة فسقط(١).

وبعد سقوط ابن السكن بقى رسول الله ﷺ فى القرشيين فقط.

ففى الصحيحين عن أبى عثمان؛ قال: لم يبق مع النبى ﷺ فى بعض تلك الأيام التى يقاتل فيهن غير طلحة بن عبيد الله، وسعد (بن أبى وقاص)(٢).

فأما سعد بن أبى وقاص، فقد نثل له رسول الله ﷺ كنانته، وقال: «ارم فداك أبى وأمى»(٣). ويدل على مدى كفاءته أن النبى ﷺ لم يجمع أبويه لأحدٍ غير سعد(٤).

وعن جابر قال: لما كان يوم أُحد وولّى النّاس كان رسول الله ﷺ فى ناحية فى اثنى عشر رجلاً منهم طلحة، فأدركه المشركون، فقال النبى ﷺ: «مَن للقوم؟» قال طلحة: أنا. قال: «كما أنت» فقال رجل: أنا. قال: «أنت». فقاتل حتى قُتل. ثم التفت، فإذا المشركون فقال: «من لهم؟» قال طلحة: أنا. قال: «كما أنت». فقال رجل من الأنصار: أنا. قال: «أنت» فقاتل حتى قُتل، فلم يزل كذلك حتى بقى مع نبى الله (طلحة) فقال: «مَن للقوم؟» قال طلحة: أنا. فقاتل طلحة قتال الأحد عشر، حتى قُطعت أصابعه فقال: «حسّ». فقال رسول الله ﷺ: «لو قلت: بسم الله لرفعتك الملائكة والناس ينظرون».. ثم ردّ الله المشركين(٥).

وعند الطبرانى: «لو قلت: بسم الله لطارت بك الملائكة والناس ينظرون إليك».

وعند النسائى والبيهقى فى الدلائل: «حتى تلج بك فى جو السماء».

وعند أحمد: فقال له النبى ﷺ: «لو قلت بسم الله لرأيت يُبنى لك بها بيت فى الجنة وأنت حىٌّ فى الدنيا»(٦).

---

(١) وبعد لحظة فاءت إلى رسول الله ﷺ فئة من المسلمين فأجهضوا الكفار عن عمارة، وأدنوه من رسول الله ﷺ، فوسده قدمه، فمات وخده على قدم رسول الله ﷺ. [ابن هشام ٢/ ٨١].

(٢) أخرجه البخارى (٣٧٢٢)، ومسلم (٤٧)، (٢٤١٤).

(٣) أخرجه البخارى (١/ ٤٠٧) (٢/ ٥٨٠).

(٤) أخرجه البخارى (٣٧٢٥) ـ ومسلم (٤٢) (٢٤١٢).

(٥) رواه الحاكم مختصراً (٣/ ٣٦٩) معرفة الصحابة، وله طرق، قال الألبانى فى الصحيحة رقم (٢١٧١) فالحديث حسن بمجموع هذه الطرق.

(٦) رواه أحمد فى فضائل الصحابة (١٢٩٤) وإسناده صحيح.

وعن قيس بن حازم قال: رأيت يد طلحة شلاء وقى بها النبى يوم أُحد(١).

وجُرح فى تلك الغزوة تسعًا وثلاثين أو خمسًا وثلاثين وشُلّت أصبعه أى السبابة والتى تليها(٢).

وقال النبى ﷺ فيه يومئذ: «من أحب أن ينظر إلى شهيد يمشى على وجه الأرض فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله»(٣).

وروى أبو داود الطيالسى عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت: كان أبو بكر إذا ذكر يوم أُحُد قال: ذلك اليوم كله لطلحة(٤).

وقال فيه أبو بكر أيضًا:

يا طلحة بن عبيد الله قد وجبت   لك الجنان وبوأت المها العينا(٥)

عن عائشة وأم إسحاق بنتى طلحة قالتا: جُرح أبونا يوم أُحُد أربعًا وعشرين جراحة، وقع منها فى رأسه شجةٌ مربّعة، وقُطع نساه ـ يعنى العرق ـ وشُلَّت أصبعُه، وكان سائر الجراح فى جسده، وغلبه الغَشيُ ـ الإغماء ـ ورسول الله ﷺ مكسورة رباعيته، مشجوجٌ فى وجهه، قد علاه الغَشيُ، وطلحةُ محتملهُ ـ أى يحمل النبى ﷺ ـ يرجعُ به القهقرى، كلما أدركه أحد من المشركين، قاتل دونه، حتى أسنده إلى الشعب(٦).

حتى قال عنه ﷺ: «أوجب طلحة حين صنع برسول الله ﷺ ما صنع»(٧).

* * *

(١) رواه البخارى عن قيس بن حازم ـ حديث رقم (٤٠٦٣).

(٢) البخارى (٧/ ٣٦١).

(٣) رواه الترمذى والحاكم عن جابر، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٩٦٢).

(٤) فتح البارى (٧/ ٣٦١).

(٥) مختصر تاريخ دمشق (٧/ ٨٢).

(٦) سير أعلام النبلاء للإمام الذهبى (١/ ٣٢).

(٧) أخرجه أحمد والترمذى وابن حبان والحاكم عن الزبير، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٥٤٠)، بلفظ «أوجب طلحة حين صنع برسول الله ﷺ ما صنع» الصحيحة (٩٤٥).



من المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه

عن موسى وعيسى ابني طلحة عن أبيهما أن أصحاب رسول الله ﷺ قالوا لأعرابي جاء[١] يسأله عمن قضى نَحبه مَن هو؟ فكانوا لا يجترئون على مسألته يوقرونه ويهابونه قال: فسأله الأعرابي فأعرَض عنه ثم سأله فأعرض عنه ثم إني اطلعت من باب المسجد ـ يعني طلحة ـ وعليَّ ثياب خضر فلما رآني رسول الله ﷺ قال: «أين السائل عمن قضى نحبه؟» قال الأعرابي: أنا يا رسول الله. قال: «هذا ممن قضى نحبه»[٢].

وعن طلحة ـ رضي الله عنه ـ قال: عُقرت يوم أُحد في جميع جسدي حتى في ذَكَري[٣].

وطلحة يوم الشِّعْب واسَى مُحمدًا	لدى ساعة ضاقتْ عليه وسُدَّت
وقاه بِكَفْيه الرِّماحَ فقُطِّعَتْ	أصابعُهُ تحت الرماح فشُلَّتِ

أدبه مع النبي ﷺ

أدَب طلحة الخير: طلحة بن عبيد الله ـ رضي الله عنه ـ.

يظهر ذلك جليًا أثناء انسحاب رسول الله ﷺ من أُحد؛ قال ابن إسحاق: نهض رسول الله ﷺ إلى الصخرة من الجبل ليعلوها، وكان قد بدَّن[٤] وظاهَر بين درعين، فلما ذهب لينهض لم يستطع، فجلس تحته طلحة بن عبيد الله حتى استوى عليها.

لقد أصاب العرَجُ إحدى رجْلَي طلحة ـ رضي الله عنه ـ أثناء دفاعه عن النبي ﷺ ، ولمّا حمل طلحة النبي ﷺ تكلَّف استقامة المشي أدبًا مع رسول الله ﷺ ، لئلا يشقَّ على النبي ﷺ ، فاستوتْ رجلُه العرجاء لهذا التكلُّف، فشُفي من العَرَج[٥].

* * *

(١) في رواية الترمذي... قالوا لأعرابي جاهل: سله عمن قضى نحبه من هو؟

(٢) النحب النذر، وقيل: الموت وقيل: العهد وقيل غير ذلك ـ قال شعيب الأرنؤوط: والحديث رواه أبو يعلى (٢/ ٢٦ ـ ٢٧) والترمذي (٣٧٤٢) بإسناد حسن.

(٣) سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي (١/ ٣٩).

(٤) أي ضعف وأسنَّ.

(٥) صلاح الأمة/ د. سيد حسين (٥/ ٦٤٠ ـ ٦٤١).

دفاعه عن إخوانه وإحسان الظن بهم

عن مالك بن أبى عامر، قال: جاء رجل إلى طلحة فقال: أرأيتك هذا اليمانى هو أعلمُ بحديث رسول الله منكم ـ يعنى أبا هريرة ـ نسمع منه أشياء لا نسمعها منكم، قال: أما أنْ قد سمع من رسول الله ﷺ ما لم نسمع، فلا أشك، وسأخبرك: إنَّا كنَّا أهل بيوت، وكنا إنما نأتى رسول الله غُدوةً وعشيةً، وكان مسكينًا لا مال له ـ أبو هريرة ـ إنما هو على باب رسول الله، فلا أشكُّ أنه قد سمع ما لم نسمع، وهل تجد أحدًا فيه خيرٌ يقول على رسول الله ﷺ ما لم يَقُلْ؟(١).

فيا ليتنا نعى هذا الدرس جيدًا ونُحسن الظن بكل علمائنا فهم الذين يقفون على كل ثغر من ثغور الإسلام يدافعون عن هذا الدين ويبلغون رسالة الحبيب ﷺ إلى الدنيا بأسرِّها. ولذا فإن هؤلاء العلماء بمثابة الجهاز المناعى للأمة ضد كل غاشم يريد أن ينال من هذا الدين.

ولا تستطيع الأمة بحال من الأحوال أن تحيا بغير هذا الجهاز المناعى، وإلا أتتها الأمراض من كل مكان، ودبّ فيها الضعف... فاعلموا لأهل العلم قدرهم ومنزلتهم.

إنفاقه فى سبيل الله تعالى

عن قبيصة بن جابر قال: صحبتُ طلحة، فما رأيت أعطَى لجزيلِ مالٍ من غير مسألةٍ منه(٢).

وعن موسى، عن أبيه (طلحة) أنه أتاه مالٌ من حضرموت سبعُ مئة ألف، فبات ليلته يتململ. فقالت له زوجته: ما لك؟ قال: تفكرتُ منذ الليلة، فقلت: ما ظنّ رجل بربه يبيت وهذا المال فى بيته؟ قالت: فأين أنت عن بعض أخلائك فإذا أصبحت، فادع بجفانٍ وقصاعٍ فقسِّمه. فقال لها: رحمك الله، إنك موفقة بنت موفق، وهى أم كلثوم بنت الصديق، فلما أصبح، دعا بجفان، فقسّمها بين المهاجرين والأنصار، فبعث إلى علىّ منها بجفنة، فقالت له زوجته: أبا محمد! أما كان لنا فى هذا المال من نصيب؟ قال: فأين كنت منذ اليوم؟ فشأنك بما بقى. قالت: فكانت صرة فيها نحوُ ألف درهم(٣).

(١) قال الأرنؤوط: رجاله ثقات: أخرجه الترمذى، وحسنه هو والحافظ فى الفتح.
(٢) أخرجه ابن سعد (٣/ ١/ ١٥٧) والطبرانى فى الكبير (١٩٤).
(٣) سير أعلام النبلاء للإمام الذهبى (١/ ٣٠ ـ ٣١).

وعن سُعدى بنت عوف المرية قالت: دخلتُ على طلحة يومًا وهو خاثر[١]، فقلت: ما لك؟ لعل رابك من أهلك شيء؟ قال: لا والله، ونِعْم خليلةُ المسلم أنت، ولكن مالٌ عندي قد غمَّني. فقلت: ما يَغُمُّك؟ عليك بقومك، قال: يا غلام! ادع لي قومي. فقسَّمه فيهم، فسألتُ الخازن: كم أعطى؟ قال: أربع مئة ألف[٢].

وعن الحسن البصري أن طلحة بن عُبيد الله باع أرضًا له بسبع مئة ألف. فبات أرقًا من مخافة ذلك المال، حتى أصبح ففرَّقه[٣].

وعن عليّ بن زيد قال: جاء أعرابي إلى طلحة يسأله، فتقرب إليه برحم فقال: إن هذه لرحم ما سألني بها أحدٌ قبلك، إن لي أرضًا قد أعطاني بها عثمان ثلاثمائة ألف فاقبضها، وإن شئت بعتها من عثمان، ودفعت إليك الثمن. فقال: الثمن، فأعطاه[٤].

إنه طلحة الخير، وطلحة الفياض، وطلحة الجود.

موقفه يوم الجمل... والشهادة في سبيل الله

عن علقمة بن وقاص الليثي قال: لما خرج طلحة والزبيرُ وعائشة للطلب بدم عثمان، عرَّجوا عن منصرفهم بذات عِرق، فاستصغروا عُروة بن الزبير، وأبا بكر بن عبد الرحمن فردوهما، قال: ورأيت طلحة، وأحبُّ المجالس إليه أخلاها، وهو ضارب بلحيته على زوره، فقلت: يا أبا محمد! إني أراك وأحبُّ المجالس إليك أخلاها، إن كنت تكره هذا الأمر، فدعه، فقال: يا علقمة! لا تلمني، كنا أمس يدًا واحدة على مَنْ سوانا، فأصبحنا اليوم جبلين من حديد، يزحف أحدنا إلى صاحبه، ولكنه كان مني شيء في أمر عثمان، مما لا أرى كفَّارته إلا سَفْكَ دمي، وطلب دمه[٥].

قال الإمام الذهبي ـ رحمه الله ـ قلت: الذي كان منه في حق عثمان تمغفلٌ وتأليبٌ، فعله باجتهاد، ثم تغير عندما شاهد مصرع عثمان، فندم على ترك نُصرته ـ رضي الله

---

(١) خاثر النفس: غير نشيط.

(٢) ذكره الهيثمي في المجمع (٩/ ١٤٨) وقال: رواه الطبراني ورجاله ثقات.

(٣) سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي (١/ ٣٢).

(٤) سير أعلام النبلاء (١/ ٣١).

(٥) أخرجه الحاكم (٣/ ٣٧٢)، وفيه «في طلب دمه» بدل «وطلب دمه» وسكت الحاكم عنه. ولكن الذهبي قال في مختصره: سنده جيد. وهو كما قال.

عنهما ـ وكان طلحةُ أول من بايع عليًا، أرهقه قتلةُ عثمان، وأحضروه حتى بايع(١).

ولكن طلحة والزبير ـ رضى الله عنهما ـ اعتزلا تلك الحرب فلم يقاتلا، وذلك عندما رأيا (عمارًا) يقاتل في صف (عليّ) فتذكّرا قول النبي ﷺ لعمار: «تقتلك الفئة الباغية»(٢).

وكان طلحة والزبير ـ رضى الله عنهما ـ في جيش معاوية ـ رضى الله عنه ـ الذى يقاتل عماراً ـ رضى الله عنه ـ فخشيا من الخوض في هذا القتال. ومما زاد حماسهما لاعتزال تلك الحرب ـ قول عليّ بن أبي طالب للزبير ـ: يا زبير أنشدك الله هل سمعت رسول الله ﷺ يقول: تقاتله وأنت له ظالم؟ قال ـ الزبير ـ: أذكر، ثم مضى الزبير منصرفًا»(٣).

فانسحب طلحة والزبير وقُتلا أثناء اعتزالهما لتلك الحرب، فأما الزبير فقد تعقّبه رجل اسمه «عمرو بن جرموز» فقتله غدراً.

وأما طلحة فيقال: إنه جاءه سهم غرب ـ أى لا يُدرى من الذى رماه ـ.

وقيل: إن الذى رماه هو مروان بن الحكم.

فعن قيس قال: رأيت مروان بن الحكم حين رمى طلحة يومئذ بسهم، فوقع في ركبته، فما زال ينسحّ حتى مات(٤).

وعن أبي سبرة قال: نظر مروان بن الحكم إلى طلحة بن عبيد الله يوم الجمل فقال: لا أطلب بثأرى بعد اليوم فرماه بسهمٍ فقتله»(٥).

قال الإمام الذهبى ـ رحمه الله ـ قلت: قاتل طلحة في الوزر بمنزلة قاتل (عليّ)…. وعن (عليّ) قال: «بشّروا قاتل طلحة بالنار»(٦).

وعن طلحة بن مطرف: أن عليًا انتهى إلى طلحة وقد مات، فنزل عن دابته وأجلسه،

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبى (١/ ٣٥).
(٢) أخرجه مسلم (٢٩١٥) الفتن ـ وأحمد (٣/ ٥).
(٣) أخرجه الحاكم (٣/ ٣٦٦) وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبى.
(٤) أخرجه الحاكم (٣/ ٣٧٠) وابن سعد (٣/ ١/ ١٥٩) مطولاً، وأورده الحافظ في الإصابة (٥/ ٢٣٥) وقال: سنده صحيح.
(٥) أورده الحافظ في الإصابة (٥/ ٢٣٥) وقال: إسناده صحيح.
(٦) سير أعلام النبلاء للذهبى (١/ ٣٦، ٣٧).

ومسح الغبار عن وجهه ولحيته، وهو يترحم عليه، وقال: «ليتني مِتُّ قبل هذا بعشرين سنة»(١).

وعن قيس بن عبادة، قال: «سمعت عليًا ـ رضى الله عنه ـ يوم الجمل يقول لابنه الحسن: «يا حسن، وددتُّ أنى كنتُ مِتُّ منذ عشرين سنة»(٢).

وعن أبى حبيبة ـ مولىً لطلحة ـ قال: دخلت على (علىّ) مع عمران بن طلحة بعد وقعة الجمل فرحَّب به وأدناه ثم قال: إنى لأرجو أن يجعلنى الله وأباك ممن قال فيهم: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ [الحجر:٤٧](٣).

حفظ الله له بعد موته

إن الله يحفظ العبد المؤمن بعد موته كما كان يحفظه وهو حى.

وها هو طلحة ـ رضى الله عنه ـ بعد موته بأكثر من ثلاثين سنة يفتحون قبره وينقلونه إلى مكانٍ آخر، وإذا به لم يتغير منه إلا شُعيرات فى إحدى شِقّى لحيته.

فعن المثنى بن سعيد قال: أتى رجلٌ عائشةَ بنت طلحة فقال: رأيت طلحةَ فى المنام، فقال: قل لعائشة تحولنى من هذا المكان! فإنَّ النَّزَّ ـ الرطوبة أو الماء ـ قد آذانى. فركبت فى حشمها، فضربوا عليه بناء واستثاروه. قال: فلم يتغير منه إلا شُعيرات فى إحدى شِقَّى لحيته، أو قال رأسه، وكان بينهما بضع وثلاثون سنة.

وحكى المسعودىُّ أن عائشة بنته هى التى رأت المنام(٤).

فرضى الله عن طلحة وعن سائر الصحابة أجمعين

* * *

(١) قال الهيثمى فى المجمع (٩/ ١٥٠): رواه الطبرانى وإسناده حسن.

(٢) قال الهيثمى فى المجمع (٩/ ١٥٠) رواه الطبرانى وإسناده جيد.

(٣) أخرجه ابن سعد (٣/ ١/ ١٦٠) والطبرى فى تفسيره (١٤/ ٣٦) ـ وتفسير ابن كثير (٤/ ١٦٤).

(٤) سير أعلام النبلاء للإمام الذهبى (١/ ٤٠).

الزبير بن العوام

حوارى رسول الله ﷺ المشهود له بالجنة
أول من سلّ سيفه فى سبيل الله

يا لها من مناقب اجتمعت لهذا الصحابى الجليل.

إنه حوارىُّ رسول الله ﷺ وابن عمته صفية بنت عبد المطلب، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد الستة أهل الشورى، وأول من سلّ سيفه فى سبيل الله... أبو عبد الله ـ رضى الله عنه ـ أسلم وهو حَدَث، له ست عشرة سنة.

وقد ورد أن الزبير كان رجلاً طويلاً، إذا ركب خطَّت رجلاه الأرض، وكان خفيف اللحية والعارضين(١).

ولقد كان الزبير منذ صغره فارسًا مغواراً لا يخشى الردى ـ الموت ـ أينما كان... ولم يتخلف عن غزوة غزاها رسول الله ﷺ قط.

وكان يحب النبى ﷺ حبًا مَلَك عليه قلبه وجوارحه فكان يخشى عليه من نسيم الهواء، بل من أدنى من ذلك.

دفاعه عن النبى ﷺ

وفى يوم من الأيام سرت إشاعة بين الناس أن الرسول ﷺ قُتل فما كان من الزبير إلا أن أخذ سيفه وخرج على الناس كالإعصار المدمِّر يريد أن يتثبت من الخبر فلقيه الحبيب ﷺ فقال: مالك يا زبير؟ قال:أُخبرت أنك أُخذت ـ قُتلت ـ فصلى عليه ودعا له ولسيفه.

وفى رواية: فقال النبى ﷺ ما لك؟ قال: أُخبرت أنك أُخذت، قال: فكنت صانعًا ماذا؟ قال: كنتُ أضربُ به من أخذك. فدعا له ولسيفه(٢).

(١) السير للإمام الذهبى (١/ ٤١ ـ ٤٢).
(٢) قال الأرنؤوط: رجاله ثقات: رواه الحاكم فى المستدرك (٣/ ٣٦٠ ـ ٣٦١) وانظر الاستيعاب (٣/ ٣١١)، وأُسد الغابة (٢/ ٢٥٠) والإصابة (٤/ ٨).

كان يسمى أولاده بأسماء الشهداء

لقد كان يحب الشهادة فى سبيل الله، ويبحث عنها فى مظانها حتى إنه من حبه للشهادة كان يسمى أولاده بأسماء الشهداء.

قال الزبير بن العوام: إن طلحة بن عبيد الله التيمى يسمى بنيه بأسماء الأنبياء، وقد علم أنه لا نبى بعد محمد ﷺ وإنى أُسمى بنىّ بأسماء الشهداء لعلهم أن يُستشهدوا، فسمى (عبد الله) بعبد الله بن جحش، (والمنذر) بالمنذر ابن عمرو، (وعروة) بعروة بن مسعود، (وحمزة) بحمزة بن عبد المطلب، (وجعفراً) بجعفر بن أبى طالب، (ومصعبًا) بمصعب بن عُمير، (وعُبيدة) بعبيدة بن الحارث، (وخالدًا) بخالد بن سعيد، (وعمراً) بعمرو بن سعيد بن العاص[(١)].

صبره على الإيذاء فى سبيل الله

وعلى الرغم من شرفه ونسبه فى قومه إلا أنه أخذ حظه من الظلم والتعذيب والاضطهاد.

وكان الذى يتولى تعذيبه (عمه).

قال يتيم عروة: هاجر الزبير وهو ابن ثمان عشرة سنة، وكان عمه يعلّقه ويُدخِّن عليه، وهو يقول: «لا أرجع إلى الكفر أبدًا»[(٢)].

ولقد هاجر الزبير إلى الحبشة الهجرتين ـ الأولى والثانية ـ ثم عاد ليشهد مع رسول الله ﷺ المشاهد كلها.

ومن تأمل وصف الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ لجسد الزبير لعلم كيف كان يقاتل الزبير ـ رضى الله عنه ـ.

عن عروة قال: كان فى الزبير ثلاث ضربات بالسيف: إحداهن فى عاتقه إن كنت لأُدخل أصابعى فيها ضُرب ثنتين يوم بدر وواحدة يوم اليرموك[(٣)].

---

(١) الطبقات لابن سعد (٣/ ٧٤).

(٢) قال الهيثمى فى المجمع (٩/ ١٥١): رجاله ثقات إلا أنه مرسل. وأخرجه الحاكم (٣/ ٣٦٠).

(٣) السير للإمام الذهبى (١/ ٥٢) ـ وأخرجه البخارى (٧/ ١٠٠) فضائل الصحابة.

وعن عليّ بن زيد قال: أخبرني من رأى الزبير وإن في صدره مثل العيون، من الطعن والرمي(١).

الهجرة إلى الحبشة

ولما اشتد إيذاء قريش لأصحاب الحبيب ﷺ أشار عليهم بالهجرة إلى الحبشة ليكونوا في جوار (النجاشي) ذلكم الملك العادل.

فكانوا عنده بخير دارٍ مع خير جارٍ.

وظلوا على تلك الحالة من الأمن والاستقرار إلى أن نزل رجل من الحبشة لينازع النجاشي في المُلك فحزن المسلمون لذلك حزُنًا شديدًا وخافوا أن يظهر ذلك الرجل على النجاشي وهو لا يعرف حق الصحابة الأطهار ولا يعرف قدرهم.

وهنا أراد الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ أن يعرفوا أخبار الصراع الدائر بين النجاشي وبين هذا الرجل ـ على الجانب الآخر من النيل ـ.

قالت أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ:

فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: مَنْ رجلٌ يخرج حتى يَحضر وقيعةَ القوم ثم يأتينا بالخبر؟ قالت: فقال الزبير بن العوام: أنا؛ قالوا: فأنت، وكان من أحدث القوم سنًا. قالت: فنفخوا له قِربةً فجعلها في صَدْره، ثم سَبَح عليها حتى خرج إلى ناحية النيل التي بها مُلتقى القوم، ثم انطلق حتى حَضرَهم. قالت: فَدَعَوْنَا الله تعالى للنجاشي بالظهور على عدوه، والتمكين له في بلاده، قالت: فوالله إنَّا لعلَى ذلك مُتوقعون لما هو كائن، إذ طلع الزبير وهو يسعى، فلمع بثوبه وهو يقول: ألا أبشِرُوا، فقد ظفر النجاشي، وأهْلَكَ الله عدوه، ومكّن له في بلاده(٢).

جهاده في سبيل الله

لقد بذل (الزبير) الكثير والكثير في سبيل الله فلقد جعل نفسه وماله وقفًا لله ـ عز وجل ـ فأكرمه الله ورفعه في الدنيا والآخرة.

فها هو الزبير ـ رضي الله عنه ـ كانت عليه عمامة صفراء معتجرًا بها يوم بدر... فعن

(١) صفة الصفوة (١/ ١٤١).
(٢) السيرة لابن هشام (١/ ٢٧٩).

عُروة أنه قال: كانت على الزبير يوم بدرٍ عمامة صفراء فنزل جبريل على سيماء الزبير[(١)] ـ أي على هيئته ـ.

فيا لها من منقبة لا توازيها الدنيا بكل ما فيها.

وفيه يقول عامر بن صالح بن عبد الله بن الزبير:

جدِّى ابنُ عمَّـةِ أحمدٍ ووزيرُهُ	عنـد البـلاء وفارسُ الشقراءِ
وغـداة بدرٍ كان أول فارسٍ	شهدَ الوغى فى اللأمة الصفراءِ
نزلت بسيمـاهُ الملائكُ نُصرةً	بالحوضِ يوم تألُّب الأعـداءِ

وهو ممن هاجر إلى الحبشة فيما نقله موسى بن عقبة، وابن إسحاق ولم يطول الإقامة بها[(٢)].

وعن الزبير قال: لقيت يوم بدر عبيدة بن سعد بن العاص وهو مُدجج لا يُرى إلا عيناه وكان يكنى أبا ذات كرش، فحملت عليه بالعترة فطعنته فى عينه فمات. قال الزبير: لقد وضعت رجلى عليه، فكان الجهد أن نزعتها ـ يعنى الحربة ـ فلقد انثنى طرفها[(٣)].

وقتل الزبير يوم بدر عمَّهُ نوفل بن خويلد بن أسد، وكذا عبيدة بن سعيد ابن العاص.

وفى يوم أحُد

ورأى النبىُّ يوم «أُحُد» رجلاً يقتل المسلمين قتلاً عنيفًا، فقال: «قم إليه يا زبير» فرقى إليه الزبير، حتى إذا علا فوقه اقتحم عليه فاعتنقه، فأقبلا ينحدران حتى وقعا إلى الأرض، فوقع الزبيرُ على صدره وقتله»[(٤)].

كان من الذين استجابوا لله وللرسول ﷺ

قال الزبير ـ رضى الله عنه ـ: جمع لى رسول الله ﷺ أبويه مرتين فى أُحدٍ وفى قريظة[(٥)].

---

(١) ذكره الهيثمى فى المجمع (٦/ ٨٤) ونسبه إلى الطبرانى وقال: هو مرسل صحيح الإسناد.
(٢) السير للإمام الذهبى (١/ ٤٧).
(٣) أخرجه البخارى (٧/ ٣٦٥) المغازى.
(٤) تهذيب ابن عساكر (٥/ ٣٥٨).
(٥) أُسد الغابة (٢/ ٢٥٠).

وعن هشام عن أبيه، قالت عائشة: يا ابن أُختي! كان أبواك ـ يعني الزبير وأبا بكر ـ من ﴿ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ ﴾ [آل عمران:١٧٢].

لما انصرف المشركون من أُحد، وأصاب النبي ﷺ وأصحابه ما أصابهم، خاف أن يرجعوا، فقال: من ينتدب لهؤلاءً في آثارهم، حتى يعلموا أن بنا قوةً، فانتدب أبو بكر والزبير في سبعين، فخرجوا في آثار المشركين، فسمعوا بهم، فانصرفوا، قال تعالى: ﴿ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ﴾ الآية [آل عمران:١٧٤]. لم يلقوا عدواً[١].

وفي يوم الخندق

روى البخاري، ومسلم عن جابر: قال رسول الله ﷺ يوم الخندق: من يأتينا بخبر بني قريظة؟ فقال الزبير: أنا، فذهب على فرس، فجاء بخبرهم. ثم قال الثانية، فقال الزبير: أنا، فذهب، ثم الثالثة، فقال النبي ﷺ: «لكُلِّ نبيٍّ حواريّ، وحواريَّ الزبير»[٢].

قال علي بن أبي طالب: أشجع الناس الزبير،... ولا يعرف قدر الرجال إلا الرجال.

وقال الثوري: نجدة الصحابة: حمزة وعليّ والزبير.

وعن عبد الله بن الزبير قال: «كنت يوم الأحزاب جُعلتُ أنا وعمر بن أبي سلمة في النساء فنظرت فإذا أنا بالزبير على فرسه يختلف إلى بني قريظة مرتين أو ثلاثًا فلما رجعت قلت: يا أبت رأيتك تختلف، قال: أوَ هل رأيتني يا بني؟ قلت: نعم. قال: كان رسول الله ﷺ قال: من يأت بني قريظة فيأتيني بخبرهم؟ فانطلقت فلما رجعت جمع لي رسول الله ﷺ أبويه فقال: فداك أبي وأمي[٣].

وعن ابن أبي الزّناد قال: ضرب الزبيرُ يوم الخندق عثمان بن عبد الله بن المغيرة بالسيف على مغفره، فقطعه إلى القربُوس[٤]، فقالوا: ما أجود سيفك! فغضب الزبير، يريد أن العمل ليده لا للسيف[٥].

* * *

(١) أخرجه البخاري (٤٠٧٧) المغازي، وأخرج مسلم الجزء الأول (٢٤١٨) الفضائل.
(٢) أخرجه البخاري (٣٧١٩) فضائل الصحابة ـ ومسلم (٢٤١٥) الفضائل.
(٣) أخرجه البخاري (٣٧٢٠) ومسلم (٢٤١٦).
(٤) القربوس: مقدم السرج ومؤخره.
(٥) السير للإمام الذهبي (١/ ٥١).

وفي يوم حنين

«ويوم (حُنين) طاعن الزبير المشركين حتى أزالهم عن أماكنهم، وكان قائد المشركين يراقب سير القتال، فأخبره أصحابه أنهم يرون فارسًا واضعًا رمحه على عاتقه، عاصبًا رأسه بملاءة حمراء، فقال: هذا الزبير بن العوام، وأحلفُ باللات ليخالطنكم فاثبتوا له. فلما انتهى الزبير إلى مواضع المشركين وأبصرهم، قصدهم، فلم يزل يطاعنهم حتى أزاحهم عنها»(١).

لله درُّ أشجع الناس الذي قال فيه عليّ بن أبي طالب: «يغضبُ كالنمر، ويثبُ وُثوبَ الأسد»(٢).

وفي يوم اليرموك

عن عروة أن أصحاب رسول الله ﷺ قالوا للزبير يوم اليرموك: ألا تشدُّ فنشد معك؟ فقال: إني إن شددتُ كذبتم فقالوا: لا نفعل، فحمل عليهم حتى شق صفوفهم، فجاوزهم وما معه أحد، ثم رجع مُقبلاً فأخذوا بلجامه فضربوه ضربتين على عاتقه بينهما ضربة ضربها يوم بدر. قال عروة: كنت أُدخل أصابعي في تلك الضربات ألعب وأنا صغير. قال عروة: وكان معه عبد الله بن الزبير يومئذ، وهو ابن عشر سنين فحمله على فرسٍ ووكَّل به رجلاً»(٣).

قال الذهبي في السِّير معلقًا: «هذه الوقعة هي يوم اليمامة إن شاء الله؛ فإن عبد الله كان إذ ذاك ابن عشر سنين»(٤).

وذكر ابن كثير أن الموقعة هي «اليرموك». ولا مانع من وقوع ذلك في الموقعتين.

ويا لروعة إقدام الزبير حين يُحجم الأبطالُ من صحابة رسول الله ﷺ، ولا يصبرون معه(٥).

---

(١) قادة فتح الشام ومصر (ص ٢٠٥) للواء الركن محمود شيت خطاب ـ ط. دار الفكر.

(٢) تهذيب ابن عساكر (٥/ ٣٦٢).

(٣) أخرجه البخاري (٣٩٧٥).

(٤) السير للإمام الذهبي (١/ ٦٣).

(٥) علو الهمة/ د. سيد حسين (٣/ ٣٢٠).

قال ابن كثير: «وقد كان فيمن شهد اليرموك: الزبيرُ بن العوام، وهو أفضل مَن هناك من الصحابة، وكان من فرسان الناس وشجعانهم، فاجتمع إليه جماعة من الأبطال يومئذ، فقالوا: ألا تحملُ فنحمل معك؟ فقال: إنكم لا تثبتون. فقالوا: بلى. فحمل وحملوا، فلما واجهوا صفوف الروم أحجَموا وأقدَم هو، فاخترق صفوف الروم حتى خرج من الجانب الآخر، وعاد إلى أصحابه. ثم جاءوا إليه مرةً ثانية ففعل كما فعل في الأولى، وجُرح يومئذ جُرحين بين كتفيه. وفي رواية: جُرحٌ»[١].

ويقول ابن كثير مرةً أخرى: «خرج مع الناس إلى الشام مجاهدًا، فشهد اليرموك، فتشرَّفوا بحضوره، وكانت له بها اليد البيضاء والهمة العلياء، اخترق جيوش الروم وصفوفهم مرتين، من أولهم إلى آخرهم»[٢].

وفي فتح مصر (شجاعة نادرة)

«ولما قصد عمرو بن العاص مصر لفتحها كانت معه قوَّات تبلغ ثلاثة آلاف وخمسمائة رجل، فكتب إلى عمر بن الخطاب يستمدُّه ـ يطلب المدد من الرجال ـ فأشفقَ عمر من قلة عدد قوات عمرو، فأرسل الزبير بن العوام في اثني عشر ألفًا، وقيل: أرسل عمر أربعة آلاف رجل، عليهم من الصحابة الكبار: الزبير، والمقداد بن الأسود، وعُبادة ابن الصامت، ومسلمة بن مُخلد، وقال آخرون: خارجة بن حذافة هو الرابع. وكتب إليه: «إني أمددتك بأربعة آلاف، على كل ألفٍ منهم رجل مقام ألفٍ». وكان الزبير على رأس هؤلاء الرجال»[٣].

وحين قدم الزبير على عمرو وجده محاصرًا حصن (بابليون) فلم يلبث الزبير أن ركب حصانه وطاف بالخندق المحيط بالحصن، ثم فرّق الرجال حول الخندق، وطال الحصار حتى بلغت مدته سبعة أشهر، فقيل للزبير: «إن بها الطاعون». فقال: «إنما جئنا للطعن والطاعون»[٤].

«وأبطأ الفتح على عمرو بن العاص، فقال الزبير: «إني أهبُ نفسي لله، أرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين». فوضع سُلمًا وأسنده إلى جانب الحصن من ناحية سوق

(١) البداية والنهاية (٧/ ١١).
(٢) البداية والنهاية (٧/ ٢٦٠).
(٣) فتوح مصر والمغرب (ص٦١) ومعجم البلدان (٦/ ٣٧٦)، وقادة فتح الشام ومصر (ص ٢٠٨، ٢٢٦).
(٤) طبقات ابن سعد (٣/ ١٠٧)، والبلاذري (ص ٢١٥).

الحمام ثم صعد، وأمرهم إذا سمعوا تكبيره أن يجيبوه جميعًا، فما شعروا إلا والزبير على رأس الحصن يكبّر ومعه السيف، فتحامل الناس على السُّلم حتى نهاهم عمرو؛ خوفًا من أن ينكسر، فلما رأى الروم أن العرب قد ظفروا بالحصن انسحبوا، وبذلك فتح حصن بابليون أبوابه للمسلمين، فانتهت بفتحه المعركة الحاسمة لفتح مصر، وكانت شجاعة الزبير النادرة السبب المباشر لانتصار المسلمين على المقوقس»[١].

ولله دَرُّ حسان حين يقول:

أقام على عهد النبى وهديه ... حواريُّه والقولُ بالفعلِ يُعدلُ

أقام على منهاجه وطريقه ... يُوالى ولّى الحق والحقُّ أعدلُ

هو الفارسُ المشهورُ والبطلُ الذى ... يصولُ إذا ما كان يومٌ محجَّلُ

إذا كشفتْ عن ساقها الحربُ حشها ... بأبيض سبَّاق إلى الموت يُرقل[٢]

وإنَّ امرأ كانت صفيةُ أمُّهُ ... ومن أسد فى بيتها لمُؤثَّل

له من رسول الله قُربى قريبةٌ ... ومن نصرة الإسلام مجدٌ مُؤثل

فكم كُربة ذبَّ الزبيرُ بسيفه ... عن المصطفى والله يعطى فيجزل

ثناؤُك خيرٌ من فعال معاشرٍ ... وفعلك يا ابن الهاشمية أفضلُ[٣]

غيرة الزبير بن العوام ـ رضى الله عنه ـ

عن أسماء بنت أبى بكر الصدِّيق ـ رضى الله عنها ـ قالت: تزوَّجنى الزبير ـ رضى الله عنه ـ وما له فى الأرض مالٌ ولا مملوك ولا شيء غير فرسه. قالت: فكنتُ أعلف فرسه وأكفيه مؤنته وأسُوسُه، وأدقُّ النوى للناضحة، وأعلفه وأسقيه الماء، وأخرز غربه، وأعجن، ولم أكن أُحسن أخبزُ، فكانَ يخبز لى جاراتٌ من الأنصار، وكنَّ نسوةَ صدق. قالت: وكنت أنقل النوى من أرض الزبير التى أقطعَهُ رسول الله ﷺ على رأسى، وهى على ثُلُثَى فرسخ. قالت: فجئتُ يومًا والنوى على رأسى، فلقيتُ رسول الله ﷺ ومعه نفرٌ من أصحابه فدعا لى، ثم قال «أخ أخ»؛ ليحملنى خلفه، فاستحييتُ أن أسير مع

(١) قادة فتح الشام ومصر (ص ٢٠٩، ٢٢٧).

(٢) يقال: أرقل القوم إلى الحرب إرقالاً: أسرعوا، والإرقال: ضرب من الخبب، وهى سرعة سير الإبل.

(٣) ديوان حسان (١٩٩ ـ ٢٠٠) طبعة دار صادر البيروتية.

الرجال، وذكرتُ الزبير وغيرتَه. قالت: وكان من أغيَر الناس. قالت: فعرف رسولُ الله ﷺ أنى قد استحييتُ فمضى، فجئتُ الزبير فقلتُ: لقينى رسول الله ﷺ وعلى رأسى النوى، ومعه نفر من أصحابه، فأناخ لأركبَ معه، فاستحييتُ وعرفتُ غيرتك، فقال: والله لحملُك النوى كان أشدَّ علىَّ من ركوبك معه!! قالت: حتى أرسل إلىَّ أبو بكر بعد ذلك بخادم، فكفتنى سياسة الفرس، فكأنما أعتقنى[1].

وحان وقت الرحيل

وبعد حياة طويلة مليئة بالعطاء والتضحية والفداء كان الموعد فى يوم الجمل فلقد شهد الزبير يوم الجمل مع طلحة وعائشة ـ رضى الله عنهم جميعًا ـ غير أنه عندما ذكَّره (على) بما قاله النبى ﷺ انصرف عنهم.

فعن أبى حرب بن الأسود الديلى، قال: شهدت الزبير خرج يُريد عليًا، فقال له علىٌّ: أنشدك الله، هل سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تقاتله وأنت له ظالم؟»، فقال: أذكر، ثم مضى الزبير منصرفًا[2].

وانصرف الزبير يوم الجمل عن علىّ، فلقيه ابنه عبدالله، فقال: جُبنًا، جُبنًا! قال: قد علم الناس أنى لست بجبان، ولكن ذكَّرنى (علىٌّ) شيئًا سمعته من رسول الله ﷺ فحلفت أن لا أقاتله، ثم قال:

تركُ الأمُورِ التى أخشى عواقبها ... فى الله أحسنُ فى الدنيا وفى الدِّين

وقيل: إنه أنشد:

ولقد علمتُ لو أن علمي نافعى ... أنَّ الحياة من الممات قريبُ

فلم ينشب أن قتله ابن جُرموز.

عن جون بن قتادة قال: كنت مع الزبير يوم الجمل، وكانوا يسلمون عليه بالإمرة، إلى أن قال: فطعنه ابن جرموز ثانيًا، فأثبته، فوقع، ودُفن بوادى السباع، وجلس (على) ـ رضى الله عنه ـ يبكى عليه هو وأصحابه[3].

---

(١) حياة الصحابة للكاندهلوى (٢/ ٦٩١).
(٢) أخرجه الحاكم (٣/ ٣٦٦) وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبى.
(٣) السير للإمام الذهبى (١/ ٦٠ ـ ٦١).

قاتل الزبير فى النار

لقد أخبر الصادق المصدوق الذى لا ينطق عن الهوى ﷺ أن قاتل الزبير من أهل النار.

وأخبر الحبيب ﷺ أن الزبير سيموت شهيداً.

فعن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ كان على جبل حراء. فتحرك. فقال رسول الله ﷺ: «اسكُن. حراءُ! فما عليك إلا نبىٌ أو صدِّيقٌ أو شهيدٌ» وعليه النبى ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلىٌ وطلحة والزبير وسعد بن أبى وقاص ـ رضى الله عنهم ـ[1].

قال الإمام النووى ـ رحمه الله ـ وفى هذا الحديث معجزات لرسول الله ﷺ ، منها إخباره أن هؤلاء شهداء، وماتوا كلهم غير النبى ﷺ وأبى بكر شهداء، فإن عمر وعثمان وعليًا وطلحة والزبير ـ رضى الله عنهم ـ قُتلوا ظلمًا شهداء، فقتل الثلاثة مشهور، وقُتل الزبير بوادى السباع بقرب البصرة منصرفًا تاركًا للقتال، وكذلك طلحة اعتزل الناس تاركًا للقتال، فأصابه سهم فقتله. وقد ثبت أن من قُتل مظلومًا فهو شهيد[2].

وها هو قاتل الزبير (ابن جرموز) ـ عليه من الله ما يستحقه ـ يستأذن على (علىّ) فقال: من هذا؟ فقال: ابن جرموز يستأذن. فقال: ائذنوا له. ليدخل قاتل الزبير النار. إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن لكل نبى حوارى وإن حوارىّ الزبير»[3].

وفى رواية: جىء برأس الزبير إلى علىّ، فقال علىّ: تبوأ يا أعرابىُّ مقعدك من النار، حدثنى رسول الله ﷺ أن قاتل الزبير فى النار[4].

قال الشعبى ـ رحمه الله ـ: أدركت خمس مئة أو أكثر من الصحابة يقولون: علىٌّ، وعثمان، وطلحة، والزبير فى الجنة.

قال الإمام الذهبى: قلت: لأنهم من العشرة المشهود لهم بالجنة، ومن البدريين، ومن أهل بيعة الرضوان، ومن السابقين الأولين الذين أخبر تعالى أنه رضى عنهم ورضوا

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤١٧) كتاب فضائل الصحابة.

(٢) مسلم مع شرح النووى (١٥/ ٢٧١ ـ ٢٧٢).

(٣) رواه الحاكم (٣/ ٣٦٧) وصححه ووافقه الذهبى.

(٤) قال الأرنؤوط: الفضل بن أبى الحكم روى عنه غير واحد، وقال أبو حاتم: شيخ بصرى، وذكره ابن حبان فى الثقات. وباقى رجال الإسناد ثقات.

عنه، ولأن الأربعة قُتلوا، ورزُقوا الشهادة، فنحن مُحبون لهم، باغضون للأربعة الذين قتلوا الأربعة(١).

وقالت عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نُفيل، وكانت تحت الزبير بن العوام، وكان أهل المدينة يقولون: من أراد الشهادة فليتزوج عاتكة بنت زيد، كانت عند عبد الله بن أبى بكر فقُتل عنها، ثم كانت عند عمر ابن الخطاب فقُتل عنها، ثم كانت عند الزبير فقُتل عنها، فقالت:

غدر ابن جرموز بفارس بُهمةٍ	يوم اللقاء وكان غير مُعرِّدِ
يا عمرو لو نبَّهتـه لوجـدته	لا طائشًا رعشَ البنان ولا اليـدِ
ثكلتك أمك هل ظفرت بمثله	فيمن مضى فيما تروحُ وتغتدى؟
كم غمرةٍ قـد خاضها لم يثنه	عنها طرادُك يا ابن نقع الفدفد
والله ربك إن قتلت لمُسلمًا	حلت عليك عقوبةُ المتعمـدِ(٢)

حرصه على أداء دَينه عند الموت

عن عبد الله بن الزبير قال: جعل الزبير يوم الجمل يوصينى بدَينه، ويقول: إن عجزت عن شىء منه فاستعن عليه بمولاى. قال: فوالله ما دريت ما أراد، حتى قلت: يا أبتِ مَن مولاك؟ قال: الله. قال: ما وقعت فى كُربة من دينه إلا قلت: يا مولى الزبير اقضَ عنه، فيقضيه. وإنما دينه الذى كان عليه: أن الرجل كان يأتيه بالمال فيستودعه إياه فيقول الزبير: لا، ولكنه سلف فإنى أخشى عليه الضيعة. قال: فحسب ما عليه من الدَين فوجدته ألفى ألف ومائتى ألف. فقُتل ولم يدع دينارًا ولا درهمًا إلا أرضين، فبعتهما (يعنى: وقضيت دينه) فقال بنو الزبير: اقسم بيننا ميراثنا. فقلت: والله لا أقسم بينكم حتى أنادى بالموسم أربع سنين: ألا من كان له على الزبير دين فليأتنا فلنقضه.

فجعل كل سنة ينادى بالموسم فلما مضى أربع سنين قسم بينهم.

وكان للزبير أربع نسوة، فأصاب كل امرأة ألف ألف ومائتا ألف. فجميع ماله خمسون ألف ألف ومائتا ألف(٣).

---

(١) السير للإمام الذهبى (١/ ٦٢).

(٢) الطبقات لابن سعد (٣/ ٨٣).

(٣) أخرجه البخارى (٣١٢٩) فرض الخمس ـ باب بركة الغازى بماله حيًا وميتًا.

وكيف لا يحرص الزبير - رضى الله عنه - على أداء الدَّين وهو الذى كان يُغدق الأموال على الفقراء واليتامى والمساكين.

فعن نهيك قال: كان للزبير ألف مملوك يؤدون الضريبة لا يدخل بيت ماله منها درهم. يقول: يتصدق بها، وفى رواية أخرى فكان يقسمه كل ليلة ثم يقوم إلى منزله ليس معه منه شىء.

وعن جويرية قالت: باع الزبير داراً له بستمائة ألف. قال: فقيل له: يا أبا عبد الله غُبنت. قال: كلا والله لتعلمن أنى لم أُغبن هى فى سبيل الله(١).

وهكذا رحل الشهيد المبارك عن دنيانا ليلحق بالحبيب ﷺ وأصحابه - رضى الله عنهم - فى جنة الرحمن إخوانًا على سُرُرٍ متقابلين.

فرضى الله عن الزبير وعن سائر الصحابة أجمعين

* * *

---

(١) صفة الصفوة (١/ ١٤١).



عبد الرحمن بن عوف

من الذين كتب الله لهم السعادة والمغفرة
وهم فى بطون أمهاتهم

يا تُرى من ذاك الرجل العظيم الذى فاز بتلك المنقبة العظيمة.

إنه مشهد مهيب يرويه لنا ابنه.

فعن إبراهيم بن عبد الرحمن، قال: غُشىَ على عبد الرحمن بن عوف فى وجعه حتى ظنوا أنه قد فاضت نفسه، حتى قاموا من عنده، وجلَّلوه. فأفاق يكبِّر، فكبَّر أهلُ البيت، ثم قال لهم: غُشى علىَّ آنفًا؟ قالوا: نعم. قال: صدقتم! انطلق بى فى غشيتى رجلان أجد فيهما شدةً وفظاظة، فقالا: انطلق نحاكمك إلى العزيز الأمين، فانطلقا بى حتى لقيا رجلاً، قال: أين تذهبان بهذا؟ قالا: نحاكمه إلى العزيز الأمين. فقال: ارجعا، فإنه من الذين كتب الله لهم السعادة والمغفرة وهم فى بطون أمهاتهم، وإنه سيُمتَّع به بنوه إلى ما شاء الله، فعاش بعد ذلك شهراً[(١)].

إنه الصحابى الجليل عبد الرحمن بن عوف الذى كان اسمه فى الجاهلية عبد عمرو. وقيل: عبد الحارث. وقيل: عبد الكعبة، فسماه رسول الله ﷺ عبد الرحمن.

أمه: الشفاء بنت عوف، أسلمت وهاجرت.

أسلم عبد الرحمن قديمًا قبل أن يدخل رسول الله ﷺ دار الأرقم،وهاجر إلى أرض الحبشة الهجرتين، وشهد المشاهد كلها، وثبت مع رسول الله ﷺ يوم أُحد، وصلى رسول الله ﷺ خلفه فى غزوة تبوك[(٢)].

---

(١) أخرجه الفسوى فى المعرفة والتاريخ (١/ ٣٦٧)، وأخرجه الحاكم (٣/ ٣٠٧) من طريق: أبى اليمان، عن شعيب، عن الزهرى، بأطول مما هنا. وأخرجه ابن سعد (٣/ ١/ ٩٥) من طريق: محمد بن كثير العبدى، عن سليمان بن كثير، عن الزهرى. وذكره الحافظ فى المطالب العالية (٤٠٠٧) ونسبه إلى أبى إسحاق. وقال البوصيرى: إسناده صحيح. وذكره صاحب الكنز (٣٦٦٨٩) ونسبه إلى أبى نعيم، وابن عساكر.

(٢) صفة الصفوة (١/ ١٤٢).

وهو أحدُ العشرة، وأحد الستة أهل الشورى، وأحد السابقين البدريين، القرشى الزهرى. وهو أحد الثمانية الذين بادروا إلى الإسلام(١).

عفاف يعجز القلم عن وصفه

لقد كان من أهم الدعائم التى أقام بها النبى ﷺ دولته المسلمة ـ تلك المؤاخاة التى أوجدها بين المهاجرين والأنصار ـ وكان من بين هؤلاء الذين آخى النبى ﷺ بينهم (سعد بن الربيع الأنصارى، وعبد الرحمن بن عوف المهاجرى).

فعن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال: قدم عبد الرحمن بن عوف فآخى النبى ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع الأنصارى، فعرض عليه أن يناصفه أهله وماله. فقال عبد الرحمن: بارك الله لك فى أهلك ومالك(٢).

وعن إبراهيم بن سعد عن أبيه عن جده قال: «لما قدموا المدينة آخى رسول الله ﷺ بين عبد الرحمن وسعد بن الربيع. قال لعبد الرحمن: إنى أكثر الأنصار مالاً فاقسم مالى نصفين، ولى امرأتان فانظر أعجبهما إليك فسمِّها لى أطلقها، فإذا انقضت عدَّتها فتزوجها. قال: بارك الله لك فى أهلك ومالك. أين سوقكم؟ فدلُّوه على سوقَ بنى قينقاع، فما انقلب إلا ومعه فضل من أقط وسمن، ثم تابع الغدوَّ يومًا، ثم جاء يومًا وبه أثر صُفرة. فقال النبى ﷺ: «مهيم؟» قال: تزوجت. قال: كم سُقت إليها؟ قال: نواةً من ذهب ـ أوْ وزن نواة من ذهب ـ(٣).

مكانته فى قلب الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ

لقد احتل عبد الرحمن بن عوف ـ رضى الله عنه ـ مكانة سامقة فى قلوب الصحابة رضى الله عنهم جميعًا.

فعن المسور أنه قال: بينما أنا أسير فى ركب بين عثمان وعبد الرحمن قدامى وعليه خميصة سوداء فقال عثمان: من صاحب الخميصة السوداء؟ قالوا: عبد الرحمن، قال: فنادانى عثمان فقال: يا مسور قلت: لبيك يا أمير المؤمنين فقال: من زعم أنه خير من

(١) السير للإمام الذهبى (١/ ٦٨).
(٢) أخرجه البخارى (٧/ ٣١٧) مناقب الأنصار.
(٣) أخرجه البخارى (٧/ ١٤٠) مناقب الأنصار.



خالك في الهجرة الأولى وفي الهجرة الآخرة فقد كذب(١).

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: جلسنا مع عمر فقال: هل سمعت عن رسول الله ﷺ شيئًا أمر به المرء المسلم إذا سها في صلاته، كيف يصنع؟ فقلت: لا والله، أوَ ما سمعت أنت يا أمير المؤمنين من رسول الله في ذلك شيئًا؟ فقال: لا والله. فبينا نحن في ذلك أتى عبد الرحمن بن عوف فقال: فيم أنتما؟ فقال عمر: سألتُه، فأخبره. فقال له عبد الرحمن: لكني قد سمعتُ رسول الله يأمر في ذلك. فقال له عمر: فأنت عندنا عدلٌ، فماذا سمعت؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا سها أحدكم في صلاته حتى لا يدري أزاد أم نقص، فإن كان شك في الواحدة والثنتين، فليجعلها واحدة، وإذا شك في الثنتين أو الثلاث، فليجعلها ثنتين، وإذا شك في الثلاث والأربع، فليجعلها ثلاثًا حتى يكون الوهمُ في الزيادة، ثم يسجد سجدتين، وهو جالس، قبل أن يسلم، ثم يسلم(٢).

قال الإمام الذهبي: فأصحاب رسول الله ﷺ وإن كانوا عُدولاً فبعضهم أعدل من بعض وأثبت، فهنا عمر قنع بخبر عبد الرحمن(٣).

جملة من مناقبه ـ رضي الله عنه ـ

تالله لا أدري كيف أكتب عن مناقب هذا الصحابي الجليل الذي يجعل القلم متحيراً من كثرة مناقبه.

ولكني وجدت أن كل المناقب لا توازي ـ وإن اجتمعت ـ تلك المنقبة العظيمة ألا وهي صلاة النبي ﷺ خلفه.

فعن المغيرة بن شعبة أنه غزا مع رسول الله ﷺ تبوك. قال (المغيرة): فتبرز رسول الله قبلَ الغائط، فحملت معه إداوة قبل صلاة الفجر، فلما رجع رسول الله ﷺ إليَّ أخذت أَهريق على يديه من الإداوة وغسل يديه ثلاث مرات ثم غسل وجهه ثم ذهب يخرج جبته عن ذراعيه فضاق كُمَّا جبته فأدخل يديه في الجبة حتى أخرج ذراعيه من أسفل الجبة وغسل ذراعيه إلى المرفقين ثم توضأ على خُفيه ثم أقبل.

---

(١) أخرجه ابن سعد (٣/ ١٢٥) والحاكم (٣/ ٣٠٩)، وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) رواه أحمد (١/ ١٩٠) والترمذي (٣٩٨) ـ والحاكم (١/ ٣٢٤ ـ ٣٢٥) وصححه ووافقه الذهبي.

(٣) السير للإمام الذهبي (١/ ٧٣).

قال المغيرة: فأقبلت معه حتى نجد الناس قد قدَّموا عبد الرحمن بن عوف فصلى لهم فأدرك رسول الله ﷺ إحدى الركعتين فصلى مع الناس الركعة الآخرة، فلما سلم عبد الرحمن بن عوف قام رسول الله ﷺ يتم صلاته فأفزع ذلك المسلمين فأكثروا التسبيح فلما قضى النبي ﷺ صلاته أقبل عليهم ثم قال: «أحسنتم» أو قال: «أصبتم» يغبطهم أن صلوا الصلاة لوقتها[١].

وفي رواية: عن عمرو بن وهب الثقفي، قال: كنا مع المغيرة بن شعبة، فسُئل: هل أمَّ النبي ﷺ أحدٌ من هذه الأمة غيرُ أبي بكر؟ فقال: نعم. فذكر أن النبي ﷺ توضأ ومسح على خُفيه وعمامته، وأنه صلى خلف عبد الرحمن بن عوف، وأنا معه، ركعةً من الصبح وقضينا الركعة التي سُبقنا[٢].

ومن مناقبه أن النبي ﷺ شهد له بالجنة، وأنه من أهل بدر الذين قيل لهم «اعملوا ما شئتم»... ومن أهل هذه الآية:

﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾ [الفتح:١٨][٣].

وعن أبي سعيد قال: كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف شيءٌ فسبَّه خالد، فقال رسول الله ﷺ: «لا تسبّوا أحدًا من أصحابي فإن أحدكم لو أنفق مثل أُحُد ذهبًا ما أدرك مُدَّ أحدهم ولا نصيفه»[٤].

وفي رواية: قال ﷺ: «دعوا لي أصحابي أو أصيحابي، فإن أحدكم لو أنفق مثل أُحُد ذهبًا لم يُدرك مُدَّ أحدهم ولا نصيفه»[٥].

وعن سعيد بن زيد أن رسول الله ﷺ كان على حراء ومعه أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف، فقال: «اثبُت حراءُ! فإنما عليك نبيٌّ أو صدِّيقٌ أو شهيدٌ»[٦].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٤) وأبو داود (١٥٢) وأحمد (٤/ ٢٤٩ ـ ٢٥١).

(٢) أخرجه مسلم (٨١) والنسائي (١/ ٧٧) الطهارة.

(٣) السير للإمام الذهبي (١/ ٧٨).

(٤) أخرجه البخاري (٢٥٤١) وأبو يعلى (٢/ ٣٩٦).

(٥) ذكره الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٥) ونسبه إلى البزار وقال: رجاله رجال الصحيح. وأخرجه مسلم (٢٥٤٠) عن أبي هريرة.

(٦) رواه أحمد (١/ ١٨٨ ـ ١٨٩) وأبو داود (٤٦٤٨) في السنن ـ والترمذي (٣٧٥٨) في المناقب، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

وقال أبو عمر بن عبد البر: كان مجدوداً في التجارة. خلّف ألف بعير، وثلاثة آلاف شاة، ومئة فرس. وكان يزرع بالجُرف[١] علي عشرين ناضحًا.

قال الإمام الذهبي: قلتُ: هذا هو الغنيُ الشاكر، وأويس فقير صابر، وأبو ذر أو أبو عبيدة زاهد عفيف[٢].

وعن بُسرة بنت صفوان: أن النبي ﷺ سألها: «من يخطبُ أمَّ كلثوم بنت عقبة؟»، قالت: فلان وفلان وعبد الرحمن بن عوف، فقال: «أنكحوا عبد الرحمن بن عوف، فإنه من خيار المسلمين، ومن خيارهم من كان مثله»[٣].

إنفاقه في سبيل الله

لقد عاش الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ مع كل آية من آيات القرآن الكريم، بل وتعايشوا معها.

فها هو عبد الرحمن بن عوف يستمع إلى قوله تعالى: ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم﴾ [آل عمران:٩٢].

وإلى قوله تعالى: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم﴾ [التوبة:١١١].. فيُسرع الخُطا لينفق ماله لله ـ جل وعلا ـ رغبة فيما عند الله وزهداً في تلك الدنيا الفانية التي لا تساوي عند الله جناح بعوضة.

عن طلحة بن عبد الله بن عوف قال: كان أهلُ المدينة عيالاً على عبد الرحمن ابن عوف: ثُلث يُقرضُهم ماله، وثلثٌ يقضي دينهم، ويصلُ ثُلثًا[٤].

وعن عروة أن عبد الرحمن بن عوف أوصى بخمسين ألف دينار في سبيل الله، فكان الرجل يُعطى منها ألف دينار.

---

(١) موضع على ثلاثة أميال من المدينة نحو الشام.
(٢) السير للإمام الذهبي (١/ ٩٢).
(٣) قال الهيثمي: رواه الطبراني، وفيه يعقوب بن حميد، وسليمان بن سالم، وكلاهما وُثق، وبقية رجاله رجال الصحيح. المجمع برقم (١٤٨٩٣).
(٤) السير للإمام الذهبي (١/ ٨٨).

وعن الزهرى أن عبد الرحمن أوصى للبدريين، فوجدوا مئةً، فأعطى كل واحد منهم أربع مئة دينار، فكان منهم عثمان، فأخذها[١].

وعن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : «خيركم خيركم لأهلى من بعدى» قال[٢] فباع عبد الرحمن ابن عوف حديقة بأربع مائة ألف قسمها فى أزواج النبى ﷺ [٣].

وعن أم سلمة ـ رضى الله عنها ـ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول لأزواجه : «إن الذى يحنو عليكن بعدى لهو الصادق البار. اللهم اسق عبد الرحمن بن عوف من سلسبيل الجنة»[٤].

بل لقد تصدّق عبد الرحمن بن عوف على عهد رسول الله ﷺ بشطر ماله، ثم تصدق بعد بأربعين ألف دينار، ثم حمل على خمسمائة فرس فى سبيل الله وخمسمائة راحلة، وكان أكثر ماله من التجارة وقيل: إنه أعتق فى يوم واحد ثلاثين عبداً[٥].

وعن أنس قال: رأيتُ عبد الرحمن بن عوف، قُسِّم لكلِّ امرأة من نسائه بعد موته مئةُ ألف[٦].

زهده فى الدنيا ومحاسبته لنفسه

عن سعد بن إبراهيم، عن أبيه: أن عبد الرحمن بن عوف ـ رضى الله عنه ـ أُتى بطعام، وكان صائمًا، فقال: قُتل مصعب بن عمير ـ رضى الله عنه ـ وهو خير منى كُفِّن فى بُردة، إن غطى رأسه بدت رجلاه، وإن غطى رجلاه بدا ـ أى ظهر رأسه ـ وأراه قال: وقُتل حمزة ـ رضى الله عنه ـ وهو خير منى، ثم بُسط لنا من الدنيا ما بسط، أو قال: أُعطينا من الدنيا ما أُعطينا، وقد خشينا أن تكون حسناتنا قد عُجِّلت لنا، ثم جعل يبكى حتى ترك الطعام[٧].

---

(١) السير للإمام الذهبى (١/ ٩٠).

(٢) القائل (فباع) هو أبو سلمة.. كما عند الترمذى (لكنها عنده بلفظ أوصى) (٣٧٥٠).

(٣) أخرجه الحاكم فى المستدرك (٣/ ٣١١ ـ ٣١٢) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبى.

(٤) قال الهيثمى: رواه أحمد والطبرانى ورجاله ثقات ـ مجمع الزوائد (١٤٨٩٨).

(٥) الإصابة للحافظ ابن حجر (٤/ ٩١).

(٦) السير للإمام الذهبى (١/ ٩٠).

(٧) أخرجه البخارى (١٢٧٥).

زهده في الإمارة والخلافة

وعن عبد الرحمن بن أزهر أن عثمان اشتكى رُعافًا ، فدعا حُمران فقال: اكتب لعبد الرحمن العَهْد من بعدي. فكتب له، وانطلق حمرانُ إلى عبد الرحمن، فقال: البُشرى. قال:وما ذاك؟ قال:إنَّ عثمان قد كتب لك العهد من بعده. فقام بين القبر والمنبر، فدعا، فقال: اللهم إن كان من تولية عثمان إيّاى هذا الأمر، فأمِتْنى قبله. فلم يمكث إلا ستة أشهر حتى قبضه الله(١).

قال الذهبى: «من أفضل أعمال عبد الرحمن بن عوف: عزلُه نفسه من الأمر وقت الشورى، واختياره للأمة مَن أشار به أهلُ الحَلِّ والعقد، فنهض فى ذلك أتمَّ نهوض على جمع الأمة على عثمان، ولو كان محابيًا فيها، لأخذها لنفسه أو لولاها ابن عمه وأقرب الجماعة إليه: سعد بن أبى وقاص(٢).

تواضعه -رضى الله عنه-

عن سعد بن الحسن التميمي، قال: كان عبد الرحمن بن عوف لا يُعرَف من بين عبيده. يعنى: من التواضع فى الزِّيِّ.

رضى الله عن صحابة رسول الله ﷺ الذين علموا فعملوا.. علموا قول رسولهم ﷺ : «البذاذةُ من الإيمان»(٣). والبذاذةُ: اللباسُ دون اللباس والتواضع، ورَثَاثة الثياب فى الملبس والمفرش.

وقد قال ﷺ : «مَن ترك اللباس تواضعًا لله، وهو يقدر عليه؛ دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق، حتى يخيِّره من أى حُلَلِ الإيمان شاء يلبسها»(٤).

ولله درُّ القائل:

لَيسَ الجمـــالُ بمئزَرٍ ... فاعلمْ وإنْ رُدِّيتَ بُرْدَا
إنَّ الجمـــالَ معادِنٌ ... ومحاسنٌ أورثْنَ مجْدَا

(١) سير أعلام النبلاء للذهبى (١/ ٨٨).
(٢) سير أعلام النبلاء للذهبى (١/ ٨٦).
(٣) رواه أحمد وابن ماجه والحاكم عن أبى أمامة الحارثى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٨٧٩).
(٤) رواه الترمذى والحاكم عن معاذ بن أنس، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٦١٤٥).

الدعوة إلى الله

أخرج الدارقطني عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: دعا النبي ﷺ عبد الرحمن ابن عوف ـ رضي الله عنه ـ فقال: «تجهَّزْ فإني باعثك في سرية». فذكر الحديث، وفيه: فخرج عبد الرحمن حتى لحق بأصحابه، فسار حتى قدم دومة الجندل، فلمّا دخلها دعاهم إلى الإسلام ثلاثة أيام، فلما كان اليوم الثالث أسلم الأصبغ بن عمرو الكلبي ـ رضي الله عنه ـ وكان نصرانيًا وكان رأسهم. فكتب عبد الرحمن مع رجل من جُهينة ـ يقال له رافع بن مكيث ـ إلى النبي ﷺ يخبره، فكتب إليه النبي ﷺ ، أن تزوّج ابنة الأصبغ، فتزوّجها، وهي تماضر التي ولدت له بعد ذلك أبا سلمة بن عبد الرحمن[1].

وحان وقت الرحيل

وها هو يرحل بكل هدوء بعد حياة طويلة مليئة بالبذل والعطاء والتضحية والجهاد في سبيل الله بالنفس والمال.

عن سعد بن إبراهيم عن أبيه قال: لقد رأيت سعد بن أبي وقاص في جنازة عبد الرحمن بن عوف عند قائمتي السرير فجعل يقول: واجبلاه[2].

وعن إبراهيم بن سعد عن أبيه عن جده أنه قال: سمعت عليّ بن أبي طالب يقول يوم مات عبد الرحمن: اذهب ابن عوف فقد أدركت صفوها وسبقت رنقها[3].

عاش ـ رضي الله عنه ـ خمسًا وسبعين سنة، وتوفي سنة اثنتين وثلاثين ودُفن بالبقيع وصلى عليه عثمان.

فرضي الله عنه وعن عثمان وعن سائر الصحابة أجمعين

* * *

(١) الإصابة في تراجم الصحابة (١/ ١٠٨).

(٢) أخرجه ابن سعد (٣/ ١٣٥) والحاكم (٣/ ٣٠٨).

(٣) قال الأرنؤوط: رواه الطبراني في الكبير (٢٦٣) بإسناد صحيح. والرنق: الكدر.

سعد بن أبي وقاص

ارم سعد فداك أبي وأمي

محمد رسول الله ﷺ

إن الإنسان لا يستطيع أن يعيش حاضره ولا أن يدرك مستقبله إلا بعد أن يأخذ الدروس والعبر من ماضيه.

ونحن أمة قد امتن الله عليها بباقة عطرة من الرجال الأفذاذ الأتقياء الذين يندر وجودهم في أي أمة على مدى العصور والأزمان.

وإني والله كلما قلّبت الصفحات للوقوف على أخبار الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ كنت أتعجب وأقول في نفسي: كيف لا يعلم شبابنا، بل وفتياتنا تلك الأخبار لتكون لهم نوراً يضيء لهم الطريق إلى الله ـ جل وعلا ـ بل وليقتدوا بهم في أفعالهم وأقوالهم فإن التشبه بالكرام فلاحُ.

وها نحن الآن على موعدٍ مع واحدٍ من هؤلاء الأخيار.

إنه سعد بن أبي وقاص أحد العشرة المبشرين بالجنة وأحد السابقين الأولين الذين شهدوا المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وأحد الستة أهل الشورى. وخال رسول الله ﷺ وبطل القادسية، وفاتح «المدائن» ومُطفئ نار المجوس المعبودة إلى الأبد.

ثباته على الحق ـ رضي الله عنه ـ

لقد كان سعد ـ رضي الله عنه ـ من أكرم فتيان مكة وأشرفهم نسبًا، وكان قلبه يحترق شوقًا إلى يد حانية تمتد لتُخرج هؤلاء القوم من ظلمات الجاهلية وفساد المعتقد إلى أنوار التوحيد والإيمان.. فلقد كان العرب قبل بعثة النبي ﷺ على أسوأ حالٍ على مدى العصور والأزمان.

وأراد الحق ـ جل جلاله ـ الخير بهذه الأمة فأشرق نور الوحي في أرجاء مكة ليضيء للكون كله طريقه إلى الله ـ جل وعلا ـ.

وعلى الرغم من أن سعدًا كان يومئذ يستقبل ربيعه السابع عشر؛ فقد كان يضم بين بُرديه[١] كثيرًا من رجاحة الكهول[٢]، وحكمة الشيوخ.

فلم يكن ـ مثلاً ـ يرتاح إلى ما يتعلق به لداته[٣] من ألوان اللهو، وإنما كان يصرفُ همه إلى برى[٤] السهام، وإصلاح القسيّ[٥]، والتمرس بالرماية حتى لكأنه كان يُعدُّ نفسه لأمرٍ كبير[٦].

والهداية أولاً وآخرًا (منحة ربانية يقذفها الله في قلب من يشاء من عباده).

فقذف الله نور الهداية في قلب سعد ـ رضي الله عنه ـ فأسرع إلى الإسلام حتى إنه كان يقول: ما أسلم أحدٌ إلا في اليوم الذي أسلمت فيه، ولقد مكثت سبعة أيامٍ، وإني لثلثُ الإسلام»[٧].

وقال يوسف بن الماجشون: سمعتُ عائشة بنت سعد تقول: مكث أبي يومًا إلى الليل وإنه لثلثُ الإسلام.

لكنَّ إسلام سعد بن أبي وقاص لم يمرَّ سهلاً هينًا، وإنما عرَّضَ الفتى المؤمن لتجربة من أقسى التجارب قسوةً وأعنفها عنفًا؛ حتى إنه بلغ من قسوتها وعُنفها أن أنزل الله سبحانه في شأنها قرآنًا[٨].

فعن أبي عثمان أنَّ سعدًا قال: نزلت هذه الآية فيَّ ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾ [العنكبوت:٨] قال: كنت برًا بأمي، فلما أسلمتُ، قالت: يا سعدُ! ما هذا الدين الذي قد أحدثت؟ لتدعنَّ دينك هذا، أو لا آكلُ، ولا أشربُ، حتى أموتَ،

(١) بُرديه: ثوبيه.

(٢) رجاحة الكهول: عقل الكهول ورصانتهم.

(٣) لداته: المماثلون له في السن.

(٤) برى السهام: إعدادها وإصلاحها.

(٥) القسي: الأقواس التي يُرمى بها.

(٦) صور من حياة الصحابة (ص ٢٩١).

(٧) أخرجه البخاري (٣٧٢٧) وابن ماجه (١٣٢) وأحمد في فضائل الصحابة (١٣٢٠).

قال الحافظ في الفتح (٧/ ٨٤): قال ذلك بحسب اطلاعه والسبب فيه أن من كان أسلم في ابتداء الأمر كان يخفي إسلامه، ولعله أراد بالاثنين الآخرين خديجة وأبا بكر، أو النبي ﷺ وأبا بكر، وقد كانت خديجة أسلمت قطعًا فلعله خص الرجال.

(٨) صور من حياة الصحابة (ص ٢٩٢).

فتُعَيِّر بى، فيقال: يا قاتل أمه، قلت: لا تفعلى يا أمه، إنى لا أدع دينى هذا لشىء، فمكثت يومًا لا تأكل ولا تشرب وليلة، وأصبحت وقد جُهدت، فلما رأيتُ ذلك، قلت: يا أمه! تعلمين والله لو كان لك مئةُ نفس، فخرجت نفسًا نفسًا، ما تركتُ دينى. إن شئت فكلى أو لا تأكلى. فلما رأت ذلك أكلتْ»(١).

ولقد بذل سعد ـ رضى الله عنه ـ نفسه ووقته وماله فى سبيل الله.

وكان الحبيب ﷺ يحبه من كل قلبه حتى إنه كان يفتخر بأنه خاله.

فعن جابر قال: كنا جلوسًا عند النبى ﷺ فأقبل سعد بن أبى وقاص فقال ﷺ: «هذا خالى فليُرنى امرؤٌ خاله»(٢).

بل كان ـ رضى الله عنه ـ ممن فازوا بتلك المنقبة العظيمة... فعن عبد الله ابن ظالمٍ قال: خطب المغيرةُ فنال من (علىٍّ) فخرج سعيد بن زيد فقال: ألا تعجب من هذا يسب عليًا، أشهدُ على رسول الله ﷺ أنا كنَّا على حراء أو أُحُد، فقال رسول الله ﷺ: «أُثبت حراءُ أو أُحُد! فإنما عليك نبى أو صديقٌ أو شهيد» فسَمَّى النبى، وأبا بكر، وعمر، وعثمان، وعليًا، وطلحة، والزبير، وسعدًا، وعبد الرحمن، وسمَّى سعيدٌ نفسه ـ رضوان الله عليهم ـ(٣).

بل لقد كان من الذين أمر الله نبيه ﷺ بأن يقربهم منه... فعن سعد قال: كنا مع النبى ﷺ ستة نفر فقال المشركون للنبى ﷺ: اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا. قال: وكنت أنا وابن مسعود، ورجل من هُذيل وبلال ورجلان لست أسميهما فوقع فى نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع فحدث نفسه فأنزل الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام:٥٢](٤).

وكان سعد ـ رضى الله عنه ـ هو أول من رمى بسهمٍ فى سبيل الله... عن الزهرى قال : بعث رسول الله ﷺ سريةً فيها سعد بن أبى وقاص إلى جانب من الحجاز يُدعى (رابغ) وهو من جانب الجُحْفَة. فانكفأ المشركون على المسلمين، فحماهم سعد يومئذ

(١) أخرجه مسلم (١٧٤٨) الفضائل ـ وأحمد (١/ ١٨١ ـ ١٨٢) والترمذى (٣١٨٨).
(٢) أخرجه الحاكم فى المستدرك (٣/ ٤٩٨) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يُخرجاه ووافقه الذهبى.
(٣) أخرجه أحمد (١/ ١٨٨، ١٨٩) وأبو داود (٤٦٤٨) والترمذى وقال: هذا حديث حسن صحيح.
(٤) أخرجه مسلم (٢٤١٣) وابن ماجه (٤١٢٨) والنسائى فى فضائل الصحابة (١١٦).

بسهامه، فكان هذا أول قتال فى الإسلام، فقال سعد:

ألا هل أتى رسول اللـه أنى ... حميتُ صحابتى بصدور نبلى

فمـا يعتـدُّ رامٍ فى عــدوٍّ ... بسهمٍ يا رسـولَ اللـه قبلى[1]

حارس النبى ﷺ

لقد بلغت محبة النبى ﷺ فى قلب سعدٍ مبلغًا عظيمًا حتى إنه كان يتمنى أن يفديه بنفسه وولده وماله والدنيا كلها.

عن عائشة قالت: أرقَ رسول الله ﷺ ذات ليلة، فقال: ليت رجلاً صالحًا من أصحابى يحرسنى الليلة. قالت:فسمعنا صوت السلاح، فقال رسول الله: مَنْ هذا؟ قال سعد بن أبى وقاص: أنا يا رسول الله جئت أحرسك، فنام رسول الله ﷺ حتى سمعتُ غطيطه[2].

اللهم اشف سعداً وأتمم له هجرته

وكان الحبيب ﷺ يبادله هذا الحب ويخصّه بزيارته له.

عن عائشة بنت سعد، أن أباها قال: تشكيت بمكة شكوى شديدة، فجاءنى النبى ﷺ يعودنى - يزورنى - فقلت: يا نبى الله! إنى أترك مالاً، وإنى لم أترك إلا بنتًا واحدة، فأوصى بثلثى وأترك الثلث؟ قال: لا. قلت: فأوصى بالنصف وأترك النصف؟ قال: لا. قلت: فأوصى بالثلث وأترك الثلثين؟ قال: الثلث والثلث كثير. ثم وضع يده على جبهته، ثم مسح يده على وجهى وبطنى، ثم قال: اللهم اشف سعداً، وأتمم له هجرته، فما زلت أجد برده على كبدى فيما يخال إلىّ حتى الساعة»[3].

ولما توفى رسول الله ﷺ ولحق بالرفيق الأعلى ظل سعدٌ على عهده زاهداً عابداً مجاهداً فى سبيل الله.

وكان الصحابة يعرفون له قدره ومنزلته.

---

(١) السيرة لابن هشام (١/ ٥٩٤ - ٥٩٥) والإصابة للحافظ ابن حجر (٤/ ١٦٤).

(٢) أخرجه البخارى (٢٨٨٥) الجهاد - ومسلم (٢٤١٠) الفضائل.

(٣) أخرجه البخارى (٥٦٥٩) المرض - ومسلم (١٦٢٨) والنسائى (٦/ ٢٤١).

الله يستجيب دعاءه ـ رضى الله عنه ـ

ولقد امتن الله عليه بأن جعله مستجاب الدعوة.. وذلك ببركة دعاء النبى ﷺ له عندما قال: «اللهم استجب لسعد إذا دعاك»(١).

وفى عهد أمير المؤمنين عمر ـ رضى الله عنه ـ شكا أهل الكوفة سعداً ـ رضى الله عنه ـ وقالوا: إنه لا يُحسن يصلى. فقام سعد وقال: «إنى لأول العرب رمى بسهمٍ فى سبيل الله وكنا نغزو مع النبى ﷺ وما لنا طعامٌ إلا ورقُ الشجر، حتى إن أحدنا ليضعُ كما يضعُ البعيرُ أو الشاةُ ما له خِلط، ثم أصبحت بنو أسدٍ تُعزِّرُنى على الإسلام لقد خبتُ إذاً وضلَّ عملى(٢).

وفى رواية عن جابر بن سمرة ـ رضى الله عنه ـ قال: «شكا أهل الكوفة سعداً إلى عمر ـ رضى الله عنه ـ فعزله واستعمل عليهم عماراً فشكوا حتى ذكروا أنه لا يُحسن يُصلى فأرسل إليه، فقال: يا أبا إسحاق إن هؤلاء يزعمون أنك لا تحسن تصلى قال أبو إسحاق: أما أنا والله فإنى كنت أصلى بهم صلاة رسول الله ﷺ ما أخرم عنها، أصلى العشاء فأركد فى الأولين وأُخفُّ فى الأخريين قال: ذاك الظن بك يا أبا إسحاق، فأرسل معه رجلاً ـ أو رجالاً ـ إلى الكوفة فسأل عنه أهل الكوفة ولم يدع مسجداً إلا سأل عنه ويثنون معروفًا حتى دخل مسجداً لبنى عبس، فقام رجل منهم يقال له أسامة ابن قتادة يكنى أبا سعدة قال: أما إذ نشدتنا فإن سعداً كان لا يسير بالسرية ولا يقسم بالسوية ولا يعدل فى القضية. قال سعد: أما والله لأدعون بثلاث: اللهم إن كان عبدك هذا كاذبًا قام رياء وسمعة فأطِل عمره وأطل فقره وعَرِّضهُ للفتن، وكان بعد إذا سُئل يقول: شيخ كبير مفتون أصابتنى دعوة سعد. قال عبد الملك: فأنا رأيته بعدُ قد سقط حاجباه على عينيه من الكبر، وإنه ليتعرض للجوارى فى الطرق يغمزهن(٣).

* * *

(١) رواه الترمذى (٣٧٥٢) والحاكم (٣/ ٤٩٩) وصححه ووافقه الذهبى.
(٢) أخرجه البخارى (٣٧٢٨) ـ ومسلم (٢٩٦٦) والترمذى (٢٣٦٥).
(٣) أخرجه البخارى (٧٥٥) وأخرجه مسلم (٤٥٣) مقتصراً على الجزء الأول منه.

خوفهم من دعائه عليهم

وكان الناس من حوله يخافون من دعائه عليهم لعلمهم بأن الله ـ جل وعلا ـ يستجيب دعاءه فى التو واللحظة.

عن سعيد بن المسيب قال: كنت جالسًا مع سعد فجاء رجل يقال له الحارث بن برصاء وهو فى السوق، فقال له: يا أبا إسحاق إنى كنت آنفًا عند مروان فسمعته وهو يقول: إن هذا المال مالنا نعطيه من شئنا قال: فرفع سعد يده وقال: أفأدعو؟. فوثب مروان وهو على سريره فاعتنقه وقال: أنشدك يا أبا إسحاق ألا تدعو فإنما هو مال الله(١).

وعن سعيد بن المسيب قال: خرجت جارية لسعد عليها قميص جديد، فكشفتها الريح، فشدَّ عمر عليها بالدرة، وجاء سعد ليمنعه، فتناوله بالدِّرة، فذهب سعد يدعو على عمر، فناوله الدِّرة وقال: اقتصَّ، فعفا عن عمر(٢).

وكان عمر ـ رضى الله عنه ـ يحبه ويعرف له قدره ومنزلته، فعن عبد الله ابن عمر، عن سعد بن أبى وقاص، عن النبى ﷺ أنه مسح على الخُفين، وأن عبد الله بن عمر سأل عمر عن ذلك فقال: إذا حدثك شيئًا سعدٌ عن النبى ﷺ فلا تسأل عنه غيره(٣).

جهاده فى سبيل الله تعالى

ولقد شهد سعدٌ ـ رضى الله عنه ـ مع رسول الله ﷺ المشاهد كلها وأبلى فيها بلاءً حسنًا.

قال ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ: لقد رأيت سعدًا يقاتل يوم بدرٍ قتال الفارس فى الرجال(٤).

وعن عامر الشعبى، قال: قيل لسعد بن أبى وقاص: متى أصبت الدعوة؟ قال: يوم بدر، كنت أرمى بين يدى النبى ﷺ فأضع السهم فى كبد القوس، ثم أقول: اللهم زلزل

---

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك (٣/ ٥٠٠) وقال العدوى فى فضائل الصحابة: إسناده صحيح.

(٢) أخرجه الطبرانى برقم (٣٠٩) فى الكبير. وذكره الهيثمى فى المجمع (٩/ ١٥٣ ـ ١٥٤) ونسبه إلى الطبرانى، وقال: ورجاله ثقات.

(٣) أخرجه البخارى (٢٠٢) عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ.

(٤) الطبقات لابن سعد (٣/ ١/ ١٠٠).

أقدامهم، وأرعب قلوبهم، وافعل بهم، وافعل، فيقول النبى ﷺ: «اللهم استجب لسعد»(١).

وفى غزوة «أُحُد» عندما عصى الرُماة أمر رسول الله ﷺ وتركوا الجبل فاستطاع المشركون أن ينقضّوا على المسلمين وأن يُحدثوا فيهم مقتلة عظيمة وأرادوا بعد ذلك قتل الحبيب ﷺ فثبت معه سعد بن أبى وقاص مع ثلة من الأنصار وطلحة بن عبيد الله.

وكان سعد ـ رضى الله عنه ـ يرمى بالنبل دفاعًا عن رسول الله ﷺ.

قال سعد: «فلقد رأيته ﷺ يناولنى النَّبل وهو يقول: ارم فداك أبى وأمى، حتى إنه ليناولنى السهم ما له من نصل، فيقول: ارم به»(٢).

وعن (علىّ) ـ رضى الله عنه ـ قال: «ما سمعت النبى ﷺ جمع أبويه لأحد إلا لسعد ابن مالك(٣) فإنى سمعته يقول يوم أُحُد: يا سعد ارم فداك أبى وأمى»(٤).

وعن سعد ـ رضى الله عنه ـ قال: كان رجل من المشركين قد أحرق المسلمين، فقال رسول الله : «ارم فداك أبى وأمى»، فنزعت بسهم ليس فيه نصل، فأصبتُ جبهته، فوقع وانكشفت عورته، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه»(٥).

بل إنه ـ رضى الله عنه ـ رأى الملائكة يوم «أحد».

عن سعد ـ رضى الله عنه ـ قال: «رأيت رسول الله ﷺ يوم أحد ومعه رجلان يقاتلان عنه، عليهما ثياب بيض ما رأيتهما قبل ولا بعد»(٦).

---

(١) قال الهيثمى فى المجمع (١٤٨٥١): رواه الطبرانى وإسناده حسن.

(٢) أخرجه البخارى (٦/ ٢٩٠٥ فتح) الجهاد ـ ومسلم (٤/ ١٨٧٦/ ح ٤١) فضائل الصحابة.

(٣) هو سعد بن أبى وقاص، وقال الحافظ ابن حجر فى فتح البارى (٧/ ٨٤): وفى هذا الحصر نظر لما تقدم فى ترجمة الزبير أنه ﷺ جمع له أبويه يوم الخندق... ويجمع بينهما بأن عليًا ـ رضى الله عنه ـ لم يطلع على ذلك أو مراده بذلك بقيد يوم أحد. والله أعلم.

(٤) أخرجه البخارى (٤٠٥٩) ـ ومسلم (٢٤١١) والترمذى (٣٧٥٥).

(٥) أخرجه مسلم (٢٤١٢) الفضائل ـ باب مناقب سعد.

(٦) رواه البخارى (٧/ ٤١٤، ٤١٥) المغازى، ومسلم (١٥/ ٦٦) الفضائل. قال النووى : فيه بيان كرامة النبى ﷺ على الله تعالى وإكرامه إياه بإنزال الملائكة تقاتل معه وبيان أن الملائكة تقاتل وأن قتالهم لم يختص بيوم بدر وهذا هو الصواب خلافًا لمن زعم اختصاصه، فهذا صريح فى الرد عليه وفيه فضيلة الثياب البيض وأن رؤية الملائكة لا تختص بالأنبياء، بل يراهم الصحابة والأولياء وفيه منقبة لسعد بن أبى وقاص الذى رأى الملائكة والله أعلم. شرح النووى (١٥/ ٦٦).

قال الحافظ: هما جبريل وميكائيل.

وظل سعد ـ رضى الله عنه ـ يشهد المشاهد مع رسول الله ﷺ ثابتًا حتى توفى رسول الله وبقى سعد على عهده الذى كان عليه يشهد المشاهد مع أبى بكر وعمر ـ رضى الله عنهم جميعًا ـ حتى كانت الفتوحات الإسلامية فى عهد عمر ـ رضى الله عنه ـ وهنا قام سعد ـ رضى الله عنه ـ كالأسد الضارى يشق صفوف الأعداء ليحقق للإسلام أعظم الانتصارات.

لما تجهز الفُرسُ لقتال العرب، قال عمر بن الخطاب: «والله لأضربنَّ ملوك العجم بملوك العرب» وكتب عمر إلى عماله: «لا تدعوا أحدًا له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأى إلا انتخبتموه، ثم وجهتموه إلىّ، والعَجلَ العَجلَ»[1]. وأراد عمر أن يتولى قيادة هذا الجيش، فصرفه عن ذلك أهل مشورته، فجمع عمر الناس، وقال لهم: «إنى كنت عزمتُ على المسير حتى صرفنى ذوو الرأى منكم، وقد رأيت أن أُقيم وأبعث رجلاً، فأشيروا علىٍّ برجل»، وكان سعد يومذاك على صدقات (هوازن) فلما وصل كتاب منه ـ حين كان عمر يستشير الناس فيمن يبعثه ـ فقال عمر: وجدته! قالوا: مَنْ هو؟ قال: «الأسدُ عاديًا سعد بن مالك»[2]. وقال: «إنه شجاعٌ رامٍ»[3].

وقال عبد الرحمن بن عوف: «الأسد فى برائنه: سعد بن مالك الزهرى».

ويستدعى عمر سعدًا ويقول له: «إنى قد وليتك حرب العراق، فاحفظ وصيتى، فإنك تقدم على أمر شديد كريه، لا يخلص منه إلا الحق، فعوِّد نفسك ومَنْ معك الخير، واستفتح به، واعلم أنَّ لكل عدة عتادًا، وعتاد الخير الصبر، فاصبر على ما أصابك»[4].

وفى القادسية نظَّم سعدٌ الجيش، وعبَّأه للحرب، وجعل على كل عشرة رجال عريفًا، وأمر على الرايات رجالاً من أهل السابقة، وولَّى الحروب رجالاً، فولَّى على مقدماتها ومجنباتها وساقاتها وطلائعها ومُشاتها وفرسانها، ولم يتقدم بعد ذلك إلا على تعبية، حتى يحول دون مباغتة العدو لقواته.

ولم ينسَ سعد القضايا الإدارية فى جيشه، فعيَّن مسئولاً عن القضاء، وجعله مسئولاً

(١) الطبرى: (٢/ ٦٦٠)، وابن الأثير: (٢/ ١٧٢).

(٢) الطبرى: (٣/ ٤).

(٣) البلاذرى: (ص ٢٥٥).

(٤) تاريخ الطبرى (٣/ ٤ ـ ٥).

عن قِسْمة الفَيء أيضًا، وعيَّن مسئولاً عن الوعظ والإرشاد، وعيَّن مترجمًا يجيد اللغة الفارسية، كما عيَّن كاتبًا تنتهى إليه الأمور الكتابية.

ووصل جيش المسلمين القادسية، فبعث عيونه ليعلموا له خبر أهل فارس، ثم أرسل بعض المفارز للإغارة على المناطق المجاورة، فعادت كلها بالفتح والغنائم والسلامة، وأرسل وفودًا من رجالات المسلمين إلى (كسرى) وإلى (رستم) يفاوضونهما ويعرضون عليهما مطالب المسلمين: الإسلام أو الجزية، أو السيف، فكان لهذه الوفود تأثير معنوى حاسم على كسرى وقائده رستم.

وتهيأ الفريقان للقتال، وقبل أن يأذن سعد بالقتال، بعث ذوى الرأى والعقل والنجدة إلى الناس، ليحرضوهم على القتال، وأمر سعد بقراءة سورة الجهاد وهى سورة الأنفال، فلما قُرئت هشت قلوب الناس وعيونهم وعرفوا السكينة مع قراءتها[1].

ونادى منادى سعد فى جيشه: «ألا إن الحسد لا يحلُّ إلا على الجهاد فى أمر الله يا أيها الناس، فتحاسدوا وتغايروا على الجهاد».

وتحالفت الأمراض على البطل القائد العام (سعد) فأصابته بعِرْق النسا، وبحبون ودماميل منعته من الركوب، بل حتى من الجلوس، فلم يستطع أن يركب ولا أن يجلس فاعتلى القصر وأكبَّ من فوقه على وسادة فى صدره يُشرف على الناس، وأسفل منه فى الميدان خليفته؛ (خالد بن عرفطة) يرمى إليه من أعلى بالرقاع فيها أمره ونهيه، وكان آخر صفوف المسلمين إلى جانب القصر[2].

وأكبَّ سعدٌ على وجهه مطلعًا على جيشه، فخطبهم وقال: «إن الله هو الحق، لا شريك له فى الملك، وليس لقوله خُلف قال جل ثناؤه: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾[الأنبياء:١٠٥].

إن هذا ميراثكم وموعود ربكم وقد أباحها لكم منذ ثلاث حجج، فأنتم تطعمون منها، وتأكلون منها وتقتلون أهلها وتُجبونهم وتُسبونهم إلى هذا اليوم، بما نال منهم أصحاب الأيام منكم، ولقد جاءكم منهم هذا الجمع، وأنتم وجوه العرب وأعيانهم وخيار كل قبيلة وعزّ مَن وراءكم، فإن تزهدوا فى الدنيا وترغبوا فى الآخرة جمع الله

---

(١) الطبرى (٣/ ٤٧) وابن الأثير (٢/ ١٨١ ـ ١٨٢).

(٢) الطبرى (٣/ ٥٣٠، ٥٣١، ٥٧٣).

لكم الدنيا والآخرة، ولا يُقرِّب ذلك أحدًا إلى أجله، وإن تفشلوا وتهنوا وتضعفوا تذهب ريحكم وتوبقوا آخرتكم». ثم قال: «إنى قد استخلفتُ عليكم خالد بن عرفطة، وليس يمنعنى أن أكون مكانه إلا وجعى الذى يعودنى وما بى من الحبون، فإنى مكبّ على وجهى، وشخصى لكم بادٍ، فاسمعوا له وأطيعوا، فإنه إنما يأمركم بأمرى، ويعمل برأيى».

قال الطبرى: «فقُرِئَ على الناس فزادهم خيرًا، وانتهوا إلى رأيه، وقبلوا منه وتحادثوا على السمع والطاعة، وأجمعوا على عذر سعد والرضا بما صنع»[1].

لك الله أيها «الليث فى برائنه» تدير أشرس المعارك.. المعركة الفاصلة، وأنت منبطحٌ على وجهك فى شُرفتك، وباب دارك مفتوح، وأقل هجوم من الفرس على الدار يسقطك فى أيديهم حيًا أو ميتًا.

دماملك تنبح وتنزف، وأنت عنها فى شُغل، فأنت من الشُرفة تكبّر، وتصيح أوامرك لجنودك: «الزموا مواقفكم، لا تحركوا شيئًا حتى تصلوا الظهر، فإذا صليتم الظهر فإنى مكبرٌ تكبيرةً، فكبِّروا وشدوا شسعَ نعالكم واستعدوا، واعلموا أن التكبير لم يُعطه أحدٌ قبلكم، واعلموا أنما أُعطيتموه تأييدًا لكم، فإذا كبرتُ الثانية فكبروا وتهيأوا ولتستتم عدتكم، فإذا كبّرت الثالثة فكبروا، ولينشط فرسانكم الناس ليبرزوا ويطاردوا، فإذا كبرت الرابعة فشدوا النواجذ على الأضراس، واحملوا وازحفوا جميعًا حتى تخالطوا عدوكم، وقولوا: (لا حول ولا قوة إلا بالله)».

وبعد ثلاثة أيامٍ ونصف يوم تهاوى جنود الفرس كالذباب المترنح.. وتهاوت معهم الوثنية وعبادة النار..!!

إن المسلمين لم يلقوا فى جميع حروبهم ـ باستثناء بلاط الشهداء فى فرنسا ـ مقاومةً أعنف مما لقوا من الفرس فى معركة القادسية، فلقد صبر الفرس فى هذه المعركة صبرًا عجيبًا وغير معهود منهم، وأظهروا قدرة قتالية فائقة، وأجبروا العرب على أن يقاتلوا فى هذه المعركة أربعةَ أيام، وخسر المسلمون فى القادسية أكثر من خمسة وعشرين فى المائة من قواتهم.

والقادسية أعظم أثرًا فى تاريخ الإنسانية من غزوات تيمورلنك ونابليون، بل من كل

---

(١) الطبرى (٣/ ٥٣٢).

الغزوات التى وقعت إلى عصرنا الحاضر، لقد كشفت معركة القادسية عن معدن (سعد) النفيس وفرط شجاعته، وما إقامته بالقصر مع ما به من علة تمنعه من مباشرة القتال إلا إفراطًا فى الشجاعة، فكما ذكر الراوية عثمان بن رجاء السعدى: «ولو عرّاه الصف فَواق ناقة لأخذ برمّته، فوالله ما أكرثه هول تلك الأيام ولا أقلقه».

وكتب سعد إلى عمر بخبر النصر على المجوس فقال: «أما بعد، فإن الله نصرنا على أهل فارس، ومنحهم سنن من كان قبلهم من أهل دينهم، بعد قتال طويل، وزلزال شديد، وقد لقوا المسلمين بعدة لم يرَ الراؤون مثل زهائها، فلم ينفعهم الله بذلك، بل سُلبُوه، ونقله عنهم إلى المسلمين، واتبعهم المسلمون على الأنهار، وعلى طفوف الآجام، وفى الفجاج، وأُصيب من المسلمين سعد بن عُبيد القارئ، وفلان وفلان، ورجال من المسلمين، لا نعلمهم الله بهم عالم، كانوا يدوُّون بالقرآن - إذا جنّ الليل - دويَّ النحل، وهم آساد الناس، لا يشبههم الأسود، ولم يفضل مَن مضى منهم من بقى إلا بفضل الشهادة إذ لم تُكتب لهم»[(١)].

فتح البيت الأبيض

عن جابر بن سمرة - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «عُصبةٌ من أمتى يفتحون البيت الأبيض؛ بيت كسرى». رواه أحمد ومسلم.

وروى مسلم عن جابر بن سمرة - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «لتفتحنّ عصابةٌ من أُمتى كَنْز آل كسرى الذى فى الأبيض».

أمضى سعد شهرين فى القادسية بعد المعركة، وكاتب عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - فيما يفعل، فكتب إليه عمر بالمسير إلى «المدائن» عاصمة كسرى. وتحرك الجيش المنتصر باتجاه المدائن، وسار المسلمون من نصر إلى نصر فى «برس» وفى بابل، وفى «بهرسير». وبذلك أصبح جيش المسلمين فى الضفة المقابلة للمدائن، وحاول سعد أن يُؤمّن عبور جيشه فى السفن، فلم يقدر على شىء منها؛ لأن الفرس ضمُّوا السفن ليحرموا المسلمين من الإفادة منها[(٢)]. وكان النهر عريضًا طافحًا بالماء، يقذف بالزَّبد لشدة جريانه، وموجُه متلاطم، وزاد المدُّ فيه، وارتفعت مياهه ارتفاعًا كبيرًا، وفى ليلةٍ من

(١) تاريخ الطبرى (٣/ ٥٨٣).
(٢) الطبرى (٣/ ١١٩).

ليالى سعد، رأى رؤيا خلاصتها أن خيول المسلمين اقتحمت مياه دجلة الهادرة وعبرت، وقد أقبلت من المد بأمرٍ عظيم.

عبور لا مثيل له فى التاريخ

فصدّق الرؤيا، وعزم على عبور النهر، فجمع الجيش وقام فيهم خطيبًا، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: «إن عدوكم قد اعتصم منكم بهذا البحر، فلا تخلُصُون إليه معه، وهم يخلُصون إليكم إذا شاءوا فيُناوشُونكم فى سفنهم، وليس وراءكم شيء تخافون أن تُؤتوا منه، فقد كفاكموه أهل الأيام، وعطلوا ثغورهم، وأفنوا ذادتهم، وقد رأيت من الأوفق أن تبادروا جهاد العدو بنياتكم قبل أن تحصركم الدنيا، ألا إنى قد عزمتُ على قطع هذا البحر إليهم. فقالوا جميعًا: عزمَ الله لنا ولك على الرُشد، فافعل»[1].

وندب سعد الناس للعبور، ثم قال: «من يبدأ ويحمى لنا الفراض[2] لكيلا يمنعونا من العبور». فانتدب عاصم بن عمرو التميمى، وانتدب معه ستمائة من أهل النجدات، فعبر هؤلاء المغاوير، وعبر سعد مع جيشه بعدهم، ففاجأوا أهل فارس بأمر لم يكن فى حسابهم.

سبحان الله!! نهر هادر لا يقلّ عُمق مياهه عن ستة أمتار تخوضه الخيول سباحةً وعلى رأسها الفرسان يقاتلون.

قال لهم سعد وهم يخوضون ليصلوا إلى شاطئ أسبانير: «قولوا: نستعين بالله ونتوكل عليه، حسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم»[3].

لقد اقتحموا دجلة ما يكترثون، وإنهم ليتحدثون أثناء عبورهم النهر الهادر كما يتحدثون فى مسيرتهم على الأرض.

نجحت خطة سعد نجاحًا يذهل له المؤرخون، نجاحًا أذهل سعدًا نفسه وأذهل صاحبه ورفيقه فى المعركة «سلمان الفارسى»، «عامت بهم الخيل وسعد يقول: حسبنا الله ونعم الوكيل، والله لينصرن الله وليه، وليُظهرن الله دينه، وليهزمنّ الله عدوه، إن لم يكن فى

---

(١) الطبرى (٣/ ١١٩)، وابن الأثير (٢/ ١٩٨)، وفتوح الشام للواقدى (٢/ ١٢٧).

(٢) الفراض: جمع فرضة، وهى ثغور المخاضة من الناحية الأخرى ويُسمى فى المصطلح العسكرى رأس جسر.

(٣) الطبرى (٤/ ٤٨).

الجيش بغيٌ أو ذنوبٌ تغلب الحسنات». فقال له سلمان: «الإسلام جديد، ذُلِّلت لهم والله البحور، كما ذُلل لهم البرُّ، أما والذي نفسي بيده ليخرجُنّ منه أفواجًا كما دخلوه أفواجًا. لم تضع منهم شكيمة فرس»(١). فطبّقوا الماء حتى ما يُرى الماء من الشاطئ، ولهم فيه أكثر حديثًا منهم في البر لو كانوا فيه، فخرجوا منه ـ كما قال سلمان ـ لم يفقدوا شيئًا، ولم يغرق منهم أحد، إلا رجلاً من بارق يُدعى (غرقدة) زال عن ظهر فرسٍ له شقراء، قال أبو عثمان النهدي: كأني أنظر إليها تنفض أعرافها عريًا والغريقُ طافٍ، فثنى القعقاع عنان فرسه إليه، فأخذه بيده فجرّه حتى عبر، فقال البارقي ـ وكان من أشد الناس ـ: عجز الأخواتُ أن يلدن مثلك يا قعقاع، وكان للقعقاع فيهم خؤولة.

ما تقاتلون إلا الجنّ

نظر جنود «يزدجرد» إلى هذه الخيل التي ملأت دجلة، وجعلوا يرددون بالفارسية (ديوان آمد) ويقول بعضهم لبعض: «والله ما تقاتلون الإنس وما تقاتلون إلا الجن».

قال أبو عثمان النهدي: «طُبقت دجلة خيلاً ودواب حتى ما يرى الماء من الشاطئ أحد، فخرجت بنا خيلنا إليهم تنفض أعرافها، لها صهيل، فلما رأى القوم ذلك انطلقوا لا يلوون على شيء».

وفزع يزدجرد ملك الفرس، وما استطاع أن يخرج من باب قصره المواجه للشاطئ، وكان بينه وبين الشاطئ ثلاثة كيلو مترات... فدلاه من الشرفات الخلفية لقصره الأبيض في زنبيل.. ليفرّ من المدائن ومعه ألف طباخ وألف فهاد وألف بازيار.

حتى خيولهم أصابها الرعب نصراً لأنصار الله؛ فقد جاء في تاريخ الطبري (٤/ ٥٣): «أن أوائل كتيبة الأهوال بقيادة عاصم أدرك رجالها مؤخرة المجوس، وفيهم فارس منهم يعترض على طريق من طرقها، يحمي مؤخرة أصحابه في فرارهم، وهو يضرب فرسه للإقدام فيحجم، ثم يضربه للهرب فيتقاعس، حتى لحقه رجل من جيش سعد يُدعى ثقيفًا من بني عدي بن طريف، فضرب عنقه وأخذ ما كان عليه. ودخل سعد المدائن، وانتهى إلى إيوان كسرى، فأقبل يقرأ قوله تعالى:

﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾

(١) تاريخ الرسل والملوك (٤/ ١١).

﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ [الدخان:٢٥ ـ ٢٨][1].

فالفتوحات الإسلامية إذن التى جرت فى العراق، وفى شرقه وشماله حتى نهاية سنة عشرين الهجرية، فتحها سعدٌ بنفسه، أو أرسل إليها الجيوش والقادة لفتحها، وحتى الجيش الذى فتح نهاوند أرسله سعد، ولكن فتحها جرى بعد عزله.

ولقد كان فتح سعد لهذه البلاد فتحًا مستدامًا. لقد فتح سعد العراق، وأكثر بلاد فارس، وأذربيجان، والجزيرة وبعض أرمينية، أى أنه فتح بصورة مباشرة العراق الحديث، وأكثر إيران بحدودها اليوم ، وفتح القسم الجنوبى من تركيا المتاخمة لإيران، والقسم الواقع فى شمالى إيران والذى يحدّ روسيا. وفوق ذلك مصر الكوفة وكوّفها، فأصبحت القاعدة الأمامية للفتح الإسلامى فى الشرق كله، وأمدّت العالم الإسلامى بعدد ضخم من قادة الفتح والفاتحين.

فرضى الله عن سعد الفاتح العظيم.

وأخيرًا تبقى كلمة:

سأل عمرُ بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ فارس اليمن عمرو بن معد يكرب عن سعد فقال: «متواضع فى خبائه، عربى فى نمرته[2]، أسد فى تاموره[3]؛ يعدل فى القضية، ويقسم بالسوية، ويبعد فى السرية؛ يعطف علينا عطف الأم البرة؛ وينقل إلينا حقنا نقل الذرة»[4].[5]

وعن عمر أنه لما أُصيب جعل الأمر شورى فى الستة، وقال: من استخلفوه فهو الخليفة بعدى، وإن أصابت سعدًا وإلا فليستعن به الخليفةُ بعدى، فإننى لم أنزعه ـ يعنى عن الكوفة ـ من ضعف ولا خيانة.

قال الزهرى: ولما استُخلف عثمان عزل عن الكوفة (المغيرة) وأمّر عليها (سعدًا)[6].

وبعد مقتل عثمان ـ رضى الله عنه ـ ووقعت الفتنة وأطلّت برأسها بين (علىّ)

(١) الطبرى (٤/ ١٦).
(٢) كساء فيه خطوط بيض وسود، تلبسه الأعراب.
(٣) التامور: هو عرين الأسد، وهو بيته الذى يأوى إليه.
(٤) أسد الغابة (٢/ ٢٩٢) والبيان والتبيين للجاحظ (٢/ ٦٨).
(٥) نقلاً من صلاح الأمة فى علو الهمة/ د. سيد حسين (بتصرف).
(٦) الإصابة للحافظ ابن حجر (٤/ ١٦٣) نقلاً من السير للإمام الذهبى (١/ ١١٨).

و(معاوية) ـ رضي الله عنهما ـ وكان الصحابة مجتهدين ومتأولين. والمجتهد إن أصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجرٌ واحد.. فلم يكن منهم واحدٌ يريد سفك الدماء أو يريد زعامة أو يريد دنيا، وإنما كانوا جميعًا يريدون وجه الله ـ فرضي الله عنهم جميعًا وأرضاهم ـ.

اعتزاله للفتنة

وعندما وقعت الفتنة بين أصحاب الحبيب ﷺ اعتزل سعدٌ ـ رضي الله عنه ـ تلك الفتنة، وقال: «ما أزعم أني بقميصي هذا أحقُّ منّي بالخلافة، جاهدت وأنا أعرف بالجهاد ولا أبخع نفسي إن كان رجلاً خيرًا مني، لا أقاتل حتى يأتوني بسيفٍ له عينان ولسانٌ فيقول: هذا مؤمن وهذا كافر»(١).

وعن علي بن زيد عن الحسن قال: لما كان الهيجُ في الناس، جعل رجل يسأل عن أفاضل الصحابة، فكان لا يسأل أحدًا إلا دلَّه على سعد بن مالك.

وروى عمر بن الحكم: عن عوانة قال: دخل سعد على معاوية، فلم يسلم عليه بالإمرة، فقال معاوية: لو شئت أن تقول غيرها لقلت، قال: فنحن المؤمنون ولم نؤمرك، فإنك معجب بما أنت فيه، والله ما يسرني أني على الذي أنت عليه وأني هرقت محجمة دم(٢).

وعن عمر بن سعد، عن أبيه، أنه جاءه ابنه عامر، فقال: «أي بني، أفي الفتنة تأمرني أن أكون رأسًا؟ لا والله، حتى أعطَى سيفًا، إن ضربت به مسلمًا، نبا عنه، وإن ضربت كافرًا قتله، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يحب الغني الخفي التقي»(٣).

اعتزل الفتنة ففاز بتلك المنقبة العظيمة

عن حسين بن خارجة الأشجعي قال: لما قُتل عثمان، أشكلت عليَّ الفتنة، فقلتُ: اللهم أرني من الحق أمرًا أتمسك به، فرأيتُ في النوم الدنيا والآخرة بينهما حائط، فهبطتُ الحائط، فإذا بنفر، فقالوا: نحن الملائكة، قلتُ: فأين الشهداء؟ قالوا: اصعد

(١) قال الهيثمي في المجمع (٧/ ٢٩٩): رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.
(٢) سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي (١/ ١٢٢).
(٣) قال الأرنؤوط: إسناده حسن: رواه أحمد (١/ ١٧٧) والحلية لأبي نعيم (١/ ٩٤).

الدرجات، فصعدتُ درجةً ثم أخرى، فإذا محمد وإبراهيم (صلى الله عليهما) وإذا محمد يقول لإبراهيم: استغفر لأمتي، قال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، إنهم اهراقوا دماءهم، وقتلوا إمامهم، ألا فعلوا كما فعل خليلي سعد؟.

قال: قلتُ: لقد رأيتُ رؤيا، فأتيت سعداً، فقصصتها عليه، فما أكثر فرحًا، وقال: قد خاب من لم يكن إبراهيم ـ عليه السلام ـ خليله، قلتُ: مع أيِّ الطائفتين أنتَ؟ قال: ما أنا مع واحد منهما، قلتُ: فما تأمرني؟ قال: هل لك من غَنَم؟ قلتُ: لا، قال: فاشتر غنمًا، فكن فيها حتى تنجلي[1].

وقال الإمام الذهبي: «اعتزل سعد الفتنة، فلا حضر الجمل ولا صفين ولا التحكيم، ولقد كان أهلاً للإمامة كبير الشأن ـ رضي الله عنه ـ»[2].

زهده في الإمارة

وكان سعد ـ رضي الله عنه ـ لا يطمع في أي شيء من حطام الدنيا فهو يعلم أن كل نعيم دون الجنة فهو سراب، وأن كل عذاب دون النار فهو عافية.. فكان لا تطمح نفسه إلا في جنة الرحمن ـ جل وعلا ـ.

عن عامر بن سعد أنَّ أباه سعداً، كان في غنمٍ له، فجاء ابنه عمر، فلما رآه قال: أعوذ بالله من شرِّ هذا الراكب، فلما انتهى إليه، قال: يا أبتِ أرضيتَ أن تكون أعرابيًا في غنمك، والناسُ يتنازعون في الملك بالمدينة، فضرب صدر عمر، وقال: اسكت، فإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الله ـ عز وجل ـ يُحبُّ العبدَ التقي الغنيَّ الخفيَّ»[3].

دفاعه عن إخوانه

عن مصعب بن سعد، عن سعد أن رجلاً نال من (عليّ) ـ رضي الله عنه ـ فدعا عليه سعد بن مالك[4]، فجاءته ناقة أو جمل فقتله فأعتق سعد نسمة وحلف أن لا يدعو على أحد[5].

(١) قال الأرنؤوط: رجاله ثقات: أخرجه الحاكم (٣/ ٥٠١ ـ ٥٠٢) وانظر الإصابة (٣/ ٨). تنجلي: تنكشف.
(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي (١/ ١٢٢).
(٣) أخرجه مسلم (٢٩٦٥) الزهد ـ وأحمد (١/ ١٦٨) وأبو نعيم في الحلية (١/ ٩٤).
(٤) هو سعد بن أبي وقاص.
(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٤٩٩) وقال العدوي: إسناده حسن.

وفى رواية: عن قيس بن أبى حازم قال: كنت بالمدينة فبينا ـ فبينما ـ أنا أطوف فى السوق إذ بلغت أحجار الزيت فرأيت قومًا مجتمعين على فارس قد ركب دابة وهو يشتم علىّ بن أبى طالب والناس وقوف حواليه إذ أقبل سعد بن أبى وقاص فوقف عليهم فقال: ما هذا؟ فقالوا: رجل يشتم على بن أبى طالب فتقدم سعد فأفرجوا له حتى وقف عليه فقال: يا هذا علام تشتم علىّ بن أبى طالب؟ ألم يكن أول من أسلم؟ ألم يكن أول من صلى مع رسول الله ﷺ؟ ألم يكن أزهد الناس؟ ألم يكن أعلم الناس؟ وذكر حتى قال: ألم يكن ختن رسول الله على ابنته؟ ألم يكن صاحب راية رسول الله ﷺ فى غزواته؟، ثم استقبل القبلة ورفع يديه وقال: اللهم إن هذا يشتم وليًا من أوليائك فلا تفرق هذا الجمع حتى تريهم قدرتك. قال قيس: فوالله ما تفرقنا حتى ساخت به دابته فرمته على هامته فى تلك الأحجار فانفلق دماغه ومات[1].

صبره على البلاء

لما قدم سعد بن أبى وقاص مكة، وقد كان كُفَّ بصره، جاءه الناس يهرعون إليه كل واحد يسأله أن يدعو له فيدعو لهذا ولهذا، وكان مجاب الدعوة، قال عبد الله بن السائب: فأتيته وأنا غلام فتعرفت عليه فعرفنى. وقال: أنت قارئ أهل مكة؟ قلت: نعم. فذكر قصة، قال فى آخرها: فقلت له: يا عم، أنت تدعو للناس فلو دعوت لنفسك فردّ عليك بصرك؟! فتبسم وقال: يا بُنى قضاءُ الله سبحانه عندى أحسن من بصرى[2].

وحان وقت الرحيل

وبعد حياة طويلة مليئة بالبذل والتضحية والجهاد فى سبيل الله نام سعد ـ رضى الله عنه ـ على فراش الموت ليُسلم روحه إلى بارئها ـ جل وعلا ـ وليلحق بالحبيب ﷺ فى جنة الرحمن.. فهو من العشرة المبشرين بالجنة.

عن مصعب بن سعد أنه قال: كان رأس أبى فى حجرى، وهو يُقضَى. فبكيتُ، فرفع رأسه إلىّ، فقال: أى بُنىَّ ما يبكيك؟ قلت: لمكانك وما أرى بك. قال: لا تبك فإن الله لا يعذبنى أبدًا. وإنى من أهل الجنة[3].

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ٤٩٩) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يُخرجاه ووافقه الذهبى.
(٢) إحياء علوم الدين (٤/ ٣٦٨).
(٣) الطبقات لابن سعد (٣/ ١/ ١٠٤) نقلاً من السير للذهبى (١/ ١٢٢).

قال الإمام الذهبى: قلتُ: صدق والله، فهنيئًا له.

وعن الزهرى أنّ سعد بن أبى وقاص لما احتُضر، دعا بخَلَق جبة صوف، فقال: كفنونى فيها، فإنى لقيتُ المشركين فيها يوم بدر، وإنما خبأتها لهذا اليوم»[١].

وعن أم سلمة أنها قالت: لما مات سعد، وجىء بسريره، فأدخل عليها، جعلت تبكى وتقول: بقية أصحاب رسول الله ﷺ[٢].

ومات سعد فى قصره بالعقيق على عشرة أميال من المدينة، فحُمل على رقاب الرجال إلى المدينة وصلى عليه مروان بن الحكم، وهو يومئذ والى المدينة، ثم صلى عليه أزواج النبى ﷺ فى حُجرهن، ودُفن بالبقيع[٣].

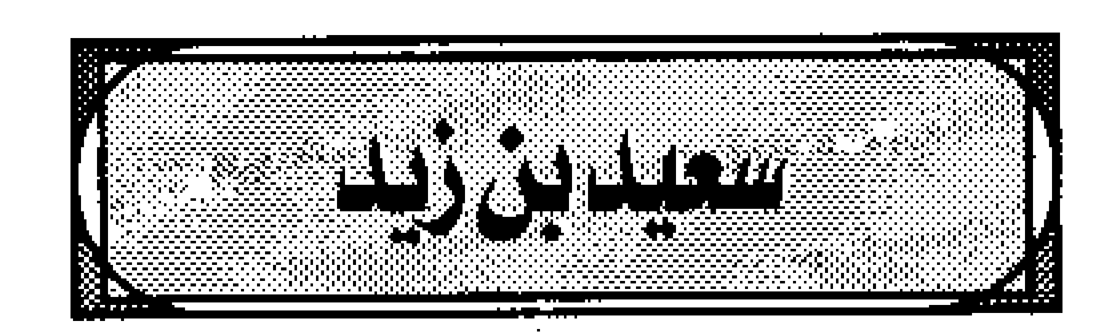
فرضى الله عن سعد وعن سائر الصحابة أجمعين

* * *

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ٤٩٦)، والطبرانى فى الكبير (٣١٦)، وذكره الهيثمى فى المجمع (٣/ ٢٥) وقال: ورجاله ثقات إلا أن الزهرى لم يدرك سعدًا.

(٢) السير للإمام الذهبى (١/ ١٢٣).

(٣) صفة الصفوة (١/ ١٤٧).



سعيد بن زيد

أسدٌ في معركة اليرموك ... ومن العشرة المبشرين بالجنة

أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، ومن السابقين الأولين البدريين، ومن الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه.

شهد المشاهد مع رسول الله ﷺ ـ ما خلا بدر ـ وشهد حصار دمشق وفتحها، فولاه عليها أبو عبيدة بن الجرَّاح، فهو أول من عمل نيابة دمشق من هذه الأمة(١).

والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه

لقد كان (زيد بن عمرو بن نفيل) والد سعيد بن زيد فريداً في عصره وزمانه، فقد كان الناس يعبدون الأصنام وهو يعبد الواحد الديَّان. فخرج من صُلبه هذا الابن المبارك (سعيد بن زيد) ليكون واحداً من العشرة الذين بشّرهم النبي ﷺ بالجنة.

وكان (زيد بن عمرو) يُحيي الموءودة، يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته: مَهْ! لا تقتلها أنا أكفيك مؤنتها، فيأخذها، فإذا ترعرعت، قال لأبيها: إن شئت دفعتها إليك، وإن شئت كفيتك مؤنتها(٢).

وكان يعيب على قريش، ويقول: الشاة خلقها الله، وأنزل لها من السماء، وأنبت لها من الأرض، ثم تذبحونها على غير اسم الله؟.

وحتى نسعد بتلك السيرة العطرة فتعالوا بنا لنرى كيف كان حال (زيد بن عمرو) وما هي قصته لنعرف كيف خرجت تلك الثمرة من أغصان هذه الشجرة المباركة.

* * *

---

(١) الاستيعاب لابن عبد البر (٤/ ١٨٨) والإصابة (٤/ ١٨٨).

(٢) أخرجه البخاري معلقًا (٣٨٢٨) في المناقب ـ والحاكم ووصله وصححه (٣/ ٤٠٤) ووافقه الذهبي.

رحلة التوحيد

اجتمعت قريش يومًا في عيد لهم عند صنم من أصنامهم كانوا يعظّمونه وينحرون له، ويعكفون عنده، ويدورون به، وكان ذلك عيدًا لهم [في] كل سنة يومًا، فخلص منهم أربعة [نفر] نجيًّا[1]، ثم قال بعضهم لبعض: تصادقوا وليكتم بعضكم على بعض؛ قالوا: أجل ـ وهم: ورقة بن نوفل وعبيد الله ابن جحش، وكانت أمه أميمة بنت عبد المطلب؛ وعثمان بن الحويرث؛ وزيد ابن عمرو بن نفيل، فقال بعضهم لبعض: تعلمُوا والله ما قومكم على شيء! لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم! ما حَجر نُطيف به، لا يسمع ولا يُبصر ولا يضر ولا ينفع!؟ يا قوم! التمسوا لأنفسكم [دينًا] فإنكم والله ما أنتم على شيء.

فتفرقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية، دين إبراهيم.

فأما ورقة بن نوفل فاستحكم في النصرانية، واتبع الكتب من أهلها حتى علم علمًا من أهل الكتاب.

وأما عبيد الله بن جحش فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتى أسلم، ثم هاجر مع المسلمين إلى الحبشة، ومعه امرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان مسلمة؛ فلما قدمها تنصّر، وفارق الإسلام حتى هلك هنالك نصرانيًا.

وأما عثمان بن الحويرث فقدم على قيصرَ ملك الروم فتنصَّر، وحسُنت منزلته عنده.

وأما زيد بن عمرو بن نفيل فوقف فلم يدخل في يهودية ولا نصرانية، وفارق دين قومه، فاعتزل الأوثان والميتة والدم والذبائح التي تُذبح على الأوثان، ونهى عن قتل الموءودة، وقال: أعبدُ ربَّ إبراهيم؛ وبادى قومه بعيب ما هم عليه.

وعن أسماء بنت أبي بكر ـ رضي الله عنهما ـ قالت: لقد رأيت زيد بن عمرو بن نُفيل شيخًا كبيرًا مُسندًا ظهرهُ إلى الكعبة وهو يقول: يا معشر قريش، والذي نفسُ زيد بن عمرو بيده، ما أصبح منكم أحدٌ على دين إبراهيم غيري، ثم يقول: اللهم لو أني أعلم أيَّ الوجوه أحبَّ إليك عبدتك به، ولكني لا أعلمه، ثم يسجدُ على راحته.

قال ابن إسحاق: وحُدِّثت أن ابنه، سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفيل، وعمر بن

---

(١) النجي: جماعة يتحدثون سرًا يخفون حديثهم عن غيرهم.

الخطاب ـ وهو ابن عمّه ـ قالا لرسول الله ﷺ: أنستغفرُ لزيدِ بن عمرو؟ قال: نعم فإنه يُبعثُ أمةً وحده(١).

وقال زيد بن عمرو بن نفيل في فراق دين قومه، وما كان لقي منهم في ذلك:

أربًّا واحــدًا أم ألفَ ربٍّ ... أدينُ إذا تُقُسِّمت الأمــورُ؟
عزلتُ اللات والعُزّى جميعًا ... كذلكَ يفعلُ الجلَدُ الصبورُ
فلا العُزى أدينُ ولا ابنتيها ... ولا صَنَمي بني عمرو أزُورُ
ولا هُبلاً أدينُ، وكــان ربًا ... لنا في الدهر إذ حِلمي يسيرُ
عجبتُ وفي الليالي مُعجباتٌ ... وفي الأيام يعرفهـا البصيرُ
بأنَّ اللــه قد أفنى رجالاً ... كثيرًا كــان شأنهم الفجورُ
وأبقى آخــرين ببرِّ قــومٍ ... فيزبلُ منهم الطفلُ الصغيرُ(٢)
وبينا المرءُ يُفتــرُ ثابَ يومًا ... كمــا يتروّح الغُصنُ المطيرُ(٣)
ولكنْ أعبُدُ الرحمــن ربِّي ... ليغفــرَ ذنبي الربُّ الغفــورُ
فتقوى اللـه ربكُم احفظوهــا ... متى مـا تحفظوها لا تبُورُوا
ترى الأبرار دارهُمُ جنــانٌ ... وللكفَّــار حاميــة سعيرُ
وخِزيٌ في الحياة، وإن يمُوتُوا ... يُلاقُوا مـا تضيقُ به الصــدورُ

وكان زيد بن عمرو قد أجمع الخروج من مكة ليضرب في الأرض يطلبُ الحنيفية دين إبراهيم ﷺ، فكانت صفيةُ بنتُ الحضرمي كلما رأتهُ قد تهيأ للخروج وأراده آذنت به الخطاب بن نفيل.

وكان يعاتبه على فراق دين قومه.

وكان الخطاب قد آذى زيدًا حتى أخرجه إلى أعلى مكة، فنزل حراء مقابل مكة، ووكّل به الخطابُ شابًا من شباب قريش وسُفهائهم، فقال لهم: لا تتركوه يدخل مكة؛ فكان لا يدخلها إلا سرًا منهم، فإذا علموا بذلك آذنوا به الخطاب فأخرجوه وآذوه كراهية أن يُفسد عليهم دينهم، وأن يتابعه أحدٌ منهم على فراقه.

---

(١) رواه أحمد في المسند (١٦٤٨) وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح.

(٢) يزبل: زَبَلَ الطفل إذا شب وكبر.

(٣) يفتر: فتر الشيء يفتر. سكن بعد حدته. ثاب: رجع. يتروح: يهتز ويخضر. وينبت ورقة بعد سقوطه.

ثم خرج يطلبُ دينَ إبراهيم عليه السلام، ويسألُ الرهبان والأحبار، حتى بلغ الموصل والجزيرة كلها، ثم أقبل فجال الشام كله، حتى انتهى إلى راهب بميفعة[١] من أرض البلقاء[٢] كانت ينتهى إليه علم أهل النصرانية فيما يزعمون، فسأله عن الحنيفية دين إبراهيم؛ فقال: إنك لتطلبُ دينًا ما أنت بواجد من يحملك عليه اليوم، ولكن قد أظل زمانُ نبى يخرجُ من بلادك التى خرجت منها، يُبعث بدين إبراهيم الحنيفية، فالحق بها، فإنه مبعوثٌ الآن، هذا زمانه. وقد كان شام اليهودية والنصرانية فلم يرض شيئًا منهما، فخرج سريعًا، حين قال له ذلك الراهبُ ما قال، يريد مكة، حتى إذا توسَّط بلاد لخم عدوا عليه فقتلوه[٣].

وفى آخر رمق من حياته رفع بصره إلى السماء، وقال: اللهم إن كنت حرمتنى من هذا الخير فلا تحرم منه ابنى «سعيدًا».

واستجاب الله دعوته المباركة فكان ابنه سعيد من السابقين إلى الدخول فى الإسلام فقد أسلم قبل دخول النبى ﷺ دار الأرقم.

ولقد تحمَّل سعيد ـ رضى الله عنه ـ نصيبًا من العذاب بسبب إسلامه.

فعن قيس بن حازم قال: سمعت سعيد بن زيد يقول للقوم: لو رأيتنى موثقى[٤] عمرُ على الإسلام أنا وأخته، وما أسلم[٥]، ولو أن أحدًا انقض[٦] لما صنعتم بعثمان لكان محقوقًا أن ينقض»[٧].

وأسلمت مع (سعيد) زوجته فاطمة بنت الخطاب أخت عمر بن الخطاب. وجعلهما الله سببًا فى إسلامه ـ وإن كان السبب الأساسى فى إسلام عمر ـ رضى الله عنه ـ هو دعوة النبى ﷺ عندما قال: «اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك: بأبى جهل أو بعمر بن الخطاب» وكان أحبهما إليه عمر[٨].

---

(١) بميفعة: أصل الميفعة الموضع المرتفع من البقاع.
(٢) البلقاء: كورة من أعمال دمشق قصبتها عمان وفيها قرى كثيرة ومزارع واسعة. قاله ياقوت.
(٣) السيرة لابن هشام (١/ ١٩١: ١٩٨) بتصرف.
(٤) أى أن عمر موثق سعيد بن زيد.
(٥) يعنى قبل أن يسلم عمر.
(٦) قال الحافظ فى الفتح (٧/ ١٧٦): وقال الداودى: معناه لو تحركت القبائل وطلبت بثأر عثمان لكان أهلاً لذلك. وفى هذا الحديث أفضلية سعيد بن زيد وأسبقيته هو وزوجته رضى الله عنهما إلى الإسلام.
(٧) أخرجه البخارى (٣٨٦٧) عن قيس بن حازم.
(٨) رواه الترمذى عن ابن عمر، وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى (٢٩٠٧).



منقبة عظيمة

عن سعيد بن زيد ـ أن النبي ﷺ قال: «اسكن حراءُ فما عليك إلا نبي أو صدِّيق أو شهيد»، وعليه النبيُّ، وأبو بكر، وعمر، وعثمان، وعليٌّ، وطلحة، والزبير، وسعد، وعبد الرحمن، وسعيد بن زيد[1].

الله يستجيب دعاءه

عن هشام بن عروة، عن أبيه أن أروى بنت أويس ادَّعت على سعيد بن زيد أنه أخذ شيئًا من أرضها فخاصمتهُ إلى مروان بن الحكم فقال سعيدٌ: أنا كنت آخذُ من أرضها شيئًا بعد الذي سمعتُ من رسول الله ﷺ؟ قال: وما سمعت من رسول الله ﷺ؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أخذَ شبرًا من الأرض ظُلمًا طُوِّقه إلى سبع أرضين» فقال له مروان: لا أسألك بينةً بعد هذا. فقال: اللهم إن كانت كاذبة فعمِّ ـ فأعم ـ بصرها واقتلها في أرضها. قال: فما ماتت حتى ذهب بصرها ثم بينا ـ بينما ـ هي تمشي في أرضها إذ وقعت في حُفرةٍ فماتت[2].

أُهدي هذه القصة إلى كل ظالم على وجه الأرض ومعها قول الله ـ جل وعلا ـ: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء:٢٢٧]. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم:٤٢].

جهاده في سبيل الله

لقد شهد سعيد بن زيد ـ رضي الله عنه ـ المشاهد كلها ما خلا بدرًا، وذلك لأن النبي ﷺ كان قد أرسله في مهمة، فلما عاد وجد النبي ﷺ عائدًا من الغزوة فضرب له النبي ﷺ بسهمه، فكان كمن شهدها.

وما زال يشهد المشاهد بعد وفاة الرسول ﷺ يبحث عن الشهادة في سبيل الله ولا يرضى عنها بديلاً.

---

(١) قال الأرنؤوط: رواه أحمد (١/ ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩) وأبو داود (٤٦٤٨) بإسناد صحيح.

(٢) أخرجه مسلم (١٢٣١).

بطولاته في يوم أجنادين

كان سعيد بن زيد ـ رضى الله عنه ـ قائد الفرسان يوم أجنادين، وكان من أشد الناس، وهو الذى أشار على خالد ببدء القتال يوم أجنادين لما رمى الروم المسلمين بالنُّشَّاب، فصاح سعيد بن زيد بخالد قائلاً: «علام نستهدف لهؤلاء الأعلاج؛ وقد رشقونا بالنشاب حتى شمست[1] الخيل؟!». فأقبل خالد إلى خيل المسلمين، وقال لهم: «احملوا ـ رحمكم الله ـ على اسم الله». وحمل خالدٌ على الروم، وحمل المسلمون معه بأجمعهم، وصبروا مختارين لهجوم الروم عليهم مرتين.. على ميمنتهم مرة، ثمّ على ميسرتهم، ثم صبروا لرشق نبالهم، وانطلق جيش المسلمين إلى الروم، فما صبر الروم لهم فَوَاقًا[2]، وانهزموا هزيمةً شديدة، وقتلهم المسلمون كيف شاءوا، وأصابوا معسكرهم وما حوى.

وعند الطبرى، عن ابن إسحاق: «فلما رأى القبقلار[3] ما رأى من قتال المسلمين، قال للروم: لفّوا رأسى بثوب. قالوا: لِمَ؟ قال: يوم البئيس، لا أحب أن أراه، ما رأيت فى الدنيا يومًا أشدَّ من هذا. فاحتزَّ المسلمون رأسه، وإنه لَمُلَفَّفٌ».

أسدٌ فى معركة اليرموك

ولعلّ أروع بطولاته تلك التى سجّلها يوم اليرموك.

قال سعيد بن عمرو بن نُفيل: لَمّا كان يوم اليرموك كنا أربعًا وعشرين ألفًا أو نحوًا من ذلك، فخرجت لنا الروم بعشرين ومائة ألف، وأقبلوا علينا بخُطى ثقيلة، كأنهم الجبال تُحركها أيد خفيةٌ وسار أمامهم الأساقفة والبطارقة والقسيسون يحملون الصلبان وهم يجهرون بالصلوات، فيرددها الجيش من ورائهم، ولهم هزيمٌ كهزيم الرَّعد. فلما رآهم المسلمون على حالهم هذه، هالتهم كثرتهم، وخالط قلوبهم شىءٌ من خوفهم. عند ذلك قام أبو عبيدة بن الجراح يحضُّ المسلمين على القتال، فقال: عباد الله، انصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم. عباد الله، اصبروا؛ فإن الصبر منجاةٌ من الكفر ومرضاةٌ للرب،

---

(١) أى امتنعت ظهورها عن الركوب.

(٢) الفواق: ما بين الحلبتين من الوقت. والمراد: الزمن القصير.

(٣) قائد جيش الروم.

ومدحضةٌ للعار. وأشرعوا الرماح، واستتروا بالتروس، والزموا الصمت إلا من ذكر الله عز وجل في أنفسكم، حتى آمركم إن شاء الله. قال سعيد: عند ذلك خرج رجلٌ من صفوف المسلمين وقال لأبي عبيدة: إنى أزمعتُ(١) على أن أقضى أمري الساعة(٢)، فهل لك من رسالة تبعث بها إلى رسول الله ﷺ ؟ فقال أبو عبيدة: نعم، تُقرئه منى ومن المسلمين السلام، وتقول له: يا رسول الله، إنا وجدنا ما وعدنا ربُّنا حقًا. قال سعيد: فما إن سمعتُ كلامه، ورأيته يمتشق حُسامه ويمضى إلى لقاء أعداء الله، حتى اقتحمت(٣) إلى الأرض وجثوتُ على ركبتى، وأشرعتُ رمحى، وطعنت أول فارس أقبل علينا، ثم وثبتُ على العدو، وقد انتزع الله كل ما في قلبى من الخوف، فثار الناس في وجوه الروم، وما زالوا يقاتلونهم حتى كتب الله للمؤمنين النصر»(٤).

«قال حبيب بن سلمة: اضطررنا يوم اليرموك إلى سعيد بن زيد، فلله درُّ سعيد! ما سعيد يومئذ إلا مثلُ الأسد، لما نظر إلى الروم وخافها، اقتحم إلى الأرض وجثا على ركبته، حتى إذا دنوا منه وثب في وجوههم مثل الليث، فطعن برايته أول رجل من القوم فقتله، وأخذ ـ والله ـ يقاتل راجلاً ـ قتال الرجل الشجاع البأس ـ فارسًا، ويعطفُ الناس إليه»(٥).

وحان وقت الرحيل

وبعد تاريخ حافل بالعطاء والتضحية والجهاد في سبيل الله رحل سعيد ابن زيد ـ رضي الله عنه ـ عن دنيا الناس إلى جنة الرحمن، فهو من العشرة المبشرين بالجنة.

وتوفى بالعقيق فحُمل إلى المدينة ودُفن بها وغسّله سعد بن أبي وقاص ونزل في قبره سعد وابن عمر، وذلك في سنة خمسين أو إحدى وخمسين وكان يوم أن مات ابن بضع وسبعين سنة.

فرضي الله عن سعيد وعن سائر الصحابة أجمعين

* * *

(١) أزمعت: عزمتُ.
(٢) أقضى أمري الساعة: أي أموت في هذه الساعة.
(٣) اقتحمت إلى الأرض: رميتُ بنفسي بشدة على الأرض.
(٤) صُور من حياة الصحابة (١/ ١٥٥ ـ ١٥٨) للدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا ـ طبع مؤسسة الرسالة.
(٥) تاريخ ابن عساكر (١/ ٥٤١)، الأزدي (٢٢٦).

أبو عبيدة بن الجراح

أمين هذه الأمة ... وفاتح بلاد الشام

عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «إن لكل أمة أمينًا، وإن أميننا أيتها الأمةُ أبو عبيدة بن الجراح»(١).

قال العلماء: والأمانة مشتركة بينه وبين غيره من الصحابة، لكن النبي ﷺ خص بعضهم بصفات غلبت عليهم، وكانوا بها أخص(٢).

وقال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ: والأمين هو الثقة الرضى وهذه الصفة وإن كانت مشتركة بينه وبين غيره لكن السياق يشعر بأن له مزيداً في ذلك، لكن خص النبي ﷺ كل واحد من الكبار بفضيلة ووصفه بها، فأشعر بقدر زائد فيها على غيره، كالحياء لعثمان، والقضاء لعلي ونحو ذلك(٣).

وها نحن على موعد مع أمين هذه الأمة..أول من لُقِّب بـ«أمير الأمراء» إنه أحدُ السابقين الأولين، ومن عَزم الصديقُ على توليته الخلافة، وأشار به يوم السقيفة، لكمال أهليته عند أبي بكر. يجتمع في النسب هو والنبي ﷺ في فهر (اسم جده) شهد له النبي ﷺ بالجنة، وسمَّاه أمين الأمة، ومناقبه شهيرة جمَّة.

إسلامه ـ رضي الله عنه ـ

في تلك اللحظة التاريخية التي أسلم فيها أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ خرج يدعو إلى الله ليأخذ بأيدي الناس من حوله إلى جنة الرحمن ـ جل وعلا ـ فكان من جملة من أسلموا على يديه (أبو عبيدة بن الجراح) ـ رضي الله عنه ـ.

فكان بذلك ممن أسلموا مبكراً قبل أن يدخل الرسول ﷺ دار الأرقم. وكان من

(١) أخرجه البخاري (٣٧٤٤) ـ ومسلم (٢٤١٩).
(٢) مسلم بشرح النووي (١٥/ ٢٧٣).
(٣) فتح الباري (٧/ ١١٧).

هاجروا إلى الحبشة الهجرة الثانية.

وذلك بعد أن أعلنت قريش العداء على رسول الله ﷺ وعلى أصحابه ـ رضى الله عنهم ـ فهاجر أبو عبيدة مع مَن هاجر إلى الحبشة.

وعلى الرغم من الحفاوة البالغة التى قابلهم بها النجاشى (ملك الحبشة) إلا أن أبا عبيدة كان لا يتحمل أبدًا أن يبتعد عن حبيبه ﷺ فإن رؤية النبى ﷺ والجلوس معه والتعلم على يديه والاقتباس من هديه وأخلاقه لا يعدله أى نعيم ولا أى متاعٍ فى الدنيا بأسرها.

فسرعان ما عاد مرة أخرى إلى مكة مع إخوانه المهاجرين الذين وصل إلى مسامعهم تلك الإشاعة الكاذبة (بإسلام أهل مكة).

وما إن اقتربوا على أبواب مكة حتى علموا الحقيقة المؤلمة وعلموا أن قريشًا تنتظر رجوعهم لتسلط عليهم ألوانًا من العذاب لا تخطر ببالهم.

ولم يدم بقاء (أبى عبيدة) بمكة طويلاً حتى أذن النبى ﷺ له ولأصحابه بالهجرة إلى المدينة (يثرب) لتكون هذه المدينة هى القاعدة المَباركة التى تقوم على أرضها للإسلام دولة تُخرج للكون كله نماذج من الرجال والأبطال الذين تربوا بين يدى الحبيب ﷺ الذى ربَّاه الله ـ جل وعلا ـ ليربى به الأمم والأجيال عبر العصور والأزمان.

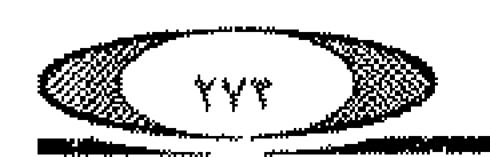
وشاهدت الطريق الممتدة إلى المدينة فارسًا يطلق العنان لراحلته لتسابق الريح، وتطوى الأرض تحت أقدامها طيًا، حتى يلحق بالعصبة المؤمنة الفارة بدينها، ولم يكن هذا الفارس سوى أبى عبيدة بن الجراح الذى وقف أمام الرسول ﷺ ووجهه لا يكاد يُعرف من كثرة ما تراكم عليه من رمال الصحراء وعناء الطريق، فاستقبله الرسول ﷺ وهشَّ لمقدمه، وآخى بينه وبين سعد بن معاذ ـ رضى الله عنه ـ[1].

درس فى الولاء والبراء يوم بدر

وفى غزوة (بدر) قاتل أبو عبيدة ـ رضى الله عنه ـ قتالاً شديدًا حتى كان المشركون يبتعدون عن البقعة التى يقاتل فيها.. ولكن كان هناك فارسٌ يتصدى له كثيرًا.. وأبو عبيدة يحيده عنه فلما أكثر الرجل من التصدى لأبى عبيدة هجم عليه كالأسد الضارى

---

(١) رجال أنزل الله فيهم قرآنًا/ د. عبد الرحمن عميرة (٣/ ٣٤).



فقتله شر قتلة!!!

أتدرون من هو المقتول؟!..

إنه ـ والد أبي عبيدة ـ.

وأنزل الله في شأنه وشأن أبيه قرآنًا يُتلى إلى يوم القيامة: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة:٢٢].

قال سعيد بن عبد العزيز وغيره أُنزلت هذه الآية ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ إلى آخرها في أبي عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح حين قتل أباه يوم بدر، ولهذا قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ حين جعل الأمر شورى بعده في أولئك الستة ـ رضي الله عنهم ـ ولو كان أبو عبيدة حيًا لاستخلفته(١).

فيا له من موقف عظيم لأبي عبيدة يلقِّن فيه الدنيا كلها درسًا عظيمًا ليعلموا أن الولاء إنما يكون لله ولرسول الله ﷺ وللمؤمنين، وأن البراء لابد أن يكون من أعداء الله ـ جل وعلا ـ.

فقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ [المائدة:٥٥].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة:٢٤].

* * *

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٢٩).

دفاعه عن النبي ﷺ يوم (أحد)

وفي يوم (أُحُد) لما عصى الرُماة أمر رسول الله ﷺ فانكشف المسلمون وأجهز عليهم المشركون ، فأصابوا منهم مَن أصابوا ، وكان يوم بلاء وتمحيص أكرم الله فيه من أكرم من المسلمين بالشهادة حتى خلص العدو إلى رسولَ الله ﷺ وأرادوا قتله والتمثيل بجثته.

عن أنس بن مالك، قال: كُسرت رباعية النبي ﷺ يوم أُحد، وشُجَّ في وجهه، فجعل الدمُ يسيل على وجهه، وجعل يمسح الدم وهو يقول: «كيف يُفلح قومٌ خضَّبوا وجه نبيهم، وهو يدعوهم إلى ربهم!» فأنزل الله ـ عز وجل ـ في ذلك: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ [آل عمران:١٢٨][(١)].

وكانت أحرج ساعة بالنسبة إلى حياة رسول الله ﷺ وفرصة ذهبية بالنسبة إلى المشركين، ولم يتوان المشركون في انتهاز تلك الفرصة، فقد ركزوا حملتهم على النبي ﷺ وطمعوا في القضاء عليه، رماه عتبة ابن أبي وقاص بالحجارة فوقع لشقِّه، وأصيبت رباعيته اليمنى السفلى، وكلمت شفته السفلى، وتقدم إليه عبد الله بن شهَاب الزهري، فشجه في جبهته. وجاء فارس عنيد هو (عبد الله بن قمئة) فضرب على عاتقه بالسيف ضربة عنيفة، شكا لأجلها أكثر من شهر، إلا أنه لم يتمكن من هتك الدرعين، ثم ضرب على وجنته ﷺ ضربة أخرى عنيفة كالأولى، حتى دخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته، وقال: خذها وأنا ابن قمئة، فقال رسول الله ﷺ له، وهو يمسح الدم عن وجهه: «أقمأك الله»[(٢)].

وكان أبو عبيدة ـ رضي الله عنه ـ ممن ثبتوا مع النبي ﷺ وأبلى يوم أُحُد بلاءً حسنًا، ونزع يومئذ الحلقتين اللتين دخلتا من المِغْفَر في وجنة رسول الله ﷺ من ضَربة أصابته، فانقلعت ثنيَّتاه، فحسُن ثغرُه بذهابهما، حتى قيل: ما رُؤى هتْمٌ قطُّ أحسنُ من هتم أبي عبيدة[(٣)].

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٧/ ٤٢٢) معلقًا.

(٢) وقد سمع الله دعاء رسول الله ﷺ، فعند ابن عائذ في «المغازي» أن ابن قمئة انصرف إلى أهله، فخرج إلى غنمه، فوافاها على ذروة جبل، فدخل فيها، فشد عليه تيسها فنطحه نطحة أرداه من شاهق الجبل فتقطع (فتح الباري [٧/ ٣٦٦، ٣٧٣]).

(٣) الطبقات (٣/ ١/ ٢٩٨) ـ الاستيعاب (٥/ ٢٩٢) ـ المستدرك (٣/ ٢٦٦).

فانظر ـ رحمك الله ـ كيف بلغ الأدب بأبى عبيدة.. لا ينزع حلقتى المغفر بيده لئلا يؤذى رسول الله ﷺ بل ينزعهما بفمه حتى سقطت ثنيتاه.

وظل أبو عبيدة ـ رضى الله عنه ـ يشهد المشاهد مع رسول الله ﷺ ويثبت ثبات الجبال، وهو يحمل إيمانًا لا تعصف به الرياح ولا تزعزعه الأعاصير.

وكان النبى ﷺ يحبه حبًا جمًا، بل ويفتخر به كل الفخر.

عن عبد الله قال: سألتُ عائشة: أىُّ أصحاب رسول الله ﷺ كان أحبَّ إليه؟ قالت: أبو بكر، ثم عمر، ثم أبو عبيدة بن الجراح[1].

بل قال ﷺ: «.... نِعم الرجل أبو عبيدة بن الجراح»[2].

سرية (ذات السلاسل) وعدم حرصه على الإمارة

ولقد ظهر تواضعه ـ رضى الله عنه ـ وعدم حرصه على الإمارة فى تلك السرية ـ ذات السلاسل ـ ولا أقصد بذلك أنه لم يتواضع فى غيرها، ولكن الموقف هنا كان يدعونا للوقوف أمامه لنتعلم هذا الدرس العظيم ألا وهو: أن المؤمن عليه أن يعمل لخدمة دينه وإن لم يكن ظاهرًا أمام الناس، وذلك لأنه لابد أن يبتغى بعمله هذا وجه الله تعالى.

لقد بعث الحبيب ﷺ عمرو بن العاص إلى أرض «بَلِىّ» و«عذرة» ليدعو الناس إلى الإسلام، وكانت أم عمرو من «بَلِىّ» فتألفهم بذلك رسول الله ﷺ فسار عمرو حتى إذا كان على ماء بأرض جُذَام، يُقال له السلسل، وبذلك سميت تلك الغزوة، غزوة ذات السلاسل؛ فلما كان عليه خاف فبعث إلى رسول الله ﷺ يستمدُّه ـ يطلب مددًا ـ فبعث إليه رسول الله ﷺ أبا عبيدة بن الجرّاح فى المهاجرين الأولين، فيهم أبو بكر وعمر؛ وقال

---

(١) أخرجه الترمذى (٣٦٥٧) فى المناقب، وابن ماجه (١٠٢) فى المقدمة: باب فضل عمر. ورجاله ثقات. وأخرجه الحاكم (٣/ ٧٣) وأبو يعلى الموصلى فى مسنده، كما فى الإصابة (٥/ ٢٨٧) من طريق: كهمس، عن عبد الله بن شقيق قال: قلت لعائشة... وصححه الحاكم، ووافقه الذهبى. وأخرجه البخارى (٣٦٦٢) فى فضائل الصحابة: باب قول النبى ﷺ: لو كنت متخذًا خليلاً، و(٤٣٥٨) فى المغازى: باب غزوة ذات السلاسل، من حديث عمرو بن العاص، أن النبى ﷺ بعثه على جيش ذات السلاسل، قال: فأتيته، فقلت: أىّ الناس أحب إليك؟ قال: عائشة. قلت: من الرجال؟ قال: أبوها. قلت: ثم من؟ قال: ثم عمر بن الخطاب، فعدّ رجالاً.

(٢) صحيح سنن الترمذى (٢٩٥٩) ـ الصحيحة (٢/ ٩٦٢) للشيخ الألبانى.

لأبي عبيدة حين وجَّهه: «لا تختلفا»؛ فخرج أبو عبيدة حتى إذا قَدِم عليه، قال له عمرو: إنما جئت مددًا لي، قال أبو عبيدة: لا، ولكني على ما أنا عليه، وأنت على ما أنت عليه، وكان أبو عبيدة رجلاً لينًا سهلاً، هينًا عليه أمر الدنيا فقال له عمرو : بل أنت مددٌ لي، فقال أبو عبيدة : يا عمرو ، إن رسول الله ﷺ قال لي: «لا تختلفا»، وإنك إن عصيتني أطعتُك، قال: فإني الأمير عليك، وأنت مددٌ لي، قال: فدونك، فصلَّى عمرو بالناس[(١)].

سرية أبي عبيدة إلى سيف البحر.. والرزق الذي ساقه الله إليهم

عن عُبادة بن الصامت، قال: بعث رسول الله ﷺ سرية إلى سيف البحر. عليهم أبو عبيدة بن الجراح، وزودهم جرابًا من تمر، فجعل يقُوتهم إياه، حتى صار إلى أن يعده عليهم عددًا، قال: ثم نفد التمر، حتى كان يعطي كلَّ رجل منهم كل يوم تمرة. قال: فقسم يومًا بيننا. قال:فنقصت تمرةٌ عن رجل، فوجدنا فقدها ذلك اليوم، قال: فلما جهدنا الجوع أخرج الله لنا دابة من البحر، فأصبنا من لحمها وودكها، وأقمنا عليها عشرين ليلة، حتى سمنَّا وابتللنا، وأخذ أميرنا ضلعًا من أضلاعها، فوضعها على طريقه، ثم أمر بأجسم بعير معنا، فحمل عليه أجسم رجل منا. قال: فجلس عليه. قال: فخرج من تحتها وما مست رأسه. قال: فلما قدمنا على رسول الله ﷺ أخبرناه خبرها، وسألناه عما صنعنا في ذلك من أكلنا إياه، فقال: «رزقٌ رزقكموه الله»[(٢)].

هذا أمين هذه الأمة

ولما جاء وفد نجران إلى الحبيب ﷺ كانت هناك منقبة عظيمة لأبي عبيدة ـ رضي الله عنه ـ..

فإنه لما نزل الوفد بالمدينة، ولقي النبي ﷺ سألهم وسألوه، ثم دعاهم إلى الإسلام وتلا عليهم القرآن فامتنعوا، وسألوه عما يقول في عيسى ـ عليه السلام ـ فمكث رسول الله

(١) أخرجه البيهقي في الدلائل (٤/ ٣٩٩، ٤٠٠) وذكره ابن حجر العسقلاني في الفتح (٧/ ٦٧٤) ومال إلى تحسينه، وللحديث شاهد عند البخاري ومسلم في إرسال عمرو بن العاص في هذه الغزوة أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة (٧/ ٣٦٦٢، ٤٣٥٨/ فتح) ومسلم في فضائل الصحابة (٤/ ٨/ ١٨٥٦).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب «الصيد» باب «إباحة ميتة البحر» (٣/ ١٥٣٥/ ١٧، ١٨) بلفظ «هو رزق أخرجه الله لكم فهل معكم من لحمه شيء تطعمونا» وأحمد في «مسنده» (٣/ ٣١١).

ﷺ يومه ذلك حتى نزل عليه:

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران:٥٩:٦١].

ولما أصبح رسول الله ﷺ أخبرهم بقوله في عيسى بن مريم في ضوء هذه الآية الكريمة، وتركهم ذلك اليوم؛ ليفكروا في أمرهم، فأبوا أن يقروا بما قال في عيسى، فلما أصبحوا وقد أبوا عن قبول ما عرض عليهم من قوله في عيسى، وأبوا عن الإسلام دعاهم رسول الله ﷺ إلى المباهلة، وأقبل مشتملاً على الحسن والحسين في خميل له، وفاطمة تمشي عند ظهره، فلما رأوا منه الجد والتهيؤ خَلَوا وتشاوروا، فقال كل من العاقب والسيد للآخر: لا تفعل فوالله لئن كان نبيًا فلاعننا لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا، فلا يبقى على وجه الأرض منا شعرة ولا ظفر إلا هلك ، ثم اجتمع رأيهم على تحكيم رسول الله ﷺ في أمرهم ، فجاءوا وقالوا: إنا نعطيك ما سألتنا ، فقبل رسول الله ﷺ منهم الجزية، وصالحهم على ألفي حُلة، ألف في رجب، وألف في صفر، ومع كل حلة أوقية، وأعطاهم ذمة الله وذمة رسوله، وترك لهم الحرية الكاملة في دينهم، وكتب لهم بذلك كتابًا، وطلبوا منه أن يبعث عليهم رجلاً أمينًا، فبعث عليهم أمين هذه الأمة أبا عبيدة بن الجراح؛ ليقبض مال الصلح[1].

وفي رواية: قالوا: إنا نعطيك ما سألتنا وابعث معنا رجلاً أمينًا، ولا تبعث معنا إلا أمينًا. فقال: لأبعثن معكم رجلاً أمينًا حق أمين، فاستشرف له أصحاب رسول الله ﷺ فقال : قم يا أبا عبيدة بن الجراح فلما قام قال رسول الله ﷺ: «هذا أمين هذه الأمة»[2].

صور مشرقة من جهاده في سبيل الله تعالى

وظل أبو عبيدة ملازمًا للعبادة والطاعة والدعوة إلى الله تعالى.. بل وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ حتى توفي رسول الله ﷺ وهو عنه راضٍ.

«وكما عاش أبو عبيدة مع الرسول ﷺ أمينًا، عاش بعد وفاة الرسول ﷺ أمينًا...

(١) أخرجه البخاري (٤٣٨٠) ـ ومسلم (٥٥) (٢٤٢٠).

(٢) أخرجه البخاري (٧/ ٦٩٥) المغازي.

يحمل مسئولياته فى أمانة تكفى أهل الأرض لو اغترفوا منها جميعًا»[1].

ولو لم يكن له إلا موقفه فى سقيفة بنى ساعدة لكفاه، وهو يجمع شمل المسلمين على أبى بكر.

ولقد سار تحت راية الإسلام أنَّى سارت جنديًا، كأنه بفضله وبإقدامه الأمير.. وأميرًا كأنه بتواضعه وبإخلاصه واحدًا من عامة المقاتلين.

ولاه أبو بكر القيادة العامة فى أرض الشام، فاستعفاه أبو عبيدة من ذلك، ولكن أبا بكر أصرَّ على رأيه، فلما تحرّج موقف المسلمين فى أرض الشام واجتمعوا باليرموك، ولّى أبو بكر خالدًا منصب القيادة العامة فى الشام بدلاً من أبى عبيدة الذى بقى على جند (حمص)، ولكن عمر بن الخطاب أعاده إلى منصب القيادة العامة بعد وفاة أبى بكر، وكان يقول عنه: «لا أمير على أبى عبيدة».

وصيّر خالدًا موضع أبى عبيدة، وذلك فى أثناء حصارهم لدمشق، الذى لم يتم فتح دمشق فيه، وكتم أبو عبيدة هذا الخبر فى نفسه، طاويًا عليه صدر زاهد فطن، أمين.... حتى انتهت المعركة. وعلم خالد بأمر عزله، فأقبل حتى دخل على أبى عبيدة، فقال: «يغفر الله لك، أتاك كتاب أمير المؤمنين بالولاية فلم تُعلمنى، وأنت تصلى خلفى، والسلطان سلطانك؟!» فقال أبو عبيدة: «وأنت يغفر الله لك، ما كنت لأُعلمك ذلك حتى تعلمه من عند غيرى، وما كنتُ لأكسر عليك حربك حتى ينقضى ذلك كله، ثم قد كنتُ أُعلمك إن شاء الله، وما سلطان الدنيا أريد، وما للدنيا أعمل، وإنَّ ما ترى سيصير إلى زوال وانقطاع، وإنما نحن إخوانٌ وقوامٌ بأمر الله ـ عز وجل ـ وما يضرّ الرجل أن يلى عليه أخوه فى دينه ولا دنياه، بل يعلم الوالى أنه يكاد أن يكون أدناهما إلى الفتنة وأوقعهما فى الخطيئة؛ لما يعرض من الهلكة إلا من عصم الله ـ عز وجل ـ وقليل ما هم».

لمثل هذا كان الأمراء والفرسان يؤثرون قيادته على قيادة غيره.

فهذا خالد بن سعيد يتجهز بأفضل العُدَّة ويأتى لأبى بكر قائلاً له ولمن كان عنده: «إنى أشهدكم أنى وإخوتى وفتيانى ومن أطاعنى من أهلى حبيس فى سبيل الله، نقاتل المشركين أبدًا حتى يُهلكهم الله أو نموت عن آخرنا» وينضم إلى جيش أبى عبيدة، ولا ينضم إلى جيش ابن عمه يزيد بن أبى سفيان، ولما يُسأل عن ذلك يقول: «ابن عمى أحبُّ

(١) رجال حول الرسول ﷺ (ص: ٢٦٢).

إلىّ من هذا فى قرابته، وهذا أحب إلىّ من ابن عمى فى دينه، هذا كان أخى فى دينى على عهد رسول الله ﷺ وولىٍّ وناصرى على ابن عمى قبل اليوم، وأنا أشدُّ استئناساً إليه وأشد طمأنينة منى بغيره».

ويفضله هاشم بن عتبة على يزيد.

ويصبح أبو عبيدة أمير الأمراء بالشام.. ويصير تحت إمرته أكثر جيوش الإسلام طولاً وعرضًا.. عتاداً وعدداً.. وحين ترامى إلى سمعه أحاديث أهل الشام عنه، وانبهارهم بأمير الأمراء هذا؛ قام فيهم خطيبًا، فقال لمن يُفتنون بقوته، وعظمته وأمانته: «يا أيها الناس.. إنى مسلم من قريش.. وما منكم من أحد ـ أحمر ولا أسود ـ يفضلنى بتقوى إلا وددتُ أنى فى إهابه،أو مسلاخه» ـ يعنى فى جلده ـ.

حياك الله يا أبا عبيدة.. وحيّا الله دينًا أنجبك، ورسولاً علّمك.

و«لئن كانت شهرة خالد بن الوليد الحربية سبقته إلى أهل الردة وإلى العراق وإلى الشام، فتحدث عنها العدو والصديق، فإن شهرة أبى عبيدة فى الحلْم والرِّفق، وسعة الصدر، والأمانة والصدق، وحُب السلام، قد سبقته كذلك إلى أهل الشام؛ لذلك أحبوه ويسروا له مهمته، وكان من أثر ذلك أن كثر تسليم مدن الشام له صلحًا، وبذلك حُقنت كثيرٌ من الدماء، واطمأنت كثيرٌ من النفوس.

لقد كان أبو عبيدة قائداً مكيثًا، والحرب لا يُصلحها إلا الرجل المكيثُ، كما يقول عمر بن الخطاب[1]. وكان قائداً مُتبعًا يتلقى الأوامر وينفِّذُها بكل أمانة وإخلاص، وقد بقى بعد معركة اليرموك فى موضعه لا يبرحه حتى أتاه رأى عمر وأمرُه[2]؛ وهذا دليلٌ على شدة ضبط أبى عبيدة، وإيمانه بضرورة إطاعة أوامر مرجعه الأعلى».

ولعل هناك من يأخذ على أبى عبيدة تريثه الشديد قبل الإقدام على خوض معركة من معاركه، ويرد على هذه الفرية كبار الفرسان، فقد بلغ معاذ ابن جبل أن بعض أهل الشام استعجز أبا عبيدة أيام حصار دمشق، ورجّح خالد ابن الوليد، فغضب مُعاذٌ وقال: أبأبى عبيدة يُظنُّ؟! والله إنه لمن خير من يمشى على الأرض»[3].

---

(١) الطبرى (٢/ ٦٣١).
(٢) الطبرى (١/ ٥٩٩).
(٣) الإصابة (٤/ ١٢).

ولقد كان ـ رضى الله عنه ـ من القادة الذين يستشيرون رجالهم فى كل خُطوة يخطونها، وعندما تحشّد الرومُ لاستعادة أرض الشام، استشار أصحابه، فأشار عليهِ الأكثرية بقبول الحصار فى (حمص) أما خالد فأشار عليه بالهجوم على جموع الروم، ولكن أبا عبيدة أخذ برأى الأكثرية.

وكان ـ رضى الله عنه ـ مهيبًا؛ مؤثرًا فى نفوس رجاله حين كان يتجوّل فى معسكراتهم وهو يقول: «ألا رُبَّ مبيِّضٍ لثيابه وهو مدنِّسٌ لدينه، ألا رُبَّ مكرم لنفسه وهو لها مهين غدًا! ادفعوا السيئات القديمات بالحسنات الحادثات»[1].

وعن زيد بن أسلم، عن أبيه قال: بلغ عمر أن أبا عبيدة حُصر بالشام، ونال منه العدو، فكتب إليه عمر: أما بعد، فإنه ما نزل بعبد مؤمن شدة، إلا جعل الله بعدها فرجًا، وإنه لا يغلب عُسر يُسرين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾ الآية [آل عمران:٢٠٠].

قال: فكتب إليه أبو عبيدة: أما بعد، فإن الله يقول: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد:٢٠]، قال: فخرج عمر بكتابه، فقرأه على المنبر فقال: يا أهل المدينة! إنما يُعرِّض بكم أبو عبيدة أو بى، ارغبوا فى الجهاد[2].

جهاده فى (فحل) وفتحها

لقد كانت لأبى عبيدة فكرة سوقية ـ استراتيجية ـ ممتازة، فقد بعث بعض القوات لمشاغلة قوات الروم فى «فحل»، بينما حاصر هو دمشق حتى فتحها، ثم قصد «فحل» بقواته كلها، ولولا ذلك لكان من المحتمل أن تتعاون القوتان المعاديتان فى «فحل» و«دمشق» على مقاومة المسلمين فى وقت واحد وفى مكان واحد.

كما أرسل خالدًا على رأس جيش؛ لضرب الجيش الرومى الذى كان متوجهًا إلى دمشق، مما أدى إلى فشل هذا الجيش فى مهمته؛ لأنه أصبح يقاتل فى جبهتين فى آن

(١) نقلاً من صلاح الأمة فى علو الهمة/ د. سيد حسين (ص: ٥١٠: ٥١٣) بتصرف.
(٢) أورده ابن المبارك فى «الجهاد» وقال الأرنؤوط: وإسناده قوى ورجاله ثقات ـ نقلاً من السير للإمام الذهبى (١/ ١٥ ـ ١٦).

واحد؛ من الأمام يقاتل جيش يزيد بن أبى سفيان، ومن الخلف يقاتل جيش خالد بن الوليد.

جهاده فى (اللاذقية) وفتحها

ولله دَرُّ القائد المكيث الذى يباغت قوات عدوه... وسلوا «اللاذقية» تُجبكم؛ فقد سار أبو عبيدة إلى «اللاذقية» وكان لها باب عظيم لا يمكن فتحه، إلا بجماعة كبيرة من الناس، فعسكر المسلمون على بُعد منها، ثم أمر فحُفرت حفائر عظيمة، تستر الحفرة منها الفارس راكبًا، ثم أظهر المسلمون أنهم عائدون عنها ورحلوا، فلما أظلم الليل عادوا واستتروا فى تلك الحفائر، وأصبح أهل اللاذقية وهم يرون أن المسلمين قد انصرفوا عنهم، فأخرجوا سرحهم وانتشروا بظاهر البلد، فلم يرُعهم إلا والمسلمون يصيحون بهم؛ ودخلوا معهم المدينة، ففتحوها عنوةً[1].

أمين الأمة والدعوة إلى الله

قام أبو عبيدة بن الجراح ـ رضى الله عنه ـ بدعوة الرُّوميين إلى الإسلام قبل بدء القتال معهم، فقد ذهب بنفسه، ومعه يزيد بن أبى سفيان وضرار بن الأزور والحارث بن هشام وأبو جندل بن سهيل ـ رضى الله عنهم ـ إلى القائد الرومى أخى الملك «تذراق» ودعوه إلى الله عز وجل، وكان ذلك قبل معركة اليرموك[2].

كما دعا أبو عبيدة ـ رضى الله عنه ـ الرسول الرومى الذى وفد إليه من قِبَل ماهان ـ وزير ملك الروم ـ طالبًا منه إرسال خالد بن الوليد ـ رضى الله عنه ـ إلى ماهان كى يتفاهم معه، وشرح الله صدره للإسلام، فاستجاب لدعوة أبى عبيدة ـ رضى الله عنه ـ وصاح: «اشهدوا علىّ بأجمعكم؛ أنى من المسلمين». ففرح المسلمون بإسلامه وصافحوه، ودعوا له بخير، وقالوا له: «ما أعزَّك علينا، وأرغبنا فيك، وأكرمك علينا! وما أنت عند كل امرئ منّا إلا بمنزلة أخيه لأمه وأبيه». قال الرومى: «فإنكم نعم ما رأيت»[3]. وكان هذا قبلَ معركة فحل.

---

(١) ابن الأثير (٢/ ١٩٠)، وفى البلاذرى ص١٣٧: أن الذى فتح اللاذقية هو عبادة بن الصامت. ولكنه بأمر أبى عبيدة ومشورته، أو تحت قيادته.

(٢) البداية والنهاية (٧/ ٩ ـ ١٠).

(٣) فتوح الشام للأزدى (ص ١٩٨) وكتاب الفتوح لابن أعثم (١/ ٢٣٨).

تجرد وإنصاف ونجاح باهر

ولقد كانت معارك التطهير، واستثمار فوز اليرموك أكبر المعارك التى أظهرت مقدرة أبى عبيدة الفذّة «فقد فضّل أبو عبيدة التخلى عن القيادة العامة فى معركة اليرموك الحاسمة لخالد بن الوليد، ولكن أبا عبيدة عاد إلى تولى القيادة العامة بعد اليرموك، فخاض معارك التطهير بنجاح باهر يكاد يعتبر معجزة عسكرية، إذا أدخلنا فى حسابنا تفوق الروم الساحق على المسلمين، وسرعة إنجاز الفتح، وقلة الخسائر بالأرواح التى ضحَّى بها المسلمون من أجل فتح البلاد كلها»[١].

لله دَرُّ أبى عبيدة... من قاهر للروم وما أدراك ما الروم... بنو الأصفر حدٌّ حديدٌ وركنٌ شديدٌ.

ومسك الختام فلسطين (إيلياء) ببيت المقدس

ومسك الختام فلسطين «إيلياء» بيت المقدس، حاصرها حتى طلب أهلها من أبى عبيدة أن يصالحهم على مثل ما صالح عليه أهل الشام، وأن يكون المتولى لعقد الصُلح عمر بن الخطاب، فكتب أبو عبيدة إلى عمر بذلك، فقدم عمر وفتح بيت المقدس.

تُرى ماذا يقول أبو عبيدة... لكأنى به ينادى من وراء الغيب: هل فتحنا فلسطين ليُسلمها أحفادنا لليهود؟ واحسرتاه! واأسفاه.

غيرتنا الدنيا كلنا غيرك يا أبا عبيدة

وها هو أبو عبيدة ـ رضى الله عنه ـ لا تستطيع الدنيا أن تصل إلى قلبه بحال من الأحوال.. فهو ـ إن كان ـ يعيش على الدنيا بجسده إلا أن روحه تسرح فى جنة الرحمن فهو لا يريد سواها.

يرسل إليه عمر بن الخطاب بأربعة آلاف درهم وأربعمائة دينار، وقال لرسوله: «انظر ما يصنع»، فقسّمها أبو عبيدة، فلما أخبر عمرَ رسولُه بما صنع أبو عبيدة بالمال، قال: «الحمد لله الذى جعل فى الإسلام من يصنع هذا!»[٢].

---

(١) قادة فتح الشام ومصر للواء الركن محمود شيت خطاب ص٨٠، دار الفكر.

(٢) طبقات ابن سعد (٣/ ٤١٣).

ولما قدم عمرُ الشامَ، تلقاه أمراءُ الأجناد وعظماءُ أهل الأرض، فقال عمر: «أين أخي؟» فقالوا: مَنْ؟ قال: «أبو عبيدة». قالوا: يأتيك الآن، فجاء على ناقة مخطومة بحبلٍ، فسلّم عليه، فقال عمر للناس: «انصرفوا عنا!»، وسار مع أبي عبيدة حتى منزله فنزلَ عليه، فلم يَرَ في بيته إلا سيفه وترسه، فقال عمر: «لو اتخذت متاعًا» ـ أو قال شيئًا ـ فقال أبو عبيدة: «يا أمير المؤمنين، إن هذا سيبلّغنا المقيل»[١].

وفي رواية أن عمر قال: «اذهب بنا إلى منزلك يا أبا عبيدة» فقال له: «وما تصنع عندي يا أمير المؤمنين؟ ما تريد إلا أن تعصر عينيك عليّ!». ودخل عمر فلم ير في البيت شيئًا، فقال: أين متاعُك؟ لا أرى إلا لبدًا، وصفحةً، وشنًا[٢]، وأنت أمير!، أعندك طعام؟ فقام أبو عبيدة إلى جونة[٣] فأخذ منها كُسيرات، فبكى عمر، فقال له أبو عبيدة: قلتُ لك: إنك ستعصرُ عينيك عليَّ يا أمير المؤمنين! يكفيك من الزاد ما بلَّغك المحل!! فقال عمر: «غيّرتنا الدنيا كلنا غيرك يا أبا عبيدة»![٤]

إيثار يفوق الخيال

روى مالك الدار قال: إن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أخذ أربعمائة دينار فجعلها في صُرَّةٍ، فقال للغلام: اذهب بها إلى أبي عبيدة ثم تَله ساعة في البيت حتى تنظر ما يصنع.

قال: فذهب بها الغلام فقال: يقول لك أمير المؤمنين اجعل هذه في بعض حاجتك. قال: وصله الله ورحمه، ثم قال: تعالي يا جارية: اذهبي بهذه السبعة إلى فلانٍ، وبهذه الخمسة إلى فلان... حتى أنفذها.

فرجع الغلام إلى عمر وأخبره، فوجده قد أعد مثلها لمعاذ بن جبل، فقال: اذهب بها إلى معاذ بن جبل، وتله في البيت ساعة، حتى تنظر ما يصنع.

فذهب بها إليه فقال: يقول لك أمير المؤمنين اجعل هذه في بعض حاجتك. فقال: رحمه الله ووصله: تعالي يا جارية اذهبي إلى بيت فلان بكذا، واذهبي إلى بيت فلان بكذا.

---

(١) الإصابة (٤/ ١٢) وأسد الغابة (٣/ ٨٦).

(٢) القربة الخلق.

(٣) السلة المستديرة.

(٤) نقلاً من صلاح الأمة/ د. سيد حسين (ص ٥١٤: ٥١٧) بتصرف.

فاطلعت امرأة معاذ فقالت: نحن والله مساكين فأعطنا، ولم يتبق فى الخرقة إلا ديناران فدحا بهما[١] إليها. فرجع الغلام إلى عمر فأخبره بذلك، فسُر بذلك وقالَ: إنهم إخوة بعضهم من بعض[٢].

وحان وقت الرحيل

عن الحارث بن عميرة قال: أخذ بيدى معاذ بن جبل فأرسله إلى أبى عبيدة فسأله كيف هو ـ وقد طُعنَّا ـ فأراه أبو عبيدة طعنة خرجت فى كفه، فتكاثر شأنها فى نفس الحارث، وفَرَق منهاَ ـ خاف منها ـ حين رآها، فأقسم أبو عبيدة بالله ما يحب أن له مكانها حُمر النَّعَم[٣].

وعن قيس بن مسلم، عن طارق أن عمر كتب إلى أبى عبيدة فى الطاعون: إنه قد عرضت لى حاجة ولا غنى بى عنك فيها فعجِّل إلىَّ، فلما قرأ الكتاب قال: عرفت حاجة أمير المؤمنين، إنه يريد أن يستبقى ما ليس بباق. فكتب: إنى قد عرفت حاجتك فحللنى من عزيمتك، فإنى فى جند من أجناد المسلمين لا أرغب بنفسى عنهم. فلما قرأ عمر الكتاب بكى، فقيل له: ماتَ أبو عبيدة؟ قال: لا، وكأن قَدْ؟

قال: فتوفى أبو عبيدة وانكشف الطاعون[٤].

وذات يوم، وأمير المؤمنين عمر الفاروق يُعالج ـ فى المدينة ـ شئون عالمه المسلم الواسع، جاءه الناعى، أن قد مات أبو عبيدة.

وأسبل الفاروق جفنيه على عينين غُصَّتا بالدموع... وغاض الدمع، ففتح عينيه فى استسلام... وترحّم على صاحبه، واستعاد ذكرياته معه ـ رضى الله عنه ـ فى حنان صابر...

* * *

---

(١) دَحَا بهما: أى رمى بهما.

(٢) صفة الصفوة (١/ ٤٩١)، وحلية الأولياء (١/ ٢٣٧)، سير أعلام النبلاء (١/ ٤٥٦).

(٣) رواه الطبرانى فى الكبير برقم (٣٦٤) والحاكم (٣/ ٢٦٣) ورجاله ثقات سوى شهر بن حوشب، فهو مختلف فيه.

(٤) سير أعلام النبلاء للذهبى (١/ ١٨ ـ ١٩).

أمنية عمرية

وها هو عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ يتمنى تلك الأمنية الغالية وقد امتلأ قلبه حزنًا على فراق إخوانه وأحبابه، فقال يومًا لمن حوله: تمنوا، فقال بعضهم: أتمنى لو أن هذه الدار مملوءة ذهبًا فأنفقه فى سبيل الله ثم قال : تمنوا، فقال رجل: أتمنى لو أنها مملوءة لؤلؤًا أو زبرجدًا أو جوهرًا، فأنفقه فى سبيل الله وأتصدق، ثم قال عمر: تمنوا، فقالوا: ما ندرى يا أمير المؤمنين، قال عمر: أتمنى، لو أنها مملوءة رجالاً مثل أبى عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل وسالم مولى أبى حذيفة وحذيفة بن اليمان(١).

ومات أمين الأمة فوق الأرض التى طهرها من وثنية الفرس، واضطهاد الرومان...

وهناك اليوم تحت ثرى الأُردُن يثوى رفات نبيل، كان مستقرًا لروح خير، ونفس مطمئنة...

وسواءٌ عليه ـ وعليكَ ـ أن يكون قبره اليوم معروفًا أو غير معروف...

فإنك إذا أردت أن تبلغه لن تكون بحاجة إلى من يقودك إليه..

ذلك أنَّ عبير رُفاته، سيدلُّك عليه..!!(٢)

فرضى الله عن أبى عبيدة وعن سائر الصحابة أجمعين

* * *

---

(١) رواه الحاكم فى المستدرك (٣/ ٢٢٦) وصححه ووافقه الذهبى.

(٢) رجال حول الرسول ﷺ (ص: ٣١٠).



صهيب الرومي

ربح البيع أبا يحيى

محمد رسول الله ﷺ

نشأ صهيب فى بيئة مترفة يخيم عليها النعيم والسعادة، فقد كان أبوه حاكم «الأُبلّة» وعاملاً عليها لكسرى. وكان يعيش معه ابنه صهيب فى القصر الذى يطل على شاطئ الفرات مما يلى الجزيرة والموصل. وكان أبوه من بنى نمير وأمه من بنى تميم، ولكنه سُمى بصهيب الرومى؛ لأنه عاش زمانًا طويلاً فى بلاد الروم.

من النعيم إلى الأسر

وبينما صهيب يعيش فى تلك السعادة ويرفل فى ذاك النعيم، وإذا بأمه تخرج به للنزهة ومعها الحَشَم والخدم إلى قرية «الثَّنِىّ» من أرض العراق، وإذا بالبلاد تتعرض لهجوم الروم، فقتلت الحُراس ونهبت الأموال، وأسرت الذرارى، وكان من جملة من أسرَتهم (صهيب).

ويباع صهيب فى أسواق الرقيق، وظل يتنقل من مكان إلى مكان، ومن خدمة سيد إلى خدمة سيد آخر إلى أن انتهى به التطواف إلى مكة المكرمة.

قيل اشتراه عبد الله بن جدعان وأعتقه.. وقيل: بل هرب صهيب من رق أسياده إلى مكة المكرمة، وحالف عبد الله بن جدعان، وظل يعمل معه فى التجارة إلى أن أصبح عنده ثروة كبيرة.

حنينه إلى الإسلام

وظل صهيب يترقب ظهور النبى ﷺ وبخاصة بعد أن سمع كاهنًا من كهنة النصارى وهو يقول لسيد من أسياده: لقد أطلّ زمان يخرج فيه من مكة فى جزيرة العرب نبى يصدق رسالة عيسى بن مريم ويُخرج الناس من الظلمات إلى النور.

فلما وصل صهيب إلى مكة واشتغل بالتجارة وامتلك ثروة كبيرة ظل قلبه يتطلع لأعظم ثروة ألا وهى نعمة الإسلام. ولم يلبث إلا قليلاً حتى سمع بمبعث النبى ﷺ فكان من المسارعين إلى الإسلام.

قصة إسلامه

* وذاتَ يوم، سرى همسٌ فى مكة أنَّ محمَّدًا بن عبد الله يدعو إلى دين جديد، دين يدعو إلى عبادة إله واحد، ونَبْذ جميع الأصنام حتى اللات والعُزّى وهُبَل؛ ومضتْ أيام أُخَر، فإذا بالهمس يتعالى أكثر، وتتضحُ الرؤيا وتظهر معالم الدعوة إلى الإسلام جَلِيَّة، وأخذ الحقُّ طريقه إلى نفسِ صهيب، فراحَ يتساءل: إلامَ يدعو محمد؟ ويأتيه الجواب من الواقع: إنّه يدعو إلى التحرر منْ عبودية الأصنام، يدعو إلى التراحم والمساواة، إلى العدل، إلى الخروج مِنَ الظلماتِ إلى النور.

* وذات صباح، قبل أنْ تدبَّ الحياة في مكة، وقبل أنْ يخرجَ الناس من دورهم، كان صهيب قد يمَّمَ وجهه إلى دار «الأرقم بن أبى الأرقم»[1].

مضى صهيبٌ إلى دار الأرقم حَذِرًا يتلفت، فلما بلغها وجد عند الباب عمار بن ياسر، وكان يعرفه من قبل، فتردد لحظةً ثم دنا منه وقال: ما تُريدُ يا عمار؟. فقال عمار: بل ما تريد أنت؟. فقال صهيبٌ: أردت أن أدخل على هذا الرجل، فأسمع منه ما يقول. فقال عمار: وأنا أُريد ذلك أيضًا. فقال صهيبٌ: إذن ندخل معًا على بركة الله.

دخل صهيب بن سنان الرومى، وعمار بن ياسر على رسول الله ﷺ واستمعا إلى ما يقول، فأشرق نور الإيمان فى صدريهما، وتسابقا فى مد أيديهما إليه، وشهدا أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمدًا عبده ورسوله، وأمضيا سحابة يومهما عنده ينهلان من هَديه وينعمان بصحبته.

ولما أقبل الليل، وهدأت الحركة، خرجا من عنده تحت جُنح الظلام، وقد حمل كل منهما من النور فى صدره ما يكفى لإضاءة الدنيا بأسرها[2].

* * *

(١) رجال مبشرون بالجنة (ص: ٤٥٠ ـ ٤٥١).

(٢) صور من حياة الصحابة (ص: ٢٠١ ـ ٢٠٢).

تحمل الأذى في سبيل الله

* بدأت الحياة عند صهيب من جديد، فقد شعر أنَّه وُلدَ يوم دخل بيت الأرقم، وشهد أنْ لاَ إله إلا لله وأنَّ محمداً رسول الله، أحسَّ أنَّه وصل إلى هدفه المنشود، وسرعان ما تلاشت صور حياته الماضية وتفاهتها من ذاكرته، فقد أضحتْ حياته ذات عمق ومغزى، وأخذ نور الإيمان يسطعُ من وجهه، وكلمة التوحيد تنيرُ له الدرب. وعندما أخذ صوت الإسلام يعلو ويرتفع، قرَّر المشركون محاربةَ الإسلام، وإيذاء جميع الداخلين يه، واشتدَّ غضبُ قريش حينما رأتْ هؤلاء المستضعفين يدخلون في دين الله أفواجًا، فلم يجدوا مُتنفَّسًا لغيظهم إلا أنْ يثوروا بالضعفاء الذين أسلموا واتَّبعوا محمداً ﷺ (١).

عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: أول من أظهر الإسلام سبعة: رسول الله ﷺ ، وأبو بكر، وعمَّار، وأُمُّهُ سُمية، وصهيب، وبلال، والمقداد ـ رضي الله عنهم ـ فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمه، وأما أبو بكر منعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم أدرع الحديد، وصهروهم في الشمس، فما منهم من أحد إلا وقد أتاهم على ما أرادوا إلا بلالاً، فإنه هانت عليه نفسه في الله، وهان على قومه، فأخذوه فأعطوه الولدان فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة، وهو يقول: أحدٌ أحدٌ(٢).

فصبر صهيب على هذا الأذى راضيًا بقضاء الله تعالى راغبًا فيما عند الله مستعذبًا هذا العذاب في سبيل الله فهو يعلم أن طريق الجنة محفوف بالمكاره.

* * *

ربح البيع أبا يحيى

وتأتي الهجرة المباركة ويهاجر النبي ﷺ وصاحبه، وتتوق نفس صهيب إلى الهجرة، فاعترضته قريش فضحَّى بماله كله من أجل أن يتركوه ليلحق بالنبي ﷺ وأبي بكر، ففاز بأعظم جائزة فقد أنزل الله فيه قرآنًا يُتلى إلى يوم القيامة، وقال له الحبيب ﷺ: ربح البيع

(١) رجال مبشرون بالجنة (ص:٤٥١).
(٢) رواه الحاكم (٣/ ٢٨٤) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي: صحيح، ورواه أبو نعيم في الحلية (١/ ١٤٩) وابن عبد البر في الاستيعاب.

أبا يحيى.

وها هي قصته التي تُثلج الصدر: لما خرج صهيب مهاجراً تبعه أهل مكة فنثل كنانته فأخرج منها أربعين سهمًا فقال: لا تصلون إليَّ حتى أضع في كل رجل منكم سهمًا، ثم أصير بعد إلى السيف فتعلمون أني رجل، وقد خلَّفت بمكة قينتين فهما لكم.

ونزلت على النبي ﷺ: ﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله﴾ فلما رآه النبي ﷺ قال: «أبا يحيى ربح البيع» قال: وتلا عليه الآية(١).

وعن أبي عثمان: أن صهيبًا حين أراد الهجرة، قال له أهل مكة: أتيتنا صُعلوكًا حقيراً، فتغيَّر حالُك! قال: أرأيتم إن تركت مالي، أمُخلُّون أنتم سبيلي؟ قالوا: نعم. فخلع لهم ماله. فبلغ ذلك النبي ﷺ، فقال: «ربح صهيب! ربح صهيب»!(٢).

وعن صهيب، قال: قال رسول الله ﷺ: أُريتُ دار هجرتكم سبخة بين ظهراني حرة! فإما أن تكون هَجَر، أو يثرب.

قال: وخرج رسول الله ﷺ إلى المدينة، وقد كنت هممت بالخروج معه، فصدَّني فتيانٌ من قريش، فجعلت ليلتي تلك أقوم لا أقعد، فقالوا: قد شغله الله عنكم ببطنه ـ ولم أكن شاكيًا ـ فناموا، فذهبت، فلحقني ناسٌ منهم على بريد. فقلت لهم: أُعطيكم أواقي من ذهب وتُخلُّوني؟ ففعلوا، فقلت: احفروا تحت أُسكفة الباب تجدوها، وخُذُوا من فلانة الحُلتين. وخرجت حتى قدمت على رسول الله ﷺ قُباء فلما رآني، قال: «يا أبا يحيى، ربح البيع»! ثلاثًا. فقلتُ: ما أخبرك إلا جبريل(٣).

وتالله إن الدنيا بكل ما فيها من زُخرف وزينة ومتاع لا تساوي أبدًا قول النبي ﷺ لصهيب: ربح البيع أبا يحيى.. ربح البيع أبا يحيى.

باقة من صفاته العطرة

* تطالعُنا كتب السيرة بوصف موجز لشخصية صهيب رضي الله عنه، فقد كان رجلاً أحْمر شديد الحمرة، كثي شَعْر الرأس، متوسِّط الطول، في لسانه لُكْنة لمكثه مدةً طويلة عند الروم، وكان حسنَ الشكل والثياب، حلو الشمائل، يحب الدعابة والمَرَح،

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٣/ ٣٩٨) وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يُخرجاه.

(٢) قال الأرنؤوط: أخرجه ابن سعد (٣/ ٢٢٧ ـ ٢٢٨) ورجاله ثقات.

(٣) البداية والنهاية لابن كثير (٣/ ١٧٢).

فَطِنًا حاضرَ البديهة.

* وكان صهيب رضى الله عنه كريمَ النفس سخىَّ اليد، ولا عجبَ فى ذلك، فهو ابن أمير، وحالف أحد الأجواد وهو «عبد الله بن جدعان» ثم علَّمه الإسلام الإنفاقَ(١).

خفة ظله

وكان صهيب ـ رضى الله عنه ـ يتمتع بخفة الظل التى تجعل الإنسان لا يملّ أبدًا من صحبته، بل يشتاق لمجالسته فى كل وقت وحين.

فعن صهيب قال: قدمتُ على رسول الله ﷺ قُباء، وقد رَمدتُ فى الطريق وجُعتُ، وبين يديه رُطبٌ، فوقعت فيه. فقال عمر: يا رسول الله: ألا ترى صهيبًا يأكل الرُطَب وهو أرمد؟ فقال النبى ﷺ لى ذلك. قلت: إنما آكل على شق عينى الصحيحة. فتبسم.

وفى رواية أخرى: عن صهيب قال: قدمت على النبى ﷺ، وبين يديه خبز وتمر. فقال النبى ﷺ: «ادن فكل» فأخذت آكل من التمر، فقال النبى ﷺ: «تأكل تمرًا وبك رمد»؟ قال: فقلت: إنى أمضغ من ناحية أخرى، فتبسم رسول الله ﷺ (٢).

جهاده فى سبيل الله

لقد كان صهيب من كبار السابقين البدريين.

يقول صهيب عن نفسه: لم يشهد رسول الله ﷺ مشهدًا قط إلا كنت حاضره، ولم يبايع بيعة إلا كنت حاضرها، ولم يسر سرية قط إلا كنت حاضرها ، ولا غزا غزاة قط أول الزمان وآخره إلا كنت فيها عن يمينه أو عن شماله ، وما خافوا أمامهم قط إلا كنت أمامهم ، ولا ما وراءهم إلا كنت وراءهم، وما جعلت رسول الله ﷺ بينى وبين العدو قط حتى توفى رسول الله ﷺ (٣).

* * *

(١) رجال مبشرون بالجنة (ص:٤٥٨).
(٢) أخرجه ابن سعد فى الطبقات (٣/ ٢٢٨) وابن ماجه فى الطب (٣٤٤٣). وقال البوصيرى فى الزوائد (٢/ ٢١٣) إسناده صحيح ورجاله ثقات.
(٣) صفة الصفوة (١/ ١٧٧).

مكانته عند الله وعند رسوله ﷺ

* كانت مكانةُ صهيب تزدادُ فى نفس الرسول ﷺ ، فقد كان دائمًا بجوارِ النبى، لا يتخلفُ عنه أبدًا، ويحرصُ الحرص كلّه على أنْ ينال رضاء النبى ﷺ ، وكان من السابقين إلى الإسلام؛ وكان الرسول ﷺ ينظر إلى صهيب والمستضعفين نظرةَ إكبار واحترام؛ فهؤلاء فى ميزان الإسلام أفضلُ من السادة الكفار[١].

وإذا أردنا دليلاً على ذلك فما علينا إلا أن نتأمل هذا الحديث.

فعن عائذ بن عمرو، أن أبا سفيان أتى على سلمان وصهيبِ وبلال فى نفر فقالوا: والله ما أخذت سيوف الله من عنق عدو الله مأخذها. قال: فقال أبو بكر: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم؟ فأتى النبى ﷺ فأخبره فقال: «يا أبا بكر لعلك أغضبتهم لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك» فأتاهم أبو بكر فقال: يا إخوتاه أغضبتكم؟ قالوا: لا. يغفر الله لك يا أُخَىّ[٢].

مكانته فى قلوب الصحابة (رضى الله عنهم)

* توفى رسولُ الله ﷺ وهو راضٍ عن صهيب، ثم جاء خليفته أبو بكر الصّديق، فكان رجل الإسلام الذى أبطلَ الشركَ وحارب المرتدين، ونصحَ الأمة، وعملَ للإسلام وأهله، وقد عاشَ صهيب رضى الله عنه فى كنَف الصّديق يُؤدى ما عليه منْ واجبات، وكان أبو بكر رضى الله عنه يعرفُ لصهيب مكانَتَه عند رسول الله ﷺ ، وهو الحريصُ على احترامِه واحترامِ المستضعفين أمثاله.

* وفى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه، كانتْ لصهيب مكانة عظمى، لا تقلُّ عن المكانة ذاتها فى حياة الصديق، فقد كان عُمَر محبًا لصهيب أشدَّ الحبِّ، فكثيرًا ما كان صهيب موضعَ استشارة عمر فى مسائل الدين أو الغزوات، أو يكون رسوله لإنجازِ بعض الأمور المتعلقة بالمسلمين[٣].

وذات يوم قال عمر ـ رضى الله عنه ـ لصهيب:«يا صهيب مالك تُكَنّى أبا يحيى

(١) رجال مبشرون بالجنة (ص:٤٥٩).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٠٤) وأحمد (٥/ ٦٤) والنسائى فى فضائل الصحابة (١٧٢).

(٣) رجال مبشرون بالجنة (ص:٤٦٠ ـ ٤٦١) بتصرف.

وليس لك ولد، وتقول: إنك من العرب وأنت رجل من الروم، وتُطعم الطعام الكثير وذلك سرف فى المال؟» فقال صهيب ـ رضى الله عنه ـ: «إن رسول الله ﷺ كنّانى أبا يحيى. وأما عن قولك فى النسب وادعائى إلى العرب، فإنى رجل من النمر بن قاسط من أهل الموصل، ولكن سُبيت، سبتنى الروم غلامًا صغيرًا بعد أن عقلتُ أهلى وقومى وعرفت نسبى. وأما قولك فى الطعام وإسرافى فيه فإن رسول الله ﷺ كان يقول: «إن خياركم مَنْ أطعم الطعام ورد السلام» فذلك الذى يحملنى على أن أطعم الطعام»[1].

* ولما طُعن عمر بن الخطاب لم ينسَ قدر ومكانة صهيب حتى فى تلك اللحظات العصيبة فاستناب صهيبًا لكى يصلى بالمسلمين إلى أن يتفق أهل الشورى على إمام.

إنها لشهادة عظيمة من الفاروق عمر (رضى الله عنه) لصهيب، فقد كان يُقَالُ: صلى عمر على أبى بكر عندما توفىَ، وصلى صَهيب على عمر، وبلغ من مكانة صهيب أيضًا أَنَّه نَزَلَ فى قبرِ عمر مع عثمان بن عفان وسعيد بن زيد وعبد الله بن عمر.

* وظلَّ صهيب رضى الله عنه يحتلُّ مكانة عظيمة فى خلافة سيدنا عثمان، ينال احترام الخليفة، والمسلمين، ويبذل كل ما يملك فى سبيل الله[2].

وحان وقت الرحيل

* بقى صهيب رضى الله عنه يقضى حياته فى الجهاد والعمل الصالح، يجاهدُ بنفسه وماله ابتغاءَ مرضاة الله إلى أنْ أربَى عمره علَى السبعين، وحتى رأى أنَّ الله قد أعزَّ جُنْدَه ونصرَ دينه، وَأتمَّ نعمته على المؤمنين، فحُطمتْ قلاع الكفر وحصونُ البغى فى بلاد الروم وفارس، وترددتْ كلمةُ التوحيد فى أركَان الأرض، وشعرَ صهيب رضى الله عنه بالطمأنينة تستقرُّ فى أعماقه، وسُرَّ بانتصارات المسلمين وعزّتِهم[3].

وكان ممن اعتزل الفتنة وأقبل على شأنه.

وبعد حياة مديدة مملوءة بالتضحية والعطاء، فاضت روحه الطاهرة، ومات بالمدينة فى شهر شوال سنة ثمان وثلاثين.

فرضى الله عن صهيب وعن سائر الصحابة أجمعين

(١) الطبقات الكبرى (٣/ ٢٢٧).

(٢) رجال مبشرون بالجنة (ص:٤٦٣).

(٣) رجال مبشرون بالجنة (ص:٤٦٤).



الحمد لله الذي جعل في أمتي مثل هذا!

محمد رسول الله ﷺ

من السابقين الأولين البدريين المقربين العالمين.

كان غلامًا رقيقًا طيبًا مباركًا وكان (لثبية بنت يعار الأنصاري) وكانت ترى فيه من الخصال الطيبة ما حملها على أن تعتقه وتحرره.. فخشي زوجها (أبو حذيفة بن عتبة) على هذا الغلام الصغير من التيه والضياع في دروب الحياة المتشابكة فأخذه ومضى به إلى الحرم ووقف على ملأ من قريش وقال لهم: اشهدوا أني قد تبنيت سالمًا وقد أصبح مني بمنزلة ابني. فأصبح النَّاس ينادونه بسالم بن أبي حذيفة.

ادعوهم لآبائهم

وبعد فترة يسيرة أذِن الله للنور الإلهي أن ينبثق من بين أرجاء مكة لينير الكون كله بأنوار الهدى والرحمة.

لقد بعث الله محمداً ﷺ ليُخرج الناس من ظلمات الكفر والجهالة إلى أنوار التوحيد والإيمان.

وكان أبو حذيفة وابنه سالم من السابقين الأولين الذين شرح الله صدورهم للإسلام.

وبدأت أواصر المحبة بينهما تزداد يومًا بعد يوم، وذلك بعد أن جمع الإسلام بينهما وألقى الله المحبة الحقيقية بينهما.... قال تعالى:

﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال:٦٣].

وبعد فترة يسيرة أبطل الإسلام عادة التبني وأمر الناس جميعًا أن يردّوا الأبناء إلى

آبائهم، وذلك من أجل الحفاظ على الأنساب.. وفي ذلك نزل قوله تعالى:

﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥].

أي انسبوا هؤلاء الذين جعلتموهم لكم أبناءً لآبائهم الأُصلاء فاستجاب المسلمون لأمر الخالق ـ جل وعلا ـ ولكن أبا حذيفة أخذ يبحث طويلاً عن والد سالم فلم يجده، فأصبح الناس يطلقون على سالم (سالم مولى أبي حذيفة) وظل هذا الاسم معروفًا به إلى أن فارق الحياة.

صلة وثيقة وفراق مؤلم

وأخذ الاثنان يعبدان ربهما في إخبات وخضوع وخشوع راجين أن يجمعهما الله تعالى في جنته إخوانًا على سُرر متقابلين.

وفي غمرة هذه المحبة أراد أبو حذيفة أن يزداد قُربًا وصلة بسالم ـ رضي الله عنهما ـ فزوّجه من ابنة أخيه (فاطمة بنت الوليد بن عُتبة) ذات الحسب والنسب.

وظلت السعادة حينًا من الدهر ترفرف في سماء حياتهما حتى اشتد إيذاء المشركين على أصحاب النبي ﷺ مما جعل النبي ﷺ يحثهم على الهجرة إلى الحبشة فهاجر أبو حذيفة إلى الحبشة فارًا بدينه وعقيدته وإيمانه لكي تغسل شلالات الحبشة جراحاته هو وإخوانه من أصحاب الحبيب ﷺ .

أما سالم فلم يهاجر وآثر البقاء مع النبي ﷺ ليأخذ منه القرآن غضًا طريًا كما أُنزل وليتعلم العلم بين يدي الحبيب ﷺ .

منزلة عالية تعانق كواكب الجوزاء

وظل سالم ـ رضي الله عنه ـ على تلك الحالة ملاصقًا للنبي ﷺ يتلقى منه القرآن حتى أصبح واحدًا من كبار حَمَلة القرآن.. بل لقد بلغ منزلة عالية يعجز القلم عن وصفها.

فها هو ـ رضي الله عنه ـ يؤم المهاجرين الأولين في مسجد قباء وفيهم أبو بكر وعمر. فعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: لما قدم المهاجرون الأولون العُصبة ـ موضعٌ

بقُباء ـ قبل مقدم رسول الله ﷺ كان يؤمهم سالمٌ مولى أبى حذيفة، وكان أكثرهم قرآنًا»(١).

بل جعله النبى ﷺ واحدًا من الأربعة الذين حثَّ النبى ﷺ أصحابه بأن يأخذوا القرآن عنهم.

فعن عبد الله بن عمرو ـ رضى الله عنهما ـ قال: سمعت النبى ﷺ يقول: «استقرئوا القرآن من أربعة: من ابن مسعود وسالم مولى أبى حذيفة، وأُبىٍّ، ومعاذ بن جبل»(٢).

بل تدبروا معى جميعًا لهذا الوسام الذى وضعه النبى ﷺ على صدر هذا الصحابى الجليل.

فعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت: أبطأت على عهد رسول الله ﷺ ليلة بعد العشاء ثم جئت فقال: «أين كنتِ؟» قلت: كنت أستمع قراءة رجلٍ من أصحابك لم أسمع مثل قراءته وصوته من أحد قالت: فقام وقمت معه حتى استمع له ثم التفت إلىَّ فقال: «هذا سالم مولى أبى حذيفة، الحمد لله الذى جعل فى أمتى مثل هذا»(٣).

بل لقد شهد له النبى ﷺ بالإيمان؛ فعن عمرو بن العاص، قال: كان فزع بالمدينة، فأتيت على سالم مولى أبى حذيفة وهو مُحْتَبٍ بحمائل سيفه، فأخذت سيفى فاحتبيت بحمائله، فقال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس، ألا كان مفزعكم إلى الله وإلى رسوله؟» قال: «ألا فعلتم كما فعل هذان الرجلان المؤمنان؟»(٤).

---

(١) أخرجه البخارى (٦٩٢) ـ وفى الحديث فضيلة ظاهرة لسالم ـ رضى الله عنه ـ إذ قدَّمه كبار الصحابة من المهاجرين الأولين السابقين لإمامتهم. وقد وقع عند البخارى هذا الحديث فى الأحكام أيضًا (٧١٧٥) بلفظ: كان سالم مولى أبى حذيفة يؤم المهاجرين الأولين وأصحاب النبى ﷺ فى مسجد قباء فيهم أبو بكر وعمر وأبو سلمة وزيد وعامر بن ربيعة، قال الحافظ فى الفتح (٢/ ١٨٦): واستشكل ذكر أبى بكر فيهم إذ فى الحديث أن ذلك كان قبل مقدم النبى ﷺ، وأبو بكر كان رفيقه، ووجهه البيهقى باحتمال أن يكون سالم المذكور استمر على الصلاة بهم فيصح ذكر أبى بكر ولا يخفى ما فيه. وذكر الحافظ فى الفتح أيضًا (١٣/ ١٦٨) هذا الكلام بصياغة أخرى فقال: وقد تقدم الجواب عن استشكال عد أبى بكر الصديق فيهم لأنه إنما هاجر صحبة النبى ﷺ وقد وقع فى حديث ابن عمر أن ذلك كان قبل مقدم النبى ﷺ وذكرت جواب البيهقى بأنه يحتمل أن يكون سالم استمر يؤمهم بعد أن تحول النبى ﷺ إلى المدينة ونزل بدار أبى أيوب قبل بناء مسجده بها فيحتمل أن يقال فكان أبو بكر يصلى خلفه إذا جاء إلى قباء.

(٢) أخرجه البخارى (٣٨٠٦) ومسلم (٢٤٦٤) والترمذى (٣٨١٠).

(٣) رواه ابن ماجه (١٣٣٨) ورجاله ثقات ـ وأخرجه أبو نعيم فى الحلية (١/ ٣٧١)، والحاكم فى المستدرك (٣/ ٢٢٥ ـ ٢٢٦) وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(٤) رواه أحمد (٤/ ٢٠٣) والنسائى فى الفضائل (١٩٦) وقال العدوى فى فضائل الصحابة: إسناده صحيح.

لقاء في ميدان الشرف

وبعد غياب يلتقى (أبو حذيفة) بأخيه فى الله (سالم) ـ رضى الله عنهما ـ على أرض الشرف والجهاد ـ فى غزوة بدر ـ يقاتلان فى سبيل إعلاء كلمة لا إله إلا الله فأثلج الله صدور المؤمنين بهذا النصر المؤزّر على المشركين.

وظل أبو حذيفة وسالم ـ رضى الله عنهما ـ يجاهدان فى سبيل الله ـ جل وعلا ـ مع النبىﷺ فى كل غزواته حتى توفى الحبيبﷺ واستخلف المسلمون أبا بكر ـ رضى الله عنه ـ وخاض المسلمون حروب الردة التى كانت فى قمة الشراسة والضراوة.

وحان وقت الرحيل

وفى معركة اليمامة التى كانت بين المسلمين وبين مسيلمة الكذاب قام أبو حذيفة وسالم ـ رضى الله عنهما ـ يضربان المثل فى الشجاعة والإقدام والبحث عن الشهادة فى سبيل الله أينما كانت.

وكانت راية المهاجرين مع سالم مولى أبى حذيفة وراية الأنصار مع ثابت ابن قيس... واصطدم المسلمون والكفار.

وقاتلت بنو حنيفة (حلفاء مسيلمة الكذاب) قتالاً لم يُعهد مثله وجعلت الصحابة يتواصون بينهم ويقولون: يا أصحاب سورة البقرة، بطل السحر اليوم، وحفر ثابت بن قيس لقدميه فى الأرض إلى أنصاف ساقيه، وهو حامل لواء الأنصار بعدما تحنَّط وتكفَّن، فلم يزل ثابتًا حتى قُتل هناك، وقال المهاجرون لسالم مولى أبى حذيفة: نخشى أن نؤتَى من قبلك؟ فقال: بئس حامل القرآن أنا إذًا، وقال زيد بن الخطاب: أيها الناس عضوا على أضراسكم واضربوا فى عدوكم وامضوا قُدمًا ، وقال: والله لا أتكلم حتى يهزمهم الله أو ألقى الله فأكلمه بحجتى، فقُتل شهيدًا ـ رضى الله عنه ـ وقال أبو حذيفة: يا أهل القرآن زينوا القرآن بالفعال، وحمل فيهم حتى أبعدهم وأصيب ـ رضى الله عنه ـ[1].

وأما سالم ـ رضى الله عنه ـ فقد أخذ اللواء بيمينه فقُطعت، ثم تناولها بشماله، فقُطعت. ثم اعتنق اللواء وجعل يقرأ: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل

---

(١) البداية والنهاية للحافظ ابن كثير (٦/ ٣٢٩).

أفإن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم﴾ إلى أن قُتل(١).

وقبل أن تخرج روحه الشريفة وهو فى الرمق الأخير يبحث عن رفيق عمره الذى كان يتمنى من أعماق قلبه أن يجمعه الله به فى جنته كما جمعه به فى تلك الحياة على طاعته.

وإذا بالحق ـ جل جلاله ـ يجمع بينهما ويرزقهما الشهادة فى يوم اليمامة بل إن سالمًا وُجد هو ومولاه أبو حذيفة رأس أحدهما عند رجلى الآخر صريعين(٢).

ولسان حال كل واحدٍ منهما: غدًا نلتقى فى الجنة إخوانًا على سُرُرٍ متقابلين.

أمنية عُمرية

وها هو الفاروق عمر ـ رضى الله عنه ـ يتمنى أمنية غالية توضح لنا مكانة سالم من قلب عمر ـ رضى الله عنهما ـ.

فعن عمر ـ رضى الله عنه ـ أنه قال لأصحابه: تمنَّوا. فقال بعضهم: أتمنى لو أن هذه الدار مملوءةٌ ذهبًا أُنفقهُ فى سبيل الله وأتصدق، وقال رجلٌ: أتمنى لو أنها مملوءة زبرجدًا وجواهرًا فأُنفقه فى سبيل الله وأتصدق ثم قال عمر: تمنوا فقالوا: ما ندرى يا أمير المؤمنين فقال عمر: أتمنى لو أنها مملوءة رجالاً مثل أبى عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل وسالم مولى أبى حذيفة وحذيفة بن اليمان(٣).

فرضى الله عن سالم وعن سائر الصحابة أجمعين

* * *

---

(١) صفة الصفوة (١/ ١٥٨).

(٢) رواه الحاكم فى المستدرك (٣/ ٢٢٥) نقلاً من السير (١/ ١٦٩).

(٣) رواه الحاكم فى المستدرك (٣/ ٢٢٦) وصححه ووافقه الذهبى.





سفير الدعوة الأول للمدينة.. والداعية الشهيد

الفاتح الأول للمدينة والداعية الشهيد.. إنه مصعب بن عمير ـ رضي الله عنه ـ.

الفائز بالآيات... المشرق بالهلات، جبل الرحمة والبركات... غاسل يثرب بالقرآن.. الوجه الفاتح للإيمان ديار الكفر... الماهد أرض رسول الله ﷺ... نبراس الدعاة وإمام الفاتحين الفتى المُنَعَم الذى صاغه الإسلام على يديه، تقدَّم حين نادت المغارم، وذهب إلى لقاء ربه قبل مجيء الغنائم اختاره الله شهيداً بين يدى رسول الله ﷺ بعد أن أسلم على يديه: أُسيد بن حُضير الذى تنزَّلت الملائكة لتلاوته القرآن وسعد بن معاذ الذى اهتز لموته عرش الرحمن... مصعب غرَّة فتيان قريش، وأوفاهم بهاء وجمالاً وشبابًا، ولؤلؤة أهل مكة ومجالسهم وندواتهم، وبعد الإسلام صار أسطورة من أساطير الإيمان والفداء[1].

ويا لها من دقائق ولحظات سعيدة لا تُحسب من العمر نقضيها مع السيد الشهيد السابق البدرى القرشى العبدرى (مصعب بن عمير) إنه سفير الدعوة الأول فهو أول من دعا إلى الله فى المدينة المنورة.

لقد كان (مصعب) قبل الإسلام هو أنعم فتيان مكة، فلم يكن هناك مَن يلبس مثل ثيابه ولا يضع مثل عطره حتى إنه كان إذا مر من طريق وجاء بعده أُناس قالوا: لقد مرَّ مصعب بن عمير من هذا الطريق ـ مما يجدون من عطره الجميل ـ.

وفجأة تمر فوق رأسه سحابة الإيمان وتُسقط ماءها كله عليه فيشرب منه ويغتسل فيخالط الإيمان قلبه وجسده فى آن واحد. فإذا به يضع أقدامه على الأرض ورأسه تناطح كواكب الجوزاء.. يمشى بكلِّ ثقة علَى طريق الحق والخير إلى دار الأرقم ليعلن للعالم كله أن الفتى المدلل (مصعب) قد أُسدل عليه الستار.

ومنذ تلك اللحظة سيتحول هذا الفتى الريَّان المنعَّم إلى أسطورة عظيمة من أساطير الدعوة والعطاء والفداء!!!

---

(١) ترطيب الأفواه/ د. سيد حسين (١/ ٢٧٤ ـ ٢٧٥).

صناعة الرجال

إنها قضية من أعظم وأجلّ القضايا التى يعجز عنها أى منهج علمى أو تربوى... ولكن منهج الإسلام ونور الوحى وقوة العقيدة هى التى تصنع الرجال والأبطال، وكل ذلك بتقدير الكبير المتعال.

لقد جاء الإسلام إلى أمة غارقة فى أوحال الجاهلية فجاءهم الإسلام بمنهاج يحمل فى طياته الهدى والنور والخير كلّه، فهو منهج يُنشئ الأجيال ويربّى النفوس ويبنى الحضارات، ويُخرج الناس من الظلمات إلى النور، ولذا قال الحق تبارك وتعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة:١٥ ـ ١٦].

فما إن يدخل الرجل فى هذا الدين حتى يستشعر من اللحظة الأولى تلك الأمانة التى ألقاها الله على عاتقه.

فكان الرجل من أصحاب النبى ﷺ يحمل على كاهله أعباء الدعوة ويستعذب فى سبيلها أسمى آيات الصبر والعذاب والتضحية ويواصل الليل والنهار من أجل أن ينشر الإسلام فى أرجاء المعمورة... فلما أخلصوا لله ـ جل وعلا ـ فتح الله بهم القلوب والأمصار فما بين عشية وضحاها قامت للمسلمين دولة وسلطان وتأسست لهم حكومة وقيادة وأخضعوا لحكمهم الفرس والروم ودانت لهم الأمم حتى وقف هارون الرشيد يصوّر للعالم بسطة العالم الإسلامى فلم يجد غير أن يخاطب السحابة فى كبد السماء قائلاً لها: أيتها السحابة أمطرى حيث شئت، فإن خراجُك سوف يأتينى إن شاء الله.

بل تأمل معى ما قاله شهيد الإسلام سيد قطب ـ رحمه الله ـ فى كتابه «دراسات إسلامية» فصل انتصار محمد بن عبد الله.

(وانتصر محمد بن عبد الله يوم صنع أصحابه ـ عليهم رضوان الله ـ صورًا حية من إيمانه، تأكل الطعام، وتمشى فى الأسواق... يوم صاغ من كل واحد منهم قرآنًا حيًا يدب على الأرض، يوم جعل من كل فرد نموذجًا مجسمًا للإسلام، يراه النّاس فيرون الإسلام.

إن النصوص وحدها لا تصنع شيئًا، وإن المصحف وحده لا يعمل حتى يكون رجلاً، وإن المبادئ وحدها لا تعيش إلا أن تكون سلوكًا.

ومن ثَم جعل محمد ﷺ هدفه الأول أن يصنع رجالاً لا أن يُلقى مواعظ، وأن يصوغ ضمائر لا أن يُدبج خُطبًا، وأن يبنى أمة لا أن يقيم فلسفة... أما الفكرة ذاتها فقد تكفّل بها القرآن الكريم، وكان عمل محمد ﷺ أن يحوّل الفكرة المجردة إلى رجال تلمسهم الأيدى، وتراهم العيون...

ولقد انتصر محمد بن عبد الله ﷺ ، يوم أن صاغ من فكرة الإسلام شُخوصًا، وحوّل إيمانهم بالإسلام عملاً، وطبع من المصحف عشرات من النسخ ثم مئات وألوفًا، ولكنه لم يطبعها بالمداد ـ الحبر ـ على صحائف الورق، إنّما طبعها بالنور على صحائف من القلوب. وأطلقها تعامل الناس وتأخذ منهم وتعطى، وتقول بالفعل والعمل ما هو الإسلام الذى جاء به محمد بن عبد الله ﷺ من عند الله). اهـ.

ويكفى شريعة الإسلام فخراً أن يشهد لها الخصوم والأعداء بنمائها وحيويتها وخلودها.

شهـد الأنام بفضله حتى العدا والفضل ما شهدت به الأعداء

ولم يأت هذا كله فى غمضة عين وانتباهتها، بل جاء ببذل الدماء والأموال فى سبيل الله فهؤلاء الرعيل الأول من صحابة رسول الله ﷺ الذين بلغوا المجد والعظمة بحملهم لرسالة الإسلام عقيدةً وقولاً وعملاً... فهذه هى مؤهلات النصر والتمكين: أن يتمسك المؤمن بعقيدة راسخة ويحوّل تلك العقيدة إلى واقع عملى ينظر إليه أعداء الدين على أنه جبل شامخ من القِيم والأخلاقيات والمعاملات والعبادات، وبهذا يستطيع المسلم أن يحمل رسالة الإسلام إلى الدنيا ومن فيها، فيجاهد ويضحى ويصبر ويُبلّغ رسالة الإسلام[1].

وهذا مصعب بن عمير هو واحد ممن تربّوا بين يدى مَن ربَّاه الله ليربّى به الأمم والأجيال ـ محمد بن عبد الله ﷺ ـ.

فإنه لم يكد مصعب يعلنْ إسلامه حتى علم أنه أُلقى على كاهله أمانة عظيمة أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها وأشفقن منها... فقام يدعو إلى الله على بصيرة.

* * *

(١) كتاب (ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون) للمصنف (ص: ٢٠ ـ ٢١).

يُبتلى الرجل على قدر دينه

وكان مصعب ـ رضي الله عنه ـ يكتم إسلامه في بداية الأمر خوفًا من بطش أمه، فقد كانت تتمتع بقوة عجيبة في شخصيتها تفوق الكثير من الرجال.

ولكن البلاء سُنة ثابتة، فلقد رآه «عثمان بن طلحة» وهو يدخل إلى دار الأرقم، ثم رآه مرة أخرى وهو يصلى، فذهب إلى أم مصعب ـ تسابق أقدامه الريح ـ وأخبرها بإسلام مصعب حتى كاد عقلها أن يطيش لهول المفاجأة التي وقعت عليها.

وهمّت أمه بإيذائه ـ بالضرب ـ ولكن نور الإيمان التي كسى وجهه جعلها تتراجع عن ذلك، وتكتفي بحبسه في دارها.

وهنا نقول: إن صدق الإيمان يظهر واضحًا جليًا في الصبر على المحن والابتلاءات.

قال تعالى: ﴿ الم (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ [العنكبوت:١ ـ ٣].

وقال تعالى: ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران:١٧٩].

وذلك التميز لا يكون إلا في الابتلاء والامتحان الذي يفصل الصادقين عن الكاذبين.

ولقد جاءت المواقف الإيمانية التي وقفها الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ لتكون لنا كالشمس الساطعة في دنيا الحقيقة... فنتعلم منها كيف يكون الإيمان الحقيقي الصادق فنسيرَ على آثار خطواتهم إلى أن تكون خاتمة السعادة بمرافقتهم في جنات النعيم، فيكمل الله لنا النعمة بصحبة نبيه ﷺ ويسبغ علينا فضله ورحمته بالنظر إلى وجهه الكريم[1].

* * *

---

(١) كتاب (صدقوا ما عاهدوا) للمصنف (ص: ٦٢ ـ ٦٣).

سيجعل الله بعد عسر يسرا

ولكن الله دائمًا وأبدًا لا يُسلم أولياءه لأعدائه... فسرعان ما جاء الفرج من عند الله. فلقد استطاع مصعب ـ رضى الله عنه ـ أن يهرب من هذا الحبس وغافل أمه وحُرّاسه ومضى إلى بلاد الحبشة مهاجرًا ليغسل جراحاته بشلالات الحبشة، ثم عاد مع من عاد من الحبشة ولم يلبث إلا قليلاً حتى هاجر الهجرة الثانية إلى الحبشة فارًا بدينه وإيمانه.

وكان مصعب من أنعم الناس عيشًا قبل إسلامه فلما أسلم زهد فى الدنيا وترك زينتها وتفرغ للعبادة وطلب العلم.

ولقد منعته أمه من ثروتها وأبت أن ينال منها درهمًا واحدًا بعدما ترك عبادة الأصنام وسجد للواحد الديان.

يقول (علىّ) ـ رضى الله عنه ـ: جئت المسجد فطلع علينا مصعبُ بن عمير فى بُردة له مرقوعة بفروة ، وكان أنعم غلام بمكة وأرفَه ، فلما رآه رسول الله ﷺ ذكر ما كان فيه من النعيم، ورأى حاله التى هو عليها، فذرفت عيناه عليه، ثم قال: أنتم اليوم خيرٌ أم إذا غُدى على أحدكم بجفنة من خبز ولحم؟ فقلنا: نحن يومئذ خير، نُكفى المؤنة، ونتفرّغُ للعبادة. فقال: بل أنتم اليوم خيرٌ منكم يومئذ(١).

وخرج مصعب من النعمة الوارفة التى كان يعيش فيها مؤثرًا الشظف والفاقة (الفقر) وأصبح الفتى المتأنق المعطَّر ، لا يُرى إلا مرتديًا أخشن الثياب، يأكل يومًا، ويجوع أيامًا، ولكن روحه المتأنقة بسمو العقيدة، والمتألقة بنور الله، كانت قد جعلت منه إنسانًا آخر يملأ الأعين جلالاً، والأنفس روعة(٢).

سفير الدعوة الأول

ويا لها من منقبة عظيمة أن يختار الحبيب ﷺ مصعبًا لأعظم وأجلّ مهمة فى الكون، ألا وهى الدعوة إلى الله.

فبعثه النبى ﷺ إلى المدينة المنورة ليكون سفير الدعوة الأول، وذلك بعد أن بايع الأنصار البيعة الأولى يفقههم ويُقرؤهم القرآن، وكان يأتيهم فى دورهم، فيدعوهم إلى

(١) أخرجه الترمذى (٢٤٧٨) فى صفة القيامة، وقال: حديث حسن غريب.

(٢) رجال حول الرسول ﷺ (ص: ٤٦).

الإسلام فأسلم منهم خلق كثير وفشا الإسلام فيهم، وكتب إلى رسول الله ﷺ يستأذنه أن يجمع بهم فأذن له، فجمع بهم فى دار بنى خيثمة.

ثم قدم على رسول الله ﷺ مع السبعين الذين وافوه فى العقبة الثانية، فأقام بمكة قليلاً ثم قدم قبل رسول الله ﷺ المدينة فهو أول من قدمها.

وعن ابن شهاب قال: لما بايع أهل العقبة رسول الله ﷺ ، ورجعوا إلى قومهم، فدعوهم إلى الإسلام سراً، وتلوا عليهم القرآن،وبعثوا إلى رسول الله ﷺ معاذ بن عفراء ورافع بن مالك،أن ابعث إلينا رجلاً من قِبلك فليدع الناس بكتاب الله؛ فإنه قمن أن يُتبع. فبعث إليهم رسول الله ﷺ مصعب بن عمير، فلم يزل يدعو آمنًا ويهدى اللهُ تعالى الناس على يديه، حتى قل دار من دور الأنصار إلا قد أسلم أشرافهم. فأسلم عمرو بن الجموح، وكسرت أصنامهم، وكان المسلمون أعز أهل المدينة. فرجع مصعب إلى رسول الله ﷺ وكان يُدعى المقرئ[1].

هكذا فليكن الدعاة

روى ابن إسحاق: أن أسعد بن زُرارة خرج بمصعب بن عمير يريد به دار بنى عبد الأشهل، ودار بنى ظَفَر، وكان سعد بن معاذ (ابن خالة) أسعد بن زُرارة، فدخل به حائطًا من حوائط بنى ظفر.

على بئر يقال لها: بئر مَرَق[2]، فجلسا فى الحائط، واجتمع إليهما رجال ممن أسلم، وسعد بن معاذ، وأُسيد بن حُضير، يومئذ سيدا قومهما من بنى عبد الأشهل، وكلاهما مُشرك على دين قومه، فلما سمعا به قال سعد ابن معاذ لأسيد بن حضير: لا أبا لك، انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارينا ليُسفِّها ضُعفاءنا، فازجرهما وانههما عن أن يأتيا دارينا، فإنه لولا أن أسعد بن زرارة منّى حيث [ما] قد علمت كفيتُك ذلك، (هو ابن خالتى) ولا أجد عليه مقدمًا، قال: فأخذ أسيد بن حُضير حربته ثم أقبل إليهما، فلما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب بن عمير: هذا سيد قومه قد جاءك فاصدق الله فيه؛ قال مصعب: إن يجلس أكلمه. قال: فوقف عليهما مُتشتمًا، فقال: ما جاء بكما إلينا تسفّهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة؛ فقال له مصعب: أوَ تجلسُ فتسمعَ،

(١) صفة الصفوة (١/ ١٦١).

(٢) بئر مَرَق: بئر بالمدينة.

فإن رضيت أمرًا قبلته، وإن كرهته كُفّ عنك ما تكره؟ قال: أنصفت، ثم ركَّز حربته وجلس إليهما، فكلّمه مصعب بالإسلام، وقرأ عليه القرآن؛ فقالا، فيما يُذكر عنهما: والله لعرفنا فى وجهه الإسلام قبل أن يتكلم.. فى إشراقه وتسهُّله، ثم قال: ما أحسن هذا [الكلام] وأجمله! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا فى هذا الدين؟ قالا له: تغتسل وتطهر ثوبيك ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلى، فقام فاغتسل وطهر ثوبيه، وتشهَّد شهادة الحق، ثم قام فركع ركعتين، ثم قال لهما: إنّ ورائى رجلاً إن اتبعكما لم يتخلّف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكما الآن، (سعد بن معاذ)، ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس فى ناديهم، فلما نظر إليه سعد بن معاذ مُقبلاً قال: أحلف بالله لقد جاءكم (أُسيد) بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم، فلما وقف على النادى قال له سعد: ما فعلت؟ قال: كلَّمت الرجلين، فوالله ما رأيت بهما بأسًا، وقد نهيتهما، فقالا: نفعل ما أحببت. وقد حُدّثت أن بنى حارثة قد خرجوا إلى أسعد بن زُرارة ليقتلوه، وذلك أنهم [قد] عرفوا أنه ابن خالتك ليُخفروك[1]. قال: فقام سعد مُغضبًا مبادرًا، تخوفًا للذى ذُكر [له] من بنى حارثة، فأخذ الحربة من يده، ثم قال: والله ما أراك أغنيت شيئًا، ثم خرج إليهما؛ فلما رآهما سعدٌ مطمئنين، عرف سعدٌ أن أُسيدًا إنما أراد منه أن يسمع منهما، فوقف عليهما متشتمًا، ثم قال لأسعد بن زرارة: يا أبا أمامة، [أما والله] لولا ما بينى وبينك من القرابة ما رُمت هذا منى[2]، أتغشانا فى دارينا بما نكره؟ ـ وقد قال أسعد بن زرارة لمصعب بن عمير: أى مصعب، جاءك والله سيِّدُ مَنْ وراءه من قومه، إن يتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان ـ قال: فقال له مصعب: أوَ تقعد فتسمع، فإن رضيت أمرًا ورغبت فيه قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره؟ قال سعد: أنصفت. ثم ركَّز الحربة وجلس، فعرض عليه الإسلام وقرأ عليه القرآن. قالا: فعرفنا والله فى وجهه الإسلام قبل أن يتكلم، لإشراقه وتسهُّله؛ ثم قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم فى هذا الدين؟ قالا: تغتسل فتطهر وتطهر ثوبيك ثم تشهَّد شهادة الحق، ثم تصلى ركعتين، قال: فقام فاغتسل وطهر ثوبيه، وتشهَّد شهادة الحق، ثم ركع ركعتين، ثم أخذ حربته فأقبل عامدًا إلى نادى قومه ومعه أُسيد بن حُضير.

قال: فلما رآه قومه مقبلاً قالوا: نحلف بالله لقد رجع إليكم سعدٌ بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم، فلما وقف عليهم قال: يا بنى عبد الأشهل، كيف تعلمون أمرى

(١) ليخفروك: نقض عهده وخاس به وغدره وأخفر الذمة: لم يفِ بها.

(٢) ما رُمتَ هذا منى: أى ما طمعت فيه ولا بلغته.

فيكم؟ قالوا: سيدنا [وأوصلنا] وأفضلنا رأيًا، وأيمننا نقيبة[١]؛ قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم عليَّ حرام حتى تؤمنوا بالله وبرسوله.

قالا: فوالله ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجلٌ ولا امرأة إلا مسلمًا ومسلمة، ورجع أسعد ومصعب إلى منزل أسعد بن زرارة، فأقام عنده يدعو الناس إلى الإسلام، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون[٢].

في مثل هدوء البحر وقوَّته، وتهلُّل ضوء الفجر ووداعته، انساب نور الإيمان على يدي مصعب إلى سادات الأنصار: أُسيد بن حضير، وسعد بن معاذ، وسعد بن عبادة... شاب يقود ويُسيِّر جبال الإيمان، ويكون في ميزان حسناته الأنصار من الأوس والخزرج[٣].

فلله درّ مصعب بن عمير الداعية الذي على يديه أسلم الجبلان: سعد بن معاذ وأُسيد بن الحضير، ولله در سعد بن معاذ، فقد كان إسلامه فتحًا على الأوس والأنصار، الداعية الذي أسلم بإسلامه قومه (الرجال والنساء). فليحسن الداعية خلقه مع أهله، وليجعل بينه وبينهم وصلاً، فوالله ما دخل بنو عبد الأشهل الإسلام بدايةً إلا حبًا لسعد ميمون النقيبة حسن السيرة فيهم.

قال ابن شهاب: وكان أول من جمع الجمعة بالمدينة بالمسلمين قبل أن يقدمها رسول الله ﷺ[٤] ـ يعني مصعب ـ.

وعن البراء أنه قال: «أول من قَدِمَ علينا مُصعبُ بن عُمير وابن أم مكتوم، ثم قَدِمَ علينا عمارُ بن ياسر وبلال ـ رضي الله عنهم ـ»[٥].

❊ ❊ ❊

---

(١) أيمننا نقيبة: النقيبة أيمن النعل. وقال ابن بُزَرج: اللهم نقيبة أي نفاذ رأي، ورجل ميمون النقيبة: مبارك النفس، مظفر بما يحاول. [لسان/ نقب].

(٢) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٤٣٨، ٤٣٩). وذكره ابن كثير في البداية (٣/ ١٥٢) من طريق ابن إسحاق، وقال جمال ثابت في تخريج السيرة النبوية لابن هشام: إسناده صحيح.

(٣) ترطيب الأفواه بذكر من يظلهم الله/ د. سيد حسين (١/ ٢٧٥ ـ ٢٧٦).

(٤) صفة الصفوة (١/ ١٦١).

(٥) أخرجه البخاري (٣٩٢٤) وابن سعد في الطبقات (٣/ ١/ ٨٣).

صفحات مشرقة من جهاده في سبيل الله

وشهد (مصعب بن عمير) بدراً وقاتل قتالاً شديداً، وبعد أن انقضت الغزوة بانتصار المسلمين... وأسر المسلمون عدداً من المشركين كان لمصعبٍ موقفًا عظيمًا في الولاء والبراء.

قال ابن إسحاق:وحدثني نبيه بن وهب أخو بني عبد الدار، أن رسول الله ﷺ حين أقبل بالأُسارى فرّقهم بين أصحابه وقال: «استوصوا بالأسارى خيراً».

قال: وكان أبو عزيز بن عمير بن هشام أخو مصعب بن عمير لأبيه وأمه في الأُسارى، قال: فقال أبو عزيز: مَرّ بي مصعب بن عمير ورجل من الأنصار يأسرني. فقال (مصعب): شُدَّ يدك به، فإن أمه ذات متاعٍ، لعلها تفديه منك. قال: وكنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر، فكانوا إذا قدَّموا غداءهم وعشاءهم خصّوني بالخبز وأكلوا التمر. لوصية رسول الله ﷺ إياهم بنا، ما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحني بها. قال: فأستحي فأردها على أحدهم. فيردها عليّ ما يمسها.

قال ابن هشام: وكان أبو عزيز صاحب لواء المشركين ببدر بعد النضر بن الحارث، فلما قال أخوه مصعب بن عمير (لأبي اليسر) وهو الذي أسره ما قال: قال له أبو عزيز: يا أخي هذه وصاتك بي؟! فقال له مصعب: إنه أخي دونك. فسألت أمه عن أغلى ما فُدي به قرشي، فقيل لها: أربعة آلاف درهم. فبعثت بأربعة آلاف درهم ففدته بها[1].

وقول مصعب ـ رضي الله عنه ـ لأبي اليسر: إنه أخي دونك؛ حقٌ وصدقٌ، فإن الأخوة الإيمانية مقدمة على أخوة الرحم، والعلاقة الدينية مقدمة على علاقة النسب. قال الله ـ عز وجل ـ لنوح ـ عليه السلام ـ في حق ابنه الكافر: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود:٤٦].

ومما يدل على ذلك كذلك أن الرجل إذا مات وليس له إلا ابن كافر، فإنه لا يرثه، ويعود ماله إلى إخوانه المؤمنين، وهذا يدل على أن معاني الولاء والبراء كانت قوية عند الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ[2].

---

(١) السيرة لابن هشام (٣/ ٥٤).

(٢) مواقف إيمانية لأحمد فريد (ص: ٤٦١).

من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه

ولقد حمل مصعب اللواء يوم أُحُد، فلما جال المسلمون ثبت به مصعب، فأقبل ابن قمئة فضرب يده اليمنى فقطعها ومصعب يقول: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبلِه الرسل﴾. وأخذ اللواء بيده اليسرى وحنا عليه فضربها فقطعها، فحنا على اللواء وضمَّه بعضديه إلى صدره وهو يقول: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾، ثم حمل عليه الثالثة بالرمح فأنفذه.

وقال ابن سعد: وقال عبد الله بن الفضل: قُتل مصعب، وأخذ اللواء مَلَكٌ في صورته، فجعل النبي ﷺ يقول له في آخر النهار: تقدَّم يا مصعب. فالتفت إليه الملك وقال: لست بمصعب فعرف النبي ﷺ أنه ملك أُيِّد به(١).

قال ابن إسحاق: وقاتَلَ مصعبُ بن عُمير دون رسول الله ﷺ حتى قُتل، قتله ابن قمئة الليثي، وهو يظنه رسول الله. فرجع إلى قريش، فقال: قتلتُ محمداً فلما قُتل مصعب، أعطى رسول الله ﷺ اللواء عليَّ بن أبي طالب، ورجالاً من المسلمين(٢).

وعن عبيد بن عمير قال: لما فرغ رسول الله ﷺ من أُحدٍ مرَّ على مصعب ابن عمير مقتولاً على طريقه فقرأ: ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾ [الأحزاب:٢٣].

ادخار الأجر لمصعب يوم القيامة

وبعد أن سالت دماء بطلنا على أرض الشرف والجهاد وقام الحبيب ﷺ يتفقد القتلى، فلما أشرف عليهم قال ﷺ: «أنا شهيدٌ على هؤلاء، إنَّه ما من جريح يُجرحُ في [سبيل] الله، إلا والله يبعثه يوم القيامة يدمى جُرحه، اللونُ لون دمٍ، والريحُ ريح مسك»، «وانظروا أكثر هؤلاء جمعًا للقرآن، فاجعلوه أمام أصحابه في القبر» - وكانوا يدفنون الاثنين والثلاثة في القبر [الواحد](٣).

وعند جثمان مصعب سالت دموعه ﷺ.

---

(١) صفة الصفوة (١/ ١٦٢).

(٢) السيرة لابن هشام (٢/ ٧٣) وابن سعد (٣/ ١/ ٨٥).

(٣) رواه أحمد (٥/ ٤٣١) والنسائي (٤/ ٧٨) وقال جمال ثابت في تخريج السيرة النبوية لابن هشام: رجاله رجال الصحيح.

قال خبّاب بن الأرتّ: هاجرنا مع النبي ﷺ نريدُ وجه الله فوقع أجرُنا على الله فمنا من مضى لم يأخذ من أجره شيئًا منهم مصعبُ بن عُمير، قُتل يوم أُحد وترك نمرةً فكنا إذا غطينا بها رأسهُ بدت رجلاه، وإذا غطينا رجليه بدا رأسه ولجعل على رجليه شيئًا من إذخر، ومنا من أينعت له ثمرتهُ فهو يهدبُها(١).

وظل أصحاب الحبيب ﷺ يذكرون مصعبًا في كل وقت ولم يغب وجهه عنهم لحظة واحدة.

فهذا عبد الرحمن بن عوف ـ رضي الله عنه ـ أُتي بطعام ـ وكان صائمًا ـ فقال قُتل مصعب بن عمير ـ وهو خيرٌ مني ـ كُفِّن في بُردة إن غُطِّي رأسه بدت رجلاه، وإن غُطِّي رجلاه بدا رأسُهُ، وأراه قال: وقُتلَ حمزة ـ وهو خير مني ـ ثم بُسط لنا من الدنيا ما بُسط أو قال أُعطينا من الدنيا ما أُعطينا ـ وقد خشينا أن تكون حسناتنا عُجِّلت لنا ـ ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام(٢).

ولا أملك عند وداع هذا البطل إلا أن أقول:

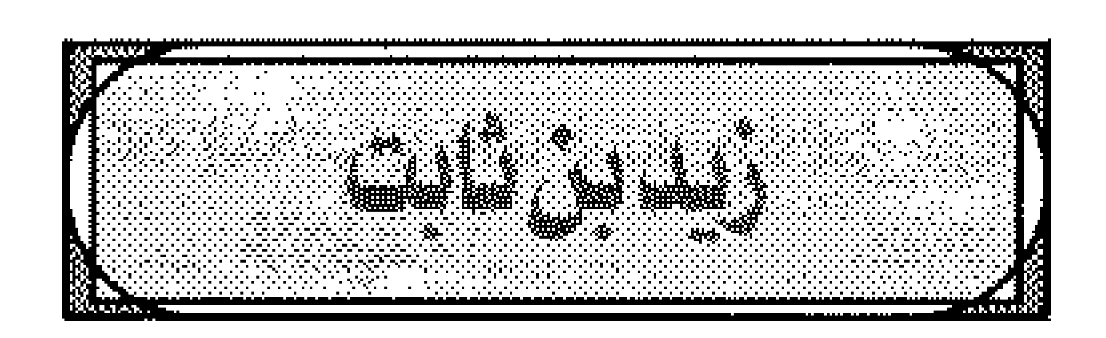
رضي الله عن مصعب وعن سائر الصحابة أجمعين

* * *

---

(١) أخرجه البخاري (٣٨٩٧) ومسلم (٩٤٠).

(٢) أخرجه البخاري (١٢٧٥).



زيد بن ثابت

كاتب الوحى ... وجامع القرآن

إن كل جهد ـ مادى أو أدبى، نفسى أو بدنى ـ يبذله المؤمن فى سبيل الله ـ مهما يبلغ من ضآلة حجمه فهو محسوب له فى «رصيد» حسناته عند الله، لا يضيع منه مثقال ذرة، حتى الخطوة التى تمشيها قدمه، وحتى الفلس يُنفقه، وحتى الإحساس بالجوع أو العطش أو التعب:

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٠ ـ ١٢١].

فلا عجب أن نرى دينًا كالإسلام يُقدِّم لنا ـ فى مرحلة قوته وازدهاره ـ نماذج رائعة للتضحية والبذل والكفاح والجهاد، وبأعداد هائلة، تُقدِّم ما تملك من نفس ومال فى سبيل الله وهى قريرة العين[١].

وها نحن على موعدٍ مع رجل عظيم من هذا الصنف الكريم.

إننى عندما بدأت فى كتابة تلك السطور عن هذا الصحابى الجليل أحسست كأننى أقف أمام جبلٍ عظيم قد امتلأ بالحسنات والدرجات حتى ملأ ما بين السماوات والأرض.

ولِمَ لا؟ وما من مسلمٍ يفتح المصحف ويقرأ سورة أو آية من كتاب الله إلا وكان ذلك فى ميزان حسنات هذا الصحابى الجليل. فهو كاتب الوحى للنبى ﷺ ، وهو جامع القرآن فى عهد أبى بكر وعثمان (رضى الله عنهم جميعًا).

إنه زيد بن ثابت ـ رضى الله عنه ـ الإمام الكبير، شيخُ المقرئين، والفرضيين، مفتى

(١) الإيمان والحياة/ د. يوسف القرضاوى ـ ط. مكتبة وهبة.

المدينة، وكان من حملة الحُجَّة، وكان عمر بن الخطاب يستخلفه إذا حج على المدينة.

وهو الذى تولى قسمة الغنائم يوم اليرموك. وقد قُتلَ أبوه قبل الهجرة يوم بُعاث، فربِّى زيدٌ يتيمًا. وكان أحد الأذكياء. فلما هاجر النبى ﷺ أسلم زيد وهو ابن إحدى عشرة سنة.

وفى غزوة بدر أراد هذا الفتى الصغير أن ينال شرف الجهاد والشهادة فى سبيل الله.. فأقبل على النبى ﷺ وقال: جُعلت فداك يا رسول الله ائذن لى أن أكون معك وأجاهد أعداء الله تحت رايتك. فنظر إليه الرسول ﷺ نظرة سرورٍ وإعجاب وطيَّب خاطره وردَّه لصِغر سنه.

فعاد الغلام حزينًا وأمه أكثر حزنًا منه، فهى التى كانت تتمنى أن ترى ولدها الصغير مجاهدًا فى سبيل الله.

المسلم لابد أن يعلم ماذا يصنع لنصرة دينه

وما إن ردَّ النبى ﷺ زيدًا حتى وقف مع نفسه وقفة صدق ينظر ويتأمل فى مواهبه وإمكاناته وكيف يستخدمها لنُصرة الإسلام.. وإذا به يرى أنَّ الله تعالى قد امتنّ عليه بنعمة الحفظ الجيد والذاكرة المتوقدة ومحبة العلم والإقبال على طلبه.

فأخبر أمه برغبته الشديدة فى طلب العلم، وقامت هى بدورها لتخبر قومها برغبة ابنها، فقام رجال من قومه وأقبلوا به على رسول الله ﷺ .

فعن زيد بن ثابت ـ رضى الله عنه ـ قال: أُتى بى النبى ﷺ مقدمه المدينة، فقالوا: يا رسول الله، هذا غلام من بنى النجار، وقد قرأ مما أُنزل عليك سبع عشرة سورة... فقرأت على رسول الله ﷺ ؛ فأعجبه ذلك، وقال: «يا زيد! تعلَّم لى كتاب يهود؛ فإنى والله ما آمنهم على كتابى».

قال: فتعلمته. فما مضى لى نصف شهر حتى حذقته ـ أتقنته ـ وكنت أكتب لرسول الله ﷺ إذا كتب إليهم»[1].

وقال زيد: قال لى رسول الله ﷺ: «أتُحسن السريانية؟» قلت: لا. قال: «فتعلمها». فتعلمتها فى سبعة عشر يومًا[2].

(١) أخرجه البخارى فى التاريخ الكبير (٣/ ٣٨٠) وقال الأرنؤوط: وإسناده حسن.

(٢) قال الأرنؤوط: أخرجه أحمد (٥/ ١٨٢) والحاكم (٣/ ٤٢٢) وإسناده صحيح.

وعن زيد بن ثابت قال: أمرنى رسول الله ﷺ أن أتعلم له كتاب يهود قال: «إنى والله ما آمن يهود على كتاب» قال: فما مرَّ بى نصف شهر حتى تعلمته له قال: فلما تعلمته كان إذا كتب إلى يهود كتبت إليهم، وإذا كتبوا إليه قرأت له كتابهم[1].

كاتب الوحى

وبعد فترة يسيرة رأى النبى ﷺ من زيد بن ثابت - رضى الله عنه - الخير الكثير من دقته وإتقانه فى الحفظ والكتابة وأمانته فى النقل،وفهمه للنصوص، فكلَّفه بأعظم مهمة وُجدت فى هذا الكون كله - ألا وهى كتابة الوحى الذى يتنزل على رسول الله ﷺ - ويا له من شرفٍ يعجز القلم عن وصفه.

إنها ثقة عظيمة وضعها النبى ﷺ فى زيد - رضى الله عنه -.

فكان زيد يتلقى القرآن من فم الصادق المصدوق ﷺ غضًا طريًا وهو يتعايش مع كل آية وسبب نزولها، بل ومكان نزولها.

فأشرقت نفسه واستنار عقله وهو يلامس ويباشر أنوار القرآن عن قريب، بل ويزداد قُربًا فى كل يومٍ من الحبيب ﷺ. فيا لها من عيشة ما أجملها. ويا لها منَ لحظات ما أعذبها، ويا لها من مهمة مباركة ما أطيبها.

فلقد أصبح زيد - رضى الله عنه - هو المرجع الأول للقرآن فى أمة الحبيب ﷺ .

موقفه الخالد يوم السقيفة

وظل زيد - رضى الله عنه - ملازمًا للحبيب ﷺ يكتب له الوحى حتى توفى رسول الله ﷺ وهو عنه راضٍ.

وفى يوم السقيفة حينما اجتمع المهاجرون والأنصار لاختيار خليفة المسلمين كادت أن تحدث فتنة عظيمة بينهم. وهنا جاء دور القرآن وحَمَلة القرآن... بل لقد جاء دور كاتب الوحى الذى استنار بنوره حتى إنه ليهتدى - بإذن الله - إلى أصوب رأيٍ فى تلك المواقف التى يحار فيها أولوا الألباب.

عن أبى سعيد، قال: لما تُوفى رسول الله، قام خطباء الأنصار، فتكلموا، وقالوا: رجلٌ

---

(١) رواه الترمذى (٢٧١٥) وقال: هذا حديث حسن صحيح..

منا، ورجلٌ منكم. فقام زيدُ بن ثابت، فقال: إنَّ رسول الله كان من المهاجرين ونحنُ أنصاره؛ وإنما يكون الإمام من المهاجرين ونحن أنصاره.

فقال أبو بكر: جزاكم الله خيراً يا معشر الأنصار، وثبّت قائلكم، لو قلتم غير هذا ما صالحناكم(١).

وبهذا الموقف وُئدت نار الفتنة في مهدها ولله الحمد.

جمع القرآن في عهد أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ

وفي أثناء حروب الردّة ـ وعلى وجه الخصوص في معركة اليمامة ـ قُتل عددٌ كبير من حَفَظة القرآن، فكان لابد من جمع القرآن خوفًا من ضياعه.. وكان في مقدمة الأبطال الذين نالوا شرف هذه المهمة التاريخية ـ زيد بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ.

فعن زيد بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: أرسل إليَّ أبو بكر الصديق مقتل أهل اليمامة ـ أي عقب مقتل أهل اليمامة ـ فإذا عمر بن الخطاب عنده... قال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ: إن عمر أتاني فقال: إن القتل قد استَحَرَّ يوم اليمامة بقراء القرآن، وإني أخشى إن استحر القتل بالقراء بالمواطن فيذهب كثير من القرآن، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن.. قلت لعمر: كيف نفعل شيئًا لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ قال عمر: هذا والله خير. فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر.

قال زيد: قال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فتتَبَّع القرآن فاجمعه.. فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليَّ مما أمرني به من جمع القرآن.. قلت: كيف تفعلون شيئًا لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ قال: هو والله خير، فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع أحد غيره: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم﴾ حتى خاتمة براءة فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته، ثم عند حفصة بنت

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٢٢) والطبراني (٤٧٨٥) وقال الذهبي: إسناده صحيح. وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ١٨٣) رجاله رجال الصحيح.

عمر ـ رضى الله عنه ـ[١].

وعن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال: جمع القرآن على عهد رسول الله أربعة، كلهم من الأنصار، أُبىّ، ومعاذ، وزيد بن ثابت، وأبو زيد[٢].

وقد غدا زيد بن ثابت بفضل القرآن وتفقهه فيه وطول ملازمته لرسول الله ﷺ منارةً للمسلمين... يستشيره خلفاؤهم فى المعضلات، ويستفتيه عامتهم فى المشكلات، ويرجعون إليه فى المواريث خاصةً؛ إذ لم يكن بين المسلمين ـ إذ ذاك ـ من هو أعلم منه بأحكامها وأحذق منه فى قسمتها؛ فقد خطب عمر ـ رضوان الله عليه ـ فى المسلمين يوم «الجابية»[٣] فقال:

أيها الناس؛ من أراد أن يسأل عن القرآن فليأت زيد بن ثابت...

ومن أراد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذ بن جبل...

ومن أراد أن يسأل عن المال فليأت إلىَّ، فإن الله ـ عز وجل ـ جعلنى عليه واليًا، وله قاسمًا[٤].

مهمته الخالدة فى كتابة المصحف العثمانى

وكما وقف زيد ـ رضى الله عنه ـ هذا الموقف الخالد فى جمع القرآن فى عهد أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ كان له دور عظيم فى كتابة المصحف فى عهد عثمان ـ رضى الله عنه ـ، وذلك لجمع المسلمين على مصحفٍ واحدٍ خوفًا عليهم من الفُرقة والاختلاف.

فعن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ: أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان، وكان يغازى أهل الشام فى فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم فى القراءة فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا فى الكتاب اختلاف اليهود والنصارى.

فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلى إلينا بالصحف ننسخها فى المصاحف ثم نردها

(١) أخرجه البخارى (٤٩٨٦) فضائل القرآن ـ باب جمع القرآن/ وأحمد (٥/ ١٨٨).
(٢) أخرجه البخارى (٩/ ٤٦) فضائل القرآن ـ باب القراء من أصحاب رسول الله ﷺ.
(٣) الجابية: قرية غربى دمشق اجتمع فيها عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ مع الصحابة للتداول فى شئون الفتح، وخطب فيها خطبته المشهورة فسمى ذلك اليوم بيوم الجابية.
(٤) صور من حياة الصحابة (ص ٣٦٧).

إليك. فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث ابن هشام فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم، ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة فأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يُحرق(١).

علمه - رضي الله عنه - ومكانته في قلوب الصحابة - رضي الله عنهم -

عن أنس، عن النبي ﷺ أنه قال: «أفرضُ أمتي زيدُ بنُ ثابت»(٢).

أي أعلمهم بعلم المواريث.

وقال جعفر بن بُرقان: سمعتُ الزهري يقول: لولا أن زيد بن ثابت كتب الفرائض، لرأيتُ أنها ستذهبُ من الناس(٣).

وعن حميد بن الأسود قال: قال مالك: كان إمام الناس عندنا بعد عمر زيد بن ثابت، وكان إمام الناس عندنا بعد زيد ابن عمر(٤).

وقال أحمد بن عبد الله العجلي: الناس على قراءة زيد، وعلى فرض زيد.

وعن الشعبي، قال: القضاةُ أربعةٌ: عمر، وعليّ، وزيدٌ، وابن مسعود(٥).

وعن مسروق، قال: كان أصحاب الفتوى من أصحاب رسول الله ﷺ: عمر، وعليّ، وابن مسعود، وزيد، وأُبي، وأبو موسى(٦).

وعن ابن عباس، قال: لقد علم المحفوظون من أصحاب محمد ﷺ أن زيد بن ثابت، من الراسخين في العلم(٧).

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٨٧) عن أنس بن مالك - رضي الله عنه -.

(٢) رواه أحمد والترمذي والنسائي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٨٩٥).

(٣) تاريخ الفسوي (١/ ٤٨٦).

(٤) تاريخ الفسوي (١/ ٤٨٦ و٢/ ٢٦٥، ٢٦٦).

(٥) تهذيب ابن عساكر (٥/ ٤٥٠).

(٦) تاريخ الفسوي (١/ ٤٨١) - وتهذيب ابن عساكر (٥/ ٤٤٩). وقال الأرنؤوط: إسناده صحيح.

(٧) تهذيب ابن عساكر (٥/ ٤٥١) ونسبه الحافظ في الإصابة (٤/ ٤٣) إلى البغوي. وقال الأرنؤوط: إسناده صحيح.

ولقد علم طلاب العلم من الصحابة والتابعين لزيد بن ثابت قدره ومنزلته، فكانوا يحملون له فى قلوبهم كل محبةٍ وتقديرٍ وإجلالٍ لمكانته العظيمة فى العلم.

فهذا هو تُرجمان القرآن وبحرُ العلم (عبد الله بن عباس) يعرف لزيد بن ثابت قدره ومنزلته السامية.

فعن أبى سلمة، أن ابن عباس قام إلى زيد بن ثابت. فأخذ له بركابه، فقال: تنحَّ يا ابن عمِّ رسول الله ﷺ! فقال: إنَّا هكذا نفعلُ بعلمائنا وكبرائنا(١).

ولقد كان زيد - رضى الله عنه - مع انشغاله فى طلب العلم وتبليغه - يملأ بيته فرحًا وسعادة وسرورًا.

فعن ثابت بن عُبيد قال: كان زيد بن ثابت من أفكه الناس فى أهله.

وهكذا يجب على الداعية الذى ينشغل عن أهل بيته بالدعوة ومدارسة العلم أن يكون مصدر الفرح والسرور والسعادة لأهل بيته وأولاده.

وحان وقت الرحيل

وبعد حياة طويلة مباركة مليئة بالبذل والعطاء والتضحية.. ساق الله فيها على يدى (زيد بن ثابت) الخير الكثير لنفسه وللأمة الإسلامية.. نام زيد - رضى الله عنه - على فراش الموت.

ولما مات - رضى الله عنه - قال أبو هريرة - رضى الله عنه -: مات حَبر هذه الأمة، ولعل الله أن يجعل فى ابن عباس منه خَلَفًا.

وعن عمار بن أبى عمار قال: لما مات زيد بن ثابت قعدنا إلى ابن عباس فى ظل القصر فقال: هكذا ذهاب العلم، لقد دُفن اليوم علم كثير(٢).

ورحل بطلنا عن هذه الدنيا.. وها نحن كلما قرأنا سورة أو آية من كتاب الله لا نستطيع أن ننسى أبدًا من كتب هذا القرآن ومن جَمَعه.

فرضى الله عن (زيد) وجزاه الله خير الجزاء عن كل مسلم قرأ القرآن

من لدن محمد بن عبد الله ﷺ وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها

(١) أخرجه ابن سعد (٢/ ٣٦٠) وصححه الحاكم (٣/ ٤٢٣) وأقره الذهبى.

(٢) قال الأرنؤوط: أخرجه ابن سعد فى الطبقات (٢/ ٣٦١) والحاكم (٣/ ٤٢٨) ورجاله ثقات.

أنس بن مالك

اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيه

محمد رسول الله ﷺ

إنه مما لا شك فيه أنه ما من مسلم فى هذه الحياة الدنيا إلا ويتمنى أن لو عاش فى عصر النبوة ورأى النبى محمداً ﷺ فتلك مكرمة لا تدانيها كل المكارم، فإن الصحابة الذين كانوا معه ﷺ تعلَّموا على يديه الخير الكثير، وكان أحدهم إذا أخطأ يجد الموجّه الأول ﷺ يصلح له مساره ويبين له طريقه، بل كان النبى يبشر هذا بالجنة، وذاك بمحبة الله، وهذا بدخول الجنة بغير حساب، فكان الخير واضحًا، والشر كذلك، أما الآن فقد اختلطت الأوراق وأصبح الرجل الصالح فى ظل هذه الغربة يشك حتى فى نفسه، بل ويظن أحيانًا من كثرة الفساد من حوله أنه ربما يكون مخطئًا فما إن يفتح كتاب الله وسنة رسول الله ويقرأ فيهما حتى يدرك، بل ويوقن أنه على الجادة وعلى طريق الحق. فإذا كان الأمر كذلك فكيف بمن عاش مع النبى ﷺ وتلقّى الكلام مباشرة من فم الحبيب ﷺ (١).

وها نحن نعيش من خلال تلك السطور مع عَلَمٍ من أعلام الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ لم يكن ملازمًا للحبيب ﷺ فحسب، بل كان من المقربين إليه وعاش فى خدمته عشر سنوات كانت هى أزهى وأجمل وأبهى سنوات عمره على الإطلاق.

ولِمَ لا؟ وهو الذى يرى الحبيب ويتلقى العلم والأدب والنصائح الغالية بين يديه فى كل لحظة... فى الوقت الذى يتمنى فيه أحدنا أن لو كان رأى النبى ﷺ مرة واحدة ـ لا أقول فى اليقظة بل فى المنام ـ.

فيا تُرى من هو هذا العَلَم؟

إنه الصحابى الجليل أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ.

---

(١) «وأنذرهم يوم الحسرة» (ص: ٢٢) للمصنف ـ ط. مكتبة السنة.

الإمامُ، المُفتي، المُقرئُ، المحدِّث، راويةُ الإسلام، أبو حمزةَ الأنصاريُّ الخزرجي النجاريُّ المدنيُّ، خادمُ رسول الله ﷺ ، وقرابته من النساء، وتلميذُه، وتبعُه، وآخِرُ أصحابه موتًا.

روى عن النبي ﷺ علمًا جمًا. وعن أبي بكر، وعمر، وعثمان، ومعاذ، وأُسيد بن الحضير، وأبي طلحة، وأمِّه أُمِّ سُليم بنت ملحان، وخالته أُمِّ حَرَام(١).

والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه

لقد كان (أنس) طفلاً صغيراً، وكانت أمه هي (أم سليم) ـ الغُميصاء ـ التي أسلمت لله ـ جل وعلا ـ وكان زوجها (مالك) ـ والد أنس ـ ما زال على دينه وكان يريد منها أن تترك دينها وتبقى على دين الآباء.

وفي يومٍ من الأيام خرج الرجل مُغضبًا فلقيه عدوٌ فقتله.. فنشأ (أنس) يتيمًا منذ تلك اللحظة.

ولكن أمه (أم سُليم) كانت امرأة مؤمنة راجحة العقل لم يشعر معها لحظة واحدة بمرارة اليُتم.

وكانت (أم سُليم) تلقنه الشهادتين وتعلّمه، بل وتغرس في قلبه محبة الله ـ جل وعلا ـ ومحبة رسوله ﷺ قبل أن يراه، فأصبح (أنس) في أشد شوقه لرؤية الحبيب ﷺ ، بل لقد تمنّى أن لو كان كبيراً لسافر إليه ليراه ويلازمه.

وما هي إلا فترة يسيرة حتى أَذِن الله لرسوله ﷺ بالهجرة إلى المدينة.

وما إن علم (أنس) وكل من في (يثرب) ـ المدينة ـ هذه البشرى العظيمة حتى امتلأت قلوبهم فرحًا وسعادة وسروراً بمقدم الحبيب ﷺ .

فكانوا يخرجون في كل يوم لاستقباله فإذا حان وقت الغروب كانوا يعودون والحزن يملأ قلوبهم.

وفي اليوم الموعود وصل إلى مسامعهم بأن الحبيب ﷺ على مشارف المدينة، فامتلأت شوارع المدينة كلها بالرجال والنساء والأطفال... الكل يريد أن يرى خير مخلوقٍ عرفته البشرية كلها ﷺ.

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي (٣/ ٣٩٦).

فلو اجتمعت أعياد الكون كله فى تلك اللحظة ما كانت تساوى جزءاً من ألف جزء من فرحة المسلمين بقدوم المصطفى ﷺ .

أنس ـ رضى الله عنه ـ يتشرف بخدمة الحبيب ﷺ

وما إن استقر الحبيب ﷺ بالمدينة حتى جاءته (أم سُليم) ـ رضى الله عنها ـ ومعها (أنس) ـ رضى الله عنه ـ فقالت له: يا رسول الله ﷺ ، هذا أُنيس ابنى أتيتُك به يخدُمك، فادع الله له. فقال: «اللهمَّ أكثِر مالَهُ وَوَلَدَه». (قال أنس) فوالله إنَّ مالى لكثير، وإنَّ ولدى وولدَ ولدى يتعادُّون على نحو من مئة اليوم[1].

وكان أنسٌ يقول: قدم رسولُ الله ﷺ المدينةَ وأنا ابنُ عشر، ومات وأنا ابنُ عشرين. وكُنَّ أُمهاتى يَحثُثْنَنِى على خدمةِ رسول الله ﷺ [2].

وظل (أنس) ـ رضى الله عنه ـ ملازمًا للحبيب ﷺ وهو فى سعادة يعجز القلم عن وصفها.

ولقد أحب النبى ﷺ حبًا مَلَكَ عليه لُبَّه وفؤاده وجوارحه.

قال أنس: «ما مسست حريراً ولا ديباجًا ألين من كف النبى ﷺ ولا شممت ريحًا قط ـ أو عَرفًا قط ـ أطيب من ريح ـ أو عرف ـ النبى ﷺ »[3].

ومن خلال ملازمته للحبيب ﷺ تعلَّم الكثير والكثير من سُنة الحبيب ﷺ ومن هديه وأخلاقه النبيلة وشمائله المباركة مما جعله من أكثر الصحابة علمًا بحديث النبى ﷺ ، بل ومن أكثرهم تشبهًا بالنبى ﷺ فى صلاته وعبادته وأخلاقه.

المرء مع مَنْ أحب

ولقد رأى (أنس) من النبى ﷺ ومن أخلاقه العذبة ما لم يرهُ غيره حتى إنه كان لا يصدق نفسه أحيانًا... ولسان حاله: هل هناك رجلٌ فى هذا الكون كله بهذا الخُلق الرفيع؟!!!.

لقد كان النبى ﷺ مُحلَّى بصفات الكمال المنقطعة النظير، وأدَّبه ربه فأحسن تأديبه،

(١) أخرجه مسلم (٢٤٨١) (١٤٣) فضائل الصحابة ـ باب من فضائل أنس بن مالك.
(٢) أخرجه مسلم (٢٠٢٩) (١٢٥) وابن سعد (٧/ ٢٠).
(٣) أخرجه البخارى (٦/ ٦٥٤) المناقب.

حتى خاطبه مُثنيًا عليه فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤]، وكانت هذه الخلال مما قرب إليه النفوس، وحبَّبه إلى القلوب وصيَّره قائدًا تهوى إليه الأفئدة، وألان من شكيمة قومه بعد الإباء، حتى دخلوا فى دين الله أفواجًا(١).

ولقد كان أنس ـ رضى الله عنه ـ يصف للناس الكثير والكثير من أخلاق الحبيب ﷺ.

فعن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال: «كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خُلقًا، وكان لى أخ يقال له: أبو عمير ـ قال أحسبه فطيمًا ـ وكان إذا جاء قال: «يا أبا عمير، ما فعل النغير» لنُغَر كان يلعب به، فربما حضر الصلاة وهو فى بيتنا، فيأمر بالبساط الذى تحته فيكنس وينضح،ثم يقوم ونقوم خلفه فيصلى بنا»(٢).

وعنه ـ رضى الله عنه ـ قال: «والله! لقد خدمته تسع سنين. ما علمته قال لشىء صنعته. لِمَ فعلت كذا وكذا؟ أو لشىء تركته هلا فعلت كذا وكذا»(٣).

وعنه ـ رضى الله عنه ـ قال: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خُلقًا، فأرسلنى يومًا لحاجة، فقلت: والله لا أذهب وفى نفسى أن أذهب لما أمرنى به نبى الله ﷺ فخرجت حتى أمُرَّ على صبيان وهم يلعبون فى السوق، فإذا رسول الله ﷺ قد قبض بقفاى من ورائى، قال: فنظرت إليه وهو يضحك. فقال: «يا أنيس! أذهبت حيث أمرتك؟» قال: قلت: نعم أنا أذهب يا رسول الله»(٤).

وعن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ قال: «كان النبى ﷺ إذا استقبله الرجل فصافحه لا ينزع يده من يده حتى يكون الرجل ينزع يده، ولا يصرف وجهه عن وجهه حتى يكون الرجل هو يصرفه، ولم يُر مقدِّمًا ركبتيه بين يدى جليسٍ له»(٥).

وعن أنس ـ رضى الله عنه ـ أيضًا قال: «كانت الأمة من إماء المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنطلقُ به حيث شاءت»(٦).

---

(١) الرحيق المختوم/ للمباركفورى (ص ٥٣٧) ط. قرطبة.
(٢) أخرجه البخارى (٦٢٠٣) الأدب ـ ومسلم (٢١٥٠) الأدب.
(٣) أخرجه مسلم (٢٣٠٩) الفضائل ـ باب كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خُلقًا.
(٤) أخرجه مسلم (٢٣١٠) الفضائل ـ باب كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خُلقًا.
(٥) رواه أبو داود (٤٧٩٤) وحسنه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود (٤٠٠٩).
(٦) أخرجه البخارى (٦٠٧٢) فى الأدب ـ باب الكبر.

وعن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال: «ما سُئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئًا إلا أعطاه. قال: فجاءه رجلٌ فأعطاه غنمًا بين جبلين، فرجع إلى قومه، فقال: يا قوم! أسلموا. فإن محمدًا يعطى عطاءً لا يخشى الفاقة»(١). أى الفقر.

وعن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ قال: دخل علينا النبى ﷺ فقال (أى نام للقيلولة) عندنا، فعرق وجاءت أُمِّى بقارورة، فجعلت تسلُتُ العرق فيها، فاستيقظ النبى ﷺ فقال: «يا أم سليم! ما هذا الذى تصنعين؟» قالت: هذا عَرقك نجعله فى طِيبنا وهو من أطيب الطيب(٢) أى تضع عرقه فى العطر.

وعن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهًا، وكان أجود الناس، وكان أشجع الناس، ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة فانطلق ناس من قِبَلَ الصوت، فتلقاهم رسول الله ﷺ راجعًا، وقد سبقهم إلى الصوت ـ وفى رواية: وقد استبرأ الخبر ـ وهو على فرس لأبى طلحة عُرْى(٣) فى عنقه السيف، وهو يقول: «لم تُراعوا، لم تُراعوا، قال: وجدناه بحرًا ـ أو إنه لبحرٌ ـ قال: وكان فرسًا يُبطَّأ»(٤).

أى يُعرف بالبطء والعجز وسوء السير.

ومن هنا اشتاق أنس ـ رضى الله عنه ـ لمرافقة النبى ﷺ فى الجنة كما رافقه فى الدنيا وكانت مرافقته للنبى ﷺ هى جنة الدنيا.

فعن أنس ـ رضى الله عنه ـ أن رجلاً سأل النبى ﷺ: متى الساعة؟ قال: «ما أعددت لها»؟ قال: ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة، ولكنى أُحب الله ورسوله، قال: «أنت مع من أحببت» قال أنس: فما فرحنا بشىء فرحنا بقول النبى ﷺ: «أنت مع من أحببت» فأنا أحب النبى ﷺ وأبا بكر وعمر، وأرجو أن أكون معهم بحبى إياهم، وإن لم أعمل بمثل أعمالهم»(٥).

فصحب أنسٌ نبيه ﷺ أتمَّ الصحبة، ولازمه أكمل المُلازمة منذ هاجر، وإلى أن مات، وغزا معه غير مرة، وبايع تحتَ الشجرة(٦).

(١) أخرجه مسلم (٢٣١٢) الفضائل ـ باب ما سُئل رسول الله ﷺ شيئًا قط فقال: لا.
(٢) أخرجه مسلم (٢٣٣١) الفضائل ـ باب قُرب النبى ﷺ من الناس وتبركهم به.
(٣) الفرس العُرى: أى ليس عليه سرج ولا أداة.
(٤) أخرجه البخارى (٢٩٠٨) الجهاد والسير ـ ومسلم (٢٣٠٧) الأدب.
(٥) متفق عليه عن أنس ـ صحيح الجامع (٦٦٨٩).
(٦) سير أعلام النبلاء للذهبى (٣/ ٣٩٧).

حفظه لسر النبي ﷺ

عن ثابتٌ عن أنس، قال: أتى عليَّ رسول الله ﷺ وأنا ألعبُ مع الغلمان. قال: فسلَّمَ علينا. فبعثني إلى حاجة. فأبطأتُ على أمي. فلمَّا جئتُ قالت: ما حبسك؟ قُلتُ: بعثني رسول الله ﷺ لحاجةٍ. قالت: ما حاجتُه؟ قلتُ: إنها سرٌ. قالت: لا تُحدثَّنَّ بسرِّ رسول الله ﷺ أحداً.

قال أنسٌ: واللهِ لو حدثتُ به أحداً لحدثتُكَ يا ثابتُ![1]

وفي رواية عن أنس بن مالك قال: أسرَّ إليَّ نبيُّ الله ﷺ سراً. فما أخبرتُ به أحداً بَعْدُ. ولقد سألتني عنه أمُّ سُليمٍ ـ أمه ـ فما أخبرتها به[2].

الفوز بدعاء النبي ﷺ له

وها هو أنس ـ رضي الله عنه ـ يفوز بدعاء النبي ﷺ له.

عن أنس، قال: دعَا لي رسول الله ﷺ فقال: «اللهمَّ أكثر مالَهُ وَوَلَدهُ، وأطل حياته»، فالله أكثر مالي حتى إنّ كرمًا لي ـ شجرة ـ لتحملُ في السَنة مرتين، ووُلِدَ لصلبي مئة وستَّة[3].

وعن أنس أن النبي ﷺ دخل على أمِّ سُليم، فأتته بتمر وسمن، فقال: «أعيدوا تمركم في وعائكم، وسمنكم في سقائكم، فإني صائم» ثم قام في ناحية البيت، فصلَّى بنا صلاةً غير مكتوبة، فدعا لأُمِّ سُليم وأهلِ بيتها، فقالت: يا رسول الله! إنَّ لي خُويصةً. قال: «وما هي»؟ قالت: خادمُك أنس. فما ترك خيرَ آخرة ولا دنيا إلا دعا لي به، ثم قال: «اللهم ارزُقهُ مالاً وولداً، وبارك له فيه». قال: فإني لمن أكثر الأنصار مالاً، وحدثتني أمينةُ ابنتي: أنه دُفن من صُلبي إلى مَقْدَم (الحجَّاج) البصرة تسعةٌ وعشرون ومئة[4].

وعن أنس قال: دخل النبي ﷺ علينا، وما هو إلا أنا وأمي وأم حرام خالتي فقال:

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤٨٢) (١٤٥) فضائل الصحابة.

(٢) أخرجه مسلم (٢٤٨٢) (١٤٦) فضائل الصحابة.

(٣) أخرجه ابن عساكر (٣/ ٨٠ ب) وأخرجه بنحوه البخاري في الأدب المفرد (٦٥٣)، وابن سعد (٧/ ١٩) من طريقين عن سنان بن ربيعة، عن أنس... قال الأرنؤوط: وسنده حسن.

(٤) أخرجه البخاري (٤/ ١٩٨، ١٩٩) في الصوم: باب من زار قومًا فلم يفطر عندهم.

قوموا فلأصلى بكم (فى غير وقت صلاة) فصلى بنا فقال رجل لثابت: أين جعل أنسًا منه؟ قال: جعله عن يمينه. ثم دعا لنا أهل البيت بكل خير من خير الدنيا والآخرة فقالت أمى: يا رسول الله! خويدمك أنس ادع الله له. قال: فدعا لى بكل خير، وكان فى آخر ما دعا لى به أن قال: «اللهم أكثِر ماله وولده وبارك له فيه»(١).

حزنه لفراق الحبيب ﷺ

وبعد عشر سنوات قضاها أنس ـ رضى الله عنه ـ فى خدمة الحبيب ﷺ رحل الحبيب إلى الرفيق الأعلى فحزن أنس عليه أشد الحزن حتى إنه أحسَّ أن الكون كله قد تغيَّر لموت النبى ﷺ وأن الدنيا قد أظلمت من حوله.

عن أنس قال: لما ثقل النبى ﷺ جعل يتغشاه، فقالت فاطمة عليها السلام: واكرب أبتاه، فقال لها: ليس على أبيك كرب بعد اليوم.

فلما مات قالت: يا أبتاه أجاب ربًا دعاه، يا أبتاه من جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه إلى جبريل ننعاه، فلما دُفن قالت فاطمة عليها السلام: يا أنس أطابت نفوسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب»(٢).

وعن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال: لما كان اليوم الذى دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شىء، فلما كان اليوم الذى مات فيه أظلم منها كل شىء، وما نفضنا عن النبى ﷺ الأيدى حتى أنكرنا قلوبنا»(٣).

قال الحافظ ابن رجب ـ رحمه الله ـ: لما توفى ﷺ اضطرب المسلمون فمنهم من دُهش فخولط، ومنهم من أُقعد فلم يطق القيام، ومنهم من اعتقل لسانه فلم يطق الكلام، ومنهم من أنكر موته بالكلية، وقال: إنما بُعث إليه(٤).

ولا شك أن موت النبى ﷺ من أعظم المصائب؛ لأن بموته انقطع الوحى من السماء إلى يوم القيامة وانقطعت النبوات وكان موته أول ظهور الشر والفساد بارتداد العرب عن الدين، فهو أول انقطاع عُرى الدين ونقصانه، وفيها غاية التسلية عن كل مصيبة تصيب العبد وغير ذلك من الأمور التى لا أحصيها.

---

(١) أخرجه مسلم (٦٦٠) عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ.
(٢) رواه البخارى (٧/ ٧٥٥) المغازى ـ وابن ماجه (١٦٣٠) الجنائز.
(٣) رواه الترمذى (١٣/ ١٠٤) المناقب ـ وصححه الألبانى فى مختصر الشمائل.
(٤) لطائف المعارف (١١٣ ـ ١١٤) باختصار.



قال ﷺ : «إذا أصاب أحدكم مصيبة فليذكر مصيبته بي، فإنها من أعظم المصائب»(١).

فاصبر لكل مصيبةٍ وتجلدِ ... واعلم بأن المرء غير مخلَّدِ

واصبر كما صبر الكرام فإنها ... نوب تنوب اليوم تُكشف في غدِ

أَوَ ما ترى أن المصائب جمة ... وترى المنية للعباد بمرصدِ

من لم يُصب ممن ترى بمصيبةٍ ... هذا سبيلٌ لست عنه بأوحدِ

فإذا ذكرت مصيبةً ومصابها ... فاذكر مُصابك بالنبي محمدِ

وعلى الرغم من ذلك فإن النبي ﷺ بيننا بشريعته الحية التي من سار عليها فلن يضل أبدًا، فقد قال ﷺ : «تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما: كتاب الله وسنتي، ولن يتفرقا حتى يردا على الحوض»(٢).

وقد أخبر النبي ﷺ عن الأجر العظيم لمن تمسك بدينه في زمان الفتن، فقال ﷺ : «يأتي على الناس زمان الصابر فيهم على دينه كالقابض على الجمر»(٣).

وعجلت إليك رب لترضى

عاش أنسُ بن مالك بعد وفاة الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ نيِّفًا(٤) وثمانين عامًا؛ ملأ خلالها الصدور علمًا من علمِ الرسول الأعظم ﷺ ، وأترعَ(٥) فيها العقولَ فقهًا من فقه النبوة...

وأحيا فيها القلوب بما بثهُ بين الصحابة والتابعين من هَدي النبي ﷺ ، وما أذاعهُ في الناس من شريف أقوال الرسولِ الأعظم ﷺ وجليل أفعاله.

وقد غدا أنس على طول هذا العُمر المديد مرجعًا للمسلمين، يفزعون إليه، كلما أشكل عليهم أمرٌ، ويُعوِّلون(٦) عليه كلما استغلق(٧) على أفهامهم حُكمٌ.

(١) رواه البيهقي عن ابن عباس، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٤٧).
(٢) رواه الحاكم عن أبي هريرة، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٩٣٧).
(٣) رواه الترمذي عن أنس، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٨٠٠٢).
(٤) نيِّفًا: زيادة على.
(٥) أترع: ملأ.
(٦) يعوِّلون: يعتمدون.
(٧) استغلق: أشكل عليهم وغمض.

ولقد ظل أنس بن مالك يعيشُ مع ذكرى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ما امتدت به الحياةُ...

فكان شديد البهجة بيوم لقائه، سَخِيَّ الدمعة على يوم فراقه، كثيرَ الترديد لكلامه...

حريصًا على متابعته في أفعاله وأقواله، يُحِبُّ ما أحبَّ، ويكرهُ ما كَرِه، وكان أكثر ما يذكره من أيامه يومان: يوم لقائه معه أول مرةٍ، ويوم مفارقته له آخر مرة.

فإذا ذكر اليوم الأول سَعِدَ به وانتشى[١]، وإذا خطر له اليوم الثاني انتحب وبكى، وأبكى مَن حوله من الناس.

وكثيرًا ما كان يقول: لقد رأيت النبي عليه الصلاة والسلام يوم دخل علينا، ورأيته يوم قُبض منا، فلم أرَ يومين يُشبهانهما[٢].

عبادته ـ رضي الله عنه ـ

قال أبو هريرة: ما رأيتُ أحدًا أشبه بصلاةِ رسول الله ﷺ من ابن أُم سُليم، ـ يعني أنسًا[٣].

وقال أنس بنُ سيرين: كان أنسُ بنُ مالك أحسنَ الناس صلاة في الحَضَرِ والسَّفرِ[٤].

وعن ثُمامة، قال: كان أنس يُصلِّي حتى تفطَّر قدماه دمًا، مما يُطيل القيامَ ـ رضي الله عنه ـ[٥].

وقال سليمان التيميُّ: سمعتُ أنسًا يقولُ: ما بقي أحدٌ صلَّى القبلتين غيري[٦].

وعن ثابت قال: كان أنس بن مالك إذا ختم القرآن جمع ولده وأهل بيته فدعا لهم[٧].

* * *

---

(١) انتشَى: كأنه شمَّ رائحة طيبة.

(٢) صور من حياة الصحابة (ص ١٣: ١٤).

(٣) قال الأرنؤوط: رجاله ثقات: أخرجه ابن سعد ـ وهو عند ابن عساكر (٣/ ٨٤ ب).

(٤) ابن عساكر (٣/ ٨٤ ب) نقلاً من السير للذهبي (٣/ ٤٠٠).

(٥) سير أعلام النبلاء للذهبي (٣/ ٤٠٠).

(٦) أخرجه البخاري (٨/ ١٣١) تفسير سورة البقرة ـ وابن سعد (٧/ ٢٠).

(٧) صفة الصفوة (١/ ٣٠٤).

كرامة ثابتة

عن ثابتُ البُنَاني قال: جاء قَيِّمُ أرضِ أنس، فقال: عطشت أرضُوك؛ فتردَّى أنسٌ، ثم خرج إلى البرِّيَّة، ثم صلَّى، ودعا، فثارت سحابةٌ، وغشيت أرضه ومطرتْ، حتى ملأت صهريجه، وذلك في الصيف، فأرسل بعض أهله، فقال: انظر أين بلغت؟ فإذا هي لم تعدُ أرضه إلا يسيراً[1].

قال الإمام الذهبي ـ رحمه الله ـ:قلت: هذه كرامة بيِّنة ثبتت بإسنادين[2].

أنس ـ رضي الله عنه ـ يرى النبي ﷺ كل ليلة في منامه

قال المُثنى بن سعيد: سمعتُ أنسًا يقولُ: ما مِنْ ليلةٍ إلا وأنا أرى فيها حبيبي. ثم يبكي[3].

الله أكبر!!! تالله إننا لنشتاق إلى رؤية الحبيب ﷺ ولو مرة واحدة... وأنس ـ رضي الله عنه ـ يراه كل ليلة في منامه.

ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

وحان وقت الرحيل

وبعد حياة طويلة مليئة بالسعادة والسرور لصحبته للحبيب ﷺ... وبالتضحية والبذل والعطاء ـ لرجائه فيما عند الله ـ نام أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ على فراش الموت ليلحق بالحبيب ﷺ بعد أن ملأ الدنيا كلها بحديث رسول الله ﷺ.

فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.. وجمعنا الله به وبالحبيب ﷺ في جنته ومستقر رحمته.

فرضي الله عن أنس وعن سائر الصحابة أجمعين

* * *

(١) ابن عساكر (٣/ ٨٥) نقلاً من السير للذهبي (٣/ ٤٠٠).

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي (٣/ ٤٠١).

(٣) قال الأرنؤوط: رجاله ثقات: أخرجه ابن سعد (٧/ ٢٠).

خبّاب بن الأرت

رحم الله خبابًا فلقد أسلم راغبًا وهاجر طائعًا وعاش مجاهدًا

علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)

بينما كان هذا الصبي الذكى المبارك (خبّاب بن الأرت) يعيش بين أهله وأحبابه من قبيلة (بنى تميم) إذ أغارت قبيلة أخرى على قبيلته فسبت النساء واستاقت الأنعام وأخذت الذرارى وكان هو من بينهم.

وظل (خبّاب) تتداوله الأيدى حتى وصل إلى مكة فاشترته (أم أنمار الخُزاعية) من سوق النخاسين بعد أن رأت فيه ما يغريها على شرائه من صحة البدن وعلامات الذكاء والفطنة. ومضت به إلى بيتها، ثم دفعته بعد ذلك إلى قَيِّنٍ ـ حدّاد ـ ليتعلم منه فن صناعة السيوف.

وبالفعل لم تمضِ سوى فترة يسيرة حتى أتقن الغلام فن صناعة السيوف، بل وصار بارعًا فى صناعتها فاستأجرت له «أم أنمار» دُكّانًا ليتولى هو بنفسه صناعة السيوف ولتربح من ورائه الكثير والكثير.

وكان الناس تزداد ثقتهم به يومًا بعد يومٍ مما يرون من براعته فى صناعة السيوف، بل ومن صدقه وأمانته وأخلاقه الطيبة وبسمته التى لا تفارق وجهه.

النور يشق ظلام الجاهلية

وظل خباب على تلك الحالة وهو يفكر ليلاً ونهارًا ويقول فى نفسه: كيف الخلاص من تلك الجاهلية التى يعيشها الناس فى تلك المجتمعات ـ والتى كان هو ضحية من ضحاياها ـ؟.

وإذا بالنور يأتى ليشقَّ ظلام الجاهلية.. فيسمع خبَّاب من الناس من حوله أن هناك فتىً يزعم أنه نبى، وأن الله أرسله إليهم.. فأحسّ خبّاب أن الله أحياه فى تلك اللحظة بهذا الخبر العظيم.

وفى التو واللحظة ترك دُكّانه ومضى إلى النبى ﷺ وأقدامه تسابق الريح.

إنه يبحث عن خيط، بل عن زورق النجاة فى بحار الفتن، وها هو زورق النجاة جاء قريبًا منه وما عليه إلا أن يمسك بطرف الخيط ليركب هذا الزورق الذى فيه النجاة.

وما إن رأى الحبيب ﷺ حتى دمعت عيناه وبسط يده ونطق الشهادتين، فكان سادس ستة أسلموا فى هذا الكون كله لله ـ جل وعلا ـ.

ثبات على المبدأ

عن خبّاب، قال: كنت قينًا بمكة، فعملت للعاص بن وائل سيفًا، فجئت أتقاضاه، فقال: لا أعطيك حتى تكفر بمحمد. فقلت: لا أكفر بمحمد ﷺ حتى تموت ثم تُبعث. فقال: إذا بُعثت كان لى مال، فسوف أقضيك. فقلت ذلك لرسول الله ﷺ. فأُنزلت: ﴿ أفرأيت الذي كفر بآياتنا ﴾ [مريم:٧٨][(١)].

رحلة العذاب فى سبيل الله

وما إن لامس الإيمان شغاف قلبه ـ الذى كان فى أشد شوقه لهذا النور ـ حتى قام لينفض غبار الجاهلية. ويصدع بكلمة الحق لا يصدهُّ صادّ ولا يردهُّ رادّ فقام وأعلن إسلامه.

وما إن وصل خبر إسلامه إلى «أم أنمار» حتى مضت إليه مع أخيها «سِباع ابن عبد العُزى» ومعهما مجموعة من فتيان «خُزاعة» ومضوا إلى خبّاب وبعد أن تيقنوا من خبر إسلامه قاموا جميعًا يضربونه ويعذبونه أشد أنواع التعذيب.

فكانوا إذا اشتدت الهاجرة وكادت الشمس أن تُذيب الصخور أخرجوه إلى بطحاء مكة، ونزعوا عنه ثيابه وألبسوه دروع الحديد ومنعوا عنه الماء حتى إذا بلغ منه الجهد كل مبلغ طلبوا منه أن يكفر بدين محمد ﷺ وأن يقول خيرًا فى اللات والعُزى.. فيأبى خبَّاب بكل عزة وثبات أن يفعل ما يريدون.

لقد كان حظ «خبّاب» من العذاب كبيرًا، ولكن صبره وتضحيته من أجل الحق كانت أكبر وأعظم بكثير.

(١) أخرجه البخارى (٨/ ٣٢٧) وهو فى الطبقات لابن سعد (٣/ ١٦٤).

لقد كانوا يقاومون إيمانه بالعذاب، وكان هو يقاوم العذاب بالصبر والتضحية.

وكان ـ رضى الله عنه ـ مولى لأم أنمار بنت سباع الخزاعية، فكان المشركون يذيقونه أنواعًا من التنكيل، يأخذون بشعر رأسه فيجذبونه جذبًا، ويلوون عنقه تلوية عنيفة، وأضجعوه مرات عديدة على فحام ملتهبة، ثم وضعوا عليه حجرًا، حتى لا يستطيع أن يقوم[1].

لقد حوّلوا كل الحديد الذى كان عنده يصنع منه السيوف إلى قيود وسلاسل يُحمى عليها فى النار حتى تستعر وتتوهج ثم يُطوقون بها جسده ويديه وقدميه.

حتى قال خباب: «شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بُرْدَة فى ظل الكعبة، فقلنا: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو لنا؟؟ فقال: «قد كان من قبلكم يُؤخذ الرجل فيُحفر له فى الأرض فيُجعل فيها، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيُجعل نصفين، ويُمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمّن الله تعالى هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت فلا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»[2].

إن النبى ﷺ لا يدخر جهدًا فى نُصح أصحابه وتربيتهم على الصبر والثبات والثقة بنصر الله ـ عز وجل ـ ووعده، فقد أتاه خباب بعد أن عُذب هذا العذاب الأليم والنبى ﷺ يُعلمه بل ويعلم الأمة كلها أن أصحاب الدعوة لابد لهم من الابتلاء، فإن ثبتوا على الحق وآثروا مراد الشرع نصرهم الله ـ عز وجل ـ وأعزهم. فلا يتم التمكين إلا بعد المحنة والصبر والثبات[3].

وتلك هى سُنة الله فى عباده المؤمنين.. تلك السُنة التى لا تتبدل ولا تتغير أبدًا.

قال تعالى: ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت:٢، ٣]، **وقال تعالى:** ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة:٢١٤].

---

(١) رحمة للعالمين (١/ ٥٧).
(٢) أخرجه البخارى (٧/ ٢٠٣) مناقب الأنصار.
(٣) مواقف إيمانية لأحمد فريد (ص: ٢٥٤).

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: والمقصود: أن الله سبحانه اقتضت حكمته أنه لابد أن يمتحن النفوس ويبتليها، فيظهر بالامتحان طيبها من خبيثها، ومن يصلح لموالاته وكرامته ومن لا يصلح، وليمحص النفوس التى تصلح له ويخلصها بكير الامتحان، كالذهب الذى لا يخلص ولا يصفو من غشّه إلا بالامتحان، إذ النفس فى الأصل جاهلة ظالمة، وقد حصل لها من الجهل والظلم من الخبث ما يحتاج خروجه إلى السبك والتصفية، فإن خرج فى هذه الدار وإلا ففى كير جهنم، فإذا هُذِّب العبد ونُقِّى أُذن له فى دخول الجنة[1].

العدل الإلهى والهجرة المباركة

فلما رأى رسول الله ﷺ ما يُصيب أصحابه من البلاء، وما هو فيه من العافية، لمكانه من الله ومن عمه أبى طالب، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء، قال لهم: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكًا لا يُظلم عنده أحدٌ، وهى أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجًا مما أنتم فيه»[2]. فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة، مخافة الفتنة، وفراراً إلى الله بدينهم، فكانت أول هجرة كانت فى الإسلام.

ولما أذن الرسول صلوات الله وسلامه عليه لأصحابه بالهجرة إلى المدينة تهيأ خباب للخروج، غير أنه لم يُبارح[3] مكة إلا بعد أن استجاب الله دُعاءه على أم أنمار... فقد أُصيبت بصداع لم يُسمع بمثلٍ آلامه قط؛ فكانت تعوى من شدة الوجع كما تعوى الكلابُ... وقام أبناؤها يستطبون[4] لها فى كل مكان، فقيل لهم: إنه لا شفاء لها من أوجاعها إلا إذا دأبت على كَى رأسها بالنار... فجعلت تكوى رأسها بالحديد المحمى، فتلقى من أوجاع الكى ما يُنسيها آلام الصداع[5].

* * *

(١) زاد المعاد للإمام ابن القيم (٣/ ١٨) ط. دار الرسالة.

(٢) ذكره ابن إسحاق كما ترى من غير إسناد وابن كثير فى البداية (٣/ ٦٦) من بلاغات ابن إسحاق ـ نقلاً من السيرة لابن هشام (١/ ٢٦٦).

(٣) يبارح: يغادر.

(٤) يستطبون لها: يبحثون لها عن الأطباء.

(٥) صور من حياة الصحابة (ص: ٤٢٩).

وحان وقت العمل لهذا الدين

وبعد تلك الهجرة المباركة والنجاة من عذاب كفار قريش آن لهذا الجسد المُتعَب أن يستريح قليلاً ليستردَّ قواه وليبدأ مرحلة جديدة من العمل لهذا الدين.

فذاق خبّاب طعم الراحة التى حُرِم منها زمانًا طويلاً. ذاقها لأول مرة عندما أسلم بين يدى الحبيب ﷺ وذاقها مرة أخرى يوم أن هاجر إلى المدينة والتقى بإخوانه من الأنصار.

وها هو يبدأ صفحة جديدة مليئة بالجهاد والبذل والتضحية.. فيشهد مع النبى ﷺ غزوة بدر.

ثم يشهد غزوة أُحد ويثلج الله صدره ويقر عينه برؤية «سباع بن عبد العُزى» أخى «أم أنمار» وهو يلقى مصرعه على يد أسد الله وأسد رسول الله ﷺ (حمزة بن عبد المطلب) ـ رضى الله عنه ـ.

وشهد (خبَّاب) المشاهد مع رسول الله ﷺ وهو يتمنى أن ينال الشهادة فى سبيل الله.

وحان وقت الرحيل

وطالت الحياة بخبّاب حتى أدرك عهد الخلفاء الأربعة ـ رضى الله عنهم ـ وكانوا يحبونه ويوقرونه ويعرفون له قدره ومنزلته.

فها هو يدخل على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ فأجلسه على متكئه فقال: ما على الأرض أحدٌ أحق بهذا المجلس من هذا إلا رجل واحد، قال له خباب: من هو يا أمير المؤمنين؟ قال: بلال. فقال خباب: ما هو بأحق منى... إن بلالاً كان له فى المشركين من يمنعه الله به، ولم يكن لى أحدٌ يمنعنى، فلقد رأيتنى يومًا أخذونى فأوقدوا لى نارًا ثم سلقونى فيها، ثم وضع رجلٌ رجله على صدرى، فما اتقيت الأرض ـ أو قال: برد الأرض ـ إلا بظهرى، قال: ثم كشف عن ظهره فإذا هو قد بَرَص[1].

وبعد عمرٍ طويلٍ مليء بالعذاب والبذل والتضحية نام خبّاب على فراش الموت، وهو فى أشد الشوق للقاء الحبيب ﷺ.

---

(١) الطبقات لابن سعد (٣/ ١١٧).

عن طارق بن شهاب قال: جاء خبابًا نفرٌ من أصحاب محمد ﷺ فقالوا: أبشر يا أبا عبد الله، إخوانك تقدم عليهم غدًا. فبكى، وقال: أما إنه ليس بى جزع، ولكن ذكَّرتمونى أقوامًا وسميتم لى إخوانًا، وإن أولئك مضوا بأجورهم كما هى، وإنى أخاف أن يكون ثواب ما تذكرون من تلك الأعمال ما أوتينا بعدهم.

وعن أبى وائل شقيق بن سلمة قال: دخلنا على خباب بن الأرت فى مرضه فقال: إن فى هذا التابوت ثمانين ألف درهم، والله ما شددت لها من خيط، ولا منعتها من سائل. ثم بكى فقيل: ما يبكيك؟ فقال: أبكى أن أصحابى مضوا ولم تنقصهم الدنيا شيئًا وإنّا بقينا بعدهم حتى ما نجد موضعًا إلا التراب.

وعن قيس بن أبى حازم قال: أتينا خباب بن الأرت نعوده وقد اكتوى فى بطنه سبعًا، فقال: لولا أن رسول الله ﷺ نهانا أن ندعوا بالموت لدعوت به، فقد طال مرضى. ثم قال: إن أصحابنا الذين مضوا لم تنقصهم الدنيا شيئًا، وإنا أُعطينا بعدهم ما لا نجد له موضعًا إلا التراب[1].

وهكذا لم يحجب نفسه عن دين الله لحظة واحدة ولم يحجب ماله عن الفقراء طرفة عين، وفاضت روحه إلى بارئها ليجبر الله كسره فى الجنة ولينسى العذاب الذى كان فى الدنيا ولينعم بصحبة الحبيب ﷺ وأصحابه ـ رضى الله عنهم ـ.

وتوفى خباب بالكوفة سنة سبع وثلاثين، وهو ابن ثلاث وسبعين سنة، وصلى عليه على بن أبى طالب حين منصرفه من صفين، وهو أول من قُبر بظهر الكوفة[2].

وقال (علىّ) ـ رضى الله عنه ـ وهو واقف على قبره: رحم الله خبابًا فلقد أسلم راغبًا وهاجر طائعًا وعاش مجاهدًا.

فرضى الله عن خباب وعن سائر الصحابة أجمعين

* * *

(١) صفة الصفوة (١/ ١٧٦).

(٢) صفة الصفوة (١/ ١٧٧).

سعد بن معاذ

هذا الذى تحرك له العرش وفتحت له أبواب السماء
وشهده سبعون ألفًا من الملائكة

محمد رسول الله ﷺ

إننا اليوم على موعد مع رجل فريد أجد نفسى ـ والله ـ عاجزًا عن أن أتكلم فى حقه كلمة واحدة... ولم لا؟ وهو الذى لما أسلم أشرقت المدينة كلها بإسلامه... إنه الرجل الذى وقف موقفًا عظيمًا فى غزوة بدر سطَّره على جبين التاريخ بسطور من النور... إنه الرجل الذى حكم بحكم الله من فوق سبع سموات... بل هو الذى اهتز عرش الرحمن لموته وشيعه سبعون ألفًا من الملائكة بل وحملوا جنازته.

إن السموات السبع والأرضين السبع وما بينهما بالنسبة لعرش الرحمن كحلقة أُلقيت فى فلاة... يهتز هذا العرش لموت رجل مسلم فيا تُرى كيف يكون قدر هذا الرجل الذى يهتز عرش الرحمن لموته.

إننا على موعد مع الصحابى الجليل سعد بن معاذ.

* عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت: كان فى بنى عبد الأشهل ثلاثة لم يكن أحد أفضل منهم: سعد بن معاذ، وأُسيد بن حُضير، وعباد بن بشر(١).

قال المناوى: قال ابن القيم: كان سعد فى الأنصار بمنزلة الصدِّيق (أبى بكر) فى المهاجرين، لا تأخذه فى الله لومة لائم، وخُتم له بالشهادة، وآثر رضا الله ورسوله على رضا قومه وحلفائه، ووافق حُكْمُهُ حُكم الله من فوق سبع سموات، ونعاه جبريل عليه السلام يوم موته، فحق له أن يهتز العرش له(٢). وهذا متواتر.

* * *

(١) الإصابة للحافظ ابن حجر (٣/ ٧١).
(٢) فيض القدير للمناوى (٣/ ٦٤).

أسلم (سعد) فأشرقت شمس الإسلام على المدينة كلها

وتعالوا بنا لنعرف كيف دخل النور إلى قلب سعد وكيف كانت قصة إسلامه لله ـ جل وعلا ـ بل وكيف أنه لما أسلم أشرقت شمس الإسلام على المدينة كلها.

لقد كان سعد سيدًا في قومه، وكان مشركًا وقتها، فلما أرسل النبي ﷺ مصعب بن عمير ـ رضي الله عنه ـ سفيرًا للدعوة إلى الله تعالى في المدينة المنورة... وأسلم سعد على يديه، فكان إسلامه فاتحة خير على المدينة كلها.

فلقد كان إسلامه سببًا في أن تُشرق شمس الإسلام على المدينة كلها.

روى ابن إسحاق: أن أسعد بن زُرارة خرج بمصعب بن عمير يريد به دار بني عبد الأشهل، ودار بني ظَفَر، وكان سعد بن مُعاذ (ابن خالة أسعد بن زرارة)، فدخل به حائطًا من حوائط بني ظفر.

على بئر يقال لها: بئر مَرَق، فجلسا في الحائط، واجتمع إليهما رجال ممن أسلم، وسعد بن معاذ، وأُسيد بن حُضَير، يومئذ سيدا قومهما من بني عبد الأشهل، وكلاهما مُشرك على دين قومه، فلما سمعا به قال سعد ابن معاذ لأُسيد بن حضير: لا أبا لك، انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارينا ليُسفِّها ضُعفاءنا، فازجُرهما وانههما عن أن يأتيا دارينا، فإنه لولا أن أسعد بن زرارة مني حيث [ما] قد علمت كفيتُك ذلك، هو ابن خالتي ولا أجد عليه مقدمًا، قال: فأخذ أُسيد بن حُضير حربته ثم أقبل إليهما، فلما رآه أسعدُ بن زرارة قال لمصعب بن عمير: هذا سيد قومه قد جاءك فاصدُق الله فيه؛ قال مصعب: إن يجلس أكلمه. قال: فوقف عليهما متشتمًا، فقال: ما جاء بكما إلينا تسفّهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة؛ فقال له مصعب: أوَ تجلسُ فتسمعَ، فإن رضيتَ أمرًا قبلته، وإن كرهته كُفَّ عنك ما تكره؟ قال: أنصفتَ، ثم ركز حربته وجلس إليهما، فكلّمه مُصعب بالإسلام، وقرأ عليه القرآن؛ فقالا، فيما يُذكر عنهما: والله لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلّم في إشراقه وتسهّله، ثم قال: ما أحسنَ هذا [الكلام] وأجمله! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟ قالا له: تغتسل وتطهّر ثوبيك ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي، فقام فاغتسل وطهر ثوبيه، وتشهد شهادة الحق، ثم قام فركع ركعتين، ثم قال لهما: إنّ ورائي رجلاً إن اتبعكما لم يتخلّف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكما الآن، (سعد بن معاذ)، ثم أخذ حربته وانصرف إلى

سعد وقومه وهم جلوس في ناديهم، فلما نظر إليه سعد ابن معاذ مُقبلاً قال: أحلف بالله لقد جاءكم أُسيد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف على النادي قال له سعد: ما فعلت؟ قال: كلَّمت الرجلين، فوالله ما رأيت بهما بأسًا، وقد نهيتُهما، فقالا: نفعل ما أحببتَ، وقد حُدِّثت أن بني حارثة قد خرجوا إلى أسعد بن زُرارة ليقتلوه، وذلك أنهم [قد] عرفوا أنه ابن خالتك ليُخفروك(١). قال: فقام سعد مُغضبًا مبادرًا، تخوفًا للذي ذُكر [له] من بني حارثة، فأخذ الحربة من يده، ثم قال: والله ما أراك أغنيت شيئًا، ثم خرج إليهما؛ فلما رآهما سعدٌ مطمئنين، عرف سعدٌ أن أُسيدًا إنما أراد منه أن يسمع منهما، فوقف عليهما متشتمًا، ثم قال لأسعد بن زُرارة: يا أبا أمامة، [أما والله] لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رُمت هذا مني(٢)، أتغشانا في دارينا بما نكره؟ ـ وقد قال أسعدُ بن زرارة لمصعب بن عمير: أي مصعب، جاءك والله سيدُ مَنْ وراءه من قومه، إن يتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان ـ قال: فقال له مصعب: أوَ تقعد فتسمع، فإن رضيت أمرًا ورغبت فيه قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره؟ قال سعد: أنصفت. ثم ركز الحربة وجلس، فعرض عليه الإسلام وقرأ عليه القرآن. قال: فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم، لإشراقه وتسهله؛ ثم قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم في هذا الدين؟ قالا: تغتسل فتطهر وتطهر ثوبيك ثم تشهَّد شهادة الحق، ثم تصلي ركعتين، قال: فقام فاغتسل وطهر ثوبيه، وتشهد شهادة الحق، ثم ركع ركعتين، ثم أخذ حربته فأقبل عامدًا إلى نادي قومه ومعه أُسيد ابن حضير.

قال: فلما رآه قومه مقبلاً قالوا: نحلف بالله لقد رجع إليكم سعدٌ بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل، كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا [وأوصلنا] وأفضلنا رأيًا، وأيمننا نقيبة(٣)؛ قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم عليَّ حرامٌ حتى تؤمنوا بالله وبرسوله.

قالا: فوالله ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجلٌ ولا امرأة إلا مسلمًا ومسلمة، ورجع أسعد ومصعب إلى منزل أسعد بن زرارة، فأقام عنده يدعو الناس إلى الإسلام،

---

(١) ليخفروك: وفي بعض النسخ «ليحفروك». وأخفره: نقض عهده وخاس به وغدره، وأخفر الذمة: لم يف بها.

(٢) ما رُمتَ هذا مني: أي ما طمعت فيه ولا بلغته.

(٣) أيمننا نقيبة: النقيبة أيمن النعل، وقال ابن بُزرج: اللهم نقيبة أي نفاذ رأي، ورجل ميمون النقيبة: مبارك النفس، مظفر بما يحاول. [لسان/ نقب].

حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون[١]....

وهكذا أسلم سعد ـ رضي الله عنه ـ وحمل أمانة هذا الدين على أعناقه وذهب يدعو الناس إلى دين الملك ـ جل وعلا ـ وقلبه يتلهف شوقًا لرؤية الحبيب ﷺ... وهكذا تكون ثمرة الدعوة الرحيمة.

فلما أذن الله لحبيبه ﷺ بالهجرة فرح (سعد) بمقدم النبي ﷺ فرحًا لا يستطيع القلم وصفه وظلَّ ملازمًا له يقبس من علمه وهديه وأخلاقه.

وأحبَّ النبي ﷺ حبًا جعله يتمنى أن يفديه بنفسه وماله.

موقف تاريخي في غزوة بدر

وها هي اللحظة التاريخية التي أظهر فيها سعد إيمانه وعقيدته وولاءه فوقف موقفًا عظيمًا لنصرة هذا الدين.

لما تحوَّل الموقف يوم بدر من مجرد الحصول على العير إلى قتال بين المسلمين والمشركين أراد النبي ﷺ أن يعرف رأي الصحابة قبل الدخول في تلك المعركة الحاسمة فاستشار أصحابه ـ وقال: أشيروا عليَّ أيها الناس ـ فتكلم أبو بكر الصديق فقال وأحسن، ثم قام عمر بن الخطاب فقال وأحسن، وكذلك المقداد بن عمرو، وهؤلاء القادة الثلاثة الذين كانوا من المهاجرين، وهم أقلِّية في الجيش، فأحب رسول الله ﷺ أن يعرف رأي قادة الأنصار؛ لأنهم كانوا يمثلون أغلبية الجيش، ولأن ثقل المعركة سيدور على كواهلهم، مع أن نصوص العقبة ـ بيعة العقبة ـ لم تكن تُلزمهم بالقتال خارج ديارهم، فقال بعد سماع كلام هؤلاء القادة الثلاثة: «أشيروا عليّ أيها الناس» وإنما يريد الأنصار، وفطن إلى ذلك قائد الأنصار، وحامل لوائهم سعد ابن معاذ، فقال: والله، لكأنك تريدنا يا رسول الله؟

قال: «أجل»، قال: فقد آمنا بك، فصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما

---

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٤٣٨، ٤٣٩) وذكره الهيثمي في المجمع (٦/ ٤٢)، وقال: رواه الطبراني مرسلاً وفيه ابن لهيعة وفيه ضعف وهو حسن الحديث. وذكره ابن كثير في البداية (٣/ ١٥٢) من طريق ابن إسحاق وإسناده صحيح. وهذه قصة مشهورة صرح فيها ابن إسحاق بالسماع وذكره ابن سيد الناس في عيون الأثر (١/ ٢٦٨، ٢٦٩).

أردت فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدواً غداً، إنا لصبرٌ في الحرب، صُدُقٌ في اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله.

وفي رواية: أن سعد بن معاذ قال لرسول الله ﷺ: لعلك تخشى أن تكون الأنصار ترى حقًا عليها أن لا تنصرك إلا في ديارهم، وإني أقول عن الأنصار، وأجيب عنهم: فاظعن حيث شئت، وصِل حبل مَن شئت، واقطع حبل من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، وأعطنا ما شئت، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت، وما أمرت فيه من أمر فأمرنا تبع لأمرك، فوالله لئن سرت حتى تبلغ البرك من غمدان لنسيرن معك، والله لئن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك.

فسُرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد، ونشّطه ذلك، ثم قال: «سيروا وأبشروا؛ فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم»(١).

والله لا نعطيهم إلا السيف

وفي يوم الأحزاب لما تكالبت قُوى الشرك بكتائبها الهائجة، وكادت تُغرق القلة المؤمنة،أراد رسول الله ﷺ أن يعقد صلحًا منفرداً بينه وبين غطفان،وسيديها: عيينة بن حصن والحارث بن عوف، على أن تفك غطفان الحصار عن المدينة، وتنسحب بجيوشها وتخذل الأحزاب، على أن يعطيهم رسول الله ﷺ ثلث ثمار نخل المدينة، واستشار رسول الله السعدين (سعد ابن معاذ وسعد بن عُبادة)، فقال سعد بن معاذ: يا رسول الله، قد كنا نحن وهؤلاء القوم ـ يعني غطفان ـ لا يطمعون أن يأكلوا منا تمرة، إلا قرى(٢) أو بيعًا، وإن كانوا ليأكلون العلهز(٢) في الجاهلية في الجهد، أفحينَ أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له، وأعزّنا بك وبه نُقَطعهم أموالنا؟! ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف، حتى يحكم الله بيننا وبينهم. ثم خرج سعد إلى سيدي غطفان وقد رفع صوته في تحدٍّ: ارجعا، ليس بيننا وبينكم غير السيف.

---

(١) أورده ابن هشام في السيرة (٢/ ٤٤٧) بدون سند ، وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٨) (٨/ ٤٦٩)، والبيهقي في الدلائل (٣/ ٣٤)، وذكره الحافظ في الفتح (٧/ ٢٨٨) من حديث علقمة بن وقاص مرسلاً، وفي الباب عن أنس عند مسلم (١٧٧٩).

(٢) القِرَى: الضيافة، والعلهز: وبر يُخلط بدماء اللحم، كانت العرب في الجاهلية تأكله في الجَدْب.

يا للرجال! فى وقت بلغت القلوب الحناجر من شدة الكرب وتقاطر البلايا؟! كلمات تصدر من فم الصادق سعد، تتفجر منها ينابيع الرجولة والشجاعة والأنفة، فتبثُّ الأمل فى نفوس المسلمين، وتُدهش سيدى غطفان؛ فيفيقوا، ويعلّمهم سعد أن الذى يصنع النصر قوةُ العقيدة، وزخم الإيمان بالله والثقة به[١].

(سعد) يحكم بحكم الله من فوق سبع سماوات

بل ها هو ـ سعد ـ مرة أخرى يحكم بحكم الله تعالى من فوق سبع سموات... ألم أقل لكم إننى أشعر بقمة العجز وأنا أتكلم عن مناقب هذا الصحابى الجليل.

عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ فى قصة جرح سعد بن معاذ وغزوة الخندق قالت ـ رضى الله عنها ـ: خرجت يوم الخندق أقفو آثار الناس، فسمعت وئيد الأرض من ورائى ـ يعنى حس الأرض ـ قالت: فإذا أنا بسعد ابن معاذ ومعه ابن أخيه الحرث بن أوس يحمل مجنة. قالت: فجلست إلى الأرض فمر (سعد) وعليه درع من حديد قد خرجت منه أطرافه، فأنا أتخوف على أطراف سعد، وكان سعد من أعظم الناس وأطولهم فمر وهو يرتجز ويقول:

لبِّث قليلاً يُدرِكُ الهيجــا حملُ   ما أحسن الموتَ إذا حانَ الأجلُ

قالت: فاقتحمت حديقة فإذا فيها نفر من المسلمين، وإذا فيها عمر بن الخطاب وفيهم رجل عليه تسبغة[٢] له يعنى المغفر، فقال عمر: ما جاء بك لعمرى إنك لجريئة، وما يؤمنك أن لا يكون تجوز. قالت: فما زال يلومنى حتى تمنيت أن الأرض انشقت لى ساعتئذ فدخلت فيها قال: فرفع الرجل التسبغة عن وجهه فإذا طلحة بن عبيد الله. فقال: ويحك يا عمر إنك قد أكثرت منذ اليوم، وأين التجوز والفرار إلا إلى الله تعالى. قالت: ويرمى سعداً رجلٌ من المشركين من قريش يقال له ابن العرقة بسهم له فقال له: خذها وأنا ابن العرقة، فأصاب أكحله فقطعه ـ العرق ـ فدعا الله سعد فقال: اللهم لا تُمتنى حتى تُقرّ عينى من بنى قريظة فيخرجوا من صياصيهم[٣] ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة وأمر بقبة من أدم فضُربت على سعد فى المسجد قالت: فلبس رسول الله ﷺ لأمته

---

(١) نقلاً من علو الهمة/ د. سيد حسين (٣/ ٣٧١ ـ ٣٧٢).

(٢) التسبغة: شيء من حلق الدروع والزرد يعلق بالخوذة دائراً معها ليستر الرقبة وجيب الدرع.

(٣) أى حصونهم، وكل شيء امتنع به وتحصن فهو صيصة.

وأذَّن في الناس بالرحيل أن يخرجوا، فخرج رسول الله ﷺ فمر على بني غنم، وهم جيران المسجد، فقال: مَن مر بكم؟ فقالوا: مر بنا دحية الكلبي، وكان دحية تشبه لحيته ووجهه جبريل عليه السلام. قالت: فأتاهم رسول الله ﷺ فحاصرهم خمسة وعشرين ليلة، فلما اشتد حصرهم واشتد البلاء، قيل لهم: انزلوا على حكم رسول الله ﷺ ، فاستشاروا (أبا لبابة بن عبد المنذر)، فأشار إليهم أنه الذبح. فقالوا: ننزل على حكم سعد ابن معاذ، وبعث رسول الله ﷺ إلى سعد بن معاذ فأُتي به على حمار عليه إكاف من ليف قد حُمِل عليه وحَفَّ به قومه، وقالوا له: يا أبا عمرو حلفاؤك ومواليك وأهل النكاية ومن قد علمت، فلم يرجع إليهم شيئًا ولا يلتفت إليهم، حتى إذا دنا من دورهم التفت إلى قومه فقال: قد أنى لي أن لا يأخذني في الله لومة لائم. قال أبو سعيد: فلما طلع قال رسول الله ﷺ قوموا إلى سيدكم فأنزلوه. قال عمر: سيدنا الله. قال أنزلوه فأنزلوه. قال رسول الله ﷺ : احكم فيهم. قال سعد: فإني أحكم فيهم أن تُقتل مقاتلتهم وتُسبى ذراريهم وتقسم أموالهم، فقال رسول الله ﷺ : لقد حكمت فيهم بحكم الله - عز وجل - وحكم رسوله. قال: ثم دعا سعد فقال: اللهم إن كنت أبقيت على نبيك من حرب قريش شيئًا فأبقني لها، وإن كنت قطعت الحرب بينه وبينهم فاقبضني إليك. قالت: فانفجر كَلْمه - جُرحه - وكان قد برأ إلا مثل الخرص(1).

قالت: ورجع إلى قبته التي ضرب عليه رسول الله ﷺ قالت عائشة: فحضره رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر. قالت: فوالذي نفس محمد بيده إني لأعرف بكاء عمر من بكاء أبي بكر وأنا في حجرتي، وكانوا كما قال الله - عز وجل -: ﴿رُحماءُ بينهُم﴾. قال علقمة : فقلت : أي أمه فكيف كان رسول الله ﷺ يصنع؟ قالت: كانت عينه لا تدمع على أحد، ولكنه كان إذا وجد فإنما هو آخذ بلحيته(2).

وفي بني قريظة نزل قول الله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب:٢٦، ٢٧].

❊ ❊ ❊

(١) الحلقة الصغيرة من الحلمة.

(٢) قال الهيثمي: في الصحيح بعضه رواه أحمد وفيه محمد بن عمرو بن علقمة وهو حسن الحديث وبقية رجاله ثقات. مجمع الزوائد (٦/ ١٣٧، ١٣٨).

أدب صديق الأنصار (سعد بن معاذ) مع النبي ﷺ

وفي رواية:أنه لما وصل سيد الأوس سعد بن معاذ إلى مقرِّ قيادة النبي ﷺ في بني قريظة؛ قال له النبي ﷺ: «احكمْ فيهم يا سعد». فقال: إن رسول الله ﷺ أحقُّ بالحكم. فقال النبي ﷺ: «قد أمَرَكَ الله أن تحكم فيهم».. غير أن سعدًا ـ وقد علم حرص قومه الأوس على التساهل في الحكم على حلفائهم اليهود ـ أحبَّ أن يستوثق من الجميع، ويأخذ عليهم العهد ـ الأوس وبني قريظة ـ بأنَّ حكمه إذا صدر يكون غير قابل للنقض أو النقاش. ووقف سعد ابن معاذ في المعسكر النبوي، ووجَّه حديثه إلى قومه الأوس خاصَّة، وإلى مَنْ في المعسكر عامَّة قائلاً: عليكم بذلك ـ عهد الله وميثاقه ـ أن الحكم كما حكمتُ؟ قالوا: نعم. ثم اتجه إلى النبي ﷺ وأشار إلى الناحية التي هو فيها، ثم قال وهو مُعرض عن رسول الله ﷺ إجلالاً وإكبارًا: وعلى مَنْ هاهنا؟ وأشار إلى الخيمة التي فيها رسول الله ﷺ فقال عليه الصلاة والسلام: «نعم»[1]. ثم أشار إلى بني قريظة المحجوزين جانبًا في المعسكر؛ ليستوثق منهم قائلاً: أترضون بحكمي؟ قالوا: نعم. فحكم أن تُقتل المقاتلة، وأن تُسبى النساء والذُّرِّيَّة، وأن تقسَّم أموالهم. ولَمَّا نطق سعد بن معاذ بالحكم، قال له النبي ﷺ: «حكمتَ فيهم بحكم الله مِن فوق سبع سماوات».

فانظر إلى أدب سعد أثناء الحكم، وإشارته إلى خيمة رسول الله ﷺ وهو مُعرض عنها إجلالاً لرسول الله ﷺ .

عرش الرحمن يهتز لموته ويشيعه سبعون ألفًا من الملائكة

وها نحن نعيش من خلال تلك السطور مع تلك الكرامات التي حدثت لسعد بن معاذ ـ رضي الله عنه ـ. تلك الكرامات التي تُبهر العقول وتحيِّر الألباب.

فها هو الحبيب ﷺ يدخل على سعد وهو يكيد نفسه فقال: «جزاك الله خيرًا من سيد قومٍ، فقد أنجزت ما وعدته. وليُنجزنَّك الله ما وعدك»[2].

فها هو سعد بن معاذ يهتز لموته عرش الرحمن ـ جل جلاله ـ.

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٢٤٠).

(٢) قال الأرنؤوط: رجاله ثقات ـ أخرجه ابن سعد في الطبقات (٣/ ٢/ ٩).

قال ﷺ: «اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ»(١).

وعن أسماء بنت يزيد بن سكن قالت: لما توفي سعد بن معاذ صاحت أمه فقال النبي ﷺ : ألا يرقأ دمعك ويذهب حزنك بأن ابنك أول من ضحك الله له واهتز له العرش؟(٢).

قال الإمام النووي ـ رحمه الله ـ: قوله ﷺ: «اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ» اختلف العلماء في تأويله. فقالت طائفة هو على ظاهره واهتزاز العرش: تحركه فرحًا بقدوم روح سعد وجعل الله تعالى في العرش تمييزًا، حصل به هذا ولا مانع منه كما قال تعالى: ﴿وإن منها لما يهبط من خشية الله﴾ وهذا القول هو ظاهر الحديث وهو المختار.

وقال المازري: قال بعضهم: هو على حقيقته وأن العرش تحرك لموته، قال: وهذا لا يُنكر من جهة العقل؛ لأن العرش جسم من الأجسام يقبل الحركة والسكون. قال: لكن لا تحصل فضيلة سعد بذلك إلا أن يقال إن الله تعالى جعل حركته علامة للملائكة على موته.

وقال آخرون: المراد اهتزاز أهل العرش وهم حملته وغيرهم من الملائكة، فحذف المضاف والمراد بالاهتزاز الاستبشار والقبول، ومنه قول العرب فلان يهتز للمكارم.. لا يريدون اضطراب جسمه وحركته، وإنما يريدون ارتياحه إليها وإقباله عليها وقال الحربي: هو كناية عن تعظيم شأن وفاته والعرب تنسب الشيء المعظم إلى أعظم الأشياء فيقولون: أظلمت لموت فلان الأرض، وقامت له القيامة(٣).

وقال الإمام الذهبي ـ رحمه الله ـ: والعرش خلقٌ لله مسخرٌ إذا شاء أن يهتز اهتز بمشيئة الله، وجعل فيه شعورًا لحب سعد، كما جعل تعالى شعورًا في جبل أُحُد يحبه النبي ﷺ. وقال تعالى: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ﴾ [سبأ:١٠] وقال: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ﴾ [الإسراء:٤٤]. ثم عمَّم فقال: ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده﴾. وهذا حق.

---

(١) متفق عليه عن جابر ـ وأخرجه مسلم وأحمد عن أنس.

(٢) قال الهيثمي في المجمع (٩/ ٣٠٩) رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي في تلخيصه.

(٣) مسلم بشرح النووي (١٦/ ٣٢).

وفى صحيح البخارى قول ابن مسعود: كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل[١]. وهذا باب واسع سبيله الإيمان[٢].

وعن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ يرفعه: «اهتز العرش لحب لقاء الله سعدًا»[٣].

الملائكة تحمل جنازة سعد

عن محمود بن لبيد قال: لما أُصيب أكحلُ سعد فثقل، حوَّلوه عند امرأة يقال لها رُفيدة تُداوى الجرحى. فكان النبى ﷺ إذا مر به يقول: كَيف أمسيت، وكيف أصبحت؟ فيخبره حتى كانت الليلة التى نقله قومه فيها وثقل، فاحتملوه إلى بنى عبد الأشهل إلى منازلهم، وجاء رسول الله، فقيل: انطلقوا به. فخرج وخرجنا معه، وأسرع حتى تقطعت شسوعُ نعالنا، وسقطت أرديتنا، فشكا ذلك إليه أصحابه، فقال: «إنى أخاف أن تسبقنا إليه الملائكة فتغسله كما غسلت حنظلة» فانتهى إلى البيت، وهو يُغسل، وأمه تبكيه وتقول:

ويل أم سعد سعدا ... حزامـــةً وجِـــدّاً

فقال: «كُلُّ باكية تكذبُ إلاّ أم سعد» ثم خرج به. قال: يقول له القوم: ما حملنا يا رسول الله ميتًا أخفَّ علينا منه. قال: «ما يمنعه أن يخفَّ وقد هبط من الملائكة كذا وكذا لم يهبطوا قطُّ قبل يومهم، قد حملوه معكم»[٤].

سعد بن معاذ وضمة القبر

عن جابر ـ رضى الله عنه ـ قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ يومًا إلى سعد ابن معاذ حين تُوفى. قال: فلما صلى عليه رسول الله، ووُضع فى قبره، وسُوى عليه سبّح رسول الله ﷺ تسبيحًا طويلاً. ثم كبَّر فكبرنا. فقيل: يا رسول الله، لِمَ سبحت ثم كبرت؟ قال: لقد تضايق على هذا العبد الصالح قبره حتى فرجه الله ـ عز وجل ـ عنه[٥].

وعن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «هذا العبد الصالح الذى تحرك له العرش، وفُتحت أبواب السماء، وشهده سبعون ألفًا من الملائكة لم ينزلوا

(١) أخرجه البخارى (٣٥٧٩) وأحمد (١/ ٤٦٠).
(٢) السير للإمام الذهبى (١/ ٢٩٧).
(٣) أخرجه ابن سعد (٣/ ٢/ ١٢) والحاكم (٣/ ٢٠٦) وصححه ووافقه الذهبى.
(٤) أخرجه ابن سعد (٣/ ٢/ ٧، ٨) وحسنه الأرنؤوط فى السير (١/ ٢٨٧).
(٥) رواه أحمد (٣/ ٣٦٠، ٣٧٧) وصححه الحاكم (٣/ ٢٠٦) مختصراً ووافقه الذهبى.

إلى الأرض قبل ذلك، لقد ضُمَّ ضمَّة ثم أُفرج عنه» يعنى سعداً[١].

قال الإمام الذهبى ـ رحمه الله ـ: قلت: هذه الضمة ليست من عذاب القبر فى شىء، بل هو أمر يجده المؤمن كما يجد ألم فقد ولده وحميمه فى الدنيا، وكما يجد من ألم مرضه، وألم خروج نفسه، وألم سؤاله فى قبره وامتحانه، وألم تأثره ببكاء أهله عليه، وألم قيامه من قبره، وألم الموقف وهوله، وألم الورود على النار، ونحو ذلك. فهذه الأراجيفُ كُلها قد تنالُ العبد وما هى من عذاب القبر، ولا من عذاب جهنم قط، ولكن العبد التقى يرفُقُ الله به فى بعض ذلك أو كله، ولا راحة للمؤمن دون لقاء ربه. قال الله تعالى: ﴿وأنذرهم يوم الحسرة﴾ وقال: ﴿وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوبُ لدى الحناجر﴾ فنسأل الله تعالى العفو واللطف الخفى. ومع هذه الهزات، فَسعدٌ ممن نعلم أنه من أهل الجنة، وأنه من أرفع الشهداء ـ رضى الله عنه ـ كأنك يا هذا تظن أن الفائز لا ينالُه هولٌ فى الدارين، ولا روع ولا ألم، ولا خوف. سل ربك العافية، وأن يحشرنا فى زمرة سعد[٢].

يقول حسان بن ثابت يرثى سعد بن معاذ ـ رضى الله عنه ـ:

لقد سجمتْ[٣] من دمع عينى عبرةٌ	وحقَّ لعينى أن تفيض على سعدِ
قتيل سوى فى معرك فجعت به	عيون ذوارى الدمع دائمة الوجدِ
على ملة الرحمن وارث جنة	مع الشهداء وفدها أكرم الوفدِ
فإن تكُ قد ودعتنا وتركتنا	وأمسيت فى غبراءَ مظلمة اللحدِ
فأنت الذى يا سعد أُبتَ بمشهدٍ	كريمٍ وأثواب المكارم والمجدِ
بحكمك فى حىّ قريظة بالذى	قضى الله فيهم ما قضيت على عمدِ
فوافق حُكم الله حُكمك فيهمُ	ولم تعفُ إذ ذكرتَ ما كان من عهدِ
فإن كان ريب الدهر أمضاك فى الأُلى	شروا هذه الدنيا بجناتها الخلدِ
فنعم مصيرُ الصادقين إذا دُعوا	إلى الله يومًا للوجاهة والقصدِ[٤]

(١) أخرجه النسائى (٤/ ١٠٠) فى الجنائز: باب ضمة القبر وضغطه، وابن سعد (٣/ ٢/ ٩) ـ وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٩٨٧).

(٢) السير للإمام الذهبى (١/ ٢٩٠ ـ ٢٩١).

(٣) سجمت: سالت.

(٤) البداية والنهاية لابن كثير (٣/ ١٣٢).



مناديل سعد بن معاذ في الجنة

عن أبى إسحاق قال: سمعتُ البراء يقول: أُهديت لرسول الله ﷺ حُلةُ حرير، فجعل أصحابه يلمسونها، ويعجبون من لينها، فقال: «أتعجبون من لين هذه؟ لمناديل سعد بن معاذ فى الجنة، خيرٌ منها وألين»(١).

وعن أنس ـ رضى الله عنه ـ أنه أهدى لرسول الله ﷺ جُبةٌ من سندس، وكان ينهى عن الحرير، فعجب الناس منها، فقال: «والذى نفسُ محمدٍ بيده! إن مناديل سعد بن معاذ فى الجنة، أحسنُ من هذا»(٢).

قال الإمام النووى ـ رحمه الله ـ: قال العلماء هذه إشارة إلى عظيم منزلة سعد فى الجنة، وأن أدنى ثيابه فيها خير من هذه؛ لأن المنديل أدنى الثياب؛ لأنه مُعد للوسخ والامتهان فغيره أفضل، وفيه إثبات الجنة لسعد(٣).

صديق الأنصار سعد بن معاذ؛ قمة سامقة فى علو الهمة فى الصدق بعد الصديق الأكبر ـ رضى الله عنه ـ

قال سعد بن معاذ ـ رضى الله عنه ـ: «ثلاثة أنا فيهن قوى وفيما سواهن ضعيف: ما صليتُ صلاة منذ أسلمتُ فحدثتُ نفسى حتى أفرغ منها.

ولا شيَّعتُ جنازةً فحدّثتُ نفسى بغير ما هى قائلة وما هو مقولٌ لها، حتى يُفَرغ من دفنها.

وما سمعتُ رسول الله ﷺ يقول، إلا علمتُ أنه حقٌ».

فقال ابن المسيب: ما ظننت أن هذه الخصال تجتمع إلا فى النبى ﷺ .

وبعد حياة طويلة مليئة بالبذل والتضحية رحل سعد بن معاذ ليلحق بحبيبه ﷺ وأصحابه ـ رضى الله عنهم ـ.

فرضى الله عن سعد وعن سائر الصحابة أجمعين

* * *

(١) أخرجه مسلم (٢٤٦٨) عن البراء ـ رضى الله عنه ـ.
(٢) أخرجه مسلم (٢٤٦٩) عن أنس ـ رضى الله عنه ـ.
(٣) مسلم بشرح النووى (١٦/ ٣٤).





وددت أن لي رجالاً مثل عمير بن سعد
أستعين بهم في أعمال المسلمين

عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)

إن الولاء والبراء أصلٌ عظيم من أصول العقيدة... ولقد أوجب الله علينا موالاة المؤمنين والبراءة من الشرك والمشركين.

قال تعالى: ﴿لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران:٢٨].

أي فقد برئ من الله وبرئ الله منه.

وقال تعالى: ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة:٢٢].

وقال ﷺ: «أوثق عُرى الإيمان: الموالاة في الله والمعاداة في الله، والحب في الله والبُغض في الله»[(١)].

وعن جرير بن عبد الله البجلي أن رسول الله ﷺ بايعه على أن «تنصح لكل مسلمٍ وتبرأ من الكافر»[(٢)].

وها نحن نتعايش بقلوبنا من خلال تلك السطور مع هذا الصحابي الجليل ـ عمير بن سعد ـ الذي ضرب المثل العظيم في الولاء والبراء.

(١) رواه أحمد وابن أبي شيبة والطبراني عن ابن عباس، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٥٣٩).
(٢) أخرجه البخاري (١/ ١٦٦) الإيمان ـ ومسلم (٥٦) الإيمان.

ولنبدأ القصة من أولها لنرى كيف أن الإيمان يجعل المؤمن لا يؤثر أحداً على ربه ـ جل وعلا ـ.

لقد نشأ (عمير) يتيمًا وتجرع مرارة اليُتم والفقر منذ نُعومة أظفاره، فقد مات أبوه وهو طفل صغير ولم يترك له شيئًا من حطام الدنيا.

وبعد فترة تزوجت أمه من رجلٍ ثرى اسمه (الجُلاس بن سُويد) فاحتضن الجلاس عميراً واعتبره ابنًا له، وأغدق عليه منَ كل صنوف الخير حتى جعله ينسى أنه يتيم.

وتمر الأيام وتمضى الأعوام وما زالت المحبة تزداد بينهما شيئًا فشيئًا.

ولقد أسلم (عمير) وهو لم يجاوز العاشرة من عمره إلا قليلاً وتغلغل الإيمان فى أعماق قلبه، ورسخت جذوره وارتفعت أغصانه حتى بلغت عنان السماء، وها هى شجرة الإيمان تثمر له الخشوع والخوف والحب والرجاء والإنابة، فقد كان (عمير) عابداً زاهداً.

وظل عمير يعيش حياة هادئة مطمئنة.. كيف لا وهو الذى امتلأ قلبه حبًا لله وحبًا لرسول الله ﷺ .

إنما وليكم الله

وفى السنة التاسعة من الهجرة المباركة علم النبى ﷺ أن الرومان يستعدون للقيام بغزوة حاسمة ضد المسلمين.

فعزم النبى ﷺ على غزو الروم فى «تبوك».

ولما قرر رسول الله ﷺ الموقف أعلن فى الصحابة أن يتجهزوا للقتال، وبعث إلى القبائل من العرب وإلى أهل مكة يستنفرهم، وكان قَلَّ ما يريد غزوة يغزوها إلا ورَّى بغيرها، ولكنه نظراً إلى خطورة الموقف وإلى شدة العُسرة أعلن أنه يريد لقاء الرومان، وجلَّى للناس أمرهم ـ وضَّح ـ ليتأهبوا أهبة كاملة، وحضهم على الجهاد، ونزلت قطعة من سورة براءة ـ التوبة ـ تثيرهم على الجلاد، وتحثهم على القتال. ورغَّبهم رسول الله ﷺ فى بذل الصدقات، وإنفاق كرائم الأموال فى سبيل الله.

ولم يكن من المسلمين أن سمعوا صوت رسول الله ﷺ يدعو إلى قتال الروم، إلا وتسابقوا إلى امتثاله، فقاموا يتجهزون للقتال بسرعة بالغة، وأخذت القبائل والبطون

تهبط إلى المدينة من كل صوب وناحية، ولم يرض أحد من المسلمين أن يتخلف عن هذه الغزوة - إلا الذين في قلوبهم مرض وإلا ثلاثة نفر - حتى كان يجيء أهل الحاجة والفاقة يستحملون رسول الله ﷺ (١) ليخرجوا إلى قتال الروم، فإذا قال لهم: ﴿لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة:٩٢].

كما تسابق المسلمون في إنفاق الأموال وبذل الصدقات، وكان عثمان بن عفان قد جاء بألف دينار فنثرها في حجره ﷺ فكان رسول الله ﷺ يُقلبها، ويقول: «ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم»(٢)، ثم تصدق وتصدق، حتى بلغ مقدار صدقته تسعمائة بعير، ومائة فرس، سوى النقود.

وجاء عبد الرحمن بن عوف بمائتي أوقية فضة، وجاء أبو بكر بماله كله. ولم يترك لأهله إلا الله ورسوله - وكانت أربعة آلاف درهم، وهو أول من جاء بصدقته، وجاء عمر بنصف ماله، وجاء العباس بمال كثير، وجاء طلحة وسعد بن عبادة ومحمد بن مسلمة، كلهم جاءوا بمال، وجاء عاصم بن عدى بتسعين وسقًا من التمر، وتتابع الناس بصدقاتهم قليلها وكثيرها، حتى كان منهم من أنفق مُدًا أو مُدَّين لم يكن يستطيع غيرها؛ وبعثت النساء ما قدرن عليه من مسك، ومعاضد، وخلاخل، وقرط، وخواتم.

ولم يمسك أحد يده، ولم يبخل بماله إلا المنافقون ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ [التوبة:٧٩](٣).

وكانت تلك المشاهد التاريخية التي رآها (عمير) أمام عينيه من البذل والإنفاق والتضحية تُعرَض أمام عينيه وكأنها خيال لا يحدث إلا في دنيا الأحلام... وما زالت تلك المشاهد يراها بعيني قلبه حتى عاد إلى بيته وهو يسأل نفسه سؤالاً لم يجد له إجابة: ما الذي جعل (الجُلاس) يُعرِض عن الإنفاق على الرغم من أنه يملك ثروة كبيرة؟!!!

وبينما هو في هذا التساؤل وإذا به يجد الجُلاس أمام عينيه فاغتنمها فرصة لا تُعوَّض وأخذ يقص عليه ما رآه من تسابق الصحابة - رضي الله عنهم - إلى البذل والإنفاق والتضحية.

---

(١) يطلبون منه أن يحملهم.
(٢) أخرجه الترمذي (٣٧٠٢) وأحمد (٥/ ٦٣) والحاكم (٣/ ١٠٢) وصححه ووافقه الذهبي.
(٣) الرحيق المختوم (ص: ٤٦٨ : ٤٧٠) بتصرف.

وكان عمير يتوقع أن يذهب الجُلاس في تلك الساعة لينفق من أمواله، ولكنه فوجئ بالجُلاس يقول كلمة تُخرجه من الإسلام جملة واحدة.

قال له الجُلاس: والله لئن كان هذا الرجل ـ يعني النبي ﷺ ـ صادقًا فيما يقول لنحن شرٌ من الحمير!!!!

لقد شُدِهَ[1] عُميرٌ مما سمع؛ فما كان يظن أن رجلاً له عقل الجُلاس وسنُّه، تندّ[2] من فمه مثل هذه الكلمة التي تُخرجُ صاحبها من الإيمان دفعةً واحدة، وتُدخله في الكفر من أوسع أبوابه.

وكما تنطلق الآلات الحاسبة الدقيقة في حساب ما يُلقَى إليها من المسائل، انطلق عقل الفتى عمير بن سعد يفكر فيما يجب عليه أن يصنعه: لقد رأى أن في السكوت عن الجُلاس والتستر عليه خيانة لله ورسوله، وإضراراً بالإسلام الذي يكيد له المنافقون ويأتمرون به[3].

وأن في إذاعة ما سمعه عقوقًا بالرجل الذي ينزل من نفسه منزلة الوالد، ومجازاة لإحسانه إليه بالإساءة... فهو الذي آواه من يُتم وأغناه من فقر وعوَّضه عن فقد أبيه.

وكان على الفتى أن يختار بين أمرين أحلاهما مُر. وسرعان ما اختار... فالتفت إلى الجُلاس وقال: والله يا جُلاسُ ما كان على ظهر الأرض أحدٌ بعد محمد بن عبد الله أحبَّ إليَّ منك...

فأنت آثرُ[4] الناس عندي، وأجلُّهم يداً[5] عليَّ، ولقد قلت مقالة إن ذكرتها فضحتك، وإن أخفيتها خُنت أمانتي وأهلكت نفسي وديني، وقد عزمت على أن أمضي إلى رسول الله ﷺ وأخبره بما قلت، فكن على بينة من أمرك.

مضى الفتى عُمير بن سعد إلى المسجد، وأخبر النبي عليه الصلاة والسلام بما سمع من الجُلاس بن سويد.

فاستبقاه الرسول ـ صلوات الله عليه ـ عنده، وأرسل أحد أصحابه ليدعو له الجُلاسَ.

---

(١) شُدِه: دُهش وتحيَّر.

(٢) تند: تشرُد.

(٣) يأتمرون به: يحدث بعضهم بعضًا بإيذائه.

(٤) آثرُ الناس عندي: أحبُّ الناس وأقربهم إليَّ.

(٥) أجلهم يداً: أعظمهم نعمة عليَّ.

وما هو إلا قليلٌ حتى جاء الجُلاس فحيًّا رسول الله ﷺ، وجلس بين يديه، فقال له النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «ما مقالة سمعها منك عمير بن سعد؟!»... وذكر له ما قاله. فقال الجُلاسُ: كذب عليَّ يا رسول الله وافترى، فما تفوَّهت بشيء من ذلك.

والتفت الرسول ـ صلوات الله عليه ـ إلى عمير فرأى وجهه قد احتقن[١] بالدم، والدموع تتحدَّرُ مدراراً من عينيه؛ فتتساقط على خديه وصدره وهو يقول:

اللهم أنزل على نبيك بيان ما تكلمت به...

اللهم أنزل على نبيك بيان ما تكلمت به...

فانبرى[٢] الجُلاسُ وقال: إنَّ ما ذكرته لك يا رسول الله هو الحق، وإن شئت تحالفنا[٣] بين يديك. وإني أحلف بالله أني ما قلت شيئًا مما نقله لك عمير. فما إن انتهى من حلفه وأخذت عيون الناس تنتقل عنه إلى عمير بن سعد حتى غشيت[٤] رسول الله ـ صلوات الله عليه ـ السكينة، فعرف الصحابة أنه الوحي، فلزموا أماكنهم، وسكنت جوارحهم، ولاذوا بالصمت[٥]، وتعلقت أبصارهم بالنبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

وهنا ظهر الخوف والوجلُ على الجُلاس... وبدا التلهفُ والتشوفُ[٦] على عمير...

وظل الجميع كذلك حتى سُرِّيَ[٧] عن رسول الله ﷺ، فتلا قوله جل وعلا: ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [التوبة: ٧٤].

فارتعد الجُلاس من هول ما سمع، وكاد ينعقد لسانه من الجزع، ثم التفت إلى رسول الله ﷺ وقال: بل أتوبُ يا رسول الله... بل أتوبُ... صدق عمير ـ يا رسول الله ـ وكنت من الكاذبين. اسأل الله أن يقبل توبتي، جُعلتُ فداك يا رسول الله.

---

(١) احتقن بالدم: تجمع الدم فيه.

(٢) انبرى: برز واندفع.

(٣) تحالفنا: حلف كل منا على صحة كلامه.

(٤) غشيته السكينة: نزلت عليه وغطته.

(٥) لاذوا بالصمت: التزموا الصمت وانقطعوا عن الكلام.

(٦) التشوف: التطلع.

(٧) سُرِّيَ عن الرسول: زال عنه أثر الوحي.

وهنا توجه الرسول ـ صلوات الله عليه ـ إلى الفتى عمير بن سعد، فإذا دموع الفرح تُبللُ وجهه المشرق بنور الإيمان. فمد الرسول يده الشريفة إلى أُذنه وأمسكها برفق وقال: «وفَّتْ أُذُنُكَ ـ يا غلام ـ ما سمعت، وصدَّقك ربك».

عاد الجُلاسُ إلى حظيرة الإسلام وحَسُنَ إسلامه. وقد عرف الصحابة صلاح حاله مما كان يُغدقُه(١) على عُمير من بر. وقد كان يقول كلما ذُكِرَ عمير: جزاه الله عنى خيرًا، فقد أنقذنى من الكفر، وأعتق رقبتى من النار(٢).

حائط الإسلام العدل وبابه الحق

وها هو عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ الذى كان لا يحابى أحدًا ولا يجامل أبدًا فى دين الله.. أراد أن يختار واليًا على مدينة (حِمص).

وكان ـ رضى الله عنه ـ يشترط شروطًا فى هؤلاء الولاة لا تكاد تسمع عنها إلا فى دنيا الأحلام.

فكان يختارهم من الزاهدين الورعين الصادقين المخبتين الصائمين القائمين الذين يفرون من الإمارة ولا يرغبون فيها.

فكان يقول فى نفسه: [أُريد رجلاً إذا كان فى القوم، وليس أميرًا عليهم بدا وكأنه أميرهم.. وإذا كان فيهم وهو عليهم أمير، بدا وكأنه واحد منهم]..!!

أُريد واليًا، لا يميز نفسه على الناس فى ملبس، ولا فى مطعم، ولا فى مسكن...

يقيم فيهم الصلاة... ويقسم بينهم بالحق... ويحكم فيهم بالعدل... ولا يغلق بابه دون حوائجهم(٣).

وفى تلك اللحظة تبادر إلى ذهن عمر (عمير بن سعد) فاختاره كما اختار من قبله (سعيد بن عامر) ليكمل من بعده مسيرة الزهد والورع والعدل والتضحية.

وكان عمير وقتها يجاهد فى سبيل الله فى بلاد الشام فدعاه أمير المؤمنين (عمر) وعهد إليه بولاية (حِمص) فحاول «عمير» أن يعتذر عنها، لكن أمير المؤمنين ألزمه بها

---

(١) يغدقه: يعطيه بسخاء.

(٢) نقلاً من صور من حياة الصحابة (٢٤٥: ٢٤٨) بتصرف.

(٣) رجال حول الرسول ﷺ/ خالد محمد خالد (ص: ٤٨١).

إلزامًا. فأذعن «عمير» لأمره على كُرهٍ منه؛ لأنه كان يتمنى أن يظل عمره كله في الجهاد لكي يرزقه الله الشهادة في سبيله.

وذهب عمير إلى مدينة (حِمص) ليبدأ الولاية بتلك الكلمات التي سطَّرها على جبين التاريخ بسطورٍ من نورٍ.

فما إن دخل المدينة حتى جمع الناس إلى صلاة جامعة، فلما انقضت الصلاة خطب في الناس، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على نبيِّه محمد ﷺ ثم قال: ألا إن الإسلام حائط منيع وبابٌ وثيق، فحائط الإسلام العدل وبابه الحق فإذا نُقض الحائط وحُطم الباب استفتح الإسلام، فلا يزال الإسلام منيعًا ما اشتد السلطان، وليس شدة السلطان قتلاً بالسيف ولا ضربًا بالسوط، ولكن قضاءٌ بالحق وأخذًا بالعدل[1].

وبتلك الكلمات الناصعة بدأ عمير حياته في مدينة حمص ومكث فيها عامًا كاملاً لا يصل منه أي شيء إلى أمير المؤمنين فكتب إليه (عمر): إذا وصلت رسالتي فأقبل بما جبيت من الفَيء. فأخذ جرابه وقصعته، وعلَّق إداواته، وأخذ عنزته[2]، وأقبل راجلاً ـ يمشي على رجليه ـ فدخل المدينة، وقد شحب، واغبرَّ، وطال شعره. فقال: السلامُ عليك يا أمير المؤمنين. فقال: ما شأنك؟ قال: ألستُ صحيح البدن، معي الدنيا! فظنَّ عمر أنه جاء بمال، فقال: جئت تمشي؟ قال: نعم. قال: أما كان أحدٌ يتبرع لك بدابة؟ قال: ما فعلوا، ولا سألتهم. قال: بئس المسلمون!

قال: يا عمر، إن الله قد نهاك عن الغيبة. فقال: ما صنعت؟ قال: الذي جبيته وضعته مواضعه، ولو نالك منه شيء، لأتيتك به. قال: جددوا لعُمير عهدًا. قال: لا عملتُ لك ولا لأحد[3].

واستأذن (عمير) (عُمرًا) أن يذهب إلى أهله في قرية من ضواحي المدينة فأذن له.

وبعد فترة ليست بالطويلة أراد عمر ـ رضي الله عنه ـ أن يختبر صِدق عمير ليطمئن قلبه من اختياره للولاة وحفظه للأمانة.

فبعث رجلاً يقال له الحارث وأعطاه مائة دينار وقال: انطلق إلى عمير حتى تنزل به كأنك ضيف فإن رأيت أثر شيء ـ من الثروة ـ فأقبل. وإن رأيت حالاً شديدًا فادفع إليه

(١) الطبقات لابن سعد (٤/ ٢٧٧).
(٢) العنزة: عصا في قدر نصف الرمح أو أكبر يتوكأ عليها.
(٣) سير أعلام النبلاء (٢/ ٥٦١) بتصرف.

هذه المائة الدينار. فانطلق الحارث فإذا هو بعمير جالس يفلي قميصه إلى جنب الحائط فقال له عمير: انزل رحمك الله. فنزل ثم سأله فقال: من أين جئت؟ فقال: من المدينة. فقال: كيف تركت أمير المؤمنين؟ فقال صالحًا. قال: فكيف تركت المسلمين؟ قال: صالحين. قال: أليس يقيم الحدود؟ قال: بلى ضرب ابنًا له على فاحشة. فقال عمير: اللهم أعن عمر فإني لا أعلمه إلا شديد الحب لك.

قال: فنزل به ثلاثة أيام وليس لهم إلا قرصة من شعير كانوا يخصونه بها ويطوون حتى أتاهم الجهد. فقال له عمير: إنك قد أجعتنا فإن رأيت أن تتحول عنا فافعل. قال: فأخرج الدنانير فدفعها إليه فقال: بعث بها أمير المؤمنين فاستعن بها. قال: فصاح وقال: لا حاجة لي فيها فردها.

فقالت له امرأته: إن احتجت إليها وإلا فضعها في مواضعها. فقال عمير: والله مالي شيء أجعلها فيه. فشقت المرأة أسفل درعها فأعطته خرقة فجعلها فيها ثم خرج فقسمها بين أبناء الشهداء والفقراء.

فرجع الحارث إلى عمر فقال: ما رأيت؟ قال: رأيت يا أمير المؤمنين حالاً شديداً. قال: فما صنع بالدنانير؟ قال: لا أدري. قال: فكتب إليه عمر: إذا جاءك كتابي هذا فلا تضعه من يدك حتى تُقبل. فأقبل إلى عمر فدخل عليه فقال له عمر: ما صنعت بالدنانير؟ قال: صنعت ما صنعت وما سؤالك عنها؟ قال: أنشد عليك لتخبرني ما صنعت بها. قال: قدمتها لنفسي في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون. قال: رحمك الله. فأمر له بوسق من طعام وثوبين. فقال: أما الطعام فلا حاجة لي فيه قد تركت في المنزل صاعين من شعير إلى أن آكل ذلك يكون قد جاء الله بالرزق (ولم يأخذ الطعام).

وأما الثوبان فإن أم فلان عارية ـ يعني زوجته ـ فأخذهما وعاد إلى أهله[1].

وددت أن لي رجالاً مثل عمير بن سعد أستعين بهم في أعمال المسلمين

وظل حياته كلها زاهداً ورعًا لا يريد الولاية ولا المناصب، بل لا يريد الدنيا بأسرها فهو يريد أن يلحق بنبيه ﷺ ويخشى أن تحول الدنيا بينه وبين تلك الأمنية الغالية.

ولم يلبث طويلاً حتى فاضت روحه إلى بارئها ليلحق بحبيبه وقرة عينه محمد ﷺ.. ومات الزاهد العابد.

(١) صفة الصفوة (١/ ٢٩٧ ـ ٢٩٨) بتصرف.

فبلغ ذلك عمر فشق عليه وترحَّم عليه وخرج يمشي ومعه المشاؤون إلى بقيع الغرقد. فقال لأصحابه: ليتمنّ كل رجل منكم أمنيةً. فقال رجل: يا أمير المؤمنين وددت أن عندي مالاً فأنفقه في سبيل الله، وقال آخر: وددت أن لي قوة فأميح بدلو زمزم لحجاج بيت الله، فقال عمر بن الخطاب: وددت أن لي رجالاً مثل عمير بن سعد أستعين بهم في أعمال المسلمين(١).

وعن عبد الرحمن بن عمير بن سعد قال: قال لي ابن عمر: ما كان من المسلمين رجلٌ من الصحابة أفضلُ من أبيك.

وعن ابن سيرين، قال: كان عمر من عُجبه بعمير بن سعد يسميه (نسيج وحده).

وقال المفضل الغلابي: زُهَّادُ الأنصار ثلاثة: أبو الدرداء، وشداد بن أوس، وعمير بن سعد(٢).

وبعد حياة طويلة مليئة بالزهد والورع والخشية نام (عمير) على فراش الموت وفاضت روحه الطاهرة إلى بارئها ـ جل وعلا ـ ليلحق بالحبيب ﷺ وأصحابه في جنة الرحمن إخوانًا على سُرُرٍ متقابلين.

فرضي الله عن عمير وعن سائر الصحابة أجمعين

* * *

---

(١) صفة الصفوة (١/ ٢٩٨).

(٢) سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي (٢/ ١٠٥).

عبد الله بن مسعود

«ساقه فى الميزان يوم القيامة أثقل من جبل أحد»

من أحب أن يقرأ القرآن غضًا كما أنزل فليقرأ قراءة ابن أم عبد (ابن مسعود)

محمد رسول الله ﷺ

وها نحن على موعدٍ مع رجل كان يرعى الغنم، فجاء الإسلام فصنع منه قمة تضىء سماء الإسلام، بل أصبح معجزة من معجزات الرسول ﷺ يوم أن استطاع - بإذن الله - أن يصنع من كل صحابى قرآنًا يمشى بين الناس يراه الناس فيرون الإسلام من خلاله.

لقد نسخ النبى ﷺ عشرات النسخ من المصحف، بل مئات، بل أُلوفًا، ولكنه لم ينسخها بمداد من الحبر على صفحات الورق، ولكنه نسخها بمداد من النور على صفحات القلوب[1].

ذلك هو شأن الإيمان إذا عمقت جذوره، وقوى سلطانه على النفس، إنه يمد صاحبه بيقينٍ لا يهن، وهمة لا تنى، وأملٍ لا يخبو، ودافعٍ لا يتوقف، وعزمٍ لا يخور. وهو يملكُ الدنيا ولكنها لا تملكه، ويجمعُ المال ولكنه لا يستعبده، وتحيط به النعمة ولكنها لا تُبطره، وينزل به البلاء ولكنه لا يقهره، لا تزيده الشدائد إلا عزيمة مع عزيمته، وقوة إلى قوته، كالذهب الأصيل، لا تزيده النار إلا نقاءً وصفاءً.

وأنا أسألكم بالله... من كان يُصدِّق أن مجموعة قليلة العدد، ضئيلة العُدة، من جزيرة العرب، لم يكن لهم فلسفة اليونان، ولا مدنية الرومان، ولا حكمة الهند، ولا صنعة الصين، تملك الدنيا بزمامها، وترث مُلك الأكاسرة، وتحطم إمبراطورية القياصرة، وتنشر دينًا جديدًا، وحضارة جديدة فى الآفاق، وفى أقل من ربع قرن من الزمان[2].

إننا على موعد مع الرجل الذى كان النبى ﷺ يحب أن يسمع منه القرآن... إنه

(١) من بديع كلام الشيخ/ سيد قطب - رحمه الله -.

(٢) الإيمان والحياة/ د. يوسف القرضاوى (ص ٢٧٨).

الرجل الذى شهد له النبى ﷺ بأن ساقه فى الميزان يوم القيامة أثقل من جبل أُحد.

إننا على موعد مع عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ الإمام الحبرُ، فقيه الأمة.

كان من السابقين الأولين، ومن النجباء العالمين، شهد بدراً، وهاجر الهجرتين، وكان يوم اليرموك على النفل، ومناقبه غزيرة، روى علمًا كثيراً(١).

أسلم قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم. ويقال: كان سادسًا فى الإسلام. وشهد المشاهد كلها. وكان صاحب سر رسول الله ﷺ ووساده، وسواكه، ونعليه، وطهوره فى السفر. وكان يُشبَّه بالنبى ﷺ فى هديه، ودله، وسمته. وكان خفيف اللحم قصيراً شديد الأدمة.

وكان من أجود الناس ثوبًا ومن أطيب الناس ريحًا. وولى قضاء الكوفة وبيت المال لعمر وصدراً من خلافة عثمان ثم صار إلى المدينة، فمات بها سنة اثنتين وثلاثين، ودُفن بالبقيع وهو ابن بضع وستين(٢).

كيف كانت قصة إسلامه؟!!

وتعالوا بنا لنبدأ قصته من أولها... لقد كان لإسلامه قصة يحلو ذكرها وتأنس النفوس وتطيب القلوب بتكرارها.

فقد كان ابن مسعود يرعى الغنم لسيدٍ من سادات قريش ألا وهو: عقبة ابن أبى معيط.

وكان ابن مسعود مخلصًا أمينًا ورعًا على الرغم من أنه لم يسمع بعدُ عن الإسلام وما يدعو إليه من الأمانة والصدق والإخلاص.

وفى يومٍ من الأيام كان ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ على موعدٍ مع شمس الهداية ومع النور الإلهى فقد جاءه الحبيب ﷺ بخيرى الدنيا والآخرة.

ولنترك الحديث لابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ ليقصَّ علينا قصته مع النبى ﷺ.

عن ابن مسعود قال : كنت أرعى غنمًا لعقبة بن أبى مُعيط، فمرَّ بى رسول الله ﷺ وأبو بكر، فقال: يا غلام! هل من لبن؟ قلت: نعم، ولكنى مؤتَمن، قال: فهل من شاة لم

(١) سير أعلام النبلاء للذهبى (١/ ٤٦١).

(٢) صفة الصفوة (١/ ١٦٣).

ينزُ عليها الفحل؟ ـ أي لا تُدر لبنًا ـ فأتيته بشاة، فمسح ضرعَها، فنزل لبنٌ، فحلب في إناء، فشرب، وسقى أبا بكر، ثم قال للضرع: اقلُصْ ـ أي انضم وأمسك عن إنزال اللبن ـ فقلص. (زاد الإمام أحمد) قال: ثم أتيته بعد هذا، ثم اتفقا فقلتَ: يا رسول الله! عَلِّمني من هذا القول، فمسح رأسي، وقال: يرحمك الله إنك غُلَيِّمٌ معلَّم(١).

وفي رواية قال ابن مسعود: فأتيته بعد ذلك فقلت علمني من هذا القول: قال: إنك غلام معلَّم فأخذت من فيه ـ فمه ـ سبعين سورة لا ينازعني فيها أحد(٢).

لقد انبهر عبد الله بن مسعود حين رأى عبد الله الصالح ورسوله الأمين ﷺ يدعو ربه، ويمسح ضرعًا لا عهد له باللبن بعدُ، فإذا هو يُعطي من خير الله ورزقه لبنًا خالصًا سائغًا للشاربين..!!

وما كان يدري يومها، أنه إنما يشهد أهون المعجزات وأقلها شأنًا، وأنه عمّا قريب سيشهد من هذا الرسول الكريم معجزات تهز الدنيا، وتملؤها هدى ونورًا..

بل ما كان يدري يومها، أنه وهو ذلك الغلام الفقير الضعيف الأجير الذي يرعى غنم عُقبة بن أبي مُعيط، سيكون إحدى هذه المعجزات، يوم يخلق الإسلام منه مُؤمنًا يهزم بإيمانه كبرياء قريش، ويقهر جبروت سادتها(٣).

لم يمض غيرُ قليل حتى أسلم عبد الله بن مسعود وجعل نفسه في خدمة النبي ﷺ .

ويا لها من مكانة عظيمة تعانق كواكب الجوزاء... فبعد أن كان ابن مسعود يرعى الأغنام وإذا به ينتقل إلى خدمة سيد الأنام ﷺ .

مكانته عند الله ـ عز وجل ـ

ولقد كان ـ رضي الله عنه ـ من بين هؤلاء الصحب الكرام الذين أنزل الله في شأنهم قرآنًا يوصي فيه النبي ﷺ بألا يطردهم من مجلسه، بل يقربهم إليه فهم الذين سيبذلون دماءهم وأموالهم وأنفسهم لنُصرة هذا الدين.

عن سعد قال: كنا مع رسول الله ﷺ ، ونحن ستة، فقال المشركون: اطرُد هؤلاء عنك

(١) قال الأرنؤوط: إسناده حسن: أخرجه أحمد (١/ ٣٧٩) والفسوي في المعرفة والتاريخ (٢/ ٥٣٧).
(٢) قال الأرنؤوط: رواه ابن سعد في الطبقات (٣/ ١١١) وأحمد (١/ ٤٦٢) وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٢٥) وإسناده حسن.
(٣) رجال حول الرسول ﷺ (ص ٢٢٩).

فلا يجترئون علينا، وكنت أنا، وابن مسعود، ورجل من هذيل، ورجلان نسيت اسمهما، فوقع في نفس النبي ﷺ ما شاء الله وحدث به نفسه، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ [الأنعام:٥٢](١).

وعن حذيفة أنه قال: لقد علم المحفوظون من أصحاب محمد ﷺ أن عبد الله بن مسعود من أقربهم عند الله وسيلة يوم القيامة(٢).

أول من جهر بالقرآن

بل ها هو رجل العقيدة يتحرك بتلك العقيدة التي تعانق كواكب الجوزاء ليعلم الكون كله درسًا عظيمًا في العمل لهذا الدين والدعوة إلى الله في أشد المواقف.

عن يحيى بن عُروة بن الزبير عن أبيه قال: كان أولَ من جهر بالقرآن ـ بعد رسول الله ﷺ ـ بمكة عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: اجتمع يومًا أصحابُ رسول الله ﷺ فقالوا: والله ما سمعت قريش هذا القرآن يُجهر لها به قطُّ، فَمَنْ رَجُلٌ يُسمعهموه؟ فقال عبد الله بن مسعود: أنا، قالوا: إنا نخشاهم عليك، إنما نريد رجلاً له عشيرةٌ يمنعونه من القوم إن أرادوه، قال: دَعُوني فإن الله سيمنعني. قال: فغدا ابنُ مسعود حتى أتى المقام في الضُّحى، وقريشٌ في أنديتها، حتى قام عند المقام ثم قرأ: ﴿بِسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ﴾ رافعًا بها صوته ﴿الرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ [الرحمن ١ ـ ٢] قال: ثم استقبلها يقرؤها. قال: فتأملوه فجعلوا يقولون: ماذا قال ابنُ أُمّ عبد؟ قال: ثم قالوا: إنه ليتلو بعض ما جاء به محمدٌ، فقاموا إليه فجعلوا يضربون في وجّهه، وجعل يقرأُ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغَ. ثم انصرف إلى أصحابه وقد أثَّروا في وجهه، فقالوا له: هذا الذي خشينا عليك، فقال: ما كان أعداءُ الله أهونَ عليَّ منهُمُ الآن، ولئن شئتم لأغادينَّهم بمثلها غدًا، قالوا: لا، حسبُك، قد أسمعتهم ما يكرهون(٣).

* * *

(١) أخرجه مسلم (٢٤١٣) (٤٦) فضائل الصحابة.

(٢) رواه أحمد في فضائل الصحابة (١٥٤٨) والحاكم (٣/ ٣١٥) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يُخرجاه ووافقه الذهبي.

(٣) إسناده صحيح متصل. وذكره القرطبي في تفسيره عن عروة بن الزبير (٧/ ١٤٧) وأخرجه الطبري في تاريخه (٢/ ٣٣٤، ٣٣٥).

نشأة في ظلال الوحي

وظل ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ ملازمًا للحبيب ﷺ لا يفارقه في ليله أو نهاره... في حلِّه أو ترحاله.

فاقتبس الكثير والكثير من هدى النبي ﷺ وأخلاقه وعلمه حتى أصبح من أقرب الناس سمتًا وهديًا بالنبي ﷺ.

فعن عبد الرحمن بن يزيد قال: «سألنا حذيفة عن رجل قريب السَّمت والهَدى من النبي ﷺ حتى نأخذ عنه فقال: ما أعرِف أحدًا أقرب سمتًا وهديًا ودلاً بالنبي ﷺ من ابن أمِّ عبد»[1].[2]- يعني ابن مسعود ـ.

وبلغت مكانته ـ رضي الله عنه ـ عند النبي ﷺ درجة عظيمة لا تخطر ببالٍ فقد أذِن له النبي ﷺ بالدخول عليه متى شاء فقال له ذات مرة:

«إذنك عليَّ أن يُرفع الحجابُ وأن تستمع سِوادي حتى أنهاك»[3].

السِواد: السر.

حتى إن بعض الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ كانوا يظنون في باديء الأمر أن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ من آل بيت النبي ﷺ من كثرة دخوله عليه.

فعن الأسود بن يزيد قال: سمعت أبا موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ يقولُ: «قَدِمتُ أنا وأخي من اليمن فمكثنا حينًا ما نرى إلا أن عبد الله بن مسعود رجلٌ من أهل بيتِ النبي ﷺ لما نرى من دُخوله ودخول أمه على النبي ﷺ»[4].[5]

* * *

(١) أخرجه البخاري (٣٧٦٢) والترمذي (٣٨٠٧) وأحمد (٥/ ٣٨٩، ٤٠١).

(٢) في رواية البخاري (٦٠٩٧): إن أشبه الناس دلاً وسمتًا وهديًا برسول الله ﷺ لابن أم عبد من حين يخرج من بيته إلى أن يرجع إليه لا ندري ما يصنع في أهله إذا خلا. قال الحافظ في الفتح (٧/ ١٠٣): سمتًا أي خشوعًا، وهديًا أي طريقة ودلاً بفتح المهملة والتشديد: أي سيرة وحالة وهيئة وكأنه مأخوذ مما يدل ظاهر حاله على حُسن فعاله.

(٣) أخرجه مسلم (٢١٦٩) وأحمد (١/ ٣٨٨، ٤٠٤) وابن ماجه (١٣٩).

(٤) أخرجه البخاري (٣٧٦٣) ـ ومسلم (٢٤٦٠) والترمذي (٣٨٠٦).

(٥) قال الحافظ في الإصابة (٢/ ٢٦٠): أمه (أي أم عبد الله بن مسعود) أم عبد الله بنت عبد ود بن سواءة أسلمت وصحبت. وقال في الفتح (٧/ ١٠٣) وكانت تكنى أم عبد.

جهاده في سبيل الله

ولقد شهد ابن مسعود المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ما تخلف أبدًا عن مشهد منها.

بل لقد كان له فى يوم بدرٍ موقفًا عظيمًا عندما قتل أبا جهل، وذلك بعد أن أثبته (ابنا عفراء) فقال النبى ﷺ: «من ينظر ما صنع أبو جهل؟». فانطلق ابن مسعود فوجده قد ضربه ابنا عفراء حتى برد، قال: آأنت أبو جهل؟ قال: فأخذ بلحيته قال: وهل فوق رجل قتلتموه أو رجل قتله قومه[1].

فائدة: ولقد جمع الحافظ ابن حجر بين الروايات فيمن قتل أبا جهل من الأربعة المتقدمين «معاذ بن عمرو بن الجموح، معاذ ومعوذ ابنى عفراء وابن مسعود» فقال: فيحتمل أن يكون معاذ بن عفراء شدّ عليه مع معاذ بن عمرو، كما فى الصحيح وضربه بعد ذلك (معوذ) حتى أثبته، ثم حزّ رأسه ابن مسعود فتجمع الأقوال كلها. اهـ[2].

الله يرفع بهذا القرآن أقوامًا

وكان من بين هؤلاء الذى رفع الله شأنهم وأعلى قدرهم (عبد الله بن مسعود) الذى كان ملازمًا للحبيب ﷺ يأخذ منه القرآن غضًا طريًا حتى أصبح واحدًا من أفضل الصحابة فى قراءة القرآن وعلومه، مما دعا النبى ﷺ أن يوصى أصحابه بأنه يتعلموا القرآن من عبد الله بن مسعود.

فعن مسروق قال: «ذُكر عبد الله عند (عبد الله بن عمرو) فقال: ذاك رجل لا أزال أحبه بعدما سمعت رسول الله ﷺ يقول: استقرئوا القرآن من أربعة: من عبد الله بن مسعود ـ فبدأ به ـ وسالم مولى أبى حذيفة وأبيّ بن كعب ومعاذ بن جبل»[3].

ولِمَ لا يكون (ابن مسعود) فى تلك المكانة وهو الذى أخذ القرآن من فم النبى ﷺ مباشرة، وتعلمه من نبعه الصافى... ولك أن تتخيل معى أيها الأخ الكريم أنك تسمع القرآن من فم مَن أُنزل عليه القرآن ﷺ.

قال ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ: «والله الذى لا إله غيره ما أُنزلت سورةٌ من كتاب الله إلا أنا أعلمُ أين أُنزلت، ولا أُنزلت آيةٌ من كتاب الله إلا أنا أعلمُ فيمن أُنزلت

(١) أخرجه البخارى (٧/ ٣٩٦٢) المغازى ـ ومسلم (٣/ ١١٨/ ١٤٢٤) واللفظ للبخارى.
(٢) فتح البارى (٧/ ٣٤٥).
(٣) أخرجه البخارى (٣٧٥٨) ـ ومسلم (٢٤٦٤) والترمذى (٣٨١٠).

ولو أعلمُ أحدًا أعلم منى بكتاب الله تبلُغُهُ الإبلُ لَركبتُ إليه»(١).

وعن شقيق بن سلمة قال: «خطبنا ابن مسعود فقال: والله لقد أخذتُ من فيِّ - فم - رسول الله ﷺ بضعًا وسبعين سورة. والله لقد علِمَ أصحابُ النبى ﷺ أنّى من أعلمهم بكتاب الله، وما أنا بخيرهم. قال شقيق: فجلست فى الحِلَقِ أسمع ما يقولون فما سمعت رادًا يقول غير ذلك(٢).

كان القرآن يخرج من فمه غضًا طريًا كما أنزل

عن عبد الله أن رسول الله ﷺ مرَّ بين أبى بكر وعمر، وعبد الله قائم يصلى، فافتتح سورة النساء يسجلها - يقرؤها قراءة مفصلة - فقال ﷺ: «مَنْ أحبَّ أن يقرأ القرآن غضًا كما أُنزل فليقرأ قراءة ابن أُمِّ عبد» [فأخذ] عبد الله فى الدعاء. فجعل رسول الله ﷺ يقول: «سَلْ تُعطَ». [فكان] فيما سأل: اللهم إنى أسألك إيمانًا لا يرتد، ونعيمًا لا ينفدُ، ومرافقةَ نبيك محمد ﷺ فى أعلى جنان الخُلد... قال عمر: والله لأغدون على عبد الله ولأبشرنه بتأمين رسول الله على دعائه، فأتى عمرُ (عبد الله) يبشره، فوجد أبا بكر خارجًا قد سبقه، فقال: إنك لسبّاقٌ بالخير(٣).

الحبيب ﷺ يبكى لسماع القرآن من ابن مسعود - رضى الله عنه -

ولقد أحب النبى ﷺ عبد الله بن مسعود حُبًا شديدًا كان يزداد يومًا بعد يوم، وكان يقرّبه إليه لما يرى فيه من أمارات الذكاء والنجابة والأخلاق الرفيعة وحُسن الاتباع.

وفى مرة اشتاق الحبيب ﷺ أن يسمع القرآن من فم ابن مسعود - رضى الله عنه - ويا لها من منقبة عظيمة لا توازيها الدنيا بكل ما فيها.

عن عبد الله قال: قال لى رسول الله ﷺ: «اقرأ علىَّ القرآن. قلت: يا رسول الله أقرأُ عليكَ وعليكَ أُنزل؟ قال: إنى أشتهى أن أسمعه من غيرى. فقرأتُ عليه سورة النساء حتى بلغت: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء:٤١] فغمزنى برجله، فإذا عيناهُ تَذْرِفان»(٤).

(١) أخرجه البخارى (٥٠٠٢) - ومسلم (٢٤٦٢).
(٢) أخرجه البخارى (٥٠٠٠) - ومسلم (٢٤٦٢).
(٣) قال الأرنؤوط: إسناده حسن: وهو فى المسند (١/ ٤٤٥، ٤٥٤) وأخرجه الحاكم بنحوه (٣/ ٣١٧).
(٤) أخرجه مسلم (٨٠٠) فى المسافرين - باب فضل استماع القرآن - والبخارى (٤٠٤٩) فضائل القرآن.

ساق أثقل من جبل أحد

وتتعاقب الأيام والليالى ويأتى موقف عظيم يبين للناس مكانة عبد الله بن مسعود عند الله وعند رسول الله ﷺ.

فعن ابن مسعود أنه كان يجتنى سواكًا من الأراك وكان دقيق الساقين، فجعلت الريح تكفؤه فضحك القوم منه، فقال رسول الله ﷺ: مم تضحكون؟ قالوا: يا نبى الله من دقة ساقيه، فقال: والذى نفسى بيده لهما أثقل فى الميزان من أُحُدٍ[(١)]. ـ أى من جبل أُحُدٍ ـ.

بل يشهد له النبى ﷺ بأنه من أهل الإيمان والتقوى.

فعن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قال: لما نزلت هذه الآية ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جُناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا﴾ إلى آخر الآية. قال لى رسول الله ﷺ: «قيل لى: أنت منهم»[(٢)].

بل قال الحبيب ﷺ ذات مرة لأصحابه: «اقتدوا باللذين من بعدى من أصحابى أبى بكرٍ وعمر واهتدوا بهدى عمّار، وتمسكوا بعهد ابن مسعود»[(٣)]. فكانت وصية عظيمة لأصحابه علموا من خلالها قَدر ابن مسعود ومكانته ومنزلته السامقة.

ولِمَ لا؟ ولقد كان ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ يتابع النبى ﷺ ويأخذ عنه القرآن حتى آخر يومٍ فى حياته فعلم كل شىء عن القرآن وتفوّق على غيره من الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ فى القرآن وعلومه.

فعن أبى ظبيان قال: قال لنا ابن عباس: أى القراءتين تقرءون؟ قلنا: قراءة عبد الله. قال: إن رسول الله ﷺ كان يعرض القرآن فى كل عام مرة، وإنه عرض عليه فى العام الذى قُبض فيه مرتين فشهد عبد الله ما نُسخ[(٤)].

* * *

(١) رواه أحمد (١/ ٤٢٠ ـ ٤٢١) والطبرانى فى الكبير (٩/ ٧٥) وهو صحيح بمجموع طُرقه.
(٢) أخرجه مسلم (٢٤٥٩) والترمذى (٣٠٥٣) وأبو يعلى (٨/ ٤٧٥ ـ ٤٧٦).
(٣) رواه الترمذى (٣٨١٠) وابن ماجه (٩٧) والحاكم (٣/ ٧٥) وصححه ووافقه الذهبى.
(٤) رواه النسائى فى فضائل الصحابة (١٥٤) والكبرى (٥/ ٧١، ٧٢) وقال العدوى: إسناده صحيح.



جهاده وقصة مقتل أبي جهل

وظل ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ ملازمًا للحبيب ﷺ ثابتًا على دينه وإيمانه.. تاليًا لكتاب ربه... حافظًا لسُنة حبيبه ﷺ إلى أن جاء اليوم الذى أظلمت فيه المدينة كلها بموت النبى ﷺ ، فحزن عليه ابن مسعود حُزنًا شديدًا، فقد كان ﷺ حبيبه ورسوله ومُعلمه وأستاذه.. ففقد كل ذلك فى لحظة واحدة. وبعد وفاة النبى ﷺ كان أصحابه ـ رضى الله عنهم ـ يعلمون قدر ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ ويعرفون مكانته ومنزلته.

وفى عهد أمير المؤمنين (عمر) ـ رضى الله عنه ـ كتب عمر بن الخطاب إلى أهل الكوفة: إننى قد بعثتُ إليكم عمارًا أميرًا، وابنَ مسعود معلمًا ووزيرًا، وهما من النجباء من أصحاب محمد ﷺ من أهل بدر، فاسمعوا لهما واقتدُوا بهما، وقد آثرتكم بعبد الله على نفسى(١).

ولقد أحبَّه أهل الكوفة حبًا جمًا لم يظفر به أحدٌ قبله ولا بعده.

خوفه ـ رضى الله عنه ـ وبكاؤه

وها هى صفحة مباركة من خوفه وخشيته لله ـ عز وجل ـ.

عن مسروق قال: قال رجل عن عبد الله: ما أحب أن أكون من أصحاب اليمين، أكون من المقربين أحب إلىَّ. فقال عبد الله: لكن ها هنا رجل ودَّ أنه إذا مات لا يُبعث... يعنى نفسه.

وعن الحسن قال: قال عبد الله بن مسعود: لو وقفت بين الجنة والنار فقيل لى اختر نخيِّرك من أيهما تكون أحب إليك أو تكون رمادًا؟ لأحببت أن أكون رمادًا.

وعن أبى وائل قال: قال عبد الله: وددت أن الله غفر لى ذنبًا من ذنوبى، وأنه لا يُعرف نسبى(٢).

وعن عون بن عبد الله، عن أخيه عُبيد الله قال: كان عبد الله إذا هدأت العيونُ، قام فسمعتُ له دويًا كدوىِّ النحلِ(٣).

---

(١) أخرجه ابن سعد (٣/ ١/ ١٨٢) والحاكم (٣/ ٣٨٨) وصححه ووافقه الذهبى.

(٢) صفة الصفوة (١/ ١٦٧).

(٣) أخرجه الفسوى فى المعرفة والتاريخ (٢/ ٥٤٨) وابن سعد (٣/ ١/ ١١٠).

تواضعه ـ رضي الله عنه ـ

عن حبيب بن أبي ثابت قال: خرج ابن مسعود ذات يوم فاتبعه ناس، فقال لهم: ألكم حاجة؟ قالوا: لا، ولكن أردنا أن نمشي معك. قال: ارجعوا فإنه ذلة للتابع وفتنة للمتبوع.

وعن الحارث بن سويد قال: قال عبد الله لو تعلمون ما أعلم من نفسي لحثيتم على رأسي التراب[1].

توقيره للنبي ﷺ حيًا وميتًا

ولقد كان ـ رضي الله عنه ـ يحب النبي ﷺ حبًا جمًا ويوقره ويخاف أن يحدّث بحديثٍ واحدٍ يزيد فيه كلمةً أو يُنقص منه حرفًا.

عن مسروق قال: حدثنا عبد الله يومًا فقال: قال رسول الله ﷺ فرَعُد حتى رعُدت ثيابه، ثم قال: نحو ذا أو شبيهًا بذا[2].

يقول عمرو بن ميمون: [اختلفتُ إلى عبد الله بن مسعود سَنَةً، ما سمعته يُحدث فيها عن رسول الله ﷺ ، إلا أنه حدَّث ذات يوم بحديث فجرى على لسانه: قال رسول الله، فعلاهُ الكَرْبُ حتى رأيتُ العَرَق يتحدَّر عن جبهته، ثم قال ـ مُستدركًا ـ قريبًا من هذا قال الرسول]..!!

ويقول علقمةُ بن قيس: [كان عبد الله بن مسعود يقوم عَشيةَ كل خميس مُتحدثًا، فما سمعتهُ في عشية منها يقول: قال رسول الله غيرَ مرة واحدة.. فنظرتُ إليه وهو مُعتمدٌ على عصا، فإذا عَصاهُ ترتجف، وتتزعزع]..!!

إيثاره ثواب الآخرة على شهوات النفس

عن الأحوص الجشمي قال: دخلنا على ابن مسعود وعنده بنون له، ثلاثة غلمان، كأنهم الدنانير حُسنًا، فجعلنا نتعجب من حُسنهم فقال لنا: كأنكم تغبطوني بهم. قلنا: والله إي والله، بمثل هؤلاء يُغبط المرء المسلم.

فرفع رأسه إلى سقف بيت له صغير، قد عشش فيه خُطَّاف وباض، فقال: والذي

---

(١) صفة الصفوة (١/ ١٦٨).

(٢) قال الأرنؤوط: رجاله ثقات: أخرجه أحمد (١/ ٤٢٣) وابن سعد (٣/ ١/ ١١١).



نفسي بيده لأن أكون قد نفضت يدي عن تراب قبورهم أحب إليَّ أن يسقط عش هذا الخطاف وينكسر بيضه.

وعن قيس بن جبير قال: قال عبد الله: حبَّذا المكروهان الموت والفقر، وايم الله إن هو إلا الغنى والفقر، وما أبالي بأيهما بليت، إن حق الله في كل واحد منهما واجب، وإن كان الغنى إن فيه للعطف ـ على المساكين ـ وإن كان الفقر إن فيه للصبر[١].

مكانته ومنزلته في قلوب الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ

وعن زيد بن وهب قال: إني لجالسٌ مع عمر بن الخطاب، إذ جاء ابنُ مسعود، فكاد الجلوس يُوارونه من قِصَره، فضحك عمرُ حين رآه، فجعل عمر يكلمه، ويتهللُ وجهه، ويضاحكه، وهو قائم عليه، ثم ولَّى، فأتبعه عمرُ بصره حتى توارى، فقال: كُنيف مُلِئَ علمًا[٢]. الكنيف: الوعاء.

وفي رواية: فقال: كُنَيف مُلِئ فقهًا[٣].

بل تأمل معي أخي الكريم هذا المشهد المهيب.

* عن الشعبي قال: ذكروا أن عمر بن الخطاب لقي ركبًا في سفر له فيهم عبد الله بن مسعود، فأمر عمر رجلاً يناديهم: من أين القوم؟ فأجابه عبد الله: أقبلنا من الفج العميق. فقال عمر: أين تريدون؟ فقال عبد الله: البيت العتيق. فقال عمر: إن فيهم عالمًا. وأمر رجلاً فناداهم: أي القرآن أعظم؟ فأجابه عبد الله: ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ حتى ختم الآية.

قال: نادهم أي القرآن أحكم؟ فقال ابن مسعود: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾ الآية.. فقال عمر: نادهم، أي القرآن أجمع؟ فقال ابن مسعود: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرًا يره﴾. فقال عمر: نادهم أي القرآن أخوف؟ فقال ابن

---

(١) صفة الصفوة (١/ ١٦٨).

(٢) أخرجه ابن سعد (٣/ ١/ ١١٠) وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٢٩) وأخرجه الفسوي (٢/ ٥٤٣) في المعرفة والتاريخ، من طريق: عبد الرزاق عن الثوري، عن الأعمش، عن زيد بن وهب،... وإسناده صحيح. وكُنَيف: تصغير كنف، وهو الوعاء، وهو تصغير تعظيم كقول الحباب بن المنذر: أنا جُذيلها المحكك، وعُذيقها المرجب...».

(٣) رواه الحاكم (٣/ ٣١٨) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يُخرجاه ووافقه الذهبي.

مسعود: ﴿ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءًا يُجز به﴾ الآية. فقال عمر: نادهم أي القرآن أرجى؟ فقال ابن مسعود: ﴿يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله﴾ فقال عمر: نادهم: أفيكم ابن مسعود؟ قالوا: اللهم نعم(1).

وعن حَبَّة بن جُوَين قال: لما قدم (عليٌّ) الكوفة، أتاه نفرٌ من أصحاب عبد الله، فسألهم عنه حتى رأوا أنه يمتحنهم، فقال: وأنا أقول فيه مثل الذي قالوا وأفضل، قرأ القرآن، وأحل حلاله، وحرَّم حرامه، فقيه في الدين، عالمٌ بالسنة(2).

وعن أبي الأحوص، قال: أتينا أبا موسى، فوجدتُ عنده عبد الله وأبا مسعود، وهم ينظرون في مصحف، فتحدثنا ساعةً، ثم راح عبدُ الله، فقال أبو مسعود: لا والله، لا أعلمُ رسول الله ﷺ ترك أحدًا أعلمَ بكتاب الله من هذا القائم(3). يقصد ابن مسعود.

وعن تميم بن حذلم، قال: جالست أصحاب النبي ﷺ أبا بكر وعمر، وما رأيت أحدًا أزهد في الدنيا ولا أرغب في الآخرة، ولا أحب إليَّ أن أكون في مسلاخه منك يا عبد الله بن مسعود.

وعن مسروق، قال: شاممت أصحاب محمد ﷺ فوجدت علمهم انتهى إلى ستة نفر منهم: عمر، وعليّ، وعبد الله، وأُبيّ بن كعب، وأبو الدرداء، وزيد بن ثابت، ثم شاممت هؤلاء الستة فوجدت علمهم انتهى إلى رجلين: عليّ، وعبد الله (ابن مسعود).

وعنه قال: جالست أصحاب محمد ﷺ فوجدتهم كالإخاذ يروي الرجل، والإخاذ يروي الرجلين، والإخاذ يروي المائة، وكالإخاذ لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم. فوجدت عبد الله من ذلك الإخاذ(4).

وعن أبي إسحاق قال: سمعت أبا الأحوص قال: «شهدت أبا موسى وأبا مسعود حين مات ابن مسعود فقال أحدهُما لصاحبه: أتُراه ترك بعده مثلَه؟ فقال: إن قلتَ ذاكَ إن كان ليُؤذَنُ له إذا حُجبنَا ويشهدُ إذا غِبنَا»(5).

* * *

(1) صفة الصفوة (1/ 165).

(2) قال الأرنؤوط: سنده حسن: أخرجه ابن سعد في الطبقات (3/ 1/ 110).

(3) أخرجه مسلم (2461) (113) والفسوي في المعرفة والتاريخ (2/ 414).

(4) صفة الصفوة (1/ 166).

(5) أخرجه مسلم (2461) والنسائي في فضائل الصحابة (156).

كلمات تملأ القلب نورا

ولا يتعجب أحدنا ـ بعد تلك المناقب ـ أن يجد ينابيع الحكمة تجرى على لسان ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ ولذا فإننى أهدى إليكم تلك الباقة العطرة من مواعظه وكلامه النفيس.

عن معن قال: قال عبد الله بن مسعود: «إن للقلوب شهوة وإقبالاً، وإن للقلوب فترة وإدبارًا، فاغتنموها عند شهوتها وإقبالها ودعوها عند فترتها وإدبارها».

وعن عون بن عبد الله قال: قال عبد الله: «ليس العلم بكثرة الرواية ولكن العلم الخشية».

وعن منذر قال: جاء ناس من الدهاقين إلى عبد الله بن مسعود، فتعجب الناس من غلظ رقابهم وصحتهم، فقال عبد الله: «إنكم ترون الكافر من أصح الناس جسمًا وأمرضه قلبًا، وتلقون المؤمن من أصح الناس قلبًا وأمرضه جسمًا، وايم الله، لو مرضت قلوبكم وصحت أجسامكم لكنتم أهون على الله من الجُعلان».

وعن عبد الله قال: «مع كل فرحة ترحة، وما ملئ بيت حبرة إلا ملئ عبرة».

وعن الضحاك بن مزاحم قال: قال عبد الله: «ما منكم إلا ضيف وماله عارية، فالضيف مرتحل، والعارية مؤداة إلى أهلها»[1].

وعن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود، عن أبيه، قال: أتاه رجل، فقال: يا أبا عبد الرحمن، علمنى كلمات جوامع نوافع، فقال له عبد الله: لا تشرك بالله شيئًا، وزُل مع القرآن حيث زال، ومن جاءك بالحق فاقبل منه وإن كان بعيدًا بغيضًا، ومن جاءك بالباطل فاردده عليه، وإن كان حبيبًا قريبًا.

وقال عبد الله: «الحق ثقيل مرئ، والباطل خفيف وبىء ورُب شهوة تورث حزنًا طويلاً».

وعن عنبس بن عقبة قال: قال عبد الله بن مسعود: «والله الذى لا إله إلا هو ما على وجه الأرض شىء أحوج إلى طول سجن من اللسان».

وعن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود عن أبيه قال: «إذا ظهر الزنا والربا فى قرية

(١) صفة الصفوة (١/ ١٧٢).

أذن بهلاكها».

وعن أبى عبيدة قال: قال عبد الله: «من استطاع منكم أن يجعل كنزه فى السماء حيث لا تأكله السوس ولا يناله السُراق فليفعل، فإن قلب الرجل مع كنزه».

وعن القاسم قال: قال رجل لعبد الله: أوصنى يا أبا عبد الرحمن قال: «ليسعك بيتك، واكفف لسانك، وابك على ذكر خطيئتك».

وعن عبد الرحمن بن يزيد عن عبد الله قال: أنتم أطول صلاة وأكثر اجتهاداً من أصحاب رسول الله ﷺ وهم كانوا أفضل منكم قيل له: بأى شىء؟ قال: إنهم كانوا أزهد فى الدنيا وأرغب فى الآخرة منكم.

وعن زاذان، عن عبد الله بن مسعود قال: يؤتَى بالعبد يوم القيامة فيقال له: أد أمانتك. فيقول: من أين يارب؟ قد ذهبت الدنيا، فتُمثّل على هيئتها يوم أخذها فى قعر جهنم، فينزل فيأخذها فيضعها على عاتقه فيصعد بها حتى إذا ظن أنه خارج بها هوت وهوى فى إثرها أبد الآبدين[١].

وعن أبى الأحوص، عن عبد الله قال: لا يقلدن أحدكم دينه رجلاً فإن آمن آمن وإن كفر كفر، وإن كنتم لابد مقتدين فاقتدوا بالميت؛ فإن الحى لا تُؤمَن عليه الفتنة.

وعن عبد الرحمن بن يزيد قال: قال عبد الله: لا تكونن إمّعة. قالوا: وما الإمعة؟ قال: يقول أنا مع الناس، إن اهتدوا اهتديت وإن ضلوا ضللت.

ألا ليوطنن أحدكم نفسه على أنه إن كفر الناس أن لا يكفر.

وعن سليمان بن مهران قال: بينما ابن مسعود يومًا معه نفر من أصحابه إذ مر أعرابى فقال: على ما اجتمع هؤلاء؟ فقال ابن مسعود: على ميراث محمد ﷺ يقتسمونه[٢].

وعن هُزيل بن شُرحبيل، عن عبد الله قال: من أراد الآخرة أضرَّ بالدنيا، ومن أراد الدنيا، أضرَّ بالآخرة، يا قوم فأضرُّوا بالفانى للباقى[٣].

وعن عبد الرحمن بن حجيرة أن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ كان يقول إذا قعد: إنكم فى ممرِّ الليل والنهار فى آجال منقوصة، وأعمال محفوظة، والموتُ يأتى بغتة، من

(١) صفة الصفوة (١/ ١٧٣).

(٢) صفة الصفوة (١/ ١٧٤).

(٣) قال الأرنؤوط: رجاله ثقات ـ نقلاً من السير للذهبى (١/ ٤٩٦).

زرع خيراً يُوشكُ أن يحصُدَ رغبة، ومن زرع شراً يُوشكُ أن يحصد ندامةً، ولكل زارع مثلُ ما زرع، لا يُسبقُ بطيءٌ بحظه، ولا يُدركُ حريصٌ ما لم يُقدَّر له، فمن أُعطىَ خيراً، فالله أعطاه، ومن وُقى شراً، فالله وقاه، المتقون سادة، والفقهاءُ قادة، ومجالستهم زيادة.

وعن عبد الله قال: ارضَ بما قسم الله تكن من أغنى الناس، واجتنب المحارمَ تكن من أورع الناس، وأدِّ ما افتُرِضَ عليك تكن من أعبد الناس(١).

وحان وقت الرحيل

وبعد حياة طويلة مليئة بالعلم والخشية والجهاد والبذل والتضحية والرحمة والتواضع.. نام ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ على فراش الموت، فقد آن الأوان ليلحق بحبيبه ﷺ الذى لطالما ملأ عليه قلبه ولطالما تعلم على يديه.

وبينما هو ـ رضى الله عنه ـ على فراش الموت، وإذا بعثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ يأتى إليه يعوده ـ يزوره فى مرضه ـ.

عن أبى ظبية قال: مرض عبد الله، فعاده عثمان، وقال: ما تشتكى؟ قال: ذُنوبى، قال: فما تشتهى؟ قال: رحمة ربى، قال: ألا آمر لك بطبيب؟ قال: الطبيبُ أمرضنى، قال: ألا آمر لك بعطاء؟ قال: لا حاجة لى فيه(٢).

ومات ابن مسعود بالمدينة ودُفن بالبقيع ليلحق بأحبابه.

فرضى الله عنه وعن سائر الصحابة أجمعين

* * *

(١) سير أعلام النبلاء للذهبى (١/ ٤٩٧).
(٢) سير أعلام النبلاء للذهبى (١/ ٤٩٨).

ثابت بن قيس

يا ثابت أما ترضى أن تعيش حميداً وتقتل شهيداً
وتدخل الجنة

محمد رسول الله ﷺ

وها نحن اليوم على موعد مع رجل كريم وصحابى جليل شرَّفه النبى ﷺ وكرَّمه أيما تكريم فقال له: «أما ترضى أن تعيش حميدًا وتُقتل شهيداً وتدخل الجنة»... ويا لها ـ والله ـ من كلمات جمعت لهذا الصحابى الجليل خيرى الدنيا والآخرة... ولم لا يكون له ذلك؟ وهو الذى خاف على نفسه أن يكون من أهل النار بمجرد أن علا صوته فوق صوت رسول الله ﷺ.

إننا على موعد مع ثابت بن قيس.

* يا لها من ثُلة فازت ورب الكعبة بكل المكارم. لقد علم الكثيرون من أصحاب النبى ﷺ وهو ما زال حيًا يُرزق أنه من أهل الجنة!!!

وأنا أسألكم بالله ـ جل وعلا ـ أى أقدام تحمل الإنسان بعد تلك البشرى ليمشى على الأرض.

ونحن الآن على موعدٍ مع صحابى جليل من هذا الصنف الكريم الذى علم أنه من أهل الجنة.

إنه (ثابت بن قيس) سيد من سادات الخزرج وكان من نُجباء أصحاب محمد ﷺ وكان خطيبًا للأنصار.

فقد كان حسان بن ثابت شاعراً للرسول ﷺ، وكان ثابت بن قيس خطيبًا له ﷺ وذلك بعد إسلامه ـ.

* كان ثابتٌ جهيرَ الصَّوت، خَطيبًا، شَاعرًا، كاتبًا، مُفَوَّهًا، فَصيحًا، عَليمًا بمقامات الكَلام، قوَّامًا بالكلمة الفَاضلة، حَبَاه اللهُ عزَّ وجلَّ لسانًا قؤولاً، وقلبًا عقولاً، ولسانًا

بليغًا، يدركُ ما يقول فى مواقف الكلام، ويعرفُ مكانَ المقاتل فى ضَرِبِ الحُسَام، فلقد خاضَ عدداً منَ المعارك فى الجاهلية، التى كانت دائرة بين قومه الخزرج وبين الأوس، وكان آخرها يوم بُعاث، حيثُ شارك بلسانه وسنانه فى تلكم المعارك، ولكنَّ الله عزَّ وجلَّ أكرمِ الأوسِ والخزرج، ووحَّدهم تحت كلمة الأنصار، فكانوا أنصاراً لرسولِ الله ﷺ، ومؤيِّدين خُلَّص، ومؤمنين أكارم[1].

موعد مع السعادة

وكان رسول الله ﷺ قد أرسل مصعب بن عمير ـ رضى الله عنه ـ إلى المدينة يقرئُ أهلها القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم فى الدين.

ونزل مصعب بن عمير بالمدينة على أسعد بن زرارة من بنى النجار فأقام عنده، وكان أسعد من النفر الخزرجيين الذين أسلموا يوم عرض الرسول ﷺ دعوته، ومن الذين حضروا بيعة العقبة الأولى والثانية، وكان مصعب بن عمير مثال الداعية اللبق الفطن، يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، وقد حباه الله ـ تعالى ـ الحلم والصبر والأناة، فاستطاع أن ينشر الإسلام فى المدينة. وذات يوم سمع ثابت بن قيس بالداعية المكى الذى ينزل بدار أسعد بن زرارة الخزرجى، وما كاد يستمع إلى القرآن الكريم يرتله مصعب بن عمير حتى أصاخ إليه بسمعه وقلبه، فأسَرَت معانى القرآن وروعته لُبه وفؤاده وما لبث أن شَرح الله صدره للإيمان، فانطلق ينطق بالشهادة، وانضوى تحت لواء الإسلام، كما أسلمت أمه «كبشة بنت واقد» وكانت ذا عقل وافر، وحكمة ورويِّة.

كما أسلمت حبيبة بنت سهل فتزوجها ثابت بن قيس ـ رضى الله عنه ـ[2]. وحين قدم رسول الله ﷺ إلى المدينة مهاجراً وآخى بين المهاجرين والأنصار كان نصيبُ ثابت بن قيس فى المؤاخاة «عامر بن أبى البكير»[3].

* * *

---

(١) فرسان من عصر النبوة (ص:٥٦٦).

(٢) الطبقات الكبرى (٨/ ٤٤٥).

(٣) عامر بن أبى البكير صحابى جليل، شهد بدراً والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، أسلم مع إخوته الثلاثة (عاقل وخالد وإياس) وما شهد بدراً إخوة أربعة سواهم. واستشهد عامر يوم اليمامة (سير أعلام النبلاء: ١/ ١٨٧).

خطيب رسول الله ﷺ

وكان ثابت بن قيس خطيبًا بليغًا جهير الصوت إذا خطب وقع كلامه فى القلب مباشرة بلا تردد ولا تلعثم فلما شرح الله صدره للإسلام فى بادئ الأمر وعلم بقدوم النبى ﷺ إلى المدينة قام يستقبل الحبيب ﷺ مع باقة عطرة من فرسان قومه.

عن أنس قال: خطب ثابتُ بنُ قيس مَقْدِم رسول الله ﷺ المدينة، فقال: نمنعك مما نمنع منه أنفسنا وأولادنا، فما لنا؟ قال: الجنة. قالوا: رضينا[1].

فأثلجت تلك الكلمة قلوب الأنصار وشرحت صدورهم.

ولِمَ لا؟ وقد وعدهم الحبيب ﷺ بالجنة التى فيها ما لا عين رأت ولا أُذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر.

ومنذ ذلك اليوم وأصبح ثابت بن قيس خطيب رسول الله ﷺ ، فكان إذا جاءت الوفود بخطبائها وشعرائها قام لهم ثابت بن قيس لمنازلة الخطباء.

فلما دخل وفدُ بنى تميم المسجد نادوا رسول الله ﷺ من وراء حُجُراته:

أن اخرج إلينا يا محمد، فآذى ذلك رسول الله ﷺ من صياحهم، فخرج إليهم، فقالوا: يا محمد، جئناك نُفاخرك، فأذن لشاعرنا وخطيبنا، قال: «قد أذنتُ لخطيبكم فليقل»، فقام عُطارد بن حاجب، فقال: الحمد لله الذى له علينا الفضلَ [والمنُّ] وهو أهلُه، الذى جعلنا مُلوكًا، ووهب لنا أموالاً عظامًا، نفعل فيها المعروف، وجعلنا أعزَّ أهل المشرق، وأكثره عددًا، وأيسره عُدَّة، فمن مثلنا فى الناس؟ ألسنا رءُوسَ الناس وأُولى فضلهم؟ فمن فاخرنا فليعدُد مثل ما عدَدنا، وإنا لو نشاء لأكثرنا الكلام، ولكنا نحيا من الإكثار فيما أعطانا، وإنا نُعرَفَ بذلك.

أقول هذا لأن تأتوا بمثل قولنا، وأمرٍ أفضلَ من أمرنا. ثم جلس.

فقال رسول الله ﷺ لثابت بن قيس بن الشمَّاس، أخى بنى الحارث بن الخزرج: «قُم، فأجِب الرجل فى خُطبته»، فقام ثابت، فقال: الحمد لله الذى السموات والأرض خلقه، قضَى فيهنَّ أمره، ووسع كُرسيه علمه، ولم يك شىء قطٌّ إلا من فضله، ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكًا، واصطفى من خير خلقه رسولاً، أكرمه نسبًا، وأصدقه حديثًا،

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ٢٣٤) وصححه وأقره الذهبى.

وأفضله حسبًا، فأنزل عليه كتابه وأئمه على خلقه، فكان خيرة الله من العالمين، ثم دعا الناس إلى الإيمان به، فآمن برسول الله المهاجرون من قومه وذوى رحمه؛ أكرمُ الناس حسبًا، وأحسن الناس وجوهًا، وخير الناس فعالاً. ثم كان أوّل الخلق إجابة، واستجاب لله حين دعاهُ رسول الله ﷺ نحن، فنحن أنصار الله ووزراء رسوله، نقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله، فمن آمن بالله ورسوله منع منَّا ماله ودمه، ومَنْ كفر جاهدناه فى الله أبدًا، وكان قتله علينا يسيرًا. أقول قولى هذا وأستغفر الله لى وللمؤمنين والمؤمنات، والسلام عليكم[1].

فيا لها من كلمات تنقش على صفحات القلوب بمداد من النور.

الحبيب ﷺ يبشره بالشهادة والجنة

ولقد كان ثابت ـ رضى الله عنه ـ يحمل قلبًا خاشعًا مخبتًا، وكان يتحلى بالخشية والخوف من كل ما يُغضب الله ـ عز وجل ـ وإذا به فى يوم من الأيام يقول للحبيب ﷺ: يا رسول الله! إنى أخشى أن أكون قد هلكت، ينهانا الله أن نُحبَّ أن نُحمدَ بما لا نفعلُ، وأجدنى أحبُّ الحمد. وينهانا الله عن الخُيلاء، وإنى امرؤ أُحبَ الجمال، وينهانا الله أن نرفع أصواتنا فوق صوتك، وأنا رجل رفيعُ الصوت، فقال: «يا ثابت! أما ترضى أن تعيش حميدًا، وتُقتل شهيدًا، وتدخل الجنة»[2]؟.

فيا لها من بشرى لا تقوم لها الدنيا بكل ما فيها.

إنها سعادة الدنيا والآخرة: يعيش حميداً ويُقتل شهيداً ويدخل الجنة.

بل ها هى بشرى من النبى ﷺ له بالجنة مرة ثانية.

فعن أنس بن مالك أنه قال: لما نزلت هذه الآية ﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى﴾ إلى آخر الآية... جلس ثابت بن قيس فى بيته وقال: «أنا من أهل النار» واحتبس عن النبى ﷺ فسأل النبيُ ﷺ سعد ابن معاذ فقال: «يا أبا عمرو ما شأن ثابت؟ أشتكى؟» قال سعد: إنه لجارى وما علمت له بشكوى ـ مرض ـ قال: فأتاه سعد فذكر له قول رسول الله ﷺ فقال ثابت : أُنزلت هذه الآية ولقد علمتم أنى

(١) أخرجه الطبرى فى التاريخ (٢/ ١٨٨: ١٩٠) ـ السيرة لابن هشام (٤/ ١٨٧ ـ ١٨٨).
(٢) أخرجه الحاكم (٣/ ٢٣٤) وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يُخرجاه بهذه السياقة، ووافقه الذهبى ـ وقال الحافظ فى الفتح (٦/ ٦٢١): إسناده قوى، لكنه مرسل.

من أرفعكم صوتًا على رسول الله ﷺ فأنا من أهل النار. فذكر ذلك سعد للنبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «بل هو من أهل الجنة»(١).

قصة طريفة له في يوم قريظة

لقد شهد ثابت ـ رضي الله عنه ـ المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ سوى (بدر) ولقد علمنا أن الحبيب ﷺ بشَّره بالشهادة في سبيل الله بل وبشَّره بأنه من أهل الجنة.

* ويوم قُريظة كان لثابت بنِ قيس ـ رضي الله عنه ـ قصّة طريفة مع أَحَدِ اليهود الذين وقعوا في الأَسْر، وحُكِمَ عليهم بالإعدام،وهو الزَّبير بنُ باطا اليهوديّ، وكانَ الزَّبير قد منَّ على ثابتِ بن قيس بن شمّاس في الجاهلية في يوم بُعاث، أخذه فجزَّ ناصيته، ثم خلّى سبيله، فجاءه ثابت يوم قريظة، وهو شيخ كبيرٌ، فقال: يا أبا عبد الرحمن! ـ كنية الزَّبير ـ هل تعرفني؟

قال الزَّبير: وهل يجهل مثلي مثلك؟

قال ثابت: إنِّي قد أردتُ أنْ أجزيك بيدك عندي يوم بعاث.

قال: إنَّ الكريمَ يجزي الكريم يا أبا محمّد ـ كنية ثابت ـ.

* ثمَّ إنَّ ثابت بن قيس أتى رسولَ الله ﷺ فقال: يا رسول الله! هَبْ لي الزّبير، فإنَّ له عليَّ منَّة، وأحببتُ أنْ أجزيه بها، فقال رسولُ الله ﷺ: «هو لكَ»، فأتى ثابت الزَّبير وقال له: إنَّ رسولَ الله ﷺ قد وهبَ لي دَمَكَ فهو لك.

قال: شيخٌ كبيرٌ لا أهل له ولا ولَد، فما يصنعُ بالحياة!.

فأتى ثابتُ رسولَ الله ﷺ فاستوهبه أهله وولده فقال ﷺ لثابت: «هم لك».

فأتاه فقال: إنَّ رسولَ الله ﷺ قد أعطاني امرأتك وولدك فهم لك.

قال الزَّبير: أهل بيت الحجاز لا مالَ لهم، فما بقاؤهم؟!

فأتى ثابت ـ رضي الله عنه ـ رسولَ الله ﷺ فقال: يا رسول الله... ماله!

قال ﷺ: «هو لك».

فأتاه ثابت فقال: إنَّ رسولَ الله ﷺ قد أعطاني مالك فهو لك.

(١) أخرجه مسلم (١١٩) وأحمد (٣/ ١٣٧).

قال الزَّبير بنُ باطا اليهوديّ: أي ثابت! ما فعل الذى كان وجهه مرآة صينية تتراءى فيها عذارى الحىّ كعب بن أسد ـ ملك اليهود ـ؟

قال ثابت: قُتِل معَ مَنْ قُتِل.

قال: فما فعل سيِّد الحاضر والبادى؛ حُيى بن أخْطَبَ؟

قال ثابت: قُتِل.

قال: فما فعل مقدّمتنا إذا شَددنا، وحاميتنا إذا كررنا، عزّال بن شمويل؟

قال: قُتِل.

فقال: فما فعل المجلسان ـ يعنى بنى كعب بن قريظة وبنى عمرو بن قريظة ـ؟

قال ثابت ـ رضى اللهِ عنه ـ: ذهبوا، وقُتلوا، وفُرِغَ منهم، ولعلَّ الله عزَّ وجلَّ أنْ يهديَك.

قال الزّبير: أسألك بالله وبيدى عندك يا ثابت إلا ما ألحقتنى بالقوم؛ فواللهِ ما فى العيش بعد هؤلاء منْ خيرٍ، فما أنا بصابرٍ لله فتلة دلو نضح حتى ألقى الأحبّة.

فذكر ثابت ـ رضى الله عنه ـ لرسولِ الله ﷺ مقالة الزَّبير بن باطا، فأمَر به، فقدّمه ثابت فَضَرب عنقه.

* فلمَّا بلغ أبا بكر الصِّدِّيق ـ رضى الله عنه ـ قول الزَّبير: ألقى الأحبّة، قال ـ رضى الله عنه ـ: يلقاهم واللهِ فى نارِ جهنَّم خالداً مخلداً فيها أبداً[١].

وهنا أنشد ثابت بن قيس ـ رضى الله عنه ـ فى تلك الحادثة، يذكر الزَّبير ابن باطا اليهودىّ فقال:

وفَتْ ذمّتى أنّى كريمٌ وأنّنى … صبورٌ إذا ما القوم حادوا عن الصَّبر

وكان زبيرٌ أعظم النَّاس منّةً … علىَّ فلمَّا شُدَّ كوعاه بالأسرِ

أتيت رسول الله كيما أفكّه … وكان رسول الله بحراً لنا يجرى[٢]

* * *

(١) تاريخ الطبرى (٢/ ١٠٢) وتاريخ الإسلام للذهبى (المغازى ص٣١٦) مع الجمع والتصرف.

(٢) تاريخ الطبرى (٢/ ١٠٢).

موقفه النبيل فى بنى المصطلق

عن عائشة أم المؤمنين قالت: لما قسم رسول الله ﷺ سبايا بنى المصطلق وقعت جويرية بنت الحارث فى السهم لثابت بن قيس بن الشماس أو لابن عم له وكاتبته على نفسها، وكانت امرأة حلوة ملاحة لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه، فأتت رسول الله ﷺ تستعينه فى كتابتها قالت:

فوالله ما هو إلا أن رأيتها على باب حجرتى فكرهتها وعرفت أنه سيرى منها ما رأيت فدخلت عليه فقالت: يا رسول الله أنا جويرية بنت الحارث بن أبى ضرار سيد قومه، وقد أصابنى من البلاء ما لم يخف عليك فوقعت فى السهم لثابت بن قيس بن الشماس أو لابن عم له، فكاتبته على نفسى، فجئتك أستعينك على كتابتى قال: «فهل لك فى خير من ذلك؟» قالت وما هو يا رسول الله.. «أقضى كتابتك وأتزوجك» قالت: نعم يا رسول الله قال: «قد فعلت» قالت: وخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله تزوج جويرية بنت الحارث فقال الناس: أصهار رسول الله فأرسلوا ما بأيدهم قالت: فلقد أعتق بتزويجه إياها مائة أهل بيت من بنى المصطلق فما أعلم امرأة كانت أعظم بركة على قومها منها[(١)].

وقد حدث هذا بعد أن قال ثابت بن قيس للنبى ﷺ: هى لك يا رسول الله بأبى أنت وأمى.. فياله من موقف نبيل لا يُنسى أبداً.

شهيد يبحث عن الشهادة

فما زال ثابت يبحث عن الشهادة فى مظانها... ففى كل غزوة غزاها يقول فى نفسه: لعلى أنال الشهادة هنا.... وظل هكذا يتلهف شوقًا لهذا اليوم الذى يلقى الله فيه شهيداً فى سبيل إعلاء كلمة (لا إله إلا الله).

إلى أن جاءت حروب الردة التى كانت الدولة فيها فى أكثر المعارك لمسيلمة الكذاب حتى وصل الأمر أن اقتحموا فسطاط ـ خيمة ـ خالد بن الوليد وهمّوا بقتل زوجته أم تميم.

---
(١) رواه أحمد (٦/ ٢٧٧) وأبو داود (٣٩٣١) وإسناده صحيح.

وكان ثابت بن قيس وقتها هو حامل لواء الأنصار.

فلما رأى الضعف والوهن قد دبَّ في صفوف المسلمين قام فقال: أُفٍّ لهؤلاء ولمَا يعبدون! وأُف لهؤلاء ولما يصنعون! يا معشر الأنصار، خلُّوا سَنَنى لعلى أصلى بحرِّها ساعةً، ورجل قائم على ثُلمَة، فقتله وقُتل.

وعن أنس قال: جئته وهو يتحنط، فقلت: ألا ترى؟ فقال: الآن يا ابن أخى. ثم أقبل، فقال: هكذا عن وجوهنا نقارعُ القوم، بئس ما عودّتم أقرانكم، ما هكذا كنا نقاتل مع رسول الله ﷺ، فقاتل حتى قُتل[1].

وعن أنس: أن ثابت بن قيس جاء يوم اليمامة، وقد تحنَّط ولبس ثوبين أبيضين، فكُفِّن فيهما، وقد انهزم القوم، فقال: اللهم إنى أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء، وأعتذر من صنيع هؤلاء، بئس ما عودّتم أقرانكم، خلُّوا بيننا وبينهم ساعة، فحمل، فقاتل حتى قُتل»[2].

وخرَّ البطل صريعًا على أرض الشرف والجهاد، وقد نال الشهادة التى لطالما كان يتمناها والتى بشَّره بها حبيبه ﷺ. وأسلم البطل نفسه ليكون فى حواصل طير خُضر تأوى إلى تلك القناديل المعلقة عند عرش الرحمن وليسرح فى أنهار الجنة وليكون من تلك الثلة المؤمنة ﴿مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحَسُن أولئك رفيقًا﴾ [النساء:٦٩].

لك الله يا ثابت من فارس مغوار وبطل كرّار.. تلبس الكفن ببطولة وفدائية، وغيرك من أقزام عصرنا أولى بلُبْس الكفن من الأموات ذلاً وخِزيًا وهوانًا!!

لقــد جفتْ سواقينا وهـدّ الذلُّ مأوانا
ولم يترك لنا الأعــداءُ غرسًا فى أراضينا
سوى أجياف موتانا
أخى إن ضجّ بعد الحرب (يهودى) بأعمالهْ
وقـدس ذِكْرَ من مـاتوا وعظم بطش أبطاله
فلا تهزج لمن سادوا ولا تشمتْ بمـن دانا

(١) أخرجه البخارى (٢٨٤٥) الجهاد.

(٢) أخرجه الحاكم (٣/ ٢٣٤ ـ ٢٣٥) وصححه ووافقه الذهبى.

بل اتبعني لنحفر خندقًا بالرفش والمعول

نُوارى فيه موتانا

بل اركع خاشعًا مثلي لنبكي حظَّ موتانا

أخي مَنْ نحن لا وطن ولا أهل ولا جار

إذا نمنا إذا قُمنا ردانا الخزيُ والعارُ

لقد خمّتْ بنا الدنيا كما خُمَّتْ بموتانا

فهاتِ الرّفش واتبعني لنحفرَ خندقًا آخرْ

نواري فيه أحيانا(١)

وهكذا نال ثابت بن قيس الشهادة في سبيل الله مع ثُلَّة من الصحابة الكرام ـ رضوان الله عليهم ـ وكأن دماءهم التي سالت على أرض المعركة كانت بداية النصر الكبير من الله ـ عز وجل ـ لمن خرجوا من ديارهم لا يرجون إلا أن تكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى(٢).

لقد نال ثابتٌ الشهادة في سبيل الله بعد أن ترك أثرًا حميدًا لمن بعده، وفتح ثغرة في صفوف العدو، استطاع فرسان المسلمين من خلالها أن ينفذوا إلى قلب الأعداء وينتصروا عليهم.

لقد كان ثابتٌ من الرجال النجباء الذين صهرهم الإسلام ونقّاهم، وهو أحد الذين تخرجوا من مدرسة الإسلام الأولى، وتشربت قلوبهم مبادئه، فكانوا من الصفوة المختارة التي مدحها رسول الله ﷺ وأثنى عليها، وقال فيه: «نِعم الرجل ثابت بن قيس بن شمّاس»(٣).

ولم يتوقف عطاء ثابت بن قيس بعد أن سقط شهيدًا في ساحة الإيمان؛ لأن غراسه ما تزال تؤتي أكلها، فقد كان له من البنين ثلاثة: محمد ويحيى وعبد الله، رباهم على حُب الجهاد والموت في سبيل الله، فقُتلوا جميعًا في سبيل الله(٤)، ونالوا شرف الشهادة،

---

(١) علو الهمة/ د. سيد حسين (٣/ ٣٤٥ ـ ٣٤٦).

(٢) رجال مبشرون بالجنة (ص ٢٧٥).

(٣) أخرجه الترمذي والحاكم (٣/ ٢٣٣) وصححه ووافقه الذهبي ـ صحيح الجامع (٦٧٧٠).

(٤) سير أعلام النبلاء (١/ ٣١٣).



وسالت دماؤهم الطاهرة فوَّارة لتروى الثرى الطيب، وليكونوا نموذج صدق لمن يريد العزة والكرامة ممن يأتى بعدهم. وهكذا سُجل اسم ثابت بن قيس ـ رضى اللهّ عنه ـ فى سجل أولئك الرجل الأفذاذ الذين ضربوا أروع الأمثلة فى الإسلام، وكانوا بحق ممن صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

تنفيذ وصيته بعد موته !!!

لما استشهد ثابت ـ رضى الله عنه ـ رآه رجلٍ ـ أى فى المنام ـ فقال له: «إنى لما قُتلتُ، انتزع درعى رجل من المسلمين، وخبَّأه، فأكبَّ عليه برمة[1]، وجعل عليها رحلاً، فائت الأمير، فأخبره، وإياك أن تقول: هـذا حُلمٌ، فتضيعه، وإذا أتيت المدينة، فقل لخليفة رسول الله ﷺ: إن علىَّ من الدَين كذا وكذا، وغلامى فلان عتيق، وإياك أن تقول هذا حُلم، فتضيعه، فأتاه فأخبره الخبر، فنفذ وصيته!!

فلا نعلم أحدًا بعدما مات أُنفذت وصيته غير ثابت بن قيس ـ رضى الله عنه ـ[2].

فرضى الله عن ثابت وعن سائر الصحابة أجمعين

* * *

---

(١) البرُمة: قدرٌ من الحجارة.

(٢) أخرجه الحاكم (٣/ ٢٣٥) وذكره الهيثمى فى المجمع (٩/ ٣٢٢) وقال: رواه الطبرانى، وبنت ثابت بن قيس لم أعرفها، وبقية رجاله ثقات. وقال البوصيرى: أصله فى البخارى (٣٦١٣) و(٤٨٤٦) ومسلم (١١٩).

أبو طلحة الأنصاري

لصوت أبي طلحة في الجيش خير من ألف رجل

محمد رسول الله ﷺ

إننا مع كل صفحة من هذا الكتاب نعيش فيها بأرواحنا مع واحد من هؤلاء الأتقياء الأنقياء الذين ربَّاهم الحبيب ﷺ على العقيدة الراسخة والإيمانّ الذى لا تزعزعه الجبال.... وكأننا نطير فوق السحاب ونلامس كواكب الجوزاء بمجرد أن نتعايش مع صفحة مضيئة من حياتهم.

ولذلك قال الحبيب ﷺ: «الأرواح جنود مجنَّدة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف»[١].

وها نحن نعيش، بل ونتعايش مع رجلٍ أسلم لله ـ جل وعلا ـ وكان إسلامُه مهراً لامرأة من نساء أهل الجنة.

إنه أبو طلحة الأنصارى صاحبُ رسول الله ﷺ ، ومن بنى أخواله، وأحدُ أعيان البدريين وأحدُ النُّقباء الاثنى عشر ليلة العقبة.

قصة إسلامه.. وزواجه من أم سليم

لقد أسلمت أم سُليم ـ رضى الله عنها ـ وكان زوجها مالك ـ والد أنس ـ ما زال كافراً.. وذات مرة سمع مالك زوجته تردد بعزيمة أقوى من الصخر: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، خرج من البيت غاضبًا فلقيه عدوٌ له فقتله.

ولما علمت أم سليم، بمقتل زوجها احتسبت وقالت: لا جرم، لا أفطم أنسًا حتى يدع الثدى، ولا أتزوج حتى يأمرنى أنس.

وذهبت أم أنس إلى الرسول ﷺ على استحياء وعرضت عليه أن يكون أنس خادمًا

(١) أخرجه البخارى عن عائشة ـ ومسلم وأحمد عن أبى هريرة ـ صحيح الجامع (٢٧٦٨).

عنده، فرحب وأقر عينها بذلك.

ومضى الناس يتحدثون عن أنس بن مالك وأمه بإعجاب وتقدير... ويسمع أبو طلحة بالخبر، فيتقدم للزواج من أم سليم ويعرض عليها مهراً غاليًا، إلا أن المفاجأة أذهلته وعقلت لسانه عندما رفضت أم سليم كل ذلك بعزة وكرامة، وهى تقول: إنه لا ينبغى أن أتزوج مشركًا، أما تعلم يا أبا طلحة أن آلهتكم ينحتها آل فلان، وإنكم لو أشعلتم فيها ناراً لاحترقت[١]. فأحس أبو طلحة بضيق شديد، فانصرف وهو لا يكاد يصدق ما يرى ويسمع، لكنه عاد فى اليوم التالى يمنيها بمهر أكبر وعيشة رغيدة عساها تلين وتقبل. ولكن أم سليم الداعية اللبيبة الذكية ـ التى ترى الدنيا تتراقص أمام عينيها، حيث المال والجاه والشباب ـ تشعر بأن قلعة الإسلام فى قلبها أقوى من كل نعيم الدنيا، فقالت بأدب جَم: «والله ما مثلك يا أبا طلحة يُرد ولكنك رجل كافر، وأنا امرأة مسلمة، ولا يحل لى أن أتزوجك، فإن تُسلم فذاك مهرى ولا أسألك غيره»[٢].

لقد هزت هذه الكلمات أعماقه وملأت كيانه، فقد تمكنت أم سليم من قلبه تمامًا، فليست هى المرأة اللعوب التى تنهار أمام المغريات.

إنها المرأة العاقلة التى تفرض وجودها، وهل يجد خيراً منها تكون زوجًا له، وأمًا لأولاده؟؟![٣]

فألقى اللهُ الإسلام فى قلبه وأحسَّ بعظمة هذا الدين الذى يجعل تلكم المرأة لا تتأثر بمغريات الدنيا وزينتها، بل إنها تستعلى بإيمانها فوق ذلك كله.

فأراد أبو طلحة أن يعلن إسلامه فقال لها: فمن لى بذلك؟ قالت: النبى ﷺ. فانطلق يريده. فقال النبى ﷺ: «جاءكم أبو طلحة وغُرّة الإسلام بين عينيه»[٤].

ما شعر إلا ولسانه يردد (أنا على مثل ما أنت عليه،أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله). فالتفتت أم سليم إلى ابنها أنس، وهى تقول بسعادة بالغة بعد أن هدى الله على يديها أبا طلحة: قم يا أنس فزوِّج أبا طلحة.... فزوَّجها، وكان صداقها الإسلام.

(١) الطبقات لابن سعد (٨/ ٤٢٦) ـ الإصابة لابن حجر (٨/ ٣٤٣) بتصرف.
(٢) الإصابة لابن حجر (٨/ ٢٤٣) ـ الحلية (٢/ ٥٩ ـ ٦٠) بتصرف.
(٣) إنها الجنة يا أختاه/ للمصنف (ص ٣٠) ط. دار الفردوس.
(٤) أخرجه الطيالسى فى مسنده (٢/ ١٥٩، ١٦٠).

وبذلك قال ثابت ـ راوى الحديث عن أنس ـ: فما سمعنا بمهرٍ كان قَط أكرم من مهر أم سُليم: الإسلام[١] ـ أى كان مهرها الإسلام ـ.

ومنذ تلك اللحظة عاش أبو طلحة ـ رضى الله عنه ـ فى رحاب الوحى ونوره وخالط الإيمان شغاف قلبه حتى أحسَّ وكأنه أسعد إنسان فى الدنيا كلها. ولِمَ لا؟ وهو يعيش فى جنة الدنيا بإيمانه، بل وتعيش فى بيته امرأة من أهل الجنة!!!

فقد قال ﷺ ذات مرة: «دخلت الجنة فسمعت خشفةً بين يديَّ فقلت: ما هذه الخشفة؟ فقيل: الغُميصاء بنت ملحان»[٢].

والغميصاء بنت ملحان هى أم سليم ـ رضى الله عنها ـ.

وفوق هذا النعيم كله أنه أحَبَّ رسول الله ﷺ حبًّا مَلَك عليه فؤاده وجوارحه حتى كان يتمنى فى أى لحظة أن يفديه بنفسه وماله وبكل ما يملك.

ولقد كان (أبو طلحة) أحد السبعين الذين بايعوا رسول الله ﷺ بيعة العقبة ومعه زوجه (أم سليم)، بل كان أحد النُقباء الاثنى عشر الذين أمَّرهم الرسول ﷺ فى تلك الليلة على مسلمى «يثرب».

إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب

وشاء الله ـ عز وجل ـ أن يرزقه بولدٍ من أم سُليم ملأ عليهما حياتهما.

وشاء الله أن يمتحنهما بهذا الطفل الجميل، فمرض الولد مرضًا شديدًا، وذات مرة خرج أبو طلحة فمات الولد فتلقت (أم سليم) موت ابنها بصبرٍ وثبات ورضاءٍ بقضاء الله فقالت: الحمد لله إنا لله وإنا إليه راجعون.

وهنا أترك الحديث لأنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ ليقص علينا القصة كاملة.

فعن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال: مات ابن لأبى طلحة من أم سليم فقالت لأهلها: لا تحدثوا أبا طلحة بابنه حتى أكون أنا أحدثه. قال: فجاء فقربت إليه عشاء فأكل وشرب، فقال:ثم تصنَّعت له أحسن ما كان تصنَّع قبل ذلك فوقع بها، فلما رأت أنه قد شبع وأصاب منها، قالت: يا أبا طلحة أرأيت لو أن قومًا أعاروا عاريتهم أهل بيت فطلبوا

---

(١) قال الأرنؤوط: إسناده صحيح: أخرجه عبد الرزاق (١٠٤١٧) والطيالسى فى مسنده (٢٥٩٠).

(٢) أخرجه مسلم وأحمد والنسائى عن أنس ـ صحيح الجامع (٣٣٦٨).

عاريتهم ألهم أن يمنعوهم؟ قال: لا. قالت: فاحتسب ابنك. قال: فغضب وقال: تركتنى حتى تلطخت ثم أخبرتنى بابنى، فانطلق حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره بما كان فقال رسول الله ﷺ: «بارك الله لكما فى غابر ليلتكما» قال: فحملت. قال: فكان رسول الله ﷺ فى سفر وهى معه، وكان رسول الله ﷺ إذا أتى المدينة من سفر لا يطرقها طروقًا(١) فدنوا من المدينة فضربها المخاض فاحتبس عليها أبو طلحة، وانطلق رسول الله ﷺ قال: يقول أبو طلحة: إنك لتعلم يارب إنه يعجبنى أن أخرج مع رسولك إذا خرج وأدخل معه إذا دخل وقد احتبست بما ترى قال: تقول أم سليم: يا أبا طلحة ما أجد الذى كنت أجد، انطلق، فانطلقنا قال: وضربها المخاض حين قدما فولدت غلامًا فقالت لى أمى: يا أنس لا يُرضعه أحد حتى تغدو به على رسول الله ﷺ.

فلما أصبح احتملته فانطلقت به إلى رسول الله ﷺ قال: فصادفته ومعه ميسم. فلما رآنى قال: «لعل أم سليم ولدت» قلت: نعم فوضع الميسم قال: وجئت به فوضعته فى حجره، ودعا رسول الله ﷺ بعجوة من عجوة المدينة فلاكها فى فيه ـ فمه ـ حتى ذابت ثم قذفها فى (فِىّ) الصبى، فجعل الصبى يتلمظها قال: فقال رسول الله ﷺ: «انظروا إلى حب الأنصار التمر» قال: فمسح وجهه وسماه عبد الله(٢).

قال رجل من الأنصار: فرأيت لهما تسعة أولاد كلهم قد حفظوا القرآن(٣).

فيا لها من ذرية مباركة، ويا له من أجر عظيم فى الدنيا لمن صبر على البلاء ـ هذا مع الخير الذى ينتظره فى جنة الرحمن التى فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر ـ.

صفحات مشرقة من جهاده فى سبيل الله

هو الذى قال فيه رسول الله ﷺ: «لصوتُ أبى طلحة فى الجيش خيرٌ من ألف رجل»(٤).

---

(١) يعنى لا يدخل على أهل بيته فى الليل إلا بعد أن يُخبرهم فينزل أولاً على المسجد فيصلى ركعتين. وهذا من أدبه ﷺ حتى تتجهز المرأة لزوجها فلا يرى منها ما يكره.

(٢) أخرجه مسلم (٢١٤٤) عن أنس ـ رضى الله عنه ـ.

(٣) أخرجه البخارى (٣/ ٢٦٩) الجنائز ـ ومسلم (١٤/ ١٢٤ ـ ١٢٥).

(٤) صحيح، رواه الحاكم وابن عساكر عن جابر، وصححه الألبانى فى الصحيحة رقم (١٢٧٥) وصحيح الجامع (٥٠٨١).

وعن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لصوتُ أبى طلحةَ فى الجيش خيرٌ من فئة»(١).

بربك قل لى: إن كان هذا حال صوته، فكيف زنده ونبله، وسيفه ورمحه؟!

لقد كان أبو طلحة ـ رضى الله عنه ـ ممن شهدوا بدرًا وأبلى فى تلك الغزوة بلاءً حسنًا.

وفى يوم (أُحُد) كان من الأبطال الذين ثبتوا مع النبى ﷺ ودافع عنه بكل ما يملك.

عن أنس قال: لما كان يوم أُحُد، انهزم ناسٌ عن رسول الله، وأبو طلحة بين يديه مُجوِّباً عليه بحجفة، وكان راميًا شديد النزع، كسر يومئذ قوسين أو ثلاثة. وكان الرجلُ يمر معه الجُعبةُ من النبل، فيقول ﷺ: «انثُرها لأبى طلحة». ثم يُشرفُ إلى القوم. فيقولُ أبو طلحة: يا نبى الله، بأبى أنت، لا تُشرف، لا يُصيبك سهم، نحرى دون نحرك.

قال: فلقد رأيتُ عائشة وأم سليم وإنهما لُمشمرات(٢)، أرى خدم سوقهما، تنقُزان القِرَبُ على مُتونهما، وتُفرغانها فى أفواه القوم، وترجعان، فتملآنها. فلقد وقع السيفُ من يد أبى طلحة مرتين أو ثلاثًا من النُّعاس(٣).

وعن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ قال: «كان أبو طلحة يتترَّس مع النبى ﷺ بترسٍ واحد، وكان أبو طلحة حسن الرمى، فكان إذا رمى يشرف النبى ﷺ فينظر إلى موضع نبله»(٤)،(٥).

عن أنس ـ رضى الله عنه ـ أن أبا طلحة كان يرمى بين يدى رسول الله ﷺ يوم أُحُد،

---

(١) صحيح، رواه أحمد والحاكم وابن سعد وأبو نعيم فى الحلية والخطيب وابن عساكر، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع رقم (٥٠٨٢).

(٢) المشمرات: من التشمير.

(٣) أخرجه البخارى (٧/ ٢٧٨، ٢٧٩) فى المغازى: باب غزوة أُحُد. والحجفة: الترس. ومُجوبًا: بضم الميم وفتح الجيم وتشديد الواو المكسورة، أى مترسًا عليه. وخدم سوقهما، هى، الخلاخيل، جمع خدمة. تنقزان: تثبان، والنقز: الوثب والقفز، كناية عن سرعة السير.

(٤) عند عبد بن حميد فى المنتخب من الزيادة (من طريق ثابت عن أنس)، وكان أبو طلحة يدفع صدر رسول الله ﷺ بيده ويقول يا رسول الله هكذا لا يصيبك سهم، وكان أبو طلحة يسور نفسه بين يدى رسول الله ﷺ يقول: يا رسول الله إنى قوى جلد فوجهنى فى حوائجك وابعثنى حيث شئت. وسندها صحيح.

(٥) أخرجه البخارى (٢٩٠٢) وأحمد (٣/ ٢٦٥).

وكان رجلاً راميًا، وكان رسول الله ﷺ إذا رمى أبو طلحة، رفع بصره ينظر أين يقع سهمه. وكان يدفع صدر رسول الله ﷺ بيده، ويقول: يا رسول الله، هكذا لا يُصيبك سهم[١].

وكان إذا بقى مع النبى ﷺ ، جثا بين يديه، وقال: نفسى لنفسك الفداءُ، ووجهى لوجهك الوقاءُ.

وفى يوم حنين

«وعن أنس ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال يوم حُنين: «مَنْ قتل قتيلاً فله سلبُه». فقتل أبو طلحة يومئذٍ عشرين رجلاً، وأخذ أسلابهم»[٢].

إنفاقه فى سبيل الله تعالى

وكان ـ رضى الله عنه ـ كريمًا لا يضن ولا يبخل بالمال أبدًا.

فعن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ قال: كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً من نخل، وكان أحب أمواله إليه بيرُحَاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب. قال أنس : فلما أُنزلت هـذه الآية: ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ قام أبو طلحـة إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ وإن أحب أموالى إلىَّ بيرُحَاء، وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله قال: فقال رسول الله ﷺ: «بخٍ، ذلك مال رابح، ذلك مال رابح، وقد سمعت ما قلت، وإنى أرى أن تجعلها فى الأقربين» فقال أبو طلحة: افعل يا رسول الله. فقسمها أبو طلحة فى أقاربه وبنى عمه[٣].

* * *

(١) قال الأرنؤوط: إسناده صحيح: أخرجه أحمد (٣/ ٢٨٦، ٢٨٧) وابن سعد (٣/ ٥٠٦).
(٢) قال الأرنؤوط: إسناده صحيح: أخرجه أبو داود، وصححه الحاكم ووافقه الذهبى.
(٣) أخرجه البخارى (١٤٦١) ـ ومسلم (٩٩٨) وأحمد (٣/ ١٤١).

أبو طلحة يظفر بشعر النبي ﷺ

عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ رمى جمرة العقبة ثم انصرف إلى البُدن فنحرها، والحجام جالس وقال بيده على رأسه فحلق شقه الأيمن فقسمه فيمن يليه ثم قال: «احلق الشق الآخر» فقال: «أين أبو طلحة» فأعطاه إياه(١).

ويا لها من منقبة عظيمة أن يخصّه الحبيب ﷺ من بين الصحابة ـ رضي الله عنه ـ بتلك الهدية الغالية.

عبادته ـ رضي الله عنه ـ

وعاش أبو طلحة ـ رضي الله عنه ـ حياته عابدًا صائمًا قائمًا مجاهدًا في سبيل الله.

عن أنس بن مالك أن أبا طلحة سَرَد الصوم بعد وفاة رسول الله ﷺ أربعين سنة لا يفطر إلا يوم فطر أو أضحى أو في مرض(٢).

وفي رواية عن أنس قال: كان أبو طلحة بعد النبي ﷺ لا يُفطر إلا في سفرٍ أو مرضٍ(٣).

كرامة ثابتة لأبي طلحة بعد موته

وها هو في آخر أيامه ـ رضي الله عنه ـ لكن شيخوخته ما حالت بينه وبين الجهاد في سبيل الله حتى آخر قطرة من دمه.

عن أنس أن أبا طلحة قرأ سورة (براءة) فأتى على هذه الآية ﴿انفروا خفافًا وثقالاً﴾ فقال: ألا أرى ربي يستنفرني شابًا وشيخًا؟ جهزوني.

فقال له بنوه: قد غزوت مع رسول الله ﷺ حتى قُبض، وغزوت مع أبي بكر حتى مات، وغزوت مع عمر، فنحن نغزو عنك فقال: جهِّزوني فجهَّزوه، فركب البحر فمات

---

(١) أخرجه مسلم (١٣٠٥) والترمذي في الحج (٧٣) وأبو داود (١٩٨١).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٣٥٣) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يُخرجاه ووافقه الذهبي.

(٣) قال الأرنؤوط: إسناده صحيح: أخرجه ابن سعد (٣/ ٥٠٦).

فلم يجدوا له جزيرة يدفنونه فيها إلا بعد سبعة أيام فلم يتغير[١].

وهناك فى هذا المكان البعيد عن الأهل والعشيرة والأصحاب يُدفن أبو طلحة.

وإن كان مكانه بعيداً عن أعيننا إلا أنه ليس بعيداً عن عين الله ـ جل وعلا ـ الذى سيجبر كَسره يوم القيامة فى جنات النعيم مع الحبيب ﷺ وأصحابه ـ رضى الله عنهم ـ.

فرضى الله عن أبى طلحة وعن سائر الصحابة أجمعين

❊ ❊ ❊

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ٣٥٣) وابن حبان (٢٢٥١) وذكره الهيثمى فى المجمع (٩/ ٣١٣) وقال: رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح.

بلال بن رباح

سمع النبى ﷺ صوت نعليه فى الجنة

وها نحن اليوم على موعد مع رجل سمع النبى ﷺ صوت نعليه فى الجنة... إنه الرجل الذى رفع الأذان بصوته فوق الكعبة فى بيت الله الحرام... بل إنه الرجل الذى اشتاقت إليه جنة الرحمن جل جلاله.

إننا اليوم على موعد مع صوت الإسلام بلال بن أبى رباح.

إن اسم «بلال» ـ رضى الله عنه ـ لا يسمعه أحدٌ فى الكون كله إلا ويشعر بمعنى العزة والاستعلاء على حظوظ النفس. إنك لا تكاد تجد مسلمًا فى هذا الكون على مدار السنين واختلاف الأماكن إلا وهو يعرف بلالاً.

إنه صوت الإسلام الذى بدأ فى مكة ووصل إلى أطراف الأرض فى الصين واستراليا والأمريكتين وجنوب إفريقيا.

إنه بلال بن رباح مولى أبى بكر الصديق، ومُؤذِّن رسول الله ﷺ.

من السابقين الأولين الذين عُذِّبوا فى الله، شهد بدرًا، وشهد له النبىُّ ﷺ على التعيين بالجنة.

فضل الأذان

وقبل أن نبدأ تلك القصة التى يحلو ذكرها والله فى كل وقت وحين. أريد أن أذكر بعض الأحاديث التى ذكرها الحبيب ﷺ فى فضل الأذان لكى نَعلم قدر الرجل الذى سنذكر سيرته.

قال ﷺ: «من أذَّن ثنتى عشرة سنة وجبت له الجنة، وكُتب له بتأذينه فى كل يومٍ ستون حسنة، وبإقامته ثلاثون حسنة»(١).

(١) رواه ابن ماجه والحاكم عن ابن عمر، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٠٠٢).

وقال ﷺ: «المؤذن يُغفر له مَدَّ صوته وأجره مثل أجر من صلى معه»(١).

وقال ﷺ: «المؤذن يُغفر له مدى صوته ويشهد له كل رطبٍ ويابس»(٢).

وقال ﷺ: «المؤذنون أطول الناس أعناقًا يوم القيامة»(٣).

قصة إسلامه

وتعالوا بنا لنبدأ تلك القصة المباركة من أولها.

لقد كان بلالٌ عبدًا لأُناسٍ من بنى جُمَح بمكة، فقد كانت أُمُّهُ إحدى إمائهم وجواريهم.

وكان يترامى إلى سمعه أخبار النبى ﷺ، حيث كان يسمع أمية بن خلف ـ وهو أحد شيوخ بنى جُمَح ـ وهو يتحدث مع أصدقائه ورجال قبيلته عن الحبيب ﷺ وقلوبهم تمتلئ غيظًا وكُرهًا له ﷺ.

وعلى الرغم من ذلك فقد كانوا لا ينكرون أبدًا أمانة النبى ﷺ ولا رجولته ولا أخلاقه الطيبة ولا صدقه ورجاحة عقله... وكل ذلك يصل إلى سمع بلال ـ رضى الله عنه ـ حتى أحسَّ من داخله بأن هذا الدين هو الدين الحق وبأن هذا النبى ﷺ هو طوق النجاة الذى أرسله الله إلى تلك الأمة لينتشلها من أوحال الجاهلية إلى أنوار التوحيد، ومن ثَم إلى جنة الرحمن ـ جل وعلا ـ.

ويستجيب بلال لنداء الحق ويُفسح قلبه كله ليستقبل هذا النور الذى جاء به الحبيب ﷺ من عند ربه ـ جل وعلا ـ.

فيذهب إلى النبى ﷺ ويُعلن إسلامه فيشعر وكأنه وُلد فى تلك اللحظة.

يستعذب العذاب فى سبيل الله

وما هى إلا ساعات معدودة حتى شاع خبر إسلامه ـ رضى الله عنه ـ وإذا بهؤلاء الذين نفخ الشيطان فى عقولهم، فظنوا أنهم هم السادة مع أنهم عبيدٌ لشهوات بطونهم وفروجهم... يعرفون خبر إسلام بلال ـ رضى الله عنه ـ فيصبون عليه العذاب صبًا، ولا

---

(١) رواه الطبرانى فى الكبير عن أبى أُمامة، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٦٤٣).

(٢) رواه أحمد وأبو داود والنسائى عن أبى هريرة، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٦٤٤).

(٣) أخرجه مسلم وأحمد وابن ماجه عن معاوية ـ صحيح الجامع (٦٦٤٥).

يرقُبون فيه إلاً ولا ذمة.

عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: أول من أظهر الإسلام سبعة: رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعمَّار، وأمُّهُ سُمية، وصهيب، وبلال، والمقداد ـ رضي الله عنهم ـ فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمِّه، وأما أبو بكر منعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم أدرع الحديد، وصهروهم في الشمس، فما منهم من أحد إلا وقد أتاهم على ما أرادوا إلا بلالاً، فإنه هانت عليه نفسه في الله، وهان على قومه، فأخذوه فأعطوه الولدان فجعلوا يطوفون به في شِعاب مكة، وهو يقول: أحدٌ أحدٌ[1].

وروى ابن إسحاق وهو يصف شيئًا من عذاب قريش لبلال ـ رضي الله عنه ـ وغيره من المستضعفين.

قال ابنٍ إسحاق: ثم إنهم عَدَوْا على مَنْ أسلم، واتبع رسول الله ﷺ من أصحابه، فوثبت كلّ قبيلة على مَنْ فيها من المسلمين، فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش، وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر، من استُضعفوا منهم، يفتنونهم عن دينهم، فمنهم من يُفتن من شدة البلاء الذي يُصيبه، ومنهم من يصلب لهم، ويعصمه الله منهم.

وكان بلالٌ، مولى أبي بكر ـ رضي الله عنهما ـ لبعض بني جُمَح مُولدًا من مولديهم، وهو بلال بن رباح، وكان اسمُ أُمه حَمامة، وكان صادقَ الإسلام، طاهر القلب، وكان أُمية بن خلف بن وهب بن حُذافة ابن جُمَح يُخرجه إذا حميت الظهيرة، فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتُوضع على صدره، ثم يقول له: [لا والله] لا تزال هكذا حتى تموت، أو تكفر بمحمد، وتعبد اللات والعُزى؛ فيقول وهو في ذلك البلاء: أحدٌ أحدٌ[2].

وهكذا يستعلي بلال ـ رضي الله عنه ـ بإيمانه بالله ـ جل وعلا ـ فكان يستعذب العذاب في سبيل الله مع أن الله قد رخَّص للمؤمنين وقتها أن ينطقوا بكلمة الكفر طالما أن قلبهم مطمئنٌ بالإيمان لكي ينجو كل واحد منهم من بطش هؤلاء المجرمين، ولكن بلال كره أن يُشمت أعداء الإسلام بالإسلام وأهله وأراد أن يعرف الكون كله أن المؤمن

---

(١) رواه الحاكم (٣/ ٢٨٤) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي: صحيح، ورواه أبو نعيم في الحلية (١/ ١٤٩) وابن عبد البر في الاستيعاب.

(٢) السيرة لابن هشام (١/ ٢٦٢).

لو اجتمعت عليه الدنيا بأسرها فلن تستطيع أن تُحرك ذرة واحدة من جبال الإيمان الراسخة فى قلبه... وذلك لأن الذى ثبَّت تلك الجبال هو الخالق ـ جل جلاله ـ.

أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا

وذات مرة يمر أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ فيجد بلالاً ـ رضى الله عنه ـ يُعذَّب فى رمضاء مكة، وقد هانت عليه نفسه فى سبيل الله وهو يردد هذا النداء الخالد: أحدٌ.. أحدٌ.

فيذهب أبو بكر فى التو واللحظة ويصفّى التجارات ويأتى بالأموال ليشترى العبيد والأرقّاء ليعتقهم خشية أن يُفتنوا فى دينهم.

قال عطاء الخراسانى: كنت عند ابن المسيِّب فذكر بلالاً، فقال: كان شحيحًا على دينه، وكان يُعذَّب فى الله، فلقى النبى ﷺ فقال: لو كان عندنا شىء، ابتعنا بلالاً، فلقى أبو بكر (العباس)، فقال اشتر لى بلالاً، فاشتراه العباس، وبعث به إلى أبى بكر، فأعتقه[١].

وفى السيرة أن أبا بكر اشتراه بعبد أسود مشرك من أمية بن خلف[٢].

وعن ابن سيرين أن بلالاً لما ظهر مواليه على إسلامه مَطُّوه فى الشمس، وعذَّبوه، وجعلوا يقولون: إلهك اللات والعُزَّى، وهو يقول: أحدٌ أحد. فبلغ أبا بكر، فأتاهم، فقال: علامَ تقتلونه؟ فإنه غير مطيعكم، قالوا: اشتره. فاشتراه بسبع أواق، فأعتقه[٣].

وعن قيس قال: اشترى أبو بكر بلالاً وهو مدفون فى الحجارة بخمس أواقٍ ذهبًا، فقالوا: لو أبيتَ إلا أوقيةً لبعناكه، قال: لو أبيتُم إلا مئة أوقية لأخذته[٤].

فكان عمر ـ رضى الله عنه ـ إذا ذُكر عنده أبو بكر قال: «أبو بكرٍ سيدُنا وأعتق بلالاً سيدَنا»[٥].

بل لقد قال المفسرون فى قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وما لأحدٍ عنده من نعمةٍ تُجزَى

---

(١) أخرجه ابن عبد البر فى الاستيعاب (٢/ ٣٢) ـ وهو فى أسد الغابة (١/ ٢٤٣).
(٢) السيرة لابن هشام (١/ ٣١٨).
(٣) الطبقات لابن سعد (٣/ ١/ ١٦٥) ـ ومطَّ الشىء يمطه مطًا إذا مدَّه.
(٤) أخرجه ابن نعيم فى الحلية (١/ ١٥٠) ـ نقلاً من السير للذهبى (١/ ٣٥٣).
(٥) أخرجه البخارى (٣٧٥٤) المناقب ـ وابن سعد (٣/ ١/ ١٦٦).

إلا ابتغاء وجهِ ربه الأعلى ولَسوفَ يرضى﴾.

قالوا: نزلت الآيات في حق أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ حين اشترى بلالاً وأعتقه في سبيل الله، فقال المشركون: إنما فعل ذلك ليدٍ كانت له عنده فنزلت ﴿إلا ابتغاءَ وجهِ ربه الأعلى ولسوفَ يرضى﴾[١].

وهكذا يكتب الله النجاة لبلال من أيدي المشركين ليبدأ حياة جديدة في رحاب الإيمان وفي صحبة سيد الأنام ﷺ... فأخذ بلال ينهل من هذا النبع الصافي مباشرة إلى أن جاء الوقت الذي أراد الله فيه أن يُثلج صدره ويُعلي قدره.

القرآن ينزل فيه ـ رضي الله عنه ـ

عن سعد، قال: كنا مع رسول الله ﷺ ستة نفر، فقال المشركون: اطرد هؤلاء عنك فلا يجترؤون علينا، وكنت أنا وابن مسعود وبلال ورجل من هذيل وآخران، فأنزل الله:

﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين (٥٢) وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين ﴾ [الأنعام: ٥٢، ٥٣][٢].

الله يغضب لغضبه ـ رضي الله عنه ـ

فها هي مكرمة لا تقوم لها الدنيا بكل ما فيها وذلك عندما أخبر الحبيب ﷺ أن الله يغضب لغضب بلال.

فعن عائذ بن عمرو أن أبا سفيان أتى على سَلمَان وصُهيب وبلال في نَفَر، فقالوا: والله! ما أخذت سيوف الله من عُنق عدو الله مأخذها قال: فقال أبو بكر: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيِّدهم؟ فأتى النبي ﷺ فأخبره فقال: «يا أبا بكرٍ! لعلك أغضبتهم... لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك».

«فأتاهم أبو بكر فقال: يا إخوتاه! أغضبتكم؟ قالوا: لا. يغفرُ الله لك يا أُخَيَّ»[٣].

فيا لها من مناقب لا توازيها الدنيا بكل ما فيها من متاعٍ زائل.

---

(١) صفوة التفاسير (٣/ ٥٧٠).

(٢) أخرجه مسلم (٢٤١٣) (٤٦) فضائل الصحابة ـ وابن ماجه (٤١٢٨) الزهد.

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٠٤) ـ والنسائي في فضائل الصحابة (١٧٢).

الجنة تشتاق إلى بلال ـ رضي الله عنه ـ

ويعيش بلال ـ رضى الله عنه ـ بل ويتعايش مع الإسلام قلبًا وقالبًا حتى أحبه النبى ﷺ حبًا يعجز القلم عن وصفه.

وذات مرة دخل النبى ﷺ على بلال وعنده صبرة من تمر قال: ما هذا يا بلال؟ قال: يا رسول الله ادخرته لك ولضيفانك. فقال: أما تخشى أن يكون له بخار فى النار؟ أنفق بلال ولا تخش من ذى العرش إقلالاً[١].

ويأتى النبى ﷺ مرة أخرى بأعظم بشرى لبلال ـ رضى الله عنه ـ فيقول ﷺ «اشتاقت الجنة إلى ثلاثة: علىّ وعمّار وبلال»[٢].

الله أكبر!!!... الجنة تشتاق إلى بلال!!!.

كيف استطاع بلال ـ رضى الله عنه ـ بعد تلك البشرى أن تحمله قدماه ليمشى على الأرض بين الناس؟!

فمنذ فترة يسيرة كان عبدًا حبشيًا، والآن أصبح معروفًا فى الأرض، بل وفى السماوات حتى اشتاقت الجنة إليه.

إن كثيرين من علية البشر، وذوى الجاه والنفوذ والثروة فيهم، لم يظفروا بمعشار الخلود الذى ظفر به «بلال» العبد الحبشى...!!

بل إن كثيرين من أبطال التاريخ لم ينالوا من الشهرة التاريخية بعض الذى ناله بلال.

إن سواد بشرته وتواضع حسبه ونسبه وهوانه على الناس كعبد رقيق لم يحرمه حين آثر الإسلام دينًا من أن يتبوأ المكان الرفيع الذى يؤهله له صدقه ويقينه وطُهره وتفانيه[٣].

* * *

(١) رواه الطبرانى فى الكبير عن ابن مسعود والبزار عن بلال وعن أبى هريرة، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٥١٢).

(٢) أخرجه الترمذى (٣٧٩٨) المناقب ـ والحاكم (٣/ ١٣٧) وصححه ووافقه الذهبى.

(٣) رجال حول الرسول ﷺ (ص ١٠٣ ـ ١٠٤) بتصرف.



النبي ﷺ يسمع صوت نعليه في الجنة

بل تصبح تلك البشرى حقيقة يسمعها النبي ﷺ بأذنيه.

فعن بريدة ـ رضي الله عنه ـ قال: «دعا رسول الله ﷺ بلالاً، فقال: يا بلال بِمَ سبقتني إلى الجنة؟ إني دخلت الجنة البارحة فسمعت خشخشتك أمامي، فأتيت على قصر من ذهب مُربع فقلت لمن هذا القصر؟ قالوا: لرجل من أمة محمد، قلت: فأنا محمد. لمن هذا القصر؟ قالوا لرجل من العرب. قلت: أنا عربي. لمن هذا القصر؟ قالوا: لرجل من قريش. قلت: فأنا قرشي، لمن هذا القصر؟ قالوا: لعمر بن الخطاب. فقال بلال: يا رسول الله ما أذّنت قط إلا صليت ركعتين، وما أصابني حَدَثٌ قَط إلا توضأت عندها، فقال رسول الله ﷺ: بهذا»[١].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ «أن النبي، قال لبلال عند صلاة الفجر: يا بلالُ حدِّثني بأرجى عمل عملتَهُ في الإسلام فإني سمعتُ دَفَّ نعليك بين يديَّ في الجنة. قال: ما عملت عملاً أرجى عندي من أني لم أتطهرَّ طُهوراً في ساعة من ليلٍ أو نهارٍ إلا صليتُ بذلك الطُّهور ما كُتبَ لي أن أُصلي»[٢].

وعن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال النبي ﷺ: «رأيتُني دخلتُ الجنة فإذا أنا بالرميصاء امرأة أبي طلحة وسمعت خشفةً، فقلت: من هذا؟ فقال: هذا بلال. ورأيتُ قصراً بفنائه جاريةٌ فقلت: لمن هذا؟ فقال: لعمر، فأردتُ أن أدخله فأنظر إليه فذكرت غَيرتك. فقال عمر: بأبي وأمي يا رسول الله أعليك أغار»[٣].

قلت: وهذا كله ثمرة من ثمرات المداومة على العمل الصالح.

والجزاء من جنس العمل.

قال ابن حجر في الفتح: لما مشى بالأذان بين يدي النبي ﷺ فاتفق مثله في الجنة.

ولا يلزم من ذلك دخول بلال الجنة قبل النبي ﷺ؛ لأنه في مقام التابع، وكأنه أشار

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣٦٠) والترمذي (٣٦٨٩) والحاكم في المستدرك (٣/ ٢٨٥) وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه البخاري (١١٤٩) ـ ومسلم (٢٤٥٨) ـ قال أبو عبد الله: دف نعليك: يعني تحريك نعليك.

(٣) أخرجه البخاري (٣٦٧٩) ومسلم مختصراً (٢٤٥٧).

ﷺ إلى بقاء بلال على ما كان عليه حال حياته، واستمراره على قرب منزلته، وفيه منقبة عظيمة لبلال(١).

الهجرة المباركة

ولما أذن الله لنبيه ﷺ بالهجرة المباركة إلى المدينة هاجر «بلال» ـ رضي الله عنه ـ مع من هاجر من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ.

ونزل في رحاب الأنصار الذين مدحهم الله تعالى بقوله:

﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر:٩].

وما إن وصل بلال إلى المدينة المنورة حتى أصابته الحمّى.

قالت عائشة: لما قدم النبيُّ ﷺ المدينة، وُعِك أبو بكر وبلال، فكان أبو بكر إذا أخذته الحمّى يقول:

كُلُّ امرئٍ مُصبَّحٌ في أهلِهِ ... والموتُ أدنى مِنْ شراكِ نَعْلِهِ

وكان بلال إذا أقلع عنه يرفع عقيرته(٢) ويقول:

ألا لَيْتَ شِعْرى هل أبيتنَّ ليلةً ... بوادٍ وحولى إذخِرٌ(٣) وجليلُ

وهل أردنْ يومًا مياهَ مَجَنَّة(٤) ... وهل يبْدُون لى شامةٌ وطَفيلُ(٥)

اللهم العن عُتبة، وشيبة، وأمية بن خلف، كما أخرجونا من أرضنا إلى أرض الوباء(٦).

---

(١) فتح البارى (٣/ ٤٣).

(٢) يرفع عقيرته: يرفع صوته.

(٣) الإذخر: نبات طيب الرائحة.

(٤) مجنة: اسم سوق من أسواق العرب فى الجاهلية.

(٥) شامة وطفيل: جبلان بقرب مكة.

(٦) أخرجه البخارى (١٨٨٩) فى فضائل المدينة: باب (١٢)، و(٣٩٢٦) فى مناقب الأنصار: باب مقدم النبى ﷺ وأصحابه المدينة، و(٥٦٥٤) فى المرضى: باب عيادة الرجال النساء، و(٥٦٧٧) فيه: باب من دعا برفع الوباء والحمى. وأحمد (٦/ ٢٦٠)، وابن سعد (٣/ ١/ ١٦٥) كلهم من طريق: هشام، عن أبيه، عن =

فكان بلال ـ رضى الله عنه ـ يحنّ ويشتاق إلى مكة، على الرغم من العذاب الذى كان يعانيه فيها، لكنه لم ينسَ أبدًا أنه ذاق حلاوة الإيمان لأول مرة فى حياته ـ فى مكة ـ.

بداية الأذان

عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال: «كان المسلمون حين قدموا المدينة يجتمعون فيتحينون الصلاة ليس ينادى لها، فتكلموا يومًا فى ذلك، فقال بعضهم: اتخذوا ناقوسًا مثل ناقوس النصارى، وقال بعضهم: بل بوقًا مثل قرن اليهود، فقال عمر: أوَ لا تبعثون رجلاً ينادي بالصلاة؟ فقال رسول الله ﷺ: يا بلال قم فناد بالصلاة.

وبداية الأذان لها قصة تطيب القلوب بذكرها.

قال ابن إسحاق: فلما اطمأنّ رسول الله ﷺ بالمدينة، واجتمع إليه إخوانهُ من المهاجرين، واجتمع أمرُ الأنصار، استحكم أمر الإسلام، فقامت الصلاة، وفُرضت الزكاةُ والصيام، وقامت الحدود، وفُرض الحلال والحرام، وتبوأ الإسلام بين أظهرهم، وكان هذا الحى من الأنصار هم الذين تبوءوا الدار والإيمان. وقد كان رسول الله ﷺ ـ حين قَدمها ـ إنما يجتمع الناس إليه للصلاة لحين مواقيتها، بغير دعوة،فهمّ رسول الله ﷺ حين قدمها أن يجعل بوقًا كبُوق يهود الذى يدعون به لصلاتهم، ثم كرهه؛ ثم أمر بالناقوس، فنُحت ليُضرب به للمسلمين للصلاة.

فبينما هم على ذلك، إذ رأى عبد الله بن زيد بن ثعلبة بن عبد ربه، أخو بلحارث بن الخزرج (النداء) ـ الأذان ـ فأتى رسول الله ﷺ فقال له : يا رسول الله [إنه] طاف بى هذه الليلة طائف: مرّ بى رجلٌ عليه ثوبان أخضران يحمل ناقوسًا فى يده، فقلت [له]: يا عبد الله، أتبيع هذا الناقوس؟ قال: وما تصنع به؟ قال: قلت: ندعو به إلى الصلاة، قال: أفلا أدلُّك على خير من ذلك؟ قال: قلت: وما هو؟ قال: تقول: الله أكبر الله أكبر، الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمدًا رسول الله، أشهد أن محمدًا رسول الله، حىّ على الصلاة، حى على الصلاة، حىّ على الفلاح، حىّ على الفلاح، الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله.

فلما أخبر بها رسول الله ﷺ قال: «إنها لرؤيا حقّ، إن شاء الله، فقُم مع بلال فألقها

= عائشة... وتمامه، ثم قال رسول الله ﷺ: «اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد، اللهم بارك لنا فى صاعنا، وفى مُدنا، وصححها لنا. وانقل حُماها إلى الجحفة.

عليه، فليُؤذن بها، فإنه أندى صوتًا منك».فلما أذّن بها بلالٌ سمعها عمرُ بن الخطاب، وهو في بيته، فخرج إلى رسول الله ﷺ وهو يجرُّ رداءه، وهو يقول: يا نبيّ الله، والذي بعثك بالحق، لقد رأيت مثل الذي رأى؛ فقال رسول الله ﷺ: «فلله الحمد [على ذلك]»(١).

وبذلك كان بلال ـ رضي الله عنه ـ أول مؤذنٍ في الإسلام.

الله يقتص لبلال من أمية بن خلف في يوم «بدر»

ولقد شهد بلال مع نبيه ﷺ غزوة بدر، وقاتل فيها قتالاً شديداً وأبلى بلاءً حسنًا.

وشاء الله ـ عز وجل ـ أن يقتص له من «أمية بن خلف» الذي كان يعذبه في رمضاء مكة.

وها هو الصحابي الجليل عبد الرحمن بن عوف ـ رضي الله عنه ـ يقص علينا كيف مكّن الله لبلالٍ من أمية بن خلف.

قال عبد الرّحمن بن عوف: كان أمية بن خَلف صديقًا لي بمكة، وكان اسمي عبد عمرو، فتسمّيت ـ حين أسلمتُ ـ عبدَ الرحمن.... حتى إذا كان يومُ بدر، مررتُ به وهو واقفٌ مع ابنه، عليّ بن أمية، آخذ بيده، ومعي أدراع، قد استلبتُها، فأنا أحملها. فلما رآني قال [لي]: يا عبد عمرو، فلم أُجبه؛ فقال: يا عبد الإله؟ فقلت: نعم؛ قال: هل لك فيّ، فأنا خيرٌ لك من هذه الأدرع التي معكِ؟ قال: قلت: نعم، ها الله إذًا. قال: فطرحتُ الأدراع من يدي، وأخذتُ بيده ويد ابنه، وهو يقول: ما رأيت كاليوم قطّ، أما لكم حاجةٌ في اللبن؟ [قال] ثم خرجتُ أمشي بهما(٢).

وفي رواية: قال ابن عوف ـ رضي الله عنه ـ: قال لي أمية بن خلف، وأنا بينه وبين

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب «الصلاة» باب «بدء الأذان» (١/ ح ٤٩٩) والبخاري في «خلق أفعال العباد» (ص ٤٨) والدارمي في كتاب «الأذان» باب «في بدء الأذان» (١/ ١١٨٧) والترمذي في كتاب «الصلاة» باب «ما جاء في بدء الأذان» (١/ ح ١٨٩) وأحمد في «مسنده» (٤/ ٤٣) وابن خزيمة (١/ ٣٧٠) والبيهقي في «السنن الكبرى» (١/ ٣٩١) (٤٢٧). وهو حديث صحيح صححه جماعة من الأئمة كالبخاري والذهبي والنووي وغيرهم، وانظر تلخيص الحبير لابن حجر (٢/ ٢٠٨).

(٢) أخرجه الطبري في التاريخ (٢/ ٣٥) وابن الأثير في الكامل (٢/ ١٢٧) وابن سيد الناس في عيون الأثر (١/ ٣٩٩) وقالوا: أخرجه ابن إسحاق من طريقين الأول قال فيه: حدثني يحيى بن عباد عن عبد الله ابن الزبير عن أبيه قال... به. والثاني قال: وحدثني عبد الله بن أبي بكر وغيرهما أن عبد الرحمن بن عوف ثقة أمين... فذكره وإسنادهما صحيح.

ابنه آخذٌ بأيديهما: يا عبد الإله، من الرجل منكم المعلَّم بريشة نعامة في صدره؟ قال: قلت: ذاك حمزة بن عبد المطلب؛ قال: ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل؛ قال عبد الرحمن: فوالله إني لأقودهما إذ رآه بلال معي ـ وكان هو الذي يعذِّب بلالاً بمكة على ترك الإسلام، فيُخرجه إلى رمضاء مكة إذا حميت، فيُضجعه على ظهره، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول: لا تزالُ هكذا أو تُفارق دين محمد؛ فيقول بلال: أحدٌ أحد. قال: فلما رآه قال: رأس الكُفر أُمية بن خلف، لا نجوتُ إن نجا. قال: قلت: أي بلال، أبأسيريّ! قال: لا نجوت إن نجا. قال: قلت: أتسمع يا بن السوداء؟ قال: لا نجوت إن نجا. قال: ثم صرخ بأعلى صوته: يا أنصار الله، رأس الكُفرِ أُمية بن خلف، لا نجوتُ إن نجا. قال: فأحاطوا بنا حتى جعلونا في مثل المسكة وأنا أذبُّ عنه ـ أدافعُ عنه ـ قال: فأخلف رجلٌ السيف، فضرب رِجْلَ ابنه فوقع، وصاح أمية صيحة ما سمعتُ مثلها قط. قال: فقلت: انجُ بنفسك، ولا نجاءَ بك، فوالله ما أُغني عنك شيئًا. قال: فهبرُوهما بأسيافهم، حتى فرغوا منهما. قال: فكان عبد الرحمن يقول: يرحم الله بلالاً، ذهبت أدراعي، وفجعني بأسيريّ»[1].

بلال يؤذن فوق الكعبة في يوم فتح مكة

وتمر الأيام مسرعة... ويعود رسول الله ﷺ إلى مكة فاتحًا منتصراً بعد أن خرج منها وهو يبكي ويقول: «والله إنك لأحب بلاد الله إلى الله وإنك لأحب بلاد الله إلى رسول الله ولولا أن قومي أخرجوني منك ما خرجت».

عن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: «أن رسول الله ﷺ أقبل يوم الفتح من أعلى مكة على راحلته مردفًا أسامة بن زيد، ومعه بلال،ومعه عثمان ابن طلحة من الحجبة حتى أناخ في المسجد، فأمره أن يأتي بمفتاح البيت، فدخل رسول الله ﷺ ومعه أسامة بن زيد وبلال وعثمان بن طلحة، فمكث فيه نهاراً طويلاً، ثم خرج فاستبق الناس، فكان عبد الله بن عمر أول من دخل فوجد بلالاً وراء الباب قائمًا، فسأله: أين صلى رسول الله ﷺ فأشار له إلى المكان الذي صلى فيه. قال عبد الله: فنسيت أن أسأله: كم صلى سجدة»[2].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب «الوكالة» باب «إذا وكل المسلم حربيًا في دار الحرب» (٤/ ح٢٣٠١/ فتح) وفي كتاب «المغازي» (٧/ ٣٩٧١) مختصراً.

(٢) أخرجه البخاري (٧/ ٦١١) المغازي.

قال الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ: وأمر رسول الله ﷺ بلالاً أن يصعد فيؤذن على الكعبة[1].

ويؤذن بلال... فيا لروعة الزمان، والمكان، والمناسبة..!!

كفّت الحياة فى مكة عن الحركة، ووقفت «الألوف المسلمة» كالنسمة الساكنة، تردد فى خشوعٍ وهمسٍ كلمات الأذان وراء بلال.

والمشركون فى بيوتهم لا يكادون يصدّقون: أهذا هو محمد وفقراؤه الذين أُخرجوا بالأمس من هذه الديار..؟؟

أهذا هو حقًا، ومعه عشرة آلاف من المؤمنين..؟؟

أهذا هو حقًا الذى طاردناه، وقاتلناه، وقتلنا أحبَّ أهله وقُرباه إليه...؟؟

أهذا هو حقًا، الذى كان يخاطبنا منذ لحظات ورقابنا بين يديه، ويقول لنا: [اذهبوا.. فأنتمُ الطلقاء]..!!

ولكن ثلاثة من أشراف قريش، كانوا جلوسًا بفناء الكعبة، وكأنما يلفحهم مشهد بلال وهو يدوس أصنامهم بقدميه، ويرسل من فوق رُكامِها المَهِيل صوته بالأذان المنتشر فى آفاق «مكة» كلها كعبير الربيع...

أما هؤلاء الثلاثة، فهم: أبو سفيان بنِ حرب ـ وكان قد أسلم منذ ساعات ـ وعتَّاب ابن أُسيد، والحارث بن هشام ـ وكانا لم يُسلما بعدُ ـ[2].

فقال عتاب بن أسيد: لقد أكرم الله أُسيداً ألا يكون سمع هذا، فيسمع منه ما يغيظه، فقال الحارث بن هشام: أما والله لو أعلم أنه مُحقٌّ لاتبعته ـ يقصد النبى ﷺ ـ فقال أبو سفيان: لا أقول شيئًا، لو تكلمت لأخبرت عنى هذا الحصى، فخرج عليهم النبى ﷺ، فقال: «قد علمتُ الذى قُلتم»، ثم ذكر ذلك لهم؛ فقال الحارث وعتَّاب: نشهد أنك رسول الله، والله ما اطلع على هذا أحدٌ كان معنا، فنقول أخبرك[3].

* * *

(١) زاد المعاد (٣/ ٤١١).

(٢) رجال حول الرسول ﷺ (ص ١١٦، ١١٧) بتصرف.

(٣) هكذا ذكره ابن هشام من غير إسناد، وكذلك ذكره ابن كثير في «التفسير» (٣/ ١٣٢) من طريق ابن إسحاق من غير سند.

وحان وقت الرحيل

وظل بلال ـ رضى الله عنه ـ يؤذن لرسول الله ﷺ طوال حياته، فلما انتقل الحبيب ﷺ إلى الرفيق الأعلى وحان وقت الصلاة قام بلال يؤذن فى الناس ـ والنبى الكريم ﷺ مُسجّى[١] لم يُدفن بعد ـ فلما وصل إلى قوله: «أشهد أن محمداً رسول الله»... خنقته العَبَراتُ... واحتبس[٢] صوته فى حلقه... وأجهشَ المسلمون فى البكاء، وأغرقوا فى النحيب. ثم أذَّن بعد ذلك ثلاثة أيام. فكان كلما وصل إلى قوله: «أشهدُ أن محمداً رسول الله»؛ بكى وأبكى... عند ذلك طلب من أبى بكر خليفة رسول الله ﷺ أن يُعفيهُ من الأذان بعد أن أصبح لا يحتملهُ[٣].[٤]

وطلب من أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ أن يأذن له بالخروج إلى الشام للجهاد والمرابطة.. وكان الصدّيق يحبه حبًا جماً، فتردد فى باديءْ الأمر، فقال له بلال: «إن كنت إنما اشتريتنى لنفسك فأمسكنى، وإن كنت إنما اشتريتنى لله فدعنى وعمل الله»[٥].

وفى رواية: «فذرنى أعمل لله». فأذِن له أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ.

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ ولما توفى رسول الله ﷺ كان ـ بلال ـ فيمن خرج إلى الشام للغزو، ويقال: إنه أقام يؤذن لأبى بكر أيام خلافته والأول أصحّ وأشهر[٦].

وظل فى بلاد الشام عابداً زاهداً ينتظر اليوم الذى يلحق فيه بالحبيب ﷺ وأصحابه ـ رضى الله عنهم ـ.

ونام أول وأعظم مؤذّن عرفته الدنيا (على فراش الموت).

قال سعيدُ بن عبد العزيز: لما احتُضرَ بلال قال: غداً نلقى الأحبة محمداً وحزبه، قال: تقولُ امرأته: واويلاه! فقال: وافرحاه![٧].

---

(١) مُسجّى: مغطّى.

(٢) احتبس صوته فى حلقه: لم يستطع الكلام.

(٣) لا يحتمله: لا يطيق أن يؤذن فى غياب رسول الله ﷺ.

(٤) صور من حياة الصحابة (ص ٣٢١).

(٥) أخرجه البخارى (٣٧٥٥) كتاب فضائل الصحابة.

(٦) البداية والنهاية (٥/ ٢٨٩).

(٧) سير أعلام النبلاء للإمام الذهبى (١/ ٣٥٩).



ولفظ أنفاسه الأخيرة ـ رضى الله عنه ـ وخلَّد الله اسمه فى العالمين وأعلى قدره فى الآخرة فى جنات النعيم.

وإنى والله أسأله تعالى أن يجمعنى وإياكم مع النبى ﷺ وأصحابه لننعم بصحبتهم فى الجنة لتصبح الجنة جنتين.

وإن كنا حُرمنا من سماع بلال ـ رضى الله عنه ـ وهو يؤذن فى الدنيا فلسوف نسمع أذانه فى الجنة!!!

أليس الله هو القائل ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم﴾ [فصلت:٣١].

فإننا إذا دخلنا الجنة ـ برحمة الله ـ وأردنا أن نسمع أذان بلالٍ ـ رضى الله عنه ـ فسوف يُسمعنا الله هذا الأذان فهو القادر على كل شىء.

فالسلام عليك يا مؤذن رسول الله ﷺ حتى نلتقى بك فى جنة الرحمن ـ إن شاء الله ـ إخوانًا على سُرُرٍ متقابلين لننعم بجوار الحبيب ﷺ فى الجنة فـ«المرء مع من أحب»(١).

فرضى الله عن بلال وعن سائر الصحابة أجمعين

* * *

---

(١) متفق عليه عن أنس ـ صحيح الجامع (٦٦٨٩).



عكرمة بن أبى جهل

بايع على الموت فى معركة اليرموك

* كانَ وَاحداً منَ الذين وقَفُوا فى وجهِ الإسلام والسِّلْم بعنف قرابة عشرين عامًا، لم يتوقَّفْ خلالها عن تقديمِ الأذى للرسولَ ﷺ وللمسلمين، وعندَما قَذَفَ اللهُ عزَّ وجلَّ فى قلبه نور الإيمان، ندمَ على كلِّ لحظة قَضَاها بعيداً عنِ نعمة الحقِّ، والصِّراط السَّوِىِّ، وأخذَ يسجِّلُ فى صفَحَات حياته الجدِيدة أعمالاً تتسمُ بالصِّدق والإخلاص، ويُنْفقُ أمْواله فى سبيلِ الله عزَّ وجلَّ، وفى سبيل الشَّهادة، وعبَّر عن صدْق نيَّته أصْدَقَ تعبير، فنال درجات الشُّهداء، ومنازل الخلود. فالإسلام يجبُّ ما قبله، والمهم هو لحظة التغيير والدخول فى الدين، والإذعان للخالق المولى، وقَطْع كل العلائق مع ماضى الجاهلية، وتبديل ذلك أعمالاً صالحة، وسلوكًا حسنًا[1].

إنه الصحابى الجليل عكرمة بن أبى جهل الذى يصدق عليه قول الحق ـ جل وعلا ـ ﴿تُخرج الحى من الميت﴾ فلقد كان أبوه (أبو جهل) صاحب القلب الميت الذى لم يعرف الله يومًا ولم يؤمن به أبدًا، وعلى الرغم من ذلك يُخرج الله من صُلبه هذا الصحابى الجليل صاحب القلب الحى الذى جاء إسلامه متأخرًا، ولكنه أراد أن يبذل الخير، وأن يجود بنفسه وماله فى اللحظات الأخيرة من عمره، وكأنه فى سباق مع الزمن ليعوّض ما فاته من الخير مع رسول الله ﷺ .

رحلة مريرة

وتبدأ رحلة هذا الصحابى الجليل عندما نشأ فى أحضان هذا الأب الكافر الذى أخذ على نفسه العهد بعداوة رسول الله ﷺ فوجد (عكرمة) نفسه مدفوعًا إلى عداوة النبى ﷺ ومحاربته طاعة لأبيه الذى كان يعتمد عليه فى كل صغيرة وكبيرة.

وجاءت غزوة بدر فدخلها عكرمة، وكان أبوه قد أقام ثلاثة أيام ينحر الجَزور ويشرب

(١) فرسان من عصر النبوة (ص: ٧٥٤).

الخمور وتعزف له القيان بالمعازف. وما إن بدأ القتال فى تلك المعركة الفاصلة حتى قُتل أبو جهل ـ قتله معاذ بن عمرو بن الجموح ومعوذ ابن عفراء واحتز رأسه عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنهم ـ.

وعاد عكرمة إلى مكة بعد أن ترك جثة أبيه خلفه فى بدر فلم يستطع أن يأتى بها ليدفنها فى مكة.

وهناك تغيرت الأحوال.. وأصبحت عداوة عكرمة للإسلام ليست حمية لقومه ولدينه فحسب... وإنما ثأرًا لمقتل أبيه.

فأخذ يحرض الناس من حوله على عداوة الإسلام والمسلمين إلى أن جاءت غزوة أُحد فخرج عكرمة، وأخرج معه زوجه (أم حكيم) لتكون مع النسوة وراء الصفوف لتضرب معهن على الدفوف تحريضًا لقريش على القتال وتثبيتًا لفرسانهم إذا حدثتهم أنفسهم بالفرار.

وكان خالد بن الوليد على ميمنة الجيش، وعكرمة بن أبى جهل على الميسرة... وقاتلا قتالاً شديدًا إلى أن أخطأ الرماة من أصحاب النبى ﷺ وتركوا الجبل فانقضّ خالد وعكرمة ومن معهما على المسلمين فقتلوا سبعين من أصحاب النبى ﷺ . ففرح عكرمة بهذا وقال أبو سفيان: هذا بيوم بدر.

وفى يوم الخندق لما أراد المشركون مهاجمة المسلمين واقتحام المدينة، وجدوا خندقًا عريضًا يحول بينهم وبينها، فالتجأوا إلى فرض الحصار على المسلمين، بينما لم يكونوا مستعدين له حين خرجوا من ديارهم، إذ كانت هذه الخطة ـ كما قالوا ـ مكيدة ما عرفتها العرب، فلم يكونوا أدخلوها فى حسابهم رأسًا.

وأخذ المشركون يدورون حول الخندق غضابًا، يتحسسون نقطة ضعيفة؛ لينحدروا منها، وأخذ المسلمون يتطلعون إلى جولات المشركين، يرشقونهم بالنبل، حتى لا يجترئوا على الاقتراب منه، ولا يستطيعوا أن يقتحموه، أو يهيلوا عليه التراب، ليبنوا به طريقًا يمكنهم من العبور.

وكره فوارس من قريش أن يقفوا حول الخندق من غير جدوى فى ترقب نتائج الحصار، فإن ذلك لم يكن من شيمهم، فخرجت منها جماعة فيها عمرو بن عبد ود، وعكرمة بن أبى جهل، وضرار بن الخطاب وغيرهم، فتيمموا مكانًا ضيقًا من الخندق

فاقتحموه، وجالت بهم خيلهم فى السبخة بين الخندق وسلع، وخرج على بن أبى طالب فى نفر من المسلمين حتى أخذوا عليهم الثغرة التى أقحموا منها خيلهم، ودعا عمرو إلى المبارزة، فانتدب له على بن أبى طالب، وقال كلمة حمى لأجلها ـ وكان من شجعان المشركين وأبطالهم ـ فاقتحم عن فرسه فعقره وضرب وجهه، ثم أقبل على (علىّ)، فتجاولا وتصاولا، حتى قتله علىّ ـ رضى الله عنه ـ وانهزم الباقون، حتى اقتحموا من الخندق هاربين، وقد بلغ بهم الرعب إلى أن ترك عكرمة رمحه وهو منهزم عن عمرو[١].

* * *

فراره يوم فتح مكة

عن سعد بن أبى وقاص ـ رضى الله عنه ـ قال: لما كان يوم فتح مكة أمَّن رسولُ الله ﷺ الناسَ إلا أربعة نفر وامرأتين... فذكر الحديث؛ وفيه: وأما عكرمة فركب البحر فأصابهم عاصف، فقالً أصحابِ السفينة: أخلصوا، فإن آلهتكم لا تغنى عنكم ههنا شيئًا. فقال عكرمة: والله لئن لم يُنجنى فى البحر إلا الإخلاص لا ينجينى فى البر غيره، اللهم إنَّ لك علىَّ عهدًا إن عافيتنى مما أنا فيه أنْ آتى محمدًا حتى أضعَ يدى فى يده، فلا أجدنّه إلا عفوًا كريمًا. قال: فجاء فأسلم[٢].

قصة إسلامه

لما تسلل عكرمة هاربًا من مكة إلى اليمن.. مضت زوجه أم حكيم إلى النبى ﷺ وطلبت منه الأمـان لزوجها عكرمـة بعد أن أسلمت بين يدى رسول الله ﷺ فأعطاها الأمان لزوجها.

فخرجت فى طلبه فأدركته عند ساحل البحر فى منطقة تهامة، فجاءت به إلى النبى ﷺ فأسلم وحسن إسلامه.

وبدأ عكرمة صفحة جديدة مشرقة كلها تضحية وبذل وفداء.. وكان عكرمة إذا اجتهد فى اليمين قال: لا والذى نجانى يوم بدر[٣].

---

(١) الرحيق المختوم (ص ٣٣٠ ـ ٣٣١).
(٢) رواه أبو داود والنسائى عن سعد بن أبى وقاص.
(٣) السير للإمام الذهبى (١/ ٣٢٣).

وكان يضع المصحف على وجهه ويقول: كتاب ربى.. كتاب ربى. وهو يبكى على تلك الأيام التى قضاها فى عداوته لرسول الله ﷺ.

عكرمة فى صفوف فرسان المسلمين المجاهدين

* فى ركب المجاهدينَ الفُرسان من الصَّحابة، سار عكرمة ـ رضوان الله عليه ـ وغدا واحدًا منْ شجعانهم وعُبَّادهم، وبدأ رحلة جهاده بتكسير الآلهة المزعومة، والأصنام المتوزِّعة فى البيوت، فكان لا يسمع بصنمٍ فى بيت من بيوت قريش إلا مشى إليه حتى يكسره، وكيف لا يسرعُ إلى ذلك، وقد سمعَ منادى رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ كان يؤمنُ بالله فلا يتركن فى بيته صنمًا إلا كسره أو حرقه»[١].

* لقد أضحى عكرمة من فُرسان المدرسة المحمّدية، نسى الماضى القاتم كلّه، لقد استضاءَ بنور الله ونور الإيمان، فأضاءَ له طريق الجهاد، فشهدَ المشاهد بعد إسلامه مع رسول الله ﷺ وأخلص فيها، وبرهنَ على صدْق إسلامه، ففى غزاة حُنين، كان له موقفٌ طيِّب، ومقالة تدلُّ على حُسْنِ إسلامه وبلائه[٢].

* هذا؛ وقد بعثه ﷺ عام حجته على هوازن يجمعُ صدقاتها[٣]، فقام بعمله خير قيام، وتوفى رسولُ الله ﷺ وعكرمة يقوم بعمله، وكان يومئذ بتبالة ـ بلد باليمن ـ فعاد بعد أن أنهى عمله ليكون مع ركْبِ المجاهدين تحت لواء خليفة المسلمين الأوّل؛ أبى بكر الصِّدِّيق ـ رضى الله عنه ـ.

* وقد أوْكَلَ إليه أبو بكر الصِّدِّيق ـ رضى الله عنه ـ عَدَدًا منَ المهام، وكلّها تكلَّلتْ بالنَّجاح والظَّفر. وكان لعكرمة ـ رضى الله عنه ـ فى قتال أهل الرِّدة كريم الأثر، حيثُ جاهد المرتدين من بنى حنيفة.

* ثمَّ استعمله أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ على جيش،وبعثه إلى أهل عُمان،وكانوا قد ارتدوا، فرزقه الله عزَّ وجلَّ الظَّفر عليهم، وعادوا إلى حَظيرة الإسلام، وعاد إلى المدينة، وهو يحملُ بشائر النَّجاح لأبى بكر ـ رضوان الله عليه ـ[٤].

---

(١) المغازى (٢/ ٨٧١).

(٢) انظر: السيرة الحلبية (٣/ ٧٠).

(٣) طبقات ابن سعد (٧/ ٤٠٤) والاستيعاب (٣/ ١٤٩) والإصابة (٢/ ٤٨٩).

(٤) فرسان من عصر النبوة (ص: ٧٦٢ ـ ٧٦٣).

الشهادة في سبيل الله

لما كان يوم اليرموك، تقدّم خالد إلى عكرمة بن أبي جهل والقعقاع بن عمرو أن يُنشئا القتال، فبدرا يرتجزان ودعوا إلى البراز - المبارزة - وتنازل الأبطال وتجاولوا، وحمي الحرب وقامت على ساق. فنادى عكرمة: «قاتلتُ رسول الله ﷺ في كل موطن، وأفِر منكم اليوم؟! مَنْ يبايعُ على الموت؟ فبايعه أربعمائة من وُجوه المسلمين وفرسانهم، فبايعه عمه الحارث بن هشام، وضرار ابن الأزور، فاستبسلوا وقاتلوا قُدَّام فسطاط خالد، حتى أُثبتوا جميعًا جراحًا. وأُتي خالد بعكرمة جريحًا فوضع رأسه على فخذه، وبعمرو بن عكرمة فوضع رأسه على ساقه، وجعل يمسح عن وجهيهما، ويُقطِرُ الماءَ في حلقيهما.

فرضي الله عن شهيد اليرموك عكرمة، الذي قال فيه ابن كثير: «يُقال: إنه لا يُعرف له ذنبٌ بعد ما أسلم»(١).

قال الشافعي: كان محمودَ البلاء في الإسلام، رضي الله عنه.

قال أبو إسحاق السبيعي: نزل عكرمة يوم اليرموك، فقاتل قتالاً شديدًا، ثم استشهد، فوجدوا به بضعًا وسبعين من طعنة ورمية وضربة(٢).

وهكذا يجب على المسلم أن يستدرك ما فاته وأن يبدأ صفحة جديدة كلها طاعة لله وتضحية وبذل وعطاء من أجل إعلاء كلمة (لا إله إلا الله).

فرضي الله عن عكرمة الذي سالت دماؤه على أرض الشرف والقتال... تلك الدماء التي لطالما امتزجت بحُب الله وحُب رسوله ﷺ واشتاقت إلى نُصرة دين الله.

فرضي الله عنه وعن سائر الصحابة أجمعين

* * *

(١) البداية والنهاية (٧/ ١١) (٧/ ٣٥) والطبري (٣/ ٤٠١).

(٢) السير للإمام الذهبي (١/ ٣٢٤).



حمزة سيد الشهداء يوم القيامة

محمد رسول الله ﷺ

وها نحن اليوم على موعد مع سيد الشهداء...

ها نحن على موعد مع أسد الله وأسد رسول الله ﷺ الذى لما نال شرف الشهادة فى سبيل الله جعل الله روحه فى جوف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوى إلى قناديل من ذهب معلقة فى ظل عرش الرحمن ـ جل وعلا ـ.

إننا على موعد مع حمزة بن عبد المطلب.

* ما أشد حاجة الإنسان إلى قوة تسند ظهره، وتشد أزره، وتأخذ بيده، وتُذلل له العقبات، وتقهر أمامه الصعاب، وتُنير له الطريق...

وليست هذه القوة المنشودة إلا فى ظلال العقيدة، ورحاب الإيمان بالله.

الإيمان بالله هو الذى يمدنا بروح القوة، وقوة الروح، فالمؤمن لا يرجو إلا فضل الله، ولا يخشى إلا عذاب الله، ولا يبالى بشىء فى جنب الله، إنه قوى وإن لم يكن فى يديه سلاح، غنى وإن لم تمج خزائنه بالفضة والذهب عزيز وإن لم يكن وراءه عشيرة وأتباع، راسخ وإن اضطربت سفينة الحياة، وأحاط بها الموج من كل مكان(١).

ولكن مع كل هذا فقد علَّمنا الحق ـ جل وعلا ـ أن نأخذ أيضًا بأسباب القوة المادية التى تتمثل فى الرجال الأقوياء الأتقياء الذين يحملون همَّ الإسلام، وقبل ذلك كله هم يحملون أكفانهم بين أيديهم ويُقدِّمون أرواحهم ودماءهم من أجل نُصرة هذا الدين العظيم.

ولذلك كان الحبيب ﷺ يتمنى من أعماق قلبه أن يشرح الله صدر عمه وأخيه فى الرضاعة ـ حمزة ـ للإسلام.

---

(١) الإيمان والحياة/ د. يوسف القرضاوى (ص ٢٦١).

ومن هنا كانت البداية

وتعالوا بنا لنتعايش بقلوبنا وأرواحنا مع قصة أسد الله وأسد رسوله ﷺ .

كان حمزة ـ رضى الله عنه ـ يعيش فى أحد البيوتات المحيطة بالكعبة وعاش هناك طفولته وشبابه بين أترابه من أطفال قريشٍ وشبابها.

ولقد كان سريع الحركة.. قوى البنية.. يتقن الرمى غاية الإتقان، ولذلك كان يحب الصيد حبًا شديداً فكان يخرج إلى الوديان الفسيحة ويصعد فوق قمم الجبال يمارس هوايته التى لا تفارقه أبداً ـ ألا وهى الصيد ـ وعند غروب الشمس يعود مرة أخرى إلى أدراجه ليشارك فتيان قريش فى اللهو واللعب والانغماس فى شهوات الدنيا.

وما علم (حمزة) ـ رضى الله عنه ـ أنه سيترك هذا كله فى وقت قريب ليحمل همَّ هذا الدين وليكون أسد الله وأسد رسوله ﷺ، بل وليصبح سيد الشهداء يوم القيامة.

الدعوة الإسلامية تشرق بأنوارها

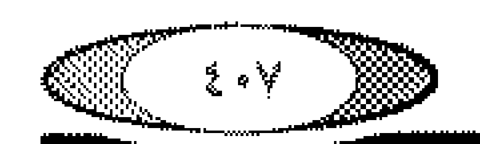
* ها هىَ الأيّام تمضى، والدَّعوة الإسلاميةُ تُشْرقُ بأنوارها على أمِّ القرى، وتعطِّرُ الدُّنيا برحيقها، ولم يفترِ المشركونَ فى تقديم وجبَات سريعة ومتالية من الأذى، وضربات منَ الكيد العنيف للإسلام والمسلمين، وكان منْ أشدّهم عداوةً وضراوةً لرسولِ اللّه ﷺ: أبو جهل بن هشامٍ فرعون الأمّة، الذى راحِ يفرغُ حقْده فى المسلمين، وراحَ يَسخر منَ الدَّعوة، ويسخِّرُ كلَّ ما يملك فى سبيلِ الصدِّ عن سبيلِ الهدى، ويصب جام غضبه على المؤمنين المستضعفين(١).

وكان (حمزة) ـ رضى الله عنه ـ يتعجب لهذا العداء، فهو يعلم ابن أخيه جيداً ويعرف عنه رقة الشمائل ومكارم الأخلاق وفوق ذلك كله فهو الصادق الأمين الذى اجتمع الناس على محبته وإجلاله وتوقيره.

وفى يوم من الأيام يخرج (حمزة) ـ رضى الله عنه ـ كعادته لممارسة هوايته المفضَّلة ـ الصيد ـ وبعدما قضى وقته فى تلك الهواية وعاد ومعه من الخير الكثير والكثير.

وفى طريق عودته يحدث أمرٌ لم يكن فى الحُسبان فيكون سببًا فى إسلامه... فيا تُرى

(١) فرسان من عصر النبوة (ص:٥٧).



ما الذى حدث؟!

تعالوا بنا لنفتح سويًا صفحة نعرف من خلالها كيف أسلم أسد الله ـ رضى الله عنه.

إسلام حمزة ـ رضى الله عنه ـ

إن الأُفق المتلبد بالسُحب قد يتولد منه برق يضىء.

لقد غبرت على المسلمين فى مكة أيام غلاظ، اضطرت بيوتًا عديدة أن تفر بدينها، وبقى من بقى منهم يكابد العنت من شطط المشركين وكيدهم، إلا أن عناصر جديدة دخلت فى الإسلام جعلت قريشًا تتروى فى أمرها قبل أن تقدم على إساءاتها المبيتة.

أسلم «حمزة» بن عبد المطلب، عم النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأخوه من الرضاع، وهو رجل قوى الشكيمة(1).

ولقد كان إسلامه فى بداية الأمر أَنَفة ثم شرح الله صدره بنور اليقين، فاستمسك بالعروة الوثقى وصار من أفاضل المؤمنين واعتز به المسلمون أيما إعزاز.

أما عن قصة إسلامه فيروى لنا ابن إسحاق أن أبا جهل مَرَّ برسول الله ﷺ عند الصفا فآذاه وشتمه ونال منه بعض ما يكره، من العَيْب لدينه والتضعيف لأمره، فلم يكلّمه رسول الله ﷺ... ومولاة لعبد الله ابن جُدعان فى مسكن لها تسمع ذلك [منه]، ثم انصرف عنه، فعمد إلى نادى قريش عند الكعبة فجلس معهم فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب ـ رضى الله عنه ـ أقبل متوشحًا قوسه(2) راجعًا من قنص له ـ كان يصطاد ـ وكان صاحب قَنَص يرميه ويخرج له، وكان إذا رجع من قنصه لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالكعبة، وكان إذا فعل ذلك لم يمرّ على ناد من قريش إلا وقف وسلم وتحدث معهم، وكان أعزَّ فتى فى قريش وأشدهم شكيمةً. فلما مر بمولاة عبد الله بن جدعان، وقد رجع رسول الله ﷺ إلى بيته، قالت له: يا أبا عمارة، لو رأيت ما لقى ابنُ أخيك محمدٌ آنفًا من أبى الحكم بن هشام؛ وجده هاهنا جالسًا فآذاه وسبّه وبلغ منه ما يكره، ثم انصرف عنه ولم يكلّمه محمدٌ ﷺ .

---

(1) فقه السيرة للغزالى (ص ١٣٦).

(2) متوشحًا: أى يتقلده كما يتقلد السيف والرجل يتوشح بحمالة سيفه فتقع الحمائل على عاتقه اليسرى وتكون اليمنى مكشوفة. [لسان مادة/ وشح].

فغضب حمزة غضبًا شديدًا لما أراد الله به من كرامته، فخرج يسعى ولم يقف على أحد، مُعدًا لأبى جهل إذا لقيه أن يُوقع به، فلما دخل المسجد نظر إليه جالسًا فى القوم فأقبل نحوه، حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه به فشجه شجةً مُنكَرة، ثم قال: أتشتمه وأنا على دينه أقول كما يقول؟ فَرُدَّ ذلك علىَّ إن استطعت . فقامت رجالٌ من بنى مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل؛ فقال أبو جهل : دعُوا أبا عُمارة ، فإنى والله قد سببتُ ابن أخيه سبًا قبيحًا... وتمّ حمزة - رضى الله عنه - على إسلامه، وعلى ما تابع عليه رسول الله ﷺ من قوله، فلما أسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله ﷺ قد عزّ وامتنع، وأنَّ حمزة سيمنعه، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه(١).

ومنذ تلك اللحظة التى أسلم فيها حمزة - رضى الله عنه - واستقر الإيمان فى قلبه وهو يحمل همَّ هذا الدين ويتمنى أن يبذل من أجله الغالى والنفيس، بل وأن يضحى فى سبيله بالنفس والمال وبكل ما يملك.

وظل حمزة ملازمًا للحبيب ﷺ ملازمة الرجل لظله، فلا يفارقه فى حِلِّه وترحاله.

الهجرة المباركة

ولما أذن النبى ﷺ لأصحابه بالهجرة كان حمزة من أوائل المهاجرين واستقر فى المدينة المنورة وآخى النبى ﷺ بينه وبين زيد بن حارثة (رضى الله عنهما).. ولقد بلغت هذه المؤاخاة الكريمة بينهما مبلغًا عظيمًا فهى محبة خالصة لوجه الله تعالى لا تشوبها أى شائبة من طلب حُطام الدنيا وزهرتها الفانية.

سرية سيف البحر

* ومضى حمزة - رضى الله عنه - فى طريق الإيمان، والذَّود عن الدَّعوة، حتى بلغَ مقامًا لم يبلغْهُ غيره من المسلمين، فهو سيِّدُ الشُّهَداء بشهادة سيِّد الخَلْق رسول الله ﷺ ، وهو أسدُ رسوله ﷺ ، كان إسلامُه عزًا للمسلمين، ومنعة وقوّة لرسول الله ﷺ ، أخذتْ به قريش فأصابها المقيمُ المُقْعد، وشرقتْ بإسلامه، فكان شَجًا فى حَلاقيمها، إذ أذلّ كبرياءها، وقَتل كُبراءَها، وظهرتْ به الدَّعوة بعد استخفائها، وأُعلنت بصوته كلمة الحقّ بعد استتارها، وجُهر بالتَّكبير لله تعالى على سَمْع طغاة الشِّرك، فأراهم حَقارةَ عقولهم

(١) ذكره الهيثمى فى المجمع (٩/ ٢٦٧) وقال: رواه الطبرانى مرسلاً ورجاله رجال الصحيح.



في دناءة معبوداتهم، وأراهم عزّة الحقِّ وانتصاره، فكان إسلامه ظفراً، ومنعة، وفتحًا[١].

وها هو في لحظة واحدة يتحول من النقيض إلى النقيض... يترك الصيد واللهو والغناء ويخلع ثوب الجاهلية على أعتاب التوحيد والإيمان ويحمل همّ الدين في قلبه ويبدأ صفحة جديدة يبذل فيها المال والنفس لنصرة دين الله ـ جل وعلا ـ... وهكذا ينبغي لكل من أكرمه الله بنعمة الهداية أن يبدأ فوراً صفحة جديدةً لنصرة دين الله فإن العمل لهذا الدين من أعظم عوامل الثبات.

وها هي أول سرية خرج فيها المسلمون للقاء العدو كان أميرها حمزة.

ففي شهر رمضان سنة ١هـ أرسل رسول الله ﷺ سرية وأمّر عليها حمزة ابن عبد المطلب.

وبعثه في ثلاثين رجلاً من المهاجرين، يعترض عيراً لقريش جاءت من الشام، وفيها أبو جهل بن هشام في ثلاثمائة رجل، فبلغوا سيف البحر من ناحية العِيص[٢]، فالتقوا واصطفوا للقتال، فمشى مجدى بن عمرو الجهني ـ وكان حليفًا للفريقين جميعًا ـ بين هؤلاء وهؤلاء، حتى حجز بينهم، فلم يقتتلوا[٣].

(أسد الله) وجهاده في سبيل الله

ولكن تمر الأيام وتأتي الفرصة المناسبة التي يكشر فيها الأسد عن أنيابه ليعلم المشركون أنهم لا طاقة لهم بهؤلاء الأبطال الذين يحرصون على الموت أكثر من حرص المشركين على الحياة.

وها هو أسد الله وأسد رسوله ﷺ (حمزة بن عبد المطلب) يقودها حملة ـ لا تُبقي ولا تذر ـ ضد المشركين.

جهاده في غزوة بدر

* يومُ بدر، وما أدراك ما يوم بدر؟!! يومُ بدر هو يوم الفُرقان الأعظم، يوم التقى الجمعان: جَمْع المسلمين الموحِّدين في إيمانهم الرّاسخ، وقوّة يقينهم؛ وجَمْع الفجرة

(١) فرسان من عصر النبوة (ص: ٦١).

(٢) العيص: ـ بالكسر ـ: مكان بين ينبع والمروة ناحية البحر الأحمر.

(٣) السيرة لابن هشام (٢/ ٢٠٠) بتصرف.

الكفرة في غرورهم المهزول الضئيل، وكفرهم الغشوم الهزيل.

* يومُ بدر هو يوم الفيصل بين حياة وحياة.

* يومٌ عَلَتْ فيه كلمةُ الله ـ وهي العُليا منذ الأزل ـ.

* ويومٌ تسفَّلتْ فيه كلمة الكفر ـ وهي السفلى منذ القِدَم ـ.

* يومُ بدر يومٌ فَتحَ الله به للحقِّ وأهله أبواب الكرامة والعزَّة، فكَرُم الحقُّ على أهله وعزَّ، وكرموا به وعزوا؛ لما فيه من نَصْر وظفر.

* يوم بدر؛ يومَ فتحَ الله به للباطل وأهله سراديب الهاوية، فاندحر واندحروا، وارتفع الحقُّ شامخًا، وتسامى إلى الآفاق مضيئًا مشرقًا متلألئًا، واندحر الباطل منكوسًا يهوى إلى وادى الفناء ذليلاً محسورًا.

* وفي بدر، عبأ رسولُ الله ﷺ جيشه للقتال، ماديًا ومعنويًا، كيما يواجه أعداءه وهو على أكمل استعداد، وكان حمزة ـ رضى الله عنه ـ يتشوَّقُ إلى القتال ليظهر فروسيته أمام الحبيب الأعظم سيدنا محمَّد رسول الله ﷺ، فيحظى بالرضا والدعوات النبوية المباركة(١).

فها هي صفحة من صفحات أسد الله وأسد رسوله ﷺ ، تلكم الصفحة التى سطرها على جبين التاريخ بسطور من النور.

فإنه لما وقف المسلمون والمشركون وجهًا لوجه في غزوة بدر كان أول وقود المعركة الأسود بن عبد الأسد المخزومي، وكان رجلاً شَرسًا سيء الخلق، فقال: أعاهد الله لأشربن من حوضهم، أو لأهدمنَّه، أو لأموتن دونه، فلما خرج خرج إليه حمزة بن عبد المطلب، فلما التقيا ضربه حمزة فأطنَّ قدمه بنصف ساقه، وهو دون الحوض، فوقع على ظهره تشخُبُ رجله دمًا نحو أصحابه، ثم حبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه، يريد ـ [زعم] ـ أن يُبرّ يمينه، وأتبعه حمزةُ فضربه حتى قتله في الحوض(٢).

* * *

(١) فرسان من عصر النبوة (ص:٦٦).
(٢) السيرة لابن هشام (٢/ ٢٢٨).

المبارزة يوم بدر

وبعد أن استطاع حمزة أن يقتل الأسود بن عبد الأسد المخزومي في الحوض خرج بعده عتبة بن ربيعة، بين أخيه شيبة بن ربيعة وابنه الوليد بن عتبة، حتى إذا فصل من الصف دعا إلى المبارزة، فخرج إليه فتيةٌ من الأنصار ثلاثة، وهم عوف، ومعوذ ابنا الحارث ـ وأمهما عفراء ـ ورجل آخر يقال: هو عبد الله بن رواحة، فقالوا: من أنتم؟ فقالوا: رهط من الأنصار. قالوا: ما لنا بكم من حاجة. ثم نادى مناديهم: يا محمد. أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا. فقال رسول الله ﷺ: «قم يا عبيدة بن الحارث. وقم يا حمزة. وقم يا علي». فلما قاموا ودنوا منهم، قالوا: من أنتم؟ قال عبيدة: عبيدة. وقال حمزة: حمزة. وقال عليّ: عليّ. قالوا: نعم، أكفاء كرام.

فبارز عبيدة. وكان أسنّ القوم. عتبة [بن] ربيعة. وبارز حمزة شيبة بن ربيعة، وبارز عليّ الوليد بن عتبة. فأما حمزة فلم يُمهل شيبة أن قتله. وأما عليّ فلم يُمهل الوليد أن قتله، واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين، كلاهما أثبت صاحبه. وكرّ حمزة وعليّ بأسيافهما على عُتبة فذَفَّفا عليه. واحتملا صاحبهما. فحازاه إلى أصحابه[1].

وعن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ أنه كان يقسم فيها قسمًا إن هذه الآية ﴿هذان خصمان اختصموا في ربهم﴾ نزلت في حمزة وصاحبيه وعتبة وصاحبيه يوم برزوا في يوم بدر[2].

جهاده في غزوة أحد

لم يهدأ بال قريش مذ غشيها في «بدر» ما غشيها وكان ما جَدَّ من الحوادث بعد لا يزيد أحقادها إلا ضرامًا، فلما استدارت السنة، كانت مكة قد استكملت عدتها واجتمع إليها أحلافها من المشركين، وانضم إليهم كل ناقم على الإسلام وأهله.

فخرج الجيش الثائر في عدد يربو ـ يزيد ـ على ثلاثة آلاف.

ورأى أبو سفيان قائده أن يستصحب النساء معه، حتى يكون ذلك أبلغ في استماتة

---

(١) هكذا رواه ابن إسحاق بدون إسناد وأخرجه أبو داود في كتاب «الجهاد» باب «في المبارزة» (٣/ ح/ ٢٦٦٥) وأحمد في «مسنده» (٩٤٨) من حديث علي بن أبي طالب وإسناده صحيح.

(٢) أخرجه البخاري (٤٧٤٣) ومسلم (٣٠٣٣) وابن ماجه (٢٨٣٥).

الرجال دون أن تُصاب حرماتهم وأعراضهم؟[1]

وكان زعماء قريش يهدفون بمعركتهم الجديدة هذه إلى رجُلين اثنين: الرسول ـ عليه صلاة الله وسلامه ـ وحمزة ـ رضى الله عنه وأرضاه ـ.

أجل... والذى كان يسمع أحاديثهم ومؤامراتهم قبل الخروج للحرب، يرى كيف كان «حمزة» بعد الرسول، بيت القصيد وهدف المعركة..

ولقد اختاروا قبل الخروج، الرجلَ الذى وكّلوا إليه أمر حمزة، وهو عبدٌ حبشى، كان ذا مهارة خارقة فى قذف الحربة.. جعلوا كل دوره فى المعركة أن يتصيَّد «حمزة» ويُصوِّب إليه ضربةً قاتلة من رمحه، وحذروه من أن ينشغل عن هذه الغاية بشىء آخر، مهما يكن مصير المعركة واتجاه القتال.

ووعدوه بثمن غال وعظيم ـ هو: حُريته.. فقد كان الرجل واسمه «وحشى» عبداً لجُبير بن مُطعم.. وكان عم جبير قد لقى مصرعه يوم بدر، فقال له جُبير: اخرج مع الناس فإن أنت قتلت حمزة عمَّ محمد بعمى طُعيمة ابن عدىّ فأنت عتيق.

ثم أحالوه إلى «هند بنت عُتبة» زوجة أبى سفيان لتزيده تحريضًا ودفعًا إلى الهدف الذى يريدون..

وكانت هندٌ قد فقدت فى معركة «بدر» أباها، وعمها، وأخاها، وابنها.. وقيل لها: إن «حمزة» هو الذى قتل بعض هؤلاء، وأجهزَ على البعض الآخر..

من أجل هذا كانت أكثر القرشيين والقرشيات تحريضًا على الخروج للحرب، لا لشىء إلا لتظفر برأس حمزة مهما يكن الثمن الذى تتطلبه المغامرة..!![2]

ولقد لبثت أيامًا قبل الخروج للحرب، ولا عمل لها إلا إفراغ كل حقدها فى صدر «وحشىٍّ» ورسم الدور الذى عليه أن يقوم به..

ولقد وعدته إن هو نجح فى قتل حمزة بأثمن ما تملكه المرأة من متاع وزينة ـ فلقد أمسكت بأناملها قُرطها اللؤلؤى الثمين وقلائدها الذهبية التى تزدحم حول عنقها، ثم قالت وعيناها تحدِّقان فى وحشىّ: [كُلُّ هذا لك، إن قتلت حمزة]..!!!

وسالَ لُعاب وحشىّ.. وطارت خواطره توّاقةً مُشتاقةً إلى المعركة التى سيربح فيها

(١) فقه السيرة للغزالى (ص ٢٨٨).

(٢) مع العلم بأنها أسلمت بعد ذلك وحَسُن إسلامها ـ رضى الله عنها ـ.

حريته، فلا يصير بَعدُ عبداً أو رقيقًا، والتى سيخرج منها بكل هذا الحلى الذى يُزيّن عُنق زعيمة نساء قريش، وزوجة زعيمها، وابنة سيدها..!!

كانت المؤامرة إذن.. وكانت الحرب كلها تريد «حمزة» ـ رضى الله عنه ـ بشكل واضح وحاسم(١).

الأسد فى أرض المعركة يقاتل بسيفين

والتقى الجيشان وحمى الوطيس.. وقام أسد الله (حمزة) يصول ويجول فى أرض المعركة يشق الصفوف شقًا ويهدّ المشركين بسيفه هدًا.

* لقد كانت بطولةُ حمزة يوم أحد مِنْ أروعِ البطولات فى عالَم الفروسية، وكانت بطولته أرفع بطولات الأبطال، فكان ـ رضوان الله عليه ـ يقاتل قتال الليوث المغاوير، ويندفعُ إلى قلْب جيَش المشركين فيبدّد جموعَهم، وهو يغامرُ مغامرة منقطعة النَّظير، فينكشفُ عنه الأبطال والكُماة الشجعان، ويتطايرون أمامه كما تتطاير أوراق الخريفِ أمام الرِّياح العاتية.

بل لقد كان يقاتل قتال الليوث المهتاجة فصدَّ حَمَلة اللواء من بنى عبد الدار واقتنص أرواحهم فردًا فردًا.

عن سعد بن أبى وقاص قال: كان حمزة يُقاتل يوم أحُد بين يدى رسول الله ﷺ بسيفين ويقول: أنا أسدُ الله(٢).

ولولا أن ترك الرماة مكانهم فوق الجبل، ونزلوا إلى أرض المعركة ليجمعوا غنائم العدو المهزوم.. لولا تركهم مكانهم وفتحهم الثغرة الواسعة لفرسان قريش لكانت «غزوة أُحُد» مقبرة لقريش كلها: رجالها.. ونسائها.. بل وخيلها.. وإبلها..!!

لقد دَهَم فرسانها المسلمين من ورائهم على حين غفلة، وأعملوا فيهم سيوفهم الظامئة المجنونة.. وراح المسلمون يجمعون أنفسهم من جديد، ويحملون سلاحهم الذى كان بعضهم قد وضعه حين رأى جيش قريش ينسحب ويُولى الأدبار.. ولكن المفاجأة كانت قاسية وعنيفة.

(١) رجال حول الرسول ﷺ/ لخالد محمد خالد (ص ٢١٥: ٢١٦).
(٢) أخرجه ابن سعد (٣/ ١/ ٦) والحاكم (٣/ ١٩٤) وصححه ووافقه الذهبي.

ورأى «حمزة» ما حدَث فضاعف قوته ونشاطه وبلاءَه..

وأخذ يضرب عن يمينه وشماله... وبين يديه ومن خلفه... و«وحشىّ» هناك يرقبه، ويتحيَّن الفرصة الغادرة ليوجِّه نحوه ضربته[1]... وحمزةَ يقاتل بكل قوة وكأنه يرى الجنة أمام عينيه وهو يتذكر قول النبى ﷺ: «حمزة سيد الشهداء يوم القيامة».

سيد الشهداء

وها هى رياح الموت تهبّ على أرض المعركة، وها هى اللحظة التى قدَّرها الله ـ جل وعلا ـ ليرحل حمزة ـ رضى الله عنه ـ عن الدنيا وليصبح سيد الشهداء.

قال ﷺ: «حمزة سيد الشهداء يوم القيامة»[2]

ولنترك الحديث لوحشى ليحكى لنا كيف استطاع أن يقتل (حمزة).

يقول وحشى: كُنتُ غلامًا لجُبير بن مُطعم، وكان عمه طُعيمة بن عدىّ قد أُصيب يوم بدر ـ قُتل ـ فلما سارت قريش إلى أُحد، قال لى جُبير: إن قتلتَ حمزة عم محمد بعمى فأنت عتيق، قال: فخرجتُ مع الناس، وكنتُ رجلاً حبشيًا أقذف بالحربة قذف الحبشة، قلَّما أُخطئ بها شيئًا، فلما التقى الناسُ خرجتُ أنظر حمزة، وأتبصَّره، حتى رأيته فى عُرض الناس مثل الجمل الأورق، يهُدُّ الناس بسيفه هدًا، ما يقومُ له شىء، فوالله إنى لأتهيأ له، أُريده وأستتر منه بشجرة أو حجر ليدنو منى إذ تقدمنى إليه سباعُ بن عبد العُزى؛ فلما رآه حمزة قال: هَلُمَّ يابن مُقطعة البُظور. قال: فضربه ضربة كأن ما أخطأ رأسه. قال: وهززتُ حربتى، حتى إذا رضيتُ منها، دفعتُها عليه، فوقعت فى ثُنَّته، حتى خرجت من بين رجليه، وذهب لينوء نحوى، فغُلب، وتركتُه وإياها حتى مات، ثم أتيتُه فأخذتُ حربتى، ثم رجعت إلى العسكر، فقعدتُ فيه، ولم يكن لى بغيره حاجة، وإنما قتلتُه لأُعتق. فلما قدمت مكة أُعتقتُ، ثم أقمتُ حتى إذا افتتح رسولُ الله ﷺ مكة هربتُ إلى الطائف، فمكثت بها، فلما خرج وفدُ الطائف إلى رسول الله ﷺ ليُسْلموا تعيَّتْ علىَّ المذاهب فقلت: ألحق بالشام، أو باليمن، أو ببعض البلاد؛ فوالله إنى لفى

---

(١) رجال حول الرسول ﷺ (ص ٢١٧).

(٢) أخرجه الحاكم فى المستدرك (٣/ ١٩٥) والشيرازى فى الألقاب، عن جابر، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣١٥٨) ـ الصحيحة (٣٧٤).

ذلك من همّي إذ قال لي رجل: ويحك! إنه والله ما يقتُل أحدًا من الناس دخل في دينه، وتشهَّد شهادته.

فلما قال لي ذلك، خرجتُ حتى قَدمتُ على رسول الله ﷺ المدينة، فلم يَرُعْهُ إلا بي قائمًا على رأسه أتشهَّد بشهادة الحقّ، [فَلما] رآني قال: «أوحشي؟» قلت: نعم يا رسول الله، قال: «اقعُد فحدثني كيف قتلت حمزة»، قال: فحدّثته، فلما فرغتُ من حديثي قال: «وَيْحَكَ! غَيِّب عني وجهك»، فلا أُرَيَنَّك. قال: فكنتُ أتنكَّبُ رسول الله ﷺ حيث كان لئلا يراني، حتى قبضهُ الله ﷺ[1] ـ أي حتى توفاه الله ـ.

فلما خرج المسلمون إلى مسيلمة! خرجتُ معهم بحربتي التي قتلتُ بها حمزة. فلما التقى الناس، نظرتُ إلى مُسيلمة وفي يده السيف، فوالله ما أعرفه، وإذا رجل من الأنصار يُريده من ناحية أخرى، فكلانا يتهيأ له. حتى إذا أمكنني، دفعتُ عليه حربتي، فوقعتْ فيه . وشدّ الأنصاري عليه ، فضربَه بالسيف، فربُّك أعلم أيُّنا قَتله ، فإن أنا قتلتُه، فقد قتلتُ خيرَ الناس بعد رسول الله ﷺ ، وقتلت شرَّ الناس[2].

روحه في جوف طير خُضر تردُ أنهار الجنة

هكذا رحل (أسد الله) عن الدنيا ـ ليس شهيدًا فحسب، بل سيدًا للشهداء ـ وفاز بتلك المنقبة العظيمة التي أخبر عنها الحبيب ﷺ بعد الغزوة.

عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ: «لما أُصيب إخوانكم بأُحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خُضر تردُ أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش، فلَما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا: مَنْ يُبلِّغ إخواننا عنا أننا أحياء في الجنة نُرزق لئلا ينكلوا عند الحرب ولا يزهدوا في الجهاد، قال الله: أنا أبلغهم عنكم. فأُنزلت ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ﴾ [آل عمران:١٦٩][3].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب «المغازي» باب «قتل حمزة بن عبد المطلب» (٧/ ٤٠٧٢/ فتح) وأحمد في «مسنده» (٣/ ٥٠١) من حديث جعفر بن عمرو بن أمية الضمري وليس فيه ذكر أنه غلب عليه الخمر، وأخرج أبو داود الطيالسي في «مسنده» (ص ١٨٦/ ١٣١٤) بلفظه. وإسناده صحيح.

(٢) قال الأرنؤوط: إسناده قوي إلى وحشي. وأخرجه ابن هشام (٢/ ٧٠ ـ ٧٣)، وابن الأثير في «أسد الغابة» ٥/ ٤٣٨ ـ ٤٤٠، وابن عبد البر في «الاستيعاب» ١١/ ٥١ وكلهم من هذا الطريق. وأخرجه البخاري (٤٠٧٢) في المغازي : باب قتل حمزة ـ رضي الله عنه ـ.

(٣) قال الأرنؤوط: رجاله ثقات، ورواه أبو داود (٢٥٢٠) في الجهاد: باب في فضل الشهادة، والحاكم (٢/ =

التمثيل بجسده الطاهر ـ رضي الله عنه ـ

ولم يكتف أعداء الله بقتله، بل مثّلوا بجسده، فإنه عندما بحث الصحابة ومعهم الحبيب ﷺ عن (حمزة) وجدوه قد بُقر بطنه، واحتمل وحشيٌ كبده إلى (هند) في نذر نذرته حين قتل أباها يوم بدر.

فدُفن في نمرة كانت عليه، إذا رُفعت إلى رأسه، بدتْ قدماه، فغطوا قدميه بشيء من الشجر[١]... وتأتي اللحظة الأليمة التي وقف فيها رسول الله ﷺ أمام جسد عمه حمزة الذي كان يحبه من كل قلبه... فها هو الآن قد فارق الدنيا كلها.

فعن أنس قال: لما كان يومُ أُحُد وقف رسولُ الله ﷺ على حمزة وقد جُدع ومُثّل به، فقال: «لولا أن تجد صفيةُ في نفسها، لتركتُه حتى يحشره الله من بطون السباع والطير». وكُفن في نمرةٍ إذا خُمِّر رأسه، بدت رجلاه، وإذا خُمرت رجلاه بدا رأسه. ولم يُصلِّ على أحد من الشهداء. وقال: «أنا شهيدٌ عليكم» وكان يجمعُ الثلاثة في قبر، والاثنين فيسأل: أيّهما أكثرُ قرآنًا فيقدمه في اللحد، وكفن الرجلين والثلاثة في ثوب[٢].

وعن ابن عمر قال: رجع رسول الله ﷺ يوم أُحد، فسمع نساء بني عبد الأشهل يبكين على هلكاهُنَّ. فقال: «لكنَّ حمزة لا بواكي له» فجئن نساءُ الأنصار، فبكين على حمزة عنده، فرقد، فاستيقظ وهن يبكين. فقال: «يا ويحهنَّ! أهُنَّ ها هنا حتى الآن، مُروهنَّ، فليرجعن، ولا يبكين على هالكٍ بعد اليوم»[٣].

ولقد ذهب أصحاب الرسول يتبارون في رثاء «حمزة» وتمجيد مناقبه العظمى..

= ٨٨، ٢٩٧). وأخرجه مسلم في صحيحه (١٨٨٧) من طريق الأعمش، عن عبد الله بن مرة، عن مسروق، قال: سألنا عبد الله بن مسعود عن هذه الآية ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتًا، بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾ قال: أما إنا قد سألنا عن ذلك فقال: أرواحهم في جوف طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى تلك القناديل. فاطلع إليهم ربهم اطلاعة فقال: هل تشتهون شيئًا؟ قالوا: أيّ شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا؟ ففعل ذلك بهم ثلاث مرات. فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا: يا رب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى. فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا».

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي (١/ ١٧٩).

(٢) قال الأرنؤوط: إسناده حسن: أخرجه أحمد (٣/ ١٢٨) وأبو داود (٣١٣٦) الجنائز.

(٣) قال الأرنؤوط: سنده قوي. وأخرجه أحمد (٢/ ٨٤) وابن ماجه (١٥٩١).

فقال حسَّان بن ثابت فى قصيدة طويلة له:

دع عنك داراً قد عفا رسمُها وابكِ على حمزةَ ذى النائل
اللابس الخيل إذا أحجمــت كالليث فى غابته ، الباسل
أبيضُ فى الذروة من هـاشم لم يَمْرِ دون الحق بالباطل

وقال عبد الله بن رواحة:

بكت عينى وحقٌّ لهـا بُكاها وما يُغنى البكـاء ولا العويل
على أسدِ الإله غداةَ قالوا: أحمـزةُ ذاكُم الرجُـل القتيل
أصيـب المسلمون به جميعًا هناك وقد أُصيب به الرسول
أبا يعلى، لك الأركان هُدَّت وأنتَ الماجـدُ البرُّ الوصـول

وقالت صفية بنت عبد المطلب عمة الرسول ﷺ وأخت حمزة:

دعاهُ إلهُ الحقِّ ذو العرش دعــوةً إلى جنـة يحيـا بهـا ، وسرورِ
فذلك مــا كنا نُرجِّى ونرتجى لحمـزةَ يوم الحشر خير مصيرِ
فوالله لا أنساك مـا هبَّت الصبا بكاءً وحزنًا، محضرى ومسيرى
على أسـدِ الله الذى كان مِدرهًا يذودُ عن الإسـلام كلَّ كفُورِ
أقولُ وقـد أعلى النعىُّ عشيرتى جزى اللــهُ خيراً من أخٍ ونصيرِ

وعن عُقبة أن النبى ﷺ صلَّى على قَتلى أُحدٍ صلاته على الميت، فهذا كان قبل موته بأيام[1].

ابن عوف ـ أحد العشرة المبشرين بالجنة ـ
وشهادته (لحمزة) بأنه خيرٌ منه

عن سعد بن إبراهيم، عن أبيه إبراهيم أن عبد الرحمن بن عوف ـ رضى الله عنه ـ أُتى بطعام ـ وكان صائمًا ـ فقال: قُتل مصعب بن عمير وهو خير منى كُفِّن فى بُردة إن غُطِّى رأسه بدت رجلاه، وإن غطى رجلاه بدا رأسه، وأراه قال: وقُتل حمزة ـ وهو خير

(١) أخرجه البخارى (١٣٤٤) الجنائز ـ ومسلم (٢٢٩٦) الفضائل.

منى ـ ثم بُسطَ لنا من الدنيا ما بُسط ـ أو قال: أُعطينا من الدنيا ما أُعطينا ـ وقد خشينا أن تكون حسناتَنا عُجِّلت لنا ثم جعل يبكى حتى ترك الطعام[١].

كرامة ثابتة (لأسد الله) بعد موته

قال ﷺ «رأيت الملائكة تغسّل حمزة بن عبد المطلب وحنظلة بن الراهب»[٢].

وعن جابر بن عبد الله، قال: لما أراد معاويةُ أن يُجرى عينه التى بأُحُد كتبوا إليه: إنّا لا نستطيع أن نُجريها إلا على قبور الشهداء، قال فكتب: انبُشوهم. قال: فرأيتُهُم يُحمَلون على أعناق الرجال كأنهم قوم نيام، وأصابت المسحاةُ طرف رجل حمزة بن عبد المطلب فانبعثت دمًا[٣]... وكأنه قد مات الآن.

وهكذا يؤيد الله أولياءه بالنُصرة والتأييد وبالكرامات فى حياتهم وبعد موتهم، ثم يرزقهم بالنعيم المقيم فى جنته.

فرضى الله عن حمزة وعن سائر الصحابة أجمعين

ونسأل الله أن يجمعنا بهم وبالحبيب ﷺ فى جنته ومستقر رحمته

***

(١) أخرجه البخارى (١٢٧٥).

(٢) رواه الطبرانى فى الكبير عن ابن عباس وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٤٦٣).

(٣) الطبقات لابن سعد (٣/ ٧).



شيطان قريش يصبح داعية إلى الله تعالى

حقًا إن قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن ـ جل وعلا ـ يقلّبها كيف يشاء.

فبينما كان عمير بن وهب الذى كان أهل مكة يلقبونه بـ«شيطان قريش» يجول بفكره وبجسده وبكل ما يملك من أجل أن يحارب النبى ﷺ وأصحابه ـ رضى الله عنهم ـ وقلبه قد امتلأ حقدًا على الإسلام وأهله. وإذا بالحق جل جلاله يأخذ بناصيته إلى الإسلام ليكون واحدًا من أصحاب النبى ﷺ .

ففى يوم بدر كان (عمير) واحدًا ممن حملوا السيوف ليقضوا على الإسلام فى مهده.

ونظرًا لخفّته وحُسن تقديره فإن كفار قريش بعثوه وقالوا له: أحرِز لنا أصحاب محمد، قال: فاستجال بفرسه حول العسكر ثم رجع إليهم، فقال: ثلاث مئة رجل، يزيدون قليلاً أو ينقصون، ولكن أملهونى حتى أنظر أللقوم كمينٌ أو مدد؟ قال: فضرب فى الوادى حتى أبعد، فلم ير شيئًا، فرجع إليهم، فقال: ما وجدتُ شيئًا، ولكنى قد رأيت، يا معشر قريش، البلايا تحمل المنايا، نواضحَ يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليس معهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، والله ما أرى أن يُقتل رجلٌ منهم حتى يقتل رجلاً منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خيرُ العيش بعد ذلك؟ فَروْا رأيكم ـ يعنى ما رأيكم ـ.

وكان كلام عمير يفتّ فى عضدهم إلا أن أبا جهل أفسد عليهم رأيهم وأصر على ملاقاة المسلمين.

وبدأت ملحمة بدرِ الكبرى التى أعز الله فيها جُنده وهزم المشركين شر هزيمة وأنزل ملائكته.

وعصفت الهزيمة بقلوب قريش وجلس عمير بن وهب ـ الذى ترك ولده أسيرًا فى أيدى المسلمين ـ حزينًا على ابنه وعلى تلك الهزيمة التى حلَّت بكفار قريش.

وهو الذى كان يؤذى النبى ﷺ وأصحابه ويلقون منه العناء وهو بمكة.

فجلس مع صفوان بن أمية في الحجر بيسير فذكر أصحاب القليب - أي المشركين الذين قُتلوا وأُلقوا في بئر قليب - ومُصَابهم.

فقال صفوان: والله ما في العيش بعدهم خير.

قال له عُمير: صدقت والله، أما والله لولا دينٌ عليّ ليس له عندي قضاء، وعيالٌ أخشى عليهم الضّيعة بعدي، لركبتُ إلى محمد حتى أقتله، فإنّ لي قبلهم علة: ابني أسيرٌ في أيديهم؛ قال: فاغتنمها صفوان وقال: عليّ دَيْنُك، أنا أقضيه عنك، وعيالُك مع عيالي أُواسيهم ما بقوا، لا يسعني شيءٌ ويعجز عنهم؛ فقال له عُمير: فاكتُم [عني] شأني وشأنك، قال: أفعل.

قال: ثم أمر عُميرٌ بسيفه، فشُحذ له(١) وسُمَّ - أي وضع فيه السم - ثم انطلق حتى قدم المدينة، فبينا عمر ابن الخطاب في نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر، ويذكرون ما أكرمهم الله به، وما أراهم من عدوهم، إذ نظر عمر إلى عُمير بن وهب حين أناخ على باب المسجد متوشحًا السيف، فقال: هذا الكلب عدوّ الله عمير بن وهب، والله ما جاء إلا لشر، وهو الذي حرَّش(٢) بيننا، وحَزَرَنَا(٣) للقوم يوم بدر.

ثم دخل عمرُ على رسول الله ﷺ فقال: يا نبيّ الله، هذا عدو الله عمير ابن وهب قد جاء متوشحًا سيفه، قال: «فأدخله عليّ» قال: فأقبل عمر حتى أخذ بحمَالة سيفه في عُنقه فلبَّبه بها، وقال لرجال ممن كانوا معه من الأنصار: ادخلوا على رسولَ الله ﷺ فاجلسوا عنده، واحذروا عليه من هذا الخبيث، فإنه غيرُ مأمون، ثم دخل به على رسول الله ﷺ.

فلما رآه رسول الله ﷺ، وعمرُ آخذٌ بحمالة سيفه في عنقه قال: «أرسله يا عمر، ادنُ يا عُمير»، فدنا ثم قال:انعموا صباحًا (وكانت تحية أهل الجاهلية بينهم)، فقال رسول الله ﷺ: «قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير، بالسلام تحية أهل الجنة»، فقال: أما والله يا محمد إن كنت بها لحديث عهد؛ قال: «فما جاء بك يا عمير؟» قال: جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم فأحسنوا فيه؛ قال: «فما بال السيف في عنقك؟» قال: قبَّحها الله من سيوف! وهل أغنت عنا شيئًا! قال: «اصدقني، ما الذي جئت له؟» قال: ما جئت إلا لذلك؛ قال ﷺ: «بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحِجر، فذكرتما

---

(١) فشحذ له: أي أحد له، تقول شحذت السكين إذا أحددتها.

(٢) حرش بيننا: أفسد، والتحريش: الإفساد بين الناس وإغراء بعضهما ببعض.

(٣) حزرنا: قدر عددنا، تقول هم محذورة ألف، تريد أنهم يقدرون بألف.

أصحاب القليب من قريش، ثم قلت: لولا دينٌ عليّ وعيالٌ عندي لخرجتُ حتى أقتل محمدًا، فتحمَّل لك صفوان [بن أمية] بدينك وعيالك، على أن تقتلني له، والله حائلٌ بينك وبين ذلك»، قال عمير: أشهد أنك رسول الله، قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء، وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمرٌ لم يحضره إلا أنا وصفوان، فوالله إني لا أعلم ما أتاك به إلا الله، فالحمد لله الذي هداني للإسلام، وساقني هذا المساق. ثم شهد شهادة الحق. فقال رسول الله ﷺ «فقِّهوا أخاكم في دينه، وأقرئوه القرآن، وأطلقوا له أسيره»، ففعلوا[1].

وقف عمير وقفة صادقة مع نفسه يتذكر كيف استطاع أن يحمل سيفه لقتل النبي ﷺ الذي جعله الله سببًا لخروجه من الظلمات إلى النور.

وتمر تلك الذكريات المؤلمة وهو يتمنى أن يقدِّم شيئًا لدين الله ليمحو تلك الصفحات السوداء التي امتلأت بها صحيفته من عداوته للإسلام وأهله.

ثم هو أيضًا جلس يفكر في عظمة هذا الدين!!!

وكيف أنه منذ ساعات جاء يحمل سيفه يريد قتل الحبيب ﷺ، وما إن أعلن إسلامه لله ـ جل وعلا ـ أصبح أخًا لكل هؤلاء الصحب الكرام يحتل مكانًا عظيمًا في قلوبهم.

أي سماحة تلك التي جاء بها الإسلام؟!.. وأي دين هذا الذي يحوِّل تلك العداوة في لحظة واحدة إلى محبة صادقة لا يشوبها شيء من الكذب أو النفاق؟! إنه دين عظيم.... إنه هو الدين الحق وما سواه فهو باطل.

وتحولت تلك الخواطر فجأة إلى واقعٍ عملي.. فلقد أحس عمير بأنه لابد أن يقوم وينفض غبار الغفلة ويحمل أمانة هذا الدين ويدعو الدنيا كلها إليه.

قال: يا رسول الله، إني كنت جاهدًا على إطفاء نور الله، شديد الأذى لمن كان على دين الله ـ عز وجل ـ وأحب أن تأذن لي، فأقدم مكة، فأدعوهم إلى الله تعالى، وإلى رسوله ﷺ وإلى الإسلام، لعل الله يهديهم، وإلا آذيتهم في دينهم كما كنت أُوذي أصحابك في دينهم، قال: فأذن له رسول الله ﷺ فلحق بمكة. وكان صفوان بن أُميةَ ـ حين خرج عُمير بن وهب ـ يقول: أبشروا بوقعة تأتيكم الآن في أيام، تُنسيكم وقعة بدر، وكان صفوان يسأل عن الرُّكبان، حتى قدم راكبٌ فأخبره عن إسلامه، فحلف أن لا

(١) السيرة لابن هشام (٢/ ٢٦٦ ـ ٢٦٧).

يكلمه أبدًا، ولا ينفعه بنفعٍ أبدًا.

فلما قدم عمير مكة أقام بها يدعو إلى الإسلام، ويُؤذى من خالفه أذى شديدًا، فأسلم على يديه ناسٌ كثير[(١)].

واكتملت السعادة في قلبه

لم ينسَ عمير صديقه الذي دعاه لقتل النبي ﷺ «صفوان بن أمية» فبعد أن لامس الإيمان شغاف قلب عمير أراد الخير لصفوان فذهب يدعوه إلى الإسلام لتكتمل فرحته بإسلامه.

ففر صفوان عامدًا للبحر، وأقبل عمير بن وهب، إلى رسول الله، فسأله أمانًا لصفوان، وقال: قد هرب، وأخشى أن يهلك، وإنك قد أمَّنت الأحمر والأسود. قال: «أدرك ابن عمك فهو آمن»[(٢)].

فبعث إليه رسول الله ﷺ ابن عمه بردائه أمانًا لصفوان، ودعاه إلى الإسلام وأن يقدم، فإن رضي أمرًا، وإلا سيَّره شهرين.

فلما قدم على النبي ﷺ ناداه على رؤوس الناس: يا محمد، هذا جاءني بردائك، ودعوتني إلى القدوم عليك، فإن رضيت، وإلا سيرتني شهرين. فقال: «انزل أبا وهب» فقال: لا والله حتى تبين لي. قال: لك تسيير أربعة أشهر.

فخرج رسول الله ﷺ قبل هوازن بحنين؛ فأرسل إلى صفوان يستعيره أداةً وسلاحًا كان عنده. فقال: طوعًا أو كرهًا؟ قال: «لا، بل طوعًا».

ثمَّ خرج معه كافرًا، فشهد حُنينًا والطائف كافرًا، وامرأته مُسلمةٌ؛ فلم يُفرِّق بينهما حتى أسلم، واستقرت عنده بذلك النكاح[(٣)].

---

(١) قال السيوطي في الخصائص الكبرى (١/ ٣٤٤): أخرجه الطبراني وأبو نعيم من طريق أبي عمران الجوني عن أنس موصولاً بسند صحيح ـ وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ٢٨٦ ـ ٢٨٧) رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

(٢) تهذيب ابن عساكر (٦/ ٤٣٢) نقلاً من السير (٢/ ٥٦٥ ـ ٥٦٦).

(٣) أخرجه مالك (٢/ ٧٥ ـ ٧٦) في النكاح: باب نكاح المشرك إذا أسلمت زوجته قبله، وهو من بلاغات مالك التي لا يعلم اتصاله من وجه صحيح، قال ابن عبد البر: وهو حديث مشهور معلوم عند أهل السير، وابن شهاب إمام أهل السير، وكذلك الشعبي.

فاكتملت سعادة عمير بإسلام صفوان ليكون أخًا له في الإسلام كما كان صديقًا له في الجاهلية.

واستمر عمير في تلك المسيرة العطرة يدعو إلى الله ولا يفتر أبدًا لأنه يعلم أن هؤلاء جميعًا سيكونون في ميزان حسناته يوم القيامة.

وبعد حياة طويلة مليئة بالبذل والعطاء والتضحية في سبيل الله والدعوة إلى الله نام (عمير) على فراش الموت وفاضت روحه إلى بارئها ـ جل وعلا ـ ليلحق بالحبيب ﷺ في جنات النعيم.

فرضي الله عن عمير وعن صفوان وعن سائر الصحابة أجمعين

❊ ❊ ❊



حذيفة بن اليمان

صاحب سر رسول الله ﷺ ورفيقه فى الجنة

وها نحن اليوم على موعد مع صاحب سر رسول الله ﷺ... مع أعلم الناس بالفتن إلى يوم القيامة (بعد رسول الله ﷺ)... مع الرجل الذى كان سببًا فى جمع الناس على مصحف واحد... بل إننا على موعد مع الرجل الذى أخبره الحبيب ﷺ بأنه سيكون رفيقًا له فى الجنة.

إننا على موعد مع حذيفة بن اليمان.

إننى أشعر وأنا أكتب تلك السطور عن هذا الصحابى الجليل وكأن الكون كله ينظر ويتأمل ويقول: كيف نستطيع أن نترجم عن هذا الصحابى ترجمة تليق بقدره ومكانته.

أيها المسلمون: أعيرونى القلوب قبل الأسماع لتعلموا كيف استطاع رجل من أصحاب النبى ﷺ أن يقدِّم لدين الله ما لا يستطيع جيلٌ بكل طاقاته وإمكانياته أن يقدِّم نصف ما قدَّم. ولست مبالغًا فى ذلك فهو واحدٌ ممن تربَّوا بين يدى الحبيب ﷺ الذى ربَّاه الله ـ جل وعلا ـ وصنعه على عينه ليربِّى به الأمم والأجيال عبر العصور والأزمان.

إنه حذيفة بن اليمان من نجباء أصحاب محمد ﷺ وهو صاحب السر[1].

وكان والد حذيفة مكِّى من «بنى عبس».

وكان قد أصاب دمًا فى قومه، فهرب إلى المدينة، وحالف بنى عبد الأشهل، فسمَّاه قومه «اليمان» لحلفه لليمانية، وهم الأنصار[2].

* ثم تزوج اليمان امرأة هى الرَّباب بنت كعب الأشهليّة، فولدتْ له: حُذيفة،

---

(١) أى: صاحب سر النبى ﷺ الذى لا يعلمه أحد غيره، والمراد بالسر: ما أعلمه به النبى ﷺ من أحوال المنافقين. انظر البخارى (٧/ ٧١ ـ ٧٣) فى المناقب: باب مناقب عمار وحذيفة ـ رضى الله عنهما ـ والمسند (٦/ ٤٤٩).

(٢) المستدرك (٣/ ٣٣٠) والإصابة (٢/ ٢٢٣) وتاريخ الإسلام للذهبى (٢/ ١٥٢).

وسَعْدًا، وصفوانَ، ومُدلجًا، وليلى، وقد أسلمت الرَّبابُ، وبايعتْ رسولَ الله ﷺ، وكان لليمان أيضًا ابنتان أخريان هما: فاطمة، وأمّ سلمَة.

رحلة إلى الإيمان الحقيقي

* أطلَّ الإسلامُ بنوره على جزيرة العرب، وانتشر بإشعاعه وتألّقه في حنايا النفوس، ورأى الناسُ في الدِّين مَثابةً لهم، ومَلاذًا آمنًا، فأسرعَ اليمانُ ونفرٌ منْ قومه إلى مكَّةَ، وأعلنوا إسلامهم أمامَ رسول الله ﷺ، وعادَ اليمانُ إلى المدينةِ وقد أسلم أهلُه وأولادُه جميعًا، ووجدوا في رسول الله ﷺ القدوة الحسنة في مناحي حياتهم، والبلسم مما كانوا يعانون منه.

* نشأ حُذيفة في بيت مسلم، ثمَّ رحل بصحبة والده إلى مكةَ المكرمة، وهنالك التقتْ يمينُ رسولِ الله ﷺ بيمَين حُذيفة، حيثُ أعلنَ إسلامه، وسَرَتْ في نفسه موجةٌ منَ الحبِّ والإكبار لرسول الله ﷺ الذي خيَّره بين الهجرة والنُّصرة، فاختار حُذيفة النُّصرة، وعاد إلى المدينةِ المنوَّرة[١].

ولذلك قال له الحبيب ﷺ: «إن شئت كنت من المهاجرين وإن شئت كنت من الأنصار فاختر أحب الأمرين إلى نفسك» فقال حذيفة ـ رضي الله عنه ـ «بل أنا أنصاريٌ يا رسول الله ﷺ».

ولما أذن الله لنبيه ﷺ بالهجرة فرح حذيفة فرحًا شديدًا ولازم النبي ﷺ ملازمة الحبيب لحبيبه لينهل من هذا النبع الصافي ويأخذ من هديه وسمته وأخلاقه.

ولقد أحبَّه النبي ﷺ حبًا جمًا وكان النبي ﷺ بنظرة واحدة إلى أي رجلٍ يعلم صفاته وإمكاناته ومزاياه من أول وهلة... فأحسَّ النبي ﷺ أن حذيفة يملك ذكاءً يندر وجوده وسرعة بديهة تجعله يعالج أعتى المواقف والأزمات بيُسر وسهولة وهو في الوقت ذاته يؤتمن على أخطر الأسرار ولا يذيعها ولو انطبقت السماوات على الأرض.

وكان الحبيب ﷺ يضع الرجل المناسب في المكان المناسب ويستخدم طاقات أصحابه فيما يخدم الدين على أعلى مستوى.

(١) فرسان من عصر النبوة / أحمد خليل جمعة (ص:٤٠).

وكانت أكبر مشكلة تواجه المسلمين فى المدينة هى وجود المنافقين[1] من اليهود وأشياعهم[2]، وما يحيكونه للنبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأصحابه من مكائد ودسائس ومؤمرات.

فأفضى[3] النبى ـ صلوات الله عليه ـ لحذيفة بن اليمان بأسماء المنافقين ـ وهو سرٌّ لم يُطلع عليه أحداً من أصحابه ـ وعهد إليه برصد حركاتهم، وتتبع نشاطهم، ودرءِ خطرهم[4] عن الإسلام والمسلمين...

ومنذ ذلك اليوم دُعى حذيفة بن اليمان «بصاحب سر رسول الله ﷺ »[5].

فعن إبراهيم قال: ذهب علقمة إلى الشام فأتى المسجد فصلى ركعتين فقال: اللهم ارزقنى جليسًا فقعد إلى أبى الدرداء فقال: ممن أنت؟ قال: من أهل الكوفة قال: أليس فيكم صاحب السر الذى كان لا يعلمه غيره ـ يعنى حذيفة ـ...»[6].

حتى كان أمير المؤمنين عمر ـ رضى الله عنه ـ وهو الملهمُ الفَطِنُ الأريب، يستدلُّ برأى حذيفة، وببصيرته فى اختيار الرجال ومعرفتهم.

ولقد أُوتى «حذيفة» من الحصافة ما جعله يدرك أن الخير فى هذه الحياة واضح لمن يريده.. وإنما الشر هو الذى يتنكَّر ويتخفى، ومن ثم يجب على الأريب أن يُعنى بدراسة الشرِّ فى مآتيه، ومظانه[7]. وذلك من باب قول القائل:

عرفت الشر لا للشر ولكن لتوقيه ... ومن لا يعرف الشر من الخير يقع فيه

أعلم الناس بالفتن إلى قيام الساعة

ولو أردنا أن نعرف قدر هذا الرجل العظيم فما علينا إلا أن نتدبر هـذا الحوار الذى دار بينه وبين رسول الله ﷺ :

---

(١) المنافق: هو منْ ستر الكفر بقلبه وأظهر الإيمان بلسانه.
(٢) أشياعهم: أنصارهم.
(٣) أفضى النبي لحذيفة: أسر إليه وأخبره.
(٤) درء خطرهم: دفع خطرهم.
(٥) صور من حياة الصحابة (٣٠١ ـ ٣٠٢) بتصرف.
(٦) أخرجه البخارى (٦٢٧٨) والنسائى فى الفضائل (١٩٤) وأحمد (٦/ ٤٤٩ ـ ٤٥١).
(٧) رجال حول الرسول/ خالد محمد خالد (ص: ٢٤٦).

عن حذيفة ـ رضي الله عنه ـ قال: «كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر، مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله: إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: نعم، قلت: وهل بعد هذا الشر من خير؟ قال: نعم، وفيه دَخَن، قلت: وما دَخنه؟ قال: قوم يهدون بغير هديي تعرف منهم وتنكر، قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: نعم، دُعاة إلى أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها: قلت: يا رسول الله صِفهم لنا، فقال: هم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا، قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم، قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: فاعتزل تلك الفِرق كلها ولو أن تعض بأصل شجرة، حتى يدركك الموت وأنت على ذلك»[1].

وعنه أيضاً أنه قال:والله إني لأعلم الناس بكل فتنة هي كائنة فيما بيني وبين الساعة[2].

وعنه أيضًا أنه قال: قام فينا رسول الله مقامًا، فحدثنا بما هو كائن إلى قيام الساعة، فحفظه من حفظه، ونسيه من نسيه[3].

قال الإمام الذهبي ـ رحمه الله ـ: قلتُ: قد كان ﷺ يُرتِّل كلامه ويفسره، فلعله قال في مجلسه ذلك ما يُكتب في جزء؛ فذكر أكبر الكوائن، ولو ذكر أكثر ما هو كائن في الوجود، لما تهيأ أن يقوله في سَنة، بل ولا في أعوام، ففكِّر في هذا[4].

عن زاذان: أن عليًا سُئل عن حذيفة، فقال: علم المنافقين، وسأل عن المعضلات؛ فإن تسألوه تجدوه بها عالمًا[5].

وهكذا عكف حذيفة ـ رضي الله عنه ـ على دراسة الشر والأشرار والنفاق والمنافقين لكي يحذر منهم، بل ويحذِّر الأمة من شرورهم.

(١) أخرجه البخاري (٦/ ٤٥٣ ـ ٤٥٤) علامات النبوة.

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٩١) الفتن ـ وأحمد (٥/ ٣٨٨، ٤٠٧).

(٣) أخرجه البخاري (١١/ ٤٣٣) القدر ـ ومسلم (٣٨٩١) (٢٣).

(٤) سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي (٢/ ٣٦٦).

(٥) قال الشيخ شعيب الأرنؤوط في تخريج السير: رجاله ثقات، وفي المستدرك (٣/ ٣٨١) من طريق الأعمش، عن عمرو بن مرة وإسماعيل، عن قيس قال: سُئل عليّ ـ رضي الله عنه ـ عن ابن مسعود، فقال: قرأ القرآن، ثم وقف عند شبهاته، فأحل حلاله، وحرم حرامه، وسئل عن عمار، فقال: مؤمن نسي، وإذا ذُكر ذكر، وسئل عن حذيفة، فقال: كان أعلم الناس بالمنافقين.

وعن أبي يحيى، قال: سأل رجل حذيفة، وأنا عنده، فقال: ما النفاق؟ قال: أن تتكلم بالإسلام ولا تعمل به(١).

وكان النبي ﷺ قد أسرَّ إلى حذيفة أسماء المنافقين، وضبط عنه الفتن الكائنة في الأمة(٢)... حتى كان أمير المؤمنين عمر وهو الملهم الفطن الأريب يستدل برأي حذيفة وببصيرته في اختيار الرجال ومعرفتهم.

بل وقد ناشده عمر عندما علم أن النبي ﷺ أسرَّ إليه بأسماء المنافقين فقال: أأنا من المنافقين؟ فقال: لا، ولا أزكي أحدًا بعدك(٣).

وظل حذيفة بن اليمان مؤتمنًا على أسرار المنافقين ما امتدت به الحياة، وظل الخلفاء يرجعون إليه في أمرهم، حتى إن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ كان إذا مات أحد المسلمين يسأل: أحضرَ حذيفة للصلاة عليه؟... فإن قالوا: نعم، صلى عليه، وإن قالوا: لا، شك فيه، وأمسك عن الصلاة عليه.

وقد سأله ذات مرة: أفي عُمالي أحدٌ من المنافقين؟ فقال: واحدٌ، فقال: دُلني عليه، فقال: لا أفعل.. قال حذيفة: لكنَّ عمر ما لبث أن عزله كأنما هُدي إليه... فلقد كان عمر يملك فراسة وشفافية يندر وجودها.

استغفار النبي ﷺ له ولأمه

وظل حذيفة ملازمًا للحبيب ﷺ لينهل من هذا النبع الصافي.

عن حذيفة بن اليمان قال: سألتني أمي: منذ متى عهدك بالنبي ﷺ ؟ فقلت: منذ كذا وكذا. فنالت مني وسبتني فقلت لها: دعيني فإني آتي النبي ﷺ فأصلي معه المغرب ولا أدعه حتى يستغفر لي ولك، فصليت معه المغرب فصلى إلى العشاء ثم انفتل وتبعته فعرض له عارض وأخذه وذهب فاتبعته فسمع صوتي فقال: «من هذا؟» فقلت: حذيفة. فقال: «مالك؟» فحدثته بالأمر فقال: «غفر الله لك ولأمك، أما رأيت العارض الذي عرض لي قبل؟» قلت: بلى، قال: «هو ملك من الملائكة لم يهبط إلى الأرض قط قبل هذه الليلة استأذن ربه أن يُسلِّم عليَّ وبشرني أن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة

---

(١) سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي (٢/ ٣٦٣).

(٢) انظر البخاري (١٣/ ٤٠، ٤١) في الفتن، ومسلم (١٤٤) والترمذي (٢٢٥٩).

(٣) نسبه في الكنز (١٣/ ٣٤٤) إلى رستة ـ نقلاً من السير (٢/ ٣٦٤) للذهبي.

وأن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة»[١].

ولقد كان حذيفة ـ رضى الله عنه ـ يخشى ربه فى السر والعلانية، وكان لا يحب أن يطّلع أحدٌ على عمله وكان يحب العزلة خوفًا على نفسه وعلى دينه من الفتن التى هو أعلم الناس بها بعد النبى ﷺ.

قال حذيفة ـ رضى الله عنه ـ: والله لوددت أن لى إنسانًا يكون فى مالى ثم أُغلق علىَّ بابًا فلا يدخل علىَّ أحد حتى ألحق بالله ـ عز وجل ـ.

وعن الأعمش قال: بكى حذيفة فى صلاته، فلما فرغ التفت فإذا رجل خلفه فقال: لا تُعلمن بهذا أحدًا[٢].

ما السبب فى تغيبه عن غزوة بدر

ولعل السؤال الذى يخطر على البال فى تلك اللحظة: ما السبب الذى جعل حذيفة ـ رضى الله عنه ـ يتغيب عن غزوة بدر؟.

ويتولى حذيفة بنفسه الجواب على هذا السؤال فيقول: ما منعنى أن أشهد بدرًا إلا أنى خرجت أنا وأبى، فأخذنا كفار قريش، فقالوا: إنكم تُريدون محمدًا! فقلنا: ما نريدُ إلا المدينة؛ فأخذوا العهد علينا: لننصرفن إلى المدينة ولا نقاتل معه. فأخبرنا النبى ﷺ. فقال: «نفى بعهدهم، ونستعين الله عليهم»[٣].

موقف يوم (أحد) زاده عند رسول الله ﷺ خيرًا

ولما جاء يوم أُحد وخاض المسلمون تلك الغزوة أمام مشركى قريش، وكان فى جند المسلمين (حذيفة) مع أبيه اليمان.. فأما حذيفة فقاتل قتال من يبحث عن الشهادة ويشتاق إليها، وأما أبوه فقد استُشهد يومئذ. قتله بعضُ الصحابة غلطًا، ولم يعرفه؛ لأن الجيش يختفون فى لأمة الحرب، ويسترون وجوههم؛ فإن لم يكن لهم علامة بيِّنة، وإلا ربما قتل الأخُ أخاه، ولا يشعر.

ولما شدُّوا على اليمان يومئذ بقى حذيفة يصيح: أبى! أبى! يا قوم! فراح خطأً.

(١) رواه النسائى فى فضائل الصحابة (١٩٣) والكبرى (٥/ ٨٠ ـ ٨١) وحسنه شعيب الأرنؤوط فى السير..
(٢) صفة الصفوة (١/ ٢٥٦).
(٣) أخرجه مسلم (١٧٧٨) الجهاد ـ المسند (٥/ ٣٩٥).

فتصدَّق حذيفة عليهم بديته[١].

وفى رواية: عن محمود بن لبيد، قال: لما خرج رسول الله ﷺ إلى أُحد، رُفعَ حُسيل ابن جابر، وهو اليمان أو حذيفة بن اليمان وثابت بن وقش، فى الآطام مع النساء والصبيان، فقال أحدهما لصاحبه، وهما شيخان كبيران: لا أبا لك، ما تنتظر؟ فوالله ما بقى لواحد منا من عمره إلا ظمء حمار[٢]، إنما نحن هامةٌ[٣] اليوم أو غد، أفلا نأخذ أسيافنا، ثم نلحق برسول الله ﷺ ، لَعل الله يرزقنا شهادة مع رسول الله ﷺ ؟ فأخذا أسيافهما ثم خرجا، حتى دخلا فى الناس، ولم يُعلم بهما، فأما ثابت بن وقش فقتله المشركون، وأما حُسيل بن جابر، فاختلف عليه أسيافُ المسلمين، فقتلوه ولا يعرفونه[٤]، فقال حذيفة: أبى، فقالوا: والله إن عرفناه ـ يعني: ما عرفناه ـ وصدَقوا. قال حذيفة: يغفرُ الله لكم وهو أرحم الراحمين، فأراد رسول الله ﷺ أن يَدِيَهُ ـ يعطيه الديّة ـ فتصدَّق حذيفة بديَّته على المسلمين؛ فزاده ذلك عند رسول الله ﷺ خيراً[٥].

يوم الخندق ومرافقة النبى ﷺ فى الجنة

* قصةُ حذيفةَ بن اليمانِ ـ رضى الله عنهما ـ بين حشود الأحزاب، وتخلّله جموعهم وصفوفهم بأمرِ رسولِ الله ﷺ يتعرّفُ أخبارهم، ويسبرُ أحوالهم، ويكشفُ

---

(١) أخرجه البخارى (٧/ ٢٧٩) وابن سعد (٢/ ٤٥).

(٢) ظمء الحمار: الظمء: مقدار ما يكون بين الشربتين وأقصر الإظماء ظمء الحمار؛ لأنه لا يصبر عن الماء لضُرب مثلاً بقرب الأجل.

(٣) الهامة: طائر يخرج من رأس القتيل إذا قُتل «فزعموا» أنه لا يزال يصيح اسقونى ـ اسقونى ـ اسقونى حتى يؤخذ بثأره فضربته العرب مثلاً للموت.

(٤) قيل إن الذى قتله خطأ هو عتبة بن مسعود أخو عبد الله بن مسعود، وعتبة هو أول من سمى المصحف مصحفًا.

(٥) ذكره ابن حجر فى الفتح (٧/ ٤٢٠) وقال ابن حجر فى الإصابة (١/ ٢٠٤) بعد ذكر الحديث تحت ترجمة ثابت بن وقش بن زغبة وقصة والد حذيفة فى ذلك فى الصحيح من حديث عائشة، ولكن ليس فيه ذكر ثابت.

وأخرجه البخارى فى صحيحه من كتاب «المغازى» باب «إذ همت طائفتان...» (٧/ح ٤٠٦٥/ فتح) من طريق هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة فى حديث أوله: لما كان يوم أُحد هزم المشركون، فصاح إبليس أى عباد الله أخراكم فرجعت أولاهم فاجتلدت هى وأخراهم فنظر حذيفة فإذا هو بأبيه اليمانى فقال: أى عباد الله أبى أبى فوالله ما احتجزوا عنه حتى قتلوه فقال حذيفة غفر الله لكم. قال عروة فما زالت فى حذيفة منه بقية صبر حتى لحق بالله. ا.هـ.

عن أسرارهم، وما نزلَ بهم منْ كوارث البلاء، وفوادح المحَن، وما تفعله بهم الرِّيح التى أرسلها الله عزَّ وجلَّ عليهم، وقاصفاتَ العوَاصف، مّما جعل مقامهم فى منازلهم من ميدانِ المعركة محالاً...، من أشهرِ قَصَصِ الفروسيّة والشّجاعة، ومنْ أسْيَر قَصَصِ المغازى، وأوسَعها تداولاً فى المصادر الوثيقةِ الموثوقة منْ مصادرَ حديثيّة وتأريخيّة وسيرة وما شَابه ذلك.

عن محمد بن كعب القرظى، قال: قال رجل من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان: يا أبا عبد الله، أرأيتم رسول الله ﷺ وصحبتموه؟ قال: نعم يا ابن أخى، قال: فكيف كنتم تصنعون؟ قال: والله لقد كنا نجهد، قال: فقال: والله لو أدركناه ما تركناه يمشى على الأرض ولحملناه على أعناقنا. قال: فقال حذيفة: يا ابن أخى، والله لقد رأيتُنا مع رسول الله ﷺ بالخندق، وصلى رسول الله ﷺ هويًا من الليل[1]، ثم التفت إلينا فقال: «مَنْ رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع» ـ يشرط له رسول الله ﷺ الرجعة ـ أسأل الله تعالى أن يكون رفيقى فى الجنة؟ فما قام رجل من القوم، من شدة الخوف، وشدة الجوع، وشدة البرد، فلما لم يقم أحد دعانى رسول الله فلم يكن لى بُدّ من القيامِ حين دعانى، فقال: «يا حذيفة، اذهب فادخل فى القوم، فانظر ماذا يصنعون، ولا تُحدثَنَّ شيئًا حتى تأتينا»، قال: فذهبت فدخلت فى القوم والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل، لا تُقرّ لهم قدراً ولا ناراً ولا بناء. فقام أبو سفيان، فقال: يا معشر قريش، لينظر امرؤ مَنْ جليسه؟ قال حذيفة: فأخذت بيد الرجل الذى كان إلى جنبى، فقلت: من أنت؟ قال: فلان ابن فلان.

ثم قال أبو سفيان: يا معشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار مُقام، لقد هلك الكُراع[2] والخُفّ، وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذى نكره، ولقينا من شدة الريح ما ترون، ما تطمئن لنا قدْر، ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا فإنى مرتحل، ثم قام إلى جَمله وهو معقول ـ مربوط ـ فجلس عليه، ثم ضربه، فوثب به على ثلاث، فوالله ما أُطلق عقاله إلا وهو قائم، ولولا عهد رسول الله ﷺ إلىَّ «أن لا تُحدث شيئًا حتى تأتينى»، ثم شئت، لقتلته بسهم.

(١) هويًا من الليل: قطعة منه.

(٢) الكراع: الخيل. والخف: الإبل.



قال حذيفة: فرجعتُ إلى رسول الله ﷺ وهو قائم يصلي في مرط[1] لبعض نسائه، مَرَاجِل.

قال ابن هشام: المراجل: ضرب من وشي اليمن.

فلما رآني أدخلني إلى رجليه، وطرح عليَّ طرف المرط. ثم رجع وسجد، وإني لفيه، فلما سلَّم أخبرتُه الخبر، وسمعت غطفان بم فعلت قريش، فانشمروا راجعين إلى بلادهم[2].

قال ابن إسحاق: ولما أصبح رسول الله ﷺ انصرف عن الخندق راجعًا إلى المدينة والمسلمون، ووضعوا السلاح[3].

وبهذا الموقف الذي وقفه (حذيفة) واستجابته لأمر رسول الله ﷺ أصبح واحدًا ممن فازوا برفقة الحبيب في الجنة.. ويا لها من بشرى لا توازيها الدنيا بكل ما فيها من زينة ومتاعٍ زائل.

وتمر الأيام الجميلة مسرعة إلى أن جاء اليوم الذي أظلمت فيه الدنيا كلها بموت النبي ﷺ... فحزن حذيفة عليه حزنًا كاد أن يمزق قلبه.

ولايته على المدائن

وبعد أن انتقل الحبيب ﷺ إلى جوار ربه ظل (حذيفة) على عهده عابدًا صائمًا قائمًا مجاهدًا في سبيل الله ـ جل وعلا ـ.

عن ابن سيرين قال: كان عمر بن الخطاب إذا بعث أميرًا كتب إليهم: إني قد بعثت إليكم فلانًا وأمرته بكذا وكذا، فاسمعوا له وأطيعوا.

فلما بعث حذيفة إلى المدائن كتب إليهم إني قد بعثت إليكم فلانًا فأطيعوه. فقالوا: هذا رجل له شأن. فركبوا ليتلقوه فلقوه على بغل تحته إكاف، وهو معترض عليه، رجلاً من جانب واحد. فلم يعرفوه فأجازوه.

---

(١) المرط: الكساء.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥/ ٣٩٢، ٣٩٣) وذكره ابن كثير في البداية (٤/ ١١٣) وأخرجه الحاكم (٣/ ٣١) وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

(٣) السيرة لابن هشام (٣/ ٢٠١ ـ ٢٠٢) بتصرف.

فلقيهم الناس فقالوا: أين الأمير؟ قالوا: هو الذى لقيتم. قال: فركضوا فى أثره، فأدركوه وفى يده رغيف وفى الأخرى عرق وهو يأكل. فسلموا عليه فنظر إلى عظيم منهم فناوله العرق والرغيف قال: فلما غفل ألقاه، وقال: أعطاه خادمه.

وفى رواية أخرى عن ابن سيرين: أن حذيفة كان راكبًا على حمار له إكاف، وبيده رغيف وعرق من لحم فقالوا: سلنا ما شئت. فقال: أسألكم طعامًا آكله وعلفًا لحمارى هذا ما دمت فيكم. فأقام ما شاء الله ثم كتب إليه عمر أن أقدم. فقدم فلما بلغ عمر قدومه كمن له على الطريق ـ اختبأ له ـ فى مكان لا يراه. فلما رآه على الحال التى خرج من عنده عليها أتاه فالتزمه ـ احتضنه ـ وقال: أنت أخى وأنا أخوك.

عن ابن سيرين قال: إن حذيفة لما قدم المدائن قَدِم على حمار له إكاف وبيده رغيف وعرق، وهو يأكل على الحمار[1].

وكان يكره أن يدخل عليه رجل ليُثنى عليه أو ليمدحه، بل كان يحب من يأتى إليه ويذكر له عيوبه ليُصلح من نفسه ما خفى عليه، ولذلك كان لا يكره شيئًا أكثر من الكذب والنفاق.

فعن عمارة بن عبد، عن حذيفة قال: إياكم ومواقف الفتن. قيل وما مواقف الفتن يا أبا عبد الله؟ قال: أبواب الأمراء، يدخل أحدكم على الأمير فيصدقه بالكذب ويقول ما ليس فيه[2].

صور مشرقة من جهاده فى الفتوحات الإسلامية

ولعل قليلاً من الناس من يعلم أن حذيفة بن اليمان ـ رضى الله عنه ـ كان من أصحاب السبق العظيم فى فتوحات العراق كلها.

ففى (همدان والرىّ والدينور) تم الفتح على يديه.

وفى معركة (نهاوند) كانت المعركة الكبرى، حيث احتشد الفُرس فى مائة ألف مقاتلٍ وخمسين ألفًا، والمسلمون فى ثلاثين ألفًا يقودهم الإيمان بالله والعقيدة الراسخة التى سكّبها الحبيب ﷺ فى قلوب أصحابه حتى كان الواحد منهم يقابل جيشًا بأكمله فلا

---

(١) صفة الصفوة (١/ ٢٥٥).

(٢) صفة الصفوة (١/ ٢٥٦).

يخاف ولا يخشى إلا الله وحده.

وكتب عمر كتابه فقال: «بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر أمير المؤمنين، إلى النعمان بن مقرن سلام عليك، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو، أما بعد فإنه قد بلغنى أن جموعًا من الأعاجم كثيرة قد جمعوا لكم بمدينة نهاوند، فإذا أتاك كتابى هذا فسر بأمر الله وبعون الله وبنصر الله بمن معك من المسلمين، ولا توطئهم وعرًا فتؤذيهم، ولا تمنعهم حقهم فتكفرهم، ولا تدخلهم غيضة[1]، فإن رجلاً من المسلمين أحب إلىّ من مائة ألف دينار، والسلام عليك. فسر فى وجهك ذلك حتى تأتى (ماه) فإنى قد كتبت إلى أهل الكوفة أن يوافوك بها، فإذا اجتمع إليك جنودك فسر إلى الفيرزان ومَن جمع معه من الأعاجم من أهل فارس وغيرهم، واستنصروا وأكثروا من لا حول ولا قوة إلا بالله».

وكتب عمر إلى نائب الكوفة ـ عبد الله بن عبد الله ـ أن يعيّن جيشًا ويبعثهم إلى نهاوند، وليكن الأمير عليهم حذيفة بن اليمان حتى ينتهى إلى النعمان بن مقرن، فإن قُتل النعمان فحذيفة، فإن قُتل فنعيم ابن مقرن. وولى السائب بن الأقرع قسم الغنائم. فسار حذيفة فى جيش كثيف نحو النعمان بن مقرن ليوافوه بماه، وسار مع حذيفة خلق كثير من أمراء العراق، وقد أرصد فى كل كورة ما يكفيها من المقاتلة، وجعل الحرس فى كل ناحية، واحتاطوا احتياطًا عظيمًا، ثم انتهوا إلى النعمان بن مقرن حيث اتعدوا، فدفع حذيفة بن اليمان إلى النعمان كتاب عمر وفيه الأمر له بما يعتمده فى هذه الوقعة، فكمل جيش المسلمين فى ثلاثين ألفًا من المقاتلة.

وتعبثت الفرس تعبئة عظيمة واصطفوا صفوفًا هائلة. فى عدد وعُدد لم ير مثله، وقد تغلغل كثير منهم بعضهم فى بعض وألقوا حسك الحديد وراء ظهورهم حتى لا يمكنهم الهرب ولا الفرار، ولا التحيز. ثم إن النعمان بن مقرن ـ رضى الله عنه ـ كبّر الأولى وهز الراية فتأهب الناس للحملة، ثم كبر الثانية وهز الراية فتأهبوا أيضًا، ثم كبّر الثالثة وحمل وحمل الناس على المشركين وجعلت راية النعمان تنقض على الفرس كانقضاض العقاب على الفريسة، حتى تصافحوا بالسيوف فاقتتلوا قتالاً لم يعهد مثله فى موقف من المواقف المتقدمة، ولا سمع السامعون بوقعة مثلها، قُتل من المشركين ما بين الزوال إلى الظلام من القتلى ما طبق وجه الأرض دمًا، بحيث إن الدواب كانت تطبع فيه، حتى قيل

(١) الغيضة: المكان الملتف الشجر.

إن الأمير النعمان بن مقرن زلق به حصانه فى ذلك الدم فوقع وجاءه سهم فى خاصرته فقتله، ولم يشعر به أحد سوى أخيه سويد، وقيل نعيم، وقيل غطاه بثوبه وأخفى موته ودفع الراية إلى حذيفة بن اليمان، فأقام حذيفة أخاه نعيمًا مكانه، وأمر بكتم موته حتى ينفصل الحال لئلا ينهزم الناس. فلما أظلم الليل انهزم المشركون مدبرين وتبعهم المسلمون وكان الكفار قد قرنوا منهم ثلاثين ألفًا بالسلاسل وحفروا حولهم خندقًا، فلما انهزموا وقعوا فى الخندق وفى تلك الأودية نحو مائة ألف وجعلوا يتساقطون فى أودية بلادهم، فهلك منهم بشر كثير نحو مائة ألف أو يزيدون، سوى من قُتل فى المعركة ولم يفلت منهم إلا الشريد[1]... فشارك حذيفة فى تلك المعركة الكبيرة وأخذ الراية بعد مقتل النعمان بن مقرن.

وهكذا انتهت المعركة بهزيمة ساحقة للفرس على أيدى الموحدين الذين امتلأت قلوبهم حبًا لله ولرسول الله ﷺ ولنُصرة دين الله.

حكمة وخبرة نادرة

إن حذيفة بن اليمان ـ رضى الله عنهما ـ كان عبقريًا فى حكمته حين تضمه صومعته، وعبقريًا فى فدائيته حين يقف على أرض القتال، وهو كذلك، العبقرى فى كل مهمة تُوكل إليه، ومشورة تُطلب منه.. فحين انتقل «سعد بن أبى وقاص» والمسلمون معه من المدائن إلى الكوفة، واستوطنوها.. وذلك بعد أن أنزل مُناخ المدائن بالعرب المسلمين أذىً بليغًا، مما جعل عمر يكتب لسعد كى يغادرها فورًا بعد أن يبحث عن أكثر البقاع مُلاءمة، فينتقل بالمسلمين إليها... يومئذ، مَن الذى وُكل إليه أمر اختيار البقعة والمكان..؟

إنه «حذيفة بن اليمان».. ذهب ومعه «سلمان بن زياد»، يرتادان للمسلمين المكان الملائم..

فلما بلغا أرض الكوفة، وكانت حصباء جرداء مرملة، شمَّ حذيفة عليها أنسام العافية، فقال لصاحبه: هنا المنزل إن شاء الله.

وهكذا خُططت الكوفة وأحالتها يدُ التعمير إلى مدينة عامرة.. وما كاد المسلمون

(١) البداية والنهاية للحافظ ابن كثير (٧/ ١١٠: ١١٣) بتصرف.

يتنقلون إليها، حتى شُفي سقيمهم، وقوي ضعيفهم، ونبضت بالعافية عروقهم...!! ـ بإذن الله ـ.

لقد كان «حذيفة» واسع الذكاء، متنوع الخبرة، وكان يقول للمسلمين دائمًا:

[ليس خياركم الذين يتركون الدنيا للآخرة.. ولا الذين يتركون الآخرة للدنيا.. ولكن الذين يأخذون من هذه.. ومن هذه][(١)].

حرصه على الاتباع

وفي الصحيح أنه قال: «يا معشر القراء، اسلكوا الطريق، فلئن سلكتموها لقد سبقتم سبقًا بعيدًا، ولئن أخذتم يمينًا وشمالاً لقد ضللتم ضلالاً بعيدًا...»، وفي رواية ابن المبارك: «فوالله لئن استقمتم لقد سبقتم سبقًا بعيدًا».

وعنه ـ رضي الله عنه ـ: «أخوف ما أخاف على الناس اثنتان: أن يؤثروا ما يرون على ما يعلمون، وأن يضلوا وهم لا يشعرون».

وعنه: «أنه أخذ حجرين، ووضع أحدهما على الآخر، ثم قال لأصحابه: هل ترون ما بين هذين الحجرين من النور؟ قالوا: يا أبا عبد الله، ما نرى بينهما من النور إلا قليلاً. قال: والذي نفسي بيده، لتظهرن البدع حتى لا يرى من الحق إلا قدر ما بين هذين الحجرين من النور، والله لتفشون البدع حتى إذا تُرك منها شيء قالوا: تُركت السنة».

وعنه أنه قال: «أول ما تفقدون من دينكم الأمانة، وآخر ما تفقدون الصلاة، ولتُنقضن عُرى الإسلام عروة عروة، وليطأن نساؤكم وهن حُيَّض، ولتسلكن طريق من كان قبلكم حذو القذة بالقذة، وحذو النعل بالنعل، لا تخطئن طريقهم، ولا تخطئ بكم، وحتى تبقى فرقتان من فرق كثيرة، تقول إحداهما: ما بال الصلوات الخمس، لقد ضل من كان قبلنا، إنما قال الله: ﴿أقمِ الصلاةَ طرفي النَّهار وزُلَفًا من الليل﴾ لا تصلون إلا ثلاثًا. وتقول الأخرى: إنما المؤمنون بالله كإيمان الملائكة، ما فيها كافر ولا منافق. حق على الله أن يحشرهما مع الدجال».

❊ ❊ ❊

(١) رجال حول الرسول ﷺ: (ص: ٢٥٥).



كان سببًا في جمع المسلمين على مصحف واحد

* وظلَّ حُذيفةُ ـ رضى الله عنه ـ شديدَ الاهتمامِ بالقرآن الكريم، حتى إنَّه كان السَّبب فى جَمْعِ المسلمين على مصحفٍ واحد، عندما لاحظ أنَّ الاختلافَ والفرقةَ قد بدأت تدبُّ بين صفوف المسلمين، حينما كان يغزو مع أهلِ العراق فى أرمينيةَ وأذربيجان، وذلك فى خلافة عثمانَ ـ رضى الله عنه ـ فسارعَ حتى قدمَ المدينة، وعرض على عثمانَ وجهةَ نظره، فسارعَ عثمانُ إلى ذلك، وجَمَعَ الصَّحابة، فاستقرَّ رأيهم على كتابةِ القرآن الكريم، ثمَّ أرسل منه نسخًا إلى الأمصار، وبذلك جمع النَّاس على مصحفٍ واحد.

* وبهذا التصرّف المحمود قَطَعَ عثمان دابر الفتنة، وحسم مادة الخلاف والاختلاف، وحصَّنَ القُرآنَ الكريم من أنْ يتطرّق إليه شيءٌ من التَّحريف، أو الاختلاف على مَرِّ العُصُور، وتعاقب الأزمان[1].

عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ: «أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان، وكان يُغازى أهل الشام فى فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم فى القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا فى الكتاب اختلافَ اليهود والنصارى. فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلى إلينا بالصحف ننسخها فى المصاحف ثم نردها إليك. فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فنسخوها فى المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم، ففعلوا. حتى إذا نسخوا الصحف فى المصاحف ردَّ عثمان الصحف إلى حفصة، فأرسل إلى كل أُفق بمصحفٍ مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن فى كل صحيفة أو مصحف أن يُحرق»[2].

* وهكذا سجَّل حذيفةُ بنُ اليمان ـ رضى الله عنه ـ أثرًا وضيئًا فى تاريخِ القُرآن الكريم، وسيظلُّ ماثلاً يرشحُ بالعبيرِ، إلى أنْ يرثَ اللهُ الأرضَ ومَنْ عليها.

* * *

(١) فرسان من عصر النبوة (ص:٤٨: ٤٩).

(٢) أخرجه البخارى (٤٩٨٧) كتاب فضائل القرآن.

فارس من فرسان الحكمة والبلاغة

* وحذيفةُ ـ رضى الله عنه ـ واحدٌ من فرسان الحكمة النَّابعة من الفيوضات الرَّبانية، والفتوحات الرَّحمانية، إذ إنَّ أقواله تسيلُ بالرِّقة والرحمة، والحَنَان، وتفوحُ بما يُعَطِّر المجالس، وتسكنُ فى القلوب، لأنَّها ممتزجةٌ برحيقِ الذِّكْر الحكيم، ومختلطةٌ بأنفاسِ النبوة الشَّريفة، من ذلك قوله الشَّهير فى أصناف القلوب:

القلوبُ أربعة: قلبٌ أغْلفُ[١]، فذلك قلبُ الكافر.

وقلبٌ مصفّحٌ[٢]، فذلك قلبُ المنافق.

وقلبٌ أجردُ فى سراج[٣]، فذاك قلبُ المؤمن.

وقلبٌ فيه نفاقٌ وإيمان، فمثل الإيمان كمثل شجرة يمدُّها ماءٌ طيّب.

ومثل النِّفاق مثل القرحة، يمدّها قيحٌ ودم، فأيّهما ما غلب عليه غلب[٤].

* ولنسمع إلى هذه الموازنة اللطيفة، والأدب الرَّائع، والنَّصيحة اللَّيِّنة فى قوله: إنَّ الحقَّ ثقيلٌ، وهو مع ثقله مرىءٌ، وإنَّ الباطل خفيفٌ، وهو مع خفّته وبىءٌ، وتَرْك الخطيئة أيسرُ وخيرٌ من طلب التوبة؛ وربَّ شهوة ساعة أورثت حزنًا طويلاً[٥].

وحان وقت الرحيل

وبعد حياة مليئة بالزهد والكفاح والبذل والتضحية نام رفيق النبى ﷺ فى الجنة على فراش الموت لتفيض روحه الطاهرة إلى ربها ـ عز وجل ـ الذى كتب الموت على الخلائق وهو الحى الذى لا يموت.

عن النزَّال بن سبرة، قال: قلت لأبى مسعود الأنصارى: ماذا قال حذيفة عند موته؟ قال: لما كان عند السحر، قال: أعوذ بالله من صباحٍ إلى النار. ثلاثًا. ثم قال: اشتروا لى ثوبين أبيضين؛ فإنهما لن يتركا علىَّ إلا قليلاً حتى أُبدل بهما خيرًا منهما، أو أُسلبهما

---

(١) «قلب أغلف»: لا يعى لعدم فهمه، كأنّه حُجب عن الفَهْم.

(٢) «قلب مصفح»: هو الذى له وَجْهان، يَلْقى أهلَ الكفر بوجه وأهلَ الإيمان بوجه.

(٣) «قلب أجرد فى سراج»: أى: ليس فيه غلٌّ ولا غشٌّ، فهو على أصل الفطْرة، فنُوّر الإيمان فيه يُزْهر.

(٤) حلية الأولياء (١/ ٢٧٦).

(٥) مختصر تاريخ دمشق (٦/ ٢٥٩).

سلبًا قبيحًا[١].

وعن زياد، مولى ابن عياش، قال: حدثنى من دخل على حذيفة فى مرضه الذى مات فيه فقال: لولا أنى أرى أن هذا اليوم آخر يوم وأول يوم من الآخرة لم أتكلم به، اللهم إنك تعلم أنى كنت أحب الفقر على الغنى، وأحب الذلة على العز، وأحب الموت على الحياة، حبيب جاء على فاقة لا أفلح من ندم[٢].

* ونزلت كوكبةٌ من الملائكة الكرام، وقَبضوا روحَ حذيفة ـ رضى الله عنه ـ وصَعدُوا بها إلى بارئها راضية مرضية؛ لتستقرَّ فى علّيين، وانتهتْ بوفاته حياة حافلة بالهجَرة، والجهاد، والفروسيَّة، والفُتوحات، والعلْم، والزُّهد، والحكمةَ، والفَضْل، وبحسبِ حذيفة أَن يُقرنَ اسمه باسم رسول الله ﷺ فيقال: صاحب سرِّ رسول الله ﷺ.

* توفى حذيفة سنة ست وثلاثين منَ الهجرة بعد عثمان بأربعينَ يوما[٣].

* وبعد؛ فما أجمل أنْ نختمَ سيرة حذيفة، بما افتتح به أبو نُعيم ترجمته إذ قال: العارفُ بالمحنِ وأحوال القلوب، والمشرفُ على الفتن والآفات والعيوب، سأل عن الشرّ فاتَّقاه، وتحَرى الخيرَ فاقتَناه، سكنَ عند الفَاقَة والعَدم، وركنَ إلى الإنابةِ والنَّدم، وسبق رتْقَ الأيام والأزمان، أبو عبد الله حُذيفة بن اليَمان.

* رضى الله عن فارسِ الأحزاب: حذيفة بن اليمان، وأوسع له فى الفراديس مَنْزلاً، ونَفَع المسلمين بسيرته العطِرة، وجَعَلهم يقتدون به فى العبادة، وحفْظ السرِّ والجهاد، وطَلَب العلم النافع[٤].

فرضى الله عن حذيفة وعن سائر الصحابة أجمعين

* * *

(١) المستدرك (٣/ ٣٨١) نقلاً من السير للإمام الذهبى (٢/ ٣٦٨).
(٢) صفة الصفوة (١/ ٢٥٦).
(٣) مختصر تاريخ دمشق (٦/ ٢٦٢).
(٤) فرسان من عصر النبوة (ص: ٥٤).

عمار بن ياسر

«إن الجنة لتشتاق إلى عمار»

«صبرا آل ياسر فإن موعدكم الجنة»

محمد رسول الله ﷺ

إننا اليوم على موعد مع قصة الصبر على البلاء.

إن الله سبحانه وتعالى جعل الصبر جوادًا لا يكبو، وصارمًا لا ينبو، وجُندًا لا يُهزم وحصنًا حصينًا لا يُثلم.

قال ﷺ: «ما أُعطي أحد عطاءً خيرًا وأوسع من الصبر»(١).

ولقد ذكر الله الصبر في القرآن في نحو من تسعين موضعًا فقال سبحانه:

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة:٢٤].

لذا قال الإمام ابن تيمية: بالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين.

وقال عز وجل: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر:١٠].

فوالله لو لم يكن في القرآن آية عن الصبر سوى هذه الآية لكانت كافية، فإن الذي سيُعطي هو الله سبحانه وتعالى.

ولقد جمع الله للصابرين أمورًا لم يجمعها لغيرهم، فقال: ﴿ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة:١٥٧](٢).

وها نحن نعيش بل ونتعايش من خلال تلك السطور مع قصة الصبر على البلاء.

إنها قصة تتكرر في كل يوم، بل في كل مكان وزمان.

إنه الصراع الدائم بين الإيمان والكفر الذي قال عنه الحق ـ جل وعلا ـ ﴿ وَلَا يَزَالُونَ

---

(١) متفق عليه عن أبي سعيد ـ صحيح الجامع (٥٨١٩).

(٢) كتاب (صدقوا ما عاهدوا) للمصنف (ص ٩٨ ـ ٩٩).

يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ﴾ [البقرة:٢١٧].

وقال تعالى: ﴿ ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء ﴾ [النساء:٨٩].

وقال تعالى: ﴿ وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ﴾ [البروج:٨].

فهيا بنا لنتعايش مع تلك القصة ولنقترب أكثر من هذا الصحابى الجليل الذى اشتاقت الجنة إليه... نعم ـ والله ـ لقد اشتاقت جنة الرحمن إلى هذا الصحابى الجليل.

إنه عمار بن ياسر ـ رضى الله عنهما ـ الإمام الكبير أبو اليقظان العنسىُّ المكىُّ مولى بنى مخزوم، أحدُ السابقينَ الأولين، والأعيان البدريين. وأمه: هى سُمية مولاة بنى مخزوم، من كبار الصحابيات وهى أول شهيدة فى الإسلام... وأول عنصر أبدأ به الحديث عن هذا الصحابى الجليل هو:

موعد مع السعادة

وتبدأ القصة عندما قدم ياسر ـ والد عمار ـ من اليمن مع أخويه الحارث ومالك إلى مكة ليبحثوا عن أخٍ لهم فقدوه منذ سنوات، ومن هذا الوقت وهم يطوفون فى البُلدان بحثًا عنه فانتهى بهم المطاف فى أرض مكة فبحثوا عنه فلم يجدوه فعاد (الحارث ومالك).

وأما (ياسر) فلم يعد لأنه أحسَّ بسعادة عجيبة ونشوة غريبة جعلته يؤثر البقاء فى مكة وهو لا يعلم أنه بذلك قد دخل التاريخ من أوسع أبوابه، بل وأشرفها.

وكان من عادة العرب أنه إذا دخل رجلٌ غريب إلى أى بلدة واستقر بها فلا بد أن يحالف سيداً من سادات القوم ليمنعه من أذى الناس وليستطيع أن يعيش حياة هادئة مطمئنة فى ذلك المكان.

فحالف (ياسر) (أبا حذيفة بن المغيرة المخزومى) فأحبَّه الرجل من أعماق قلبه لما رأى منه من نبيل الخصال وكريم الفعال ونفاسة معدنه، وأراد أن يتقرب منه أكثر من ذلك فزوّجه من أمةٍ له تُدعى «سمية بنت خِباط» فأنجبت له غلامًا مباركًا ألا وهو «عمار بن ياسر».

واكتملت الفرحة يوم أن أعتقه أبو حذيفة وحرَّره من العبودية.. ثم مات أبو حذيفة.

* * *

شمس الإسلام تشرق على أرض الجزيرة

وبعد قرون طويلة عاشتها البشرية فى ظلمات الشرك والجاهلية، وإذا بشمس الإسلام تشرق على أرض الجزيرة لتُخرج الناس من ظُلمات الجاهلية إلى أنوار التوحيد والإيمان ولتنقلهم من البؤس والشقاء إلى سعادة الدنيا والآخرة... إلى جنة الدنيا التى تثمر لهم بعد ذلك جنة الآخرة.

إنهم على موعد مع حياة جديدة.. بل إن صحّ القول ـ مع مولد جديد ـ وفى تلك الساعات يسمع عمّار ـ رضى الله عنه ـ عن تلك الرسالة المحمدية ـ على صاحبها الصلاة والسلام ـ فانفتح قلبه لنداء الإيمان، وذهب إلى دار الأرقم وأقدامه تسابق الريح وكأنه يسابق الزمن. فما إن وصل ورأى النبى ﷺ وسمع منه حتى كاد يطير من شدة الفرح.

نعم إن هذا الدين هو طوق النجاة للبشرية كلها.فما كان منه إلا أن بسط يده للحبيب ﷺ وقال بقلبه ولسانه: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ﷺ.

من أعظم البر بالوالدين

ولما لامس الإيمان شغاف قلب (عمار) ـ رضى الله عنه ـ عاد إلى أبويه يحمل لهما النور والخير والإيمان.. لقد عاد إليهما ومعه جنة الدنيا.

فما إن عرض عليهما الإسلام حتى استجابا فى التو واللحظة ما تلعثم واحد منهما ولا تلكأ.

وهذا والله هو أعظم البر بالوالدين.. أن يكون الولد سببًا فى دخولهما الجنة ونجاتهما من النار.

وانطلقت الأسرة الكريمة المباركة فى رحلتها إلى جنة الرحمن.. وعلى الرغم من أن الطريق صعب وشاق وطويل، لكن عاقبته محمودة وغالية.. ويكفى أن يضع المؤمن قدميه على أول الطريق ويستعين بالملك ـ جل وعلا ـ.

* * *

صبرًا آل ياسر فإن موعدكم الجنة

وما هى إلا ساعات معدودة حتى طار خبر إسلامهم إلى «بنى مخزوم» فاستشاطوا غضبًا.

وصبّوا على آل ياسر أشد العذاب.

فكانوا إذا حميت الظهيرة يأخذونهم إلى بطحاء مكة ويُلبسونهم دُروع الحديد، ويمنعون عنهم الماء ويُصهرونهم فى الشمس المحرقة ويصبون عليهم من جحيم العذاب ألوانًا؛ حتى إذا بلغ منهم الجهد مبلغًا أعادوا معهم الكرّة فى اليوم الذى يليه.

وكان هذا شأن كل من أظهر إسلامه بمكة، ولكن درجات العذاب كانت تتفاوت فيما بينهم.

عن عبد الله قال: أول من أظهر إسلامه سبعة: رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعمار، وأمه سُمية، وصهيبٌ، وبلال، والمقداد. فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمه، وأما أبو بكر، فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم، فألبسهم المشركون أدراع الحديد، وصفّدوهم فى الشمس، وما فيهم أحد إلا وقد واتاهم على ما أرادوا إلا بلال، فإنه هانت عليه نفسه فى الله، وهان على قومه، فأعطوه الولدانَ يطوفون به فى شعاب مكة وهو يقول: أحدٌ أحد[1].

وبينما هم على تلك الحالة من العذاب والتنكيل وإذا بالحبيب المصطفى ﷺ يمر عليهم ويقول لهم: «أبشروا آل عمار فإن موعدكم الجنة»[2].

الله أكبر... لقد هبّت رياح الجنة على قلوبهم فأطفأت نار العذاب فى لحظة واحدة.

وعن عمرو بن ميمون قال: عذّب المشركون عمارًا بالنار. فكان النبى ﷺ يمرُّ به، فيمر يده على رأسه، ويقول: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا﴾، على عمار كما كُنتِ على إبراهيم. تقتلك الفئةُ الباغية»[3].

---

(١) أخرجه أبو نعيم فى الحلية (١/ ١٤٩) والحاكم (٣/ ٢٨٤) وقال: صحيح الإسناد ولم يُخرجاه. وقال الذهبى: صحيح..

(٢) أخرجه ابن سعد فى الطبقات (٣/ ١٨٨) وقال مصطفى العدوى: صحيح لشواهده. أما قوله ﷺ: «صبرًا آل ياسر فإن موعدكم الجنة» فرواه الحاكم (٣/ ٣٨٣) وسكت عنه الحاكم والذهبى لأنه منقطع.

(٣) أخرجه ابن سعد فى الطبقات (٣/ ١/ ١٧٧) نقلاً من السير للذهبى (١/ ٤١٠).

وهنا بدأت نفوسهم تشعر بالراحة والطمأنينة.. وبدلاً من المعاناة التى كانوا يجدونها من أثر التعذيب أصبحوا يستعذبون العذاب فى سبيل الله ويحلمون بالجنة ليلاً ونهاراً.

وهكذا فإنه لابد أن نعلم أن الدين الذى رفع محمدٌ ﷺ لواءه، ليس حركة إصلاح عابرة وعارضة.. إنما هو نَهجُ حياة للبشرية المؤمنة.. ولابد للبشرية المؤمنة هذه أن ترث مع الدين تاريخه بكل بطولاته، وتضحياته، ومُخاطراته.

إن هذه التضحيات النبيلة الهائلة، هى «الخرسانة» التى تهبُ الدين والعقيدة ثباتًا لا يزول، وخلودًا لا يبلى..!!

إنها «العَبير» يملأ أفئدة المؤمنين ولاءً، وغبطة، وحُبوراً. وإنها «المنار» الذى يهدى الأجيال الوافدة إلى حقيقة الدين، وصدقه وعظمته..

وهكذا، لم يكن هناك بُدٌّ من أن يكون للإسلام تضحياته وضحاياه.

ولقد أضاء القرآن الكريم هذا المعنى للمسلمين فى أكثر من آية..

فهو يقول: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت:٢].

ويقول: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة:٢١٤].

أجل.. هكذا علّم القرآن حَمَلته وأبناءه أن التضحية جوهر الإيمان، وأن مقاومة التحديات الغاشمة الظالمة بالثبات وبالصبر وبالإصرار... إنما تُشكل أبهى فضائل الإيمان وأروعها...

ومن ثَم فإن دين الله هذا وهو يضع قواعده، ويُرسى دعائمه، ويُعطى مُثلَه، لابد له أن يدعم وجوده بالتضحية، ويُزكى نفسه بالفداء، مختاراً لهذه المهمة الجليلة نفراً من أبنائه وأوليائه وأبراره يكونون قُدوةً سامقة ومثلاً عاليًا للمؤمنين القادمين[١].

* * *

(١) رجال حول الرسول ﷺ (ص ٢٦٠ ـ ٢٦١) بتصرف.

أول شهيدة فى الإسلام

وبدأت المحنة تتحول إلى منحة ربانية بعد أن بشّرهم النبى ﷺ بالجنة، وهنا تقوم (أم عمار) سمية ـ رضى اللّه عنها ـ لتكتب بدمها سطورًا من النور على جبين التاريخ لتكون أول شهيدة فى الإسلام. وذلك عندما تعرّض لها الهالك أبو جهل ـ عليه من الله ما يستحقه ـ فطعنها فى موطن عفتها فقتلها.

واستشهد ياسر (والد عمار) ـ رضى الله عنه ـ تحت وطأة التعذيب.

فإن عادوا فعُد

فلما لم يبق سوى (عمار) ـ رضى الله عنه ـ اشتد الكفار عليه وأذاقوه من العذاب ألوانًا.

عن أبى عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر قال: أخذ المشركون عمارًا، فلم يتركوه حتى نال من رسول الله ﷺ، وذكر آلهتهم بخير، فلما أتى النبى ﷺ قال: ما وراءك؟ قال: شرٌّ يا رسول الله. والله ما تُركتُ حتى نلتُ منك، وذكرتُ آلهتهم بخير، قال: «فكيف تجدُ قلبك»؟ قال: مطمئنٌ بالإيمان. قال: «فإن عادوا فَعُدْ»(١).

وعن قتادة أن قول الله تعالى: ﴿إلا مَنْ أُكْرِهَ وقلبه مطمئنٌ بالإيمان﴾ نزلت فى عمار(٢).

الهجرة المباركة

وكتب الله النجاة لعمار ـ رضى الله عنه ـ ولأمثاله من المستضعفين عندما أذن النبى ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى المدينة.

وهاجر عمار ـ رضى الله عنه ـ فرارًا بدينه وهو الذى فقد أمه وأباه محتسبًا ذلك كله عند الله ـ عز وجل ـ.

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٣٥٧) وصححه ووافقه الذهبى.
(٢) قال الحافظ ابن حجر فى الإصابة، فى ترجمة عمار بن ياسر: واتفقوا على أنه نزلت فيه هذه الآية. وانظر ابن سعد (٣/ ١/ ١٧٩).

فلما وصل إلى «قباء» دعاهم لبناء مسجد ليقيموا فيه الصلاة فاستجابوا له.. وتم بناء المسجد.

فعن القاسم بن عبد الرحمن قال:أول من بنى مسجداً يصلَّى فيه عمار[1].

وهذا درس عظيم لكل مسلم ليتعلم أن البذل والعطاء للإسلام لابد أن يكون فى كل لحظة من عمره، بل فى أشد لحظات عمره وهى لحظات الابتلاء فى سبيل الله تعالى.

وعاش عمار ـ رضى الله عنه ـ مع إخوانه من الأنصار ـ رضى الله عنهم ـ فنسى كل العذاب الذى نزل بجسده وأحسَّ وكأنه بين أبويه لم يفقد واحداً منهما.. من كثرة ما يجد من رحمة الأنصار ورقّة قلوبهم.

ولما هاجر الحبيب ﷺ إلى المدينة تمت فرحة عمار ـ رضى الله عنه ـ بقدومه.. فكان ملازمًا للنبى ﷺ لا يفارقه أبداً.

وكان النبى ﷺ يحبه من أعماق قلبه ويقرّبه إليه دائمًا.

مناقبه وفضائله ـ رضى الله عنه ـ

وها هى جملة من مناقبه وفضائله ـ رضى الله عنه ـ.

عن (علىٍّ) قال: استأذن عمَّار على النبى ﷺ فقال: «من هذا؟» قال: عمار، قال: «مَرْحبًا بالطيب المُطيَّبِ»[2].

وعن أنس أن النبى ﷺ قال: «إن الجنة لتشتاق إلى ثلاثة: علىّ وعمّار وسلمان»[3].

الله أكبر... الجنة تشتاق إلى رجل... أى منقبة هذه وأى كرامة هذه... والله إن الكلمات كلها لتتوارى خجلاً وحياءً أمام تلك الكرامة.

وعن خالد بن الوليد قال: كان بينى وبين عمار كلام، فأغلظتُ له، فشكانى إلى رسول الله ﷺ ، فقال: «مَنْ عادى عماراً عاداه الله، ومَنْ أبغضَ عماراً أبغضهُ الله» فخرجت، فما شىء أحبَّ إلىَّ من رِضى عمار، فلقيته فرضى[4].

---

(١) أخرجه ابن سعد (٣/ ١/ ١٧٨) والحاكم (٣/ ٣٥٨).

(٢) أخرجه الترمذى (٣٧٩٩) والحاكم فى المستدرك (٣/ ٣٨٨) وصححه ووافقه الذهبى.

(٣) أخرجه الترمذى والحاكم عن أنس، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١٥٩٨).

(٤) قال الهيثمى فى المجمع (٩/ ٢٩٣): رواه أحمد والطبرانى ورجاله رجال الصحيح.

وقال ﷺ «اقتدوا باللذين من بعدى من أصحابى أبى بكر وعمر واهتدوا بهَدى عمّار وتمسّكوا بعهد ابن مسعود»(١).

وعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ﷺ «ما خُيِّر عمار بين أمرين إلا اختار أرشدهما»(٢).

وعن (علىّ) ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ «عمار مُلئ إيمانًا إلى مُشاشه»(٣).

وعن عكرمة قال: قال لى ابن عباس ولابنه علىّ: انطلقا إلى أبى سعيد فاسمعا من حديثه. فانطلقنا فإذا هو فى حائط يُصلحه فأخذ رداءه فاحتبى ثم أنشأ يحدثنا حتى أتى عَلَى ذكر بناء المسجد فقال: «كنا نحمل لبنةً لبنةً وعمارٌ لَبنتين لَبنتين فرآه النبى ﷺ فينفض التراب عنه ويقول: ويحَ عمار تقتلُه الفئةُ الباغيةُ يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار قال: يقول عمار: أعوذُ بالله من الفتن(٤).

عمّار أجير من الشيطان

عن علقمة قال: قدمت الشام فصليت ركعتين ثم قلت: اللهم يسِّر لى جليسًا صالحًا.

فأتيت قومًا فجلست إليهم. فإذا شيخ قد جاء حتى جلس إلى جنبى.

قلت: من هذا؟ قالوا: أبو الدرداء. فقلت: إنى دعوت الله أن ييسر لى جليسًا صالحًا فيسَّرك لى. قال: مِن أنت؟ قلت: من أهل الكوفة قال: أوَ ليس عندكم ابن أم عبد ـ ابن مسعود ـ صاحبُ النعلين والوساد والمطهرة؟ أفيكم الذى أجارهُ الله من الشيطان يعنى على لسان نبيه ﷺ(٥)؟ ـ يعنى عمار ـ أوَ ليس فيكم صاحبُ سرِّ النبى ﷺ الذى لا يعلم

(١) رواه الترمذى عن ابن مسعود والرويانى عن حذيفة، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١١٤٤).

(٢) رواه الترمذى (٣٧٩٩) وأحمد (٦/ ١١٣) وابن ماجه (١٤٦) ـ صحيح الجامع (٤١٠٢).

(٣) رواه أبو نعيم فى الحلية، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤١٠٣).

(٤) أخرجه البخارى (٤٤٧) وأحمد (٣/ ٩٠ ـ ٩١).

(٥) والمراد به عمار، وانظر رواية البخارى (٣٢٨٧)، (٦٢٧٨)، وأحمد (٦/ ٤٤٩) وقد أورد الحافظ فى هذا المعنى أقوالاً منها: أن المراد بقوله (على لسان نبيه) قول النبى ﷺ: «ويح عمار يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار» ويحتمل أن يكون المراد بذلك حديث عائشة مرفوعًا: «ما خير عمار بين أمرين إلا اختار أرشدهما» فكونه يختار أرشد الأمرين دائمًا يقتضى أنه قد أجير من الشيطان الذى من شأنه الأمر بالغى قال: ويحتمل أن تكون الإشارة بالإجارة المذكورة إلى ثباته على الإيمان لما أكرهه المشركون على النطق بكلمة الكفر.

أحدٌ غيره؟ ثم قال: كيف يقرأ عبدُ الله ﴿والليل إذا يغشى﴾ فقرأتُ عليه: ﴿والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى وما خلق الذكر والأنثى﴾ قال: والله لقد أقرأنيها رسول الله ﷺ من فيه إلى فيَّ(١).

وكان من نفيس كلام (عمار) ـ رضى الله عنه ـ: ثلاثة من كُنَّ فيه، فقد استكمل الإيمان، أو قال: من كمال الإيمان: الإنفاقُ من الإقتار، والإنصافُ من نفسك، وبذلُ السلام للعالم(٢).

صفحات مشرقة من جهاده فى سبيل الله

ولقد شهد عمار ـ رضى الله عنه ـ بدراً مع رسول الله ﷺ وكان المسلم الوحيد الذى خاض المعركة وأبواه مؤمنان شهيدان.

وشهد مع النبى ﷺ كل المشاهد.

ولما توفى رسول الله ﷺ ولحق بالرفيق الأعلى ارتدت أكثر قبائل العرب عن الإسلام، فكان لعمار ـ رضى الله عنه ـ موقفًا عظيمًا فى يوم «اليمامة».

قال ابن عمر: رأيت عماراً يوم اليمامة على صخرةٍ، وقد أشرف يصيح: يا معشر المسلمين، أمن الجنة تفرُّون؟! أنا عمار بن ياسر، هلمُّوا إلىَّ. وأنا أنظر إلى أُذُنه قد قُطعت فهى تُذبذب، وهو يقاتل أشدَّ القتال(٣).

ولايته على الكوفة

وتدبروا معى هذه الصفحة الناصعة من ولايته ـ رضى الله عنه ـ.

ولقد ضرب عمار ـ رضى الله عنه ـ فى ولايته المثل الأعلى فى الرحمة والعدل والتواضع والإنصاف.

عن حارثة بن مضرب قال: قُرِئ علينا كتابُ عمر: أما بعد، فإنى بعثتُ إليكم عمارَ ابن ياسر أميراً، وابن مسعود معلمًا ووزيراً، وإنهما لمن النجباء من أصحاب محمد ﷺ من أهل بدر، فاسمعوا لهما وأطيعوا، واقتدوا بهما، وقد آثرتُكم بابن أمِّ عبد ـ ابن

(١) أخرجه البخارى (٣٧٤٢) والنسائى فى فضائل الصحابة (١٩٤).
(٢) علقه البخارى فى الإيمان، ووصله عبد الرزاق فى المصنف (١٩٤٣٩) وأحمد فى كتاب الإيمان.
(٣) أخرجه ابن سعد (٣/ ١/ ١٨١).

مسعود ـ على نفسي.

(رواه شريك) فقال: آثرتكم بهما على نفسي[١].

قال عبد الله بن أبي الهذيل: رأيت عمارًا اشترى قتًا بدرهم، وحمله على ظهره وهو أميرُ الكوفة[٢].

وهذا مثلٌ عظيم في التواضع.. بل تدبر معى هذا التواضع الذى يعجز القلم عن وصفه.

فعن طارق بن شهاب قال: إن أهل البصرة غزوا نهاوند، فأمدهم أهل الكوفة وعليهم عمار، فظفروا، فأراد أهل البصرة أن لا يقسموا لأهل الكوفة شيئًا. فقال رجل تميمي: أيها الأجدع! تُريد أن تشاركنا في غنائمنا؟ فقال عمار: خير أذنيَّ سببت، فإنها أُصيبت مع رسول الله ﷺ. قال: فكتب فى ذلك إلى عمر، فكتب عمر: إن الغنيمة لمن شهد الوقعة[٣].

وكان عمر ـ رضي الله عنه ـ كعادته يسأل الناس عن الولاة خشية أن يحيدوا عن العدل ويجور أحدهم فى حكمه.

فسأل (عمر) أهل الكوفة عن (عمار) فأثنوا عليه، وقالوا: والله ما أنت أمَّرته علينا، ولكن الله أمَّره، فقال عمر: اتقوا الله وقولوا كما يُقال، فوالله لأنا أمَّرتُه عليكم، فإن كان صوابًا، فمن قِبَل الله، وإن كان خطأ إنه من قِبلي.

وعن الحارث بن سويد: أن رجلاً من الكوفة وشى بعمار إلى عمر، فقال له عمار: إن كنت كاذبًا، فأكثر الله مالك وولدك، وجعلك موطأ العقبين.

ويقال: سعوا بعمّار إلى عمر فى أشياء كرهها له، فعزله، ولم يُؤنبه.

وعن الشعبي، قال عمر لعمار: أساءك عزلُنا إياك؟ قال: لئن قلتَ ذاك لقد ساءني حين استعملتني وساءني حين عزلتني[٤].

(١) أخرجه ابن سعد (٣/ ١/ ١٨٢) نقلاً من السير للذهبي (١/ ٤٢٢).

(٢) أخرجه ابن سعد (٣/ ١/ ١٨٢) والقت: الفصفصة وهي الرطبة من علف الدواب.

(٣) قال شعيب الأرنؤوط فى تخريج السير: إسناده صحيح: أخرجه ابن سعد (٣/ ١/ ١٨١ ـ ١٨٢) والبيهقي فى سننه (٩/ ٥٠).

(٤) سير أعلام النبلاء للذهبي (١/ ٤٢٣).

موقفه يوم صفّين (وساعة الرحيل)

ولما وقعت الفتنة بين (علي) و(معاوية) ـ رضي الله عنهما ـ كان عمار ـ رضي الله عنه ـ في صفّ (علي) ـ رضي الله عنه ـ.

وكان قد بلغ من العمر يومئذ ثلاثًا وتسعين سنة. وكان عمار بن ياسر قليل الكلام، طويل السكوت، وكان عامةُ قولِه : عائذٌ بالرحمن من فتنة، عائذ بالرحمن من فتنة، فعرضت له فتنة عظيمة(١).

وعن عمار بن ياسر أنه قال: وهو يسير إلى (صفين) إلى جنب الفرات: اللهم لو أعلم أنه أرضَى لك عني أن أرمي بنفسي من هذا الجبل فأتردى فأسقط فعلت، ولو أعلم أنه أرضى لك عني أن ألقي نفسي في الماء فأُغرق نفسي فعلت، وإني لا أقاتل إلا أريد وجهك وأنا أرجو أن لا تخيِّبني وأنا أريد وجهك... يا لها من كلمات تُصدع الأفئدة وتفتت الجبال.

وعن أبي البختري قال: قال عمَّار يوم صفين: ائتوني بشربة لبن، قال: فشرب، ثم قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ آخر شربةٍ تشربها من الدنيا شربةُ لبنٍ» ثم تقدم فقُتل(٢).

وعن الزهري: عن أبيه، عمَّن حدثه: سمع عمارًا بصفِّين يقول: أزفت الجنان، وزُوِّجت الحور العين. اليوم نلقى حبيبنا محمدًا ﷺ (٣).

وقُتل عمار ـ رضي الله عنه ـ ونزفت دماؤه الشريفة التي لطالما امتزجت بُحب الله وحُب رسوله ﷺ ، ولطالما احترقت شوقًا لنُصرة دين الله ـ جل وعلا ـ.

قتله رجل اسمه ـ أبو الغادية ـ ويقال: قتله رجل آخر فالله أعلم.

ولما قُتل عمار، دخل عمرو بن حزم على عمرو بن العاص فقال: قُتل عمار. وقد سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «تقتله الفئةُ الباغية» فقام عمرو فزعًا إلى معاوية فقال: ما شأنك؟ قال: قُتلَ عمار. قال: قُتل عمار، فكان ماذا؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تقتله الفئة الباغية»، قال: أنحن قتلناه؟ وإنما قتله (عليٌّ) وأصحابه، جاؤوا به حتى ألقوه

---

(١) أخرجه ابن سعد (٣/ ١/ ١٨٣) وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٤٥).
(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٣١٩) وابن سعد (٣/ ١/ ١٨٤) والحاكم (٣/ ٣٨٩).
(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي (١/ ٤٢٥).

بين رماحنا، أو قال: بين سيوفنا(١).

وفي رواية : أنه لما أُخبر عمرو بن العاص بقتل عمار قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن قاتله وسالبه في النار»(٢).

قال الإمام الذهبي معلقًا على الفتنة التي حدثت بين (علي) و(معاوية) ـ رضي الله عنهما ـ: «...فسبيلنا الكفُّ والاستغفارُ للصحابة، ولا نحب ما شجر بينهم، ونعوذ بالله منه، ونتولى أمير المؤمنين عليًا»(٣).

أما (عمار) فقد حمله الإمام (عليّ) فوق صدره إلى حيث صلّى عليه والمسلمون معه.. ثم دفنه في ثيابه..

أجل ـ في ثيابه المُضمَّخة بدمه الزكيِّ الطهور.. فما في كُلِّ حرير الدنيا وديباجها ما يصلُح أن يكون كفنًا لشهيد جليل من طراز عمار.

ووقف المسلمون على قبره يعجبون..!! منذ ساعات كان (عمار) يُغرِّدُ بينهم فوق أرض المعركة... تملؤ نفسه غبطة الغريب المُضنى يُزفُّ إلى وطنه، وهو يصيح:[اليوم ألقى الأحبة، محمداً وصحبه]..!!!(٤)

وكيف لا يلقاهم وقد «اشتاقت الجنة إلى عمار».

فهنيئًا لك أيها الصحابي الجليل.. وهنيئًا لمن اكتحلت عيناه برؤيتك ورؤية أصحاب الحبيب ﷺ .. وهنيئًا ثم هنيئًا لمن اكتحلت عيناه وانشرح صدره برؤية الحبيب ﷺ .

وهكذا رحل عمار الذي اشتاقت الجنة إليه... رحل عن دنيا الناس ليجمع الله بينه وبين أبيه وأمه في جنته مع الحبيب محمد ﷺ .

ومازالت الصفحة مفتوحةً لنعيش مع صحابي آخر ممن بشرهم الحبيب ﷺ بالجنة.

فرضي الله عن عمار وعن سائر الصحابة أجمعين

* * *

---

(١) قال الأرنؤوط: إسناده صحيح، وأخرجه عبد الرزاق (٢٠٤٢٧)، ومن طريقه أخرجه أحمد (٤/ ١٩٩) وانظر مجمع الزوائد (٧/ ٢٤٢) (٩/ ٢٩٧).

(٢) قال الأرنؤوط: إسناده حسن: أخرجه أحمد (٤/ ١٩٨) وابن سعد (٣/ ١/ ١٨٦).

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي (٣/ ٣٩).

(٤) رجال حول الرسول ﷺ (ص ٢٧٩).

عكاشة بن محصن

يدخل الجنة بغير حساب.. يضيء وجهه كالقمر ليلة البدر

وها نحن نقترب شيئًا فشيئًا من واحدٍ من عمالقة الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ الذين حملوا أمانة الدين فوق أعناقهم.

إنه الرجل الذى لا يدخل الجنة فحسب!!! بل إنه يدخلها بغير حساب ولا عذاب.

فتعالوا بنا لنعيش قصته من أولها... فمرحبًا برياح الجنة.

بعد أن بُعث النبى ﷺ وأخذ يدعو إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة، وأخذت دعوة الإسلام تنتشر فى مكة وتعمل عملها فى أصحاب الأفئدة والضمائر الحية بدأت قريش تقف فى وجه الدعوة وقوف المعارض، وتدافع عن وثنيتها دفاع المستميت، وقرر المشركون محاربة الإسلام وإيذاء الداخلين فيه والتعرض لهم بألوان العذاب والنكال.

بيد أن هذه الحرب المستعرة جعلت بعض الشباب من ذوى العقول الواعية ينظرون إلى الإسلام نظرة صافية، خالية من شوائب الجاهلية ورواسبها، فكان بعضهم يقبل على الإسلام فى صفاء تام، ويعلن إسلامه وانضمامه إلى الدين الحنيف.

نبهت دعوة الإسلام أحد الشباب الذين عُرفوا بوفرة العقل وصدق الإحساس وصفاء السريرة، وحركت فى نفسه نوازع الخير والركون إلى الإسلام وترك الشرك، وألفَت الدعوة مكانًا خاليًا فى قلبه فتمكنت منه، وأشرقت نفسه بالحقيقة، وانطلق إلى رسول الله ﷺ يعلن إسلامه. ولم يكن هذا الشاب سوى «عكاشة بن محصن» حليف بنى عبد شمس.

وكان عكاشة معروفًا بجمال الطلعة وحُسن الهيئة والجرأة والإقدام وقد تلقَّى الأذى من قريش مع من تلقَّى من المؤمنين.

لكنه لم يزدد إلا إيمانًا وتسليمًا، وإصرارًا على التمسك بدينه، ولم تفتر قريش فى الحملة على الإسلام، ورجاله لحظة واحدة، فلقد ضيقوا عليهم سُبل العيش، وحاولوا أن

يفتنوهم عن دينهم[١].

فروا إلى الله

ولما رأى الحبيب ﷺ ما ينزل بأصحابه من العذاب والأذى والبلاء أشار عليهم بالهجرة إلى المدينة.. فكان (عكاشة) من بين من هاجر إلى يثرب (المدينة) وما إن وصل إلى هناك حتى استنشق نسيم الأنس والراحة والأمان لأول مرة منذ أن أسلم.

وعاش في المدينة أجمل وأبهى أيام عمره في رحاب إخوانه من الأنصار الذين بذلوا لإخوانهم المال والنفس والنفيس ابتغاء وجه الله تعالى وطمعًا فيما عنده من الرحمة والرضوان والجنة..

جهاده في سبيل الله

وبعد أن التقط أنفاسه هناك بين إخوانه كان في أشد شوقه لخدمة هذا الدين العظيم والذود عن حياضه.

فاستعمله النبي ﷺ على سرية (الغمر) في أربعين رجلاً، فذهبوا إلى الغمر فعلم القوم بمجيئه فهربوا ونزل على مياههم وأرسل عيونه فعرفوا مكان ماشيتهم فغزاها فوجد مائتي بعيرٍ فساقها إلى المدينة[٢].

ولقد شهد بدرًا وأبلى يومئذ بلاءً حسنًا وشهد أُحُدًا والخندق وما بعدها[٣].

لقد أسلم بطلنا مبكرًا ولازم الحبيب ﷺ ليقتبس من علمه وهديه وأخلاقه.. وجعل حياته كلها لله ولخدمة دين الله ـ جل وعلا ـ حتى بشَّره النبي ﷺ بأنه يدخل الجنة بغير حساب ولا عذاب فأصبح منذ تلك اللحظة يبحث عن الشهادة في مظانها ليفوز بتلك البشرى العظيمة التي خرجت من فم الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ.

سعادة لا شقاء بعدها أبدًا

يا لها من كرامة لا توازيها الدنيا بكل زخارفها الفانية ونعيمها الزائل.

إنه رجل يأتي يوم القيامة فيدخل مع الحبيب ﷺ الجنة بغير حساب ولا عذاب!!!

(١) رجال مبشرون بالجنة (ص:١٠٥ ـ ١٠٦).
(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي (١/ ٣٠٧).
(٣) سير أعلام النبلاء (١/ ٣٠٧).

فبينما الناس وقوفٌ فى أرض المحشر خمسين ألف سنة بلا طعام ولا شراب ولا ظل والشمس فوق الرؤوس، وقد حُشر الناس حُفاة عُراة غُرلاً، وإذا بالحق ـ جل جلاله ـ يأمر حبيبه محمد ﷺ أن يدخل الجنة ومعه تلك النخبة السعيدة التى تدخل الجنة بغير حساب، والذين لم نعرف منهم سوى (عكاشة بن محصن).

فهنيئًا له والله، فقد قال ﷺ: «من نُوقش الحساب عُذِّب»(١).

وفى رواية: «من نُوقش المحاسبة هلك»(٢).

فلو علم الإنسان أنه سيدخل الجنة، ولكن بعد الحساب بين يدى الله ـ جل وعلا ـ لكان ذلك عذابًا شديدًا، فما ظنك بمن لا يدرى هل هو من أهل الجنة أم من أهل النار؟.

أسأل الله ـ جل وعلا ـ أن يجمعنى وإياكم فى جنته بغير حساب ولا عذاب.

تدبروا واسألوا الله من فضله

والآن أترككم مع تلك الأحاديث التى خرجت من فم الصادق المصدوق ﷺ لتخبر عن هؤلاء الذين يدخلون الجنة بغير حساب... فتدبر واسأل الله من فضله بأن تكون منهم.

عن محمد يعنى ابن سيرين قال: حدثنى عمران قال: قال نبى الله ﷺ: «يدخل الجنة من أمتى سبعون ألفًا بغير حساب» قالوا:ومن هم يا رسول الله؟ قال: «هم الذين لا يكتوون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون» فقام عكاشةُ فقال: ادعُ الله أن يجعلنى منهم قال: «أنت منهم» قال: فقام رجلٌ فقال: يا نبى الله ادعُ الله أن يجعلنى منهم قال: «سبقك بها عُكَّاشة»(٣).

وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «يدخلُ الجنة من أمتى زُمرةٌ هم سبعون ألفًا تُضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر. وقال أبو هريرة: فقام عُكاشة بن محصن الأسدى يرفع نمرةً عليه فقال: يا رسول الله ادعُ الله أن يجعلنى منهم قال: اللهم اجعله منهم، ثم قام رجلٌ من الأنصار فقال: يا رسول الله ادع

(١) متفق عليه عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ صحيح الجامع (٦٥٧٨).
(٢) رواه الطبرانى فى الكبير عن ابن الزبير، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٥٧٩).
(٣) أخرجه مسلم (٢١٨).

الله أن يجعلنى منهم فقال: سبقك بها عكَّاشة»(١).

وقال سعيد بن جبير: حدَّثنا ابن عباس، أن رسول الله ﷺ قال: «عُرِضَت علىَّ الأُمم(٢)، فرأيت النبى يمرُّ ومعه الرَّهط، والنبى يمرّ ومعه الثلاثة والاثنان، والنبى يمرّ ومعه الرجل الواحد، والنبى يمرّ وليس معه أحد، إلى أن رُفِعَ لى سوادٌ عظيم فقلت: هذه أُمَّتى. قيل: ليس بأُمتك، هذا موسى وقومه. إلى أن رفع لى سواد عظيم. قد سدَّ الأفق، فقيل: هذه أُمّتك، ومعهم سبعون ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب». قال: ثم دخل النبى ﷺ فخضنا فى أولئك السبعين، وجعلنا نقول: من الَّذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب؟ أهم الذين صحبوا النبى ﷺ؟ أم هم الذين وُلدوا فى الإسلام ولم يُشركوا بالله شيئًا؟

إلى أن خرج النبى ﷺ فقال: «ما هذا الذى كنتم تخوضون فيه؟». قال: فأخبروه، فقال: «هم الذين لا يَسْتَرْقُون ولا يكتوون، وعلى ربِّهم يتوكَّلُون». فقام عكاشة بن محصن فقال: أنا منهم يا رسول الله؟ قال: «أنت منهم». وقام رجل آخر من المهاجرين فقال: أنا منهم يا رسول الله؟ قال: «سبقك بها عكاشة»(٣).

نعمة التوكل

التوكل هو صدق اعتماد القلب على الله فى استجلاب المصالح ودفع المضار فى أمور الدنيا والآخرة.

ـ ووالله إن الأمة الإسلامية قد ذلت بعد عزة وافتقرت بعد غنى، وضعفت بعد قوة وجهلت بعد علم لأنها تركت التوكل على ربها، وذهبت تلتمس العزة عند الشرق الملحد تارة وعند الغرب الكافر تارة ونسيت أنه لا يملك خزائن السموات والأرض إلا الله، ونسيت قول الله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ [فاطر:١٠].

ـ فهل جنَّدت نفسك أيها الأخ الكريم لتكون واحداً من هؤلاء.

ـ يقول الله عز وجل: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ

(١) أخرجه البخارى (٦٥٤٢) ومسلم (٢١٦).

(٢) فى رواية الترمذى والنسائى ـ وهى صحيحة ـ أن عرض الأمم كان ليلة الإسراء.

(٣) أخرجه أحمد والبخارى، ومن طريقه البغوى فى شرح السنة، ومسلم والترمذى، وقال: حسن صحيح. والنسائى فى الكبرى ـ كما فى تحفة الأشراف ـ.

ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾ [الطلاق:٢، ٣].

قال المفسرون: إن هذه الآية عامة وقد نزلت فى عوف بن مالك الأشجعى. أسر المشركون ابنه فأتى النبى ﷺ وشكا إليه الفاقة وقال إن العدو أسر إبنى وجزعت أمه فما تأمرنى قال ﷺ: اتق الله واصبر وآمرك واياها أن تستكثرا من قول لا حول ولا قوة الا بالله ففعل هو وامرأته فبينا هو فى بيته إذ قرع ابنه الباب ومعه مائة من الإبل غفل عنها العدو فاستاقها فنزلت الآية ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجا . . . .﴾ (١).

قال ﷺ: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً»(٢).

ـ فانظر لهذا الطير الضعيف الذى لايملك من أسباب الرزق الا القليل ولكنه متوكل على الله يسبح بحمده ليلاً ونهاراً.... كما قال الحق جل وعلا:

﴿ألم تر أن الله يسبح له من فى السموات والأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون (٤١)﴾ [النور:٤١].

ـ فها هو الطير الضعيف يتوكل على الله ولا ينشغل عن طاعة الله ـ وفى المقابل ـ ها هم الكثيرون من بنى جلدتنا من الذين أكرمهم الله بنعمة الإسلام قد هجروا التوكل على خالقهم فتركوا الصلوات وتركوا طاعة رب الأرض والسموات خوفاً من الانشغال عن الأرزاق... ولا حول ولا قوة الا بالله.

ـ أتخشى أيها المسلم على الرزق الذى قدّره الله قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة.

قال ﷺ : «فرغ الله عز وجل إلى كل عبد من خمس: من أجله، ورزقه، وأثره، ومضجعه، وشقى أو سعيد»(٣). وفى رواية مسلم «كتب الله تعالى مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وعرشه على الماء»(٤).

---

(١) ذكره ابن كثير فى تفسير الآية بلفظ: وقال السدى.. وزعم أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ. وساق القصة.. رواه ابن جرير ـ وروى أيضًا من طريق سالم بن أبى الجعد مرسلاً نحوه.

(٢) رواه أحمد والترمذى وابن ماجه والحاكم عن عمر، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٢٥٤).

(٣) رواه أحمد والطبرانى فى الكبير عن أبى الدرداء، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٢٠١).

(٤) رواه مسلم عن ابن عمرو، باب كتب المقادير قبل الخلق، كتاب القدر ـ صحيح الجامع (٤٤٧٤).

ـ فيا من تخشى على الأرزاق استمع لتلك القصة لتعلم من الذى يرزق ومَن الذى يجب أن تُفرده بالعبادة.

ـ يقول أحد العلماء والله لقد رأيت ثعباناً أعمى يعيش فوق نخلة عالية ويأتيه بين الوقت والآخر عصفور صغير فيقف عند هذا الثعبان ويُصدر له أصواتاً فيفتح الثعبان فمه فيلقى العصفور الطعام فى فم الثعبان الأعمى!!! فمن الذى سخّر هذا العصفور لذاك الثعبان؟ ومن الذى جعل الثعبان لا يفترس العصفور؟! إنه رب السموات والأرض الذى يرزق الدود فى بطن الحجر.

وها هى أم موسى عليه السلام يقول الحق تبارك وتعالى عنها: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ فماذا تصنع؟ ﴿فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾ [القصص:٧].

فما كان منها إلا أن انقادت لأمر الله وهى واثقة فى موعود الله. فماذا كانت النتيجة؟

ـ يتربى موسى عليه السلام فى بيت عدو الله فرعون... قال الله تعالى مصوراً تلك الحالة: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ [طه :٣٩] فيقذف الله محبته فى قلوب الناس فما من إنسان يراه الا ويحبه من كل قلبه وهذا من تمام نعمة الله عليه.

ثم يتحقق موعود الله ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ [القصص:١٢ـ١٣].

وتتحقق البشارة الثانية ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ [القصص:١٤].

ـ فكانت أم موسى مثالاً عظيمًا لليقين والتوكل على الله والثقة فيما عند الله جل وعلا.

ـ بل إن موسى عليه السلام لما أدركه فرعون عند البحر ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء:٦١]، فقال لهم بلسان التوكل والثقة بنصر الله ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء:٦٢]، فكانت ثمرة التوكل تأتيه فى التو واللحظة ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ

أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ﴾ [الشعراء:٦٣]، الله أكبر!! من أطاع الله طوّع الله له كل شئ.

ـ البحر ينفلق وليس ذلك فحسب بل يجعل الله لهم فى البحر اثنى عشر طريقاً[١] لكى تمر كل قبيلة من طريقها وتنجو من بطش فرعون.

ـ حتى إن أصحاب موسى عليه السلام أرادوا أن يتأكدوا من موت فرعون فأمر الله البحر أن يلفظ جسد فرعون بعد غرقه وموته وفى ذلك يقول الله جل وعلا ﴿ فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية ﴾ [يونس:٩٢].

ـ وها هو صلة بن أشيم كما أورد الذهبى فى سير أعلام النبلاء وقال: هذه قصة ثابته عن صلة بن أشيم. هذا التابعى المخضرم لما كان فى طريق عودته من إحدى المعارك مات فرسه فقال: اللهم لا تجعل لأحد علىّ منّه (أى فضل) فإنى استحيى أن أسأل غيرك فأحيا الله له الفرس فركبه ولما وصل إلى بيته قال لابنه محمد: يابنى إنزع السَرَج من على الفرس فإنها عارية (أى أننى استعرتها من الله) فنزع السَرَج فمات الفرس!!!

ـ وها هم أصحاب النبى ﷺ لما حققوا التوكل على الله ساروا على الأنهار بخيولهم... بل وخاطبوا دواب الأرض حتى وقف عقبة بن نافع على أبواب مدينة القيروان وقال أيتها الدواب أيتها الأُسود إنّا أصحاب محمد ﷺ جئنا لنُعلى كلمة لا إله إلا الله فأفسحوا لنا الطريق فخرجت الأسود بولدانها وخرجت الحيّات والعقارب!!! وكل ذلك لأنهم علموا أن لهم رباً قد تكفل بالأرزاق، بل هو المالك والمتصرف فى الكون كله، فهو الواحد الديان الذى قال وقوله الحق.

﴿ رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً ﴾ [المزمل:٩].

ـ ولذا كان من دعاء النبى ﷺ «اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت اللهم إنى أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلنى أنت الحى الذى لا يموت والجن والإنس يموتون»[٢].

---

(١) ذكره ابن كثير فى تفسير لسورة الشعراء.. الآية (٦٣)، هكذا: وقال ابن عباس: صار البحر اثنى عشر طريقًا لكل سبط طريق.. ولم يذكر ابن عباس فى حديثه الموقوف المسند (حديث الفتون) تعدد الطرق. وقال ابن كثير: كأنه مما أبيح نقله من الإسرائيليات.

(٢) متفق عليه عن ابن عباس ـ صحيح الجامع (١٣٠٩).

وعن ابن عباس قال: «حسبنا الله ونعم الوكيل» قالها إبراهيم حين أُلقى فى النار وقالها: محمد حين قالوا: «إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل»(١).

وروى أن حاتم الأصمّ قال لأولاده: إنى أريد الحج.... فبكوا وقالوا: إلى من تكلنا؟. وكان له ابنة مباركة قد رزقها الله بنعمة التوكل واليقين، فقالت: دعوه يذهب فليس برازق.... فخرج فباتوا جياعًا فجعلوا يوبخون تلك البنت فقالت: اللهم لا تخجلنى بينهم.... فمر بهم أمير البلد فقال لبعض أصحابه: اطلب لى ماء.... فناوله أهل حاتم كوزًا جديدًا وماءً باردًا فشرب فقال: دار من هذه؟ فقالوا: دار حاتم الأصم فرمى فيها صرة من ذهب وقال: من أحبنى فليصنع مثلما صنعت.... فرمى العسكر ما معهم من المال فى هذا الإناء فجعلت البنت تبكى فقالت أمها: ما يبكيك وقد وسّع الله علينا... فقالت: لأن مخلوقًا نظر إلينا نظرةً فاغتنينا فكيف لو نظر الخالق إلينا؟.

الصدق والتوكل وطريقنا إلى المسجد الأقصى

إن الشواهد والعقائد والتاريخ الإسلامى ليُقر لنا بحقيقةٍ واحدة ألا وهى أنه لا طريق إلى عودة المسجد الأقصى إلا بالصدق مع الله وتحقيق التوكل الكامل على الخالق جل وعلا.

ـ واستمعوا لتعرِفوا وتوقنوا بتلك الحقيقة الثابتة التى لا تتبدل ولا تتغير.

ـ ها هو موسى عليه السلام لما أراد أن يدخل بقومه لتحرير الأرض المقدسة أخذ يذكّرهم أولاً بنعم الله عليهم فقال: ﴿يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (٢٠)﴾ [المائدة: ٢٠].

ثم بعد ذلك وضع أمامهم التكليف الربّانى: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١) قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢)﴾ [المائدة: ٢١، ٢٢].

وفجأة قام رجلان أنعم الله عليهما بنعمة الإيمان والتوكل وهما ـ يوشع ابن نون وكالب بن يوفنا ـ وقالا إن سلاحكم العظيم الذى ستفتحون به المسجد الأقصى هو

(١) رواه البخارى عن ابن عباس موقوفًا عليه برقم (٤٥٦٣، ٤٥٦٤).

التوكل على الله. ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ﴾. **فما هو السلاح الذى يحقق لهم هذا الفتح؟** ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة:٢٣].

وعلى الرغم من ذلك قالوا ﴿يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ **فكانت العقوبة من الله لبنى إسرائيل** ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة:٢٦].

ـ وكان الجزاء والأجر العظيم ليوشع ين نون أنه بعد وفاة موسى عليه السلام أقام يوشع نبياً خليفة عن موسى عليه السلام، ومات أكثر بنى إسرائيل فى تلك الفترة (التيه) ويُقال أنه لم يبق أحد سوى يوشع بن نون وكالب بن يوفنا فلما انقضت المدة خرج بهم يوشع أو بمن بقى منهم وبسائر الجيل الثانى فقصد بهم بيت المقدس فحاصرها فكان فتحها يوم الجمعة وبعد العصر فلما تضيفت الشمس للغروب وخشى دخول السبت عليهم قال يوشع للشمس: إنك مأمورة وأنا مأمور اللهم احبسها علىّ.... فحَبسها الله حتى فتحها ودخل منتصراً فهذا هو جزاء التوكل ولذا قال النبى ﷺ: «ماحُبست الشمس على بشرٍ قط إلا على يوشع ابن نون ليالى سار إلى بيت المقدس»(١).

ـ فيا أمة الإسلام لا طريق للمسجد الأقصى إلا بالصدق مع الله وتحقيق التوكل على الحى الذى لا يموت ولا يغرنّكم تكالب اليهود ولا ما يملكون من السلاح والعتاد فإن كلمة (الله أكبر) لا يقف أمامها الصواريخ والدبابات والطائرات ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾[الأنفال:١٧].

ـ واعلموا اننا جميعاً سنُسأل أمام الله عن تضييع تلك الأمانة وترك المسجد الأقصى فى أيدى اليهود... ولا عذر لنا عند الله فلا بد أن نسعى لإعادة المسجد الأقصى.

ـ وقد تكفل الله لنا بإحدى الحسنيين إما النصر وإما الشهادة.

ـ فيا أحفاد عمر وصلاح الدين لا تنسوا المسجد الأقصى(٢).

* * *

(١) أخرجه الخطيب البغدادى وأحمد وابن عساكر عن أبى هريرة ـ صحيح الجامع (٥٦١٢).

(٢) كتاب (صدقوا ما عاهدوا) للمصنف (ص ١١٢: ١١٨) بتصرف.

خروجه لقتال المرتدين

* لما تُوفى رسولُ الله ارتدّتْ أحياءٌ كثيرةٌ من الأعراب، ونَجَم(١) النفاقُ بالمدينة، وجعلت الوفودُ تَقْدُمُ فيُقِرّونَ بالصّلاة ويمتنعون منْ أداء الزّكاة، ومنهم مَنْ امتنع عن دفعها إلى خليفةِ رسولِ الله «أبى بكر الصّديق» رَضى الله عنه وأرضاه، وقد احتجّوا بقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة:١٠٣] وقالوا: فلسنا ندفعُ زكاتَنا إلاّ إلى مَنْ صلاتُه سكَنٌ لنا!... لكنَّ سيدَنا أبا بكر الصدّيق رضوان الله عليه، وقف ذلك الموقف الرجولى العظيم قائلاً:

«والله لو منعُونى عَنَاقًا كانوا يؤدُّونها إلى الرَّسول ﷺ، لأقاتلنَّهم على منعها، إنَّ الزكاةَ حقُّ المال، والله لأُقاتلنَّ مَنْ فرَّقَ بين الصّلاةِ والزكاة».

* وعزم الصّدِّيقُ ـ رضى الله عنه ـ على قتالهم، وكان من بين هؤلاء المرتدّين طُلَيْحة ابن خُوَيْلد الأسَدى».

وكان طُليحة قد تَنبّأ فى قومه بنى أَسَد وفى غطفانَ، وانضمَّ إليهم بعضُ المرتدّين أيضًا من بنى عَبْس وذبيان.

* خرج سيدنا «عكّاشةُ بن محصن» رضى الله عنه لقتال «طُلَيحة بن خُوَيلد» ومَنْ معه منَ المرتدين الذى مَرَدوا على النفاق، خَرجَ وفى يده السيفُ المباركُ الذى أَخَذَه منْ رسول الله ﷺ يومَ بَدْر، فكان يتبركُ به فى حلِّه وترحَاله، وفى سلْمِه وحَربِه، وانطلَقَ عكّاشةُ مع ثلَّةٍ مِنَ الصحَابة وهو يتشوّقُ للشهادة(٢).

الرحيل إلى النعيم المقيم

وبعد حياة طويلة مليئة بالجهاد والتضحية والطاعة لله ـ جل وعلا ـ رحل السعيد الشهيد (عكاشة بن محصن) من دنيا الناس إلى النعيم المقيم.

* روى الإمام أحمد من طريق وحشى بن حرب، أن أبا بكر الصديق لما عقد لخالد بن الوليد على قتال أهل الردة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: نِعم عبد الله وأخو

(١) نجم: أى ظهر.
(٢) رجال مبشرون بالجنة (ص:١٢٠ ـ ١٢١).

العشيرة، خالد بن الوليد، سيف من سيوف الله سله الله على الكفار والمنافقين، ولما توجه خالد من ذى القصة وفارقه الصديق، واعده أنه سيلقاه من ناحية خيبر بمن معه من الأمراء ـ وأظهروا ذلك ليرعبوا الأعراب ـ وأمره أن يذهب أولاً إلى طليحة الأسدى، ثم يذهب بعده إلى بنى تميم، وكان طليحة بن خويلد فى قومه بنى أسد، وفى غطفان، وانضم إليهم بنو عبس وذبيان، وبعث إلى بنى جديلة والغوث وطىء يستدعيهم إليه، فبعثوا أقوامًا منهم بين أيديهم، ليلحقوهم على أثرهم سريعًا، وكان الصديق قد بعث عدى بن حاتم قبل خالد بن الوليد، وقال له: أدرك قومك لا يلحقوا بطليحة فيكون دمارهم، فذهب عدى إلى قومه بنى طىء فأمرهم أن يبايعوا الصدِّيق، وأن يراجعوا أمر الله، فقالوا: لا نبايع أبا الفصل أبدًا ـ يعنون أبا بكر رضى الله عنه ـ فقال: والله ليأتينكم جيش فلا يزالون يقاتلونكم حتى تعلموا أنه أبو الفحل الأكبر، ولم يزل عدى يفتل لهم فى الذروة والغارب حتى لانوا، وجاء خالد فى الجنود وعلى مقدمة الأنصار الذين معه ثابت بن قيس بن شماس، وبعث بين يديه ثابت بن أقرم، وعكاشة بن محصن (طليعة)، فتلقاهما طليحة وأخوه سلمة فيمن معهما، فلما وجدا ثابتًا وعكاشة تبارزوا فقتل عكاشة جبال بن طليحة، وقيل: بل كان قتل جبالاً قبل ذلك وأخذ ما معه، وحمل عليه طليحة فقتله وقتل هو وأخوه سلمة، ثابت بن أقرم، وجاء خالد بمن معه فوجدوهما صريعين، فشق ذلك على المسلمين... ثم أمر بهما فدفنا فى ثيابهما[1].

وهكذا رحل هذا الصحابى الجليل ليدخل الجنة بغير حساب ولا عذاب.

فاللهم اجمعنا بالصالحين من أمة حبيبك ﷺ فى جنتك ودار كرامتك.

فرضى الله عن عكاشة وعن سائر الصحابة أجمعين

* * *

(١) البداية والنهاية للحافظ ابن كثير (٦/ ٣٢١).

جعفر بن أبى طالب

يطير فى الجنة مع الملائكة بجناحين

محمد رسول الله ﷺ

وها نحن على موعد مع الرجل الذى أشبه خَلقُه وخُلقُه خَلقَ وخُلقَ رسول الله ﷺ... إنه الرجل الذى كان المساكين يفرحون برؤيته لرحمته بهم وعطفه عليهم... إنه الرجل الذى يطير فى الجنة مع الملائكة بجناحين... إنه صاحب النسب الكريم... إنه ابن عم رسول الله ﷺ جعفر بن أبى طالب.

يا لها من صفحة تُبهر العقول وتُحير الألباب.

إنها صفحة صدق نعيشها مع جعفر بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ.

إنه السيدُ الشهيدُ، الكبيرُ الشأن، علَم المجاهدين، أبو عبد الله، ابن عم رسول الله ﷺ أخو علىّ بن أبى طالب، وهو أسنُّ من علىّ بعشر سنين(١).

وتعالوا بنا لنبدأ القصة من أولها: لما أسلم أبو بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ علم أن الإسلام أمانة عظيمة فخرج من عند النبى ﷺ داعيًا إلى الله ـ جل وعلا ـ يدعو الناس جميعًا إلى جنة الرحمن التي فيها ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

فكان من جملة من أسلموا على يديه ـ جعفر بن أبى طالب وزوجه أسماء بنت عُميس ـ وكان إسلامهما مبكرًا قبل أن يدخل الرسول ﷺ دار الأرقم.

وقبل أن نسترسل فى الحديث عن جعفر ـ رضى الله عنه ـ فإنه لابد لنا من وقفة مع المناقب وأوسمة الشرف التى فاز بها (رضى الله عنه).

(١) السير للإمام الذهبى (١/ ٢٠٦).

المناقب وأوسمة الشرف التي وضعها الحبيب ﷺ على صدره

وإذا أردنا أن نتعرض لشيء من مناقبه ـ رضي الله عنه ـ فسوف يطول بنا المقام، ولكن حسبنا منها القليل ـ فالقليل منها لو وُزِّع على أهل الأرض لملأ قلوبهم غبطة وسعادة وسروراً ـ.

فعن محمد بن أسامة ، عن أبيه قال : اجتمع جعفر وعليّ وزيد بن حارثة. فقال جعفر: أنا أحبكم إلى رسول الله ﷺ ، وقال عليّ: أنا أحبكم إلى رسول الله ﷺ ، وقال زيد: أنا أحبكم إلى رسول الله ﷺ ، فقالوا: انطلقوا بنا إلى رسول الله ﷺ حتى نسأله، فقال أسامة بن زيد: فجاؤوا يستأذنونه، فقال: اخرج فانظر من هؤلاء. فقلت: هذا جعفر وعليّ وزيد. ما أقول أبي. قال: ائذن، لهم. ودخلوا فقالوا: من أحب إليك؟ قال: فاطمة. قالوا: نسألك عن الرجال. قال: أما أنت يا جعفر فأشبه خَلقُك خَلقي وأشبه خُلقي خُلقك وأنت مني وشجرتي . وأما أنت يا عليّ فختني وأبو ولديَّ وأنا منك وأنت مني. وأما أنت يا زيد فمولاي ومني وإليّ وأحب القوم إليّ»[(١)].

وعن أبي هريرة قال: «ما احتذى النِّعال ولا انتعل ولا ركب المطايا ولا ركب الكُور بعد رسول الله ﷺ أفضلُ من جعفر بن أبي طالب»[(٢)].

أي في الجود والكرم.

ولقد كان في بني عبد مناف خمسة رجال يُشبهون رسول الله ﷺ أشدَّ الشَّبه وهم: أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وهو ابنُ عم الرسول ﷺ ، وأخوه من الرضاع.

وقُثم بن العباس بن عبد المطلب، وهو ابن عم النبي ﷺ أيضاً.

والسائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم جدُّ الإمام الشافعي ـ رضي الله عنه ـ.

والحسنُ بن عليّ سبط رسول الله ﷺ ، وكان أشدَّ الخمسة شبهًا بالنبي صلوات الله عليه.

وجعفر بن أبي طالب، وهو أخُو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب.

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٢٠٤) وابن سعد (٤/ ١/ ٢٤) وقال الأرنؤوط: رجاله ثقات.

(٢) رواه الترمذي (٣٧٦٤) وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب ـ وهو موقوف صحيح.
والكُور: الرَّحل.

سنة لا تتبدل

ولنرجع مرة أخرى إلى قصته العطرة التى تملأ القلوب غبطة وسعادة وسروراً... فإنه لما أسلم جعفر وزوجه مبكرًا علمت قريش بخبر إسلامهما فلقى جعفر وزوجه من أذى قريش ونكالها ما لا يعلمه إلا الله، ولكنهما صبرا على الأذى والابتلاء؛ لأنهما يعلمان أن البلاء سُنة ثابتة لا تتبدل ولا تتغير وأن طريق الجنة محفوفٌ بالمكاره، وما هى إلا ساعات معدودة ثم يجبر الله لهما كل كسرٍ فى جنته ومستقر رحمته.

فقد قال ﷺ: «يُؤتَى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة، فيُصبغُ فى جهنم صبغةً، ثم يقال له: يا ابن آدم هل رأيت خيرًا قط؟ هل مرَّ بك نعيمٌ قط؟ فيقول: لا والله يارب، ويؤتى بأشد الناس بؤسًا فى الدنيا من أهل الجنة، فيُصبغُ فى الجنة صبغةً، فيقال له: يا ابن آدم! هل رأيت بؤسًا قط؟ هل مرَّ بك شدةٌ قط؟ فيقول: لا والله يارب! ما مرَّ بى بؤسٌ قط، ولا رأيت شدة قط»(١).

ففروا إلى الله

فلما رأى رسول الله ﷺ ما يُصيب أصحابه من البلاء، وما هو فيه من العافية، لمكانه من الله ومن عمه أبى طالب، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء، قال لهم: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكًا لا يُظلمُ عنده أحدٌ، وهى أرضُ صدق، حتى يجعل الله لكم فرجًا مما أنتم فيه»(٢). فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة، مخافة الفتنة، وفرارًا إلى الله بدينهم، فكانت أول هجرة كانت فى الإسلام. فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد أمِنُوا واطمأنوا بأرض الحبشة، وأنهم قد أصابوا بها دارًا وقرارًا، ائتمرُوا بينهم أن يبعثوا فيهم منهم رجلين من قريش جلدين إلى النجاشى، فيردَّهُم عليهم، ليفتنوهم فى دينهم، ويُخرجوهم من دارهم التى اطمأنوا بها وأمنوا فيها؛ فبعثوا عبد الله بن أبى ربيعة وعمرو ابن العاص بن وائل وجمعوا لهما هدايا للنجاشى ولبطارقته(٣).

---

(١) أخرجه مسلم وأحمد والنسائى وابن ماجه عن أنس ـ صحيح الجامع (٨٠٠٠).

(٢) ذكره ابن إسحاق كما ترى من غير إسناد وابن كثير فى البداية (٣/ ٦٦) من بلاغات ابن إسحاق ـ نقلاً من السيرة لابن هشام (١/ ٢٦٦).

(٣) السيرة لابن هشام (١/ ٢٧٥). والبطارقة: جمع بطريق وهو القائد أو الحاذق فى الحرب.

لقاؤه مع النجاشي وشجاعته في الحق ـ رضي الله عنه ـ

وها هو موقف عظيم لجعفر بن أبى طالب يقفه أمام النجاشى ليصدع بكلمة الحق التى أثمرت للمسلمين الخير كله..

فعن أم سلمة، قالت: لما ضاقت علينا مكة وأوذى أصحاب رسول الله ﷺ وفُتنُوا، ورأوا ما يصيبهم من البلاء، وأن رسول الله ﷺ لا يستطيع دفع ذلك عنهم، وكان هو فى مَنَعَة من قومه وعمه، لا يصل إليه شىء مما يكره مما ينال أصحابه. فقال لهم رسول الله ﷺ: «إن بأرض الحبشة ملكًا لا يُظلم أحدٌ عنده، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجًا ومخرجًا»، فخرجنا إليه أرسالاً، حتى اجتمعنا فنزلنا بخير دار إلى خير جار، وأمنًا على ديننا»[(١)].

وفى رواية: أنها قالت: «لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا فيها خير جار «النجاشى»، أمنًا على ديننا، وعبدنا الله تعالى، لا نُوذَى، ولا نسمع شيئًا نكرهه، فلما بلغ ذلك قريشًا ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشى فينا رجلين منهم جلدين، وأن يُهدوا للنجاشى هدايا مما يُستطرف من متاع مكة، وكان من أعجب ما يأتيه منها الأدَم[(٢)]، فحملوا له أدمًا كثيرًا، ولم يتركوا من بطارقته بطريقًا إلا أهدوا له هدية، ثم بعثوا بذلك عبد الله بن أبى ربيعة، وعمرو بن العاص، وأمروهما بأمرهم، وقالوا لهما: ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلما النجاشى فيهم، ثم قدِّما إلى النجاشى هداياه، ثم سلاه أن يُسلِّمهم إليكما قبل أن يُكلمهم، قالت: فخرجا حتى قدما على النجاشى، ونحن عنده بخير دار، وعند خير جار، فلم يبق من بطارقته بطريق، إلا دفعا إليه هديته قبل أن يُكلما النجاشى، وقالا لكل بطريق منهم: إنه قد ضوى[(٣)] إلىٰ بلد الملك منَّا غلمانٌ سفُهاء، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دينكم، وجاءوا بدين مُبتدع، لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشرافُ قومهم ليردهم إليهم، فإذا كلّما الملك فيهم، فأشيروا عليه بأن يُسلمهم إلينا ولا يكلمهم، فإن قومهم أعلى بهم عينًا[(٤)]، وأعلم بما عابوا عليهم، فقالوا لهما: نعم، ثم إنهما قدَّما هداياهما إلى النجاشى، فقبلها منهما، ثم كلماه فقالا له:

(١) قال الأرنؤوط: إسناده صحيح: أخرجه ابن هشام (١/ ٣٣٤) مطولاً ـ أبو نعيم فى الحلية (١/ ١١٥).
(٢) الأدم: الجلود وهو اسم جمع.
(٣) ضوى: لجأ وأتى ليلاً.
(٤) أعلى بهم عينًا: أى ابصر بهم.

أيها الملك، إنه قد ضوى إلى بلدك منًا غلمان سُفهاء، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردَّهم إليهم، فهم أعلى بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه.

قالت (أم سلمة): ولم يكن شيء أبغض إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو ابن العاص[1] من أن يسمع كلامهم النجاشي. قالت: فقالت بطارقته حوله: صدقا أيها الملك، قومهم أعلى بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليهم، فأسلمهم إليهما، فليردَّاهم إلى بلادهم وقومهم.

قالت: فغضب النجاشي، ثم قال: لاها الله، إذًا لا أُسلمهم إليهما ولا يُكاد قوم جاوروني، ونزلوا بلادي، واختاروني على مَنْ سواي، حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما، ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما، وأحسنتُ جوارهم ما جاوروني.

قالت: ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم.

فلما جاءهم رسوله اجتمعوا، ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟ قالوا: نقول والله ما علمنا، وما أمرنا به نبينا ﷺ كائنًا في ذلك ما هو كائن. فلما جاءوا، وقد دعا النجاشي أساقفته[2]، فنشروا مصاحفهم حوله.

سألهم النجاشي، فقال لهم: ما هذا الدينُ الذي قد فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا به في ديني، ولا في دين أحد من هذه الملل؟

قالت: فكان الذي كلَّمه جعفرُ بن أبي طالب (رضوان الله عليه).

فقال له: أيها الملك، كنا قومًا أهل جاهلية، نعبدُ الأصنام، ونأكلُ الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطعُ الأرحام، ونُسيءُ الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذاك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبهُ وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحُسن الجوار، والكفّ عن المحارم،

(١) كانت هذه القصة قبل إسلام عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) الأساقفة: هم علماء النصارى الذين يقيمون لهم دينهم.

والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام.

(قالت: فعدَّد عليه أمور الإسلام) فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من عند الله، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئًا، وحرَّمنا ما حَرَّم علينا، وأحللنا ما أحلَّ لنا، فعدا علينا قومنا، فعذبونا وافتتنونا على ديننا؛ ليردُّونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحلَّ ما كنَّا نستحلُّ من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيَّقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك على مَنْ سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نُظلم عندك أيها الملك.

قالت: فقال له النجاشيُّ: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟

قالت: قال له جعفر: نعم، فقال له النجاشي: فاقرأه عليَّ، قالت: فقرأ عليه صدرًا من ﴿كهيعص﴾ [مريم:١].

قالت: فبكى والله النجاشيُّ حتى اخضلَّت لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم، حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال [لهم] النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا، فلا والله لا أسلمهم إليكما، ولا يُكادون.

قالت: فلما خرجا من عنده، قال عمرو بن العاص: والله لآتينه غدًا بما أستأصلُ به خضراءهم[1].

قالت: فقال له عبد الله بن أبي ربيعة، وكان أتقى الرجلين: لا تفعل، فإن لهم أرحامًا، وإن كانوا قد خالفونا، قال: والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى ابن مريم عبدٌ.

قالت: ثم غدا عليه [من] الغد، فقال [له]: أيها الملك، إنهم يقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيمًا، فأرسِل إليهم، فسلهم عما يقولون فيه.

قالت: فأرسل إليهم؛ ليسألهم عنه.

قالت: ولم ينزل بنا مثلها قط. فاجتمع القومُ، ثم قال بعضهم لبعض: ماذا تقولون في عيسى ابن مريم إذا سألكم عنه؟:

قالوا: نقول والله ما قال الله، وما جاءنا به نبيُّنا، كائنًا في ذلك ما هو كائن.

---

(١) خضراءهم: أي شجرتهم التي تفرعوا منها.

قالت: فلما دخلوا عليه قال لهم: ماذا تقولون فى عيسى ابن مريم؟

قالت: فقال جعفر بن أبى طالب: نقول فيه الذى جاءنا به نبيُّنا ﷺ [يقول]: هو عبد الله ورسوله ورُوحُه وكلمتهُ ألقاها إلى مريم العذراء البتول.

قالت: فضرب النجاشيُّ بيده إلى الأرض، فأخذ منها عوداً، ثم قال: والله ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود، قالت: فتناخرت[1] بطارقته حوله حين قال ما قال؛ فقال: وإن نخرتم والله، اذهبوا فأنتم شُيوم بأرضى، (والشيوم: الآمنون) مَنْ سبكم غرم، ثم قال: من سبكم غرم، ثم قال: من سبكم غرم، ما أحبّ أن لى دبرًا من ذهب، وأنى آذيت رجلاً منكم.

قال ابنِ هشام: [ويقال دبِرًا من ذهب، ويقال: فأنتم سيوم، والدبر (بلسان الحبشة): الجبل]، ردوا عليهما هداياهما فلا حاجة لى بها، فوالله ما أخذ الله منى الرشوة حين ردّ علىَّ ملكى، فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس فىَّ فأطيعهم فيه.

قالت: فخرجا من عنده مقبوحين مردوداً عليهما ما جاءا به، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار.

قالت: فوالله إنا على ذلك إذ نزل به ـ يعنى من ينازعه فى ملكه ـ قالت: فوالله ما علمنا حزنًا قط كان أشد من حزن حزنّاه عند ذلك تخوفًا أن يظهر ذلك على النجاشى فيأتى رجل لا يعرف من حقنا ما كَان النجاشى يعرف منه قالت: وسار النجاشى وبينهما عرض النيل قالت: فقال أصحاب رسول الله ﷺ مَن رجل يخرج حتى يحضر وقعة القوم ثم يأتينا بالخبر؟. قالت: فقال الزبير بن العوام ـ رضى الله عنه ـ: أنا. قالت: وكان من أحدث القوم سنًا قالت: فنفخوا له قربة فجعلها فى صدره ثم سبح عليها حتى خرج إلى ناحية النيل التى بها ملتقى القوم، ثم انطلق حتى حضرهم قالت: ودعونا الله تعالى للنجاشى بالظهور على عدوه والتمكين له فى بلاده، واستوثق عليه أمر الحبشة فكنا عنده فى خير منزل حتى قدمنا على رسول الله ﷺ وهو بمكة»[2].

* * *

(١) تناخرت: أى تكلمت، وكأنه كلام من غضب ونفور.

(٢) قال الشيخ الألبانى فى تخريج فقه السيرة للغزالى: أخرج هذه القصة ابن إسحاق فى المغازى (١/ ٢١١ ـ ٢١٣ من ابن هشام) وأحمد (١٧٤٠) من طريق ابن إسحاق بسندٍ صحيح.

لكم أنتم أهل السفينة هجرتان

عن أبي موسى ـ رضي الله عنه ـ قال: بلغنا مخرجُ رسول الله ﷺ ونحن باليمن فخرجنا مهاجرين إليه أنا وأخوانِ لي أنا أصغرهم: أحدهما أبو بُردة والآخر أبو رُهم، إما قال: في بضع وإما قال: ثلاثة وخمسين أو اثنين وخمسين رجلاً من قومي ـ فركبنا سفينةً فألقتنا سفينتنا إلى النجاشي بالحبشة فوافقنا جعفر بن أبي طالب فأقمنا معه حتى قدمنا جميعًا فوافقنا النبي ﷺ حين افتتح خيبر، وكان أُناسٍ من الناس يقولون لنا ـ يعني لأهل السفينة ـ سبقناكم بالهجرة. ودخلت أسماء بنت عُميس ـ وهي ممن قدم معنا ـ على حفصة زوج النبي ﷺ زائرةً وقد كانت هاجرت إلى النجاشي فيمن هاجر، فدخل عُمر على حفصة ـ وأسماء عندها ـ فقال عمر حين رأى أسماء: من هذه؟ قالت أسماء بنت عميس. قال عمر: آلحبشيةُ هذه؟ البحريةُ هذه؟ قالت أسماء: نعم، قال: سبقناكم بالهجرة فنحن أحق برسول الله منكم، فغضبت وقالت: كلا والله كنتم مع رسول الله يُطعمُ جائعكم ويعظُ جاهلكم، وكنا في دار ـ أو في أرض ـ البُعداء البُغضاء بالحبشة، وذلك في الله وفي رسوله ﷺ، وايمُ الله لا أطعمُ طعامًا ولا أشربُ شرابًا حتى أذكر ما قلت لرسول الله ﷺ، ونحن كنا نُؤذَى ونُخافُ وسأذكر ذلك للنبي ﷺ وأسألُه، والله لا أكذبُ ولا أزيغُ ولا أزيدُ عليه».

«فلما جاء النبيُّ ﷺ قالت: يا نبيَّ الله إن عمر قال كذا وكذا. قال: فما قلت له؟ قالت: قلت له كذا وكذا. قال: ليس بأحقَّ بي منكم وله ولأصحابه هجرةٌ واحدةٌ، ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان. قالت: فلقد رأيتُ أبا موسى وأصحاب السفينة يأتونني أرسالاً يسألوني عن هذا الحديث، ما من الدنيا شيءٌ هم به أفرحُ ولا أعظم في أنفسهم مما قال لهم النبي ﷺ»[1].

غدًا نلقى الأحبة

وبعد أن مكث (جعفر وزوجه) عشر سنوات في رحاب النجاشي آمنين مطمئنين يرفلون في حُلل السعادة ويعبدون الله بلا قيود ولا مؤامرات تُدبَّر لهم بالليل والنهار، ولا عذاب يُسلَّط عليهم من كفار قريش... عاد مرة أخرى إلى المدينة وأقدامه تسابق

(١) أخرجه البخاري (٤٢٣٠) ومسلم (٢٥٠٢).

الريح من أجل رؤية الحبيب ﷺ الذى طال والله شوقه إليه، وما إن وصل حتى كان النبى ﷺ عائدًا من فتح خيبر.

فعن الشَّعبى : أن جعفر بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ قدم على رسول الله ﷺ يوم فتح خيبر، فقبَّل رسول الله ﷺ بين عينيه، والتزمه وقال: ما أدرى بأيهما أنا أسرُّ: «بفتح خيبر، أم بقدوم جعفر؟»(١).

فرحة المساكين بقدوم جعفر

ولم تكن فرحة المساكين بقُدوم جعفر ـ رضى الله عنه ـ بأقل من فرحة رسول الله ﷺ بقدومه.

فلقد كان جعفر من أرحم الناس بالفقراء والمساكين.

فعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن الناس كانوا يقولون: أكثر أبو هريرة ـ أى من رواية الأحاديث ـ وإنى كنت ألزمُ رسول الله بشبع بطنى حتى لا آكلُ الخمير ولا ألبسُ الحبير ولا يخدمنى فلانٌ ولا فلانة، وكنت ألصق بطنى بالحصباء من الجوع، وإن كنت لأستقرئ الرجل الآية هى معى كى ينقلبُ بى فيُطعمنى وكان أخير الناس للمساكين جعفر بن أبى طالب: كان ينقلبُ بنا فيُطعمنا ما كان فى بيته حتى إن كان ليُخرِجُ إلينا العكة التى ليس فيها شىء فيشقها فنلعق ما فيها(٢).

وحان وقت الرحيل

وركب رسول الله ﷺ إلى مكة حيث اعتمروا عُمرة القضاء وعادوا إلى المدينة.. وفى الطريق سمع جعفر من إخوانه ـ الذين خاضوا مع النبى ﷺ غزوة بدر وأُحد وغيرهما من المشاهد ـ الكثير والكثير مما جعله يتلهف شوقًا للجهاد فى سبيل الله وللفوز بالشهادة.

---

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك (٤/ ٢١١) عن الشعبى مرسلاً، وقال الحاكم: صحيح، ووافقه الذهبى ووصله الحاكم من طريق آخر (٣/ ٢٠٨) وسكت عليه وتعقبه الذهبى بقوله منقطعًا وفيه الواقدى. وأخرج البيهقى فى السنن (٧/ ١٠١) عن الشعبى مرسلاً فله شاهد من حديث أبى جحفة أخرجه الطبرانى فى المعجم الصغير (ص: ٨) وسنده ضعيف. وله طريق آخر فى المعجم الكبير كما ذكر الهيثمى فى المجمع (٩/ ٢٧٢) وقال: رواه الطبرانى مرسلاً ورجاله رجال الصحيح وقال الألبانى: وبالجملة فالحديث قوى بهذه الطرق وقد صححه الحاكم.

(٢) أخرجه البخارى (٣٧٠٨) وأبو نعيم فى الحلية (١/ ١١٧).

ولم يطل انتظاره فقد بعث رسول الله ﷺ سرية إلى مؤتة فى جمادى الأولى من سنة ثمان، واستعمل عليهم زيد بن حارثة، وقال ﷺ : «إن أُصيب زيد فجعفر بن أبى طالب على الناس، فإن أُصيب جعفر، فعبد الله ابن رواحة على الناس».

فمضوا إلى أرض البلقاء من أرض الشام حتى نزلوا (معانًا) من أرض الشام، وبلغهم أن هرقل قد نزل مآب من أرض البلقاء فى مائة ألف من الروم، ومائة ألف من المستعربة.

ثلاثة آلاف من الأبطال والشجعان، من حملة القرآن، أمام عَبَدة الصُلبان، عليهم لعائن الرحمن، فى ذلك الزمان، وفى كل أوان.

فالتقى الناس فاقتتلوا، فقاتل زيد بن حارثة براية رسول الله ﷺ حتى شاط فى رماح القوم، ثم أخذها جعفر فقاتل القوم حتى قُتل.

اقتحم جعفر عن فرس له شقراء، ثم عقرها؛ فكان جعفر أول المسلمين عَقَرَ فى الإسلام، ثم قاتل القوم حتى قُتل وهو يقول:

يا حبَّذا الجنة واقترابها طيبة وباردٌ شرابها

والروم رومٌ قد دنا عذابها كافرة بعيدة أنسابها

علىّ إذْ لاقيتها ضِرابها

قال ابن هشام: وحدثنى من أثق به من أهل العلم أن جعفراً أخذ اللواء بيمينه فقُطعت، فأخذه بشماله فقطعت، فاحتضنه بعضديه حتى قُتل، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، فأثابه الله بذلك جناحين فى الجنة يطير بهما حيث يشاء.

وفى رواية: عن عبد الله بن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال: «أمَّرَ رسول الله ﷺ فى غزوة مؤتة زيد بن حارثة، فقال رسول الله ﷺ : «إن قُتل زيدٌ فجعفرٌ، وإن قُتل جعفرٌ فعبد الله بن رواحة. قال عبد الله: كُنتُ فيهم فى تلك الغزوة فالتمسنا جعفر بن أبى طالب فوجدناه فى القتلى، ووجدنا ما فى جسده بضعًا وتسعين من طعنة ورمية»[1].

ولقد نعى النبى ﷺ الثلاثة لأصحابه وبشّرهم بشهادتهم فى سبيل الله.

فعن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ قال: «قال النبى ﷺ : أخذ الراية زيدٌ فأُصيب ثم

(١) أخرجه البخارى (٤٢٦١) عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ.

أخذها جعفرٌ فأُصيب، ثم أخذها عبد الله بن رواحة فأُصيب ـ وإن عينى رسول الله ﷺ لتذرفان ـ ثم أخذها خالدُ بن الوليد من غير إمرة ففُتِحَ له»[(١)].

وعن نافع أن ابن عمر أخبره: وقفت على جعفر يومئذ وهو قتيلٌ فعددتُ به خمسين طعنةٍ وضربةٍ، ليس منها شيءٌ فى دُبُرِه، يعنى فى ظهره»[(٢)].

وها هو يطير بجناحيه فى الجنة مع الملائكة

عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «دخلت الجنة البارحة فنظرت فيها، فإذا جعفر يطير مع الملائكة، وإذا حمزة متكئ على سريره»[(٣)].

«وكان ابن عمر إذا حيّا ابن جعفر قال: السلام عليك يا ابن ذى الجناحين»[(٤)].

قال ابن كثير: «لأن الله تعالى عوضه عن يديه بجناحين فى الجنة»[(٥)].

وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت جعفر بن أبى طالب مَلَكًا يطير فى الجنة مع الملائكة بجناحين»[(٦)].

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت جعفر بن أبى طالب ملكًا فى الجنة، مضرجة قوادمه بالدماء، يطير فى الجنة»[(٧)].

وعن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مرَّ بى جعفر الليلة فى ملأ من الملائكة، وهو مخضّب الجناحين بالدم، أبيض الفؤاد»[(٨)].

وقال عبد الله بن جعفر: قال لى رسول الله ﷺ: «هنيئًا لك!! أبوك يطير مع الملائكة فى السماء»[(٩)].

---

(١) أخرجه البخارى (١٢٤٦) والنسائى (٤/ ٢٦).
(٢) أخرجه البخارى (٤٢٦٠) عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ
(٣) رواه الطبرانى فى الكبير والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٣٥٨).
(٤) رواه البخارى (٣٧٠٩) المغازى.
(٥) البداية والنهاية لابن كثير (٣/ ٢٥٦).
(٦) رواه الترمذى والحاكم فى المستدرك عن أبى هريرة ـ صحيح الجامع (٣٤٥٩).
(٧) أخرجه الحاكم عن ابن عباس وصححه، وكذلك هو فى الاستيعاب، وقال الحافظ فى الفتح: أخرجه الحاكم والطبرانى عن ابن عباس، وإسناده جيد.
(٨) قال الحافظ فى الفتح (٧/ ٩٦): أخرجه الحاكم بإسناد صحيح على شرط مسلم.
(٩) قال الحافظ فى الفتح (٧/ ٩٦): أخرجه الطبرانى بإسناد حسن.



وعن ابن عباس مرفوعًا: «إن جعفرًا يطير مع جبريل وميكائيل، له جناحان عوّضه الله من يديه»(١).

حزن النبي ﷺ على جعفر ـ رضي الله عنه ـ

وهنا يذهب الحبيب ﷺ إلى أسماء بنت عميس زوج جعفر ليبلغها خبر استشهاد زوجها... ويا له من مشهد يجعل القلوب تبكي الدماء بدل الدموع.

عن أسماء ابنة عُميس، قالت: لما أُصيب جعفر وأصحابه دخل عَلَيَّ رسول الله ﷺ وقد دبغتُ أربعين مَنا ـ ويقال منيئة ـ وعجنت عجيني، وغسلت بنيَّ ودهنتهم ونظّفتهم، قالت: فقال لي رسول الله ﷺ: «ائتني ببني جعفر»، قالت: فأتيته بهم، فشمّهم وذرفت عيناه، فقلت: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، ما يُبكيك؟ أبلغك عن جعفر وأصحابه شيء؟ قال: «نعم، أُصيبوا هذا اليوم». قالت: فقُمت أصيحُ، واجتمعتْ إليَّ النساء، وخرج رسول الله ﷺ إلى أهله، فقال: «لا تُغفلوا آل جعفر من أن تصنعوا لهم طعامًا، فإنهم قد شُغلوا بأمر صاحبهم»(٢).

حسان بن ثابت يرثي أهل مؤتة

ولما بلغ حسان مقتل هؤلاء الأطهار قام يرثي من مات في غزوة مؤتة، ويقول:

رأيتُ خيارَ المؤمنينَ تواردُوا ... شعوب وقد خُلفتُ ممن يُؤخَّرُ

فلا يُبعدنَّ الله قتلى تتابعوا ... بمُؤتة منهم ذو الجناحين جعفرُ

وزيدٌ وعبدُ الله حين تتابعوا ... جميعًا وأسبابُ المنيَّة تخطرُ

وكنَّا نرى في جعفرٍ من مُحَمَّد ... وفاءً وأمرًا صارمًا حيثُ يُؤْمرُ

فلا زال في الإسلامِ من آل هاشمٍ ... دعائمُ عِزٍّ لا تزُولُ ومَفْخَرُ(٣)

فرضي الله عن جعفر وعن سائر الصحابة أجمعين

---

(١) قال الحافظ في الفتح (٧/ ٩٦): وإسناد هذه جيد.

(٢) أخرجه أبو داود (٣/ ٣١٣٢) وابن ماجه (١/ ١٦١٠) والترمذي (٣/ ٩٩٨) والحاكم في المستدرك (١/ ٣٧٢) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه وسكت عنه الذهبي. والبيهقي في السنن الكبرى (٤/ ٦٢) وذكره الألباني في صحيح ابن ماجه وقال: حديث حسن.

(٣) الإصابة للإمام ابن حجر العسقلاني (١/ ٥٩٤) بتصرف.



جابر بن عبد الله

صاحب الطعام المبارك والإيثار على النفس

إنه الصحابى الجليل جابر بن عبد الله الإمام الكبير ، المجتهد الحافظ، صاحب رسول الله ﷺ أبو عبد الله وأبو عبد الرحمن الأنصارى الخزرجى السلمى المدنى الفقيه.

من أهل بيعة الرضوان، وكان آخر من شهد ليلة العقبة الثانية موتًا.

روى علمًا كثيرًا عن النبى ﷺ وعن عمر وعلىّ وأبى بكر وأبى عبيدة ومعاذ بن جبل والزبير وطائفة(١).

ومن هنا كانت البداية

ما أجمل السفر إذا كان لله ـ جل وعلا ـ.

وها هو (جابر) الذى فتح الله قلبه لدعوة (مصعب بن عمير) فأسلم قبل أبيه (عبد الله) وكان عمره وقتها لا يتجاوز أربعة عشر عامًا.

وفى موسم الحج خرج مجموعة من أهل يثرب لمبايعة الحبيب ﷺ ـ بيعة العقبة الثانية ـ وإذا بعبد الله (والد جابر) يخرج معهم يريد الحج ـ ولم يُسلم بعد ـ وهو لا يدرى أنه بعد ساعات سيدخل التاريخ من أعظم أبوابه، وأن الكون كله سوف يقص سيرته العطرة وكيف أن الله ـ جل وعلا ـ سيكلمه كفاحًا ـ بغير حجاب ـ وكيف أن الملائكة سوف تظله بأجنحتها ـ بعد استشهاده ـ.

كان (عبد الله) لا يعلم عن هذا الخير شيئًا.

وإذا به يسمع كلامًا طيبًا من بعض الرجال الذين كانوا بصحبته فينفتح قلبه للإسلام فيُسلم ويذهب معهم للقاء الحبيب ﷺ ليبايعه ومعه ابنه (جابر).

---

(١) السير للإمام الذهبى (٣/ ١٨٩).

ووضع (عبد الله) يده في يد الحبيب ﷺ ويبايعه تلك المبايعة التي لا تتكرر عبر التاريخ مرة أخرى.

ثم أراد النبي ﷺ أن ينتخبوا من بينهم اثنى عشر زعيمًا يكونون نُقباء على قومهم فكان (عبد الله بن عمرو بن حرام) من نُقباء الخزرج.

ومن هنا كانت البداية لجابر بن عبد الله ـ رضى الله عنهما ـ الذى لامس الإيمان شغاف قلبه وهو صغير فنشأ فى طاعة الله ليكون ـ بإذن الله ـ من السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله.

ورجع جابر مع والده إلى المدينة مرة أخرى وهو لا يستطيع أن ينسى أبدًا حبيبه ﷺ فكان فى أشد شوقه لصحبته ومرافقته.

ولما أذن الله لنبيه ﷺ بالهجرة إلى يثرب (المدينة) سَعِد (جابر) سعادة ملأت قلبه سرورًا وفرحًا يكفى الكون كله من حوله.

فكان فى استقباله وظل بعد ذلك ملازمًا للحبيب ﷺ ينهل من علمه وهديه وأخلاقه العذبة حتى أصبح (جابر) واحدًا من أكثر الصحابة حفظًا لكتاب الله ورواية لحديث رسول الله ﷺ .

ولما حمى الوطيس ونادى منادى الجهاد: ـ يا خيل الله اركبى ـ لم يشهد جابر غزوة بدر ولا غزوة أُحُد.. وذلك لأنه كان صغيرًا فى السن، وكذلك لأن والده كان يأمره أن يبقى مع أخواته (التسع) خوفًا عليهن من أن يصيبهن مكروه.

وها هو (عبد الله بن عمرو بن حرام) قبل استشهاده بليلة واحدة يدعو ابنه (جابر) ليوصيه تلك الوصية الغالية... حرصًا منه على أداء دَينه قبل موته.

فعن جابر ـ رضى الله عنه ـ قال: «لما حَضر (أُحدٌ) دعانى أبى من الليل فقال: ما أُرانى إلا مقتولاً فى أول من يُقتل من أصحاب النبى ﷺ ، وإنى لا أتركُ بعدى أعزَّ علىَّ منك غير نفسِ رسول الله ﷺ ، وإن علىَّ دينًا فاقض واستوص بأخواتك خيرًا... فأصبحنا فكان أول قتيل، ودُفن معه آخرُ فى قبر ثم لم تطب نفسى أن أتركه مع الآخر فاستخرجته بعد ستة أشهر فإذا هو كيوم وضعته هُنيَّةً غير أُذنه»(١).

وفى رواية: أن جابر ـ رضى الله عنه ـ قال: فقلت: يا رسول الله إنَّ أبى ترك دَينًا

(١) أخرجه البخارى (١٣٥١).

عليه... وليس عندى ما أفيه به إلا ما يُخرجهُ ثمرُ نخيله، ولو عمدتُ إلى وفاء دَينه من ذلك الثمر لما أديته فى سنين...

ولا مال لأخواتى أُنفقُ عليهنَّ منه غير هذا.

فقام رسول الله ﷺ ومضى معى إلى بيدر[١] تمرنا وقال لى: «ادْعُ غُرماء[٢] أبيك»، فدعوتهم. فما زال يكيل لهم منه حتى أدى الله عن أبى دَينه كله من تمر تلك السنة. ثم إنى نظرتُ إلى البيدر فوجدته كما هو... كأنه لم تنقص منه تمرةٌ واحدةٌ[٣]...

ويؤثرون على أنفسهم

وها هو موقف لجابر ـ رضى الله عنه ـ تتجلى فيه صفة الإيثار التى ملأت عليه قلبه وجوارحه.

فها هو بعد استشهاد أبيه فى غزوة أُحد يترك له أبوه تسعة من البنات ليقوم بتربيتهن فيحرص جابر على مصلحة أخواته وبدلاً من أن يتزوج بكرًا تملأ حياته بالفرح والسرور إذا به يتزوج امرأة ثيبًا لتربى أخواته وتحافظ عليهن فيفوز بدعاء النبى ﷺ له.

فعن جابر ـ رضى الله عنه ـ أنه قال: هلك أبى وترك سبع بنات ـ أو ـ تسع بنات ـ فتزوجت امرأة ثيبًا فقال لى رسول الله ﷺ: تزوجت يا جابر؟ فقلت: نعم. فقال: بكرًا أم ثيبًا؟ قلت: بل ثيبًا. قال: فهلا جارية تلاعبها وتلاعبك وتضاحكها وتضاحكك؟ قال: فقلت له: إن عبد الله هلك ـ يعنى أباه ـ وترك بنات، وإنى كرهت أن أجيئهن بمثلهن، فتزوجت امرأة تقوم عليهن وتصلحهن فقال: بارك الله لك أو خيرًا[٤].

وبعد استشهاد والده شهد (جابر) المشاهد كلها، وكان أول تلك المشاهد (غزوة الخندق).

وفى تلك الغزوة كان هذا الموقف العظيم لجابر بن عبد الله ـ رضى الله عنهما ـ.

* * *

---

(١) البيدر: الموضع الذى يُكوم ويجمع فيه التمر.

(٢) غرماء: مفرده غريم: الدائن.

(٣) أخرجه ابن سعد (٣/ ٢/ ١٠٧) وأحمد (٣/ ٣٦٥) وأصلها فى البخارى.

(٤) أخرجه البخارى (٥٣٦٧).

صاحب الطعام المبارك

عن جابر بن عبد الله ـ رضى الله عنهما ـ قال: «لما حُفر الخندقُ رأيت بالنبى ﷺ خَمصًا شديدًا ـ من أثر الجوع ـ فانكفيتُ إلى امرأتى فقلتُ: هل عندك شىء؟ فإنى رأيت برسول الله ﷺ خَمصًا شديدًا. فأخرجت إلىَّ جرابًا فيه صاعٌ من شعير، ولنا بُهيمةٌ داجن فذبحتها، وطحنت الشعير، ففرغت إلى فراغى، وقطعتها فى بُرمتها. ثم وليتُ إلى رسول الله ﷺ . فقالت: لا تفضحنى برسول الله ﷺ وبمن معه. فجئته فساررته ـ كلمته سرًا ـ فقلت: يا رسول الله ذبحنا بُهيمةً لنا وطحنا صاعًا من شعير كان عندنا، فتعال أنت ونفر معك، فصاح النبىُّ ﷺ : يا أهل الخندق، إن جابرًا قد صنع سُورًا، فحىَّ هلا بكم فقال رسول الله ﷺ : لا تُنزلنَّ برمتكم، ولا تخبزنَّ عجينكم حتى أجىء، فجئتُ وجاء رسول الله ﷺ يقدُمُ الناس، حتى جئتُ امرأتى فقالت: بك وبك ـ تعاتبه ـ فقلت: قد فعلتُ الذى قلت. فأخرجت له عجينًا، فبصق فيه وبارك، ثم عمد إلى بُرمتنا فبصق وبارك. ثم قال: ادعُ خابزةً فلتخبزْ معى. واقدحى من برمتكم ولا تنزلوها، (وهم ألف)، فأقسم بالله لقد أكلوا حتى تركوه وانحرفوا، وإن برمتنا لتغطُّ كما هى، وإن عجيننا ليُخبز كما هو»(١).

ولقد كان (جابر) واحدًا ممن بايعوا الحبيبﷺ بيعة الرضوان.

الذين قال الله عنهم: ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (١٨) وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [الفتح:١٨ ـ ١٩].

قال جابر: قال لنا رسول الله ﷺ يوم الحديبية: «أنتم اليوم خير أهل الأرض» وكنا ألفًا وأربع مئة(٢).

وظل (جابر) ملازمًا للحبيب ﷺ ملازمة العين لأختها إلى أن تُوفى النبى ﷺ فأظلمت الدنيا كلها فى عينيه وكاد قلبه أن يتمزق حُزنًا عليه.

ولِمَ لا؟ ولقد كان رسول الله ﷺ هو رسوله ومُعلمه وكل شىء فى حياته هو

---

(١) أخرجه البخارى عن جابر (٤١٠٢)..
(٢) السير للإمام الذهبى (٣/ ١٩٠).

وأصحابه ـ رضى الله عنهم ـ.

وظل جابر مصدرًا ومرجعًا للصحابة ومَن بعدهم ـ لحديث رسول الله ﷺ ـ لكثرة علمه وروايته.

وكان مفتى المدينة فى زمانه.

وعاش جابر خلافة أبى بكر وعمر وعثمان وعلىّ ـ رضى الله عنهم ـ وكانوا جميعًا يعرفون قدره ومكانته.

جابر ـ رضى الله عنه ـ يرحل فى طلب حديث واحد

قال جابر بن عبد الله: «بلغنى عن رجل من أصحاب النبى ﷺ حديث سمعه من رسول الله ﷺ ، فاشتريتُ بعيرًا، ثم شددتُ رحلى، فسرْتُ إليه شهرًا، حتى قدمتُ الشامَ، فإذا هو عبد الله بن أُنيس، فقلتُ للبوّاب: قل له: جابرٌ على الباب، فقال: ابن عبد الله؟ قلتُ: نعم، فخرج عبد الله بن أُنيس فاعتنقنى، فقلتُ: حديث بلغنى عنك أنك سمعته من رسول الله ﷺ ، فخشيتُ أن أموت أو تموت قبل أن أسمعه، فقال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: يحشر الله الناس يوم القيامة عُراةً غُرْلاً بُهْمًا، قلنا: ما بُهْمًا؟ قال: ليس معهم شىء، فيُناديهم بصوت يسمعُه مَنْ بَعُد كما يسمعُه من قَرُب:

أنا الملكُ، أنا الديَّان، لا ينبغى لأحد من أهل الجنة يدخل الجنةَ، وأحدٌ من أهل النار يطلبُه بمظلمة، ولا ينبغى لأحد من أهل النار يدخل النار، وأحدٌ من أهل الجنة يطلبُه بمظلمة، حتى اللَّطمة. قال: قلنا: كيف هو، وإنما نأتى الله تعالى عُراةً غُرْلاً بُهْمًا؟! قال: بالحسنات والسيئات»(١).

ولقد خرج ذات سنة إلى بلاد الروم غازيًا فى سبيل الله. وكان الجيش بقيادة مالك بن عبد الله الخثعمى. وكانَ مالك يطوف بجنوده وهم منطلقون ليقف على أحوالهم، ويشد من أزرهم، ويُولى كبارهم ما يستحقونه من عناية ورعاية. فمر بجابر بن عبد الله، فوجده ماشيًا... ومعه بغلٌ له يمسك بزمامه، ويقوده. فقال له: ما بك يا أبا عبد الله؟ لمَ لا تركب؟! وقد يسَّر الله لك ظهرًا يحملك عليه. فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقولَ: «من اغبرَّت قدماهُ فى سبيل الله حرَّمه الله على النار». فتركه «مالكٌ» ومضى حتى غدا

(١) أخرجه أحمد فى المسند، والبخارى فى الأدب المفرد، «باب المعانقة» وذكره فى صحيحه بصيغة الجزم فى كتاب العلم، «باب الخروج فى طلب العلم». والحاكم فى المستدرك وصححه، ووافقه الذهبى.

فى مُقدمة الجيش. ثم التفت إليه، وناداه بأعلى صوته، وقال: يا أبا عبد الله، مالك لا تركب بغلك، وهو فى حوزتك؟! فعرف جابرٌ قصده، وأجابه بصوت عالٍ وقال: لقد سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «من اغبرَّت قدماه فى سبيل الله حرَّمه اللهُ على النار».

فتواثب الناس عن دوابهم... وكلٌّ منهم يريد أن يفوز بهذا الأجر. فما رُئى جيش أكثر مُشاةً من ذلك الجيش.

وحان وقت الرحيل

وبعد حياة طويلة مليئة بالطاعة والعلم والدعوة والتضحية والجهاد فى سبيل الله تعالى نام جابر على فراش الموت بعد أن قارب التسعين من عمره، وذهب بصره فى الوقت الذى أنار الله به بصائر مئاتٍ من البشر بعلمه وورعه وتقواه لله.

ورحل (جابر) عن الدنيا ليلحق بالحبيب ﷺ وبأبيه (عبد الله بن عمرو بن حرام) وبسائر الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ فى جنة الرحمن إخوانًا على سُرُرٍ متقابلين.

فرضى الله عن جابر وعن سائر الصحابة أجمعين

❊ ❊ ❊



عمرو بن الجموح

كأنى أنظر إليك تمشى برجلك هذه صحيحة فى الجنة

محمد رسول الله ﷺ

إن الإنسان بلا إيمان ريشة فى مهب الريح لا تستقر على حال ولا تسكن إلى قرار أينما تميلها الريح تميل ـ والفرد بلا إيمان لا قيمة له ولا جذور ـ إنسانٌ قَلِقٌ متبرم حائر لا يعرف حقيقة نفسه ولا سر وجوده.

لا يدرى من ألبسه ثوب الحياة ولماذا ألبسه إياه، ولماذا ينزعه عنه بعد حين؟

فالإنسان بلا إيمان قلبه لا يفقه وأذنه لا تسمع، وعينه لا تُبصر، والمجتمع بلا إيمان مجتمع غابة، وإن لمعت فيه بوارق الحضارة؛ لأن الحياة فيه للأقوى لا للأفضل والأتقى.

فهو مجتمع شقاء وإن ذخر بأدوات الرفاهية والرخاء ـ فالمجتمع بلا إيمان مجتمعٌ مهين رخيص؛ لأن غاية أهله لا تتجاوز شهوات بطونهم وفروجهم ﴿ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ [محمد:١٢].

ولذا فإن الأمم لا تنهض من كبوة ولا تقوى من ضعف ولا ترتقى من هبوط إلا بعد أن يلامس الإيمان شغاف القلوب، ونحن نعلم جميعًا أن هدم الجبال أو تحويل مياه النيل أو تغيير معالم الكون أسهل بكثير من تغيير القلوب والعقول، وعلى الرغم من ذلك فإن الإيمان هو الشيء الوحيد الذى تغيرت به القلوب وتنورت به العقول، فالإيمان بالله وحده هو الذى يصنع العجائب ويغير وجهة الإنسان وسلوكه بين التو واللحظة ـ فلو أنك كنت تعرف إنسانًا فى جاهليته ثم رأيته مرة أخرى بعد إسلامه أو بعد توبته (إن كان من عصاة المسلمين) لرأيت إنسانًا آخر، وكأن الله أحياه من بعد موته!!![1].

* * *

(١) ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون/ للمصنف (ص ٦٥ : ٦٧) ط. دار الفردوس.

حال العرب في الجاهلية

* كانَ العربُ قبلَ البعثة تابعينَ لقريشٍ وأهلِ مكةَ في أمورِ العقيدة والديانة، وكانوا ينظرون إلى قريش نظرةَ إكبار، فهم سدنَةُ البيتِ وقادةُ الدين، يقتدونَ بهم في الاعتقاد والعبادة، وكانوا خاضعين شبهَ خضوعٍ كاملٍ للوثنية السائدة على أرض العرب، يعبدون منَ الأصنام ما كانت تعبد قبيلةُ قريشٍ، وأهلُ مكة، غير أنّ هذه الأصنامَ كان لبعضها تعظيمٌ في النفوس أكثر منِ بعضها الآخر، وكانت العلاقةُ والارتباط بها أقوى مِنْ سائرها، وذلك لاعتباراتٍ كانوا ينظرون إليها بمقاييس ومعايير خاصة بهم[1].

وها نحن على موعد مع معجزة من معجزات الإيمان التى تصور لنا مشهداً عظيماً لسيد من سادات (بنى سَلمة) كان قد اتخذ صنمًا يُدعى «مناف» ليتبرك به ويذبح له ويدعُوه ليلاً ونهاراً.

ولقد كان يحب هذا الصنم حبًا مَلَكَ عليه لُبَّه وفؤاده، مما جعله يعتنى به أشد العناية فيأتى إليه بأطيب أنواع العطور، ويضمِّخه بها، ولا يُقدم على أى أمرٍ إلا بعد أن يأذن له ذاك الصنم ـ فيما يزعم ـ وما إن لامس الإيمان شغاف قلبه حتى رأى الحقيقة التى جعلته يخجل مما كان يفعله أيام الجاهلية، وأقبل بقلبه وجوارحه على خدمة هذا الدين والذود عن حياضه... مستعذبًا العذاب فى سبيل الله، فلقد جعل نفسه وماله وولده فى خدمة هذا الدين العظيم.

قصة إسلامه

* أوجسَ عمرُو بنُ الجموحِ خيفةً منَ الداعية المكّيِّ مصعبِ بنِ عُمير، فقد استطاعَ هذا الشابُّ المكّيُّ أن ينتزعَ كبارَ الأشرافِ من شَرَكَ الوثنية، وقد انضمَّ إلى ركبِ الإسلامِ عددٌ غيرُ قليلٍ منَ الأوس والخزرج، وأعلنوا إسلامَهم، وقد نُمِيَ إليه أن سيِّدَ الأوس «سعدَ بنَ معاذ» قد أسلم وقومُه أجمعين، وكما نُمى إليه أنَّ كثيراً من أبناء قبيلته بنى سَلمة قد فارقوا دينَهم ودينَ آبائهم، وانضمّوا إلى رعيلِ المسلمين، حتى إنّ صديقَه وصَفيَّه «عبدَ الله ابنَ عمرِو بن حرام» قد أعلن إسلامه، وكذلك ولدُه الأثيرُ لديه «معاذُ ابن عمرو» قد أسلمَ أيضًا، وقد شهد كلٌّ مِن عبدِ الله (صديقِه) ومعاذٍ (ولدِه) العقبةَ

(١) رجال مبشرون بالجنة (ص:٢٩).

وبايعا الرسولَ ﷺ ، وأضحى عبدُ اللهِ بنُ عمرِو بنِ حرام أحدَ النقباء فى تلك الليلة المباركة[(١)].

فتعالوا بنا لنعيش تلك الدقائق التى لا تُحسب من العمر مع كوكب من كواكب المجموعة النبوية... تلك الكوكبة التى نبتت فى حقل الإسلام وسُقيت بماء الوحى فأثمرت حتى كادت أغصانها أن تعانق كواكب الجوزاء.

عن عكرمة، قال: قَدِم مصعب بن عمير المدينة يُعلِّم الناس. فبعث إليه عمرو بن الجموح: ما هذا الذى جئتمونا؟ قالوا: إن شئت جئناك، فأسمعناك القرآن؟ قال: نعم. فقرأ صدراً من سورة «يوسف».

فقال عمرو: إن لنا مؤامرة[(٢)] فى قومنا. وكان سيد بنى سلمة. فخرجوا، ودخل على مناف[(٣)].

فقال: يا مناف! تعلم والله ما يريد القوم غيرك، فهل عندك من نكير؟ قال: فقلده السيف وخرج، فقام أهله فأخذوا السيف، فلما رجع، قال: أين السيف يا مناف؟ ويحك! إن العنز لتمنع إستها[(٤)]، والله ما أرى فى أبى جعار غداً من خير.

ثم قال لهم: إنى ذاهب إلى مالى فاستوصوا بمناف خيراً. فذهب، فأخذوه فكسروه وربطوه مع كلب ميت وألقوه فى بئر، فلما جاء قال: كيف أنتم؟ قالوا: بخير يا سيدنا، طهر الله بيوتنا من الرجس.

قال: والله إنى أراكم قد أسأتم خلافتى فى مناف. قالوا: هو ذاك، فانظر إليه فى ذلك البئر. فأشرف فرآه، فبعث إلى قومه فجاءوا فقال: ألستم على ما أنا عليه؟ قالوا: بلى، أنت سيدنا، قال: فأُشهدكم أنى قد آمنتُ بما أُنزل على محمد[(٥)].

وفى رواية[(٦)]: أنه كان عمرو بن الجموح سيداً من سادات بنى سلمة، وشريفًا من

(١) رجال مبشرون بالجنة (ص: ٣٠ ـ ٣١).
(٢) المؤامرة: المشاورة.
(٣) مناف: صنم كان يُعبد قبل الإسلام.
(٤) تمنع إستها: تحفظ عورتها.
(٥) سير أعلام النبلاء للذهبى (١/ ٢٥٣ ـ ٢٥٤).
(٦) هذه القصة ذكرها الذهبى فى سير أعلام النبلاء (١/ ٢٥٣، ٢٥٤) وأسد الغابة لابن الأثير (٤/ ٢٠٧ ـ ٢٠٨) وسيرة ابن كثير (٢/ ٢٠٧، ٢٠٨).

أشرافهم، وكان قد اتخذ فى داره صنمًا من خشب، يقال له: مناة ـ أو مناف ـ كما كانت الأشراف يصنعون، يتخذه إلهًا يعظمه ويُطهره، فلما أسلمَ فتيان بنى سلمة: معاذ بن جبل، وابنه معاذ بن عمرو [بن الجموح]، فى فتيان منهم ممن أسلم وشهد العقبة، كانوا يُدلجون(١) بالليل على صنم عمرو ذلك، فيحملونه فيطرحونه فى بعض حُفر بنى سلمة، وفيها عذَر الناس ـ مخلفاتهم ـ مُنكسًا على رأسه؛ فإذا أصبح عمرو قال: ويلكم! مَن عدا على إلهنا هذه الليلة؟ قال: ثم يغدو يلتمسه، حتى إذا وجده غسله وطهَّره وطيَّبه؛ ثم قال: أما والله لو أعلم من فعل هذا بك لأُخزينَّه، فإذا أمسى ونام عمرو عدوا عليه، ففعلوا به مثل ذلك؛ فيغدو فيجده فى مثل ما كان فيه من الأذى، فيغسله ويُطهره ويُطيبه، ثم يعدون عليه إذا أمسى، فيفعلون به مثل ذلك. فلما أكثروا عليه، استخرجه من حيث ألقوه يومًا، فغسله وطهره وطيّبه، ثم جاء بسيفه فعلقه عليه، ثم قال: إنى والله ما أعلم مَنْ يصنع بك ما ترى، فإن كان فيك خيرٌ فامتنع، فهذا السيف معك. فلما أمسى ونام عمرو عدوا عليه. فأخذوا السيف من عنقه، ثم أخذوا كلبًا ميتًا فقرنوه به بحبل، ثم ألقوه فى بئر من آبار بنى سلمة، فيها عِذَر من عِذَر الناس، ثم غدا عمرو بن الجموح فلم يجده فى مكانه الذى كان به.

فخرج يتبعه حتى وجده فى تلك البئر منكسًا مقرونًا بكلبٍ ميت، فلما رآه وأبصر شأنه، وكلّمه من أسلم من [رجال] قومه، فأسلم برحمة الله وحَسُن إسلامه.

فقال حين أسلم وعَرف من الله ما عرف، وهو يذكر صَنَمه ذلك وما أبصر من أمره، ويشكر الله تعالى الذى أنقذه مما كان فيه من العَمَى والضلالة:

والله لو كنتَ إلهًا لم تكنْ ... أنت وكلبٌ وسط بئرٍ فى قرن(٢)

أُفٍّ لملقاك إلهًا مُستدنْ ... الآن فتشناك عن سُوء الغبنْ(٣)

الحمدُ لله العلىِّ ذى المِنَنْ ... الواهبِ الرزّاق ديّان الدِّين(٤)

---

(١) يدلجون: يسيروا من آخر الليل وقيل: ساروا الليل كله.

(٢) القرن: بفتح القاف والراء قيل: هو شيء من لحاء شجر يفتل منه حبل. وقيل: الحبل من اللحاء. وقيل: هو الخصلة المفتولة من العهن.

(٣) مستدن: أي ذليل مستعبد، وقال السهيلي في «الروض» هو من السدانة وهي خدمة البيت. والغبن: يكون في الرأي تقول غبن رأي فلان كما تقول سفهت نفس فلان.

(٤) الدين: جمع دينة وهي العادة. ويجوز أن يكون أراد الأديان أي: هو ديان أهل الأديان ولكنه جمعها على دين كما يجمع نحول نحل وملل..

ومنذ اللحظة الأولى التى أعلن فيها عمرو بن الجموح إسلامه اجتث الإيمانُ الضلال والزيف من قلبه، ووجد فى الإسلام متعة ولذة، حيث اكتشف حياته من جديد بعد أن قضى زمنًا طويلاً فى ظلمات الجاهلية ومتاهاتها، ورأى بعينه ما فى الشرك والوثنية من ضلال يهوى بنفس صاحبه إلى درك ليس له قرار، ورأى كذلك أن أُفُقَه أخذ يتسع، وأموره بدأت تستقيم، ونفسه الكبيرة قد تحولت إلى الخير، وعمله أضحى ذا هدف بعد أن كان لا معنى له[١].

وهكذا أضحى عمرو بن الجموح ـ رضى الله عنه ـ واحدًا من الصحابة الذين باعوا أنفسهم لله منذ أن عرف طريق الهداية، وقد بدأ إيمانُه يثمر منذ الدقائق الأولى، وبدأت ثماره تؤتى أُكُلها، وطرح كل أدران الجاهلية عن نفسه، وراح يشكر الله ـ تعالى ـ الذى أخرجه من الظلمات إلى النور، وأنقذه مما كان فيه من الضلالة، وقد عبّر عن ذلك فى قصيدة له يقول فيها:

أتوب إلى اللـه مما مضى ... وأستنقـذ اللـهَ من ناره

وأُثنى عليـه بنعمـائه ... إليـه الحرام وأستـاره

فسبحانه عـدد الخاطئين ... وقطر السمـاء ومـدرارَه

هدانى وقـد كنت فى ظلمة ... حليف منـاة وأحجـاره

وأنقذنى بعـد شيب القُذا ... ل[٢] من شين ذاك ومن عاره

فقد كدتُ أهلك فى ظلمـة ... تـدارك ذاك بمقـداره

فحمـدًا وشكرًا لـه ... مـا بقيت إله الأنام جبارَه

أريـد بـذلك إذا قلتُـهُ ... مجـاورة اللـه فى داره[٣]

استدراك ما فات

وعاش (عمرو) ـ رضى الله عنه ـ أسعد أيامه فى ظل هذا الدين العظيم، وفى صحبة الحبيب ﷺ الذى أحبَّه من أعماق قلبه حبًا جمًا.

---

(١) رجال مبشرون بالجنة (ص ٤٨).

(٢) القُذال: ما بين الأذنين من مؤخرة الرأس.

(٣) حياة الصحابة (١/ ٢٣٢).

وكانت نفسه قد اشتاقت إلى الجهاد فى سبيل الله والشهادة فى سبيله ليكفِّر الله عنه ما أسلف من الذنوب والسيئات.. وذلك لأنه أسلم وكان عمره قد جاوز الستين من عُمره.

فلما كانت غزوة بدر أراد (عمرو) أن يخوضها فمنعه أولاده خوفًا عليه لكبر سنه وضعفه.. فتألم لذلك ألمًا شديدًا.

ابنه يقتل فرعون هذه الأمة

وفى تلك الغزوة سطَّر ابنه (معاذ بن عمرو) صفحة مضيئة على جبين التاريخ عندما شارك فى قتل أبى جهل.

يقول معاذ: «جعلت أبا جهل يوم بدر من شأنى. فلما أمكننى حملتُ عليه، فضربته، فقطعت قدمه بنصف ساقه، وضربنى ابنه عكرمة بن أبى جهل على عاتقى، فطرح يدى وبقيت معلقة بجلدة بجنبى وأجهضنى عنها القتال، فقاتلت عامة يومى وإنى لأسحبها خلفى، فلما آذتنى وضعت قدمى عليها ثم تمطأت عليها حتى طرحتها»[1]...

قال الإمام الذهبى:

فهذه والله الشجاعة، لا كآخر ينقطع قلبه وتخور قواه من خَدْش بسهم.

وانطلقت سيوف المسلمين تحز فى الأعناق، وتبتر الأيدى، وتبعثر الأشلاء، وقد ألقى الله ـ تعالى ـ الرعب فى قلوب المشركين، ولم تمض ساعات قليلة حتى تحقق النصر للمسلمين،وعادوا وبشاراتُ النصر قد سبقتهم إلى المدينة، ونادى أن قُتل أبو جهل وقُتل معه عدد من كفار قريش وفرسانهم، واستطار فؤاد عمرو بن الجموح فرحًا بصنيع ولده معاذ وقتله أبا جهل، وحمد الله الذى جعل أولاده يكسبون شرف الجهاد وغايته[2].

وظل عمرو بن الجموح ملازمًا للحبيب ﷺ يقبس من هديه وسمته وأخلاقه حتى أحبه النبى ﷺ حبًا جمًا.

* * *

(١) سير أعلام النبلاء (١/ ٢٥٠ ـ ٢٥١). وقال شعيب الأرنؤوط: رجاله ثقات.

(٢) رجال مبشرون بالجنة (ص ٣٧).

النبي ﷺ يزكيه بين قومه

لقد كان (عمرو) ـ رضي الله عنه ـ مفطورًا على الجود والكرم والسخاء وعلى الرغم من ذلك فإنه لما أسلم وخالط الإيمان شغاف قلبه زاد جوده وكرمه، فجعل ماله وولده في خدمة دينه وإخوانه.

وها هو الحبيب ﷺ يوضح ويبين منزلة عمرو بن الجموح بين قومه وعشيرته، ويضع وسام الشرف على صدره من بين الناس أجمعين.

فعن جابر ـ رضي الله عنه ـ: أن رسول الله ﷺ قال: «يا بني سلمة! مَن سيدكم؟» قالوا: الجدُّ بن قيس، وإنا لنبخّلُه ـ نتهمه بالبُخل ـ قال: «وأي داءٍ أدوى من البُخل؟ بل سيدكم الجعد الأبيض عمرو بن الجموح»(١).

وحان وقت الرحيل

* استدارَ عامٌ كاملٌ، فخرجتْ قريشٌ إلى «أُحُد»، وقد جمعتْ جموعَها لمعركة الانتقامِ والثأر مِنَ المسلمينَ في بدر، فأعدّتْ عزائمَها وأحقادَها وثاراتِها وسلاحَها، وزحفتْ بذلك جميعِه نحوَ «أُحُد» تريد القضاءَ على الإسلام في عقرِ دارِه.

وتمضي الأيام مسرعة ومازال عمرو تهفو نفسه ويشتاق قلبه إلى الفوز بالشهادة في سبيل الله على الرغم من أن الله قد عذره من فوق سبع سموات.

لقد كان ـ رضي الله عنه ـ أعرج شديد العرج، وكان له أربعة أبناء شباب يغزون مع رسول الله ﷺ ، فلما توجهوا إلى أُحُد أراد أن يخرج معهم فقال له بنوه: إن الله جعل لك رخصة فلو قعدت ونحن نكفيك، وقد وضع الله عنك الجهاد فأتى عمرو رسول الله ﷺ فقال: إن بنّي هؤلاء يمنعونني أن أجاهد معك، ووالله إني لأرجو أن أستشهد ، فأطأ بعرجتي في الجنة . فقال له رسول الله ﷺ: «أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد» وقال لبنيه: «وما عليكم أن تدعوه، لعل الله عز وجل أن يرزقه الشهادة» فخرج مع رسول الله ﷺ ، فقُتل يوم أُحُد شهيدًا»(٢).

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد وأبو نعيم في الحلية، وقال الأرنؤوط: وهذا سند قوي.

(٢) رواه ابن هشام (٢/ ١٣٩) عن ابن إسحاق، وبعضه في المسند (٥/ ٢٩٩) من حديث أبي قتادة، وصحح الألباني إسناده في تحقيق فقه السيرة هامش (٢٨١).

قالت امرأته هند أخت عبد الله بن عمرو بن حرام: كأنى أنظر إليه قد أخذ دَرَقته وهو يقول: اللهم لا تردَّنى.

هكذا كان يتمنى الشهادة من كل قلبه ولا يتمنى أن يرجع سالمًا غانمًا فقد علم أن الغنيمة التى لا يجب أن تفوته أبدًا هى الفوز بالشهادة، ومن ثَم بالخلود فى جنة الرحمن ـ جل وعلا ـ فلما كان يوم أُحُد قال رسول الله ﷺ : «قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين» فقام وهو أعرج فقال: «والله لأقحزنَّ[1] عليها فى الجنة»، فقاتل حتى قُتل[2].

وفى رواية: أنه «أتى عمرو بن الجموح إلى رسول الله ﷺ ، فقال: يا رسول الله! أرأيت إن قاتلتُ فى سبيل الله حتى أُقتل، أأمشى برجلى هذه صحيحة فى الجنة؟ وكانت رجله عرجاء، فقال رسول الله ﷺ : «نعم». فقُتل يوم أُحُد هو وابن أخيه ومولى له. فمر رسول الله ﷺ ، فقال: «كأنى أنظر إليك تمشى برجلك هذه صحيحة فى الجنة». فأمر رسول الله ﷺ بهما وبمولاهما فجُعلوا فى قبرٍ واحد[3].

هكذا يبحث المسلم عن أى دور لخدمة دينه... لا يجلس ويقول: دع ما لكسرى لكسرى وما لقيصر لقيصر، بل تحرك أخى المسلم لنصرة دين الله.

لقاء الأحباب بعد الشهادة

عن عبد الله بن ثعلبة بن صُعير العُذرى، حليف بنى زُهرة: أن رسول الله ﷺ لما أشرفَ على القتلى يوم أُحُد، قال: «أنا شهيدٌ على هؤلاء، إنَّه ما من جريح يُجرحُ فى [سبيل] الله، إلا والله يبعثه يوم القيامة يدمى جُرحه، اللون لون دم، والريح ريح مسك»، «وانظروا أكثر هؤلاء جمعًا للقرآن، فاجعلوه أمام أصحابه فى القبر»ـ وكانوا يدفنون الاثنين والثلاثة فى القبر [الواحد][4].

وقال ابن إسحاق: عن أشياخ من بنى سلمة: أن رسول الله ﷺ ، قال يومئذ، حين أمر

---

(١) القحز: الوثب والقلق.
(٢) سير أعلام النبلاء للذهبى (١/ ٢٥٣).
(٣) قال الحافظ فى الفتح (٣/ ١٧٣): سنده حسن ـ رواه أحمد (٥/ ٢٩٩).
(٤) أورده الهيثمى فى المجمع (٦/ ١١٩) وقال: رواه أحمد (٥/ ٤٣١) والنسائى والبيهقى (٤/ ١١) ورجاله رجال الصحيح.

بدفن القتلى: «انظروا إلى عمرو بن الجموح، وعبد الله بن عمرو بن حَرام، فإنهما كانا متصافيين فى الدنيا فاجعلوهما فى قبرٍ واحد»(١).

كرامة ثابتة (لعمرو) بعد موته

وفى أيام معاوية ـ رضى الله عنه ـ كان السيلُ قد خرَّب قبرهما، فحفر عنهما ليُغيَّرا من مكانهما، فوُجدا لم يتغيَّرا، كأنما ماتا بالأمس، وكان أحدهما قد جُرِح، فوضع يده على جرحه، فدفن كذلك. فأُميطت يدُه عن جُرحه، ثم أُرسلت، فرجعت كما كانت. وكان بين يوم أُحُد ويوم حُفِرَ عنهما ستٌ وأربعون سنة(٢).

وهكذا رحل الشهيد عن دنيانا ليمشى برجله فى الجنة التى فيها ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

فرضى الله عن (عمرو) وعن سائر الصحابة أجمعين

* * *

(١) رواه أحمد (٥/ ٢٩٩) وابن سعد (٢/ ٥٦٢) وذكره ابن حجر فى الفتح (٣/ ٢٥٦، ٢٥٧) وعزاه إلى أحمد فى مسنده بإسناد حسن.

(٢) أخرجه ابن سعد، وقال الحافظ فى الفتح (٣/ ١٧٣): صحيح.

سعد بن الربيع

يا رسول الله ﷺ أجد ريح الجنة

سعد بن الربيع (رضي الله عنه)

إن الأخوة الصادقة أصبحت عُملة نادرة في زمن الغربة الثاني الذي نعيشه الآن... فلا تكاد ترى أخًا صادقًا في أُخوته ـ إلا من رحم الله ـ.

ولقد ضرب أصحاب النبي ﷺ المثل والأسوة والقدوة في الأخوة الصادقة.

وها نحن نعيش من خلال تلك السطور مع هذا الصحابي الجليل سعد بن الربيع الأنصاري الخزرجي البدري النقيب الشهيد الذي لا يستطيع إنسان أن يذكر معنى الأخوة الصادقة إلا ويجعل سعداً متربعًا على عرش الأخوة.

كان سعد ـ رضي الله عنه ـ أحد النقباء ليلة العقبة واستشهد يوم أُحد.

الأخوة الصادقة

لقد صدق أصحاب النبي ﷺ في كل شيء حتى في محبتهم لإخوانهم، فلم يطمع أحدهم فيما عند أخيه بقدر طمعه في حُب أخيه، فلم يحمل أحدهم شيئًا في صدره لأخيه، بل حملوا الحب والوفاء لإخوانهم.

قال الإمام الشافعي:

أُحب الصالحين ولست منهم ... لعلي أن أنال بهم شفاعة

وأكره مَن تجارتهم معاصي ... وإن كنا سويًا في البضاعة

فقال له الإمام أحمد:

تحب الصالحين وأنت منهم ... ومنكم سوف يلقون الشفاعة

وتكره مَن تجارتهم معاصي ... وقاك الله من شر البضاعة

ولذا فإن المؤمن لابد أن يحرص على صحبة المؤمنين الصادقين ولابد أن يتعاهدوا من

الآن على أن يشفعوا لبعضهم البعض فى هذا اليوم العصيب، وبذلك تكتمل معانى الأخوة فى الدنيا والآخرة، ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف:٦٧].

وكذلك يجب أن تحرص على أن تحمل فى قلبك كل المحبة لإخوانك ولا تجعل فى قلبك غشًا ولا حسدًا لأحد من المسلمين.

ولعلكم تعلمون قصة الرجل الذى قال عنه النبى ﷺ: «يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة.

فعن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال: كنا جلوسًا مع رسول الله ﷺ ، فقال: «يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة» فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوئه قد علق نعليه بيده الشمال ، فلما كان الغد قال رسول الله ﷺ مثل ذلك، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى، فلما كان اليوم الثالث قال رسول الله مثل مقالته أيضًا، فطلع ذلك الرجل على مثل حالته الأولى، فلما قام رسول الله ﷺ تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص، فقال: إنى لاحيت أبى، فأقسمت أنى لا أدخل عليه ثلاثًا، فإن رأيت أن تؤوينى إليك حتى تمضى فعلت. قال: «نعم»... قال أنس: فكان عبد الله يحدِّث أنه بات معه تلك الليالى الثلاث فلم يره يقوم من الليل شيئًا غير أنه إذا تعار (تقلَّب على فراشه) ذكر الله وكبَّر حتى يقوم لصلاة الفجر... قال عبد الله: غير أنى لم أسمعه يقول إلا خيرًا. فلما مضت الليالى الثلاث وكدت أن أحتقر عمله قلت: يا عبد الله لم يكن بينى وبين أبى غضب ولا هجرة، ولكنى سمعت رسول الله يقول لك ثلاث مرات: «يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة»، فطلعت أنت الثلاث المرات، فأردت أن آوى إليك لأنظر ما عملك فأقتدى به، فلم أرك تعمل كبير عمل، فما الذى بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ ؟ قال: ما هو إلا ما رأيت. فلما وليت دعانى فقال: ما هو إلا ما رأيت غير أنى لا أجد فى نفسى لأحد من المسلمين غشًا ولا أحسد أحدًا على خير أعطاه الله إياه. قال عبد الله: فهذه التى بلغت بك، وهى التى لا تُطاق[1].

يقول النبى ﷺ: «مَن أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان»[2].

---

(١) رواه أحمد والنسائى وقال ابن كثير فى تفسيره (٤/ ٣٣٨) وهذا إسناد صحيح على شرط الصحيحين.

(٢) رواه أبو داود والضياء عن أبى أُمامة، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٩٦٥).

وليس هذا فحسب، بل إن المحبة من أجل الله توجب محبة الله للعبد.

إن الله تعالى يقول: «حقت محبتى للمتحابين فىَّ وحقت محبتى للمتواصلين فىَّ وحقت محبتى للمتناصحين فىَّ، وحقت محبتى للمتزاورين فىَّ، وحقت محبتى للمتباذلين فىَّ، المتحابون فىَّ على منابر من نور يغبطهم بمكانهم النبيون والصديقون والشهداء»(١).

بل يصبح من السبعة الذين يظلهم الله فى ظله.

فقد قال ﷺ: «سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله: ـ وذكر منهم ـ ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه»(٢).

ولقد كانت تلك المحبة سببًا فى وجوب الجنة لرجلٍ يحب أخاه من أجل الله عز وجل.

قال ﷺ: «إن رجلاً زار أخًا له فى الله فأرصد الله له ملكًا، فقال أين تريد؟ قال: أريد أن أزور أخى فلانًا، فقال: لحاجة لك عنده؟ قال: لا. قال: لقرابة بينك وبينه؟ قال: لا. قال: فبنعمة لك عنده؟ قال: لا. قال: فبِمَ؟ قال: أحبه فى الله. قال: فإن الله أرسلنى إليك أخبرك بأنه يحبك لحبك إياه وقد أوجب لك الجنة»(٣).

يقول الشافعى رحمة الله عليه:

إذا المرءُ لا يرعـــاك إلا تكلفا ... فدعـــه ولا تُكثر عليه التأسفا

ففى الناس إبدالٌ وفى الترك راحةٌ ... وفى القلب صبرٌ للحبيب ولو جفا

فمـا كل من تهـواه يهـواك قلبُه ... ولا كل من صافيتُه لك قد صفا

إذا لم يكن صفـو الوداد طبيعـةً ... فلا خير فى خِلٍّ يجىء تكلفا

ولا خير فى خِلٍّ يخـون خليله ... ويلقاه من بعـد المودة بالجفا

وينكر عيشًا قـد تقادم عهـدُه ... ويُظهر سرًا كان بالأمس قد خفا

سـلامٌ عـلى الدنيـا إذا لم يكن ... بها صديقٌ صدوقٌ صادق الوعد منصفا(٤)

---

(١) رواه أحمد والحاكم والطبرانى فى الكبير عن عبادة بن الصامت ـ صحيح الجامع (٤٣٢١).

(٢) متفق عليه عن أبى هريرة ـ صحيح الجامع (٣٦٠٣)، ورواه أحمد والترمذى والنسائى ومالك.

(٣) رواه مسلم عن أبى هريرة ـ صحيح الجامع (٣٥٦٧) بطرف «زار رجل....» الصحيحة (١٠٤٤) البخارى فى الأدب المفرد (٥٥/ ٥).

(٤) نقلاً من كتاب «صدقوا ما عاهدوا» للمصنف ـ ط. دار الفردوس.

ولقد بدأت حديثى عن الصحابى الجليل (سعد بن الربيع) ـ رضى الله عنه ـ بالكلام عن الأخوة، وذلك لأنه ضرب المثل الأعلى فى الأخوة حتى إننا لا نستطيع أن نتحدث عن أمر الأخوة إلا ونذكره بقلوبنا قبل ألسنتنا.

نشأة مباركة

لقد نشأ (سعد) فى أسرة عريقة فلقد كان والده (الربيع بن عمرو) من سادات بنى الحارث الخزرجيين. وأمه هزيلة بنت عتبة من القبيلة نفسها.

ولما كان اليهود يعيرون العرب بأنهم أمة أمية.. أرسل الربيع ولده (سعداً) ليتلقى الكتابة والقراءة.

وأصبح (سعد) سيداً وتحلَّى بالأخلاق والآداب التى يتحلى بها رئيس القوم، بل وأصبح جديراً بحب الخزرج واحترامهم.

ولقد امتن الله عليه بعقلٍ سليمٍ ناضج وقلبٍ يحب الخير لكل مَن حوله، ولذلك كان يبغض الخلافات والحروب التى تدور من حوله.

موعد مع السعادة

وها هو على موعدٍ مع القدر ومع السعادة الأبدية.

فلقد كان النبى ﷺ يدعو الناس فى مواسم الحج.

وذات يومٍ خرج رسولُ الله ﷺ فى المَوْسم الذى لقيه فيه النفرُ من الأنصار، فعرض نفسه على قبائل العرب، كما كان يصنع فى كلّ مَوْسم، فبينما هو عند العقبة لَقِىَ رهطًا من الخزرج أراد الله بهم خيراً.

فلما لقيهم رسول الله ﷺ قال لهم: «من أنتم؟» قالوا: نَفَر من الخزرج، قال: «أمِنْ موالى يَهود؟» قالوا: نعم، قال: «أفلا تجلسون أكلّمكم؟» قالوا: بلى، فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله ـ عز وجل ـ وعَرض عليهم الإسلامَ، وتلا عليهم القرآن، قال: وكان مما صنع الله بهم فى الإسلام، أنَّ يهود كانوا معهم فى بلادهم، وكانوا أهل كتاب وعِلْم، وكانوا هم أهلَ شِركٍ وأصحابَ أوثان وكانوا قد غَزَوْهم[1] ببلادهم، فكانوا إذا كان

---

(١) غزوهم: أى غلبوهم، وقهروهم. وفى بعض النسخ: «عزوهم».

بينهم شيءٌ قالوا لهم: إن نبيًا مبعوثٌ الآن قد أظلّ زمانُه، نتَّبعه فنقتلكم قتلَ عاد وإرَم. فلما كلّم رسول الله ﷺ أولئك النفر، ودعاهم إلى الله، قال بعضهم لبعض: يا قوم، تعلَّمُوا والله إنه للنبيّ الذي توعَّدُكم به يهود، فلا يسبقُنَّكم إليه، فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدّقوه وقَبِلوا منه ما عَرَض عليهم من الإسلام، وقالوا: إنا قد تركنا قومنَا، ولا قوم بينهم من العداوة والشرّ ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدمَ عليهم، فَندعوهم إلى أمرك، ونَعْرِض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدِّين، فإنْ يجمعهم الله عليه فلا رجل أعزّ منك.

ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم، وقد آمنوا وصدّقوا(١).

فلما قَدمُوا المدينة إلى قومهم ذَكَروا لهم رسول الله ﷺ وَدَعوْهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم، فَلم تبقَ دارٌ من دور الأنصار إلا وفيها ذكرٌ من رسول الله ﷺ.

حتى إذا كان العامُ المُقْبِل وَافَى المَوْسِمَ من الأنصار اثنا عشرَ رجلاً، فَلَقُوهُ بالعقبة. وهى العقبة الأولى، فبايعوا رسولَ الله ﷺ على بيعة النساء وذلك قبل أن تُفترض عليهم الحرب.

ثم بعث رسولُ الله ﷺ معهم مُصعب بن عُمير، وأمره أن يُقرئهم القرآن، ويُعلِّمهم الإسلام، ويُفقِّههم فى الدِّين، فكان يُسمَّى المقرئ بالمدينة: مُصعب، وكان منزله على أسعد بن زرارة، أبى أمامة(٢).

وقام مصعب ـ رضى الله عنه ـ يحمل أمانة الدعوة إلى الله فاستطاع أن يستميل القلوب وأن يأخذ بأيدى العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سَعة الآخرة. حتى أسلم على يديه سعد بن معاذ وأُسيد بن حضير وغيرهم من الصادقين ـ رضى الله عنهم ـ وكان من بينهم سعد بن الربيع ـ رضى الله عنه ـ الذى كان على موعدٍ مع سعادة الأبد وخيرى الدنيا والآخرة.. فلقد لامس الإيمان شغاف قلبه.

وما إن أسلم (سعد) حتى تاقت نفسه إلى لقاء الحبيب ﷺ.

---

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/ ٤٣٣، ٤٣٤) والطبرى فى تاريخه (١/ ٥٨٨)، وابن سيد الناس فى عيون الأثر (١/ ٢٦٢) وذكره الغزالى فى فقه السيرة (ص ١٧٢) وحسنه الألبانى.

(٢) أخرجه الطبرى فى تاريخه (١/ ٥٥٩) عن ابن إسحاق... به وذكره ابن حجر فى الفتح (٧/ ٢٦٤). وقال: وذكر ابن إسحاق... الحديث.

لقاء مع الحبيب ﷺ

* وجاءت تلك اللحظة التاريخية التي لن تتكرر أبدًا ـ ألا وهي بيعة العقبة الثانية ـ وخرج الأنصار لمبايعة رسول الله ﷺ.

وكان من بين مَن خرج لمبايعة النبي ﷺ بيعة العقبة الثانية (سعد بن الربيع) ـ رضي الله عنه ـ الذي كان في أشد شوقه للقاء الحبيب ﷺ لينهل من هذا المعين الصافي ما يُثلج صدره وليقبس من هديه وحكمته وأخلاقه العذبة.

وامتدت يده لتصافح الحبيب ﷺ ولتبايعه.

ثم عاد (سعد) إلى المدينة وقد امتلأ قلبه بالسعادة التي لو قُسمت على أهل الأرض لوسعتهم أجمعين.

الهجرة المباركة

ولما اشتد الإيذاء بأصحاب الحبيب ﷺ أذن لهم بالهجرة إلى يثرب (المدينة المنورة).

وخرج المهاجرون إلى يثرب فرارًا بدينهم من بطش قريش، فنزلوا في رحاب إخوانهم من الأنصار الذين تبوءوا الدار والإيمان... الذين قال الله عنهم:

﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر:٩].

ولما استقر المقام بالحبيب ﷺ في المدينة آخى بين المهاجرين والأنصار، وهنا ظهرت نوادر الإخاء والحب والتضحية بصورة لا يتصورها عقل ولا تخطر ببال أحدٍ من البشر، فكانت تلك الأخوة التي لا تتكرر أبدًا عبر العصور والأزمان.

ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة

وها هو سعد بن الربيع الذي تعايش مع كل آية من آيات القرآن ومع كل حديث من أحاديث النبي ﷺ... يحقق معنى الأخوة كما أرادها الحق ـ جل جلاله ـ.

فعن أنس ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: قدم علينا عبد الرحمن بن عوف وآخى النبي ﷺ

بينه وبين سعد ابن الربيع ـ وكان كثير المال ـ فقال سعد: قد علمت الأنصار أنى من أكثرها مالاً سأقسم مالى بينى وبينك شطرين ـ نصفين ـ ولى امرأتان فانظر أعجبهما إليك فأطلقها حتى إذا حلَّت تزوجتها. فقال عبد الرحمن: بارك الله لك فى أهلك. فلم يرجع يومئذ حتى أفضل شيئًا من سمن وأقط[١]، فلم يلبث إلا يسيرًا حتى جاء رسول الله ﷺ وعليه وضرٌ من صفرة فقال له رسول الله ﷺ: «مهيم؟» قال: تزوجت امرأة من الأنصار، قال: «ما سُقت فيها؟» قال: وزن نواة من ذهب ـ أو نواة من ذهب ـ فقال: «أولِم ولو بشاة»[٢].

وإن إعجاب المرء بسماحة (سعد) لا يعدله إلا إعجابه بنُبل (عبد الرحمن) الذى زاحم اليهود فى سوقهم وبَزّهم فى ميدانهم، واستطاع بعد أيام أن يكسب ما يعف به نفسه ويحصن به فرجه.. ذلك أن علو الهمة من خلائق الإيمان[٣].

نعم فإن الإسلام دين يحث على العمل ولا يرضى بالتواكل ولا يرضى بأن يخدش المسلم حياءه أو يُذهب ماء وجهه من أجل أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه.

قال الحسن البصرى: والله لقد رأيتُ أقوامًا كانت الدنيا أهون على أحدهم من التراب تحت قدميه، ولقد رأيتُ أقوامًا يُمسى أحدُهم ولا يَجدُ عنده إلا قوتًا، فيقول: لا أجعل هذا كلَّه فى بطنى، فيتصدَّق ببعضه، ولعلّه أحوج إليه ممن يتصدق عليه.

فانظر عندما تعفف عبد الرحمن بن عوف ورفض العطاء الذى عرضه عليه سعد بن الربيع عوّضه الله خيراً كثيراً وتزوج فى وقت قياسى «ومن يستعفف يُعفه الله»[٤]. فلقد كان زواج المسلمين ميسوراً بأمر الله.

ولم يكن هذا الموقف الإيمانى فى تحقيق معنى الأخوة الصادقة مقصور على (سعد ابن الربيع) فحسب، بل لقد كان الأنصار يضربون المثل والأسوة فى الحرص على القيام بحقوق الأخوة الصادقة.

وقد مدح الله ـ عز وجل ـ الأنصار بالإيمان والإيثار، فقال تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ

---

(١) الأقط: قطع الجبن.

(٢) أخرجه البخارى (٣٧٨١) والطبرانى فى الكبير (٥٤٠٤).

(٣) فقه السيرة للشيخ الغزالى (ص: ١٩٣).

(٤) أخرجه البخارى وأحمد عن حكيم بن حزام ـ صحيح الجامع (٨١٩٦).

حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر:٩].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رجلاً أتى النبي ﷺ فبعث إلى نسائه، فقلن: ما معنا إلا الماء، فقال رسول الله ﷺ:«من يضم ـ أو يضيف ـ هذا» فقال رجل من الأنصار: أنا. فانطلق به إلى امرأته فقال: أكرمي ضيف رسول الله ﷺ . فقالت: ما عندنا إلا قوت صبياني فقال: هيئي طعامك، وأصبحي سراجك، ونوِّمي صبيانك إذا أرادوا عشاءً، فهيأت طعامها، وأصبحت سراجها، ونوَّمت صبيانها.ثم قامت كأنها تُصلح سراجها فأطفأته، فجعلا يريانه أنهما يأكلان، فباتا طاويين، فلما أصبح غدَا إلى رسول الله ﷺ . فقال: «ضحك الله الليلة ـ أو عجب ـ من فعلكما فأنزل الله:

﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١) [الحشر:٩].

وعن ابن الأعرابي قال: استشهد باليرموك عكرمة بن أبي جهل، وسهيل ابن أبي جهل، وسهيل بن عمرو بن الحارث بن هشام، وجماعة من بني المغيرة، فأُتوا بالماء وهم صرعى، فتدافعوه حتى ماتوا، ولم يذوقوه؛ أُتي عكرمة بالماء فنظر إلى الحارث بن هشام ينظر إليه فقال: ابدءوا به، فنظر سهيل إلى الحارث ابن هشام ينظر إليه فقال: ابدءوا بهذا، فماتوا كلهم قبل أن يشربوا، فمر بهم خالد بن الوليد فقال: بنفسي أنتم(٢).

وعن حذيفة العدوي قال: انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لي ومعي شيء من ماء، وأنا أقول: إن كان به رمق سقيته، ومسحت به وجهه، فإذا أنا به فقلت: أسقيك؟ فأشار إليَّ أن نعم، فإذا رجل يقول: آه. فأشار ابن عمي إليَّ أن انطلق به إليه، فجئته فإذا هو هشام بن العاص. فقلت: أسقيك؟ فسمع به آخر فقال: آه. فأشار هشام انطلق به إليه، فجئته فإذا هو قد مات، فرجعت إلى هشام فإذا هو قد مات، فرجعت إلى ابن عمي فإذا هو قد مات ـ رحمة الله عليهم أجمعين ـ(٣).

* * *

(١) أخرجه البخاري (٧/ ١٤٩) مناقب الأنصار.

(٢) التبصرة (٢/ ٢٥٩).

(٣) إحياء علوم الدين للغزالي (٣/ ٢٧٤).

صورة مشرقة من جهاده فى سبيل الله

* منذ أنْ أعلنَ سعد بن الربيع إسلامَه لم يتوانَ عن تقديم خدماته للإسلام وأهله، وجاهد فى سبيل الله بنفسه وماله، وكل ما يملك، وجاءتْ معركةُ بدر، فخرجتْ قريش من مكة عن بكرةِ أبيها معتقدةً أنَّها ستوجهُ الضربة القاصمةَ التى تقضى على الإسلام وأهله، لأنَّ المسلمين بزعْمها قد تطاولوا عليها، وأقْدموا على التَّصدى لعيْرها وكَسْر هيبة قريش أمام العرب...، وسمع الرسول ﷺ بخروج قريش، فخرجَ بأصحَابه حتى نزلَ فى بدر، وعبأ الرسول أصحابه أحسنَ تعبئة وحثَّهم على الصبر والثبات، وبدأ الزحف من قبَلِ قريش، فالتقى الجمعان، وهجمَ المسلمون على المشركين بقلوبٍ ملؤها الإيمان بالحق والرَّغبة فى الشهادة والطمعِ فى ثواب الله؛ وأمدَّ الله المؤمنين بروحٍ منْ عنده، فازدادتْ حماستهم وتضاعفت قوتهم.

وكان سعد بن الربيع رضى الله عنه، يقاتل فى هذه الغزوة قتالَ الأسود، وأبلى فيها بلاء حسنًا، وتجاوزَ مقدار الشجاعة، حيث ظهر من شدة بأسه ما أدهشَ الكفار، فلقد قُتل أحد رؤوس المشركين وهو «رفاعة بن أبى رفاعة» ومع هذا كلِّه فقد كان سعد بن الربيع رضى الله عنه يؤثرُ الصمت والهدوء ويقاتلُ فى سبيل الله، وكان رسول الله ﷺ يعرفُ عنه هذا ويُكنُّ له كل الحب والتقدير.

* انتهت غزوة بدر بانتصار المسلمين، ولم يَغبْ سعد بن الربيع عن أنْظار الرسول ﷺ، بل ظلَّ قريبًا منه؛ شهد غدر يهود بنى قينقَاع ومجاهرتهم العداءَ للمسلمين، ثمَّ شهد إجْلاءهم عن المدينة المنورة، وشهد المشاهد كلها حتى جاءتْ غزوة أحد[1].

يا رسول الله أجد ريح الجنة !!!

وفى غزوة أُحد قاتل سعد بن الربيع قتالاً شديداً ليظفر بتلك الأمنية التى كانت تشغل قلوب الصحابة جميعًا ـ ألا وهى الشهادة فى سبيل الله ـ.

ولما انتهت تلك الغزوة بدأ النبى ﷺ يتفقد القتلى والجرحى.

قال زيد بن ثابت: بعثنى رسول الله ﷺ يوم أُحد أطلب (سعد بن الربيع) فقال لى: «إن رأيته فأقرئه منى السلام، وقل له: يقول لك رسول الله ﷺ: كيف تجدك؟» قال:

(١) رجال مبشرون بالجنة (ص:٢٩٠ ـ ٢٩١).

فجعلت أطوف بين القتلى، فأتيته وهو بآخر رمق، وفيه سبعون ضربة: ما بين طعنة برمح، وضربة بسيف، ورمية بسهم، فقلت: يا سعد، إن رسول الله ﷺ يقرأ عليكَ السلام، ويقول لك: «أخبرني كيف تجدك؟» فقال: وعلى رسول الله ﷺ السلام، قل له: يا رسول الله أجد ريح الجنة، وقل لقومي الأنصار: لا عذر لكم عند الله إن خَلُص إلى رسول الله ﷺ وفيكم عينٌ تطرف. وفاضت نفسه من وقته[1].

وفي رواية: أنه «لما كان يوم أُحد قال رسول الله ﷺ: «مَنْ رجلٌ ينظرُ لي ما فعل سعدُ ابن الربيع؟» فقال رجل من الأنصار: أنا. فخرج يطوف في القتلى، حتى وجد سعداً جريحًا مثبتًا بآخر رمق، فقال: يا سعد، إن رسول الله ﷺ أمرني أن أنظر: أفي الأحياء أنت أم في الأموات؟! قال: فإني في الأموات، فأبلغ رسول الله ﷺ السلام، وقل: إن سعداً يقول: جزاك الله عني خير ما جزى نبيًا عن أمته، وأبلغ قومك مني السلام، وقل لهم: إن سعداً يقول لكم: إنه لا عُذرَ لكم عند الله إن خُلِص إلى نبيكم - أي أصابه مكروه - وفيكم عين تطرف»[2].

حفظ الله لذريته من بعده

عن جابر بن عبد الله قال: جاءت امرأة سعد بن الربيع بابنتيها من سعد، فقالت: يا رسول الله! هاتان بنتا سعد، قُتل أبوهما معك يوم أُحُد شهيداً، وإنَّ عمهما أخذ مالهما، فلم يدع لهما مالاً، ولا تُنكحان إلا ولهما مال، قال: «يقضي الله في ذلك» فأُنزلت آيةُ المواريث، فبعث إلى عمهما فقال: «أعطِ بنتي سعد الثلثين، وأعط أمهما الثمن، وما بقي فهو لك»[3].

وهكذا يحفظ الله العبد الصالح وذريته من بعده كما جاء في سورة الكهف في شأن الغلامين اليتيمين. قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [الكهف:٨٢].

فرضي الله عن سعد وعن سائر الصحابة أجمعين

---

(١) رواه ابن هشام (٢/ ٩٤ - ٩٥) والحاكم (٣/ ٢٠١) وصححه ووافقه الذهبي.
(٢) الإصابة (٤/ ١٤٤) الاستيعاب لابن عبد البر (٤/ ١٤٥) والسيرة لابن هشام (٢/ ٩٤ - ٩٥).
(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٣٥٢) والترمذي (٢٠٩٣) وصححه.. ونقل المنذري تحسينه له وهو الأصح.

حارثة بن النعمان

سمعه النبى ﷺ يقرأ القرآن فى الجنة

وها نحن اليوم على موعد مع نجم جديد يضيء سماء الكون كله... إنه واحد ممن تربوا فى ظلال الوحى الكريم... إنه الرجل الذى ردّ عليه جبريل السلام... إنه الرجل الذى سمع النبى ﷺ صوته فى الجنة وهو يقرأ القرآن... بل إنه الرجل الذى قال عنه جبريل ـ عليه السلام ـ: إنه من المائة الصابرة الذين تكفّل الله برزقهم فى الجنة.

إننا على موعد مع حارثة بن النعمان.

إننا مع مثال ضرب القدوة والأسوة لكل شباب الأمة فى البر بالوالدين. إنه حارثة ابن النعمان الذى سمعه النبى ﷺ يقرأ القرآن فى الجنة!!!.

عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «نمت فرأيتنى فى الجنة فسمعت صوت قارئ يقرأ، فقلت: من هذا؟ قالوا: هذا حارثة بن النعمان فقال لها رسول الله ﷺ كذاك البر كذاك البر». وكان أبر الناس بأمه[١].

قال عنه الإمام الذهبى: شهد بدراً والمشاهد ولا نعلم له رواية وكان ديِّنًا خيِّرًا براً بأمه[٢].

وقالت عائشة ـ رضى الله عنها ـ: كان رجلان من أصحاب رسول الله ﷺ أبرَّ من كان فى هذه الأُمة بأمهما: عثمان بن عفان، وحارثة بن النعمان ـ رضى الله عنهما ـ أما عثمان: فإنه قال: ما قدرتُ أتأمَّل وجه أمى منذ أسلمتُ. وأما حارثة: فكان يُطعمها بيده، ولم يستفهمها كلامًا قطُّ تأمُر به، حتى يسأل مَنْ عندها بعد أن يخرج: ماذا قالت أمى؟»[٣].

* * *

(١) قال الأرنؤوط: رواه أحمد (٦/ ١٥١) وأبو يعلى (٧/ ٣٩٩) والحاكم (٣/ ٢٠٨) بسند صحيح.
(٢) سير أعلام النبلاء (١/ ٣٧٨).
(٣) التبصرة (١/ ١٨٨).

هذا هو حارثة (رضى الله عنه)

* إنَّه واحدٌ منْ جنودِ الرّحمن ممن كانوا يتسابقون إلى بذْل أموالهم ـ كبذْل أنفسهم فى سبيلِ الله ـ فكان هذا الفارس ممّنْ سجّلَ أعظمَ المواقِف فى سجلّ الجود، وهَل يعدل الجود شىء منَ الفضائل؟!

* لقد بذلَ نفسه في سبيلِ مرضاة الله عزَّ وجلَّ، ومرضاة رسوله ﷺ وقدّمَ كثيراً للأسرة المحمّدية، وكثيراً ما كانَ يتركُ بيته، وينزلُ عنه لرسولِ الله ﷺ حتى لقد استحيا منه ﷺ وأشاد بكرمه فى أكثر من موقف.

* ولكنَّ هذا الفارسَ الكريم استقى كرمه وجُوده من سيِّد الكُرماء الأجواد، وسيِّد الشُّجعان، وإمام المتَّقين سيّدنا وحبيبنا محمّد رسول الله ﷺ الذى كان أَحْسَن النَّاس، وأشجع النَّاس، وأجْوَد النَّاس[1].

ومن هنا كانت البداية

وتعالوا بنا لنبدأ قصته المباركة من أولها.

فإنه فى موسم من مواسم الحج لقى رسول الله ﷺ نفراً من الخزرج اليثربيين، وعرض عليهم الإسلام، وقد تعرَّف على هويتهم، وتأكد أنهم من موالى اليهود، ولم يستغرب هؤلاء النفر الحديث عن الله وعن الرسل، والكتب المنزلة، فهذا الحديث قد طرق مسامعهم من قبل، إذ سمعوه من اليهود (جيرانهم) أكثر من مرة، ولما دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام وإلى الإيمان بالله ـ تعالى ـ وتلا عليهم القرآن الكريم وجد الإيمان إلى قلوبهم سبيلاً، فأعلنوا إسلامهم، وواعدوا الرسول الكريم ﷺ أن يدعوا إلى الله، وإلى الإسلام فى بلدهم يثرب.

انطلق الخزرجيون الستة نحو بلدهم، ووفَّوا بوعدهم لرسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ ونشروا الإسلام بين صفوف الأوس والخزرج حتى فشا الإسلام فى المدينة، ولما كان العام المقبل جاء اثنا عشر رجلاً منهم، وبايعوا رسول الله ﷺ عند العقبة، ولما انصرف القوم بعث رسول الله ﷺ أحد أصحابه النُجباء، وهو مصعب بن عمير ـ رضى الله عنه ـ وأمره أن يقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم فى الدين، فقام مصعب

---
(١) فرسان من عصر النبوة (ص:٥٧٨).

بن عمير بمهمته خير قيام، واستطاع بما آتاه الله من حكمة وأناة أن يستميل قلوب أهل المدينة من أوس وخزرج، وقد وصلت أنباء الدعوة إلى الإسلام إلى سمع «حارثة ابن النعمان» فانطلق إلى الداعية المكي، وأعلن إسلامه، واستطار قلبه فرحًا حينما أسلمت أمُّه «جعدة بنت عبيد»؛ لأنه كان بارًا بها أشد البر، وأسلمت كذلك أسرته كلها[1].

الهجرة المباركة

ولما أذن الله لرسوله ﷺ بالهجرة إلى (يثرب) المدينة المنورة قام الأنصار على قلب رجلٍ واحدٍ لاستقبال الحبيب ﷺ وصاحبه ـ رضي الله عنه ـ وقلوبهم قد امتلأت بالبهجة والسعادة والفرحة.

وكان من بين هؤلاء الذين خرجوا لاستقبال الحبيب ﷺ (حارثة بن النعمان).

وازدادت فرحة (حارثة) عندما رأى النبي ﷺ قد نزل في دار أبي أيوب الأنصاري، وذلك لأن حارثة كان من بني النجار فضمن بذلك أن يكون قريبًا من النبي ﷺ .

فكان (حارثة) يتردد كثيرًا على الحبيب ﷺ يتعلم على يديه ويقبس من هديه وأخلاقه السامية، فازداد حبًا للنبي ﷺ وكان الحبيب ﷺ يبادله الحب لما رأى عليه من نقاء القلب وصفاء السريرة وعلامات المروءة والصدق.

وكان حارثة ـ رضي الله عنه ـ يتمنى من كل قلبه أن يفدي الحبيب ﷺ بنفسه وبماله وبكل ما يملك.

من مواقفه النبيلة

ولما قدم النبي ﷺ المدينة وتزوج (عليٌّ) (فاطمة) ـ رضي الله عنهما ـ وبنى بها في منزل بعيد عن النبي ﷺ وأراد النبي ﷺ أن يُحوِّل منزلهما بالقرب منه فسمع حارثة بذلك فترك منزله القريب لعلي وفاطمة ليكونا بالقرب من رسول الله ﷺ.

بل لما تزوج النبي ﷺ صفية بنت حُيي (رضي الله عنها) أنزلها في منزل من منازل حارثة بعد أن تحوَّل حارثة عنه.

وبذلك كان حارثة سبَّاقًا إلى كل مكرمة يُرضي بها رسول الله ﷺ.

---

(١) رجال مبشرون بالجنة (ص ٢٠٠) لأحمد خليل جمعة.

فلما كانت غزوة بدر كان (حارثة) من بين فرسان المسلمين فخاض المعركة بكل بسالة وفداء وقوة وثبات.

وفى تلك المعركة انقضَّ على (عثمان بن عبد شمس) فأسره، ولما بعثت قريش فى فداء الأسرى.. أرسل (جبير بن مطعم) فى فداء (عثمان بن عبد شمس) ففاز حارثة بالأجر والفداء.

وشهد حارثة ـ رضى الله عنه ـ المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وسطَّر على جبين التاريخ سطوراً من النور.

وفى يوم حُنين كان من المائة الصابرة فى ذلك اليوم... بل كان حريصًا على أن يكون قريبًا من النبى ﷺ خوفًا عليه من أن يصيبه مكروه.

جبريل ـ عليه السلام ـ يرد السلام على حارثة

قد يتفاخر الإنسان بأنه ذات يومٍ التقى برجلٍ من سادة القوم أو من أصحاب الشهرة فسلَّم عليه.. ولا يستطيع أن ينسى أبداً هذا اليوم... فما ظنك بمن يسلم عليه أمير الملائكة جبريل ـ عليه السلام ـ.

عن حارثة بن النعمان قال: مررت على رسول الله ﷺ ومعه جبريل ـ عليه السلام ـ جالس فى المقاعد فسلمت عليه ثم أجزت، فلما رجعت وانصرف النبى ﷺ قال: «هل رأيت الذى كان معى؟» قلت: نعم. قال: «فإنه جبريل وقد رد عليك السلام»[(1)].

تكفل الله برزق (حارثة) فى الجنة

عن حارثة بن النعمان أنه قال: رأيت جبريل من الدهر مرتين: يوم الصَّوْرَيْن[(2)] حين خرج رسولُ الله إلى بنى قريظة، مرَّ بنا فى صورة دحية، فأمرنا بلبس السلاح؛ ويوم موضعِ الجنائز حين رجعنا من حُنين، مررتُ وهو يكلم النبى ﷺ، فلم أسلِّم. فقال جبريل: مَنْ هذا يا محمد؟ قال: حارثةُ ابنُ النعمان. فقال: أما إنه من المئة الصابرة يوم حنين الذين تكفل الله بأرزاقهم فى الجنة، ولو سَلَّم لرددنا عليه[(3)].

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٤٣٣) بسند صحيح ـ وذكره الحافظ فى الإصابة (١/ ٢٩٨)، وقال: إسناده صحيح.

(٢) الصوران: موضع بالمدينة بالبَقيع. وفى سيرة ابن هشام (٢/ ٢٣٤): ومر رسول الله ﷺ بنفر من أصحابه بالصورين قبل أن يصل إلى بنى قريظة.

(٣) ذكره الهيثمى فى المجمع (٩/ ٣١٤) ونسبه للطبرانى والبزار وقال: إسناده حسن.

واستمر حارثة ـ رضى الله عنه ـ يتابع رحلة جهاده ونضاله، ولما توفى رسول الله ﷺ ظل حارثة بن النعمان ـ رضى الله عنه ـ مثال الجندى الأمين المخلص فى حياة الخلفاء الراشدين، ولم يتوقف جهاده وعطاؤه حتى لقى ربه... ورُوى أنه وقف موقفًا طيبًا من عثمان ـ رضى الله عنه ـ حيث قال له حينما حوصر: «إن شئت قاتلنا دونك»(١).

وبقى هذا الصحابى الجليل إلى خلافة معاوية ـ رضى الله عنه ـ ومات أثناء خلافته.

ومن ذريته: المحدِّث أبو الرجال محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن حارثة بن النعمان الأنصارى ولد عمرة الفقيهة التى أكثرت عن عائشة ـ أى فى الرواية ـ روى حديثها الستة(٢).

ولا يفوتنا ونحن نتحدث عن حارثة ـ رضى الله عنه ـ الذى ضرب المثل فى بره بأمه أن نُلقى الضوء على نبذة يسيرة من بر الوالدين.

بر الوالدين يفرج الله به الكربات

إن بر الوالدين جعله الله سببًا فى تفريج الكروب... ولذا أورد الإمام البخارى فى صحيحه حديثًا فى ذلك وبوّب له عنوانًا قال فيه: «باب إجابة دعاء مَن برَّ والديه».

قال ﷺ: بينما ثلاثة نفر يتماشون أخذهم المطر، فمالوا إلى غار فى الجبل، فانحطت على فم غارهم صخرة من الجبل فأطبقت عليهم.

فقال بعضهم لبعض: انظروا أعمالاً عملتموها لله صالحةً فادعوا الله بها لعلهُ يفرجُها. فقال أحدُهم: اللهم إنه كان لى ولدان شيخان كبيران، ولى صبية صغار كنتُ أرعى عليهم، فإذا رُحتُ عليهم فحلبت بدأت بوالدى أسقيهما قبل ولدى، وإنه ناء بى الشجر فما أتيت حتى أمسيت، فوجدتهما قد ناما، فحلبتُ كما كنت أحلب، فجئت بالحلاب فقمت عند رءوسهما، أكره أن أوقظهما من نومهما، وأكره أن أبدأ بالصبية قبلهما... والصبية يتضاغون عند قدمى ، فلم يزل ذلك دأبى ودأبهم حتى طلع الفجر ، فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرجْ لنا فرجة نرى منها السماء، ففرج الله لهم فرجة حتى يرون منها السماء....»(٣).

(١) الإصابة (١/ ٢٩٩).
(٢) سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٨٠) بتصرف.
(٣) أخرجه البخارى (١٠/ ٤١٨) (ح ٥٩٧٤) عن ابن عمر.

الفوز بدعوة الوالدين يجلب التوفيق فى الدنيا والنجاة فى الآخرة

رضا الرب فى رضى الوالدين

فقد قال ﷺ: «ثلاث دعوات لا تُرد: دعوة الوالد لولده...»(١).

فمن فاز بدعوة الوالدين فهو من الفائزين فى الدنيا والآخرة لأن النبى ﷺ قال: «رضا الرب فى رضا الوالدين وسخطه فى سخطهما»(٢)... ومن فاز برضا الله فهو الفائز ومن باء بسخط الله فهو الخاسر.

بر الوالدين سبب لسعة الرزق وزيادة العمر

قال ﷺ: «من سره أن يُعظم الله رزقه وأن يمدّ فى أجله فليصل رحمه»(٣).

وفى رواية للبيهقى: «فليبر والديه وليصل رحمه»... وبر الوالدين هو فى الحقيقة شكرٌ لله فهو القائل: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان:١٤]... فمن كان باراً بوالديه كان شاكرًا لهما ومن كان شاكرًا لهما كان شاكرًا لله ومن كان شاكرًا لله فهو من أهل الزيادة... فقد قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم:٧] ولن يُحرم العبد من المزيد حتى ينقطع من شكره لله ولوالديه.

بر الوالدين كفارة للكبائر

قال مكحول: «بر الوالدين كفارة للكبائر، ولا يزال الرجل قادرًا على البر ما دام فى فصيلته من هو أكبر منه»(٤).

وعن عطاء بن يسار عن ابن عباس أنه أتاه رجل فقال: (إنى خطبت امرأة، فأبت أن تنكحنى، وخطبها غيرى فأحبّت أن تنكحه، فغرت عليها فقتلتها، فهل لى من توبة؟ قال: أمك حية؟ قال: لا، قال: تُب إلى الله ـ عز وجل ـ وتقرب إليه ما استطعت، فذهبت فسألت ابن عباس: لِمَ سألته عن حياة أمه؟ فقال: إنى لا أعلم عملاً أقرب إلى الله ـ عز

(١) رواه الضياء عن أنس، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٠٣٢).

(٢) رواه الطبرانى فى الكبير عن ابن عمرو، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٥٠٧).

(٣) متفق عليه عن أنس ـ صحيح الجامع (٦٢٩١).

(٤) شرح السنة للبغوى (١٣/ ١٣).



وجل ـ من بر الوالدة)(١).

بر الوالدين يعدل الحج والعمرة والجهاد في سبيل الله!!

أقبل رجل إلى رسول الله ﷺ فقال أبايعك على الهجرة والجهاد أبتغي الأجر من الله تعالى. قال: «فهل من والديك أحدٌ حي؟» قال: نعم، بل كلاهما حي... قال: «فتبتغي الأجر من الله؟» قال: نعم. قال: «فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما»(٢)... قال الإمام النووي: في الحديث دليل لعظم فضيلة بر الوالدين، وأنه آكد من الجهاد. ا.هـ.

ولقد جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إني أشتهي الجهاد ولا أقدر عليه قال: «هل بقي من والديك أحد؟» قال: أمي. قال: «فاسأل الله في برها فإذا فعلت ذلك فأنت حاج ومعتمر ومجاهد»(٣).

بر الوالدين من أسباب حسن الخاتمة

نعم يا إخواني فإن بر الوالدين طاعة لله ـ جل وعلا ـ ولقد أجرى الله الكريم عادته بكرمه أنه من عاش على شيء مات عليه ومن مات على شيء بُعث عليه... فمن عاش على بر الوالدين يموت على تلك الطاعة لله ـ جل وعلا ـ وها هو شاب عاش على بر الوالدين فلما حضرته سكرات الموت جاء الناس يلقنونه الشهادة فكان يقول لهم: قولوا: لا إله إلا الله.

بر الوالدين سبب للفوز برحمة الله ومغفرته

فإن كان الله قد غفر لامرأة من البغايا لأنها سقت كلبًا فكيف بمن يكون بارًا بوالديه يقدم لهما الطعام والشراب ويحسن معاملتهما ويرحمهما... فقد قال ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمن تبارك وتعالى: ارحموا مَن في الأرض يرحمكم مَن في السماء»(٤).

* * *

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد.

(٢) أخرجه مسلم عن ابن عمرو (٤/ ١٩٧٥).

(٣) ذكره الهيثمي في المجمع (٨/ ١٣٨) عن أنس... وقال: رواه أبو يعلى والطبراني في الصغير والأوسط، ورجالهما رجال الصحيح غير ميمون ووثقه ابن حبان.

(٤) رواه أحمد والترمذي عن ابن عمرو ـ صحيح الجامع (٣٥٢٢).

بر الوالدين سبب لقبول الأعمال والتجاوز عن السيئات

قال تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ [الأحقاف: ١٥، ١٦].

بر الوالدين سبب لدخول الجنة

فعن طيسلة بن مياس قال: (كنت مع النجدات فأصبت ذنوبًا لا أراها إلا من الكبائر، فذكرت ذلك لابن عمر، قال: ما هي؟ قلت: كذا وكذا. قال: ليست هذه من الكبائر) إلى أن قال: (قال لي ابن عمر: أتفرق من النار ـ أي أتخاف من النار؟ وتحب أن تدخل الجنة؟ قلت: إي والله! قال: أحي والداك؟ قلت: عندي أمي، قال: فوالله لو ألنت لها الكلام، وأطعمتها الطعام، لتدخلن الجنة، ما اجتنبت الكبائر)(١).

بابان من الجنة لمن بر والديه!!!

روى البخاري (في الأدب المفرد) عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «ما من مسلم له والدان مسلمان يصبح إليهما محتسبًا إلا فتح الله له بابين ـ يعني من الجنة ـ وإن كان واحدًا فواحد، وإن غضب أحدهما لم يرض الله عنه حتى يرضى عنه، قيل: وإن ظلماه؟ قال: وإن ظلماه».

بر الوالدين بعد موتهما

إن بر الوالدين لا ينقطع أبدًا بموتهما... فعن أبي أسيد مالك بن ربيعة أنه قال: كنا عند النبي ﷺ، فقال رجل: «يا رسول الله! هل بقي عليَّ من برّ أبوي شيء بعد موتهما أبرهما به؟» قال: «نعم، خصالٌ أربع: الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما،

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد والطبري في تفسيره.

وإكرام صديقهما، وصلة الرحم التي لا رحم لك إلا من قبلهما»(١).

ومن البر بهما بعد موتهما: قضاء ولي الميت صوم النذر عنه.

قال ﷺ: «من مات وعليه صيام، صام عنه وليه»(٢).

ومن البر بهما بعد موتهما: التصدق عنهما.

فعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ: (أن رجلاً قال: «إن أمي افتُلتت نفسها ولم توص، وأظنها لو تكلمت تصدقت، فهل لها أجر إن تصدقت عنها ولي أجر؟» قال: «نعم، فتصدق عنها»)(٣).

فعلى الولد أن يكثر من الدعاء والاستغفار لوالديه وأن يتصدق عنهما وأن يحج عنهما بشرط أن يكون قد حج عن نفسه و.... بل عليه أن يجتهد في طاعة الله فإن ذلك كله من البر بوالديه؛ لأنه من سعي والديه فأجر تلك الطاعات يُكتب له ولوالديه... فقد قال ﷺ: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: ـ وذكر منهم ـ أو ولد صالح يدعو له»(٤).

إن أبر البر صلة الرجل أهل ود أبيه

فعن عبد الله بن دينار، عن عبد الله بن عمر أن رجلاً من الأعراب لقيه بطريق مكة فسلم عليه عبد الله، وحمله على حمار كان يركبه وأعطاه عمامة كانت على رأسه، فقال ابن دينار: فقلنا له: أصلحك الله! إنهم الأعراب وإنهم يرضون باليسير.. فقال عبد الله: إن أبا هذا كان وُداً لعمر بن الخطاب وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ أبرّ البر صلة الرجل أهل وُدّ أبيه». وفي رواية: «إنَّ من أبر البرّ صلة الرجل أهل وُدّ أبيه بعد أن يولي»(٥). وفي رواية: «احفظ ود أبيك لا تقطعه فيطفئ الله نورك».

وعن ثابت البناني عن أبي بردة قال: (قدمت المدينة، فأتاني عبد الله بن عمر، فقال: «أتدري لِمَ أتيتك؟» قال: قلت: «لا» قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أحب أن

(١) رواه أبو داود في الأدب ـ باب بر الوالدين (٥١٤٢) وإسناده ضعيف.
(٢) متفق عليه عن عائشة ـ صحيح الجامع (٦٥٤٧).
(٣) أخرجه الشيخان وأبو داود وأحمد عن عائشة.
(٤) أخرجه مسلم عن أبي هريرة ـ صحيح الجامع (٧٩٣).
(٥) أخرجه مسلم وأحمد عن ابن عمر ـ صحيح الجامع (١٥٢٥).

يصل أباه في قبره، فليصل إخوان أبيه من بعده»، وإنه كان بين أبي: (عمر)، وبين أبيك إخاء وود، فأحببت أن أصل ذلك»[١].

هكذا تكون زيارتك وصلتك بأصدقاء الوالد بعد موته هي في ذاتها صلة لأبيك في قبره... فاستمع لنداء الحبيب ﷺ واحفظ وُدّ أبيك لا تقطعه فيطفئ الله نورك[٢].

رضي الله عن حارثة وعن سائر الصحابة أجمعين

* * *

(١) رواه ابن حبان عن ابن عمر، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٩٦٠).
(٢) (وبالوالدين إحسانًا) للمصنف (ص ٣٥: ٤١) بتصرف.



معاوية بن أبي سفيان

اللهم اجعله هاديًا مهديًا واهده واهد به

اعتذار رقيق:

إننى عندما بدأت فى كتابة هذا الكتاب (أصحاب الرسول ﷺ) كان من بين هؤلاء الصحب الكرام الذين أردت أن أترجم لهم فى هذا الكتاب (معاوية رضى الله عنه) ولكن شاء الله عز وجل أن أنسى كتابة ترجمته وذلك لكثرة الصحابة الذين جمعت تراجمهم فى كتابى هذا... فخشيت أن يظن أحد أننى تعمدت أن لا أكتب ترجمة فى هذا الكتاب لهذا الصحابى الجليل فأسرعت فى هذه الطبعة بكتابة ترجمة خاصة به عسى الله أن يُلحقنا به وبسائر الصحابة وأن يجمعنا وإياهم مع الحبيب ﷺ فى جنته ومستقر رحمته.

ومن هنا نبدأ

وها نحن نتعايش بقلوبنا وأرواحنا مع واحد من هذا الجيل الفريد الذى لن يتكرر أبدًا مهما طال بنا الزمان... إنه خال المؤمنين، وكاتب وحى رسول الله ﷺ... الذى شاء الله عز وجل أن ينقطع أجله ولا ينقطع أجره، فلقد خاض فيه كثير من الناس وهم لا يعرفون قدره ومنزلته فجعل الله ذلك كله فى ميزان حسناته فرضى الله عنه وأرضاه.

وبطل قصتنا هذه عَلَمٌ من أعلام الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه فله تاريخ حافل بالبطولات والأمجاد... ولا شك أن سير هؤلاء الأبطال تصقل النفوس وتشرح الصدور لأننا نعيش فى زمان الغربة الحقيقية الثانية التى أخبر عنها الصادق المصدوق ﷺ، ولذلك فإننا إذا ذكرنا هؤلاء الصحب الكرام فإن القلوب تشتاق إلى أن ترجع إلى عهد الحبيب ﷺ لنعيش يومًا من أيامه مع أصحابه رضى الله عنهم.

فتعالوا بنا لنقترب أكثر من بطلنا الحبيب ولنعرف شيئًا من سيرته العطرة. إنه معاوية ابن أبى سفيان بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قُصى بن كلاب أمير المؤمنين

ملك الإسلام أبو عبد الرحمن القرشي الأموي المكي(١).

وأمه هي هند بنت عتبة بن ربيعة.

كان طويلاً أبيض جميلاً.

كانت أمه تشعر أنه سيكون سيداً.

عن أبان بن عثمان: كان معاوية وهو غلامٌ يمشي مع أمه هند، فعثر، فقالت: قُم لا رفعك الله، وأعرابي ينظر، فقال: لِمَ تقولين له؟ فوالله إني لأظنُّه سيسود قومه، قالت: لا رفعه إن لم يَسُد إلا قومه(٢).

متى أسلم؟

قال الإمام الذهبي: قيل: إنه أسلم قبل أبيه وقت عُمرة القضاء، وبقي يخاف من اللحاق بالنبي ﷺ من أبيه، ولكن ما ظهر إسلامه إلا يوم الفتح.

حدَّث عن النبي ﷺ، وكتب له مراتٍ يسيرة، وحدَّث أيضًا عن أُخته أم المؤمنين أم حبيبة، وعن أبي بكر، وعمر(٣).

وقال معاوية: لما كان عام الحديبية، وصدُّوا رسولَ الله ﷺ عن البيت، وكتبوا بينهم القضية، وقع الإسلام في قلبي، فذكرتُ لأمي، فقالت: إيَّاك أن تخالف أباك، فأخفيت إسلامي، فوالله لقد رحل رسولُ الله ﷺ من الحديبية وإني مُصدّقٌ به، ودخل مكة عام عُمرة القضيَّة وأنا مسلم. وعلم أبو سفيان بإسلامي، فقال لي يومًا: لكن أخوك خيرٌ منك وهو على ديني، فقلتُ: لم آلُ نفسي خيراً، وأظهرت إسلامي يوم الفتح، فرحَّبَ بي النبي ﷺ، وكتبت له(٤).

* * *

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ١١٩، ١٢٠).

(٢) ابن عساكر (١٦/ ٣٣٩/ أ) نقلاً من السير (٣/ ١٢١).

(٣) السير (٣/ ١٢٠).

(٤) السير (٣/ ١٢٢)، وابن عساكر (١٦/ ٣٣٩).

فى رحاب الحبيب ﷺ

وبعد ما أعلن معاوية رضى الله عنه إسلامه ظل ملازمًا للحبيب لينهل من النبع الصافى بعد ما عاش زمانًا طويلاً بعيداً عن هذا النور فأحب النبى ﷺ من أعماق قلبه بل وأحبه النبى ﷺ حتى قام مرة ودعا له تلك الدعوة المباركة فقال له ﷺ: «اللهم اجعله هاديًا مهديًا واهده واهدِ به»[١].

ويا لها من منقبة لا توازيها الدنيا بكل ما فيها. بل قال ﷺ: «اللهم علِّم معاوية الكتاب والحساب وقِه العذاب»[٢].

وعن ابن عمرو رضى الله عنهما أنه قال: «كان معاوية يكتب لرسول الله ﷺ»[٣].

وصية الحبيب ﷺ له

وفى يوم من الأيام يأخذ معاوية الإداوة ليكتب للنبى ﷺ كعادته فلما تبع بها رسول ﷺ رفع رأسه إليه وقال: «يا معاوية إن وليت أمرًا فاتق الله واعدل» فقال معاوية: فما زلت أظن أنى مبتلًى بعملٍ لقول رسول الله ﷺ حتى ابتُليت[٤].

وتمر الأيام الجميلة فى صحبة الحبيب ﷺ ... لكن دوام الحال من المُحال. فإذا بالحبيب يفارق الدنيا ويترك أصحابه فبكى أصحابه الدماء بدل الدموع على موته... وحزن معاوية رضى الله عنه على فراق الحبيب ﷺ حزنًا كاد أن يمزق قلبه.

الولاية على الشام

وتمر الأيام إلى أن يتولى عمر رضى الله عنه الخلافة وإذا به يستعين بخير الناس على الولاية فى كل بقعة من بقاع الدولة المسلمة. وكان ينتقى الولاة بكل دقة فكان من بين من اختارهم للولاية على الشام (معاوية) فولاه على الشام وأقرَّه عثمان رضى الله عنه.

---

(١) رواه الترمذى وابن عساكر وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (١٩٦٩).

(٢) رواه أحمد (٤/ ١٢٧) وفى إسناده: الحارث بن زياد الشامى، قال الحافظ فى التقريب: لين الحديث وباقى رجاله ثقات. وقال الذهبى: وللحديث شاهد قوى.

(٣) قال الأرناؤوط: رجاله ثقات ـ السير (٣/ ١٢٣).

(٤) رواه أحمد (٤/ ١٠١) وقال الأرناؤوط: رجاله ثقات.

قال الإمام الذهبي:

قلت: حسبُكَ بمن يؤمِّره عمر، ثم عثمان على إقليم، وهو ثغر، فيضبطه، ويقومُ به أتمَّ قيام، ويُرضي الناس بسخائه وحلمه، وإن كان بعضهم تألم مرةً منه، وكذلك فليكن الملك. وإن كان غيرُهُ من أصحابِ رسول الله ﷺ خيراً منه بكثير وأفضل وأصلح، فهذا الرجلُ ساد، وساس العالم بكمال عقله، وفرطِ حلمه، وسعَة نفسه، وقوة دهائه، ورأيه. وله هنَّات وأمور، والله الموعد.

وكان مُحبَّبا إلى رعيَّته. عمل على نيابة الشام عشرين سنة، والخلافة عشرين سنة، ولم يهجه أحد في دولته، بل دانت له الأمم، وحكم على العرب والعجم، وكان ملكه على الحرمين، ومصر، والشام، والعراق، وخراسان، وفارس، والجزيرة، واليمن، والمغرب، وغير ذلك[1].

قدره ومنزلته في قلوب الصحابة رضي الله عنهم

وتالله إنه لا يعرف قدر الرجال إلا الرجال... وهل هناك في الكون رجال أفضل من أصحاب الحبيب ﷺ الذين تربوا بين يديه؟!!

فعن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال: ما رأيت أشبه صلاة برسول الله ﷺ من أميركم هذا... يعني معاوية[2].

وعن علي بن أبي طالب قال: «لا تكرهوا إمرة معاوية فإنكم لو فقدتموه رأيتم الرءوس تندّ عن كواهلها»[3].

وعن كريب مولى ابن عباس: أنه رأى معاوية صلّى العشاء، ثم أوتر بركعة واحدة لم يزد، فأخبر ابن عباس فقال: أصاب، أي بُنيّ! ليس أحدٌ منا أعلم من معاوية، هي واحدة أو خمس أو سبع أو أكثر[4].

* * *

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٣٣).

(٢) قال الأرناؤوط: رجاله ثقات ـ السير (٣/ ١٣٥).

(٣) تاريخ الإسلام (٢/ ٣٧٨).

(٤) قال الأرناؤوط: رجاله ثقات ـ السير (٣/ ١٥٢).

إنفاقه

عن سعيد بن عبد العزيز، قال: قضى معاوية عن عائشة ثمانية عشر ألف دينار.

وقال عُروةُ: بعثَ معاوية مرةً إلى عائشة بمائة ألف، فوالله ما أمست حتّى فرّقتها(١).

جهاده فى سبيل الله تعالى

قال أحمد بن حنبل: فُتحت قَيسارية سنة تسع عشرة وأميرها معاوية(٢).

وقال زيد بن عبيدة: غزا معاوية قبرص سنة خمسٍ وعشرين(٣).

دفاع عن معاوية رضى الله عنه

ولما حدثت الفتنة بين على ومعاوية رضى الله عنهما وحدث بينهما ما حدث وكان كل واحد منهما لا يريد إلا وجه الله والدار الآخرة فمنهم من أصاب ومنهم من أخطأ... والمجتهد إذا أصاب فله أجران، وإذا أخطأ فله أجر. ونحن على يقين من أن أصحاب الرسول ﷺ كلهم عُدول لا يريدون الدنيا وزينتها الفانية ولا يطمعون فى شىء من حُطامها.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

«... ثم ما كان بينه، أى معاوية، وبين علىّ بعد مقتل عثمان، على سبيل الاجتهاد والرأى، فجرى بينهما قتال عظيم... وكان الحق والصواب مع على، ومعاوية معذور عند جمهور العلماء سلفًا وخلفًا، وقد شهدت الأحاديث الصحيحة بالإسلام للفريقين، كما ثبت فى الحديث الصحيح: «تمرق مارقة على خير فرقة المسلمين، فيقتلها أدنى الطائفتين إلى الحق» فكانت المارقة الخوارج، وقتلهم علىّ وأصحابه، ثم قُتِلَ علىٌّ، فاستقل معاوية بالأمر سنة إحدى وأربعين، وكان يغزو الروم فى كل سنة مرتين، مرة فى الصيف ومرة فى الشتاء، ويأمر رجلاً من قومه فيحج بالناس، وحجّ هو سنة خمسين، وحج ابنه يزيد سنة إحدى وخمسين، وفيها أو فى التى بعدها أغزاه بلاد الروم... فسار

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٥٤).
(٢) تاريخ دمشق لأبى زرعة (١/ ١٧٩).
(٣) تاريخ دمشق لأبى زرعة (١/ ١٨٤).

معه خلق كثير من كبراء الصحابة حتى حاصر القسطنطينية، وقد ثبت فى الصحيح: «أول جيش يغزو القسطنطينية مغفور لهم»(١).

قال الإمام الذهبى:

فنحمد الله على العافية الذى أوجدنا فى زمان قد انمحص فيه الحقُّ، واتَّضحَ من الطرفين، وعرفنا مآخذ كل واحد من الطائفتين، وتبصرنا، فعذرنا، واستغفرنا، وأحببنا باقتصاد، وترحَّمنا على البُغاة بتأويل سائغ فى الجملة، أو بخطأ إن شاء الله مغفور، وقلنا كما علَّمنا الله ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [الحشر:١٠] وترضَّينا أيضًا عمن اعتزل الفريقين، كسعد بن أبى وقَّاص، وابن عمر، ومحمد بن مسلمة، وسعيد بن زيد، وخلق. وتبرأنا من الخوارج المارقين الذين حاربوا عليًا، وكفَّروا الفريقين، فالخوارج كلابُ النار، قد مرقوا من الدين، ومع هذا فلا نقطع لهم بخلود النار، كما نقطع به لعبدة الأصنام والصلبان(٢).

وقال أيضًا معلقًا على تلك الفتنة التى حدثت بين على ومعاوية رضى الله عنهما:

«... فسبيلنا الكفُّ والاستغفار للصحابة ولا نحب ما شجر بينهم ونعوذ بالله منه ونتولى أمير المؤمنين عليًا»(٣).

وقال عن معاوية رضى الله عنه:

«ومعاوية من خيار الملوك الذين غلب عدلهم على ظلمهم، وما هو ببرىء من الهنات، والله يعفو عنه»(٤).

وحان وقت الرحيل

وتمر الأيام وتأتى اللحظة التى ينام فيها معاوية رضى الله عنه على فراش الموت.

قال محمد بن سيرين: جعل معاوية لما احتضر يضع خده على الأرض ثم يقلّب وجهه ويضع الخد الآخر ويبكى ويقول: اللهم إنك قلت فى كتابك:

---

(١) البداية والنهاية (٥/ ٦٢٩، ٦٣٠).

(٢) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٢٨).

(٣) سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٩).

(٤) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٥٩).

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء:٤٨].

اللهم اجعلني فيمن شئت أن تغفر له[١].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما احتضرَ معاوية، قال: إني كنت مع رسول الله ﷺ على الصفا، وإني دعوتُ بمشقص، فأخذتُ من شعره وهو في موضع كذا وكذا، فإذا أنا متُّ، فخُذُوا ذلك الشعر، فاحشُوا به فمي ومنخري[٢].

وعن عبد الأعلى بن ميمون بن مهران عن أبيه أن معاوية أوصى فقال:

كنت أوضئ رسول الله ﷺ، فنزع قميصه وكسانيه، فرفعته، وخبأت قُلامة أظفاره، فإذا متُّ، فألبسوني القميص على جلدي، واجعلوا القُلامة مسحوقة في عيني، فعسى الله أن يرحمني ببركتها[٣].

وقال أبو عمرو بن العلاء لما احتضر معاوية، قيل له: ألا توصي؟ فقال: اللهمَّ أقل العثرة، واعف عن الزلَّة، وتجاوز بحلمك عن جهل من لم يرج غيرك، فما وراءك مذهب. وقال:

هو الموت لا منجى من الموت والذي ... نُحاذر بعد الموت أدهى وأفظع[٤]

فرضي الله عنه وأرضاه وجمعنا به في جنته ودار كرامته

إنه ولي ذلك والقادر عليه

❊ ❊ ❊

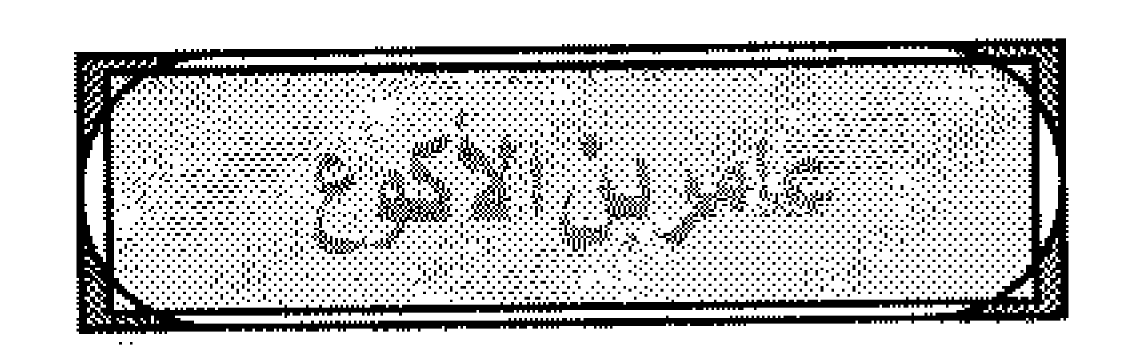
---

(١) البداية والنهاية (٥/ ٦٤٧).

(٢) رجاله ثقات خلا علي بن عاصم ـ وهو الواسطي ـ فإنه يخطئ ويصر على خطئه. وتقصيره عن رسول الله ﷺ شعره بمشقص ثابت عند البخاري (٣/ ٤٤٨، ٤٤٩)، ومسلم (١٢٤٦)، والمشقص: نصل السهم إذا كان طويلاً ليس بعريض.

(٣) تاريخ الإسلام (٢/ ٣٢٣)، وأنساب الأشراف (٤/ ١٥٣).

(٤) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٦٠).



إن له لأجرين... إنه لجاهد مجاهد قل عربي مشى بها مثله

محمد رسول الله ﷺ

هو عامر بن سنان بن عبد الله بن بشير الأسلمي المعروف بابن الأكوع، عم سلمة بن عمرو بن الأكوع، واسم الأكوع سنان، ويقال أخوه.

قال الحافظ ابن حجر في الإصابة: فيمكن التوفيق أن يكون أخاه من أمه على ما كانت الجاهلية تفعله أو من الرضاعة[1].

أسلم وامتلأ قلبه حبًا لله ولرسول الله ﷺ حتى نزلت تزكيته من فوق سبع سماوات على لسان الحبيب ﷺ فشهد له بالخير وبمضاعفة أجره عند موته، بل وفاز بدعاء الحبيب ﷺ له بالرحمة والمغفرة وكان الحبيب ﷺ إذا استغفر لرجلٍ مات شهيدًا في سبيل الله ـ جل وعلا ـ.

أسلم سالمها الله

* قال رسولُ الله ﷺ: «أَسْلَم سَالَمها الله، وغفَار غفَرَ اللهُ لها، أما إنِّي لم أقُلْها، ولكن قالها الله عزَّ وجلَّ»[2].

* والفارسُ اليوم؛ نستضيفُه منْ قبيلة أَسْلَم، هذه القبيلة المحبوبة منَ الله ورسوله؛ لأنَّها ما حاربتْ رسول الله ﷺ، بل جاءَتْ للإسلام طائعة، ولَمعَ كثيرٌ منْ أفرادها في عالم الصَّحابة الفُرسان الشُّجعان الميامين، منْ مثل: سَلَمة بن الأَكوع، وبُريدة بن الحُصيب، وربيعة بن كَعْب ـ رضي الله عنهم ـ وغيرهم ممن ملأت فضائلهم الدُّنيا، وكانت أعمالهم تعبقُ بالطِّيبِ على مرِّ الأيام، وكرِّ العصور.

* وفارسنا اليوم، رجلٌ آتاه الله عزَّ وجلَّ بسطةً في الجسمِ، وجمالاً في الصَّوت، فقد

---

(١) الإصابة للحافظ ابن حجر (٣/ ٤٧٢).

(٢) أخرجه البخاري ومسلم.

كان حَسَنَ الصوت، يرتجزُ لرسول الله ﷺ ، بل كان أحد حُداة رسول الله ﷺ ، الذين كانوا يَحْدُونَ بين يديه في السَّفَر؛ منهم: عبد الله بن رواحةَ الأنصاريّ، وسلمةُ بن الأكوع، وأنّجشَة، وغيرهم[1].

فاز بدعاء النبي ﷺ له بالرحمة والمغفرة

عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال:

«خرجنا مع النبي ﷺ إلى خيبر فسرنا ليلاً فقال رجل من القوم لعامر: يا عامر ألا تُسمعنا من هُنيهاتك؟ وكان عامر رجلاً شاعراً فنزل يحدو بالقوم يقول:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا
فاغفر فِداءً لك ما اتقينا ... وثبت الأقدام إن لاقينا
وألقين سكينة علينا ... إنا إذا صيح بنا أبينا
وبالصباح عولّوا علينا

فقال رسول الله ﷺ: «من هذا السائق؟» قالوا: عامر بن الأكوع، قال: «يرحمه الله» قال رجل من القوم: وجبت يا نبي الله، لولا أمتعتنا به، فأتينا خيبر فحاصرناهم حتى أصابتنا مخمصةٌ شديدةٌ، ثم إن الله تعالى فتحها عليهم فلما أمسى الناس مساء اليوم الذي فُتحت عليهم أوقدوا نيرانًا كثيرة فقال النبي ﷺ: «ما هذه النيران؟ على أي شيء توقدون؟» قالوا: على لحم قال: «على أيِّ لحم؟» قالوا: لحم الحُمُر الإنسية قال النبي ﷺ: «أهريقوها واكسروها» فقال رجل: يا رسول الله أو نهريقها ونغسلها قال: «أو ذاك» فلما تصاف القوم كان سيف عامر قصيراً فتناول به ساق يهودي ليضربه ويرجع ذُبابُ سيفه فأصاب عين رُكبة عامر فمات منه قال: فلما قفلوا قال سلمة: رآني رسول الله وهو آخذٌ بيدي قال: «ما لَكَ؟» قلت له: «فداك أبي وأمي، زعموا أن عامراً حبط عملهُ قال النبي ﷺ: «كَذَبَ من قاله إن له لأجرين ـ وجمع بين إصبعيه ـ إنه لجاهدٌ مجاهد قلَّ عربيٌّ مشى به مثْلَهُ»[2].

وفي رواية أخرى عن سلمة بن الأكوع ـ رضي الله عنه ـ قال:

---

(١) فرسان من عصر النبوة (ص:٧١٧).

(٢) أخرجه البخاري (٤١٩٦).

«...». فوالله ما لبثنا إلا ثلاث ليال حتى خرجنا إلى خيبر مع رسول الله ﷺ قال: فجعل عمي عامر يرتجز بالقوم:

تالله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

ونحن عن فضلك ما استغنينا فثبت الأقدام إن لاقينا

وأنزلن سكينة علينا

فقال رسول الله ﷺ: «من هذا؟» قال: أنا عامر. قال: «غفر لك ربك» قال: وما استغفر رسول الله ﷺ لإنسان يخصه إلا استشهد. قال: فنادى عمر ابن الخطاب وهو على جمل له: يا نبي الله! لولا ما متعتنا بعامر؟ قال: فلما قدمنا خيبر خرج ملكهم مرحب يخطر بسيفه ويقول:

قد علمت خيبر أني مرحب شاكي السلاح بطل مجرب

إذا الحروب أقبلت تلهب

قال: وبرز له عمي عامر فقال:

قد علمت خيبر أني عامر شاكي السلاح بطل مغامر

قال: فاختلفا ضربتين فوقع سيف مرحب في ترس عامر وذهب عامر يَسْفُلُ له فرجع سيفه على نفسه فقطع أكحلهُ فكانت فيها نفسه. قال سلمة: فخرجت فإذا نفرٌ من أصحاب النبي ﷺ يقولون: بطل عمل عامر قتل نفسه قال: فأتيت النبي ﷺ وأنا أبكي فقلت: يا رسول الله! بطل عمل عامر؟ قالَ رسول الله ﷺ: «من قال ذلك» قال: قلت: ناس من أصحابك قال: «كذب من قال ذلك، بل له أجره مرتين»[1].

فيا لها من منقبة عظيمة أن يشهد له الحبيب ﷺ بتلك الشهادة.

فرضي الله عن عامر وعن سائر الصحابة أجمعين

* * *

(١) أخرجه مسلم (١٨٠٢) (١٨٠٧).

فهرس موضوعات الجزء الأول